

عبد المنعم الهاشمي

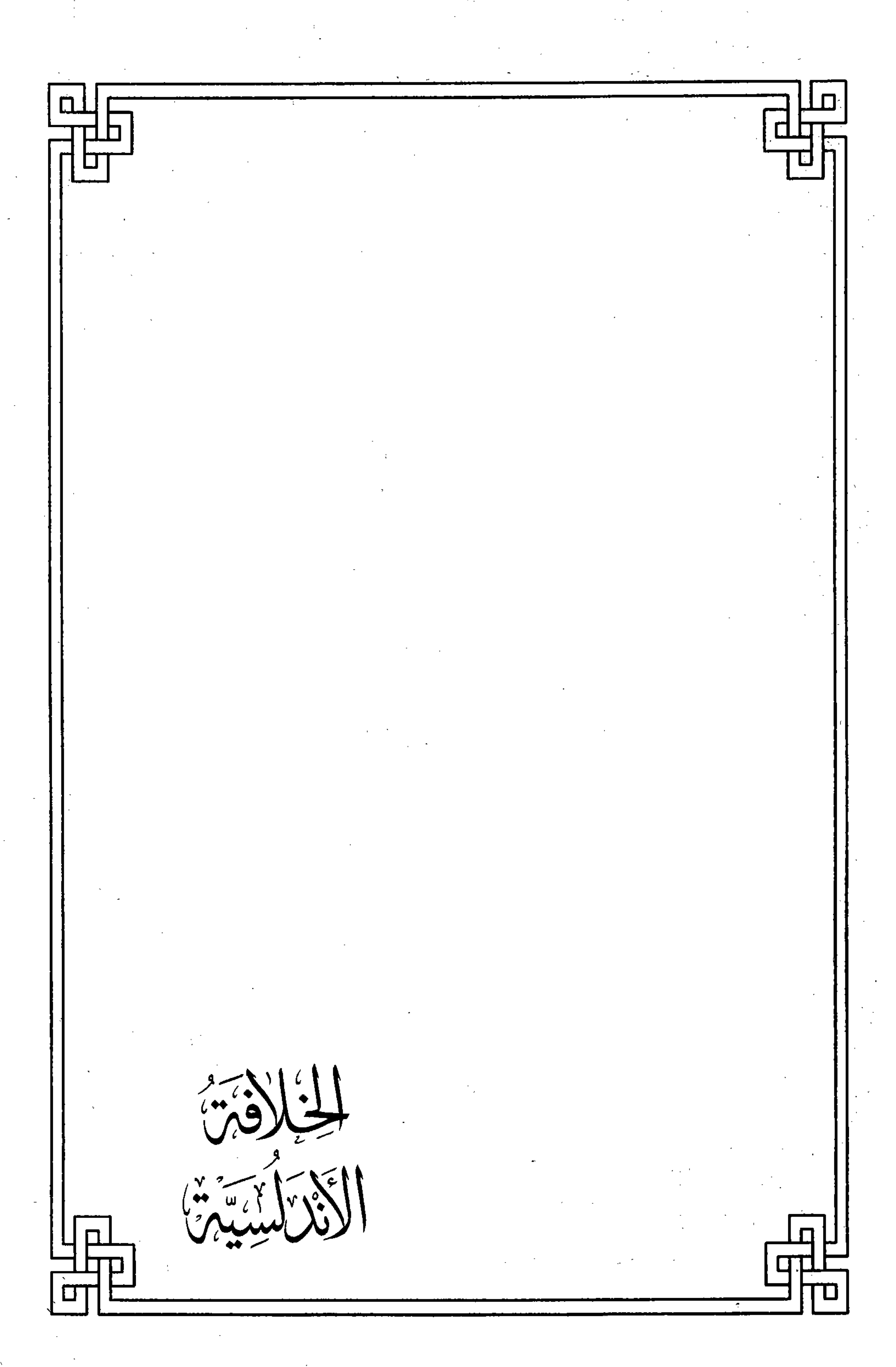
دار ابن حزم

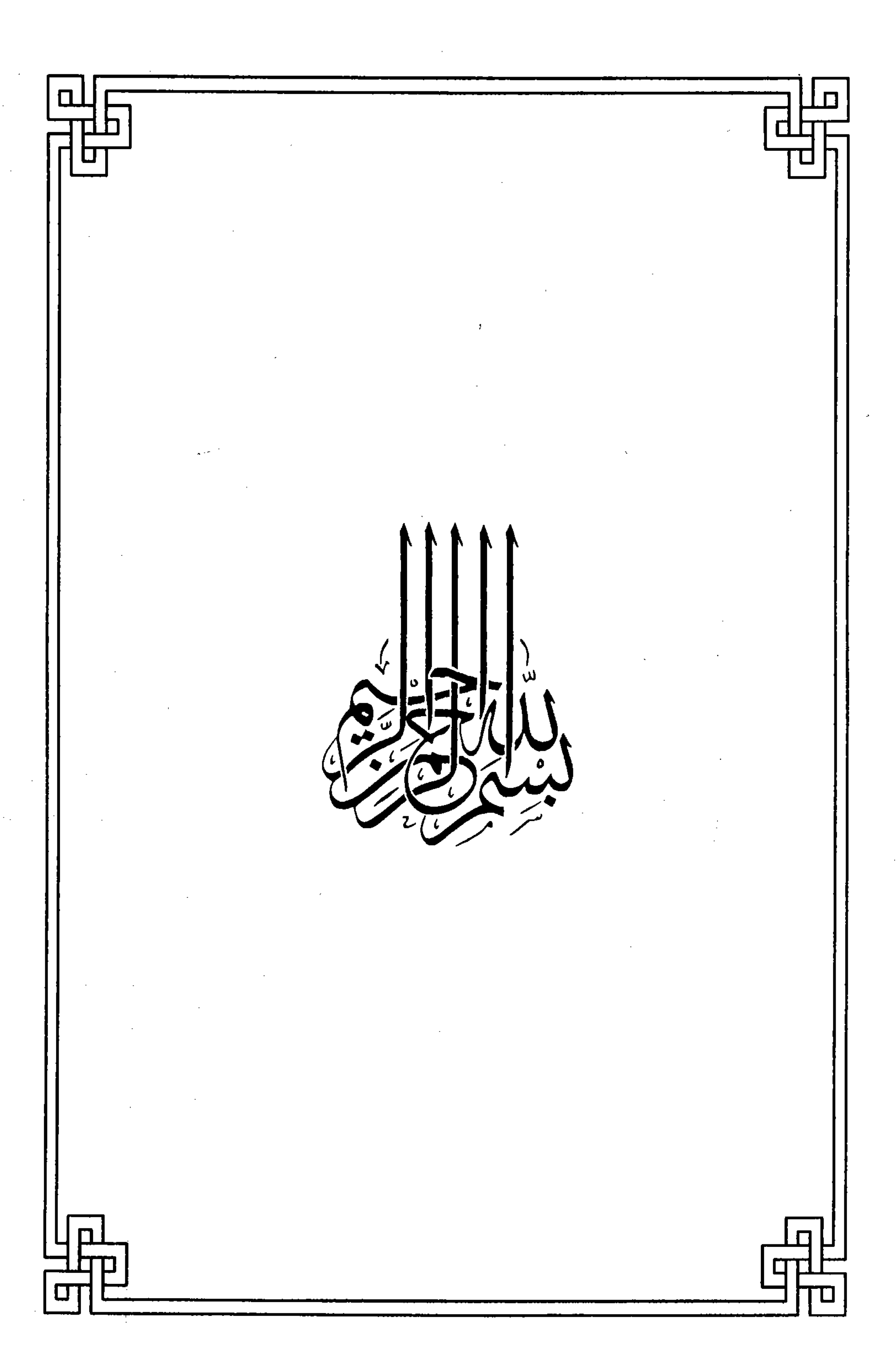
الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

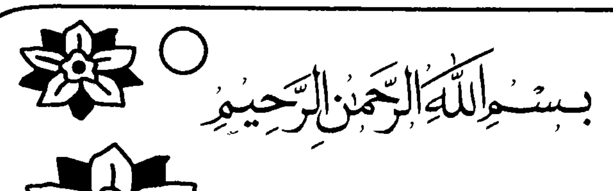
ISBN 978-9953-81-457-5

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb


الخلافة
الأندلسية


بسم الله الرحمن الرحيم



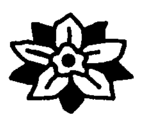
إهداء

إلى الذين تركوا الديار، وخاضوا الغمار، ولم تُرهبهم الأخطار. إلى الذين حملوا لواء الدعوة إلى بلاد الدنيا والجمال والفتنة، ولم يفتتنوا، ولم يهنوا، ولم يحزنوا في سبيل رفع راية الإسلام ولواء الخلافة في بلاد الأندلس، أهديهم شغف أجيال كثيرة بتاريخهم المشرق، أحبّت قراءته وظلّت تحلم بتكرار، ولكن الحلم البعيد، والأمل في نصرة الإسلام قريب.

عبدالمنعم الهاشمي

القاهرة، هاتف/ ٦٣٣٨٩٨٥ - منزل

محمول/ ٠١٠٦٣٣١١٩٠











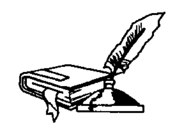
مقدّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. . . وبعد:

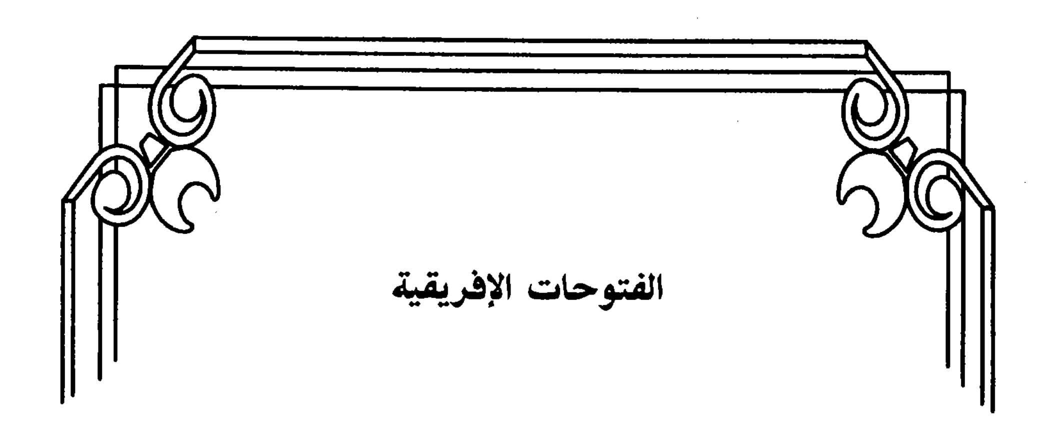
فإن الحديث عن الخلافة في بلاد الأندلس، يختلف عن تاريخ الأندلس، فالخلافة في الأندلس هي ما نهض به الأمويون هناك لرفع راية الإسلام، أما التاريخ فله روافد عديدة ومصبّات كثيرة، منها نهوض الدويلات وسقوطها، وصعود الشخوص وهبوطها، وعجلة التاريخ في الأندلس كانت كتوابع الزلازل لها التأثير تلو التأثير، لذلك فقد كتبنا عن الخلافة ولم نكتب عن التاريخ بعد، تحية لعصر الخلافة الأندلسية المشرق، وحسرة على سقوطها بين فكَّيْ الفتن والأهواء.

عبدالمنعم الهاشمي

القاهرة في عام ٢٠٠٥







الفتوحات الإفريقية

كانت الفتوحات الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب قد آتت ثمارها في آسيا في بلاد فارس والعراق وبلاد الشام، وخلال هذه الفتوحات والحروب استطاع العرب كسر شوكة الفُرس وإدخالهم الإسلام وضرب المجوسية في هذه البلاد، وفي الشام واجه المسلمون الروم واستطاعوا طردهم منها، ثم افتتح العرب مصر بعد الشام، وكانت مصر ولاية رومانية، وكان افتتاحها في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، على يد عمرو بن العاص، وذلك في المحرم سنة ٢٠ من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٤٠م).

ولما كانت مصر تتصل بما يحدها من الغرب وهي ولايات خاضعة للدولة الرومانية، هي الولايات الإفريقية، ولذلك فقد اتخذ العرب مصر قاعدة للانطلاق إلى إفريقيا غرباً، وذلك تثبيتاً وتوطيداً لسلطانهم في مصر والشام وإتماماً لسلسلة الفتوحات الغربية، غير أن تقدمهم نحو الغرب كان محفوفاً بمشاق وصعاب لم يألفوها في فتوحهم الأولى، فقضوا زهاء نصف قرن في معارك عنيفة مع الروم (الرومان) والبربر، وأصيبوا إلى جانب انتصاراتهم بأكثر من هزيمة شديدة، وواجهوا عدّة ثورات محلية عنيفة، وانهار سلطانهم الفَتِيّ غير مرة قبل أن يستقر نهائياً في إفريقية[1].

ولكن المتأمل لبدء فتوحات هذه البلاد وأحداثها يجد أن هذا الفتح

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، دكتور محمد عبدالله عنان، ص١٥، العصر الأول، القسم الأول، ط. الخانجي مصر.

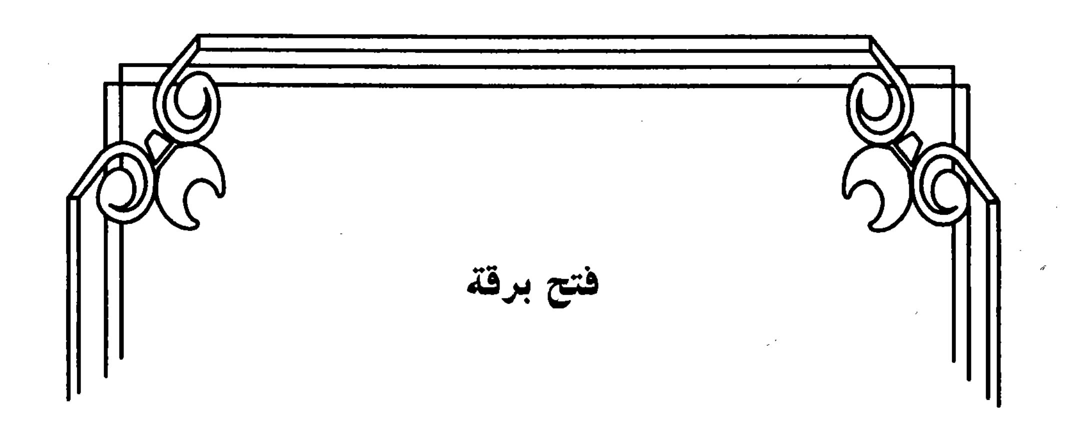
كان هدفاً لقائد فتح مصر عمرو بن العاص وكأنه كان على علم بهذه الفتوحات وخطة السير فيها قبل البدء، فها هو عمرو بن العاص وقبل أن ينتهي من فتح مصر تماماً يبادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة[1].

ويقول مؤرخ آخر وهو ابن عذارى: «إنّ أول من دخل إفريقيا غازياً في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عمرو بن العاص، وكان استفتح مصر سنة ٢٠ من الهجرة، ووجّه منها عقبة بن نافع الفهري إلى لوبية (ليبيا) وإفريقية فافتتحهما»[2].



(١) تاريخ المغرب الكبير، ج٢، ص١٤٢.

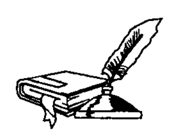
(٢) البيان المغرب لابن عذارى ٨/١.



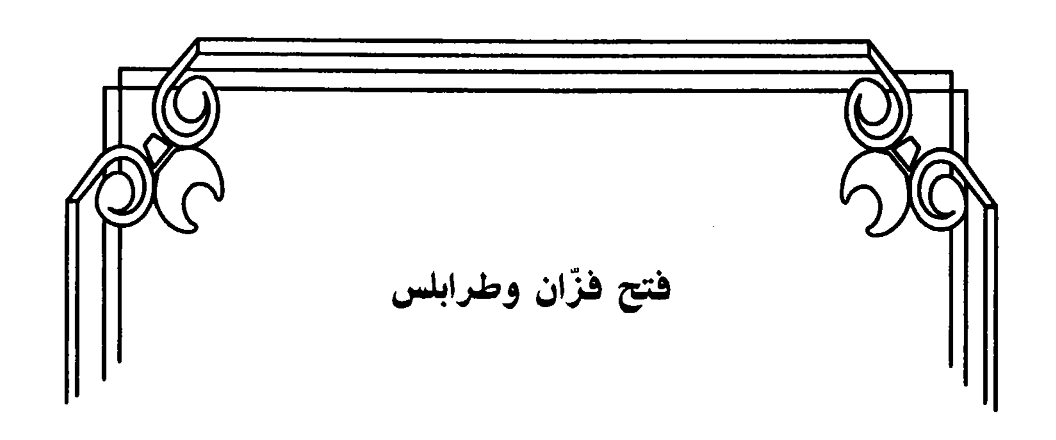
فتح برقة

سار عمرو بن العاص على رأس جيش كبير حتى وصل إلى برقة، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواته. وكانت قبيلة لواته ساخطة على البيزنطيين لتعسفهم وظلمهم خاصة من نظام جباية الضرائب، فأرادوا التخلص من البيزنط، وعلى وجه الخصوص عندما سمعوا بانتصار المسلمين في الشام ومصر، فتمنوا الخلاص على يد المسلمين العرب الفاتحين.

وكان من الطبيعي أن يبادر أهل برقة بتقديم فروض الولاء والطاعة للجيش العربي الفاتح، ويستسلمون للعرب طواعية فيصالحهم عمرو على جزية يؤدونها وهي دينار على كل حالم (أي بالغ)[١].



(١) المصدر السابق ٨/١.



فتح فزّان وطرابلس

أتمّ عمرو بن العاص فتح برقة، فكان عليه أنْ يفكر في فتح فزّان وطرابلس، ولما وجد فاصلاً كبيراً بينهما، فطرابلس على ساحل البحر، وفزّان واحة في جوف البلاد وهي في طريقه قبل طرابلس، ففتْح هذه الواحة يؤمِّن طريقه إلى طرابلس. وكانت فزّان واحة كبيرة تُعد من أهم واحات ليبيا، فجهز عمرو جيشين: الأول لفتح طرابلس والثاني لفتح واحة فزّان، فجهز عمرو جيشاً بقيادة عقبة بن نافع القائد المخضرم، ووجهه إلى فزّان، فافتتحها، ثم واصل الزحف حتى وصل إلى زويلة، وتكللت جهود عقبة بالنجاح، حيث اطمأن إلى أن أهل الواحات لا خوف منهم، وضمن عمرو بن العاص إدخال هذه الواحات في طاعته.

وبينما كان عمرو بن العاص يراقب فتح عقبة بن نافع لفزّان، كان يجهز جيشاً ثانياً لغزو طرابلس، فاتجه إلى مدينة سرت، فاستولى عليها، ثم توجه نحو لبدة فوجدها مدينة قليلة العمران وسرعان ما استسلم أهلها بغير قتال، ثم سار حتى بلغ طرابلس، وكانت مدينة عامرة حصينة يحميها سور من جميع الجهات إلا الجهة الشمالية المطلّة على البحر، فلم يضرب عليها سور حتّى تتلقى المعونات من البحر. ثم افتتحها بعد أن حاصرها شهراً فامتنعت عليه وقاومته، ويذكر ابن عذارى أن أهل طرابلس استعانوا بقبيلة نفوسة البربرية إذ كانوا دخلوا معهم في دين النصرانية[١].

(١) البيان المغرب ١/٨.

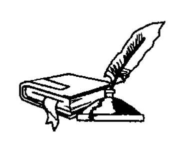
ويقول المؤرخون[1] عن فتح طرابلس: «سار عمرو بن العاص حتى نزل طرابلس في سنة اثنتين وعشرين فقوتل، ثم افتتحها عنوة، وأصاب بها أحمال بزيون كثيرة مع تجار من تجارها، فباعه وقسّم ثمنه بين المسلمين».

ومن مرويات فتح طرابلس يقول ابن عبدالحكم[2]: «إن رجلاً من بني مدلج خرج يصطاد ومعه سبعة رجال وأصابهم البحر، فأُخذوا على ضفة البحر، فوجدوا البحر قد انحسر عن المدينة، ووجدوا طريقاً إلى المدينة، فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة، وكبَّروا، فلم يكن للروم مفزع إلاّ سفنهم، وأبصر عمروٌ وأصحابه المدلجيَّ وأصحابه داخل المدينة، فأقبل بجيشه حتى دخل المدينة، فلم تفلت الروم إلاّ بما خفّ لهم من مراكبهم، وغنم عمرو ما كان في المدينة».

وفُتحت طرابلس المدينة الحصينة على يد عمرو بن العاص بعد أن قاومته قرابة شهر مستعينة بالقبائل البربرية.

ولما استقر فتح طرابلس، جهز عمرو بن العاص جيشاً من ليلته، وأمر بالإسراع في السير فصبَّحَتْ خيله مدينة سرت، وهم غافلون، وقد فتحوا أبواب المدينة حتى تسرح ماشيتهم، فدخلوها، فلم ينجُ منهم أحد، واستولى عمرو على ما فيها[3].

وفي أثناء حصار عمرو لطرابلس، أرسل قائده بسر بن أرطأة إلى ودان فافتتحها، وكان ذلك في عام **٢٣**هـ /**٦٤٤**م وبذلك أمَّن طريقه باستيلائه على سرت وودان.

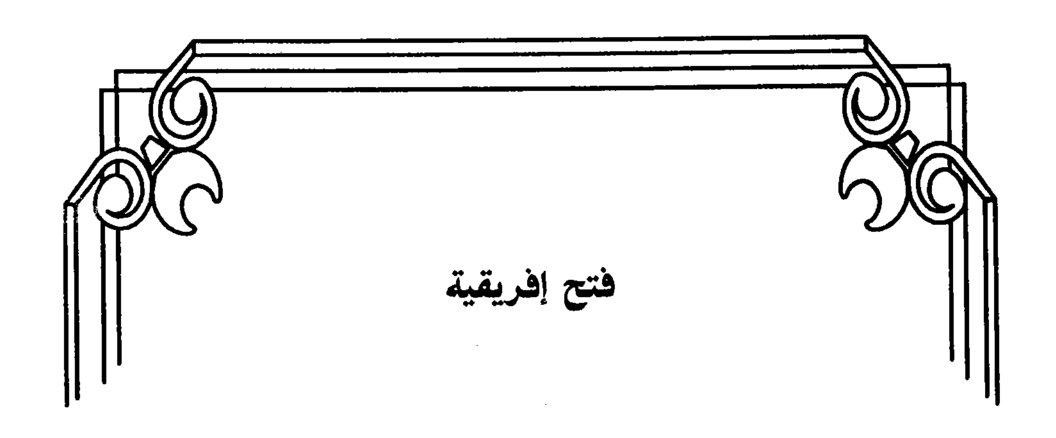


---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٢٧.

(٢) فتوح مصر والمغرب، ص١٧١.

(٣) الكامل لابن الأثير، ج٣، ص١٦.



فتح إفريقية

أراد عمرو بن العاص أن يفتح إفريقية، ولكي يحقق هذا الهدف أرسل يستأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في فتح إفريقية، فكتب إليه يقول:

«إنّا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين إفريقية تسعة أيام، فإذا رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في غزوها فعلت».

فأجابه عمر بالرفض ونهاه عن غزوها قائلاً: «ما هي بإفريقية، ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها»[١]، ويقول المؤرخون[٢]: إن عمر علم بأن أهل إفريقية غدروا قبل ذلك فأحجم عن غزو إفريقية، وذلك لأن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً، فكانوا يغدرون به كثيراً، وكان ملك الأندلس صالحهم، ثم غدر بهم، وكان خبرهم قد بلغ عمر.

نفَّذ عمرو بن العاص أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما أمره بالانصراف عن إفريقية، فأمر عمرو العسكر بالرحيل قافلاً إلى مصر[٣].

ولما استشهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وولي الخلافة عثمان بن عفان كان أول عمل قام به هو عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولّى مكانه عبدالله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٥هـ /٦٤٥م[٤].

---

(١) فتوح البلدان، ص٢٢٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) البيان المغرب ٨/١.

(٤) أزمنة التاريخ الإسلامي، د. شاكر مصطفى وآخرين.

ولما وُلِيَ عبدالله بن سعد مصر والمغرب، بدأ يرسل قوات لتقوم بغارات على إفريقية، وقد أصابوا منها وغنموا، وجاء الأمر من عثمان بعد أن استشار أصحابه بفتح إفريقية، وكتب إلى عبدالله بن سعد في سنة ٢٧هـ/ ٦٤٨م يأمره بغزوها، ولكي يؤكد هذا العزم أمدّه بجيش عظيم، كان فيه عدد كبير من أبناء الصحابة، منهم: عبدالله بن الزبير، والمسور بن مخرمة، وعبدالرحمٰن بن زيد بن الخطاب، وعبدالرحمٰن بن أبي بكر، وعبدالله بن عمر بن الخطاب وإخوته عاصم وعبيدالله، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وبسر بن أرطأة، ومعبد بن العباس بن عبدالمطلب. وكان قوام هذا الجيش العظيم عشرون ألفاً من الرجال الأشداء معظمهم من الفرسان[١].

وقد أَمَدَّ عثمان المسلمين في هذا الجيش بألف بعير، يحمل عليها ضعفاء الناس، وفتح بيوت السلاح التي كانت للمسلمين، وذلك في المحرم من سنة ٢٧هـ /٦٤٨م، فجهَّز الناس وعسكروا، وقام فيهم خطيباً، فوعظهم وذكّرهم وحرّضهم على الجهاد، ثم قال: «وقد عهدت إلى عبدالله بن سعد أن يحسن صحبتكم، ويرفق بكم، وقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على ابن أبي السرح، فيكون الأمرُ له»[٢].

سار عبدالله بن سعد نحو إفريقية، وبثّ سراياه في كل ناحية، وكان ملكهم اسمه «جرجير»، ومُلكه يبدأ من طرابلس وينتهي في طنجة، وكان هرقل ملك الروم قد ولاّه إفريقية، فهو يحمل إليه الخراج كل سنة، فلما بلغه خبر المسلمين تجهّز وجمع العساكر وأهل البلاد، فبلغ عسكره مئة ألف وعشرون ألف فارس، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين سبيطلة يوم وليلة، وهذه المدينة كانت في ذلك الوقت دار الملك، فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم[٣].

وراسله عبدالله بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، فامتنع منهما،

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس، د.حسين مؤنس، ص٣٢.
(٢) البيان المغرب ٩/١.
(٣) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج٣، ص٤٣، ٤٤.

وتكبَّر عن قبول إحداهما، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان، فسيّر عبدالله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بخبرهم، فسار مجدًا، ووصل إليهم، وأقام معهم، فلمّا وصل إليهم كثر الصياح والتكبير بين المسلمين، فسأل «جرجير» عن الخبر، فقيل: قد أتاهم عسكر، ففتّ ذلك في عضده.

ورأى عبدالله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من الصباح الباكر حتى الظهر، فإذا أُذِّن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد، فلم يَر ابن أبي السرح معهم، فسأل عنه، فقيل إنه سمع منادي جرجير يقول: مَن قتل عبدالله بن سعد فله مئة ألف دينار، وأزوجه ابنتي، وهو يخاف، فحضر عنده وقال له: تأمر منادياً ينادي من أتى برأس جرجير نفلته مئة ألف، وزوّجته ابنتك، واستعملته على بلاده، ففعل ذلك، فصار جرجير يخاف أشد من عبدالله[1].

فكّر عبدالله الزبير قليلاً ثم قال لعبدالله بن سعد: إنّ أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم أمداد متصلة، وبلادهم هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن تترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أَنْ يضجروا ويملّوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين، ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة، فلعل الله ينصرنا عليهم[2].

أحضر عبدالله بن سعد جماعة من أعيان الصحابة، واستشارهم فيما قاله عبدالله بن الزبير عن تقسيم الجيش إلى قسمين، قسم يحارب إلى الظهيرة، يتبعه القسم الثاني فيهاجم في الظهيرة. فوافقوه على ذلك.

فلما كان الغد فعل عبدالله ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون، فقاتلوا

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الكامل في التاريخ، ج٣.

الروم إلى الظهر قتالاً شديداً، فلما أذّن للظهر هَمَّ الروم بالانصراف على العادة، فلم يمكنهم ابن الزبير، وألَحَّ عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً.

فعند ذلك أخذ عبدالله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين، وقصد الروم، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبَّروا، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقتل جرجير ـ قتله ابن الزبير ـ، وهُزمت الروم هزيمة قاسية، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأُخذت ابنة الملك جرجير سبية، ونزل عبدالله بن سعد المدينة، فحاصرها حتى فتحها[١].

وأصاب عبدالله بن سعد سبياً وأموالاً لا يحيط به الوصف، وكان الذهب والفضة هما أكثر أموالهم، فكانت توضع بين يديه أكوام الذهب والفضة، وسأل عبدالله بن سعد بعض الأفارقة: من أين لكم هذه الأموال؟ فجاءه أحدهم بنواة زيتون، فقال: «من هذا أصبنا أموالنا، لأن أهل البحر والجزر ليس لهم زيت، فكانوا يمتارُون من هنا»[٢] فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار عيناً، وسهم الراجل ألف دينار[٣].

أحسّ الروم بالذل والصغار بعد هذه الوقعة، فطلبوا من عبدالله بن سعد أن يقبل منهم ثلاثمائة قنطار من الذهب كل سنة على أن يتركهم، ويخرج من بلادهم، فقبض المال وخرج من ديارهم.

ثم طلب عبدالله بن سعد الصحابي الجليل عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، وقال له: بشِّر أمير المؤمنين بالفتح والنصر، فخرج عبدالله بن الزبير من سبيطلة وسار حتى دخل المدينة في أربعة وعشرين يوماً، وكانت إقامته بإفريقية سنة وشهرين[٤].

---

(١) المصدر السابق، ج٣، ص٤٣، ٤٤.

(٢) ابن عذارى المراكشي في البيان المغرب ١٢/١.

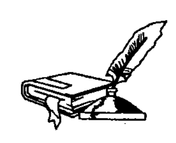
(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

غنم عبدالله بن سعد من فتحه إفريقية مغانم كثيرة، وتذكّر أمر عثمان ـ رضي الله عنه ـ الذي أمره فيه بغزو إفريقية وقال له فيه: «إن فتح الله عليك غداً إفريقية فلك مما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة نفلاً»، فخرجوا حتى أمعنوا في إفريقية، وقتل جرجير، واجتمعوا على الإسلام، وحسنت طاعتهم، وقسَّم عبدالله بن سعد ما أفاء الله عليهم على الجند، وأخذ خمس الخمس، وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان مع «ابن وثيمة النَّصري»، وضرب فسطاطة في موضع القيروان[1].

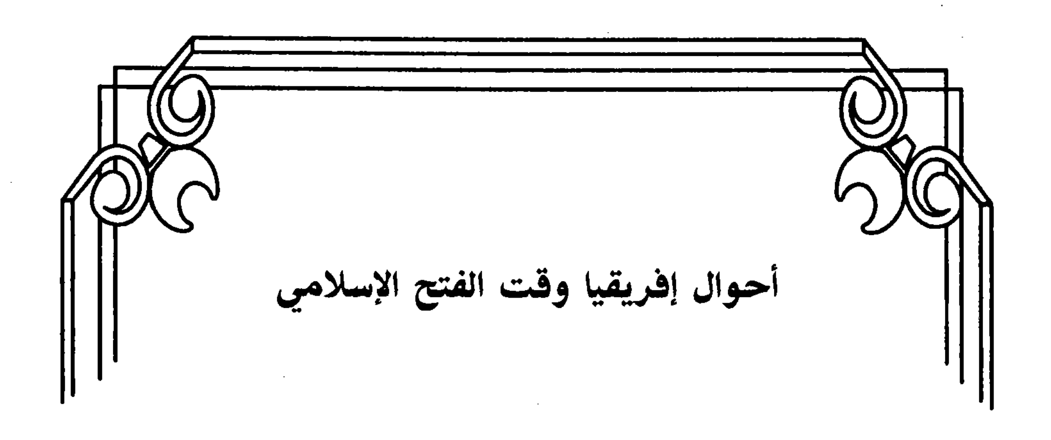
وجاء وفد إلى أمير المؤمنين عثمان فشكوا عبدالله بن سعد فيما أخذ من نفل وأموال، فأجابهم عثمان قائلاً: أنا نفلته إياه، وكذلك كان يصنع، وقد أمرتُ له بذلك، وذاك إليكم الآن، فإذا رضيتم فقد جاز، وإن سخطتم فهو ردّ.

قالوا: فإنا نسخطه، قال: فهو رد، وكتب إلى عبدالله بن سعد بِرَدِّ ذلك واستصلاحهم، قالوا: فاعزله عنا، فإنا لا نريد أن يتأمَّر علينا وقد وقع ما وقع، فكتب إليه عثمان أن استخلِف على إفريقيا مَنْ ترضى ويرضون، وأَقْسِم الخمس الذي نفلتك في سبيل الله، فإنهم قَدْ سخطوا النفل، فاستجاب عبدالله بن سعد، ورجع إلى مصر، وقد كانَ لَهُ فَتْح إفريقية.



---

(١) تاريخ الطبري، ج٤، ص٢٥٣.



أحوال إفريقيا وقت الفتح الإسلامي

كانت إفريقيا منذ زوال قرطاجنة القديمة، في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن الخامس بعده، ولاية رومانية تخضع لسلطة روما أولاً، ثم بعد سقوطها لسلطة قسطنطينية أو الدولة الرومانية الشرقية[1]؛ ولما غزت القبائل الجرمانية روما واستولت على معظم أقطار الدولة الرومانية الغربية، نفذ الوندال إلى غاليا أوغاليس (جنوبي فرنسا) ثم إلى إسبانيا، واستقر الوندال حيناً في جنوب إسبانيا في ولايات الأندلس التي سميت يومئذ باسمهم «ڤاندليتا» أو «ڤاندلوسيا» أي بلد الوندال[2].

وكان البربر أو سكان إفريقيا قبل الفتح الروماني وثنيون، ولكن استطاعت روما منذ أوائل القرن الرابع، أن تفرض النصرانيَّة على معظم القبائل.

يقول أحد المؤرخين[3]: إن القبائل البربرية كانت وقت الفتح الإسلامي تدين باليهودية، وإنهم تلقوها منذ أقدم العصور عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام. وسلطانُه منهم، وكان من هؤلاء قبائل جبل أوراس وملكتهم الكاهنة.

---

(١) د. محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول، ص١٦ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق، ص١٧.

(٣) ابن خلدون في تاريخ، ج٦، ص١٠٧.

وكان الفتح الروماني شديد الوطأة على القبائل المغلوبة، وكانت النظم الإدارية والمالية التي فرضتها عليهم روما غاية في التعسف والشطط مع ما يرتبط بها من جباية الضرائب والمغارم الفادحة التي تُثقل كاهلهم، ولذلك فقد كان البربر يتوقون إلى التخلص من نيرها، وقد نزعوا فعلاً إلى الثورة في عهد الإمبراطور «تيودوسيوس» في أواخر القرن الرابع عشر ونادوا بأحد زعمائهم ملكاً عليهم، ولكن الثورة أخفقت وأُخمدت.

ولما انتقلت إفريقية إلى سلطان قسطنطينية بعد سقوط روما، كانت قد اضمحلت ثروتها، واضطربت نظمها، ومزقتها الخلافات الدينية، وضعف سلطان الدولة عليها، وكثر الخوارج من الحكام والزعماء المحليين. وفي أوائل القرن الخامس، عَبَرَ الوندال البحر من إسبانيا إلى إفريقيا بقيادة ملكهم جنسريك، وافتتحوها في سنة ٤٢٩م وعاونهم البربر حُبّاً في التخلص من نير وظلم روما، ولكن الوندال عاثوا في إفريقيا فساداً، فخربوا المدن والمنشآت الرومانية، واستقروا سادة في البلاد المفتوحة لمدة قرن عانى فيه البربر أشد صنوف الظلم والطغيان، وفي سنة ٥٣٤م بعث يوستنيان، إمبراطور (قيصر) الدولة الشرقية، بعث قائده الشهير بليزاريوس إلى إفريقية على رأس جيش ضخم فافتتحها وحطّم سلطان الوندال وأجلاهم عنها؛ ومنذ ذلك الحين عادت إفريقية إلى سلطان الدولة الشرقية، وظلت كذلك حتى الفتح الإسلامي[١].

في تلك الأيام كانت إفريقية في حال يرثى لها من الضعف والانحلال والتفكك. يسود الاضطراب نظمها وإدارتها، وتمزقها الأهواء والمطامع والفتن؛ وكذلك عصور من الطغيان والجور والمصادرة قد عصفت بمواردها، ولكن الثروات كانت مع ذلك تتكدس في بعض الثغور والمدن، وكانت الدولة الشرقية قلما تعنى بإصلاح هذه الأقطار وإعداد وسائل الدفاع عنها، وإنما كانت ترى فيها قبل كل شيء مورداً للكسب على نحو ما

---

(١) د. عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص١٨.

قدّمنا، فكان البربر على استعداد للتخلص من هذا النير المرهق، ومعاونة الفاتحين الجدد.

وقد شغل العرب حيناً عن متابعة الفتح حينما عصفت ريح الفتنة والتفرقة بالخلافة الإسلامية، ونشب الخلاف بين علي بن أبي طالب، الذي ولّي الخلافة على إثر مقتل عثمان في مستهل سنة **٣٥**هـ (**٦٥٥**م) وبين خصمه ومنافسه القوي معاوية بن أبي سفيان والي الشام، واضطرمت ثورة الخوارج التي كادت أن تزعزع أسس الدولة الإسلامية الناشئة، وشغلت جزيرة العرب عدّة أعوام بتلك الحوادث والفتن الداخلية، وكان مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سنة **٤٠**هـ خاتمة هذه الأحداث المؤسفة، وظلت ظلال هذا الحادث تخيِّم على مسيرة الدولة الإسلامية لعدة سنوات مقبلة، إلاّ أنّه لما آلت الخلافة لمعاوية، وقامت الدولة الأموية في الشام، تَفَتَّحَتْ أبواب العصر المُشْرق للإسلام في الشرق والغرب[(١)].

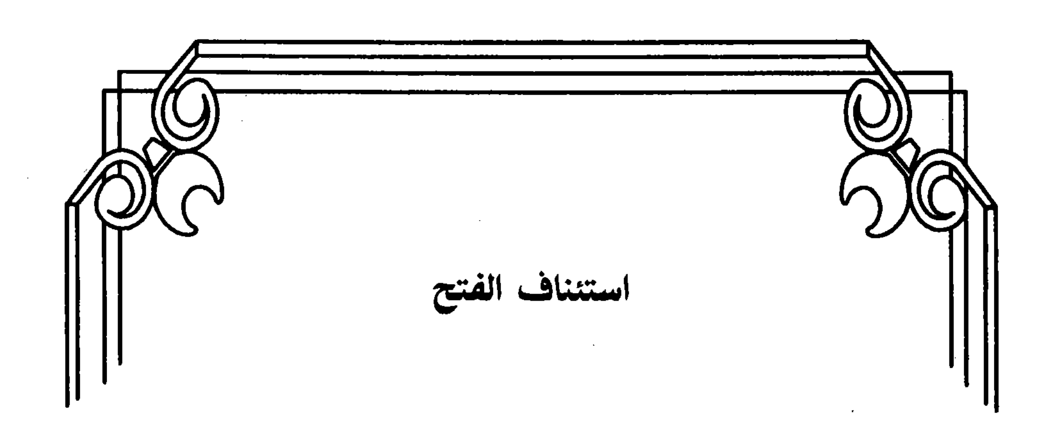
وهكذا قُدِّر لها أن تكون منشئة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى.

وكان استقرار أمور الدولة الداخلية دافعاً للعودة إلى سياسة الفتح مرّةً أُخرى، ولعل أول ما اهتمت به الخلافة في دمشق هو الفتوحات الإفريقية والاتجاه إلى الغرب، إذ أنها كانت بحاجة إلى التوسُّع والتوطُّد، وهكذا وجّه معاوية كُلّ اهتمامه إلى إتمام فتح إفريقية، وكان الروم قد عادوا إلى الأرض التي فتحها المسلمون من قبل وعقب انسحابهم منها، فعاد معهم الظلم والجور والفساد، فاتصل زعماء هذه البلاد بالعرب واستحثوهم إلى العودة واستئناف الفتح.



---

(١) انظر: كتابنا الخلافة الأموية في هذه السلسلة.



استئناف الفتح

١ ـ غزوة معاوية بن حُدَيج التجيبي سنة ٤٥هـ (٦٦٥م)

لم تمضِ فترة طويلة على خلافة معاوية بن أبي سفيان حتى أرسل جيشاً بقيادة معاوية بن حديج إلى إفريقية في عام ٤٥هـ (٦٦٥م) ولم يكد معاوية يصل إلى إفريقيا حتى وجد الروم قد أسرعوا إلى سفنهم بقيادة قائد اسمه نقفور، ووجد ابن حديج الفرصة سانحة فاستولى على بعض المراكز القوية، ثم وجّه ابن حديج عبدالملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة تعرف باسم جلولاء فحاصرها، وأوقع بأهلها، وقتل منهم مقتلة عظيمة حتى فتحها عنوة، فقتل المقاتلة، وسبى الذرية، وأخذ جميع ما كان بالمدينة، وحمل ذلك كله إلى معاوية، فقسمه على المسلمين، فيقال: إنّه أصاب كل رجل منهم مائتي مثقال[١].

ويواصل معاوية بن حديج جهوده في الفتح، فيرسل جيشاً في البحر قوامه مائتي مركب إلى صقلية، فانتصروا وغنموا وأقاموا بها شهراً، ثم انصرفوا إلى إفريقيا بغنائم كثيرة، ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر، فاقتسموها، وبعث ابن حديج بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان[٢].

وقد ذكر ابن عبدالحكم[٣] أن معاوية بن حُديج غزا إفريقية ثلاث غزوات، أما الأولى فسنة أربع وثلاثين قبل مقتل عثمان، وأعطى عثمان

(١) البيان المغرب ١/١٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فتوح مصر وأخبارها، ص١٩٤.

مروانَ الخمس في تلك الغزوة، وهي غزوة لا يعرفها كثير من الناس، والثانية سنة ٤٠هـ، والثالثة سنة خمسين هجرية.

إلا أن التواريخ التي ذكرها ابن عبدالحكم شكّك المؤرخون في دقتها، لأن عمرو بن العاص كان والياً على مصر سنة ٤٠ ـ ٤١هـ، ولم يرسل عمرو بن العاص معاوية بن حديج إلى المغرب[١].

* * *

٢ ـ عقبة بن نافع وفتوحاته والقيروان

كان عقبة بن نافع من أوائل من عرفوا إفريقية مبكراً، فقد كان مع عمرو بن العاص في حملته الأولى على إفريقية، وقد عهد إليه عمرو بن العاص باستطلاع حالة برقة، ثم جعله والياً عليها سنة ٢٣هـ (٦٤٤م) في الوقت الذي كان يتقدم فيه إلى طرابلس، وظلّ عقبة مقيماً ببرقة إلى أَنْ جاء عبدالله بن سعد بحملته التي خرجت بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان كي تتوجه إلى إفريقية سنة ٢٧هـ (٦٤٧م) ولكنه عاد إلى مصر مع حملة عبدالله بن أبي السرح سنة ٢٨هـ (٦٤٨م) وقد استفاد عقبة بن نافع استفادة عظيمة من هذه الفترة، فقد قضى تلك الفترة وهو يتنقل بين قبائل البربر، فعايشهم في مساكنهم وعرف فكرهم وسيرتهم وأخلاقهم وفهم طباعهم فهماً استفاد منه فيما بعد، ففكر في إنشاء قاعدة حربية تعسكر فيها حامية عسكرية، يكون منها المنطلق لجيوش المسلمين لفتح إفريقية.

وفي عام ٥٠ هجرية /٦٧٠م عزل معاوية بن أبي سفيان، معاوية بن حُديج عن إفريقية، وأقره على ولاية مصر، ووجّه عقبة بن نافع الفهري[٢] إلى إفريقية.

(١) تاريخ المغرب الكبير، د. السيد عبدالعزيز سالم، ج٢، ص١٧٩.

(٢) عقبة بن نافع الفهري، ولد في حياة الرسول ﷺ، ولكن لا تصح له صحبة، وكان ابن خاله عمرو بن العاص، وقد ولاّه إفريقية سنة ٤١هـ /٦٦١م، وتوفي عمرو بن العاص بمصر يوم عيد الفطر ٤٣هـ /٦٦٣م وعاد عقبة من إفريقية، انظر: الاستيعاب على هامش الإصابة، ج٣، ص١٠٨.

ويقول صاحب فتوح مصر[1]: ثم خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج عقبة بن نافع الفهري سنة ٤٦هـ/٦٦٦م ومعه بسر بن أرطأة وشريك ابن سمي المرادي. . . فخلف جيشه هناك، واستخلف عليه عمر بن علي القرشي، وزهير بن قيس البلويّ، ثم سار بنفسه وبمَن خفّ معه: أربعمائة فارس، وأربعمائة بعير، وثمانمائة قربة، حتى قدم ودّان فافتتحها، وأخذ ملكهم فجدع أذنه، فقال: لمَ فعلت هذا بي وقد عاهدتني؟ فقال عقبة: فعلت هذا بك أدباً لك، إذا مسست أُذنك ذكرته فلم تحارب العرب. واستخرج منهم ما كان بسر بن أرطأة فرضه عليهم ثلاثمائة رأس وستين رأساً.

ثم سألهم عقبة: هل من ورائكم أحداً؟ فقيل له: جَرْمة، وهي مدينة فزّان العظمى، فسار إليهم ثماني ليال من ودّان، فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام، فأجابوا، فنزل منها على ستة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة، وأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة بن نافع، وقد أصابه تعب شديد، وكان ناعماً، فجعل يبصق الدم، فقال له: لمَ فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً؟ فقال عقبة: أدباً لك إذا ذكرته لم تحارب العرب، وفرض عليه ثلاثمائة وستين عبداً[2].

وتوجه عقبة بعد ذلك إلى المشرق، حيث توجد قصور فزّان، فافتتحها قصراً قصراً حتى انتهى إلى أقصى الشرق، فسألهم: هل من ورائكم أحد؟ قالوا: نعم، أهل خاوار، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في منطقة وعرة تقع فوق ظهر جبل، فسار إليهم خمس عشرة ليلة في جيشه، فلما انتهى إليهم لجؤوا إلى حصونهم فتحصّنوا بها، فحاصرهم عقبة شهراً، ولم يستطع فتح هذا الحصن. فسار أمامَهُ حتى أتىٰ قصور كوَّار فافتتحها، حتى انتهى إلى أقصاها، وكان فيه ملكهم فأخذه، وقطع إصبعه، فقال: لمَ فعلت هذا بي؟ قال: أدباً لك، إذا أنت نظرت إلى أصبعك لم تحارب العرب. وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين.

---

(١) ابن عبدالحكم، ص١٩٥.

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبدالحكم، ص١٩٥.

وسألهم: هل من ورائكم أحد؟ فقال الدليل: ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة، فانصرف عقبة راجعاً[1].

ومرَّ بقصر خاوار، فلم يعرض له، وسار ثلاثة أيام، فأمنوا وفتحوا مدينتهم، وأقام عقبة بن نافع بمكان يعرف بـ (ماء فرس) ولم يكن به ماء، فأصابهم عطش شديد حتى كاد عقبة أن يهلك بسببه، فصلّى عقبة ركعتين، ثم دعا الله. وأخذ فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض، فقد أصابه العطش مثل صاحبه، وما زال يبحث بيديه حتى كشف عن بقعة فيها ماء، وأخذ الفرس يمص هذا الماء، وأبصره عقبة، فنادى في الناس أن احتفروا، فحفروا سبعين حسياً فشربوا واستقوا، فسمِّي الماء لذلك ماء فرس.

ورجع عقبة إلى خاوار عن طريقٍ غيرِ التي أتى منها، فلم يشعروا به حتى دخل ليلاً وهم آمنون، فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم وأموالهم، وقتل مقاتلتهم. وانصرف راجعاً حتى نزل بموضع زويلة، ثم سار حتى قدم على معسكرِهِ بعد خمسة أشهر، وقد جمَّت خيولهم، فسار متوجهاً إلى المغرب، وترك الطريق الأعظم، وأُخذ إلى أرض «مَزانة» فافتتحها، وافتتح قصطيلية حتى وصل إلى القيروان الذي كان معاوية بن حديج قد اختصه من قبل فلم يعجبه موضعه، ثم اختار بعد ذلك موضع مدينة القيروان[2].

❋ ❋ ❋

 ٣ ـ بناء القيروان

مضى عقبة غازياً فاتحاً في سبيل الله حتى وصل إلى موضع القيروان الذي كان قد اختطه معاوية بن حديج، ولكنه لم يعجبه لقربه من البحر، فقد خاف إنْ هي «القيروان» قربت من البحر يغزوها صاحب القسطنطينية

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) د. السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، ج٢، ص١٩٤.

والذي كان موفَّقاً في البحرية آنذاك. لهذا أخذ عقبة يبذل الجهد في البحث عن مكان بري يبعد قليلاً عن البحر حتى وصل إلى مكان مدينة القيروان في عصرنا هذا.

وكان معاوية بن أبي سفيان قد اختار عقبة بن نافع والياً على إفريقية وأمدّه بعشرة آلاف مقاتل، فدخل عقبة إفريقية فافتتحها، وأفنى مَن بها من النصارى، ثم خطب في المسلمين قائلاً: «إن إفريقيا إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين، أن تتخذوا بها مدينة تكون عزّاً للإسلام إلى آخر الدهر»[1]. اتفق المسلمون مع عقبة فيما قاله، واقترح بعض قادته أن يقربوا بالمدينة من البحر حتى يكون الجيش الذي يقيم فيها مرابطاً.

فقال عقبة: «إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر إلاّ وقد عُلِمَ به، وإذا كان بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون»[2].

فلما اتفق رأيهم، قال: «قرّبوها من السبخة فإن دوابكم الإبل، وهي تحمل أثقالكم، فإذا فرغنا منها، لم يكن لنا بُدٌّ من الغزو والجهاد حتى يفتح الله لنا منها الأول فالأول، وتكون إبلُنا على أبواب قصرنا في مراعيها، آمنة من عارية البربر والنصارى»[3].

بدأ عقبة بن نافع ـ رضوان الله عليه ـ في تخطيط مدينة القيروان، وقد استجاب له العرب في ذلك، وقد واجهتهم مشكلة في مكان تخطيط وبناء القيروان، وكان لإيمان عقبة بن نافع وسلامة عقيدته حلاً لهذه المشكلة، والمشكلة تتلخّص في أن الغابات والغياض التي أمرهم بالبناء فيها كانت

---

(١) ابن عذارى في البيان المغرب ١٩/١.

(٢) البيان المغرب لابن عذارى، ج١، ص١٩.

(٣) المصدر السابق.

مليئة بالسباع والحيَّات، فقال له أصحابه: إنك أمرتنا بالبناء في غياض وشعارى لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيَّات، وما إن سَمِعَ عقبة هذا الكلام من أصحابه حتى خرج في ثمانية عشرة رجلاً من الصحابة وبقية جيشه من التابعين، وذهبوا جميعاً إلى موضع القيروان، ودعا عقبة وأتباعه وأصحابه يؤمِّنون، ومضى عقبة إلى السبخة ونادى:

ـ «أيتها السباع والحيّات، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارحلوا عنّا، فإنّا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه»[1].

ونظر الناس عندئذ إلى أمر عجيب، فقد رأوا السباع والحيّات تخرج من بين الأشجار وهي تحمل أشبالها، ونادى عقبة في أصحابه: كفُّوا عنهم حتى يرحلوا عنها[2].

ولما رحلت الحيّات، أمر أصحابه بالدخول وقطع الأشجار، ولما أتمّ المسلمون قطع الأشجار، شرع عقبة في تخطيط المدينة.

وشرع أولاً في تخطيط دار الإمارة والمسجد الجامع، واختار أن يكونا في وسط المدينة حتى يسهل على كل أحد يقصدهما، ولكنه لم يُقم بناء، وكان يصلي في المسجد دون أن يقيم له جدراناً، وكان المسلمون يصلُّون معه إلى القبلة اجتهاداً، وأما القبلة الصحيحة فقد اختلفوا فيها، ولم يكونوا متفقين على القبلة، لذلك اهتمّ عقبة بتحديد القبلة الصحيحة، لأن هذا المسجد هو المسجد الأول في هذه البلاد، ولا بد أن يقتدي به المسلمون في كل أوضاعه، وفي القبلة بالذات، لأنها هي التي تصح بها صلاة المسلمين.

لهذا ظلّ المسلمون يرقبون مطالع الشمس في الصيف والشتاء، وينظرون مطالع النجوم، ولكنهم لم يهتدوا إلى القبلة، فبات عقبة حزيناً مغموماً، ودعا الله ـ عزّ وجلّ ـ أن يفرج عنه. فأتاه آتٍ في منامه وقال له:

---

(١) المصدر السابق، ص٢٠.

(٢) البيان المغرب، ج١، ص٢٠.

«إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك، واجعله على عنقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحدٌ غيرك، فانظر الموقع الذي ينقطع فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر، وهذا المسجد، وهذه المدينة، وسوف يُعز الله بها دينه، ويُذل بها مَن كفر به».

فاستيقظ من نومه فَزِعاً جَزِعاً، فتوضأ للصلاة، وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشراف النَّاس، فلمّا بدت مطالع الصبح، صلّى ركعتين، ثم صلّى بالمسلمين الصبح، وإذا التكبير بين يديه.

فقال لمَن حوله: أتسمعون ما أسمع؟

فقالوا: لا، فعلم أن الأمر من عند الله. فأخذ اللواء على كتفه، وأقبل يتتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير، فركز اللواء، وقال: هذا محرابكم. واقتدى به سائر مساجد المدينة[١].

وبنى المسلمون المسجد الجامع بالمدينة، وشيّدوا مساكنهم، وأصبحت القيروان عامرة بالناس، واتسعت فيها الحركة التجارية، وأصبحت أكثر نشاطاً نظراً لانتشار الأسواق بها، واكتمال مرافقها، وظلت حركة البناء والتشييد في القيروان مدة خمس سنوات اكتملت في سنة ٥٥هـ/٦٧٥م[٢].

وأصبحت القيروان فيما بعد كما أراد لها عقبة بن نافع أن تكون بمشيئة الله دار إمرته، فقد رغب أن تكون قاعدة عسكرية تنطلق منها الجيوش الإسلامية، فأثناء تشييدها كان عقبة يبعث السرايا، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وآمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[٣].

❋ ❋ ❋

---

(١) ابن عذارى، ج١، ص٢٠ ـ تاريخ المغرب الكبير.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج٣، ص٢٣٤.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٥.

٤ ـ ولاية أبي المهاجر دينار

ولم يمضِ قليل على قيام عقبة بذلك الفتح الكبير، حتى عزله والي مصر «مسلمة بن مخلد» الذي جمع له معاوية بين حكم مصر والمغرب[1]. وولّى مكانه على إفريقية أبا المهاجر دينار، وهو رجل من أهل مصر، وكان مولى لمسلمة بن مخلد الأنصاري، ومسلمة هذا يحب عثمان بن عفان، وقد بذل جُهداً كبيراً في الدفاع عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، ووقف مع معاوية بن أبي سفيان وهو يطالب بدم عثمان، وما إن آلت إليه ولاية مصر وإفريقية حتى أرسل إلى إفريقية مولاه أبا المهاجر دينار. فقيل لمسلمة: «لو استعملت عقبة، وأقررته على إفريقية، فإن له فضلاً وسابقة، وهو الذي بنى القيروان».

فقال مسلمة: «إن أبا المهاجر كأحدنا، صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيْل، فنحن نحب أن نكافئه ونصطنعه»[2].

ولبث أبو المهاجر في ولاية إفريقية عدة أعوام لم تقع فيها حوادث تُذكر، ثم عُزِلَ أبو المهاجر وأُعيد عقبة سنة ٦٢هـ في بدء خلافة يزيد بن معاوية.

وقد كانت البلاد المفتوحة ما تزال تضطرم بعوامل الخروج والثورة، وكان الروم والبربر كلاهما يترقب الفرص، ولكن عقبة شغل عن توطيد الدولة الفتية بفتوحات جديدة، وعاد فاخترق المغرب إلى أقصاه، ووصل إلى ساحل المحيط هذه المرة. ويقول ابن الأثير في تاريخه: إن عقبة لما انتهى إلى المحيط دفع فرسه إلى الماء حتى بلغ نحره، ثم قال: «اللهم إني أُشهدك أن لا مجاز، ولو وجدت مجازاً لجزت»[3].

---

(١) تاريخ الطبري، ج٦، ص١٣٤.
(٢) البيان المغرب، ج١، ص٢٢.
(٣) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٤٢.

وفي ذلك الوقت ثار البربر بقيادة زعيم لهم يدعى «كسيلة بن لمزم»[1] كان قد اعتنق الإسلام وحالف العرب ثم تغير عليهم، وانضمت إليه جموع كثيرة من الروم والبربر، وانتهز فرصة تفرُّق المسلمين في مختلف الأنحاء، وانقضّ بجموعه على جيش عقبة، ووقعت بين الفريقين معارك شديدة هُزم فيها المسلمون، وقُتل عقبة وجماعة من القادة سنة **٦٢**هـ. وزحف كسيلة على القيروان واستولى عليها، وارتدَّ حاكمها زهير بن قيس البلوي بقواته القليلة إلى برقة، وكادت بذلك تذهب دولة العرب في إفريقية.

ولما تولى الخلافة عبدالملك بن مروان (سنة **٦٥**هـ) اعتزم أن يعمل لاستعادة إفريقية، فولّى عليها زهير بن قيس البلوي، وكان منذ سقوط القيروان يتولى الدفاع عن برقة، وأمدّه بجيش ضخم، فزحف زهير على القيروان سنة **٦٩**هـ /٦٨٨م والتقى على مقربة منها بجيش كسيلة، فهزم البربر بعد معركة شديدة قتل فيها كسيلة وأصحابه.

وتبدأ قصة هذه المعركة بعد نجاح كسيلة في معركة تهوذه، فقد تقدَّم بجيشه اللجب نحو القيروان، وعلم زهير بن قيس بتقدمه، فقام في الناس خطيباً، فقال: «يا معشر المسلمين، إن أصحابكم قد دخلوا الجنّة، وقد مَنَّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، ويفتح الله لكم دون ذلك»[2].

ولكن هذا الموقف وجد اعتراضاً من أحد رجال زهير بن قيس، وهو حنش الصنعاني، الذي وقف معترضاً طالباً من زهير البلوي أن ينسحب مع بقية جيشه إلى المشرق، فليس من الحكمة أن يواجه جيش قليل من المسلمين جيوش كسيلة الكثيرة العدد والعِدّة من رجال البربر الأقوياء، فقال حنش الصنعاني: «يا معشر المسلمين، مَن أراد منكم القفول إلى المشرق فليتبعني»[3] فاتبعه الناس، ولم يبقَ مع زهير سوى أسرته وأقاربه، فاضطر

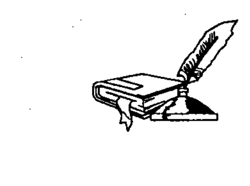
---

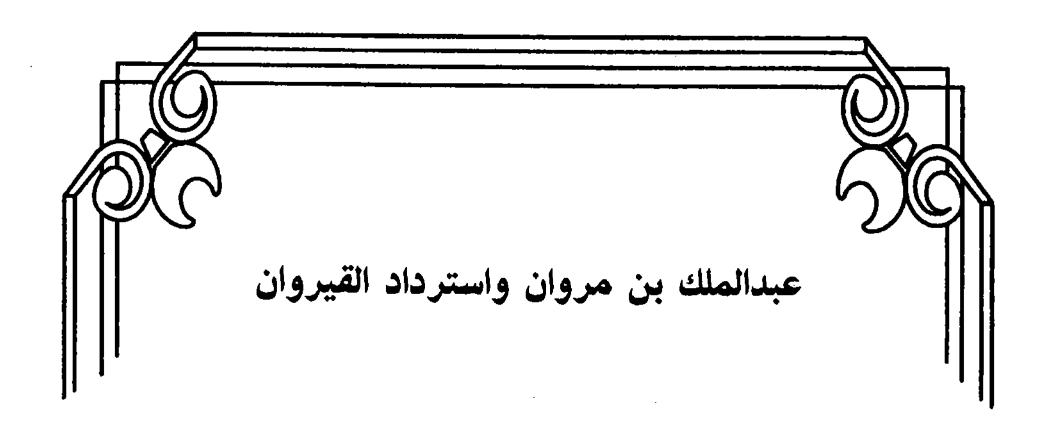
(١) ابن الحكم، ص٢٠٠.

(٢) البيان المغرب، لابن عذارى ٣١/١.

(٣) المصدر السابق.

إلى اللحاق بهم، ونزل في قصر ببرقة، وأقام بها مرابطاً إلى دولة عبدالملك بن مروان. في ظل هذه الظروف أقبل كسيلة لدخول القيروان، فلما اقترب منها، خرج من كان فيها من العرب، إذ لم يكن لهم طاقة بحرب كسيلة، لكثرة من كان معه من الروم والبربر، وكان قد بقي في القيروان الشيوخ والنساء والأطفال، فأرسلوا إلى كسيلة يطلبون الأمان، فأمنهم كسيلة، وأقام بالقيروان أميراً على إفريقية والمغرب، وعلى الذين بقوا فيه من المسلمين، وقد دخل كسيلة القيروان في محرم ٦٤هـ /٦٨٤م وقد عاشت القلة المسلمة في القيروان تئن تحت حكم كسيلة الظالم الجائر.





عبدالملك بن مروان واسترداد القيروان

تولى عبدالملك بن مروان الخلافة في سنة ٦٥هـ /٦٨٥م، وما إن اشتد سلطانه حتى ذهب إليه المسلمون وسألوه أن يواجه كسيلة ويخلّص ضعفاء المسلمين من يده، وذلك باسترداد إفريقية وعودتها إلى حظيرة الإسلام والمسلمين، فلا يعقل أن يترك المسلمون أربعين عاماً قضوها في حرب وقتال مع هؤلاء الوثنيين، تضيع سدى، وتذهب هباءً، فقال عبدالملك: «لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر، إلاّ من هو مثله ديناً وعقلاً»[1].

واستشار عبدالملك في الأمر، فاستقرّ رأي من استشارهم على زهير بن قيس، وقالوا: «هذا صاحب عقبة، وأعلم النّاس بسيرته وتدبيره، وأولاهم بطلب دمه»[2].

كتب عبدالملك إلى زهير بن قيس البلوي، يأمره بالخروج إلى إفريقية ليستنقذ القيروان من يد كسيلة، وكتب إليه زهير يخبره بكثرة الذين خرجوا مع كسيلة، فأمدّه عبدالملك بالمال والرجال والخيل، وبعث إليه وجوه الناس، فوفدت الجيوش على زهير بن قيس البلوي، وأسرع إليه وجوه المسلمين، وفي ٦٩هـ /٦٨٨م تقدّم زهير بن قيس بجيش عظيم إلى إفريقية، وهو يحث السير قاصداً كسيلة الذي أخرجه من القيروان، وتربّع على حكم البلاد، وبلغ كسيلة قدوم زهير، وعزمه على قصده.

---

(١) البيان المغرب ٣١/١.

(٢) المصدر السابق.

كان كسيلة في جمع عظيم من الروم والبربر، أضعاف ما مع زهير، ولكن الرعب وقع في قلبه، وخاف من المواجهة، فجمع زعماء البربر، وقال لهم: «إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة، فإن بها قوماً من المسلمين علينا، ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا، ولكن ننزل على موضع «ممس» وهي على الماء، فإن عسكرنا خلق عظيم، فإن هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم، فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر، وإن هزمونا كان الجبل منّا قريباً والشَّعراء فنتحصن بها»[1] (الشعراء: هي الأرض كثيرة الشجر).

وقد كان كسيلة يخاف من المسلمين لعلمه بتكاثرهم وتنامي قوتهم. وخرج كسيلة من القيروان، ونزل قرية «ممس» وهي قرية تقع في جنوب القيروان، وقد اختار كسيلة هذه القرية لحصانتها، ولكي يكون في موضع يمكنه من الهروب إلى جبال أُوراس في حالة الهزيمة، لأن قرية «ممس» كانت تقع على مرتفع هضبة تتصل بجبال أُوراس، أمّا قوات المسلمين فقد عسكرت خارج القيروان في قرية يقال لها «قرشانة» ولمدة ثلاثة أيام، ولم يحاول قائد المسلمين دخول القيروان حتى يتعرّف على المكان الذي ستقع فيه المعركة، وفي اليوم الرابع زحف بكل قواته، حتى اقترب اقتراباً شديداً من معسكر كسيلة، وما هي إلاّ لحظات حتى اشتبكا في قتال شديد يصفه ابن عذارى[2] فيقول: «والتقى الجمعان، والتحم القتال بين الفريقين، ونزل الضر، وكثر القتل في الفريقين، حتى يئس الناس من الحياة، فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقُتل، ومضى الناس في طلب البربر والروم فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم، وجدُّوا في طلبهم إلى وادي (مَلْوِيَة) بالغرب، ففي تلك الواقعة ذهب رجال الروم والبربر المشركين، وقتل ملوكهم وأشرافهم وفرسانهم، ثم انصرف زهير إلى القيروان فأوطنها، وفزع فيه أهل إفريقية، وخافوه خوفاً شديداً، وفزعوا إلى الحصون يتحصّنون بها، وإلى القلاع

---

(١) البيان المغرب ٣٢/١.

(٢) البيان المغرب، ج١، ص٣٢.

يسكنونها، ورأى زهير بإفريقية ملكاً عظيماً، فخاف أن يفتنه عن دينه، وقال: «إنما خرجت للجهاد، وأخاف أن تميل بي إلى الدنيا فأُهلك».

أقام زهير بن قيس البلوي بالقيروان بعد مقتل كسيلة، وأشرف على تنظيمها، ثم رجع إلى برقة في جمع عظيم، ولما علم الروم بخروجه إليها، أسرعوا إلى برقة بسفنهم، وأغاروا عليها، وسبوا نساء المسلمين، وقتلوا ونهبوا.

وما إن وصل زهير إلى برقة حتى وجد هذه الأحداث، فهاجم الروم، بل نزل البحر والتحم مع جنودهم، واشتدَّ القتال، وتكاثر عليهم الروم، فقتل زهير ومن معه من الأشراف والقادة من العرب المسلمين[١].

خرج المسلمون الذين نجوا من الموت إلى دمشق، وعلم خليفة المسلمين عبدالملك بن مروان بقتل زهير وأشراف العرب، فعظم ذلك على الخليفة، لما كان يتصف به زهير بن قيس البلوي من الفضل والدين والخلق، فكانت مصيبة الخليفة فيه كمصيبته في عقبة بن نافع.

وفي دمشق طالب أشراف العرب خليفة المسلمين عبدالملك بن مروان أن ينظر في وضع إفريقية، وأن يختار لها قائداً يقوم عليها، ويسد ثغرها، ويُصلح من شأنها، فقال لهم عبدالملك بن مروان: «لا أرى أحداً كفؤاً لإفريقية كحسان بن النعمان»[٢].

❋ ❋ ❋

حسان بن النعمان في إفريقية

ذهب المغرب من قبضة المسلمين مرة أُخرى، فقد اضطرب الأمر في إفريقية بعد مقتل زهير بن قيس البلوي، وكان وقع هذا الخطب شديداً في حكومة دمشق، وكانت تشغل يومئذ بمحاربة عبدالله بن الزبير، وصحبه

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن عذارى في البيان المغرب ٣٣/١.

الخوارج عليها، فمضت أعوام أخرى قبل أن تتمكن من العناية بشؤون إفريقية، فلما انتهت الثورة وقتل ابن الزبير، وجه عبدالملك عنايته إلى استعادة إفريقية، فولّى عليها حسان بن النعمان الغساني سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م[١].

وسيَّره إليها في جيش ضخم كان أعظم قوة سيَّرتها الخلافة إلى إفريقية، فاخترق حسانُ برقةَ وقصد قرطاجنة عاصمة إفريقية الرومانية، وكانت لا تزال في يد الروم ولم يغزها المسلمون بعد لحصانتها واتصالها بالبحر وقربها من صقلية، حيث كانت ترسل إليها الأمداد بسرعة[٢].

حاصر حسان بن النعمان قرطاجنة، وشدّد الحصار عليها ثم اقتحمها واستولى عليها، ولكن الإمبراطور سيّر إليها جيشاً بقيادة حاكمها يوحنا، يعاونه أسطول من صقلية، وقوة من القوط أرسلها ملك إسبانيا القوطي الذي أزعجه اقتراب العرب من بلاده، فانسحب العرب وارتدوا إلى القيروان، حتى إذا جاءتهم الأمداد أعادوا الكرّة على قرطاجنة، وهزموا الروم والقوط هزيمة شديدة، ففرُّوا إلى سفنهم، وسقطت قرطاجنة وهُدمت حصونها القوية، ثم سار حسان غرباً وهزم الروم والبربر في عدة مواقع، واستعاد الإسلامُ سلطانَه فيما بين برقة والمحيط[٣].

وعاد حسان إلى القيروان لينظم جيشه، وكان البربر والقبائل الجبلية قد اجتمعوا منذ مقتل زعيمهم كسيلة، في مفاوز الغرب الأقصى، تحت لواء امرأة من قبيلة جراوة يعتقدون فيها السحر والكهانة وتُعرف بالكاهنة[٤]، ويسميها ابن خلدون «دهيا بنت ماتية بن تيفان»[٥]، وكانت تقيم مُلكها في

---

(١) ابن عبد الحكم، ص٢٠٠.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان، ج١، القسم الأول، ص٢١، ط.الخانجي، مصر.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج٤، ص١٤٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١٤٤.

جبل أوراس، فسار حسان لقتالها، وخرجت إليه بجموعها، فالتقيا عند نهر «نيني» ونشبت بينهما معركة هائلة هُزم فيها العرب هزيمة شديدة، وقتل منهم جمع كبير، وارتدَّ حسان إلى برقة، وسارت الكاهنة شرقاً حتى «قابس» واستولت على كثير من البلاد والحصون، وبسطت سلطانها على معظم إفريقية مدى خمسة أعوام. ولبث حسان في برقة حتى أمدّه عبدالملك بالجند، فزحف على المغرب ثانية سنة ٧٩هـ /٦٩٨هـ ولم ترَ الكاهنة وسيلة لوقفه إلا أن تحول البلاد إلى خراب بلقع، فهدمت جميع المدن والحصون، وأحرقت جميع القرى والضياع الواقعة في طريق المسلمين، ولكن ذلك لم يُثْنِ حساناً عن عزمه، فتابع سيرهُ حتى أقاصي المغرب في وهاد ومفاوز صعبة، وكان البربر قد سئموا نير الكاهنة وعسفها، فهرع الكثير منهم إلى حسان يطلبون حمايته، وتفرقت جموع الكاهنة، وأدركها المسلمون بجبل أوراس فمزقت جموعها وقتلت[١].

واستأمن البربر على الإسلام والطاعة، وأن يمدوا المسلمين باثني عشر ألف مقاتل، وولى حسانُ جبل أوراس ابنَ الكاهنة بعد أن استوثق من طاعته، ثم عاد إلى القيروان بعد أن سحق كل مقاومة وقضى على كل نزعة إلى الخروج والثورة[٢].

ظلّ حسان بن النعمان بإفريقية حِيناً، ينظم شؤونها العسكرية والإدارية والمالية، ويُنشيء الدواوين، ويرتب الخراج والجِزية، ويوطد سلطان الحكم الجديد في الثغور والنواحي، ثم جدّد مدينة القيروان وأنشأ بها المسجد الجامع[٣].

ولبث حسان بن النعمان في منصبه سنين حتى توفي عبدالملك بن مروان سنة ٨٦هـ /٧٠٥م فخلفه ابنه الوليد بن عبدالملك، وولّى عمه عبدالله بن مروان على مصر، فعزل حسان بن النعمان عن ولاية إفريقيا،

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان، ج١، القسم الأول، ص٢٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن عبدالحكم، ص٢٠١، تاريخ ابن خلدون، ج٦، ص١١٠.

واختار لولايتها موسى بن نصير اللخمي، وكانت إفريقية في ذلك الوقت تابعة لمصر في شؤون الحكم والولاية، كما هو معروف من قبل، وكانت ولاية موسى بن نصير اللخمي لإفريقية قد بدأت في سنة **٨٩**هـ /٧٠٨م[(١)].

❋ ❋ ❋

موسى بن نصير والطريق إلى الأندلس

سطع نجم موسى بن نصير في الخلافة الأندلسية بعد فتوحاته، وعَرَفَه الناس قائداً عظيماً، ولكن حياته قبل الفتح لم يُكتب عنها بالحظ الكافي الذي قاله بعد فتوحاته.

كان موسى بن نصير قائداً عظيماً، بل من أعظم القادة الذين وجهتهم الخلافة الإسلامية جهة الغرب، أمّا ما ذكر عن حياته قبل بزوغ نجم الفتوحات التي قادها فهو رجل تابعي من التابعين، ولد في سنة **١٩**هـ في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في قرية من قرى الجزيرة، أو بوادي القرى في شمالي الحجاز على قول آخر[(٢)].

أما عن نسبه، فتقول الرواية: إنه ينتسب إلى بكر بن وائل، وأن أباه نصيراً كان ممن سباهم خالد بن الوليد في موقعة عين التمر سنة **١٢**هـ[(٣)].

وقيل: إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بني لخم، وأن أباه نصيراً كان على حرس معاوية بن أبي سفيان. ثم كان رقيقاً لعبدالعزيز بن مروان فأعتقه[(٤)].

وفي الحديث عن حياة موسى بن نصير الأولى، أنه تقلّب في بعض المناصب الحربية والإدارية الهامة، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية، وأنه قاد

---

(١) دولة الإسلام، د. عنان، ج١، ص٢٣.

(٢) د. عنان، ج١، القسم الأول، ص٢٣، مرجع سابق.

(٣) النجوم الزاهرة، ج١، ص٢٣٥، الطبري، ج٤، ص٢٢.

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان، ج٢، ص١٧٦.

بعض الحملات البحرية في عصر معاوية بن أبي سفيان، وغزا قبرص وغيرها من الجزر القريبة[١].

وجاء عهد عبدالملك بن مروان فأراد أن يولي أخاه بشر بن مروان على البصرة في عام ٧٣هـ، وكان أخوه بشر بن مروان حديث السن، فكتب إلى أخيه عبدالعزيز بن مروان يقول: «إني ولّيت أخاك بشراً البصرة، فأشخص معه موسى بن نصير وزيراً ومشيراً، وقد بعثت إليك بديوان العراق، فادفعه إلى موسى، وأعلمه أنّه المأخوذ بكل خلل وتقصير»[٢].

وكان موسى بن نصير يومئذ بمصر في خدمة أميرها عبدالعزيز بن مروان صديقه وحاميه، وأن موسى لبث وزيراً ومستشاراً لبشر بن مروان أيام ولايته للبصرة، فلمّا ولي الحجاج حكم العراق في سنة ٧٥هـ، اتهم موسى بن نصير باختلاس أموال البصرة، وكان الحجاج قد كتب إلى عبدالملك بن مروان أنه لا يقدر على حكم العراق، وقد اقتطع موسى بن نصير من أموال العراق، وأخبره أنه ليس موجوداً بالعراق، وطلب منه أن يرسله إليه، وكان عبدالعزيز بن مروان في الشام آنذاك أدخل عبدالعزيز بن مروان موسى بن نصير على أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان، فلما رآهُ قال: ما تزال تعرض لحيتك علينا؟

قلت: لمَ يا أمير المؤمنين؟

قال: لجرأتك عليّ، واقتطاعك الفيء.

قلت: ما فعلت يا أمير المؤمنين، وما آلوتك نصحاً واجتهاداً وإصلاحاً.

قال: أُقسم لتؤدين دينك خمسين مرة.

قلت: لمَ يا أمير المؤمنين.

قال: قم لتؤدينها مئة مرة.

---

(١) النجوم الزاهرة، ج١، ص٢٢٥.

(٢) ابن قتيبة في الإمامة والسياسة، ج٢، ص٤٨.

وذهبت لأتكلم، فأشار إليَّ عبدالعزيز بن مروان أن قل: نعم، فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين. ثم خرجت، فأعانني عبدالعزيز بخمسين ألفاً، وأدّيت خمسين ألفاً في ثلاثة أشهر نجمها عليّ(١).

ثم عاد موسى إلى مصر مع عبدالعزيز بن مروان، ولبث بها يتبوأ لديه أسمى مراتب النفوذ والثقة حتى عُيِّن حاكماً لإفريقية(٢).

ويذكر الدكتور عنان(٣) أنَّ في الرواية في تاريخ ولاية موسى بن نصير لإفريقية اختلافاً بيِّناً، فالبعض يقول: إنها كانت في سنة ٧٨ أو ٧٩هـ في عهد عبدالملك، ويقول البعض الآخر: إنها كانت في سنة ٨٦ أو سنة ٨٩هـ في عهد ابنه الوليد، ونحن نؤثر الأخذ بالقول الثاني(٤) لأنه أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث في إفريقية، ولأن معظم الروايات تُجمع على أن حسان بن النعمان والي إفريقية لبث على ولايتها حتى وفاة عبدالملك، وقد توفي عبدالملك في شوال سنة ٨٦هـ.

وكان عبدالعزيز بن مروان أمير مصر قد توفي قبل ذلك سنة ٨٥هـ، وندب عبدالملك ولده عبدالله أميراً على مصر، فدخلها في جمادى الآخرة سنة ٨٦هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل. وعزل عبدالله حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية، واختار لولايتها موسى بن نصير. وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال في سنة ٨٩هـ /٧٠٨م.

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل، وسيّره عبدالعزيز بن مروان في سنة ٨٤هـ إلى برقة، فافتتح درنه وسبى من أهلها جموعاً غفيرة، وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم، يتحيّنون الفرصة للثورة كلّما سنحت، فما كاد موسى يلي الحكم حتى نزعوا إلى

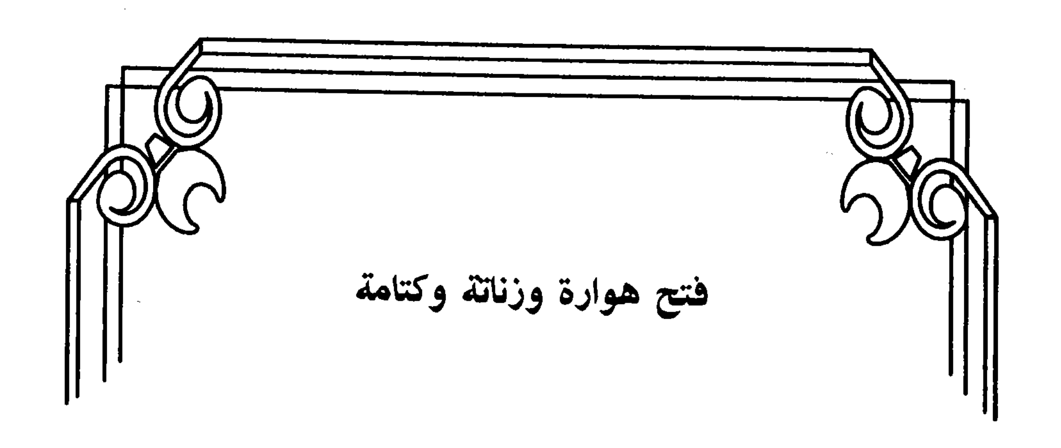
---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٤٩.
(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٦٠ وما بعدها.
(٣) دولة الإسلام، ج١، ص٢٤.
(٤) يقول به ابن الأثير في الكامل، ج٢، ص١٤٤، ٢٠٦، وابن خلكان في الوفيات، ج٢، ص١٧٦، وابن عذارى، ج١، ص٢٣.

الثورة شأنهم عند كل تغيير في الحكم، ولكنهم أخطؤوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته، وسرعان ما سُحقت الثورة في كل ناحية، ومزّق موسى جموع الثوار من جديد، ودوّخ هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية، ثم سار إلى طنجة وهي آخر معقل اعتصم به الثوار ولم يكن غزاها العرب بعد، فافتتحها، وولى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد الليثي، وأثخن في مفاوز المغرب الأقصى فافتتحها وطهّرها من العصاة والمتآمرين ودوّخ هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة[1].



(١) دولة الإسلام، ج١، ص٢٥.



فتح هوارة وزناتة وكتامة

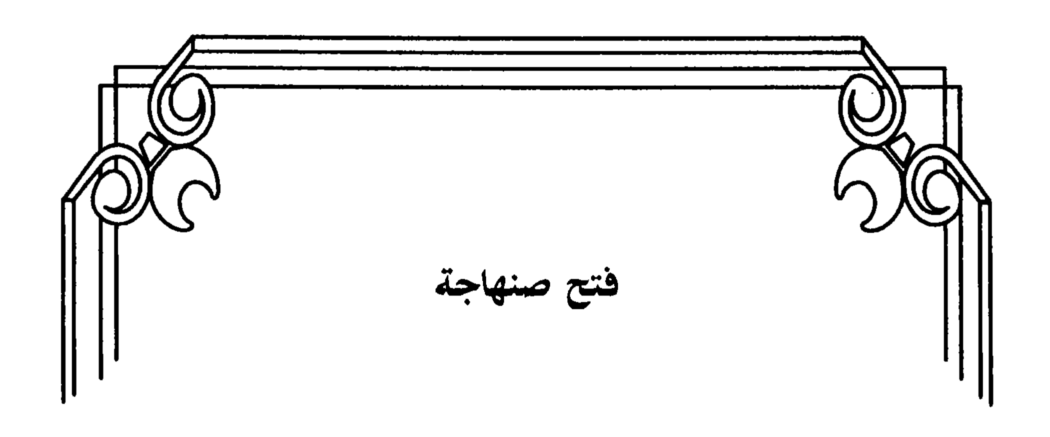
أرسل موسى بن نصير قائده عياش بن أخيل إلى قبائل هوارة وزناتة ففاجأهم، وأغار عليهم، وقتل منهم جماعة كثيرة، وبلغ السبي خمسة آلاف رأس، بعث بهم موسى إلى عبدالعزيز، وفيهم ملكهم (كمامون) فقتله عبدالعزيز.

وأرغمهم عياش على الصلح، ورجا عياش موسى أن يترك وجوههم رهائن عنده[1]. وأما كتامة فقد قدِمت على موسى بن نصير، فولّى عليهم رجلاً منهم، وأخذ منهم رهائن، فوجّه إليهم الخيل، فأتى بهم، وأراد أن يصلبهم فقالوا: لا تعجل أيها الأمير بقتلنا حتى يتبين أمرنا، فإن آباءنا وقومنا لم يكونوا ليدخلوا في خلاف أبداً ونحن في يدك، وأنت على البيان أقدر منك على استحيائنا بعد القتل، فأوقرهم حديداً، وخرج لهم معه إلى كتامة، فلما بلغهم خروجه تلقاه وجوه كتامة معتذرين، فقبل منهم، وتبينت له براءتهم، واستحيى رهونهم[2].



(١) تاريخ المغرب الكبير ٢/٢٥٤.

(٢) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢/٥٣.



فتح صنهاجة

جمع المعلومات عن العدو أمرٌ مُهِمٌّ للقائد، ذلك ما كان يفعله موسى بن نصير، فقد كان يبعث جواسيسه إلى القبائل ليعرفوا أحوالهم، فأخبروه أن صنهاجة غارون، وأن إبلهم تُنتج، وهم لهذا لا يستطيعون براحاً، فأعدّ موسى عدّته، وجهَّز لهم جيشاً من أربعة آلاف من أهل الديوان، وألفين من المتطوعين من البربر، وخلف على أثقال المسلمين عياش بن أخيل في ألفَيْ فارس[١].

وجعل على مقدمته عياض بن عقبة، وعلى ميمنته المغيرة بن أبي بردة، وعلى ميسرته زرعة بن أبي مدرك، وسار موسى حتى أتى صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر، وهم لا يشعرون، فقتل منهم مقتلة عظيمة حتى ظنّ الناس أنّه الفناء، فبلغ السبي منه ألف رأس، ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى، وانصرف موسى إلى القيروان، وكانت هذه الوقعة في سنة ٨٠هـ /٦٩٩م[٢].

وسمع الناس بما فتح الله على يدَيْ موسى بن نصير، وما أصاب من الغنائم، فرغبوا في الخروج إلى المغرب، فخرج مثل مَن كان معه بقيادة المغيرة بن أبي بردة، فالتقى هو وصنهاجة، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى

---

(١) المصدر السابق، ص٥٤.

(٢) المصدر السابق.

منحهم الله ـ عزّ وجلّ ـ أكتافهم وهزمهم، وبلغ سبيهم ستين ألف رأس[1].

هكذا نجد أن موسى بن نصير قد اخترق هوّارة وزناتة وكتامة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية القوية، ثم سار إلى طنجة وهي آخر معقل اعتصم به الثوار، ولم يكن غزاها العرب بعد، فافتتحها، وولّى عليها جندياً عظيماً هو طارق بن زياد الليثي، فافتتح طارق مدائن البربر الباقية، ثم كتب إلى موسى بن نصير: إني قد أصبت ست سفن، فكتب إليه موسى: أتممها سبعاً، ثم سر بها إلى شاطىء البحر، واستعد لشحنها، واطلب قبلك رجلاً يعرف شهور السريانيين، فإذا كان يوم واحد وعشرين من شهر آذار بالسريانية، فاشحن على بركة الله ونصره من ذلك اليوم، فإن لم يكن عندك من يعرف السريانية، فاختر رجلاً يعرف شهور العجم. وهو شهر يقال له: بالأعجمية مارس، فإذا كان يوم واحد وعشرين منه فاشحن على بركة الله. . . فإذا أجريت فسر حتى يلقاك جبل أحمر، تخرج منه عين شرقية إلى جانبها صنم فيه تمثال صور فاكسر ذلك التمثال، وانظر في مَن معك رجل طويل أشقر، بعينيه قَبَل، وبيده شلل، فاعقد له على مقدمتك، ثم أقم مكانك حتى يغشاك إن شاء الله[2].

وعبّأ طارق جيشه وجهزه، وفي شهر رجب **٩٢**هـ /**٧١١**م، سار في ألف وسبعمئة رجل حتى دخل الأندلس، وكانت ولاية طارق بن زياد على طنجة والمغرب الأقصى **٨٥**هـ /**٧٠٤**م، وتمّ إسلام المغرب الأقصى في هذا التاريخ، وكان المشركون قد بنوا كنائسهم، فحوّلها المسلمون إلى القبلة، وأنشؤوا في المساجد المنابر، وفي هذه السنة تمّ بناء مسجد أغمات هيلانة.

وفي يوم **٥** من شهر رجب سنة **٩٢**هـ /**٧١١**م أبحرت الحملة من ميناء طنجة في السفن التي أعدّها طارق[3]، واستعان ببعض السفن التي أعدّها موسى في دار الصناعة بتونس، ونقلت السفن الرجال، وهي تختلف بين

---

(١) الإمامة والسياسة، ج٢، ص٥٤.

(٢) الإمامة والسياسة ٢/٥٩.

(٣) نفح الطيب للمقري ١/٢٤٠.

شاطىء الزقاق إلى جبل كان يُعرف بجبل كالبى، ثم عرف باسم جبل طارق.

نزلت الحملة في وقت كان لزريق ملك إسبانيا مشغولاً بإخماد ثورة قام بها البُشكنس، وكان في ذلك الوقت كثير من السكان ساخطين على لزريق لجوره وظلمه، لهذا كان توقيت الحملة مناسباً، حيث كان لزريق مشغولاً وكان السكان ساخطين.

نزلت جنود المسلمين بأرض الجبل، وأسرع طارق فاتخذ لجيشه قاعدة، كما أنشأ ميناء يصل بينه وبين سَبْتة، وأقام حول الجبل سوراً منيعاً سمي سدر العرب[١].

ثم بعث طارق بن زياد عبدالملك بن أبي عامر في فرقة من الجيش، سارت على الساحل شمالاً فاستولت على مدينة حصينة تعرف بقرطاجنة الجزيرة، ثم زحف طارق غرباً، واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة، وهناك أقام قاعدة لجيشه تقابل الجزيرة الخضراء[٢].

كان لزريق ملك الأندلس مشغولاً بإخماد ثورة البشكنس، فأناب عنه تُدمير، فلما نزل طارق من الجبل كتب تدمير إلى لزريق: إنّه قد نزل ببلادنا قوم لا ندري أمن السماء هم أم من الأرض، وبلغ لزريق ذلك فرجع عن قصده، وكان قد قصد بعض الجهات البعيدة للغزو، فرجع في سبعين ألف فارس، ومعه العجل تحمل الأموال والمتاع - وهو على سريره بين دابتين - وعليه مظلة مكلّلة بالدر والياقوت والزبرجد[٣].

وعلم طارق بن زياد باقتراب عدوه فقام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم حضَّ الناس على الجهاد، ورغّبهم في الشهادة، وبسط لهم في آمالهم، ثم قال: «أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو

(١) تاريخ المغرب الكبير ٢/٢٧٤.
(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس، ص٧٣.
(٣) انظر: نفح الطيب ١/٢٤٠.

أمامكم، فليس ثَمّ والله إلا الصدق والصبر، فإنهما لا يغلبان، وهما جندان منصوران، ولا تضر معهما قلة، ولا تنفع مع الخور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة.

أيها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله، إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، ألا وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتى أُخالطه أو أُقتل دونه، فإن قُتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتتبددوا بين قتيل وأسير، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنِيَّة، ولا تقطعوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهنة والذلة، وما قد أحلّت لكم من ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا - والله معكم ومعيذكم - تبوؤون بالخسران المبين، وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين.

وها أنا ذا حامل حتى أغشاه، فاحملوا بحملتي، فحمل وحملوا، فلما غشيهم اقتتلوا قتالاً شديداً[1]. ثم قتل الطاغية بعد أن تفرق المقاتلون، فخلص إليه طارق بن زياد فضربه بالسيف على رأسه، فقتله في سريره، فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم اقتحم الجيشان، وكان النصر للمسلمين»[2].

وسمع موسى بن نصير بدخول طارق الأندلس، فأسرع ليلحق به، وفي ذلك يقول المقري في نفح الطيب: «وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح والغنائم، فحركته الغيرة، وكتب إلى طارق بن زياد يتوعده إن توغل بغير إذنه، ويأمره أن لا يتحرك من مكانه حتى يلحق به»[3].

ولكن ابن قتيبة[4] يستبعد الغيرة عن موسى بن نصير لأنه هو الذي أمره بالتجهُّز لغزو الأندلس وذلك حين قال له طارق: «إني قد أصبت ست سفن»، فقال له موسى: «أتممها سبعاً ثم سر بها إلى شاطىء البحر».

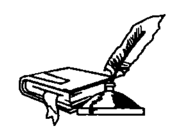
---

(١) الإمامة والسياسة ٦٠/٢.
(٢) نفح الطيب ٢٤٢/١.
(٣) المصدر السابق ٢٣٣/١.
(٤) الإمامة والسياسة ٦٠/٢.

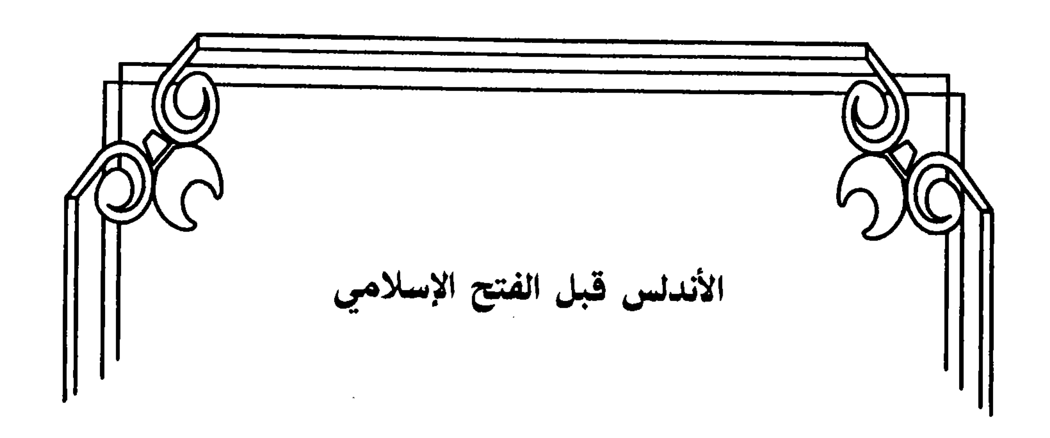
ويقول ابن قتيبة: وكتب طارق إلى مولاه موسى: «إن الأُمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث الغوث».

وبذلك يكون دخول موسى الأندلس بناء على طلب طارق للنجدة التي أخبره أن الأمم تداعت عليه من كل جانب، فالغوث الغوث.

إذا عدنا إلى بداية الحملة نجد أن طارقاً لم يتحرك من مكانه حتى أمره موسى بن نصير بغزو بلاد الأندلس[١]، فلما تكالب عليه الناس من كل ناحية استغاث بموسى بن نصير، لينقذه، فهبّ موسى وأعدّ جيشه وبدأ يستعد لدخول الأندلس.



(١) وفيات الأعيان ٥/٣٢٠.



الأندلس قبل الفتح الإسلامي

الأندلس هي شبه الجزيرة المعروفة باسم إسبانيا، وقد كانت إسبانيا في ذلك الوقت الذي امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطىء القريبة منها، وإلى الجزر المجاورة لها، خاضعة لنير القوط، وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون كإفريقية، ولاية رومانية تخضع لسلطان روما.

ويقول المستشرق الهولندي رينهرت دوزي[1]:

«كانت إسبانيا وقت أن تطلّعت إليها أنظار المسلمين شديدة الضعف، ميسرة تماماً على مَن يغزوها، ويرجع ذلك إلى ما كان عليه مجتمعها من وضع مؤلم، يتسم بالوهن الذي لم يكن جديداً عليها بل كان متأصلاً فيها منذ وقت بعيد، فلم تكن تفترق في شيء ـ أيام كانت ولاية رومانية ـ عن بقية الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية أيام كانت تحت حكم القياصرة الأواخر من حيث الوضع المحزن، حتى ليقول أحد كُتَّاب القرن الخامس للميلاد: إنه لم يعد للإمبراطورية من كل ما كانت تملكه سوى الاسم، أضف إلى هذا أننا نجد فيها قلة من الأثرياء يملكون مساحات شاسعة من الأراضي المعروفة باسم «لاتيفونديا» شبه الإقطاعية، وتقوم إلى جانبهم فئة ضخمة من البرجوازية المنهارة والعبيد ورقيق الأرض، على أن الأثرياء وأصحاب الامتيازات وجميع الذين يشغلون المناصب السامية في الإمبراطورية

---

(١) المسلمون في الأندلس، تأليف رينهرت دوزي، ترجمة وتعليق د. حسن حبش، ط. مصر هيئة الكتاب، ج١، ص٢٧.

وهم الذين انفردوا وحدهم دون سواهم بأن يسمّوا بالأمراء، والذين كانوا ينفردون بأن تُساق إليهم ألقاب الشرف، وكان هؤلاء كلهم معفون من جميع أنواع الضرائب التي تحمّلت عِبأها الطبقة الوسطى وحدها، كما كان هؤلاء المتميزون يتقلبون في مطارف النعيم، ويعيشون عيشة الترف والبلهنية فيسكنون القصور المطلة على الأنهار الجميلة، والواقعة على سفوح تلال تلاصقها كرمات العنب وأشجار الزيتون، وحيث يقضي أصحابها أيامهم في اللهو والسباحة والمطالعة والقنص والولائم[1].

أما قصورهم فقد كُسيت أبهاؤها بالطنافس الشامية والإيرانية المطرّزة الموشاة، فإذا حلّت ساعة الطعام أثقل الخدم الموائد بأشهى أنواع اللحوم وفخر الأنبذة، وترى الضيوف متكئين على سرر مغطاة بمفارش أرجوانية يتطارحون الشعر، ويلقون السمع إلى أجواق العازفين ويتطلعون إلى الراقصات، ولم تؤد حياة البلهنية هذه إلا إلى مضاعفة بؤس العدد الكبير من أهل البلاد.

أما الطبقة الوسطى المعروفة بالكوريال (أو صغار الملاك) الذين يسكنون المدن ويقومون بتصريف الأمور المحلية، فقد كانوا في أشد حالات الضيق من جراء الضرائب الرومانية.

أما النظام الإداري الذي كان مفروضاً فيه حماية الناس من الطغيان، فقد أصبح وسيلة لتحقيق جميع أنواع الاغتصاب والابتزاز، بل صار ضحية له، ذلك أن قسطنطين الأول قطع المصدر الرئيسي لدخل المدن الولايات باستيلائه على ممتلكاتها في نفس الوقت الذي تضخمت فيه المصروفات الحكومية نظراً لازدياد البؤس العام، ومع ذلك فقد كان مقدّراً في أعضاء الكورى، وأعني بهم سكان المدينة المالكين لقصار يزيد على خمسة وعشرين فداناً ولا ينتمون للطبقة ذات الامتيازات، أن يقوموا بسداد ما يعجز عن سداده الملزمون وذلك بدفعهم إياه من جيبهم الخاص. وعجز صغار الملاك عن تحطيم هذا الالتزام الذي تأصّل وأضحى كلاً موروثاً إلى حَدٍّ

(١) المصدر السابق، ص٢٨.

غدوا معه مرتبطين بالأرض ارتباطاً لا يستطيعون معه بيعها دون ترخيص من الإمبراطور الذي كان يعدُّ نفسه المالك الحقيقي لجميع أراضي الإمبراطورية ويعتبر رعاياه عمّالاً بها، وكثيراً ما دفع اليأس صغار الملاّك إلى ترك وظائفهم وقراهم للانخراط في سلك الخدمة الحربية أو الاسترقاق.

غير أن الحكومة ـ بعينها النفّاذة ويدها الحديدية ـ كانت قلما تفشل في كشف أمرهم، وإن كشفتهم أعادتهم قسراً إلى طائفتهم، فإن لم يقدَّر لها النجاح في ذلك أحلّت مكانهم رجالاً ذوي سمعة سيئة أو أشراراً أو هراطقة أو يهوداً أو رجالاً من طريدي العدالة، ذلك لأن مرتبة صغار الملاّك أو الكوريال التي كانت في السابق مرتبة شرف وامتياز أصبحت سبة وعقوبة(١).

أمّا بقية الشعب الإسباني (الأندلسي) فكانت إما مزارعين أو عبيداً، وإن لم تكن العبودية الزراعية قد تلاشت غير أنّه منذ مستهل العهد الاستعماري أخذ الاسترقاق في الانتشار بسبب عاملين أحدهما ما عاناه الريفيون الأحرار من الفقر والضيق الشديد، وثانيهما هو ارتقاء أحوال عبيد الأراضي، ومن ثم كانت هذه الحال وسطاً بين الحرية والاسترقاق، الذي لم يكن له في بادىء الأمر من قانون سوى العُرف أو التعاقد، ثم أصبح منذ ـ دقلديانوس ـ مسألة نظام عام ومهمة حكومية وموضوعاً يشغل على الدوام بال الدولة التي اضطرت ـ بأي ثمن ـ أن تدفع الفلاحين إلى المزارع المهجورة، وبالجند إلى الجيش، ومن ثم صار لهذا النظام أسلوبه الذي يميزه عن سواه، وأصبح له عسكره وقوانينه الخاصة به، أمّا عُمّار الأراضي الذين عهد بهم إلى مالك الأرض الذين كانوا يأخذون جزءاً معيناً من غلته ـ فقد أصبحوا من بعض الوجوه ـ في حال أحسن من الرقيق، إذ أُبيح لهم الزواج الذي حُرّم على الرقيق، وصار في استطاعتهم امتلاك الأراضي دون أن يتمكن سيدهم من مصادرة أملاكهم وإن حُرّم عليهم التصرف فيها بالبيع دون رضاه، ثم إنهم كانوا في نظر القانون في مرتبة فوق مرتبة الأقنان،

---

(١) المسلمون في الأندلس، رينهرت دوزي، ج١، ص٢٩.

فكانوا يدفعون للدولة ضرائب شخصية، وينخرطون في سلك الجيش، لكنهم كانوا يشبهون العبيد في توقيع العقوبات الجثمانية عليهم، ولا يحق لهم التحرر، ولم يكونوا عبيداً للشخص بل للأرض، فتراهم مرتبطين بالأرض - التي يزرعونها - برباط غليظ موروث لا تنفصم عراه، ومن ثم لا يستطيع المالك أن يبيع أرضه من غير عمّارها، أو العمّار من غير الأرض التي هم عليها.

أمّا أشد الطبقات بؤساً فكانت طبقة الرقيق الذين يباعون أو يتهاداهم أصحابهم كالأنعام والمتاع، وكان عددهم ضخماً إذا قيس بالأحرار، حتى قيل: «إن البعض اقترح ذات مرة في مجلس الأعيان تمييز الرقيق بلباسٍ خاص بهم، فرفض القوم اقتراحه مخافة ألا يأبه به رقيقنا»[(١)]. وقيل: إن رجلاً واحداً كان يمتلك أربعة آلاف عبد، وقد أخذ عدد الرقيق في التزايد بدلاً من النقصان في أخريات أيام الإمبراطورية، وكان أحد أهالي غاله (وهي فرنسا الحالية) المسيحيين، لديه خمسة آلافٍ من العبيد، وعند آخر ثمانية آلاف، يعاملون أقسى معاملة. فقد أمر أحد السادة بجلد عبدٍ له ثلاثمائة جلدة لأنه تركه ينتظر الماء الساخن، غير أن الآلام التي كان يذوقها هؤلاء التعساء على يد سادتهم كانت لا تقاس قط بما يلاقونه على أيدي رفاقهم الموكول إليهم مراقبتهم[(٢)].

بعد هذه الصورة التي رسمها لنا المستشرق الهولندي رينهرت دوزي في كتابه «المسلمون في الأندلس» نتساءل: ألم يكن الإسلام بتعاليمه وشرائعه السمحة ضرورياً لهذا المجتمع الأندلسي المملوء فساداً من أعلى القمة إلى أسفل القاع؟

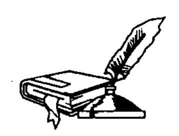
لقد كان المجتمع الأندلسي (الإسباني) في حاجة ماسة إلى هؤلاء الرجال الذين حملوا العدل على أكفهم وأعناقهم لينشروه على أرض المعمورة كأنه بما جاء به دينهم شرائع العدل وفضائل الأخلاق.

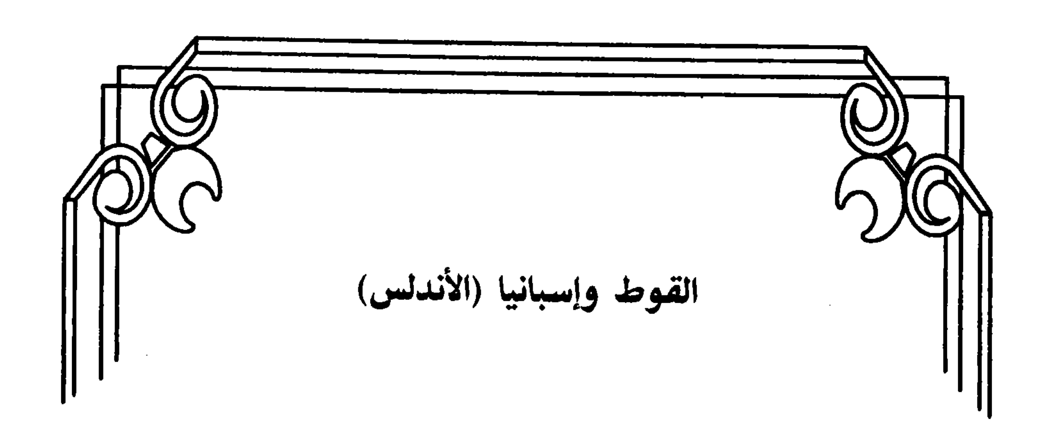
---

(١) المصدر السابق، ص٢٩.

(٢) المسلمون في الأندلس، تأليف رينهرت دوزي، ج١، ص٣١، ترجمة د. حسن حبش.

أما من حيث الجانب السياسي فقد كانت إسبانيا (الأندلس) في الوقت الذي امتد فيه سلطان العرب إلى الشواطىء القريبة، وإلى الجزر المجاورة لها، كانت خاضعة لنير القوط وظلمهم، وكانت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون ولاية رومانية تخضع لسلطان روما، فلما اضمحلّ سلطان روما وغزتها القبائل البربرية الجرمانية في أوائل القرن الخامس الميلادي اقتسمت هذه القبائل أملاك روما الغربية، واستولت على إيطاليا وفرنسا وإسبانيا، وكانت إسبانيا من نصيب القوط.





القوط وإسبانيا (الأندلس)

القوط هم إحدى هذه القبائل أو الشعوب البربرية التي هبطت من شمال أوروبا، وقوّضت صروح الإمبراطورية الرومانية. وتقول الأساطير القديمة إنهم نزحوا من إسكندناوة، وهي رواية يؤيدها كثير من القرائن والشواهد. ويذكر المؤرخ تاسيتوس إنهم كانوا منذ ظهور النصرانية إلى أواخر القرن الثاني، يسكنون شواطىء البلطيق الجنوبية، وأن قبائل عديدة من الوندال كانت تسكن على ضفاف نهر «أودر» وهناك من المشابهات بين القوط والوندال، في الدين والعادات والأخلاق والتقاليد، ما يدل على أنهما يرجعان في الأصل إلى شعب أو جنس واحد. وفي عهد الإمبراطور إسكندر سيڤروس (٢٢٢ ـ ٢٣٥م)، ظهرت طلائع القوط في ولاية «داسيا»[١] الرومانية، وأغارت على بعض مدنها، وكان هذا نزوحهم الثاني، استقروا حينئذ في إقليم «اليوكرين» وفي عهد الإمبراطور ديسيوس عبروا نهر الدانوب وخربوا ولاية ميزيا[٢] الرومانية، ثم تقدّموا إلى قلب البلقان، فسار ديسيوس لقتالهم ولكنه هُزم ومُزق جيشه (٢٥٠م) وسار القوط إلى اليونان فعاثوا فيها فساداً وخربوها.

ولم ينقطع فسادهم ولا عبثهم حتى نشط الإمبراطور قسطنطين الكبير

---

(١) د. عنان، دولة الإسلام في الأندلس، كانت ولاية داسيا تقع في شرق حوض الدانوب وتشغل مكان رومانيا والمجر حالياً.

(٢) تقع ولاية ميزيا في وسط البلقان وتشكل مكان بلغاريا حالياً، المصدر السابق، الهامش، ج١، ص٢٨.

لقتالهم ورد عدوانهم، فحاربهم في عدة مواقع وهزمهم هزيمة شديدة، وردهم إلى أقاصي داسيا سنة (٣٢٢م) وفرض عليهم شروطاً فادحة، ثم حاربهم الإمبراطور ڤالينس قيصر قسطنطينية وهزمهم في سنة **٣٦٩**م، وفي سنة **٣٧٥**م زحف الهون من المشرق على القوط ومزقوهم، ففروا إلى ضفاف الدانوب واستغاثوا بالإمبراطور، وطلبوا الدخول في طاعته فأجابهم إلى ذلك، واستقروا حيناً في ولاية تراقية، ولكنهم ثاروا مراراً من جراء قسوة الحكام الرومانيين وعسفهم[١].

وفي عهد الإمبراطور هورفويوس، قام القوط بثورة أعظم وأبعد أثراً بقيادة زعيمهم «ألاريك»، وخربوا تراقية واليونان، ثم عبروا إلى إيطاليا، وافتتحوا روما ونهبوها سنة ٤١٠م. ولكن زعيمهم «ألاريك» توفي في نفس هذا العام فارتدوا إلى الشمال، ثم عقدوا الصلح مع الإمبراطور، واندمجوا في الجيش الإمبراطوري، وقاموا بقمع الثورات المحلية في غاليه أو غاليس (جنوب فرنسا)[٢] وشمالي إسبانيا، ثم استقروا في أواسط فرنسا وجنوبها، فيما بين نهرَيْ اللوار والجارون، واتخذوا «تولوز» عاصمة لهم.

وأقطع الإمبراطور ملكهم مقاطعة «ڤاليا» ليحكمها، وقامت بذلك مملكة قوطية تابعة للدولة الرومانية، وعاون القوط أو دولة القوط على محاربة الوندال والآلان والسوابيين وعاونها بالأخص ملكهم تيودريك الأول ابن «الأريك»، على هزيمة آتيلا التتري وبرابرته الهون في موقعة شالون سنة **٤٥١**م، ثم عبر خلفه وأخوه «تيودريك الثاني» إلى إسبانيا لانتزاعها من الوندال والسوابيين المتغلبين عليها، مشترطاً على الدولة أن يحتفظ بما يفتتحه من إسبانيا لنفسه ولعقبه، وحارب الوندال والسوابيين وهزمهم سنة **٤٥٦**م، وافتتح إسبانيا ما عدا ركنها الشمالي الغربي (جليقية) الذي استعصم به الوندال حيناً. ولم تأتِ نهاية القرن الخامس حتى ملك القوط شبه الجزيرة كلها، وامتدَّ ملكهم من اللوار إلى شاطىء إسبانيا الجنوبي. ولكن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج٤، ص٢٠٥.

الفرنج غزوهم من الشمال، وأجلوهم عن فرنسا في أعوام قلائل، فاستقروا في إسبانيا، واتخذوا طليطلة دار مُلكهم، ووضعوا لمملكتهم الجديدة نظماً وقوانين خاصة تتأثر بروح الحضارة والأنظمة الرومانية، وكانوا أيضاً قد اعتنقوا النصرانية منذ أواخر القرن الرابع، كما اعتنقها الوندال وغيرهم من الشعوب البربرية التي تقاسمت تراث روما وأملاكها، ولبث القوط زهاء قرنين سادة لإسبانيا حتى الفتح الإسلامي[1].

أما وقت الفتح الإسلامي، فقد كانت المملكة القوطيةُ تُجوِّزَ دورُ انحلالها قبل ذلك بأمد طويل، وكان المجتمع الإسباني يعاني صنوف الشقاء والبؤس، وقد مزّقته عصور طويلة من الظلم والإرهاق والإيثار. ولم يكن القوط في الحقيقة أُمة بمعنى الكلمة، فإنهم لم يمتزجوا بسكان الجزيرة، ذلك الامتزاج الذي يجعل الغالب والمغلوب، والحاكم والمحكوم، أُمة واحدة، بل كان القوط يستأثرون بمزايا الغلبة والسيادة، وينعمون بإحراز الإقطاعات والضياع الواسعة، ومنهم وحدهم الحكام والسادة والأشراف، أمّا سواد الشعب الأعظم، فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال، وزرّاع شبه أرقاء يلحقون بالضياع، وأرقاء للسيد عليهم حق الحياة والموت. وإلى جانب السادة والأشراف، يتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السلطان والنفوذ، ذلك أن القوط كانوا أتقياء مؤمنين رغم خشونتهم، وكان للأحبار عليهم تأثيراً شديداً، وقد استطاعوا أن يوجهوا القوانين والنظم، وأن يصوغوا الحياة العقلية والاجتماعية، وفقاً لمثل الكنيسة وغاياتها، ثم استغلوا هذا النفوذ في إحراز الضياع وتكديس الثروات، واقتناء الزرّاع والأرقاء، وهكذا كانت ثروات البلاد كلها تجمع فئة قليلة ممتازة من الأشراف ورجال الدين اختصت بترف العيش ومتاع الحياة، وكل نِعَمِ الحرية والكرامة والاعتبار.

هكذا كانت إسبانيا حينما افتتح العرب إفريقية واقتربوا من شواطىء الأندلس، وكان على عرش إسبانيا يومئذ الملك وتيزا خلف الملك إجيكا وولده، وكان يحكم مملكةً مزّقها الخلاف، وشعباً أضناه العسف، وتحمل

---

(١) د. عنان، ج١.

بعض الروايات الإسبانية القديمة على وتيزا، وتصفه بأنه كان ملكاً خليعاً فاجراً، مغرقاً في شهواته، وأنه كان على رأس بلاط منحل وضيع الخلال.

ويقول البعض الآخر: إنه كان بالعكس ملكاً فاضلاً حسن السيرة، وافر الحكمة والعدالة، وأنه عمل على رد المظالم وإقامة العدل.

ويقول د. عنان[١]: «والمرجح المتداول، أنه أحسن السيرة في بداية عهده، وردّ إلى اليهود سابق حقوقهم وامتيازاتهم، ولكنه حاول أن يحد من سلطة الأشراف والأحبار، وأن يجمع السلطة في يد العرش، فسخط عليه الأشراف ورجال الدين، ودبَّروا لإسقاطه ثورة بعد ثورة، ولكنه أخمدها جميعاً، وهدم جميع المعاقل والحصون الداخلية لكي يحطم سلطان خصومه ويجردهم من وسائل الدفاع والمقاومة، فلم يزدهر البطش والهزيمة إلاّ ظمأً إلى الخروج والثورة، وكان في مقدمة خصومه الذين يخشى بأسهم دوت تيودوفريد الذي نفاه أبوه الملك إجيكا إلى قرطبة، فزاد على ذلك أن سمل عينيه مبالغة في النكاية به، وحاول أن يفعل ذلك في «بلاجيوش» ولد فاڤيلا دوق كتابريا، ولكنه استطاع الفرار من نقمته، وكان الشعب من جهة أخرى يرزح أبداً تحت نير الجور والإرهاق، فكان عرش القوط يرتجف فوق بركان مضطرم من السخط.

وتقول الرواية النصرانية[٢]: إن الزعماء الناقمين انتهزوا فرصة اقتراب أسطول إسلامي من جنوب إسبانيا ورفعوا لواء الثورة، وأن وتيزا استطاع أن يرد هذا الأسطول، وإن تيودومير قائد الأسطول القوطي هزم المسلمين في معركة بحرية كبيرة وذلك في سنة ٧٠٨م، وربما كان المقصود بهذه المعركة هو الحملة البحرية التي جهزها موسى بن نصير بقيادة ابنه عبدالله سنة ٨٩هـ (٧٠٨م) وهي المعروفة بغزوة الأشراف، ولكن المسلمين لم يُهزموا عندئذ في أية موقعة بحرية[٣].

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص٣٣.

(٣) المصدر السابق.

وكان العرب قد طوّقوا أسوار سبته معقل القوط في الضفة المقابلة من البحر، وأمر وتيزا حاكمها الكونت يوليان بأشجع جنده، فانتهز خصومة فرصة ضعفه في الداخل ليديروا الثورة مرة أخرى، وقاد الثورة عندئذ زعيم جريء هو ردريك ابن دوق «تيودونورد» الذي فقأ وتيزا عينَيْ أبيه، فكان يُحفزه باعث الانتقام أيضاً، وكان يتزعّم حزباً قوياً، التفَّ حوله رجال الدين والأشراف والأُسر الرومانية، فجمع جيشاً كبيراً ونادى بنفسه ملكاً. ووقعت بين الفريقين حرب أهلية شديدة، وقد قيل: إن وتيزا قُتل في هذا الصراع وخلص المُلك لمنافسه، وفي رواية أُخرى أن ردريك ظفر به وفقأ عينيه انتقاماً لأبيه، ويقال أيضاً: إنّه ارتدّ إلى إحدى الولايات الشمالية وامتنع بها حتى وفاته، وكذلك يختلف المؤرخون في تاريخ ولاية ردريك الملك، فيقول البعض، ومنهم ردريك الطليطلي: إنّه تولى سنة ٧١١م، وحكم مع وتيزا قسماً من إسبانيا، وإنه لما توفي وتيزا في سنة ٧١٣م، استأثر بالحكم مدى عام آخر حتى فتح إسبانيا.

وعلى أي حال فإن المعركة استمرت زمناً بين ردريك وولدَيْ وتيزا وهما إيفا وسيزبوت يعاونهما عمهما أوباس أسقف طليطلة وإشبيلية ورأس الكنيسة، والتفّ حولهما رجال الدين وكل أنصار الحكم القديم، وكان ردريك قوي الجانب وافر الشجاعة والعزم، فاستطاع أن يُخمد الثورة في كل ناحية، واستتبّ له الأمر حيناً، ومع ذلك فقد بقي عرش القوط مضطرباً يهتز في يد القدر، وكان القدر يجثم في ناحية أُخرى.

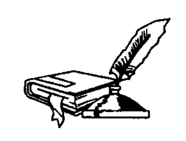
ذلك أن خصوم ردريك اتجهوا بأبصارهم إلى خارج الجزيرة، وكان الكونت يوليان حاكم سبته والمضيق، محطّ أنظارهم ومساعيهم، وقد اختُلِفَ في أمر الكونت يوليان اختلافاً بيّناً، فالروايات العربية القديمة تشيد بذكره، وبالدور العظيم الذي أدّاه في الفتح[1]، وينكر وجوده بعض أكابر المؤرخين الإسبان مثل «ماسدى» وغيره، ولكن الرواية العربية أرجح لأن الكونت يوليان كان قوطياً إسبانياً، ولأنّه كان يرتبط ببلاط طليطلة بصلات وثيقة،

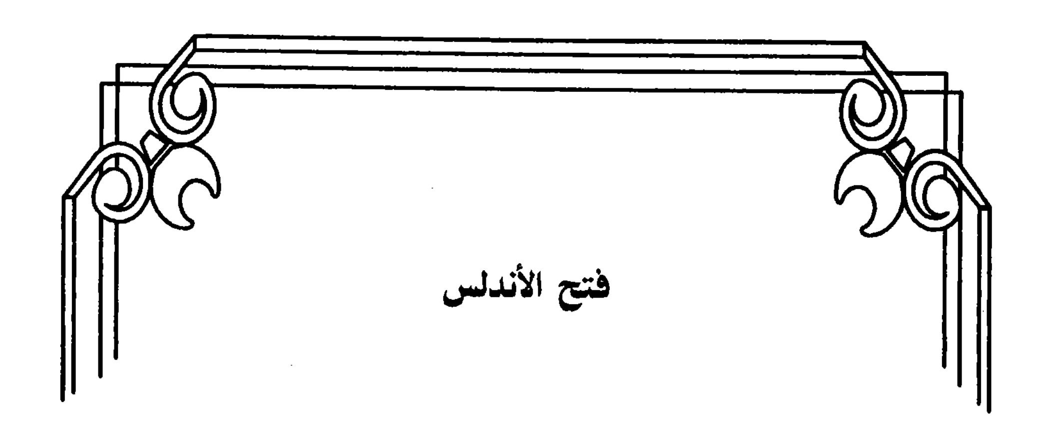
---

(١) ابن الأثير، ج٤، نفح الطيب، ج١، وغيرها مثل ابن القوطية في افتتاح الأندلس.

وقد أيّدت الرواية العربية بعض الروايات النصرانية المتأخرة التي تقول: إن الكونت يوليان كان حاكماً لسبته، وهي يومئذ من أملاك العرش القوطي، وإنه كان رجلاً شجاعاً، ولكنه كان مغامراً منتقماً، وإنه كان من أقارب الملك ڤاميا، وإنه كان من أكابر الأشراف الذين يرجع أصلهم إلى القوط، وإنه كان قريباً للملك وتيزا، ولما نشب الخلاف الداخلي حول العرش، انضمّ الكونت إلى أنصار الحكم القديم وأنصار الملك وتيزا، وكان غنياً، شديد البأس، كثير الأتباع والجند، يعتصم بالبحر، بعيداً عن سلطة العرش، ويقبض على مفتاح إسبانيا (الأندلس) بحكمه لسبته والمضيق، وكان من خصوم الحكم الجديد يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه. فاتصل به ابنا وتيزا وباقي الزعماء الخوارج، واستقرّ الرأي على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت، وهذا هو السبب التاريخي للتحالف الذي عقد بين يوليان وموسى بن نصير وانتهى بفتح العرب لإسبانيا، وقيل: إن يوليان كان يعمل مع العرب بدافع الانتقام الشخصي أيضاً، فقد كانت له ابنة رائعة الحُسن تدعى فلورندا أوكابا، أرسلها إلى بلاط طليطلة جرياً على رسوم ذلك العصر، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان، فاستهوى جمالها الفتّان قلب ردريك فاغتصبها وانتهك عفافها، وعلم الكونت بذلك فاستقدم ابنته إليه وأقسم بالانتقام، ونزع ردريك ذلك العرش الذي اغتصبه، فلما نشبت الحرب الأهلية بين ردريك وخصومه، والتجأ هؤلاء الخصوم إليه، رأى الفرصة سانحة للعمل، ولم يَرَ خيراً من الاستنصار بالعرب ومعاونتهم على فتح إسبانيا.

ومهما كان من أمر يوليان، ومهما كان من بواعث غضبه ونقمته على مليكه، فقد كان تدخله أكبر عامل في تذليل فتح المسلمين لشبه الجزيرة الإسبانية، والقضاء على مملكة القوط.





فتح الأندلس

في ظل هذه الظروف والأحداث التي تحدّثنا عنها، كان العرب قد أتمُّوا فتح المغرب الأقصى، واستولوا على ثغر طنجة، وأشرفوا على شواطىء الأندلس من الضفة الأُخرى من البحر، وما بقي من فتح إفريقية سوى ثغر سبته الذي يقع مقابل طنجة في الطرف الآخر من اللسان المغربي، وكانت سبته قد استطاعت لمنعتها وسهر حاكمها الكونت يوليان أن تحبط كل محاولة لأخذها.

وقد مكث موسى بن نُصير في القيروان، وخلَّف طارق بن زياد في طنجة، فتطلّع طارق نحو حصن سبته، الذي عجز المسلمون عن الاستيلاء عليه أيام عقبة بن نافع، وأيام موسى بن نصير أيضاً.

وكان موسى بن نصير يتوق إلى افتتاح هذا الثغر المنيع، الذي يحكمه يوليان، والذي بدوره قد احتكّ بالعرب المسلمين وخاصة عندما وصل موسى إلى طنجة، ولما أحسّ يوليان بقوة المسلمين عمل على كسب ود طارق بن زياد أمير طنجة (وكان طارق بن زياد رجلاً سياسياً بعيد النظر، فلعله صادق يوليان ليستعين به على إخضاع مَن تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون)[1].

ويقول ابن عبدالحكم[2]: «فراسل طارق يوليان، ولاطفه حتى تهاديا».

(١) فجر الأندلس، د. حسين مؤنس، ص٥٥.

(٢) فتوح مصر وأخبارها.

وبالطبع فإن طارق لم يلاطف يوليان ليمتصَّ شرّه وإنما ليستفيد منه فيما هو أهم من سبته، فقد كانت أنظار المسلمين تتطلع إلى الأندلس.

وبينما كان موسى بن نصير يتطلّع إلى افتتاح سبته لتكون نقطة انطلاق إلى الأندلس، بينما هو على هذه الحال جاءته رسالة من الكونت يوليان نفسه يعرض فيها تسليم معقله، ويدعوه إلى فتح الأندلس، وجرت بينهما المفاوضة حول هذا العمل الكبير، وذكرت المصادر أنهما اجتمعا في سفينة في البحر، وقيل: إن يوليان استدعى موسى إلى سبته، وهنالك وقعت المفاوضة بينهما، وقد استجاب موسى بن نصير لدعوة الكونت يوليان، فقد وجد أن ما يعرضه يوليان فرصة عظيمة وهائلة، وخاصة عندما عرض عليه تسليم سبته وباقي معاقله، وتقديم سفنه لنقل المسلمين في البحر، ومعاونته بجنده، وإرشاده[1].

عندئذ كتب موسى بن نصير إلى الوليد بن عبدالملك خليفة المسلمين يبلغه بأمر هذا العرض، وجاء رد الوليد أن يختبر هذا العرض بالسرايا والحملات الصغيرة في البداية وألاّ يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر، برغم أن المسلمين كانوا قد خاضوا قبل ذلك غمار المعارك البحرية.

ظلّ موسى بن نصير قابعاً بطنجة يُعد العدة للفتح، في حين اعتقد يوليان وحلفاءه أن دور موسى والعرب هو المساعدة لاستعادة حكمهم لإسبانيا، ولم يقصدوا بدعوة موسى أن يمتلك إسبانيا. وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت أيديهم بالأسلاب والغنائم، رجعوا إلى إفريقية[2].

استمع موسى بن نصير لنصيحة أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك، وبدأ بمحاولة صغيرة، فجهّز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس، بقيادة ضابط من البربر يُدْعى طريف بن مالك، فعبروا البحر من سبته في أربع سفن قدّمها يوليان، إلى البقعة المقابلة التي سميت جزيرة طريف باسم قائد

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان، ج١، ص٣٩.

(٢) ابن الأثير، انظر: ج١، ص٢١٤.

الحملة، وذلك في رمضان سنة إحدى وتسعين (يوليو سنة ٧١٠م). وجاست الحملة الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان، فأصابت كثيراً من الغنائم، وقوبلت بالإكرام والترحيب، وشهدت كثيراً من دلائل خصب الجزيرة وغناها، ثم عادت في أمن وسلام، وقصَّ قائدها على موسى نتائج رحلته، فاستبشر بالفوز، وجدّ في أهبة الفتح.

وفي رجب سنة ٩٢هـ/ أبريل سنة ٧١١م جَهَّزَ موسى بن نصير جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي، وكان يومئذ حاكماً لطنجة، وكان طارق بن زياد «رجلاً طويلاً أشقر، بعينيه قبل - أي حوَلْ - وبيده شلل»[١] وكان ضخم الهامة، وفي كتفه الأيسر شامة[٢].

وكان طارق كما ذكرنا مولى لموسى بن نصير، وقيل: إنه من سبي البربر، وقيل: إنّه بربري من بطن من بطون نفزة[٣]، وقد تلقى طارق الإسلام عن أبيه زياد عن جده عبدالله، وهو أول اسم عربي إسلامي في نسبته، ثم ينحدر مساق النسبة بعد ذلك خلال أسماء بربرية محضة حتى ينتهي إلى نفزة، وهي القبيلة التي ينتمي إليها[٤].

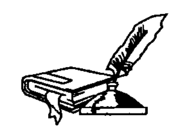
ومن حيث الجندية كان طارق جندياً عظيماً ظهر في غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته، وقدّر موسى مواهبه بمقدرته، واختاره لحكم طنجة وما يليها، وهي يومئذ أخطر بقاع المغرب الأقصى وأشدها اضطراباً، ثم اختاره لفتح الأندلس، فعبر البحر من سبته بجيشه تباعاً في سفن يوليان القليلة، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم وهو «جبل طارق» وذلك في يوم الاثنين الخامس من رجب سنة ٩٢هـ /٢٧ أبريل سنة ٧١١م[٥].

---

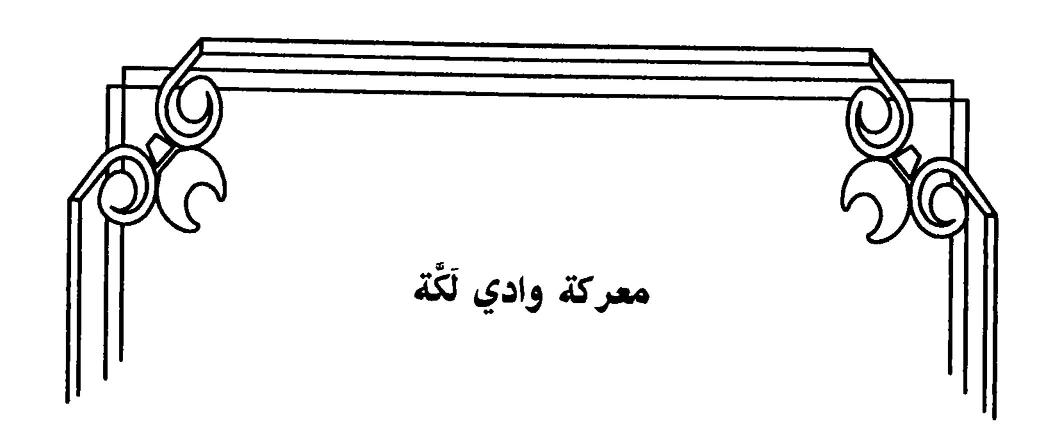
(١) الإمامة والسياسة، ج٢، ص٧٤.
(٢) نفح الطيب للمقري، ج١، ص١١٩.
(٣) البيان المغرب لابن عذارى، ج٢، ص٦.
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٦.
(٥) نفح الطيب للمقري، ج١، ص١١٩.

وقد اقتحم طارق المنطقة المجاورة غرباً بمعاونة يوليان وإرشاده، وزحف على ولاية الجزيرة التي كان يحكمها تيودمير القوطي عامل ردريك[1] واحتلّ قلاعها بعد أن هزم شراذم من القوط تصدّت لوقفه.

وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم، وكان لزريق (ردريك) يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج في الولايات الشمالية، فهرع إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر المحيط بعرشه وأمته، وبعث قائده أديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته، ولكن طارقاً هزمه واخترق المنطقة الوسطى والغربية في المثلث الإسباني والتي تسمى الفرنتيزه معتزماً السير صوب عاصمة القوط.



(١) ردريك هو لزريق كما تسميه المراجع العربية.



معركة وادي لَكَّة

كان لزريق أميراً شجاعاً وافر المقدرة والعزم، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته كثيراً من السخط والكراهية، وكان عرشه يرتجف فوق بركان من الخلاف، وكانت إسبانيا قد مُزّقت شيعاً وأحزاباً، كل حزب أو شيعة تتطلع إلى السلطة، وكان أهم هذه الأحزاب وأقواها حزب العرش القديم الذي يلتف حوله ولدَيْ «غيطشة» وهما: «أبه» و«شتسبرت» ومع ذلك فقد اعتصم القوط عند الخطر الداهم بنوع من الاتحاد، واستطاع لزريق (ردريك) أن يجمع حوله معظم الأُمراء والأشراف والأساقفة، وحشد هؤلاء أتباعهم ورجالهم، فاجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدّره بعض الروايات بمائة ألف مثل ابن الأثير(١) تزيد أو تقل قليلاً.

وسار لزريق نحو الجنوب للقاء المسلمين، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأُهبة العظيمة، فكتب إلى موسى يستنجد به، فأمدّه بخمسة آلاف مقاتل، فبلغ المسلمون اثني عشر ألفاً، وانضم إليهم يوليان في قوة صغيرة من أتباعه.

كان القوط يفوقون عدد المسلمين، فهم أضعاف عددهم، وكان المسلمون يقاتلون في أرض عدوهم التي تحتوي على هضاب وطبيعة وعرة شاقة، ولكن قائدهم البطل طارق بن زياد تقدَّم إلى هذه الموقعة الحاسمة

---

(١) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٢١٤، وانظر: نفح الطيب للمقري، ج١، ص١١٢ الذي يقدره بسبعين ألفاً.

بعزم الأبطال وشجاعة الأُسود، فكانت المعركة على ضفاف نهر وادي لكَّة أو وادي بكة[1]، في هذا السهل الصغير الذي تحدّه من الجنوب سلسلة من التلال العالية، وعلى ضفاف بحيرة حتدة ونهر بارباتي، هناك تلاقى جيش المسلمين وجيش القوط، ووقف القائد المسلم طارق بن زياد يقول لجنوده: أيها الناس: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مائدة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلاّ سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدّت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم وتعوّضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم؛ فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم، بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة؛ وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاعاً فيها للنفوس، أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقى قليلاً استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم بأوفى من حظي. وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان، الرافلات في الدر والمرجان. والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات في القصور ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة... ثم قال: إن حملت فاحملوا، وإن وقفت فقفوا، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال، وإني عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أُنهيه حتى أخالطه وأمثل دونه، فإن قُتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم، وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل وأسير، وإياكم وإياكم

(١) انظر: دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان، ج١، ص٤٢.

أن ترضوا بالدنية، ولا تعطوا بأيديكم، وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة، والراحة من المهانة والمذلة، وقد أحلّ الله لكم ثواب الشهادة، فإنكم إن تفعلوا، والله معكم ومفيدكم... وها أنذا حامل حتى أغشاه[١] فاحملوا بحملتي[٢].

هنالك تلاقى جيش الإسلام وجيش النصرانية، وذلك في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢، ١٧ يوليه سنة ٧١١م، وفرّق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة شُغلت بالمعارك البسيطة. وفي اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة، وظهر لزريق في الميدان في حلل ملوكية فوق عرش تجرّه الخيل القوية.

واستمرت المعركة هائلة مضطرمة بين القوى النصرانية الضخمة، وبين القوة المسلمة المتواضعة نحو أربعة أيام. ولكن الجيش القوطي كان رغم كثرته مختل النظام منحل العرى، وكان يقود جناحيه إيفا وسيزبوت خصما ردريك. وتتكون صفوفه من أتباعهما وأتباع حلفائهما من الأمراء والزعماء النّاقمين، الذين تظاهروا بالإخلاص وقت الخطر، وكلهم يتحيّن الفرصة للإيقاع بالملك المغتصب، فكانت الخيانة تمزق جيش القوط شرَّ ممزق، واستمال يوليان والأسقف أوباس وهما في صف المسلمين كثيراً من جند القوط، وبثّا بدعايتهما في الصفوف الموالية للزريق كثيراً من عوامل الشقاق والتفرُّق، فأخذ كل أمير يسعى بسلامة نفسه، وتمكن الجيش الإسلامي على ضآلة عدده، بجَلَدِه وثباته واتحاد كلمته، من جيش القوط، فلم يأتِ اليوم السابع من اللقاء حتى تمّ النصر لطارق بن زياد وجنده، وهزم القوط شر هزيمة، وشتتوا ألوفاً في كل صوب.

أما ردريك آخر ملوك القوط ـ أو لزريق كما يسمِّيه العرب ـ فقد اختفى عقب الموقعة، ولم يُعثر له على أثر، فيقول ابن الأثير[٣]: إنه غرق

---

(١) يقصد لزريق ملكهم.
(٢) د. عنان، دولة الإسلام، ج١، ص٤٧.
(٣) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٢١٤.

في نهاية الموقعة، فقد رمى نفسه مختاراً في النهر[1]، وقد ثقّلته الجراح، ومات قتيلاً أو غريقاً في المعركة.

وعلى أثر هذه الموقعة الحاسمة التي هُزِمَ فيها الجيش القوطي شرَّ هزيمة ومُزق تمزيقاً، ساد الرعب في أوساط القوط، فامتنعوا بالحصون والجبال، وقصدوا إلى الهضاب والسهول، وذاعت أنباء النصر في طنجة وسبته وما جاورهما من أراضي العدو، وزحف طارق بجيشه شمالاً، وكانت بقية الجيش القوطي قد اجتمعت عند «أستجة» لتحاول رد الجيش الفاتح، فالتقى الجيشان هناك ثانية، وهزم القوط مرّةً أُخرى، ولم يبقَ إلاّ أن يستولي الفاتحون على المدن والقواعد الحصينة واحدة بعد الأُخرى.

وكان يوليان وأصحابه إلى جانب المسلمين، يعاونهم بالنصح والإرشاد كما قدّمنا، ففي أستجة وضُعت خطة السير، وتقرّر أن يسير طارق بنفسه إلى طليطلة عاصمة المملكة القوطية، وأرسل طارق مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبدالملك إلى قرطبة في سبعمائة فارس، فاقتحم أسوارها الحصينة واستولى عليها دون مشقة، وأرسل حملات أخرى إلى غرناطة والبيرة ومالقة، فافتتحت مالقة وفرَّ سكانها إلى الجبال، ثم لحق جيشها بالجيش المتجه إلى البيرة وغرناطة، فحوصرت غرناطة قليلاً وفُتحت، ثم فُتحت البيرة، وكان المسلمون يضمُّون إليهم في كل مدينة من المدائن المفتوحة حامية صغيرة لحفظها، ثم سار المسلمون بعد ذلك شرقاً نحو ولاية مرسية، وكانت تسمى يومئذ تيودمير، أو (تدمير) باسم أميرها، وقاعدتها مدينة أوريولة؛ وكان تيودمير جندياً كبيراً، وافر العزم والبأس، فالتقى بالمسلمين، ونشبت بينه وبينهم معارك شديدة هلك منها معظم رجاله، فارتدّ إلى أوريوله، وامتنع بها، وعرض النساء، حسبما تقول الرواية، على أوريوله في أثواب الرجال إيهاماً بكثرة جنده، واستطاع بثباته وجلده، أن يعقد الصلح مع المسلمين بشروط حسنة أنقذت بها مدينته من السبي والجزية[2].

---

(١) نفح الطيب، ج١، ص١٢١.

(٢) ابن الأثير، ج٤، ص٢١٥، وابن عذارى في البيان، ج١، ص١٣.

وقد نصّ الصلح على ما يلي:

«نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبدالعزيز بن موسى لتدمير عبدوس»:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبدالعزيز إلى تدمير، أنه نزل على الصلح، وأنّه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه مُلكه، ولا أحد من النصارى من أملاكه. وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساءهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم ما تعبّد ونصح، وأن الذي اشترط عليه أنّه صالح على سبع مدائن، أوريوله، وبلنتله، ولقنت، ومولة، وبقسرة، وأنة، ولورقة، وأنه لا يأوي لنا عدواً، ولا يخون لنا أمناً، ولا يكتم خبراً علمه، وأنه عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساطِ طلا، وأربعة أقساط خل، وقسطَيْ عسل، وقسطَيْ زيت، وعلى العبد نصف ذلك، . . .

كتب في أربع من رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة. . شهد على ذلك . . ».

وسار طارق في بقية جيشه إلى طليطلة مخترقاً هضاب الأندلس وجبال سيرا موريتا (جبل الشارات) التي تفصل بين الأندلس وقشتالة، بإرشاد يوليان وأصحابه، وكان القوط قد فرُّوا منها نحو الشمال بأموالهم وآثار قدِّيسيهم، ولم يبقَ بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فاستولى طارق عليها، وأبقى على مَن بقي من سكانها، وترك لأهلها عدّة كنائس، وترك لأحبارهم حرية إقامة الشعائر الدينية، وأباح للنصارى من القوط والرومان اتباع شرائعهم وتقاليدهم، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخا الملك وتيزا.

وتابع طارق زحفه شمالاً، فاخترق قشتالة ثم ليون في وهاد ومفاوز صعبة. وطارد فلول القوط حتى أسترقة، فلجأت إلى قاصية جلِّيقية واعتصمت بجبالها الشامخة، وعبر طارق جبال أشتوريش (أستورياس).

ـ «وهنا تذكر الرواية العربية أن طارقاً انتهى إلى مدينة المائدة خلف جبال أستورياس، فاستولى على مائدة سليمان بن داود، وهي خضراء من

زبرجد، حافاتها منها، وأرجلها ثلثمائة وخمسة وستون. ويقال: إن هذه المائدة غنمها الرومان من المشرق أو بيت المقدس في بعض غزواتهم ثم نقلوها إلى روما، فغنمها منهم القوط حين افتتحوا روما، ثم أحرزها العرب عند فتح إسبانيا»[١].

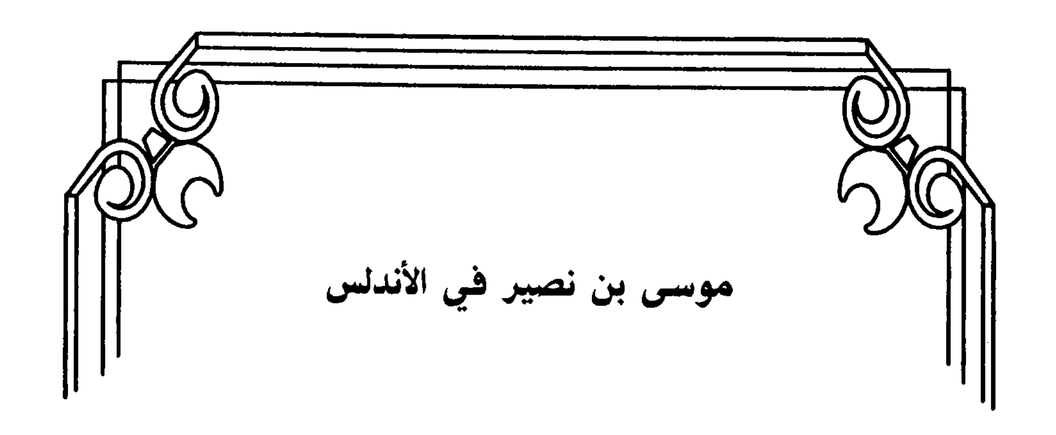
وذكر ابن الأثير أن أحد ملوك إسبانيا في عهد الوندال غزا بيت المقدس وأحرز المائدة[٢].

وذكر صاحب الروض المعطار، وبعض مؤرخي الإفرنج، أن هذه المائدة من نفائس ملوك القوط، وأن العرب عثروا عليها في كنيسة طليطلة[٣].

وواصل طارق بن زياد سيرَهُ حتى أشرف على ثغر «خيخون» الواقع على خليج بسكونية (غسقونية) فكان خاتمة زحفه ونهاية فتوحاته، وقد وصل إلى مياه المحيط، ثم عاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بن نصير بوقف الفتح، وكان قد مرّ عام على دخوله إسبانيا.



(١) انظر: دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان، الهامش، ص٥١، ج١.
(٢) الكامل في التاريخ، ج٤، ص٢١٢.
(٣) الروض المعطار، ص٥.



موسى بن نصير في الأندلس

ذكرت مصادر عربية كثيرة[1] أن موسى بن نصير لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لقائده طارق بن زياد، فلما علم بمدى فوزه ونصره، أُعجب به إعجاباً شديداً، ولكن هذا الإعجاب تحوّل إلى حسد وغيرة، وخشي أن يُنسب هذا الفتح العظيم إليه دونه، فكتب إليه ألاّ يتقدّم حتى يلحق به، ويتوعّده بالعقاب إذا توغل بغير إذنه.

أما ابن عذارى[2] فقد ذكر تعليلاً دقيقاً عندما قال بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط.

وهذا التعليل قريب إلى الدقة، لما هو معروف عن موسى بن نصير من الحذر والحيطة، واستماعاً لنصيحة الوليد بن عبدالملك من أن التوغل كثيراً دون حساب لقوة العدو واختبارٍ لها قد يأتي بالكوارث والهزائم، وهذا لا يجعلنا نستبعد الغيرة، فموسى بن نصير بشر ككل البشر.

عبر موسى بن نصير البحر إلى إسبانيا في جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً، منهم عشرة آلاف من العرب وثمانية من البربر، وحملهم في سفن صنعها خصيصاً لهذا الأمر، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان وذلك في رمضان سنة ٩٣هـ /٧١٢م. واستهلّ زحفه بمدينة شدونه

---

(١) من هذه المصادر، الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج٤، ص٢١٥، وابن عبدالحكم، ص٢٠٧، وابن خلدون، ج٤، ص١١٧.

(٢) البيان المغرب، ج٢، ص١٥ وما بعدها.

فاستولى عليها، ثم سار إلى قرمونة وهي يومئذ من أمنع حصون الأندلس، فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه، ثم قصد بعدئذ إلى إشبيلية أكبر وأعظم قواعد بلاد الأندلس، فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً، ثم سار إلى ماردة وحاصرها فترة طويلة، وقتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين في كمين دبَّرهُ النصارى، وعندما اشتدّ الحصار على أهلها دعا القوم إلى السلم، فأرسل أهلها إليه رُسلاً، فدخلوا على موسى أول يوم من المفاوضات، فإذا هو أبيض شعر الرأس واللحية، لقد ذهب أثر خضابه فظهر الشيب، ولم يتفق لهم معه على أمر، وعاودوه في اليوم الثاني ـ وكان قبل عيد الفطر بيوم واحد ـ فإذا هو قد صبغ لحيته، فجاءت كما وصفها المقري في نفح الطيب «كضرام العرفج» أي كالنار في لونها، والعرفج شجر شديد الالتهاب، أي أصبحت لحيته حمراء اللون، فعجبوا من ذلك، وعاودوه يوم الفطر (العيد) فإذا هو قد سوَّد لحيته، فازداد تعجبهم منه، لأن أهل الأندلس لم يعرفوا الخضاب ولا استعماله قبل الفتح الإسلامي، فقالوا لقومهم: إنا نقاتل أنبياء يتخلَّقون كيف شاؤوا، ويتصوَّرون في كل صورة أحبُّوا، كان ملكهم ـ يقصدون موسى ـ شيخاً، ثم صار شاباً، والرأي أن نقاربه ونعطيه ما يسأله، فما لنا به طاقة، فأذعنوا عند ذلك، وأكملوا صلحهم، وفُتحت المدينة يوم عيد الفطر الأول سنة ٩٤هـ[١].

وتمّ الصلح على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم[٢].

وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها وكان قد سار إلى استقباله فأنَّبه وبالغ في إهانته، وزجّه مصفَّداً إلى ظلام السجن بتهمة الخروج والعصيان، وقيل: بل همّ بقتله[٣].

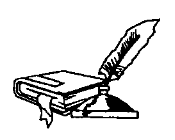
---

(١) انظر: نفح الطيب، ج١، ص٢٥٣.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان، ص٥٢، ج١.

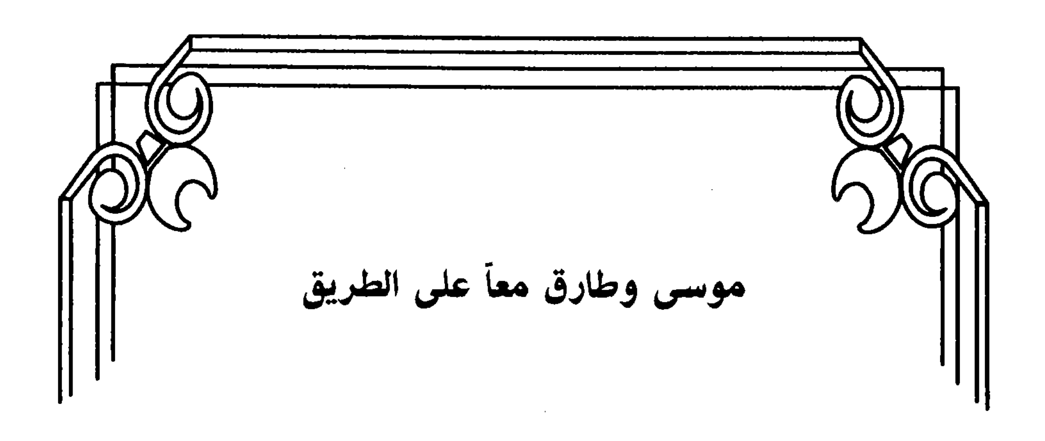
(٣) هذه الأقوال وردت في الكامل لابن الأثير، ج٤، ونفح الطيب للمقري، ج١، ص١٢٧، وابن عبدالحكم، ص٢٠٨، وجذوة المقتبس للحميدي، ص٦.

وقد انفرد ابن عبدالحكم برواية مضمونها: «أن طارقاً استجار بمغيث الرومي وكان عائداً من الأندلس إلى المشرق، ووعده بمائة عبد مكافأة إذا هو أبلغ أمره إلى الوليد بن عبدالملك، فقام مغيث بالرسالة، وبادر الوليد بالكتابة إلى موسى أن يطلق سراح طارق ويتوعده إذا أساء إليه، وحمل مغيث هذا الكتاب إلى الأندلس، فأفرج موسى عن طارق ورده إلى منصبه»[1]، وذكر الطبري أن طارقاً ترضّى موسى فرضي عنه وقبل عذره[2].



(١) ابن عبدالحكم، ص٢١٠.

(٢) تاريخ الطبري، ج٨، ص٩١.



موسى وطارق معاً على الطريق

وضع موسى وطارق خطة لافتتاح ما بقي من إسبانيا، ثم زحفا نحو الشمال الشرقي، واخترقا ولاية أراجون (الثغر الأعلى)، وافتتحا سرقسطة وطركونه وبرشلونه وغيرها من المدائن والمعاقل، ثم افترق الفاتحان، فسار طارق نحو الغرب ليغزو جلّيقة، وليتم القضاء على فلول القوط. وسار موسى شمالاً فاخترق جبال البرنية (جبال البرت أو البرتات أو الممرات) وغزا ولاية لانجدوك التي كانت تابعة إذ ذاك لملوك القوط. واستولى على قرقشونه (كاركاسون)، وأربونه (ناربون). ثم نفد إلى مملكة الفرنج وغزا وادي الرون (رذونة) حتى مدينة لوطون (ليون) فاضطرب أُمراء الفرنج وأخذوا في الأهبة لرد الغزاة، ويقال: إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت في تلك السهول على مقربة من أربونه.

عندئذ كتب الوليد بن عبدالملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة، ويأمره بالعَوْد، في الوقت الذي فكر فيه القائد الجريء أن يخترق أوروبا غازياً فاتحاً، وأن يصل إلى الشام من طريق القسطنطينية، وأن يفتتح في طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها، وهذا ما يقوله المؤرخ العربي ابن خلدون ـ عن حلم الفاتح العربي العظيم موسى بن نصير ـ يقول ابن خلدون:

«وجمع أن يأتي المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم أمم النصرانية

مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة»[1].

ولم يكن موسى بن نصير غافلاً عن حلمه الكبير، فقد كان يقدّر تنفيذ مشروعه العظيم بجيش ضخم يقتحم البرية يؤيده من البحر أسطول قوي، فيبدأ بافتتاح مملكة الفرنج ثم يقصد إلى مملكة اللومبارد في شمالي إيطاليا، فيخترقها فاتحاً إلى روما قاعدة النصرانية، فيفتتحها ويقضي فيها على كرسي النصرانية، ويتابع سيرَهُ بعدئذ شرقاً إلى سهول الدانوب مقتحماً ثغور القبائل الجرمانية التي تسيطر على ضفافِهِ، ثم يخترق أراضي الدولة البيزنطية حتى قسطنطينية فيستولي عليها، ثم يعبر إلى آسيا الصغرى قاصداً إلى دمشق فيصل بذلك أملاك الخلافة الإسلامية فيما بين المشرق والمغرب من طريق الشمال، كما اتصلت من طريق الجنوب.

ويقول الدكتور عنان[2]: «ولم يكُ ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم، فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والقوة والبأس، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلَّت...».

ثم يضيف: «ولم يكن حلماً وإغراقاً ما تصوّره موسى بن نصير واعتزمه، ولكن سياسة الإحجام والتردد التي اتبعها بلاط دمشق نحو الفتوح الغربية والتي كادت تحول دون فتح إسبانيا، أودت بذلك المشروع البديع، وكتب الوليد بن عبدالملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين في دروب مجهولة، ويأمره بالعَوْد، فارتدّ موسى مرغماً آسفاً، ولكنه تمهّل في العَوْد حتى يتم إخضاع معاقل جليقية التي اعتصمت بها فلول القوط، ويطهر إسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة، فاخترق جليقية واستولى على معظم معاقلها، ومزّق كل قوة تصدّت لمقاومته، ولم يبقَ من النصارى سوى شراذم يسيرة اجتمعت حول زعيمها «بلاجيوس» ولجأت إلى قاصية جليقية، وبينما كان موسى يتأهّب للحاق بها وسحقها، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً، ويأمرهما بتعجيل العَوْد»[3].

---

(١) ابن خلدون، ج٤، ص١١٧.

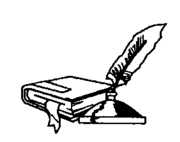
(٢) دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص٥٤.

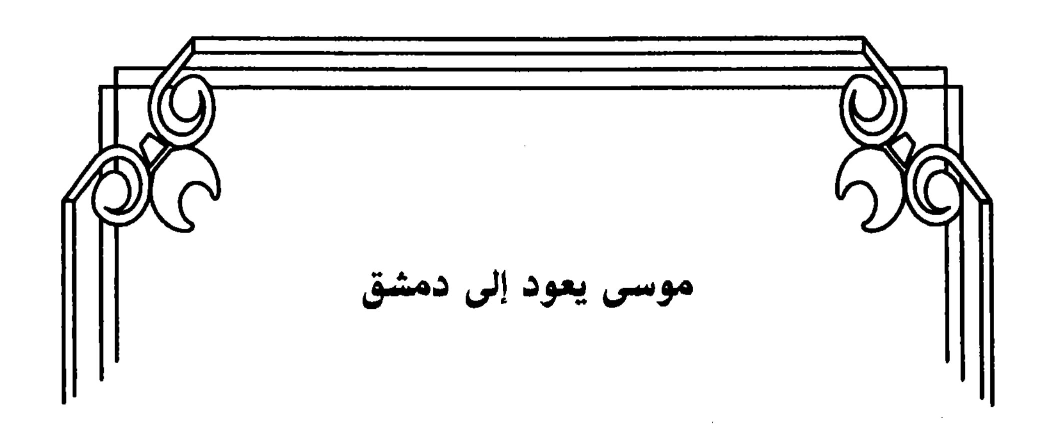
(٣) المصدر السابق.

ولعل أقوى البواعث التي حملت الوليد على هذا الاستدعاء ما نمي إليه من خلاف موسى وطارق، وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف بتفرُّق كلمة المسلمين ونكبتهم في تلك الأقطار الجديدة المجهولة التي افتتحوها.

ولربما كان خوف الوليد بن عبدالملك من استقلال موسى بن نصير بهذا المُلك الجديد البعيد النائي عن بلاد الخلافة باعثاً لاستدعائه إلى دمشق، ولربما كان أيضاً ما بلغ الوليد عن وفرة الأموال والغنائم والتحف التي اغتنمت من الأندلس، لربما كان ذلك باعثاً لاستدعاء موسى إلى دمشق، ويذكر المؤرخون أن استدعاء الوليد لموسى كان بلا ريب خطراً على مستقبل الإسلام في الأندلس، ذلك أن هذه القوى النصرانية الصغيرة التي نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية، لم تلبث أن نمت وقويت، وكان منشأ المملكة النصرانية التي قامت في الشمال، ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام في إسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها.

وفي نفس الوقت الذي كان يُستدعى فيه موسى إلى دمشق، كان عبدالعزيز بن موسى قد افتتح منطقة الساحل الواقعة بين مالقة وبلنسية، وأخمد الثورة في إشبيلية وباجة، وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون، وأبدى في معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والتسامح، والاعتدال في تطبيق الأحكام وفرض الضرائب.





موسى يعود إلى دمشق

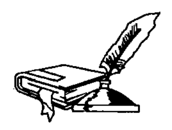
اتخذ موسى بن نصير أُهبته للعود إلى دمشق نزولاً على أوامر الخليفة، فنظم حكومة الأندلس قبل رحيله ما استطاع، وجعل حاضرتها إشبيلية لاتصالها بالبحر، وكانت حاضرتها أيام الرومان، واختار لولايتها ولده عبدالعزيز، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبدالملك، كما استخلف على إفريقية عبدالله أكبر أولاده، وفي شهر ذي الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس ٧١٥م) قفل راجعاً إلى المشرق وطارق معه، وفي رَكْبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يُقدَّر ولا يوصف، وقد أفاضت الروايات الإسلامية في وصف ما غنمه المسلمون في الأندلس من الغنائم الجليلة والسبي الذي لا يحصى، وتقول: إن موسى بن نصير حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يُقدَّر، منها مائدة سليمان السالفة الذكر؛ وأما السبايا فيقال إنه حمل منها ثلاثين ألفاً، بينهم مئات من أشراف القوط، والوصفاء المختارين من ذوات الشباب الغض والجمال الباهر ذكوراً وإناثاً.

وذكر ابن القوطية[1] أن موسى بن نصير عاد ومعه من أبناء الملوك والعجم أربعمائة، وعلى رؤوسهم التيجان من الذهب، وفي أوسطهم مناطق الذهب.

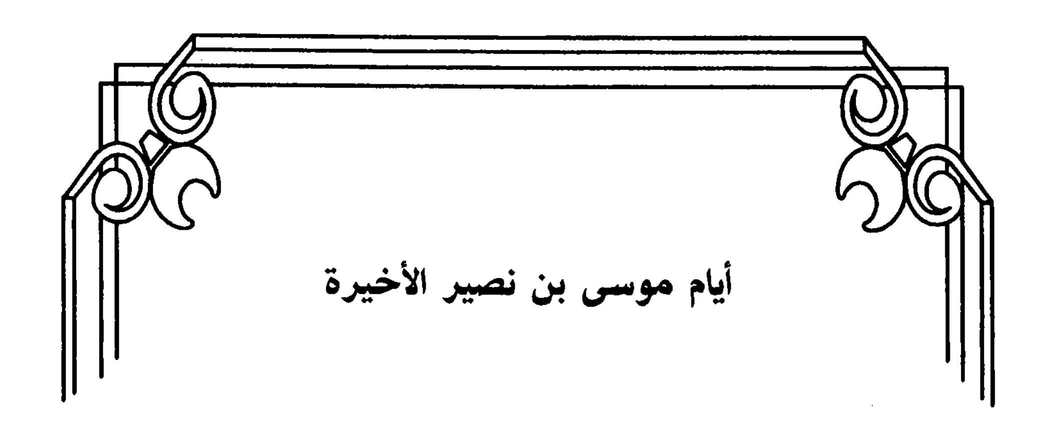
ويقول المقري في «نفح الطيب»: إن العرب وجدوا في طليطلة حين

(١) فتح الأندلس لابن القوطية، ص١٠.

فتحوها من الذخائر والأموال ما لا يحصى، فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصَّعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة، ووُجد فيها ألف سيف ملوكي، ومن الدر والياقوت أكيال، ومن أواني الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف[1].



(١) نفح الطيب، ج١، من ص١٣٠ - ١٣٦.



أيام موسى بن نصير الأخيرة

وفي مصير موسى بن نصير بعد وصوله دمشق روايات كثيرة.

ـ فقيل: إنه وصل دمشق قبل وفاة الوليد بن عبدالملك وقدّم إليه الأخماس والغنائم، فأكرمه وأحسن إجازته.

ـ وقيل: بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء سليمان بن عبدالملك عرش الخلافة، وأن سليمان غضب عليه ونكبه.

ويقول ابن الحكم[1]: إن موسى بن نصير مرّ بمدينة الفسطاط في أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين (٩٦هـ) في طريقه إلى دمشق، وقد توفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة من هذا العام، أي بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف، ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تتجاوز في هذا العصر بضعة أسابيع، فإن الوقت كان يكفي لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته بأسابيع[2].

وتذكر رواية ابن الحكم أن سليمان بن عبدالملك سخط على موسى بن نصير ونكبه، ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد في مرض موته، فكتب إليه سليمان ولي العهد أن يتمهّل في السير رجاء أن يموت الوليد بسرعة!! فيقدم عليه في صدر خلافته بما يحمل من التحف والغنائم

---

(١) فتوح مصر، ص٢١١.

(٢) د. عنان، ج١، ص٥٧.

الكثيرة، فأبى موسى، وجدّ في السير حتى قدم والوليد حي فسلّم إليه الأخماس والغنائم، ثم توفي الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفاً أخاه سليمان على كرسي الخلافة. فغضب سليمان على موسى، وزاد في حقده عليه ما قدّمه في حقه طارق ومغيث من مختلف التُهَم، وفي الحال أمر بعزله، واتهمه وبنيه باختلاس مقادير عظيمة من المال والتحف، واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان، وكان من المقربين وذوي النفوذ عنده، فيروى أن يزيداً قال له: لم أزل أسمع عنكَ أنَّك من أعقل النّاس وأعرفهم بمكائد الحروب ومداراة الدنيا، فقل لي كيف حصلت في يد هذا الرجل بعدما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخّار، وتيقنت بُعد المرام واستصعابه، واستخلفت بلاداً أنت اخترعتها، وحصل في يدك من الذخائر والأموال والمعاقل ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عتقك في يد من لا يرحمك، ثم إنك علمت أن سليمان ولي العهد وأنه الوالي بعد أخيه، وقد أشرف على الهلاك لا محالة، وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التهلكة، وأحقدت مالكك ومملوكك[1].

وما زال يزيد بن المهلب بسليمان حتى عفا عن موسى، وأعفاه من الغرامة الفادحة التي قضى بها عليه، ويقال: بل عفا عنه في حياته، ولم يعفه من الغرامة، وأن موسى استطاع أن يفتدي نفسه ببعض ما فرض عليه، وأن سليمان عفا عنه بعد ذلك[2].

وأقرّ ابنه عبدالله على إفريقية وابنه عبدالعزيز على الأندلس، ومهما كان من عفو سليمان عن فاتح الأندلس المخلص الغيور على دينه أو ما قيل أنه كان يطوف أحياء العرب مع حرّاسه ليسأل بعض المال ليفتدي نفسه، والذي ما لبث على تلك الحال حتى توفي وهو في حالة من البؤس والذلة بوادي القرى في شمال الحجاز حيث ينسب مولده، ووفاته في سنة ٩٧هـ.

---

(١) انظر: تاريخ الأندلس لابن القوطية، ص١٠، ١١، فتوح مصر لابن عبدالحكم، ص٢١١، نفح الطيب، ج١، ص١٣٤، ١٣٥.

(٢) ابن عبدالحكم، فتوح مصر ص٢١٣.

مهما كان من هذه الأخبار التي تثير في النفس شجوناً فإن التاريخ يذكر وسيذكر أمرين هامين:

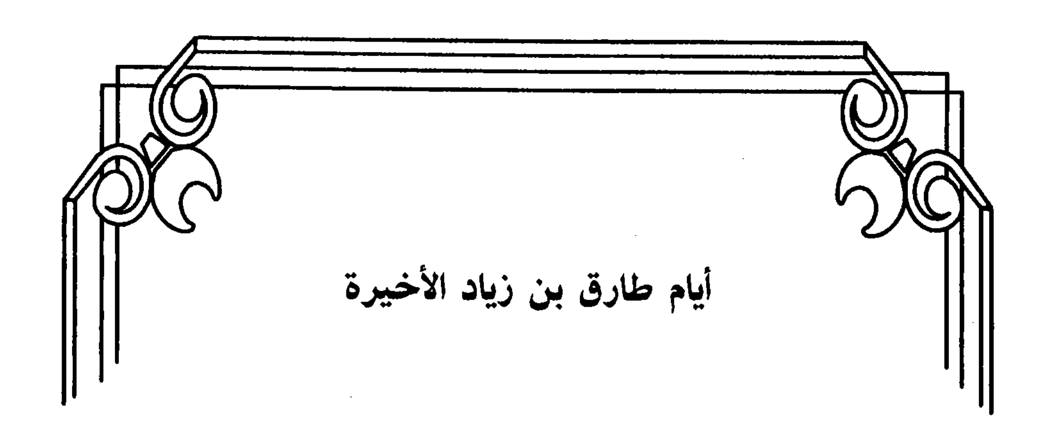
أولهما: أن موسى بن نصير فاتح الأندلس لم يلقَ حقه من التكريم، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ما يشعر المرء بألم الجور والظلم الذي وقع على اسم الرجل وتاريخه وشخصه، وأن الخلافة لم تقدّر البطولة في هذا الموطن حق قدرها، ولم تقدّر عظمة هذا الفتح العظيم الذي غنمته على يد رجلها القدير وقائدها الحكيم موسى بن نصير.

ثانيهما: أن موسى بن نصير كان من أعظم رجال الحرب والإدارة في القرن الأول للهجرة، وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلّدها، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها، على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص في حكمه لإفريقية، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعباً شديد المراس، يضطرم بعوامل الانتفاضة والفتنة، وإذا كان موسى قد أبدى معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدّة، فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب، وبراعة في سياستها وقيادتها، وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية، غزير العلم والأدب، متمكناً من الحديث والفقه، عالماً بالفلك، مجيداً للنثر والنظم، غير أن هذه المواهب والخلال البديعة كانت تشوبها نزعة قوية إلى الطغيان والبطش، وشهوة الحقد والحسد[1].

هذا هو موسى بن نصير صاحب الفضل الأول في عبور الإسلام إلى أوروبا.



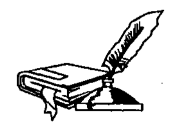
(١) نفح الطيب، ج١، ص١٣٣، ١٣٤.



أيام طارق بن زياد الأخيرة

لم تتحدّث الرواية الإسلامية كثيراً عن أيام طارق بن زياد الأخيرة، إلاّ ما ذُكر على استحياء من أن سليمان بن عبدالملك كان ينوي تعيينه والياً على الأندلس خلَفاً لموسى بن نصير، إلاّ أنّه عدل عن تلك الرغبة حينما شرح له مغيث الرومي فاتح قرطبة كيف كان يتمتع طارق بن زياد في الأندلس بعظيم الهيبة والنفوذ، وذلك توجساً من طمع طارق بالاستقلال بهذا القطر أو الإقليم النائي البعيد عن حاضرة الخلافة[١].

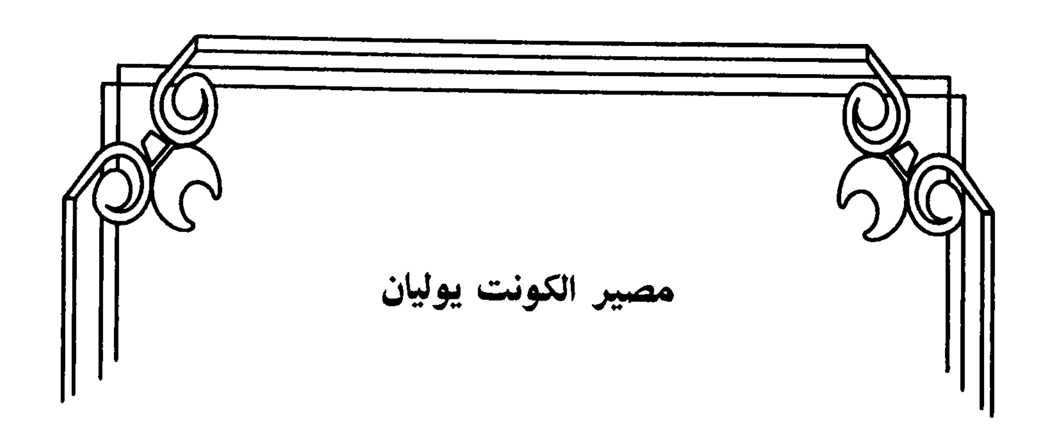
وقد كان مغيث يحقد على طارق وموسى منذ الفتح، ويسعى إلى منافستهما والإيقاع بهما، وكان لوقيعته بهما ومساعيه ضدهما أكبر الأمر في استدعائهما إلى دمشق، ولا تذكر الرواية التاريخية شيئاً حاسماً عن مصير طارق، فمنها ما يقول: إنه استُقبل في دمشق استقبالاً حسناً، ومنها ما يقول: إنه لقي نفس المصير التعس الذي قيل إن موسى لقيه وأنه مات من فقر وضعة[٢].



---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٥٥.

(٢) دولة الإسلام، د. عنان، ج١، ص٦٠ الهامش.

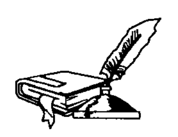


مصير الكونت يوليان

الكونت يوليان هو الرجل الذي مهّد لفتح الأندلس، يقول في مصيره الدكتور عنان[1]: «لم تُشِر الرواية الإسلامية إليه. وفي بعض الروايات أنّه عاد بعد الفتح إلى سبته، وأقطع ما حولها من الأراضي، وقُلِّد إمارتها جزاء خدماته، ولكنه بقي نصرانياً هو وبنوه الأقربون، ثم دخل عقبة في الإسلام بعد ذلك، وتقول الرواية الكنسية الإسلامية: إنه قُتل بيد مواطنيه في معركة نشبت بينهم وبينه، أو أنّه قُتل بعد ذلك بأعوام في ولاية الحر الثقفي بيد العرب لريبة في ولائه، وتقول هذه الرواية أيضاً: إن العرب أعدموا ابنَيْ وتيزا وأفراد أسرته لمثل هذا السبب، وهذا ما تنفيه الرواية الإسلامية بل وتؤكد عكسهُ تماماً، فالمصادر الإسلامية تُجمِع كلها على أن العرب أحسنوا معاملة إيڤا أو أيبا، وسيزبوت ابنَيْ وتيزا وعمهما أوباس، فأما أوباس فقد عُيِّن كما تقدم مطراناً لطليطلة، وأُقطع إيڤا وسيزبوت ما كان لأبيهما من الضياع، ثم توفي إيڤا أكبر الأخوين بعد ذلك بأعوام عن ابنة تدعى سارة وولدين صغيرين، فاغتصب سيزبوت ميراثه وضياعه، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى دمشق وشكت عمها إلى الخليفة هشام بن عبدالملك، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها، وبعث بذلك إلى والي الأندلس ابن الخطار الكلبي، وتزوجت سارة في دمشق من عيسى بن مزاحم وهو

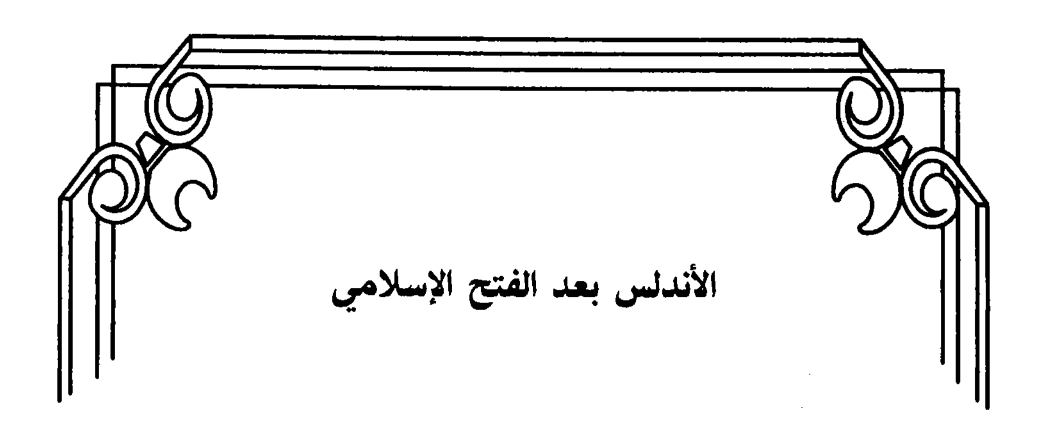
(١) دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص٦٠، ٦١.

سيد عربي، ورُزقت منه بولدين هما إبراهيم وإسحاق، ثم عادت إلى الأندلس، وأحرز ولداها مكانة ممتازة، وإليها ينتسب ابن القوطية القرطبي المؤرخ صاحب تاريخ الأندلس، نِسْبةً إلى لقبها العربي وهو سارة «القوطية»[1].



---

(١) المصدر السابق.



الأندلس بعد الفتح الإسلامي

في دولة كانت ترزح تحت نير الظلم والاضطهاد، وقد كانت حتى عهد الفتح الإسلامي ترزح في غمار مرهقة من الجور والعسف، وكانت الأقليات المتسلطة من الأمراء والنبلاء تحكم شعباً بأسره وتستغله أشنع استغلال، في وسط هذا كله جاء الإسلام ليقضي على هذا كله، فيحمل بين يديه العدل والحرية والمساواة إلى الناس جميعاً، ويعطي كل ذي حق حقه، ويقضي على البغي والظلم.

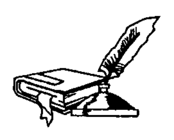
وقضى الفتح الإسلامي على سلطان الطبقات الممتازة، فتنفّس الشعب الصعداء، وعندما فرض المسلمون الضرائب فرضوها بالمساواة والاعتدال والعدل، بعد أن كان يفرضها حكم الهوى والجشع، وأمن الناس على حرياتهم وحياتهم وأموالهم، وترك الفاتحون من أهل الإسلام لرعاياهم أهل الأندلس، تركوا لهم قوانينهم يتبعوها، وقضاتهم وقضائهم، واختاروا لهم حكاماً من أبناء جنسهم.

وعامل المسلمون النصارى واليهود بالتسامح، فلهم دينهم وعقائدهم وشعائرهم، وكل ما فُرض عليهم هو أداء الجزية، ومَن دخل منهم الإسلام سقطت عنه الجزية، وأصبح كالمسلم سواء بسواء في جميع الحقوق والواجبات، فالعرب كانوا يتحلون بكثير من التسامح، فلم يرهقوا أحداً في شؤون الدين[1].

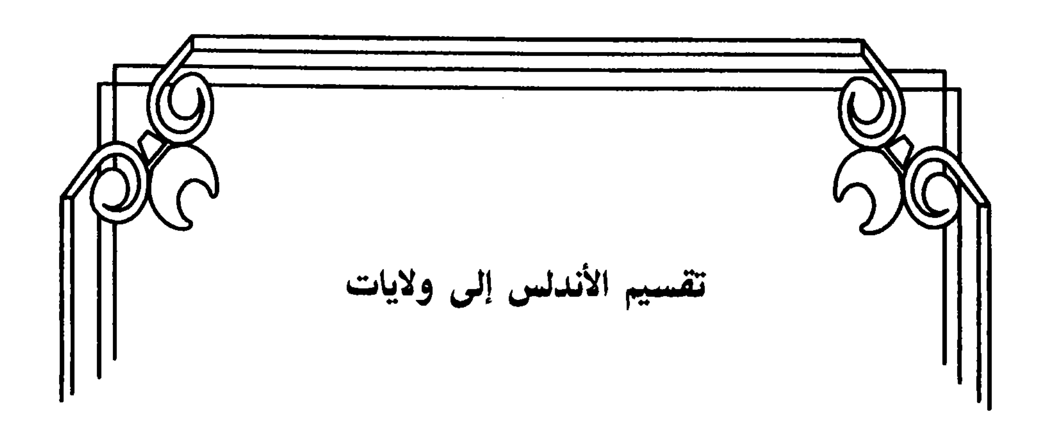
---

(١) رينهرت دوزي، الإسلام في الأندلس، ج١.

وقد عنى الفاتحون عقب الفتح بتنظيم شؤون الحكم والإدارة، فقسمت إسبانيا على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط، في البداية، إلى أربع ولايات كبيرة على رأس كل منها حاكم يعينه الحاكم العام، ويُسأل أمامه مباشرة عن أعماله وشؤون إدارته. أما حاكم الأندلس أو واليها العام، فكان تعيينه في المبدأ راجعاً إلى حاكم إفريقية يختاره بموافقة الخليفة[١].



(١) دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان، ج١، ص٧٠.



تقسيم الأندلس إلى ولايات

قُسمت الأندلس إلى عدة ولايات معروفة بمدنها وقصباتها كالتالي:

ـ **الولاية الأولى**: كانت الولاية الأولى تشمل إقليم الأندلس، الممتد بين البحر المتوسط ونهر الوادي الكبير، وما يلي هذا النهر حتى نهر وادي يانه، وأشهر مدنها: قرطبة، وإشبيلية، ومالقة، وإستجة وجيان.

ـ **الولاية الثانية**: وتشمل جميع إسبانيا الوسطى من البحر المتوسط شرقاً إلى حدود البرتغال غرباً (لوزيتانيا) ثم إلى نهر دويرة (دورو) شمالاً، وأشهر قواعدها طليطلة، على نهر تاجُه، وقونقه، وشقوبيه، وبلنسية، ودانية، ولقنت، وقرطاجنة، ومرسية، ولورقه، وبسطه.

ـ **الولاية الثالثة**: جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة) وأشهر قواعدها ماردة، ويابرة، وباجة، وأشبونة، وقلمرية، ولك، واسترقة، وشلمنصة، وغيرها.

ـ **الولاية الرابعة**: تمتد من نهر دويرة إلى جبال البرنيه (جبال البرت أو الممرات) على ضفَّتَيْ نهر إبرة (إيبرو)، وغرباً إلى جليقية، وأشهر قواعدها سرقسطة، وطرطوشة، وطركونة، وبرشلونة، وأرقلة (أرجل)، وبلد الوليد، ودشقة، ويشتر.

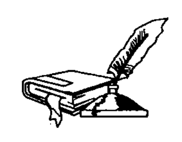
ـ **الولاية الخامسة**: لما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالاً، أُنشئت ولاية خامسة شمالي جبال البرنية شاملة لأربونة، ونيمة (أونومشو) وقرقشونة، وبزييه، وأجده، وماجويلون (أو مقلون) ولوديف.

وقد تفرّقت القبائل في هذه الولايات والقواعد الجديدة. تفرّقت القبائل والعشائر المختلفة، فنزلت قبائل دمشق بكورة قرطبة.

- وحمص بإشبيلية ولبله وأنحائهما.
- وقنسرين بجيان وأنحائها.
- وفلسطين بشذونة والجزيرة وريُّة ومالقة وأنحائها.
- وقبائل اليمن بطليطلة وأراضيها.
- ونزل الفرس بشريش وأحوازها.
- ونزل العراقيون بكورة البيرة وغرناطة.
- ونزل المصريون بتدمير ومارده وأشبونة وأراضيها.
- ونزل الحجازيون بالقواعد الداخلية[1].
- أما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية في نواحي ماردة وبطليوس وأراضي البرتغال، ونواحي الثغر الأوسط شمالي طليطلة فيما وراء نهر التاجة وفي بعض أنحاء الثغر الأعلى، وفي قطاع قونقة والسهلة، ونزلت أقليات منهم بين القبائل العربية بنواحي شاطبة ولقنت، وفي أحواز شذونة وأراضي الفرنتيزة[2].

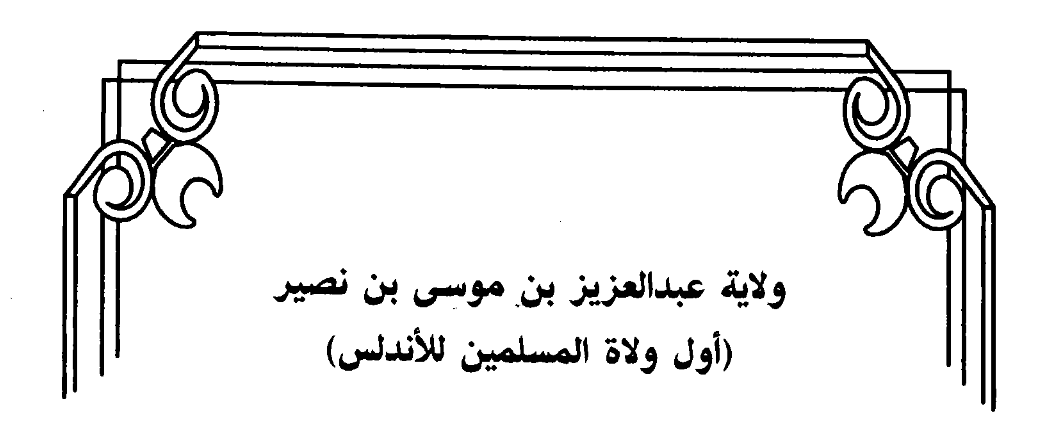
ونجد القبائل العربية قد احتلت معظم الوديان الخصبة في شبه الجزيرة، بينما نزل البربر بالعكس في أقاليم وهضاب قاحلة ولم يحتلوا من البقاع الخصبة سوى القليل.

ويقول د. عنان[3]: «وقد كان هذا التقسيم المجحف للأقاليم المفتوحة عاملاً من عوامل ازدياد الشقاق بين العنصرين الفاتحين العرب والبربر».



---

(١) ابن خلدون، ج٤، ص١١٩.
(٢) جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، ص٤٦٤، ٤٦٥.
(٣) دولة الإسلام، ج١، ص٧١.



ولاية عبدالعزيز بن موسى بن نصير
(أول ولاة المسلمين للأندلس)

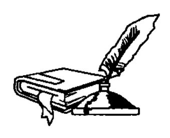
عرفنا أن موسى بن نصير اختار قبل رحيله إلى المشرق ولده عبدالعزيز لولاية الأندلس، وذلك في ذي الحجة سنة ٩٥هـ، فكان أول ولاتها من المسلمين، وأن سليمان بن عبدالملك قد أقرّ هذا الاختيار، فقضى عبدالعزيز بن موسى في ولايته زهاء عامين عنى فيهما بتحصين الثغور، وقمع الخروج والعصيان، وافتتح عدّة أماكن وحصون، وأبدى همّة في تنظيم الحكومة الجديدة وإدارتها، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها لتوافق مشارب الرعايا الجدد من أهل الأندلس، ولتجمع حولها كلمة المسلمين من مختلف القبائل، وشجّع الزواج بين العرب والإسبان، وتزوج هو بالملكة «إيجلونا» ابنة ملك القوط[(١)] (وقيل: أرملته) واشتهر اسمها بين العرب بأم عاصم أو إيلة، واختار في إشبيلية عاصمة الأندلس الجديدة دير «سانتا روفينا» ليكون مقاماً له ولزوجته، وفيه أُجريت أول تعديلات على الطراز العربي، ووفد عليه المهاجرون من مصر والشام والعراق وفارس، فأحيوا بالجزيرة سبل الزراعة والصناعة والتجارة، ولكنه لم يستطع أن يوفّق بين مختلف القبائل، ولا أن يهدّىء من ثورة الجند، هذا إلى ما ثار من ريب حول مقاصده بانقياده إلى زوجته، واتخاذه نوعاً من رسوم الملك حتى قيل: إنّه تنصّر، وقيل: إنه

---

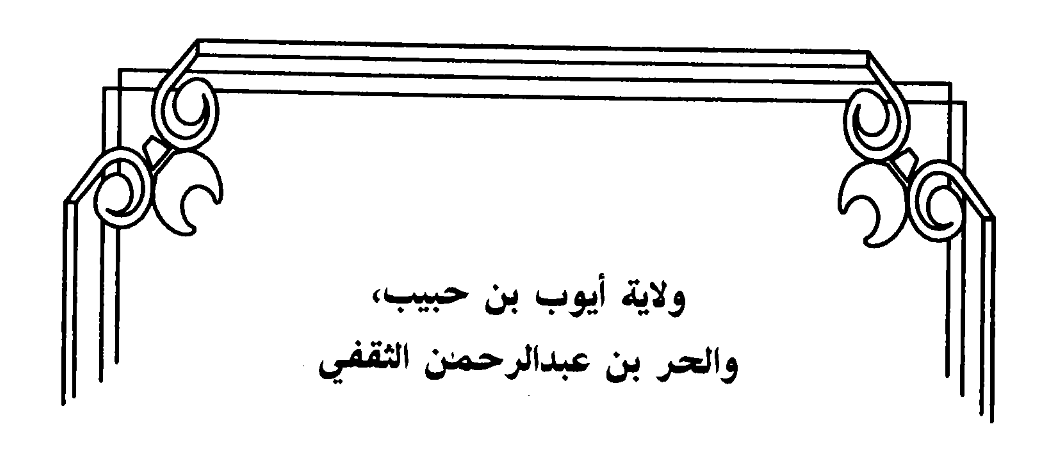
(١) ابن عذارى في البيان المغرب، ج٢، ص٢٢.

كان يبغي المُلك، ويسعى بتحريض زوجته، ويعمل للاستقلال بإسبانيا.

كل هذا جعل خصومه يشنون عليه وعلى تصرفاته دعاية قوية انتهت بالثورة، فوثب به جماعة من الجند على رأسهم وزيره حبيب بن أبي عبده الفهري، وقتلوه أثناء صلاته بأحد مساجد إشبيلية، وذلك في رجب سنة ٩٧هـ/ يناير ٧١٦م، وبعثوا برأسه إلى دمشق، مما يدل على أن سليمان بن عبدالملك والخلافة في دمشق لها دور في مقتله حتى قيل: إن سليمان عرض الرأس على موسى زيادة في إيلامه والتشفِّي منه[١].



(١) انظر: تاريخ الأندلس لابن القوطية، ص٤١، وابن عبدالحكم، ص٢١٢ وما بعدها، وابن عذارى في البيان المغرب، ج٢، ص٢٢، ٢٣.



ولاية أيوب بن حبيب، والحر بن عبدالرحمن الثقفي

بعد مقتل عبدالعزيز بن موسى اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت موسى بن نصير، وكان عاقلاً صالحاً، فهدأت الخواطر نوعاً ما، ولبث في ولايته ستة أشهر، ثم أقاله محمد بن يزيد الذي خلف عبدالله بن موسى في ولاية إفريقية، وعين لولاية الأندلس الحر بن عبدالرحمن الثقفي الذي نقل عاصمة الحكم إلى قرطبة[(١)] فقدمها في ذي الحجة سنة ٩٧هـ في جماعة كبيرة من وجوه إفريقية، وأنفق الحر مطلع ولايته في قمع الفتن والقضاء على المنازعات التي كانت قائمة بين العرب والبربر، وإصلاح الجيش، ومطاردة الخوارج والمعتدين من الجند، وتنظيم الإدارة وتوطيد الأمن، وكان الحر صارماً جائراً شديد الوطأة، ثم سار نحو الشمال في جيش ضخم ليستعيد المدن والحصون الشمالية التي غزاها المسلمون من قبل، فعبر جبال البرنيه واخترق ولاية سبتمانيا أو لانجدوك في ربيع سنة ٩٩هـ /٧١٨م. وكانت مدن سبتمانيا وقرقشونة وأربونة وبزييه ونيمة تابعة لمملكة القوط، وكانت تخلّفت عن الطاعة بعد أن غزاها المسلمون لأول مرة بقيادة موسى بن نصير كما ذكرنا، فافتتحها الحر واستولى عليها، وتابع زحفه حتى ضفاف نهر الجارون، ولكنه اضطر أن يعود أدراجه عندما علم أن النصارى في منطقة نافار الجبلية (نبّره

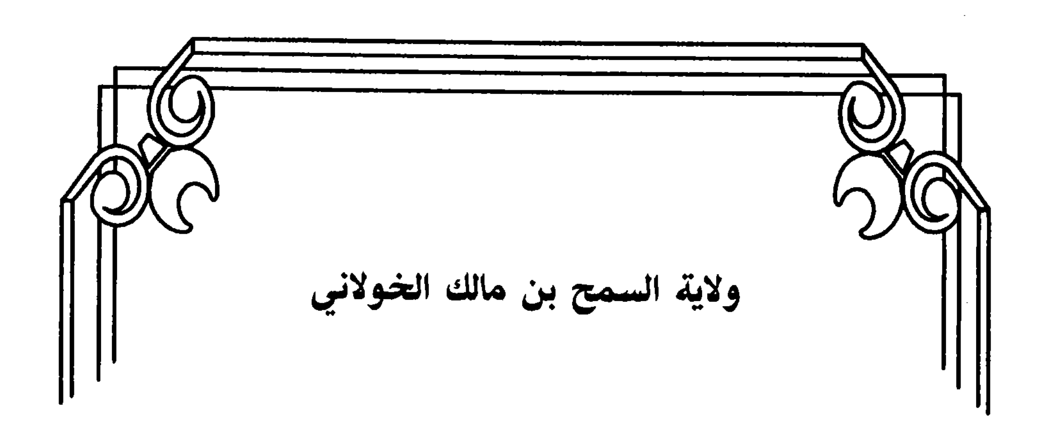
---

(١) نفح الطيب، ج٢، ص٥٦.

أو بلاد البشكنس) قد نظموا حركة مقاومة خطيرة، وأن الأحوال قد اضطربت في قرطبة، واختلّ النظام، وعادت المنازعات والدسائس تعمل عملها، في تقويض الأمن والسكينة، فقضى الحر وقتاً طويلاً في قمع الفتنة، حتى عزله أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز في منتصف سنة مائة (سنة ١٠٠هـ) لقسوته وصرامته، واضطراب النظام في عهده، فكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر، سادت فيها القلاقل والفتن[١].



(١) دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان.



ولاية السمح بن مالك الخولاني

كان عمر بن عبدالعزيز قد تولّى الخلافة، فاختار لولاية الأندلس السمح بن مالك الخولاني، وقرَّر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن إفريقية تابعة للخلافة مباشرة، وذلك لما رآه من أهميتها واتساع شؤونها، وكانت إلى ذلك الحين تابعة لوالي إفريقية وهو الذي يقوم بتعيين ولاتها.

وذكر ابن عذارى[1] أن عمر بن عبدالعزيز فكّر في إخلاء الأندلس وإجلاء المسلمين قاطبة عنها، لانقطاعهم بها، وعزلتهم فيما وراء البحر عن باقي أقطار الخلافة، فقيل له: إن المسلمين قد تكاثروا بها واستقروا، فعدل عن مشروعه، وقالوا: «وليت الله تعالى أبقاه حتى يفعل، فإن مصيرهم مع الكفار إلى بوار إلاّ أن يستنقذهم الله برحمته».

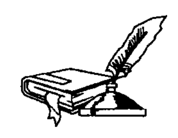
وجاء «السمح بن مالك الخولاني» إلى الأندلس في رمضان سنة ١٠٠هـ (أبريل سنة ٧١٩م) مزوداً بنصائح الخليفة، وأولها بالطبع العدل، فمنه يُؤخذ وبه يُقتدى، والرفق بأهل الرعية الجدد، وأن يقيم كلمة الحق والدين. وكان «السمح بن مالك» حاكماً وافر الخبرة والحكمة والعقل، فقبض على زمام الأمور بحزم وهِمَّة، وبادر بقمع المنازعات والفتن وإصلاح الإدارة والجيش، وخمّس جميع أراضي الأندلس التي فُتحت عنوة، وقرّر عليه الخراج بنسبة الخُمس بعد أن حصرها جميعاً.

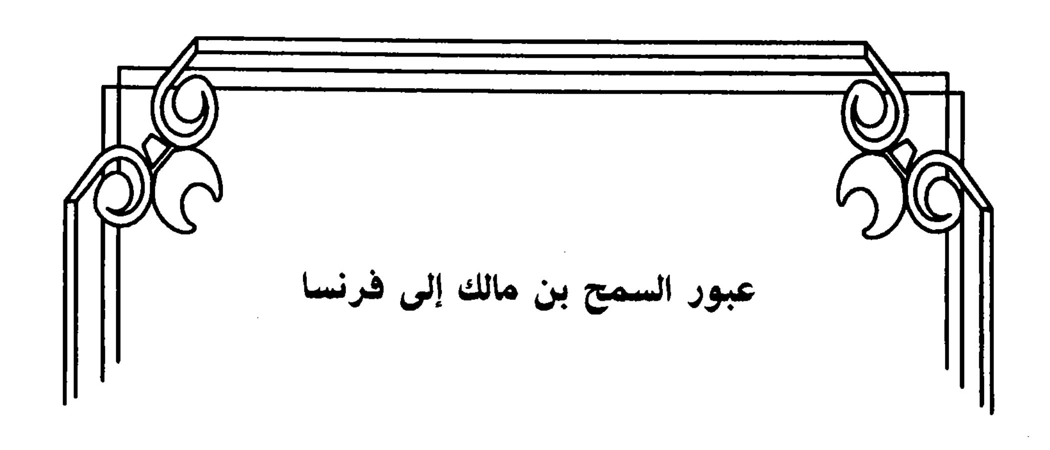
وأنشأ السمح قنطرة قرطبة الشهيرة، على نهر الوادي الكبير، تحقيقاً

---

(١) البيان المغرب، ج٢، ص٢٥.

لرغبة أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، وأبدى في جميع أعماله حزماً ورفقاً وعدلاً، فالتفَّ الزعماء حوله، وخبت الفتنة وهدأت الخواطر واستقر النظام والأمن، وكان السمح جندياً جريئاً وقائداً عظيماً، فلما انتهى من مهمة التنظيم والإصلاح، تأهّب لاستئناف الغزو وتوطيد سلطان الخلافة في الولايات الجبلية والقواعد الشمالية التي لم يستطع أن يتمم إخضاعها الحر الثقفي، فزحف على لانجدوك «سبتمانيا» في أواخر سنة **٧١٩**م في جيش ضخم وفي جماعة كبيرة من وجوه الزعماء والقادة، واخترق جبال البرنيه من الشرق من ناحية روسيون، واستعاد أربونة وقرقشونة ومعظم قواعد «سبتمانيا» وحصونها، وعاث في تلك الأنحاء، وشتّت كل قوة تصدّت لمقاومته، ووقعت هذه الغزوة الشاملة في سنة ١٠١هـ/٧٢٠م وقد اجتاح العرب يومئذ غاليس القوطية كلها وجميع قواعد «سبتمانيا» ثم اتجه السمح بعد ذلك نحو الشرق ليغزو مملكة الفرنج الجنوبية، وزحف نحو «تولوز»، وكان الصدام العنيف بين العرب والفرنج.





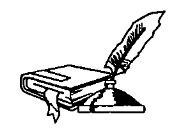
عبور السمح بن مالك إلى فرنسا

تولى «كارل مارتل» قيادة دولة الفرنج بعد صراع داخلي طويل، وأصبح محافظاً للقصر لا ينازعه منازع وذلك منذ سنة ٧٢٠م، وأصبح يحكم جميع الفرنج في أستراليا ونوستريا.

أما السمح بن مالك والي الأندلس الإسلامي فقد غزا ولاية سبتمانيا القوطية، واستولى على قواعدها، وزحف المسلمون بقيادته على مدينة تولوشه (تولوز) عاصمة أكوتين، وكان أودو دوق أكوتين أحد أعضاء الأسرة المرڤنجية، أقوى أمراء الفرنج في فرنسا وأشدهم بأساً، وكان أثناء الاضطراب الذي ساد مملكته الفرنج قد استقل بإقليم أكوتين وبسط نفوذه على جميع فرنسا الجنوبية، من اللوار إلى البرنيه، والتفّ حوله القوط والبشكنس (النافاريون) وأخذ يطمح إلى انتزاع ملك الفرنج، أو ملك أسرته، ويُعِد العدّة لقتال كارل مارتل المتغلب عليه، ولكنه اضطر أن يشغل عن مشروعه برد خطر العرب الداهم.

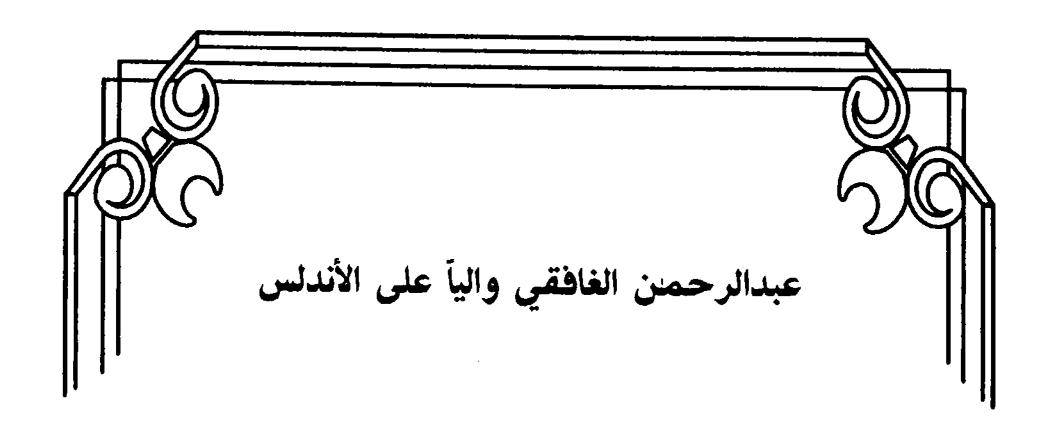
أمّا السمح فقد استولى على سبتمانيا وأقام بها حكومة إسلامية، ووزع الأراضي بين العرب والسكان، وفرض الجزية على النصارى، وترك لهم حرية الاحتكام إلى شرائعهم، ثم زحف نحو الغرب ليغزو أكوتين كما قدّمنا، فقاومه البشكنس والغسقونيون سكان هذه الأنحاء أشد مقاومة، ولكنه فرّق جموعهم، وقصد إلى تولوشة، وكان الدوق أودو قد جمع في تلك الأثناء جيشاً ضخماً وسار لرد العرب، وعلم السمح بذلك فارتدّ عن مهاجمة تولوشة ليلقى جيش الدوق رغم تفوقه على جيشه في العدد، والتقى الفريقان

بظاهر تولوشة ونشبت بينهما معركة هائلة سالت فيها الدماء الغزيرة، وكثر القتل في الجيشين، وأبدى المسلمون رغم قلّتهم شجاعة خارقة، وتراوح النصر حيناً بين الفريقين، ولكن السمح سقط قتيلاً من فوق جواده، فاختلّ نظام الفرسان المسلمين، ووقع الاضطراب في الجيش كله، وارتدّ المسلمون إلى سبتمانيا بعد أن فقدوا زهرة جندهم، وسقط منهم عدة من الزعماء الأكابر وذلك في التاسع من ذي الحجة سنة اثنتين ومائة **١٠٢** الموافق (٩ يونيو سنة **٧٢١**م)[١]. وكان لا بُدَّ للجيش أن يختار قائداً يحل محل السمح بن مالك.



---

(١) البيان المغرب لابن عذارى، ج٢، ص٢٥، تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص١١٨.



عبدالرحمن الغافقي والياً على الأندلس

كان لمقتل السمح بن مالك أثراً في نفوس المسلمين، لكنهم تداركوا الأمر واختاروا عبدالرحمٰن بن عبدالله الغافقي لقيادة الجيش.

مَن هو الغافقي؟

هو أبو سعيد عبدالرحمٰن بن عبدالله بن بشر بن الصارم الغافقي، نسبة إلى غافق، وهي قبيلة من قبائل الأزد.

وقيل: بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث بن عدنان، وعرف بالعكي نسبة إلى بني عك، وغافق بطن منهم.

تابعي جليل، ورجل فذ، جمع إلى الشجاعة والإقدام العدل في الأحكام، والسهر على مصالح العباد، وبُعْدِ النظر في السياسة، تعمّد المؤرخون الإيجاز في سيرته والاكتفاء بمجرد الإشارة مع عظيم تقديرهم له(١).

رحل عبدالرحمٰن الغافقي إلى إفريقية، ثم وفد على سليمان بن عبدالملك ـ الخليفة الأُموي ـ بدمشق، وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبدالعزيز أيام إقامتهما في الأندلس.

ظهرت براعته في إنقاذ الجيش الإسلامي من المطاردة، عقب مقتل السمح بن مالك الخولاني في طولوشة، وتولى على أثر معركة طولوشة «تولوز» سنة ١٠٢هـ، فانتقل إلى أربونة، فانتخبه المسلمون أميراً عليهم وأقره

---

(١) د. حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٦١.

عامل إفريقيا، ولبث يُخمد الفتن حتى قدم عنبسة بن سحيم الكلبي الذي اختاره بشر بن صفوان الكلبي والي إفريقية، والياً للأندلس، وكان الخليفة عمر بن عبدالعزيز قد جعل الأندلس ولاية مستقلة كما قدّمنا تتبع الخلافة مباشرة، ولكن خلفه يزيد بن عبدالملك لم يُقر هذا التعديل، فعادت الأندلس تابعة لإفريقية كما كانت، وقدِم عنبسة بن سحيم الكلبي إلى الأندلس في صفر سنة ١٠٣هـ، وأنفق حيناً في تنظيم الإدارة، وضبط النّواحي، وإصلاح الجيش، وإعداده لغزوات جديدة، وفي أواخر سنة ١٠٥هـ/ أوائل سنة ٧٢٤م سار عنبسة في الجيش إلى الشمال غازياً، وعبر جبال البرنيه مرة أخرى، وغزا سبتمانيا التي فقد المسلمون كثيراً من معاقلها، منذ هزيمة تولوشة، واستولى على قرقشونة ونيما وما بينهما من القواعد، وارتدّ القوط على مخالفة الفرنج إلى مخالفته، وتابع زحفه شمالاً في وادي الرون، ونفذ إلى برجونية حتى مدينة أوتون فغزاها وخربها (أغسطس سنة ٧٢٥م) ثم غزا مدينة صائص وخشي أودو دوق أكوتين أن يهاجمه المسلمون مرّة أُخرى، فسعى إلى مفاوضتهم ومهادنتهم، وبسط المسلمون سلطانهم قوياً في شرق جنوبي فرنسا. وفي ذلك يقول المؤرخون: كان نجاح عنبسة راجعاً إلى الجرأة والبراعة، أكثر منه إلى القوة والكثرة، وكان لينه ورفقه وحسن معاملته للسكان، عاملاً في تقوية سلطان الإسلام في جنوبي فرنسا[١].

ولكن المفاجأة أصابت المسلمين في مقتله عندما داهمتهم جموع كبيرة من الفرنج فأصابت منهم إصابات بالغة ارتدوا على أثرها للداخل، وقُتل عنبسة متأثراً بجراحه في المعركة في شعبان سنة ١٠٧هـ/ ديسمبر ٧٢٥م، وعاد الاضطراب إلى الجزيرة.

وعلى مدى خمسة أعوام بعد وفاة عنبسة توالى الولاة على الأندلس:

- فتولّى عزرة بن عبدالله الفهري، لبث في منصبه شهرين.

---

(١) د. عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص٨٢.

- ثم يحيى بن سلمة الكلبي، ولاّه بشر بن صفوان عامل إفريقية، فقدم الأندلس سنة ١٠٧هـ، وامتدَّ حكمه عامين ونصف لم يحدث فيها شيء يُذكر.

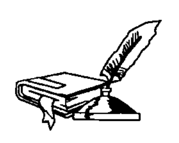
- ثم تولّى عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، فقدمها في شعبان سنة ١١٠هـ، ولبث في منصبه ستة أشهر ثم عُزل.

ثم تولّى حذيفة بن الأحوص القيسي فلم تطل ولايته سوى أشهر أيضاً.

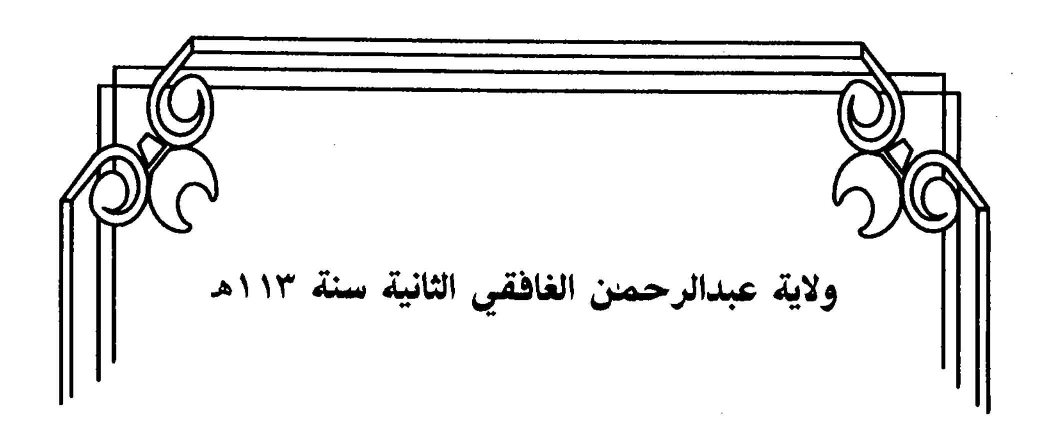
- ثم تولى الهيثم بن عبيد الكلابي أو الكناني، فقدم الأندلس في المحرم سنة ١١١هـ، وبالطبع فإن هذا التتابع أصاب الجزيرة بالخلل والاضطراب، وتفاقم الخلاف بين الزعماء والقبائل.

فلما ولي الهيثم حاول أن يقمع الفوضى والسيطرة على النظام، وفي سبيل تحقيق ذلك طارد الشغب والفوضى بشدة، واضطهد معظم مخالفيه في الرأي، وبالأخص اليمنية، وتتبّع كثير منهم بالسجن والمطاردة، وقاد حملة ضد «منوسة» وهو زعيم بربري غامض الشخصية، كان حاكماً لمنطقة الأسترياس، وظهرت منه أعراض التمرد، وفشل الهيثم في قمع التمرد نتيجة لتفكك الجيش وتمرد البربر، ولم يلبث الهيثم أن توفي بعد أن حكم الأندلس عامين.

فاختارت «الجماعة» مكانه محمد بن عبدالله الأشجعي حتى يعيَّن الوالي الجديد، فلبث في منصبه شهرين حتى يعيَّن عبدالرحمٰن الغافقي والياً على الأندلس مرة أخرى في صفر سنة ١١٣هـ[١].



(١) نفح الطيب، ج٢، ص٥٦.



ولاية عبدالرحمن الغافقي الثانية سنة ١١٣هـ

بموافقة خليفة المسلمين هشام بن عبدالملك عيّن عبيدة بن عبدالرحمٰن السلمي والي إفريقيا عبدالرحمٰن الغافقي والياً على الأندلس في صفر سنة ١١٣هـ/ أبريل ٧٣١م، فكانت ولايته الثانية.

وقد كان عبدالرحمٰن كما ذكرنا من قبل جندياً عظيماً، ظهرت مواهبه الحربية في غزوات فرنسا، وحاكماً قديراً بارعاً في شؤون الحكم والإدارة، ومُصلحاً كبيراً يضطرم رغبة في الإصلاح، بل كان بلا شك أعظم ولاة الأندلس وأقدرهم جميعاً، وقد تحدّث ابن عبدالحكم وغيره[1] على تقدير عبدالرحمٰن الغافقي، والتنويه برفيع خصاله، والإشادة بعدله وحلمه وتقواه.

رحّبت الأندلس قاطبة بولاية الغافقي، وأحبّه الجند لعدله ورفقه ولينه، وجمعت هيبته كلمة القبائل، فتراضت مضر وحمير، وذاب الصراع بين اليمنية والقيسية في ظل عدله هناك، وعاد الوئام للجيش.

وبدأ عبدالرحمٰن ولايته بزيارة الأقاليم المختلفة، فنظّم شؤونها، وطاف الأقاليم ـ أقاليم الأندلس ـ ينظر شؤون الناس ومظالمهم، ويقتص من القوي للضعيف، ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ويستبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة، متأهباً لفتح بلاد الغال أو غاليا، والتي عُرفت عند المسلمين باسم: «الأرض الكبيرة»، وهي فرنسا حالياً.

---

(١) انظر: جذوة المقتبس للحميدي، ج٦، ص٢٥٥ مع ابن عبدالحكم، ص٢١٦ وما بعدها.

دعا عبدالرحمٰن المسلمين من اليمن والشام ومصر وإفريقية إلى مناصرته، فأقبلت عليه الجموع المؤمنة المجاهدة، فازدحمت بهم قرطبة قاعدة الأندلس في أيامه.

وكان عبدالرحمٰن الغافقي يتوق إلى الانتقام لمقتل السمح بن مالك وهزيمة المسلمين في تولوشة (تولوز)، وبدأ الفرنج والقوط في الولايات الشمالية بالتحرك لمهاجمة المواقع الإسلامية، عندئذ لم يَرَ بُدًّا من السير إلى الشمال قبل أن يستكمل كل أهبته، على أنّه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيَّره المسلمون إلى فرنسا، وفي أوائل سنة **١١٤**هـ/ أوائل سنة **٧٣٢**م سار عبدالرحمٰن إلى الشمال مخترقاً ولاية أراجون (الثغر الأعلى) وناڤار (بلاد البشكنس) وعبر البرنية عن طريق بنبلونة، ودخل فرنسا في ربيع سنة **٧٣٢**م، وزحف فوراً على مدينة آرل الواقعة على نهر الرون، لتخلُّفها عن أداء الجزية.

وقد استولى عليها بعد قتال عنيف ومعركة هائلة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو، ثم زحف غرباً وعبر نهر الجارون، وانقضّ المسلمون على ولاية أكوتين فتساقطت مدنها ووديانها، وكانت إمارة أكوتين في ذلك الوقت تمتد بين نهر الرون شرقاً وخليج غسقونية (بسكونية) غرباً، وبين اللوار شمالاً ونهر الجارون جنوباً، وتشمل مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبيرجور وسانتونج وبواتو وڤنده وجزءاً من أنحو[(١)].

وقد حاول أودو قائد الفرنج أن يوقف زحف المسلمين، ولكن الجيشين التقيا على ضفاف نهر الدردون، فهُزم الدوق أودو هزيمة فادحة، ومُزِّق جيشه شرَّ ممزق، وقد تحدّث مؤرخي الفرنج عن ذلك فقال أحدهم[(٢)]: «والله وحده يعلم كم قُتل في تلك الموقعة من النصارى».

ثم واصل عبدالرحمٰن الغافقي ورجاله الشجعان مطاردة جيش الدوق

---

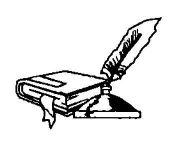
(١) د. عنان، الهامش، ج١، ص٩٠.

(٢) إيزديدور الباجي، المصدر السابق.

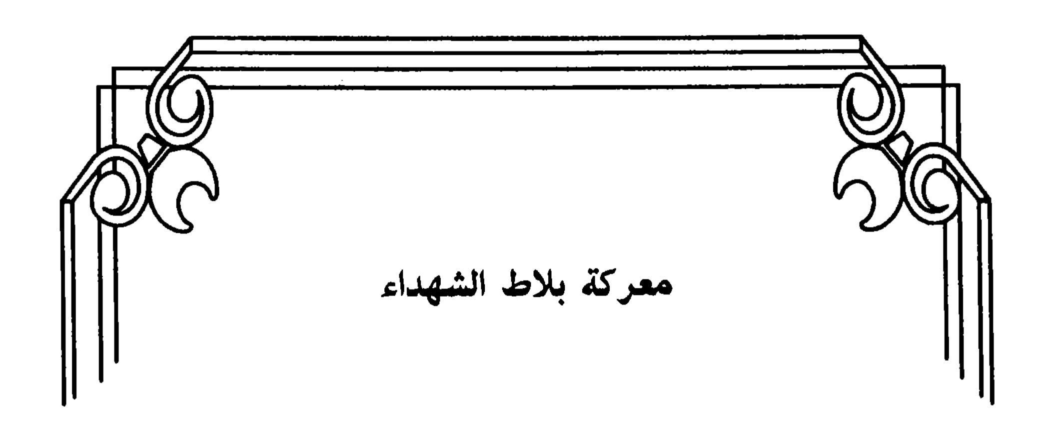
حتى عاصمته بوردو (بردال) واستولى عليها بعد حصار قصير، وفرَّ الدوق في نفر من صحبه إلى الشمال، وسقطت أكوتين كلها في يد المسلمين، ثم ارتدّ عبدالرحمٰن نحو الرون كرّة أُخرى، واخترق جيش المسلمين برجونية واستولى على ليون وبيزانصون، ووصلت طلائعه حتى صافص التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط. وارتدّ عبدالرحمٰن بعد ذلك غرباً إلى ضفاف اللّوار ليُتِم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج.

وواصل الجيش الإسلامي مسيرته الظافرة حتى افتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب، في بضعة أشهر فقط، وامتدت سيطرة المسلمين على خط قدّره المؤرخون بألف ميل من صخرة طارق (جبل طارق) إلى ضفاف اللّوار، وقد كاد هذا الاقتحام وبهذه المسافة الطويلة أن يحمل العرب إلى حدود بولونيا وأودية وسهول أسكتلندا.

ويقول جيبون أحد مؤرخيهم: «فليس الرّين بأمنع من النيل أو الفرات، ولعل أسطولاً عربياً كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية، بل ربما كانت أحكام القرآن تُدرَّس الآن في معاهد أكسفورد، وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة»[١].



(١) د. عنان، ج١، ص٩١، والمؤرخ هو إدوارد جيبون.



معركة بلاط الشهداء

الفرنجة: شعبة من أولئك البربر الذين غزوا روما، وتقاسموا تراثها، وحلّوا في ألمانيا وفرنسا. وتعني كلمة «الفرنجة» الحر.

حكم منهم البيت الميروفنجي من سنة ٤٨١م وحتى سنة ٧١٦م، وكان الحكام الميروفنجيون في آخر حياتهم كما وصفهم المؤرخ أينهارت: إنه لم يكن للملك شيء في المملكة سوى اسمه، وذوائب شعره المرخاة، ولحيته الطويلة، حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه أخذ يلهو بإدارة شؤون الدولة الصبية، فيستقبل الرُسل الوافدين عليه من مختلف الممالك، ويكلمهم بكلمات يتلقنها ليتفوّه بها صاغراً مأموراً، ولم يكن للملك ما يصح أن يدعيه لنفسه سوى صنيعة صغيرة فيها مسكنه الضئيل حجمه، وحاشيته القليل عددها، فإذا اقتضى الأمر سفراً، ركب عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف تجرُّها الأبقار ويسوقها فلاح من الفلاحين، وإذا جاء إلى القصر أو ذهب إلى الاجتماع السنوي العام، سار موكبهُ في هذه الهيئة، على حين أصبح رئيس البلاد مسيطراً في شؤون الإدارة والحكم، مهيمناً على جميع المسائل السياسية الداخلية منها والخارجية[١].

وكان ملك الفرنج يومئذ تيودوريك الرابع، ولكن ملوك الفرنج كانوا في ذلك العصر أشباحاً قائمة فقط، وكان محافظ شارل مارتل هو الملك

---

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، تأليف: هـ، أ، ل فيشر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، ص٧٠.

الحقيقي، يستأثر بكل سلطة حقيقية، وعليه يقع عبء الدفاع عن مُلكه وأمته.

فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم شارل، وهذه سمة لملوكهم، فقالت له: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس، حتى أتوا من مغربها، واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدّة والعدد، يجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم، فقال لهم ما معناه: «الرأي عندي أن لا يعترضوهم في جرحتهم هذه، فإنهم كالسيل يحمل مَن يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيّات تُغني عن كثرة العدد، وقلوب تُغني عن حصانة الدروع، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم، ويتخذوا المساكن، ويتنافسون في الرياسة، ويستعين بعضهم ببعض، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر»[1].

ويقول الدكتور عنان في هذا الشأن:

«ونستطيع أيضاً أن نفسر تمهُّل شارل مارتل بأنه كان يقصد إلى ترك خصمه ومنافسه أودو دون إغاثة حتى يقضي المسلمون على مُلكِهِ وسلطانه، فيتخلص بذلك من منافسته ومناوأته»[2].

وعلى أي حال فإن عبدالرحمٰن كان قد اقتحم أكوتين وجنوبي فرنسا كله، حينما تأهب شارل مارتل للسير إلى لقائه، وجاء الدوق أودو بعد ضياع وتمزيق قواته يطلب العون والنجدة من خصمه القديم شارل مارتل، وكان شارل قد حشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة والعصابات المرتزقة فيما وراء الراين، يمتزج بين المقاتلة من أمم الشمال كلها، وجله جند غير نظاميين، نصف عراة يتَّشِحون بجلود الذئاب، وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية. وسار زعيم الفرنجة في هذا الجيش الجرّار نحو الجنوب لملاقاة العرب في الجبال والهضاب حتى

---

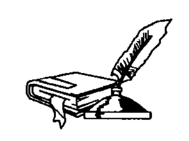
(١) نفح الطيب، ج١، ص١٢٩.

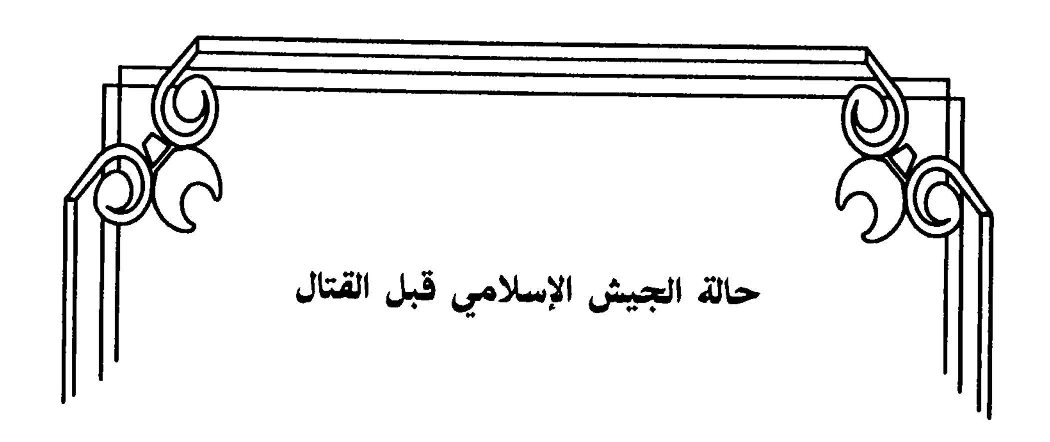
(٢) دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص٩٨.

يفاجيء العدو في مراكزه قبل أن يستكمل الأهبة لرده، وكان الجيش الإسلامي قد اجتاح عندئذ جميع أراضي أكوتين التي تقابل اليوم من مقاطعات فرنسا الحديثة جويان وبريجور وسانتونج وبواتو، وأشرف بعد سيره المظفر على مروج نهر اللوار الجنوبية، حيثما يلتقي بثلاثة من فروعه هي «الكريز» و«الڤيين» و«الكلين».

جرت المعركة في السهل الواقع بين مدينَتَيْ بواتييه وتور، حول نهرَيْ كلين وڤيين فرعَيْ اللوار، على مقربة من مدينة تور.

وصل الجيش الإسلامي في زحفه الممتد بين مدينَتْي بواتييه وتور، كما قدَّمنا، استولى المسلمون على بواتييه ونهبوها وأحرقوا كنيستها الشهيرة، ثم هجموا على مدينة تور الواقعة على ضفة اللوار اليسرى واستولوا عليها، وفي ذلك الحين كان جيش الفرنج قد انتهى إلى اللوار دون أن يشعر المسلمون بمقدمه في البداية، وأخطأت الطلائع الإسلامية تقدير عدده وعُدّته، فلمّا أراد عبدالرحمٰن أن يقتحم اللوار لملاقاة العدو على ضفته اليمنى، فاجأه شارل مارتل بجموعه الجرّارة وجيشه الكثير العدد والعدّة، ووجد عبدالرحمٰن أن جيش الفرنج يفوقه في العدد والعدّة، فارتدَّ من ضفاف النهر ثانية إلى السهل الواقع بين تور وبواتييه (بلاط الشهداء) وعبر شارل اللوار غربي تور، وعسكر بجيشه بأميال قليلة بين نهرَيْ كلين وڤيين فرعَيْ اللوار.



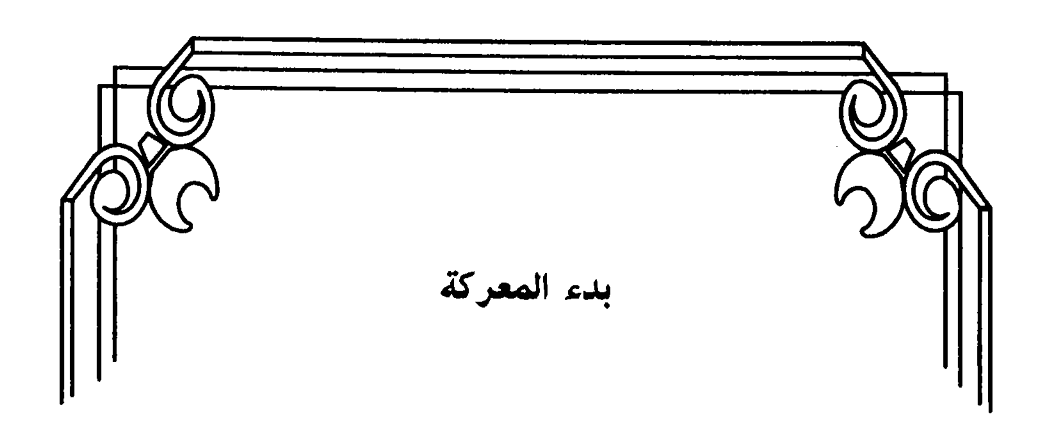


حالة الجيش الإسلامي قبل القتال

كانت حالة الجيش الإسلامي تدعو إلى الخوف والقلق، فقد كان الشقاق مضطرماً بين قبائل البربر التي يتألف منها معظم الجيش، وكانت تتوق إلى الانسحاب ناجيةً بغنائمها الكبيرة، وكان المسلمون في الواقع قد استصفوا ثروات فرنسا أثناء سيرهم وانتصارهم المظفر، فقد أثقلوا أنفسهم بما لا يقدَّر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبي، فكانت هذه الأثقال النفيسة تُحدِث الخلل في صفوفهم، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع، وقدّر عبدالرحمٰن خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته، وخشي مما تثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال، وحاول عبثاً أن يحملهم على ترك شيء منها ولكنه لم يشدّد في ذلك خيفة التمرد، وكان المسلمون من جهة أُخرى قد أنهكتهم غزوات أشهُرٍ متواصلة منذ أن دخلوا فرنسا، ونقص عددهم بسبب تخلُّف حاميات عديدة منهم في كثير من القواعد والمدن المفتوحة، ولكن عبدالرحمٰن تأهّب لقتال العدو وخوض المعركة الحاسمة بعزم وثقة[1].



(١) نفح الطيب، ج١، ص١٠٩، ج٢، ص٥٦.



بدء المعركة

لقد بدأت المعركة قرب تور، وانتهت قرب بواتييه، وقد قيل: إن مكانها كان بجوار قصر كبير، والقصر يسمى بلاط، ولربما كانت لهذا القصر علاقة كبيرة بحوادث المعركة[1].

بدأ القتال في اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢م/ أواخر شعبان سنة ١١٤هـ، ونشبت بين الجيشين معارك محلية مدى سبعة أيام أو ثمانية، احتفظ فيها كلٌ بمراكزه، وفي اليوم التاسع نشبت بينهما معركة عامة، فاقتتلا بشدّة وتعادلا حتى دخول الليل، واستأنفا القتال في اليوم التالي، وأبدى كلاهما منتهى الشجاعة والجلَد، حتى بدأ الإعياء على الفرنج، ولاح النصر في جانب المسلمين، ولكن حدث عندئذ أن افتتح الفرنج ثغرة إلى معسكر الغنائم الإسلامي، وخُشي عليه من السقوط في أيديهم، وتقول رواية أخرى ربما أكثر وضوحاً: إن معسكر الغنائم سوف يقع في يد العدو، فارتدّت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم، وتواثب كثير من الجند للدفاع عن غنائمهم، فدبَّ الخلل في صفوف المسلمين. وعبثاً حاول عبدالرحمٰن أن يعيد النظام وأن يهدىء روع الجند، وبينما هو يتنقّل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها، إذ أصابه من جانب الأعداء سهم أودى بحياته، فسقط قتيلاً من فوق جواده، وعمَّ الذعر والاضطراب في الجيش الإسلامي، واشتدت وطأة

---

(١) فجر الأندلس، د. حسين مؤنس، ص٢٧١.

الفرنج على المسلمين، وكثر القتل في صفوفهم، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جنّ الليل، وافترق الجيشان دون فصل، وكان ذلك في اليوم الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢م/ أوائل رمضان سنة ١١٤هـ[١].

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الإسلامي، واختلف الرأي، وسرى التوجُّس والفزع، ورأى الزعماء أن كل أمل في النصر قد غاض وضعف، فقرروا الانسحاب على الفور، وفي الحال غادر المسلمون مراكزهم، وارتدُّوا في جوف اللّيل وتحت جنح الظلام جنوباً صوب قواعدهم في سبتمانيا، تاركين أثقالهم ومعظم أسلابهم، وقد غنمها العدو منهم، وفي فجر الغد، لاحظ شارل وحليفه أودوسكون المعسكرات العربية، فتقدما منها بحذر وإحجام، فألفياها خاوية خالية، وخشي شارل الخديعة والكمين فاكتفى بانسحاب العدو، ولم يجرؤ على مطاردته، وآثر العود بجيشه إلى الشمال.

وفي وصف مبالَغ فيه جاء في الروايات الغربية للمعركة قال أحدهم:

«ولما رأى عبدالرحمٰن أن السهول قد غصّت بجموعه، اقتحم الجبال، ووطىء السهول بسيطها ووعرها، وتوغّل مثخناً في بلاد الفرنج، وسحق بسيفه كل شيء، حتى إن أودو حينما تقدّم لقتاله على نهر الجارون وفرَّ منهزماً أمامه، لم يكن يعرف عدد القتلى سوى الله وحده، ثم طارد عبدالرحمٰن الكونت أودو، وحينما حاول أن ينهب كنيسة تور المقدّسة ويحرقها، التقى بشارل أمير فرنج أوستراسيا، وهو رجل حرب منذ فتوّته، وكان أودو قد بادر بإخطاره، وهناك قضى الفريقان أسبوعاً في التأهب، واصطفا أخيراً للقتال، ثم وقفت أمم الشمال كسور منيع، أو منطقة من الثلج لا تُخترق، وأثخنت في العرب بحد السيف»[٢].

---

(١) انظر: ابن عذارى في البيان المغرب، ج١، ص٣٧، الكامل لابن الأثير، ج٥، ص٧٤، وابن خلدون، ج٤، ص١١٩، والمقري ج٢، ص٥٦، وابن عبدالحكم، ص٣١٧ بتصرف يسير.

(٢) دولة الإسلام، د. عنان، والرواية عن إيزديدور الباجي الذي كان معاصراً للموقعة.

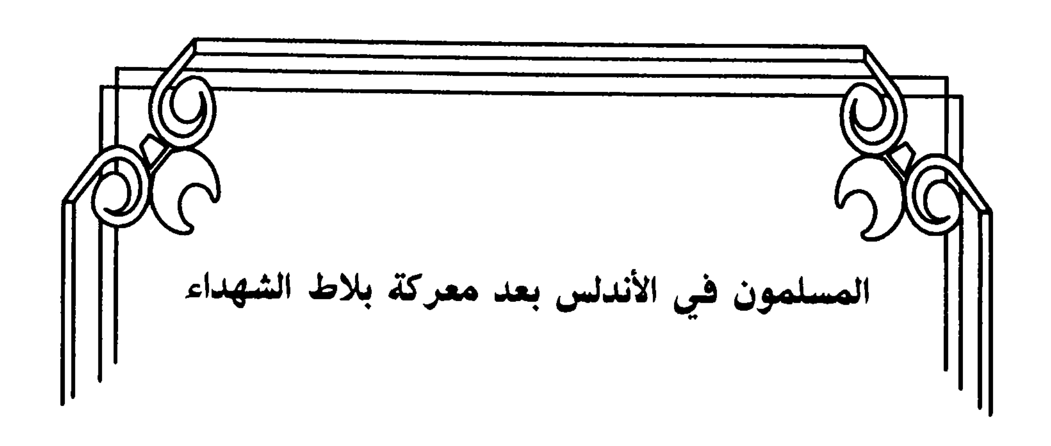
ولما أن استطاع أهل أوستراسيا (الفرنج) بقوة أطرافهم الضخمة، وبأيديهم الحديدية التي ترسل من الصدر تواً ضرباتها القوية، أن يُجهِزوا على جموع كبيرة من العدو، التقوا أخيراً بالملك (عبدالرحمٰن) وقضوا على حياته. ثم دخل الليل ففصل بين الجيشين، والفرنج يلوحون بسيوفهم عالية احتقاراً للعدو، فلما استيقظوا في فجر الغد، ورأوا خيام العرب الكثيرة كلها مصفوفة أمامهم، تأهبوا للقتال معتقدين أن جموع العدو جاثمة فيها، ولكنهم حينما أرسلوا طلائعهم، ألفوا جموع المسلمين قد فرَّت صامتة تحت جنح الليل مولية شطر بلادها، على أنهم خشوا أن يكون هذا الفرار خديعة يعقبها كمين من الجهات الأخرى، فأحاطوا بالمعسكر حذرين دهشين، ولكن الغزاة كانوا قد فرُّوا، وبعد أن اقتسم الفرنج الغنائم والأسرى فيما بينهم بنظام، عادوا مغتبطين إلى ديارهم.

وتحدّث المؤرخ الغربي إدوارد جيبون عن نتائج هذه المعركة بالنسبة للفرنج فقال:

«إن هذه الموقعة أنقذت آباءنا البريطانيين وجيراننا الفرنسيين من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال روما، وأخّرت استعباد قسطنطينية، وشدّت بأزر النصرانية، وأوقعت بأعدائها بذور الفشل»[1].



(١) المصدر السابق.



المسلمون في الأندلس بعد معركة بلاط الشهداء

لم يخسر المسلمون في بلاط الشهداء بقدر ما خسرت بلاد الأندلس من هزيمة المسلمين ووقف تقدمهم، ولا نستدل على قولنا هذا إلا بأقوالهم هم، فيقول «وول ديورانت» في قصة الحضارة: «ولم تشهد بلاد الأندلس في تاريخها كله حكماً أكثر حزماً وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحيها العرب»[1].

وقد بالغ المسيحيون الأوروبيون في تقدير عدد القتلى من المسلمين، حتى أوصلهم أحد مؤرخيهم إلى **٣٧٥** ألف قتيل، فهل حشد عبدالرحمٰن الغافقي نصف مليون جندي على أقل تقدير لتكون خسارة هذا الرقم الفلكي، وإذا كانت هذه الأرقام حقيقية فمن أين جاء الغافقي بتموين ومواصلات هذه الجيوش الجرّارة والتي لو حشدها المسلمون لكانت أوروبا كلها تحت أقدامهم في أقل من عام؟

ولو كانت هناك مطاردة من «شارل» وجنوده لصدّقنا أقوالهم عن التمزيق والأشلاء بسبب فوضى المطاردة والذعر، ولكن الحقيقة أن «شارل» برغم النصر الذي حققه، هو الذي كان مذعوراً، فقد وقف أمام معسكر المسلمين خائفاً مرتاباً يظن أنها حيلة من حيل الحرب، وأن المسلمين على وشك إعادة الهجوم والقتال، فوجد خيامهم خالية، وقد انسحبوا انسحاباً

(١) قصة الحضارة، وول ديورانت.

منظماً، وذهبوا في جنح الظلام، أما هو فلم يجرؤ على مواصلة المطاردة أو حتى التفكير في ذلك، بل انسحب شمالاً مكتفياً بما حققه.

ولم يتوقف المسلمون عند أحداث بلاط الشهداء بل تحالف «موررون» دوق مرسيليا مع يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري والي أربونة، وزحفا معاً وعبرا نهر الرون، واستوليا على آرل عام **٧٣٥**م، ثم حاصرت الجيوش المتحالفة مدينة فرتا، وهي المعروفة اليوم باسم «سان ريمي»، ثم تقدمت هذه الجيوش واستولت على أفينيون، وهي التي يسميها العرب «صخرة أبينيون»، كما وصل المسلمون إلى نهر «ديرانس» أحد فروع نهر الرون، وهو الذي تقع عليه مدينة أفينيون عند نقطة اتصاله بالرون، وظلَّ المسلمون يتحكمون في «بروڤانس» أربع سنوات، لم يجرؤ خلالها أحدٌ على منازعتهم السلطان فيها[١].

وزحف شارل مارتل عام **٧٣٢**م واستولى على لودون (ليون)، وكان المسلمون قد تخلُّوا عنها بعد بلاط الشهداء، كما تخلُّوا عن برجنديا، وفي عام **٧٣٥**م توفي الدوق أودو، ووافق شارل على أن يخلف «هينود» أحد أبناء أودو في منصب الدوقية، مع تبعيته لشارل، فأقسم «هينود» يمين الولاء له.

ولما اطمأن عبدالملك بن قطن الفهري إلى نجاح قائده يوسف الفهري، انصرف إلى تدعيم سلطان المسلمين في إمارات جبل البرانس، لكنّه لم يوفَّق، فولّى الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج السلولي عام **١١٦**هـ/ **٧٣٤**م، والسلولي كما وصفه ابن عذارى «صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو»[٢].

لقد كان السلولي من طراز سلفه الغافقي في حب الجهاد والعدل، وذلك ما ذكره ابن عذارى أيضاً إذ يقول عنه: «إن الرجل كان إذا أسر

---

(١) المسلمون في أوروبا، ص١١٧، وانظر: فجر الأندلس، ص٢٧٨، د/حسين مؤنس.

(٢) البيان المغرب، لابن عذارى، ج٢، ص٢٩.

الأسير لم يقتله حتى يدعوه إلى الإسلام، ويبين له فضائله، فأسلم على يدَيْه ألف رجل»[1] مما يثبت لنا تاريخياً، أن عقبة السلولي ومَن عمل تحت إمرته من المسلمين، كانوا يؤثرون الرفق حتى مع الأسرى ومَن كان مصيرهم القتل في قواعد الحرب في تلك الأيام، فكيف بأهل المدن والأرياف، أو الأديرة والكنائس؟

ولمّا تولى عقبة بن الحجاج السلولي بعد عبدالملك بن قطن الفهري، لم يجد ما يأخذه عليه، فعهد إليه بقيادة الخيّالة وأرسله إلى الثغر، وأخذ يُعد العُدّةَ لعبور البرانس[2].

وقد اشتدّ عزم المسلمين وازداد إصرارهم على الثأر لبلاط الشهداء، فحصّنوا ما بأيديهم من مدن فرنسا (غاليا) وشحنوها بالمقاتلين، ثم عبروا «دوفيني» شمال بروڤانس، وفتحوا «ڤالانس» على نهر الرون واستعادوا «ليون» و«برجنديا»[3].

وجال عقبة السلولي في شرق فرنسا في الوجهة التي سلكها عنبسة قبله، ولكنه لم يصل إلى ما وصل إليه عنبسة شمالاً، وسينال الشهادة قرب قرقشونة، إحدى مدن سبتمانيا في صفر سنة ١٢٣هـ[4].

في هذه الأثناء استعدّ شارل مارتل لاسترداد ليون وبروڤانس وأفنيون، والتي تعتبر مفتاح الرون، وقرّر الاستيلاء على مرسيليا أيضاً ليتخلّص من تحكّم المسلمين في جنوب فرنسا، هذا التحكُّم الذي يؤدي إلى ضيق اقتصادي شديد لغرب أوروبا.

استولى شارل مارتل عام ٧٣٧م على أفنيون، واقتحمها بعد أن استمات المسلمون في الدفاع عنها، ثم حاصر أربونة معقل المسلمين في

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن عبدالحكم، ص٢٩٣.

(٣) نفح الطيب، ج١، ص٢٢٠.

(٤) المصدر السابق، ج١، ص٢٠٥.

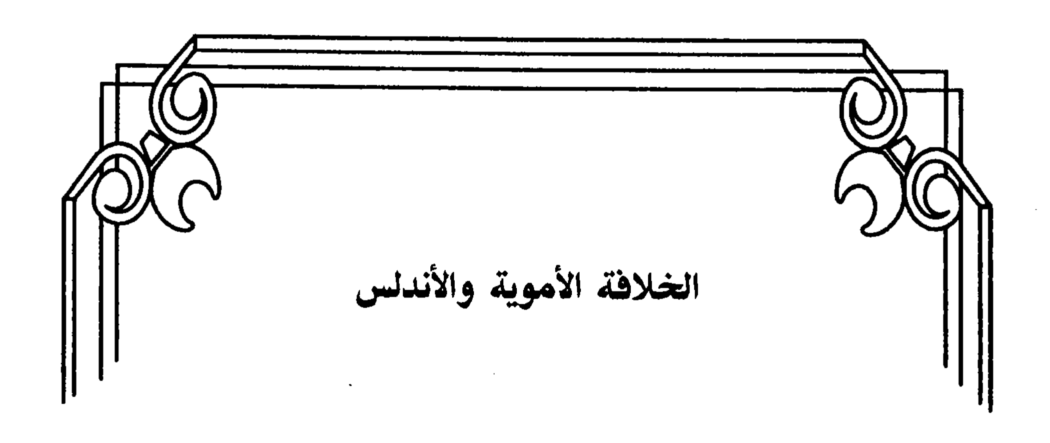
جنوبي فرنسا، وأميرها يومئذ «الهيثم» أو هرثمة كما في بعض المصادر، ولكنه عجز عن فتحها، إذ أسرع عقبة السلولي وأرسل جيشاً عن طريق البحر لنجدة أربونة، غير أن شارل مارتل باغت هذه النجدة قبل أن تتهيأ للقتال، وقضى عليها، ورغم ذلك خمدت أربونة للحصار مما اضطرّ شارل إلى الرحيل عنها بعد أن نازل المسلمين أياماً أُصيب له فيها رجال عديدون، فتعثّر عليه المقام، وخامره ذعر وخوف من المسلمين، فزال عنهم راحلاً إلى بلده، وقد نصب في وجه المسلمين حصوناً على وادي ردونة ملأها بالرجال والعتاد، فأصبحت ثغراً بين بلاده والمسلمين[1].

وقبل رحيل شارل أمر رجاله بتخريب القلاع في «نيم»، و«آجة» و«بيزبي» و«ماجلون» التي تُعرف باسم «ثغر المسلمين» إذ كانت مرسًى أميناً للسفن الإسلامية القادمة من الأندلس وإفريقية، فكان تخريبه لها بقصد حرمان المسلمين من الإمدادات التي تصل عن طريقها[2].



(١) انظر: نفح الطيب، ج١، ص٢٧٤.

(٢) د. مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٨١ وما بعدها.



الخلافة الأموية والأندلس

كانت هذه الأحداث تجري على قدم وساق بينما كانت الدعوة العباسية تشغل الخلافة الأموية من بذل العناية الواجبة بهذا الإقليم البعيد عن مركز الخلافة في أقصى الغرب، وقد انشغلت الخلافة ومركزها في دمشق انشغالاً كاملاً عن الأندلس وأوكلت هذا الأمر لأُمراء إفريقية والأندلس وإمكاناتهم، وزاد الأمر خطورة ثورة الخوارج في إفريقية عام ٧٤٠م، ثم ثورة البربر ضد العرب في إسبانيا وتكرارها عام ٧٤٠، ٧٤٧م.. كل ذلك يفسر لنا ما تتابع من بعض الهزائم في فرنسا، مما أثَّر على الروح المعنوية في مسلمي الأندلس.

وفي عام ١٣٢هـ /٧٥٠م قامت الدولة العباسية، وانتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد، مما أدّى إلى انقسام العالم الإسلامي.

ولم يقتصر التغيير على الشرق بل شمل الغرب أيضاً، فقد حلّت الدولة الكارولنجية مكان الدولة الميروفنجية، فبعد وفاة شارل مارتل عام ٧٤١م ورثه أبناؤه الثلاثة «كارلمان»، وبيين القصير، وابن غير شرعي هو جريفو» وساعدت الظروف بيين القصير، فانفرد بالنفوذ عام ٧٤٧م بسبب دهائه وتأييد البابوية له، فأنهى حكم الميروفنجيين.

وانتهى الوضع السياسي في منتصف القرن الثامن للميلاد/ الموافق النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، انتهى إلى وجود ثلاث قوى عالمية هي:

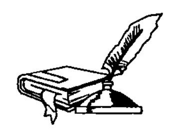
١ ـ الإمبراطورية الإسلامية، الأُمويون ثم العباسيون.

٢ ـ الإمبراطورية البيزنطية، في شرق أوروبا.

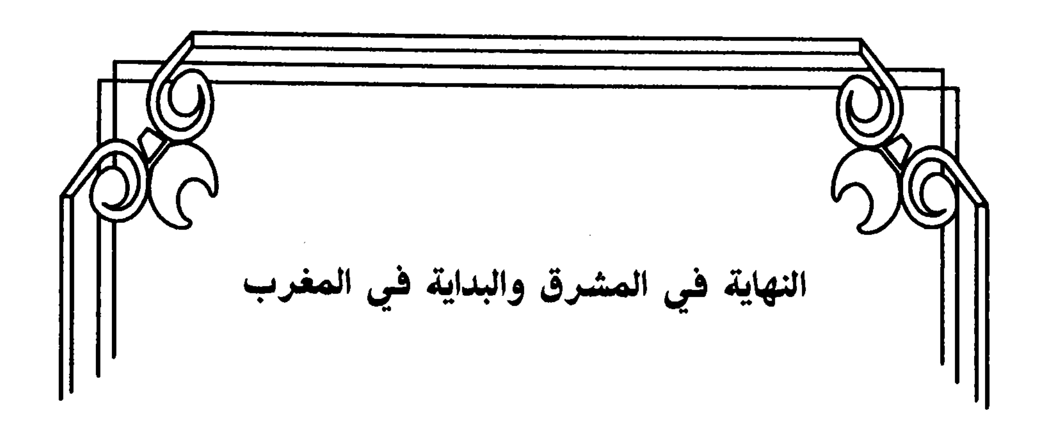
٣ ـ دولة الفرنجة الكارولنجية، في غرب أوروبا.

ولم يقف الأمر بالنسبة لأوضاع المسلمين ولم تستقر عند هذا الحد، فخلال هذه الظروف المضطربة في العالم الإسلامي، قام المسيحيون في مدن سبتمانيا بمساعدة الجيش الفرنجي، فتمكن «أنسمندس» القوطي من إرجاع المسلمين عن سبتمانيا ومدنها عام **٧٥٢**م، واستعاد أغلب المدن، أما «أربونة» وهي آخر حصن قوي للمسلمين، فقد حاصرها الفرنجة، وطال حصارها لمناعتها، وتمكن المسلمون خلال الحصار من قتل القائد القوطي في كمين، وبقيت أربونة ممتنعة على أعدائها(١).

ولما دخل عبدالرحمٰن الداخل الأُموي الأندلس، واستتبّ الأمر له عام **١٤٠**هـ /**٧٥٨**م، ذلك ما سنعرض له في الصفحات القادمة.



(١) المسلمون في أوروبا، ص١٢٢، ١٢٣.



النهاية في المشرق والبداية في المغرب

بالرغم من أن الخلافة الأموية كانت تسيطر على أراضٍ واسعةٍ مترامية تشكل دولة عظيمة لها قوة وشكيمة، إلا أن انهيارها جاء سريعاً وفي أوج هذه العظمة والأطراف المترامية، وذلك لأنها كانت تقوم على دعائم مضطربة من جراء تلك الأحقاد التي أثارتها السياسة الأموية في نفوس خصومها، فقد كانت هذه الأحقاد تحيط ملك بني أمية بسياج خطر من الحفيظة والبغض، ولقد كانت هذه الخصومة الخطرة التي طالما تغذّت بظمأ الانتقام هي عماد الدعوة الشيعية التي ما فَتِئَتْ تشق طريقها منذ مقتل علي بن أبي طالب ثم مقتل بنيه من بعده[1].

وفي أوائل القرن الثاني من الهجرة، استطاع الشيعة أن يظهروا في النواحي، ولا سيما في العراق وخراسان، وأن يدبِّروا عدَّة ثورات محلية خطيرة، وقد أخمدت هذه الحركات الأولى في سيل من الدماء، ولكن إراقة الدماء كان يُذكي ظمأ الانتقام، ولم تكن المعركة متكافئة من الوجهة المادية، فلم يكن للشيعة جيوش منظّمة أو موارد يُعتد بها، ولكن الخطر كان يكمن في نواحيها المعنوية، واشتدّ هذا الخطر حينما ضعف أمر العمال والولاة في النواحي، واتسع الأمر على الحكومة المركزية، وانحلّ سلطانها في الأماكن والولايات النائية وأضحى عرضة للانتقاض والانهيار.

وقد ظلّ دعاة الشيعة قرابة النصف قرن ينظمون دعوتهم، ويضعون لها

(١) انظر: الخلافة الأموية والخلافة العباسية ضمن هذه السلسلة.

الأصول والقواعد، ويحشدون لها الأنصار والأتباع، وكانت دعوتهم تلقى تأييداً كبيراً في الخفاء، شأنها شأن الدعوات السرية الثورية، وبرغم اختلاف الشيعة فيما بينهم، إلاّ أنهم اتحدوا واتفقوا على خصومة بني أُمية ومواجهتهم في السر، ثم فيما بعد في العلن.

وقد كانت إمامة الشيعة بعد مقتل الحسين بن علي إلى أخيه محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية، وهو أخو الحسن والحسين من الأب فقط، ويُعرف بابن الحنفية نسبة لأمه خولة بنت جعفر بن قيس المعروفة بالحنفية.

فلما توفي ابن الحنفية سنة ٨١هـ، قام بها ولده أبو هاشم عبدالله بوصية منه، واستمر أبو هاشم أيام الوليد بن عبدالملك وأخيه سليمان قائماً بأمر الشيعة، يفدون عليه ويؤدون له الخراج، ثم توفي مسموماً سنة ٩٨هـ بتحريض سليمان بن عبدالملك فيما يقال، وأوصى بالإمامة إلى ابن عمه محمد بن علي بن عبدالله بن العباس كبير علماء الشيعة يومئذ، والعباس هو ابن عبدالمطلب عم النبي ﷺ[1]، وتقدّمت الدعوة الشيعية على يد محمد بن علي تقدُّماً كبيراً وظفرت في ذلك الحين بأعظم دعاتها السياسيين، وهو أبو مسلم الخراساني.

وقد كان أبو مسلم شخصية عظيمة تتمتع بقدرة ومواهب فائقة، ولكن الغموض يحيط مع ذلك بأصله ونشأته، وتختلف الرواية في أمره اختلافاً كبيراً، حتى إنها لتختلف فيما إذا كان من الأحرار أو الموالي، فيقول البعض: إنه حر، يرجع إلى أصل فارسي رفيع المنبت، وأنه ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة، واسمه الحقيقي إبراهيم بن عثمان بن بشار، ويقول البعض: إنه من الموالي، وأصله من أصبهان، واسمه إبراهيم، وقيل: بل كان عبداً لبكير بن ماهان أحد عمال السند، وإنه استصحبه إلى مكة في زيارة لإبراهيم الإمام، فأُعجب إبراهيم بذكائه وفطنته واشتراه منه، وأما تسميته بأبي مسلم،

---

(١) انظر: الخلافة العباسية في هذه السلسلة (الخلافة العباسية/ عبدالمنعم الهاشمي) ط. دار ابن حزم، بيروت.

فيقال: إنه سمّى نفسه عبدالرحمٰن بن مسلم، واتخذ كنيته أبا مسلم، وقيل: إن إبراهيم الإمام هو الذي سمّاه بهذا الاسم، ولعل أرجح رواية في شأن هذا الداعية الكبير أنه كان فتًى مغموراً، وُلِدَ بمرو في أُسرة رقيقة الحال، ونشأ بأصبهان، واتصل منذ فتوته ببعض نقباء الشيعة في الكوفة، فآنسوا فيه ذكاءً خارقاً، وحماسة تضطرم لآل البيت وقضيتهم، وسار معهم إلى محمد بن علي بن عبدالله بمكة، فأُعجب بذكائه وعزمه، واختاره داعية للشيعة في خراسان، موطنه وأصلح ميدان لنشاطه، ولما ظهر أبو مسلم وقوي أمره وكثر أنصاره، ادّعى أنّه من آل البيت من ولد سليط بن عبدالله بن عباس[1]، ولما توفي محمد بن علي خلفه في الإمامة ولده إبراهيم الملقب بالإمام بعهد منه سنة ١٢٦هـ.

وقد استمّر أبو مسلم في مهمته، يبث الدعوة ويحشد لها الأنصار، وكانت خراسان كما قدّمنا أخصب ميدان للدعوة الشيعية لبُعدها عن الحكومة المركزية في دمشق، وتعاقب الفتن بين المضرية واليمنية، وكان أمير خراسان من قبل بني أمية نصر بن سيّار قد وُضعَ في موقف صعب، ومأزق شديد، فراح ليستنجد بحكومة الخلافة الأموية في دمشق، ولكن دون جدوى، وهو يشهد ازدياد حركة الشيعة ويرى تفاقم الحوادث، وهو عاجز عن فعل شيء في مواجهة المد الشيعي، تشتد وتجتاح خراسان بسرعة، ويروى أن نصر بن سيار كتب إلى مروان بن محمد الخليفة يومئذ هذا الشعر الفيّاض بالنبوءة والنذير، يستنجد به ويستحثه للدفاع عن عرشه وتراث أسرته:

أرى تحت الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وأن الحرب أولها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أُمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام
فقري عن رحلك ثم قولي ... على الإسلام والعرب السلام

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج٥، ص٩٥ وما بعدها.

وكان أبو مسلم قد أعدّ العدّة والخطة للانقضاض على رجل الأمويين في منطقة خراسان وهو نصر بن سيار، فهبّ هبّة واحدة مع صحبه على قوات بني أمية، ودارت معارك طاحنة بين عامَيْ ١٢٩هـ - ١٣٠هـ، واستولى أبو مسلم على مرو وسمرقند وخراسان ونيسابور، وطرد منها عمال بني أمية، وفرّ نصر بن سيّار إلى العراق، وبسط أبو مسلم سلطانه على خراسان وفارس، ورفع فيهما لواء الشيعة الأسود، ودعا لأبي العباس السفاح أخي إبراهيم الإمام وخلفه، وكان الخليفة الأموي مروان بن محمد قد هاله ما رأى من تغلغل الدعوة الشيعية في النواحي، فقبض على إبراهيم الإمام، وهو يومئذ بإحدى القرى الشامية وهي (الحميمة - بحوران)، وزجّه في السجن حتى مات سنة ١٣٢هـ. وزعم أخوه عبدالله أبو العباس وأصحابه أنّه أوصى إليه من بعده، فدعا له أبو مسلم في خراسان وفارس حسبما تقدّم، ثم سيَّر أبو مسلم جيشاً إلى العراق فلقيه أميرها ابن هبيرة في قوّاته، ووقعت بين الفريقين على ضفاف الفرات معارك شديدة هُزِم فيها ابن هبيرة وفرَّ إلى الشمال، واستولى الشيعة على العراق، ودعوا لأبي العباس بالخلافة (ربيع الآخر سنة ١٣٢هـ).

ونزل أبو العباس عبدالله «السفَّاح» بالكوفة، واستقرّ بها يرقب الحوادث[١].

في ذلك الحين كان مروان بن محمد أو مروان الثاني (ويُعرف مروان بن محمد أيضاً بمروان الجعد، ومروان الحمار) الذي وُلِّي الخلافة سنة ١٢٧هـ[٢]. كان مروان يتأهب للدفاع على خلافة ومُلك بني أمية الذي تصدَّع صرحه سراعاً، فحشد جيشاً ضخماً وسار شرقاً حتى وصل إلى ضفاف نهر الزَّاب، وهو فرع من دجلة يتّصِلُ به في الضفة الشرقية جنوب شرقي الموصل، وسار للقائه قائد المسوّدة الشيعة في الشمال، أبو عون عبدالملك بن يزيد الأزدي، وأمدّه أبو العباس بجيش آخر بقيادة عمه

---

(١) انظر: الخلافة العباسية (عبدالمنعم الهاشمي) ط. دار ابن حزم بيروت، ط ٢٠٠٢م.

(٢) الخلافة الأموية، عبدالمنعم الهاشمي، ط. دار ابن حزم، بيروت.

عبدالله بن علي، وبلغت قوات الشيعة كلها زهاء عشرين ألفاً، وبلغت القوات الأُموية زهاء مائة وعشرين ألفاً.

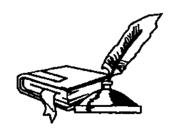
ولكن عزائم وحماسة الشيعة كانت أكثر شكيمة من كثرة الجيش الأموي الذي خبت عزائمه، واختلّت صفوفه، وغاضت قواه المعنوية، والتقى الفريقان على ضفة نهر الزاب اليسرى، ونشبت بينهما معركة شديدة حاسمة انتهت بهزيمة الجيش الأموي وتمزيقه (وذلك في الحادي عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٢هـ /٢٥ يناير سنة ٧٥٠م) وغرق في النهر آلاف من جُند الشام، واستولى الشيعة على غنائمه وأسلابه، وفرَّ مروان في جمع من صحبه إلى الشام، فسار في أثره عبدالله بن علي، وحاصر دمشق واقتحمها في الخامس من رمضان من نفس العام، وفرَّ مروان إلى فلسطين ثم إلى مصر، فبعث «السفاح» في أثره جيشاً بقيادة عمه صالح بن علي فلحق به في مصر، وظلّ يطارده من مكان إلى مكان حتى ظفر به في قرية بوصير على مقربة من الجيزة، وهنالك مُزقت البقية الباقية من أنصار بني أمية.

وقُتِل مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين بالمشرق، وأُرسل رأسه إلى «السفاح» وذلك في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ الموافق سنة ٧٥٠م[١].

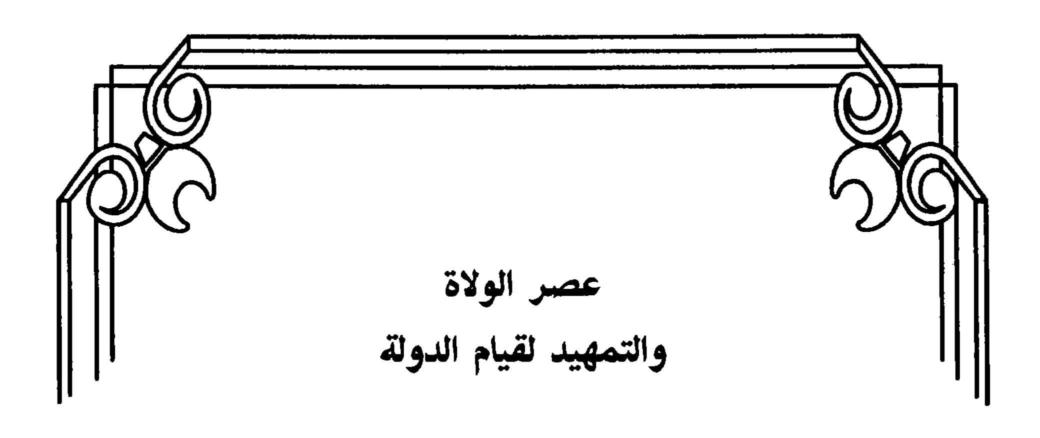
وهكذا، وبسرعة تثير الدهشة، انهارت دعائم الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها دولة بني العباس، ولو نظرنا إلى الوراء قليلاً نجد أنه مما لا شك فيه أن أكبر الفضل في تحطيم دولة الأمويين ذلك الصرح الشامخ، وقيام دولة بني العباس، يرجع إلى جهود تلك الشخصية العظيمة، وهو أبو مسلم الخراساني، ولكن بني العباس ما كادوا يتبوؤون ذلك المُلك الواسع، حتى غلبت عليهم عصبية الأسرة، ووجدوا في أبي مسلم منافساً غريباً عليهم تُخشى عواقبه، فلم تمضِ أعوام قلائل حتى قُتل أبو مسلم في شعبان سنة

(١) انظر: الخلافة الأموية، عبدالمنعم الهاشمي، ص٣٩٠ وما بعدها.

١٣٧هـ، قتله أبو جعفر المنصور أخو أبي العباس وخلفه[1]، ثم تتبّع زعماء الشيعة من ولد علي بن أبي طالب بالقبض والمطاردة حتى فرَّق شملهم وسحق دعوتهم، وهكذا كانت نهاية الأمويين في الشرق، لتنطلق دولة بني العباس، وفي الوقت نفسه كانت بداية الأمويين في الغرب بعصر الأمراء وعلى رأسهم عبدالرحمٰن الداخل (صقر قريش).



(١) انظر: قصة مقتله في الخلافة العباسية، عبدالمنعم الهاشمي.



عصر الولاة
والتمهيد لقيام الدولة

وفيما كانت الأحوال في المشرق تُنذر بانقلابٍ شامل ضد الأمويين، كانت حوادث الأندلس تؤذن بانقلاب شامل وخطير يحدد مصير الإسلام في هذه البلاد ـ بلاد الأندلس ـ في أقصى الغرب، وقد تحدّثنا عن الفتن والحروب الأهلية المتعاقبة، وكيف أنها كانت تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول بالنسبة للإسلام والمسلمين لا ندري عواقبه.

ففي الأندلس اجتمع أهلها على يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري، غير أنّه كان كبير السن، ضعيف البنية، مما جعله سهل الحركة، وفقاً لإرادة الصُّمَيل بن حاتم زعيم القيسية في الأندلس، واجتمعت قضاعة على عبدالرحمٰن بن نُعَيم الكلبي، فجمع من الرجال مائتي رجل وأربعين فارساً، فبيت القصر بقرطبة، وقاتل الحراس، وهجم على السجن، فأخرج أبا الخطار بن ضرار، الذي كان مسجوناً، وهرب به إلى لَبْلَة، فأقام في كلب، وقبائل من حمص، فاكتنفوه ومنعوه[1].

كان الصُّميل بن حاتم مؤيداً ليوسف بن عبدالرحمٰن الفهري، واجتمع حوله الناس، غير أنه وقع خلاف في ذلك بين مضر واليمن، فانصرفت اليمن كلها إلى أبي الخطار، وزحف الصُّميل إلى يوسف، فكره يوسف

(١) البيان المغرب ـ لابن عذارى المراكشي ج٢ ص٣٥.

الفهري الخلاف وخاف الفتنة، وفشت البغضاء والشحناء، فنزل الصميل ومن معه، وجاء أبو الخطار ومَن معه أيضاً، والتقت الفئتان بشقندة، وكانت موقعة حاسمة بين الفريقين، وفي وصفها يقول ابن عذارى: فلا تسمع إلا صهيلاً وصليلاً، ولا ترى إلاّ قتيلاً، حتى تكسرت الحظيَّة، وتضللت المشرقية، والتفّت الساق بالساق، وانضمّت الأعناق إلى الأعناق، فلم يعهد حرب مثلها في المسلمين، بعد حرب الجمل وصفين، إلى أن انهزمت اليمانية مع ابن الخطار[1].

ورأى الصُّميل أن يستعين بأهل السوق للاشتراك في القتال في الوقت الذي تعبت فيه عساكر الفريقين، فبعث إلى غوغاء قرطبة، خالد بن يزيد مولى يوسف الفهري، فأقبل معه ٤٠٠ أربعمائة رجل يحملون العصي والسيوف والمزاريق، وخرج الجزّارون بسكاكينهم، فجاؤوا إلى قوم موبى[2] قد أنهكهم القتل والتنكيل.

وأمعن أصحاب الصُّميل بن حاتم في اليمنية تقتيلاً وأسراً، وكان من بين الأسرى أبو الخطار وابن حريث، فاستقدمهما الصُّميل مع جموع الأسرى إلى كنيسة شنت بنجنت بقرطبة حيث قتل سبعين منهم، وأصبح الصُّميل بذلك هو الوالي الفعلي للأندلس، فكانت له الرئاسة والتدبير، بينما كان ليوسف بن عبدالرحمٰن الفهري الاسم فقط[3].

ولما أُخذ أبو الخطار، وأرادوا قتله، قال: ليس عليَّ فوت، ولكن دونكم ابن السوداء، ودل عليه، وقتلا جميعاً.

وكان ابن حريث يقول: لو أن دماء أهل الشام سقيت، لشربتها في قدح، فلما استخرج من تحت الرحى ليقتل، قال له ابن الخطار: يا ابن السوداء أهل بقي شيء من قدحك لم تشربه؟ ثم قتلا[4]. (ابن الخطار - وابن حريث).

---

(١) المصدر السابق (٣٦/٢).
(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص١٦٤.
(٣) المصدر السابق ص١٦٤.
(٤) البيان المغرب لابن عذارى ٣٦/٢.

كانت هذه الأحداث من نتاج صراع اليمنية والشامية في الأندلس، ولكن ماذا عن الشخصيات الثلاث الفاعلة في هذه الأحداث وهم أبو الخطار، وابن حريث، والصُّميل بن حاتم.

كان لكل هؤلاء دور واضح في الصراع بين اليمنية والقيسية إلى أن انتهى لصالح الصُّميل ومعه يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري، ولنتحدث قليلاً عن الثلاثة، بل نتحدّث عن خلافات العرب فيما بين أنفسهم ونزاعهم مع البربر.

تولى أمر الأندلس خلال هذه الفترة ـ عصر الولاة ـ **٢٢** والياً، حكم واحد منهم مرتين ومعنى ذلك أن متوسط مدة الوالي أقل من سنتين، وهذه وحدها تكفي لإعطائنا فكرة عن عدم الاستقرار التي سار الأندلس بها خلال هذه الفترة، ولذلك أسباب أهمها:

١ ـ اضطراب السياسة العامة لبني أمية بعد الوليد بن عبدالملك.

٢ ـ وقوع هذه السياسة فريسة للعصبيات القبلية والشخصية، ولهذه الأسباب انعكس الأمر كله على الأندلس، ففي المغرب كان الخلاف الكبير بين العصبيات العربية، ثم خلاف العرب البلديين وهم الفاتحون الأوائل للأندلس مع العرب الشاميين[١]، ثم خلافات هؤلاء جميعاً مع البربر، وكان لا بد أن يمتد ذلك كله إلى الأندلس.

وهناك أيضاً التنازع على السلطان بين الطامعين فيه، يضاف إلى هذا كله أن الأندلس بلد قائم بذاته له ظروفه التي لا تشبه ظروف أي بلد مما فتحه المسلمون في ذلك الحين، فإن الأندلس كان ثغراً لبلاد المسلمين، وكان لا بد لأهله من العرب من مواصلة الفتوح فيما يليه من البلاد. ومما يلفت النظر هنا أن العرب رغم مشاغلهم الكثيرة في الأندلس، استطاعوا أن يواصلوا الفتوح في «غالة» ـ أي فرنسا ـ نحو **٢٠** سنة بعد تمام فتح

---

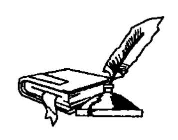
(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس ص٢٧٧، طبعة مكتبة الأسرة، مصر.

الأندلس، وكسبوا خلال هذه الفترات انتصارات كبيرة تضيف صفحات مجيدة إلى سجل الفتوح الإسلامية.

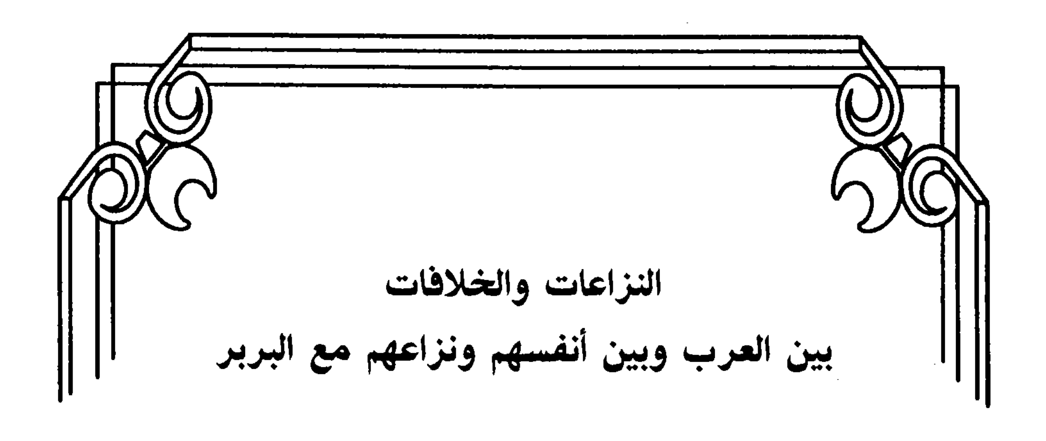
ولا يقلل من أهمية الفتوح أنها وقعت بعد موقعة بلاط الشهداء، ولذلك سنرى أن المد العربي لم يكن ليستمر إلى ما لا نهاية، كان لا بد أن يقف عند نقطة ما، ونقطة بلاط الشهداء نقطة رائعة بالنسبة لقوم عددهم قليل نسبياً، بدؤوا فتوحهم من المدينة المنورة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة.

وهناك أخيراً مشاكل الحكم في الأندلس نفسه، وهو بلدٌ فسيحٌ جداً دخله العرب في وقت بلغت فيه مظالم القوط ذروتها، فكان على العرب أن يعالجوا مشاكل جمّة، وإن الإنسان ليدهش إذ يراهم رغم صعوبة ظروفهم، وقلة المدد الذي تلقوه من الحكومة المركزية، يستطيعون تسيير الأمور على نحو لا بأس به إطلاقاً، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً، بل نشروا بدينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك، وعُنوا كذلك بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الري، وأنشؤوا مساجد في كل نواحي الأندلس تقريباً[1].

ومن حسن الحظ أن الأمور عندما بلغت غايتها في الاضطراب، ظهر عبدالرحمٰن بن معاوية الداخل وصار الأمر إليه، وهو كما سنرى من عباقرة الحرب والسياسة في تاريخ الإسلام، فأنقذ البلاد من الفوضى، والعرب من نتائج الاستمرار في الحرب الأهلية، واحتفظ بثمرات جهود من سبقه من الحكام القادرين، فلم تضع هذه الجهود هباءً.



(١) المصدر السابق.



النزاعات والخلافات بين العرب وبين أنفسهم ونزاعهم مع البربر

ولو نظرنا للأحداث السابقة لرأينا كيف صار أمر الأندلس إلى أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نضير في منتصف سنة ٩٧هـ/ مايو ٧١٦م تقريباً.

ويمثل أيوب بن حبيب العرب البلديين، أي العرب الذين قاموا بالفتح والاستقرار في البلاد، وأصبحوا بمقتضى هذا يرون أنهم أولى بها من غيرهم.

وقد تواطأ أيوب بن حبيب والنضر اللذين اغتالا عبدالعزيز بن موسى، مع الخليفة سليمان، أملاً منهم في أن تؤيدهم الحكومة المركزية ويستتب سلطانهم في البلاد.

لم يفعل أيوب بن حبيب شيئاً يُذكر طوال فترة حكمه القصيرة (أربعة أشهر) ولكنه هو الذي نقل العاصمة إشبيلية ـ عاصمة الأندلس آنذاك ـ إلى قرطبة، لأن موقعها أكثر توسطاً، ثم إن أعداداً كبيرة من العرب البلديين سكنت حولها فأراد أن يعتز بهم.

ولكن الأمور لم تسر على ما قدّره أيوب ومَن معه، فقد قام «يزيد بن مسلم» والي سليمان بن عبدالملك على المغرب بتعيين الحُرّ بن عبدالرحمٰن الثقفي على الأندلس، فكان الحُرّ ـ على هذا ـ يمثل الحكومة المركزية ويعتز بالجند الشاميين، مما أبعد عنه البلديين، وقد بدأ الحُرّ ولايته في ذي الحجة

سنة ٩٨هـ/ ٧١٧م، واستمر سنتين وثمانية أشهر، لا تُنسب فيهما إليه أعمالاً ذات شأن، وكل ما فعله أنه أقام دار الإمارة في قرطبة، وكانت هذه الدار في مواجهة قنطرة الوادي، وكانت قبل ذلك قصراً للحاكم القوطي الذي انتزع مغيث الرومي البلد من يده، وقد سكن مغيثٌ في جانب من القصر عُرِف ببلاط مغيث، ثم أخرجه منه أيوب بن حبيب وسكن فيه، فلما جاء الحُرّ بن عبدالرحمٰن الثقفي، زادت عنايته بالقصر وجعله قصر إمارة فعلاً، وسمي هو والأرض الواسعة الممتدة قرية على ضفة النهر، باسم «بلاط الحُرّ»(١).

فلما صارت الأمور إلى عمر بن عبدالعزيز في ١٠ صفر سنة ٩٩هـ/ ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧م، نظر في أمر المغرب والأندلس، فأقام على الأول إسماعيل بن عبيد الله، وعلى الثاني عنبسة بن سحيم الكلبي، وكلاهما كان من خيرة الحكام.

بدأ عنبسة في رمضان سنة ١٠٠هـ/ أبريل ـ مايو ٧١٩م، وبرغم قصر المدة التي تولاها، فإنه يعد من الولاة القلائل الذين قاموا بجهود إصلاحية عمرانية، فهو أول من نظر في حصر أرض الأندلس وتمييز ما فتح فيها صلحاً مما فتح عنوة، وبدأ استخراج الخُمس من الأراضي التي فتحت عنوة ليجعله مُلكاً للدولة، وأتمّ هذا بما يتصل بإقليم قرطبة، والمفروض أنه فتح عنوة، وقد دخلت في الخُمس أرض واسعة أنشأ الحُرّ في بعضها مقبرة للمسلمين، ووزع الباقي على الزرّاع على أساس المزارعة، أي المناصفة في الغلة، ثم أعاد بناء قنطرة الوادي وكانت قد تصدّعت.

وفي سنة ١٠٢هـ/ ٧٢١م خرج عنبسة غازياً في غالة فاستشهد في «طرسونة» في يوم عرفة من العام نفسه، وبذلك يكون هذا الرجل قد ختم حياته بالاستشهاد في سبيل الله وهو أعظم الصالحات.

«وقد كان عمر بن عبدالعزيز قد فكر في إخلاء الأندلس من المسلمين خوفاً على مصيرهم في ذلك الثغر السحيق في نظره، ولكنه عدل عن هذه

---

(١) المصدر السابق ٢٧٩.

الفكرة إذ كان المسلمون قد استقروا في البلاد وكثروا وبدأ نفر من أهلهما يُسلِمون، فلم تكن هناك وسيلة لتنفيذ هذا القرار الخاطىء دون شك»[1].

وتولى بعد ذلك السمح بن مالك، وبعد موت عمر بن عبدالعزيز عاد الأمر في المغرب والأندلس إلى الشاميين، فصارت الخصومات بين الولاة والعرب البلديين، وانضم البربر إلى العرب البلديين لاتفاق مصالح الجانبين، وجاء أشد الولاة تعصباً للشاميين هو الهيثم بن عبيد الكلابي الذي استمر حتى سنة **١١١هـ/ ٧٣٠م** والذين يسمون القسيين، وبعد الهيثم اختير عبدالرحمٰن الغافقي، وقد استشهد في بلاط الشهداء في رمضان **١١٤هـ/** أكتوبر **٧٣٢م**.

وأقام عرب الأندلس على أنفسهم واحداً منهم هو عبدالله بن قطن الفهري، والذي سيكون له دور كبير في الأندلس فيما بعد، واشتدت ثورة البربر في المغرب وانتقلت أصداؤها إلى الأندلس، فبدأ أمر العرب في الأندلس يتخرّج، وكانت ثورة البربر على العرب في الأندلس لمحاولة العرب تمييز أنفسهم باختصاصها بأحسن الأراضي تاركين للبربر أسوأها ـ مثلاً ـ وعلى العموم فإن ثورة البربر أنكرت سيادة العرب جملةً، وقد وجدت صدى في الأندلس، فقام البربر في النواحي التي كانت لهم فيها أغلبية على العرب الذين معهم وأخرجوهم، وخاصة من جليقية وحوض الدوير والأراضي فيما بين هذا النهر ونهر تاجة.

وكان أمير الأندلس إذ ذاك عبدالملك بن قطن الفهري كبير العرب البلديين كما ذكرنا، كان هو ومعظم مَن معه من اليمنية يحسبون أن الثورة قامت على الشاميين، فلما رآها موجّهة إلى العرب جميعاً، وبلغه من العرب الهاربين إليه من نواحي اشترقة وليون وسلمنقة وأبلة وشقوبية أنفسهم أن البربر يسيرون في ثلاثة جيوش وجهتها طليطلة، وقرطبة، والجزيرة الخضراء على الترتيب، خاف الرجل سوء العاقبة.

في هذه الأثناء كان بلج بن بشر القشيري ومن معه محصورين في سبتة بعد هزيمة الأشراف في المغرب، وكانوا يستغيثون بعبدالملك بن قطن

---

(١) تاريخ المغرب ـ د. حسين مؤنس ص٢٨٠.

دون جدوى. ولكنه اضطر إلى السماح لهم بالعبور إلى الأندلس ليعاونوه على القضاء على البربر، وبدأ بالفعل بقيادة بلج سنة **١٢٣هـ/ ٧٤١م**[1]، ولم ينقض عام على دخولهم الأندلس، وكانوا حوالي عشرة آلاف، حتى كانوا قد تمكنوا من القضاء على الثائرين، وكانت المعركة الحاسمة عند وادي سليط قرب الجزيرة الخضراء أوائل **١٢٤هـ/** نوفمبر **٧٤١م**، وعقب ذلك أخذ أولئك العرب الشاميون المتعصبون يطاردون البربر، وكانت نتيجة ذلك أن رُوِّع بربر الأندلس روعاً شديداً، فأخذوا يتركون أراضيهم وخاصة في الوسط والشمال الغربي ويعودون إلى إفريقية، وكان لهذه الهجرة الجماعية أثراً سيئاً على مستقبل الإسلام في الأندلس، فإن ألوفاً كثيرة من هؤلاء المسلمين الذين كان يُنتظر أن يعمِّروا بالإسلام كل نواحي شبه الجزيرة، هاجروا وتركوا كل الأراضي الواقعة شمال نهر تاجة خالية تقريباً من المسلمين، فأصبحت هذه النواحي ابتداءً من النصف الثاني للقرن الثامن الميلادي أراضي خلاء مفتوحة لنصارى الشمال ليمتدوا كيفما يشاؤون، وسيعمر النصارى جزءاً كبيراً منها خلال القرن التاسع الميلادي ويصبح حوض الدويرو أرضاً نصرانية. لقد خسر المسلمون نتيجةً لاختلاف بعضهم مع بعض ربع شبه الجزيرة، خسروه دون أن يخرجهم منه عدوّ، وإنما أخرجهم منه كراهة بعضهم لبعض وقلَّة نظرهم إلى العواقب، وبعد أن انتصر الشاميون أصحاب «بلج» رفضوا العودة إلى إفريقية، كما كان الاتفاق بينهم وبين عبدالملك بن قطن، فوقع النزاع الشديد بين «بلج» وعبدالملك، وانتهى بعزل هذا الأخير وولاية بلج بن بشرٍ في ذي القعدة **١٢٤هـ/** سبتمبر **٧٤١م**، وقد أنكر أهل الأندلس جميعاً رياسة بلج ومَن معه من الشاميين القيسيين، وقاموا عليهم وقتلوا بلجاً، فخلفه شاميٌّ شديدُ العصبية مثله هو ثعلبة بن سلامة العاملي، واشتدت الحرب بين البلديين من عرب وبربر في جانب والشاميين في الجانب الآخر، وسنرى الأحداث القادمة من خلال ثلاثة رجال هم أبو الخطار، والصميل، ويحيى بن حريث.

---

(١) المصدر السابق.

قدوم أبي الخطار من إفريقية

أسرع عامل إفريقية حنضلة بن صفوان الكلبي، فأرسل والياً جديداً إلى الأندلس هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، فبدأ ولايته في رجب ١٢٥هـ مايو ٧٤٣م. وبدأ الرجل بداية مبشِّرة، فأمن العرب والبربر البلديين على أراضيهم ومصالحهم، وأراد أن يبعد عنهم أذى الشاميين، واجتهد كذلك في إبعاد أذى هذه المنازعات القبلية العربية عن أهل البلاد المسلمين، مَن أسلم منهم ومَن لم يُسلم، لأنهم أساس عمارة البلاد ورخائها.

ثم نظر إلى الشاميين فتبين أنهم جميعاً متجمعون في قرطبة وإقليمها، وهذا التجمع هو الذي يفتح لهم طريق التدخل في السياسة وشؤون الدولة، ففكر في أن يوزعهم على نواح شتى في الأندلس، لا ينزلها من البلديين وأهل اليمن أحدٌ، وقد أشار علّيه بذلك أرطياس بن تميطشة، شيخ نصارى الذمة، وكان شخصية محترمة مقرَّبة من الأمراء، وكان يسمى بـ «قومس الأندلس» وانتهى الأمر إلى أن يذهب كل فريق منهم إلى ناحية فيستقروا فيها ويأخذوا ثلث الخراج الذي يؤديه نصارى الذمّة والمزارعون، على أن يقدّموا للحكومة عدداً معيناً من الجُند كلما طلبت ذلك. وقد تمّ توزيع الشاميين على الكور (المحافظات أو المديريات) الآتية:

١ ـ جند مصر: كور أو محافظات أو كشونية وباجة وتدمير.

٢ ـ جند حمص: كور أو محافظة إشبيلية.

٣ ـ جند فلسطين: محافظة مالقة.

٤ ـ جند دمشق: محافظة البيرة، وهي غرناطة.

٥ ـ جند قنسرين: محافظة جيان.

وقد أصبحت هذه المحافظات أو الكور الشمالية تسمى بالكور المجنّدة، وقد استقرت فيها جماعات كثيرة من جند الشام الذين ذكرناهم، واطمأنوا فيها، وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة حول النظام الذي ذكرناه، ولهم الحق في مقابل ذلك في الاحتفاظ لأنفسهم بثلث خراج

الأرض، وقد أصبحت هذه الأجناد من العناصر العسكرية الرئيسية في التنظيم للأندلس.

ولم يستطع أبو الخطار الاستمرار في هذه السياسة الحكيمة، فمال إلى اليمنية، وثار النزاع من جديد.

❋ ❋ ❋

الصُّميل بن حاتم ويوسف الفهري

الصُّميل شخصية فريدة في بابها تجمع معظم النواحي الإيجابية والسلبية في كثير من العرب الجاهليين، الذين دخلوا الإسلام دون أن يمس الإيمان قلوبهم!![1] فهو شجاع لا يهابُ الموت، كريمٌ يجود بكل ما في يده دون تردد، شهم لا يرتكب ما يمس المروءة، وهو سيد مهذب يعرف كيف يعامل النّاس، وهو أيضاً شاعر يقول شعراً يسيراً ولكنه يعجب بالشعر الجديد، وهو بعد ذلك كله أميٌّ لا يعرف من القرآن الكريم إلا نزراً يسيراً، وهو عنيف في خصومته، شديد الحقد لا ينسى ثأره، ومسرفٌ في العطاء لا يكاد يبقي شيئاً. وكان لا يتورع عن شرب الخمر. وهو ذكيٌّ خبيثٌ لا يفوته أمرٌ، لا يتردد في القضاء على خصومه، وهو كسول في معظم أوقاته، فإذا قام على قدميه لم يهدأ، وتحوّل إلى شيطان متصل الحركة فيصيب الناس والبلاد منه أذًى شديداً.

هذا الرجل نظر في أمر الأندلس فتبين بسبب قيسيته، أي شاميته، أن الشاميين وحدهم لا يصلحون للحكم وقيادة الحرب، وأن أمر الأندلس لا يصلح إلاّ إذا تعاون الفريقان على حكمه وقيادته، ولكنهم كذلك لا يستطيعون سيادة البلديين لكثرة هؤلاء واستعدادهم للدفاع عن أنفسهم في كل حين، فبدأ أولاً فجمع الشاميين إلى لواء واحد هو لواؤه، ثم بحث في المعسكر الآخر أي البلديين فاختار زعيماً يؤيده ويُسَيِّر الأمر باسمه ذلك

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس، د. حسين مؤنس ص٢٨٤.

الوقت، فوجد يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري الذي أجمع البلديون على رياسته، وكان الشاميون أيضاً مستعدين للخضوع له بسبب مضريتهم، وأخيراً تمّ الاتفاق بين الرجلين على أن تكون الإمارة ليوسف الفهري، ويكون الصُّميل مستشاره وصاحب رأيه، واستقر الأمر على ذلك في ربيع الثاني **١٢٩هـ/** ديسمبر **٧٤٦م**، ولم تستقر الأمور لهما إلاّ بعد حرب طويلة مع زعيم يمني يسمى يحيى بن حريث.

***

الزعيم اليمني يحيى بن حريث

تمثلت العصبية في هذا الرجل بصورة أكثر تطرفاً، فقد بلغت عصبيته لليمنية مبلغاً جعله غير قادر إطلاقاً على احتمال أهل الشام بأي سبيل، ولكنه انهزم وقتل في معركة شاقندة سنة **١٣٠هـ/ ٧٤٧م**، وخلا الأمر بعد ذلك للصُّميل ويوسف الفهري حتى جاء عبدالرحمٰن بن معاوية الداخل.

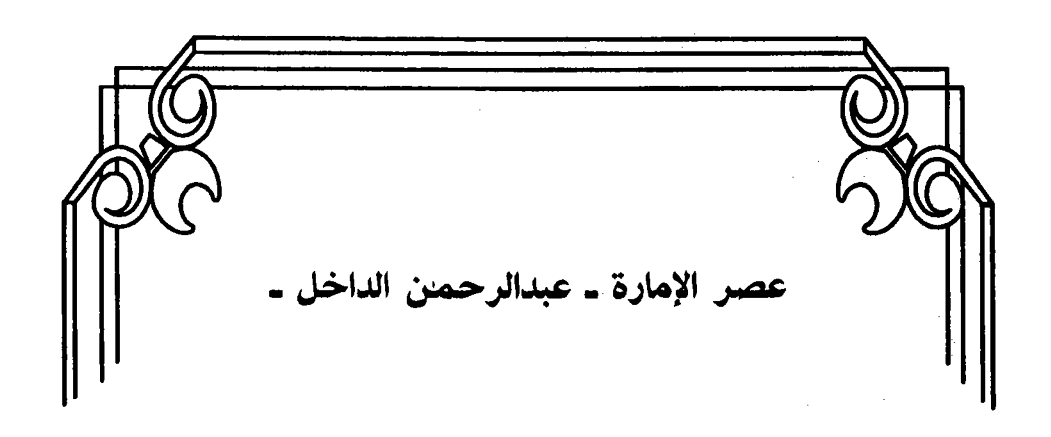
ظلت الأندلس تحت حكم الصُّميل وعبدالرحمٰن الفهري مدة عشر سنوات، وهي السنوات الأخيرة من عصر الولاة في الأندلس، وقد هدأت الأحوال في هذه السنوات، فيما عدا ما كان من مجاعة شديدة بلغت ذروتها سنة **١٣٦هـ/ ٧٥٣م**، وكانت هذه المجاعة نتيجة لما رأينا من حروب شديدة بين العرب فيما بين بعضهم البعض، وبينهم وبين البربر، فازدادت الهجرة إلى إفريقية، وقلَّ عدد المسلمين في شبه الجزيرة عما كان، ويستثنى من ذلك إقليم سرقسطة وكان معظم أهله عرباً يمنيين فاستقروا في الأرض وزرعوا فلم يتأثروا بهذه الفتن[١].

وكانت ولاية الصُّميل بن حاتم ويوسف الفهري ولاية طويلة، امتازت بالهدوء النسبي الذي ساد البلاد في أثنائها، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب، ولكن وضع الأندلس

(١) المصدر السابق.

كان يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء، فقد كان يحتاج إلى حكم قوي نشيط، فإن البلد خضع للمسلمين لكنه لم يتحول إلى بلد إسلامي بعد، فقد كانت غالبية البلاد نصرانية، ولو استمر الوضع على هذا النحو فإن أثر المسلمين كان لا بد أن يتلاشى، فهو بعيد بُعداً شاسعاً عن قلب مملكة الإسلام ومركز الخلافة، فكان من العسير إمداده بالعون المستمر، ولو عادت الفتنة مرة أخرى ولو فترة قصيرة لأصبح تلافي النتيجة المحتومة أمراً عسيراً. وفي هذه الأثناء قامت الدولة العباسية في ربيع الأول **١٣٢هـ/ ٧٤٩م** والذي اقترن بمذابح واسعة النطاق أُنزلت بالأمويين، وهنا كانت البداية، بداية قيام الدولة الأموية في الأندلس.





عصر الإمارة ـ عبدالرحمن الداخل ـ

استمرت حوادث الشرق تعصف بآخر معاقل الأمويين وتقضي عليهم ليصعد العباسيون، وكذلك في الأندلس، فقد كانت الفتن والحروب الأهلية والحروب المتعاقبة تدفع بالأندلس إلى مصير مجهول تخشى عواقبه، وتعصف تباعاً بهيبة وقوة الإسلام في الغرب، وتشجّع الفرنج ونصارى الشمال على اقتطاع الأطراف النائية، وتوغل الفرنج في الأراضي الإسلامية. وتولّى أمر الأندلس في ذلك المأزق العصيب يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري والذي وصفه بعض المؤرخين(١) بأنه رجل قوي حازم.

ولكن ولاية يوسف لم تكن حلاً نهائياً للأزمة، لأنه تولّى دون مصادقة شرعية من السلطة العليا (الخلافة في دمشق)، وهذه السلطة وهي الخلافة في دمشق انهارت، وقامت على أنقاضها دولة وخلافة جديدتان. وكان يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري في ذلك الوقت الحاكم بأمره في الأندلس، وكانت الأندلس آنذاك إمارة أو دولة مستقلة يتوقف مصيرها ومصير السلطات فيها على سير الظروف والحوادث، وكان للانقلاب الذي وقع في المشرق وتغيير الخلافة صدىً واسعاً في الأندلس، إذ قام بعض الخوارج على يوسف الفهري يدعو لبني العباس، طمعاً في الرياسة، ولكنه كان صدىً ضعيفاً لم يحدث أثره، واستمر يوسف حاكماً للأندلس يناهض الخارجين

(١) دولة الإسلام ـ د. عنان ـ العصر الأول، القسم الأول، ص١٤٧ ط، الخانجي ـ مصر.

عليه بقوة وعزم شديدين. ولا ريب أنه كان يحرص على ذلك السلطان الذي ألقى إليه القدر به، بل لعله كان يعمل لغاية أتم وأبعد هي أن يؤسس بالأندلس مملكة قوية يتبوأ عرشها، وأسرة ملوكية جديدة من بنيه وعقبه، يلقي إليها بهذا التراث الباذخ.

❋ ❋ ❋

قصة المطاردة الدموية

ظفر بنو العباس بملك بني أمية ومزقوا شمل أسرتهم، وأخذوا في تتبع مَن بقي من أمرائهم وزعمائهم حتى لا تقوم لهم قائمة بعد. وعهد أبو العباس عبدالله «السفاح» إلى عمه عبدالله بن علي وهو بالشام، تنظيم هذه المطاردة الدموية، فتتبّع وجوه بني أمية ومواليهم في كل مكان، وأمعن في مطاردتهم وسفك دمائهم، وقتل منهم جماعة كبيرة من الأمراء والسادة، ولم يُبقِ حتى على النساء والأطفال. ولما شعر أن كثيرين منهم فرُّوا ولاذوا بالاختفاء، زعم أن أبا العباس قد ندم على ما فرط منه في حقهم، وأنه يشملهم بعفوه وأمانه، فخدع كثيرون منهم بهذا الوعد، ولبُّوا دعوة عبدالله إلى الظهور، واستطاع بهذه الوسيلة أن يقتل منهم نحو سبعين رجلاً. وكانت مأساة هائلة ارتُكبت خلالها ضروب مروعة من القسوة، ومُثّل بكثير من الضحايا أشنع تمثيل، وألقيت جثثهم للكلاب، واستُخرجت رفات الخلفاء الأمويين من مثواها وبُدِّدت، ولم تترك جريمة مثيرة، أو لون من العقاب أو المهانة، إلا كان فلُّ بني أمية لها فرائس وضحايا[1].

ولكن هذه المطاردة الشاملة لم تجتث الشجرة من أصلها، وشاء القدر أن تفلت بعض فروعها من يد الجناة، وأن تزكو لتستعيد أصلها الراسخ في أرض أخرى، هي أرض الأندلس، وكان ممن نجا من المذبحة الهائلة فتًى من ولد هشام بن عبدالملك بن مروان هو عبدالرحمٰن بن معاوية بن هشام،

---

(١) ابن خلدون ج٣ ص١٣٢، ١٣٣؛ وانظر ابن الأثير ج١ ص١٦١.

وكان وقت أن حلّت النكبة بني أمية يقيم مع أهله وإخوته، في قرية تُعرف بدير خنان من أعمال قنسرين، وفيها كان مولده قبل ذلك بعشرين عاماً، حيث ولد في سنة ١١٣هـ/ ٧٣١م ـ وقبل ذلك كان مولده بالعليا من أعمال تدمير، وتوفي أبوه معاوية في أيام أبيه هشام بن عبدالملك سنة ١١٨هـ، فكفلهُ وأخوته جده هشام[1].

ولعل التاريخ الإسلامي كله، وفي سائر عصوره وأقطاره، لا يقدّم إلينا شخصية تضارع في قوتها، وتبث خيافها، وروعة خلالها المثيرة المؤثرة معاً، شخصية كشخصية عبدالرحمٰن الداخل، مؤسس الدولة الأموية في الأندلس، وأصل هذه الشجرة الباسقة من الأمراء والخلفاء الذين أضفت عهودهم وأعمالهم المجيدة ومنشآتهم العظيمة على الدولة العربية الإسلامية في إسبانيا (الأندلس) أثوابها الوضّاءة، وتراثها الحضاري الرفيع.

خرج عبدالرحمٰن الداخل من غمار العدم بعد أن انهار مُلك أسرته فجأة، وتحطمت دولتهم في المشرق وهي ما تزال في إبان قوتها وعنفوانها تحت ضربات المتوثبين من بني العباس، وكان من الفروع القلائل التي شاء القدر أن تنجو من الشجرة التي اجتثّ الظافرون معظم فروعها في مطاردة دموية شاملة يندر أن يقدم إلينا العالم الإسلامي لها مثيلاً.



القرار الشهير

إن قصة فرار عبدالرحمٰن ذاتها، من المشرق إلى المغرب، بما يتخللها من الحوادث المؤسية، والمغامرات المدهشة، تثير الإعجاب والعطف، فقد كان يرى الموت والأسر ينذرانه في كل خطوة، وقد استطاع أن يجوز من الشام إلى المغرب الأقصى مخترقاً فلسطين، ومصر، وبرقة، والمغرب الأوسط، وأعين أعدائه ساهرة تطارد فلول الأمويين، وتكاد تضع

(١) نفح الطيب جـ١ ص١٥٦.

يدها عليه في كل لحظة. ومما هو جدير بالذكر، أنه حينما وصل إلى برقة استطاع أن يتنفس الصعداء لأول مرة، وأن يجد ملاذاً أميناً مؤقتاً عند أخواله بني نفزة، وهي من برابرة طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح، وقد أقام لديهم طويلاً يرقب الفرص.

نعود إلى قصة الفرار الشهيرة، فها هو ذا عبدالرحمٰن يروي قصة فراره من المشرق، وهي قصة تشبه قصص المغامرين الأبطال، بل هي قصة أشبه بالمعجزات منها بقصة شاب مغامر أيقن أنه هو الذي سيحيي دولة بني أُمية وسيعيد إليها شبابها بعد أن أدركها الهرم وكادت تزول من الوجود.

يقول عبدالرحمٰن الداخل (صقر قريش):

«إنّي لجالس يوماً في تلك القرية، في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي، وابني سليمان بِكرُ ولدي يلعب قدّامي، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فزعاً باكياً، فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه لما كان بي، ويأبى إلاّ التعلُّق، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالرّوع قد نزل بالقرية، فنظرت فإذا الرايات السود عليها منحطة، وأخ لي حديث السن كان معي يشتد هارباً، ويقول لي: النجاة يا أخي، فهذه رايات المسودة، فضربت يدي على دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي والصبي وأخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجّهي ومكان مقصدي، وأمرتهن أن يبقين ومولاي بدر معهن.

وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلاّ ساعة حتى أقبلت الخيل، فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً، ومضيت ولحقني بدر، وأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات فأمرته أن يشتري لي دوابّ وما يصلح لسفري، فدلّ على عبد سوء له العامل، فما راعني إلا جلبة الخيل تحفزنا، فاشتددنا في الهرب، فسبقناهما إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط: ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حاثاً لنفسي - وكنت أُحسن السبح - وسبح الغلام وأخي.

فلما قطعنا نصف الفرات، قصّر أخي ودُهش، فالتفتُّ إليه لأقوى من

قبله فإذا هو قد أصغى إليهم، وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته: تُقتَل يا أخي، إليَّ إليَّ، فلم يسمعني، وإذا هو قد اغترَّ بإمائهم، وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد همَّ بالبحر للسباحة في إثري، فاستكفه أصحابه عن ذلك، فتركوني.

ثم قدموا الصبي أخي الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثُكلاً ملأني مخافة، ومضيت إلى وجهي أحسِبُ أني طائر، وأنا ساعٍ على قدمي، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجتُ أؤم المغرب حتى وصلت إلى إفريقية»[١].

تلك هي قصة الفرار الشهيرة، حيث هروبه من المشرق، وفراره من أمراء العباسيين الذين حاولوا اقتناصه أكثر من مرة، ولم يكن وصوله إلى إفريقية هو نهاية المتاعب، ولكنه واجه من المصاعب هناك ما يجعلنا نقف مدهوشين أمام مغامراته مما جعل أبا جعفر المنصور (الخليفة العباسي) يحمد الله الذي صيَّر البحر بينه وبينه[٢].

❋ ❋ ❋

الاختراق

ما إن أَمِنَ عبدالرحمٰن خطر مطارديه، حتى سار متخفيّاً، قاصداً إلى المغرب، ويقول المؤرخون[٣]: «إن المغرب كان مقصده منذ الساعة الأولى، وإن نفسه كانت تحدثه بما سيكون له في الأندلس من شأن، وإن بني أمية كانوا قبل مصرعهم يهجسون بمثل هذه النبوءة ويرددونها».

---

(١) نفح الطيب (٢٧/٣).

(٢) نفح الطيب ٣٦/٣.

(٣) أخبار مجموعة ص١٥، وانظر نفح الطيب جـ٢ ص٦٢، والبيان المغرب جـ٢ ص٤٣، وابن خلدون جـ٤ ص١٢١.

ومن هذه الأهاجيس على الجانب الآخر، وفي إفريقية، كان عند واليها عبدالرحمٰن بن حبيب الفهري يهودي يحدِّث، صحب مسلمة بن عبدالملك، وكان يتكهن له ويخبره بتغلُّب القرشي المرواني الذي هو من أبناء الملوك ـ ملوك القوم ـ واسمه عبدالرحمٰن، وهو ذو ضفيرتين بملك الأندلس، ويورثها عقبه (أولاده وأحفاده) فاتخذ الفهري عند ذلك ضفيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية، فلما جيء بعبدالرحمٰن، ونظر إلى ضفيرتيه، قال لليهودي: ويحك! هذا هو، وأنا قاتله[1].

الآن نعود إلى الاختراق، فقد اخترق عبدالرحمٰن فلسطين ومصر، ولحق به مولياه بدر وسالم، وقد لحقت به أخته شقيقته أم الأصبغ، ومعهما دنانير للنفقة وقطعة من الجوهر، ثم جاز إلى برقة والتجأ إلى أخواله بني نفزة، وهم من برابرة طرابلس، وكما ذكرنا فإن أمه كانت بربرية من بني نفزة وتدعى «راح»، وأقام عبدالرحمٰن لدى أخواله طويلاً يرقب الفرص، والظاهر أن محاولة الاستيلاء على إفريقية لم تكن بعيدة عن ذهن هذا الرجل الجريء المغامر، وكان عبدالرحمٰن بن حبيب قد انتزعها لنفسه في سنة ١٢٧هـ، ولما دالت دولة بني أمية دعا لبني العباس كما قدّمنا، ولكن الفتى الأموي لم يجد على ما يظهر أية فرصة للعمل في هذا السبيل، وكان عبدالرحمٰن بن حبيب يخشى على سلطانه من ظهور بني أمية في إفريقية، فطارد اللاَّجئين إليها منهم، وقتل ولدين للوليد بن يزيد بن عبدالملك.

وثقل فلُّ بني أُمية على ابن حبيب صاحب إفريقية، فطرد كثيراً منهم مخافة، وأخذ مالاً كان مع إسماعيل بن أبان بن عبدالعزيز بن مروان، وغلبه على أخته فتزوجها بكرهه، وطلب عبدالرحمٰن فاستخفى[2].

وأقام عبدالرحمٰن ببرقة مستخفياً خمس سنين عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس، كانت له فيما بعد لديه حظوة، واستجار ببني رستم

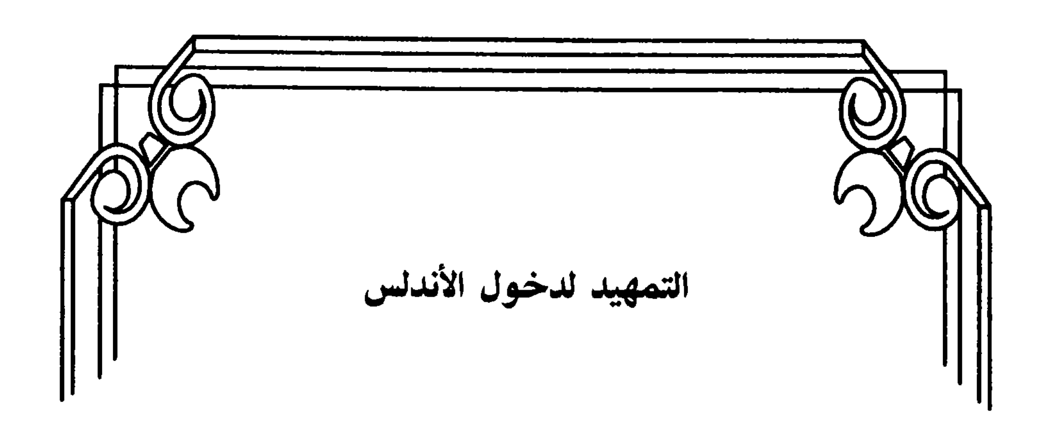
---

(١) نفح الطيب ٢٨/٣.

(٢) المصدر السابق.

ملوك تيهرت، وسار في قبائل البربر إلى أن أقام عند قوم من زناتة على شاطىء البحر، ولحق حينها بمليلة وغيرها، وكان أثناء تجواله يدرس أحوال الأندلس وأخبارها ويرقب فرص العبور إليها، وأخذ يجهز بدراً مولاه ليبعثه إلى الأندلس ليتصل بموالي بني أمية، وكان عدد الموالي المسجلين بالأندلس لبني أمية بين الأربعمائة والخمسمائة، وكانت رياستهم لابن عثمان عبيدالله بن عثمان، وعبدالله بن خالد، وهما من موالي عثمان بن عفان.





التمهيد لدخول الأندلس

وفي أواخر سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م لاحت له فرصة العمل، وقَوّى أملَهُ ما علمه من اشتداد الخلاف بين المضرية واليمنية، فبعث بدراً مولاه (خادمه) إلى الأندلس ليسبر غور شؤونها، وليحاول بث دعوته بين أنصار بني أمية وأهل الشام، فنزل بدر بساحل البيرة (كورة غرناطة) وكانت منزل جند الشام، وفيها تجتمع عصبة بني أمية وأنصارهم، وكانت رياسة الأمويين أو المروانية والشاميين يومئذ لزعيمين من موالي بني أمية كما أسلفنا هما أبو عثمان عبيدالله بن عثمان وصهره عبدالله بن خالد، فاجتمع بدر بأبي عثمان وأبلغه رسالة عبدالرحمٰن، وناشده العمل لنصرته، وبثّ دعوته بين أصدقائه وشيعته ولا سيما بين اليمنية، وهم خصوم يوسف الفهري ومنافسوه، وقال لهم بدر: «ما رأيكم في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم، فيقيم أودكم، ويدرككم آمالكم؟ فقالوا: ومَن لنا به في هذه الديار.

فقال بدر: «ما أدناه منكم، وأنا الكفيل لكم به. ثم ذكر لهم خبر عبدالرحمٰن ومكان وجوده، وأنه يقدّم نفسه إليهم، فقالوا: فجيء به أهلاً، إنا سراع إلى طاعته، وأرسلوا بدراً بكتبهم يستدعونه»[(١)].

عندئذ استجاب أبو عثمان لهذه الدعوة، وكانت بينه وبين الصميل مودة وصداقة، ففكر في التماس عونه في ذلك المشروع، وسار إليه مع عبدالله بن خالد في طليطلة، وكان الصميل قد ارتدّ منهزماً عن سرقسطة

---

(١) الإحاطة لابن الخطيب جـ١ ص٤٥٣ (ط١٩٥٦).

وفي نفسه مرارة من يوسف لأنه قصّر في غوثه وإنجاده، ففاوضاه في أمر عبدالرحمٰن وطلبا منه العون والتأييد، ولكن الصميل أبدى تردداً وفتوراً، واقترح أن يتزوج عبدالرحمٰن من ابنة يوسف، وأن ينزل آمناً في ظله، ثم صرفهما ببعض الوعود الغامضة[1].

وكان الصميل يحرص في الواقع على أن تبقى السلطة ليوسف لأنه مستأثر في ظله بالنفوذ والسلطان، ويشاركه في تدبير الأمر وحكم الأندلس، فعاد أبو عثمان وزميله إلى البيرة ونشطا إلى بث الدعوة فيها، وحث اليمنية على القيام للأخذ بالثأر، وبثّا عمالهما في أنحاء الأندلس يدعون إلى تأييد عبدالرحمٰن الأموي. وعاد بدر إلى عبدالرحمٰن على مركب خاصة جهّزها أبو عثمان ومعه عدة من أنصار الأموية، وأفضى إليه بنتائج رحلته، فاستبشر عبدالرحمٰن.

كان يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري والي الأندلس يستعد لغزوة من غزواته آنذاك، وكانوا يخرجون معه في تلك الغزوة، فواتتهم الفرصة، واتصلوا باليمنيين، مثل: أبو الصباح اليحصبي، وأبو علاقة الجذامي. وخاطبوا رؤساء اليمنية، وانتهزوا فرصة التباعد بين الصُميل وبين الحصين بن الدجن، فخاطبوه في ذلك، فلم يتردد، وكان المضري الوحيد الذي أيّد دعوتهم.

فلما تمّ لهم ذلك، طلبوا من بدر، مولى عبدالرحمٰن، أن يبلغه أنهم أجابوه إلى طلبه، وأنهم ينتظرون مجيئه، فعاد بدر إلى مولاه بإجاباتهم سنة **١٣٧هـ/ ٧٥٤م**، ولكن عبدالرحمٰن أجابه بقوله: «ليس تطيب نفسي على دخول الأندلس إلاّ أن يكون معي واحد منهم»[2].

عندئذ رجع إليهم بجوابه، فرأوا أن يأخذوا رأس الصُميل، فأطلعوه على قصة عبدالرحمٰن بن معاوية، فقال لهم: «أُروسّي في أمره»[3].

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٤٥.
(٢) د. عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص١٨٠.
(٣) البيان المغرب جـ٢، ص٤٣.

وتمكن الأمويون من الانفراد بالصميل، وتكلموا معه في قصة عبدالرحمٰن، فوعدهم المساندة، فشكروه على ذلك، ولم يكادوا ينصرفوا من مجلسه حتى عاد وقال: «إني تأملت الأمر، فوجدته صعب المرام، فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما، فإن أحبّ غير السلطان فله عندي أن يواسيه يوسف، ويزوجه، ويجبوه. انطلقا راشدين»[١].

وبذلك انقطع أملهم من ربيعة ومضر، واتجهوا نحو اليمنيين، وأخذوا يدعون كل يمني يقابلونه، وكان اليمنيون قد وغرت صدورهم طلباً للثأر، وبينما هو ينظر في الهزيمة التي لحقت بجيشه في «جليقية» جاءه رسول من قِبَل ولده يخبره أن فتى من قريش من ولد هشام بن عبدالملك نزل بساحل المنكّب فاجتمع إليه موالي القوم والأُموية[٢].

انتشر الخبر في المعسكر، فانفضّ الناس عن يوسف الفهري، وتنادوا في نفوسهم، وأصبح يوسف بن عبدالرحمٰن ليس في عسكره وجنده غير القيسيين من أهل الشام، فقال للصُميل: ما الرأي؟

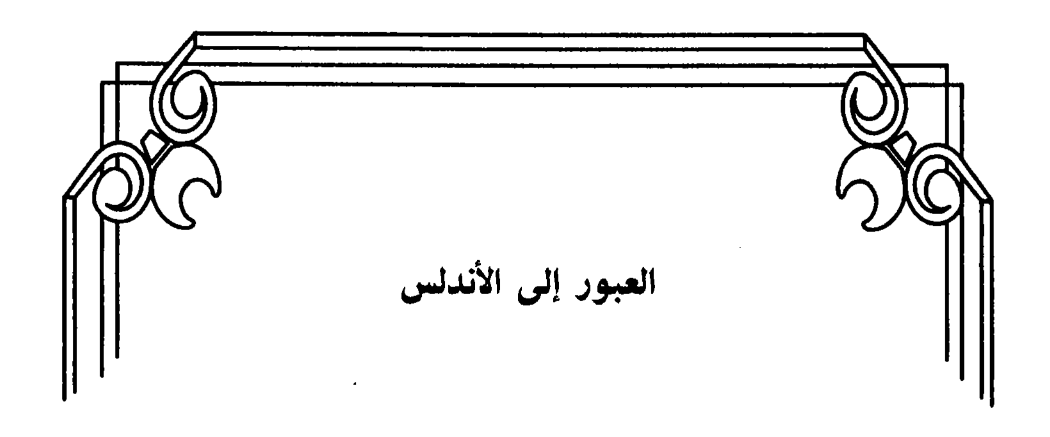
فقال الصُميل: «بادره الساعة قبل أن يستفحل أمره»[٣]، وانصرفوا إلى قرطبة.



(١) المصدر السابق ص٤٤.

(٢) المصدر السابق ص٤٤.

(٣) المصدر السابق ص٤٤.



العبور إلى الأندلس

في غرّة ربيع الأول سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م نزل عبدالرحمٰن بن معاوية بساحل البيرة في ثغر المنكب ـ والمنكب: مدينة كبيرة بيضاء تقع على خليجين متجاورين كقوسين في البحر، وتحميها الجبال من الخلف، وربما كان موقعها الحصين من البر والبحر هو الذي حدا بعبدالرحمٰن الداخل إلى اختيارها للنزول من شاطىء الأندلس، فضلاً عن قربها لمركز دعوته[1].

ثم ارتحل عبدالرحمٰن إلى طرش وهي قرية تقع غربي المنكب على مقربة من البحر، استقبله أبو عثمان فيها وأنزله بمقامه، فأقبل إليه جماعة من الأمويين، وقد أُعدَّ لعبدالرحمٰن بن معاوية ما يصلح لمثله من المركب والمنزل والملبس[2].

وتوافد عليه الناس من كل مكان، وعلم يوسف الفهري بذلك، فكتب إلى جماعة الأمويين محذراً مخوفاً!!

فقالوا له: إنما أقبل ابن معاوية إلينا وإلى جماعة موالية يريد المال، ليس فيما يظن الأمير ـ أصلحه الله ـ ولا فيما يُرفع إليه[3].

في هذه الأثناء استقرّ عبدالرحمٰن الداخل بطرش ينظم دعوته ويدبّر

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس ـ د. عنان ـ العصر الأول القسم الأول ص١٥٢ الهامش ـ ط الخانجي.

(٢) البيان المغرب ٤٤/٢.

(٣) المصدر السابق.

خططه[1]. وكان يوسف بن عبدالرحمٰن أثناء ذلك في الشمال يعسكر بجيشه تحت أسوار سرقسطة، وقد استعصم بها عامر البدري والحباب الزهري، فلما تمّ له الأمر بالاستيلاء على سرقسطة والقبض على الزعيمين الثائرين وإعدامهما، إذ أتاه رسول أوفده على جناح السرعة ولده عبدالرحمٰن بن يوسف الذي استخلفه على قرطبة، ومعه كتاب ينبئه فيه بمقدم عبدالرحمٰن الأموي، وانتشار دعوته في جنوب الأندلس.

أصاب الذعر يوسف بن عبدالرحمٰن من جراء هذه الأخبار، وذاع النبأ في الجيش، فسرى إليه الخلل، وتسلّلت العناصر الناجحة، ولم يبق منه سوى فلول يسيرة، فهرول يوسف في بقية جنده إلى طليطلة ليبحث مع الصميل في أفضل الوسائل لرد هذا الخطر القادم.

ولما وصل إلى طليطلة دعا وزيره الصُميل، وأخبره الخبر، فقال له الصُميل: «الرأي أن تمكر بابن معاوية فهو فتى حديث السن»، وقال له: «هو قريب عهد بزوال النعمة، فهو يغتنم ما تدعوه إليه، ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه وفي الذين سعوا له بما تحب»[2].

ونصح الصميل يوسف بأن يزوجه ابنته، وأن يجعله يقيم في جند دمشق أو الأردن، وأن يوليه على الكورتين، وكانت الرسالة التي وصلت إلى يوسف بن عبدالرحمٰن من أم عثمان أم ولده تقول فيها:

«ابن معاوية قد دخل، ونزل طُرُش عند الفاسق عبيدالله بن عثمان، وأصفقت معه بنو أمية، وإن خليفتك على البيرة زحف إليه بمن خفّ من أهل الطاعة ليخرجه، فهُزم وضُرب أصحابه، ولم يقع قتل، فالرأي رأيك»[3].

وبعد أن سمع يوسف نصيحة الصميل أراد أن ينفذها، فكتب إلى

---

(١) نفح الطيب جـ٢ ص٦٥.

(٢) البيان المغرب ٢/٤٥.

(٣) تاريخ الإسلام وآثارهم في الأندلس، د. عبدالعزيز سالم، ص١٤٨.

عبدالرحمٰن الداخل كتاباً جاء فيه: «أما بعد فقد انتهى نزولك بساحل المنكَّب، وتأبش من تأبش إليك، ونزع نحوك من السُّراق وأهل الغدر ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا، وبه - جلَّ وعلا - نستعين عليهم، ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش، حتى غمصوا ذلك، واستبدلوا بالأمن خوفاً، وجنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط.

فإن كنت تريد المال وسعة الجناب، فأنا أولى لك ممَّن لجأت إليه، أكْنُفك وأصل رحمك، وأنزلك معي إن أردت، وبحيث تريد، ثم لك عهد الله وذمته في ألا أغدِر بك، ولا أُمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره»[1]. وأمر يوسف بتأليف وفد يتكون من خالد بن يزيد كاتب يوسف، وعبيدالله بن علي، وعيسى بن عبدالرحمٰن الأُموي. وبعث معهم بكسوة وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار، وسار القوم حتى بلغوا أرش في أدنى كورة ريّة، وهناك اتفق الثلاثة على أن يبقى عيسى بن عبدالرحمٰن بالأموال والهدايا، فإذا وجدا عبدالرحمٰن بن معاوية متجاوباً وراغباً في الصلح أرسلا إلى عيسى رسولاً لتقديم الهدايا، وإذا لم يجد شيئاً من القبول لدى ابن معاوية فإن يوسف الفهري أحق بماله[2].

حضر الوفد إلى «طُرُّش» حيث يسكن عبدالرحمٰن، وسلم خالد الكتاب إلى عبدالرحمٰن بن معاوية، فأخذه منه وسلّمه إلى أبي عثمان وقال له: «اقرأه، وأجب فيه بما تعلم من رأينا» وأُعجب بعض الحاضرين برأي يوسف وأثنوا عليه، وعارضه بعضهم، وقالوا: «لا نقبل ذلك منه إلاَّ أن يعتزل الملك ويبايعك، وإلاّ حاكمه إلى الله»، وقالوا: «إنما يمكر بك، ولا يفي لك بشيء، لأن وزيره ومالك أمره الصُّميل، وهو غير مأمون»[3].

أخذ أبو عثمان الكتاب واستعدَّ للرد، قال له خالد بن يزيد: يا أبا عثمان، لتعرقَنَّ إبطاك قبل أن تحير فيه جواباً، فغضب أبو عثمان، وضرب

(١) البيان المغرب ٤٥/٢.
(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص١٨٥.
(٣) البيان المغرب ٤٦/٢.

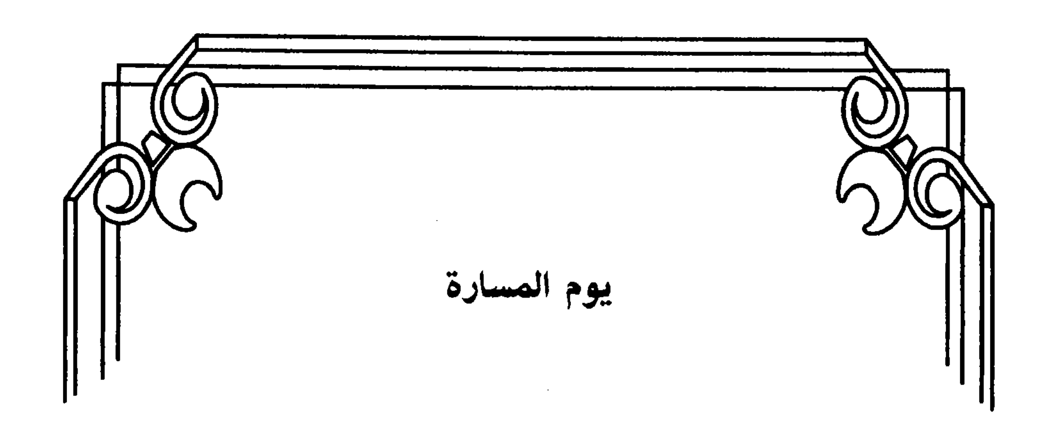
بالكتاب وجه خالد، وشتمه، ثم أمر به فأُخذ وكُبِّل بالأغلال، ورجع عبيد وعيسى بما معه من هدايا، وكان ما فعله أبو عثمان بمثابة إعلان حرب على يوسف بن حبيب والصُّميل.

وكانت الدعوة الأموية في ذلك الحين قد اجتاحت جنوبي الأندلس، والتفَّ حول عبدالرحمٰن عدة من زعماء القبائل والجند، منهم تمام بن علقمة اللخمي وقد أخذ له بيعة جند فلسطين، ويوسف بن نجت وقد أخذ له بيعة جند الأردن، وجدار بن عمرو المذحجي من زعماء ريّة، وحسان بن مالك الكلبي من زعماء إشبيلية.

ولم تكن طموحات عبدالرحمٰن الداخل محددة في تولي ولاية أو ولايتين، ولكن هذه الطموحات كانت أبعد من ذلك وأرفع، وكان سلطان الأندلس كلها مطمح آماله[1]. وكان قد آنس ذيوع دعوته وقوة أنصاره، فسار في صحبه من طرش إلى ريَّة، فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم إلى شذونة، فبايعه عاملها علقمة بن غياث اللخمي، ثم إلى إشبيلية، فبايعه كبيرها أبو الصباح بن يحيى اليحصبي زعيم اليمنية. وانضم إليه أثناء تجواله كثير من الأنصار والجند، واجتمع له في إشبيلية زهاء ثلاثة آلاف فارس، وذاعت دعوته في غربي الأندلس كله، وأقبلت إليه المتطوعة من كل صوب، من المضرية واليمنية وأهل الشام. ولما رأى أنه يستطيع البدء بمناجزة يوسف سار في قواته صوب قرطبة.



(١) المصدر السابق.



يوم المسارة

كان يوم المسارة حاسماً في مصاير الأندلس، وكان فاتحة عهد جديد من تاريخها، وكان بالنسبة لعبدالرحمٰن فاتحة الظفر لا غايته.

ففي مطلع ذي الحجة سنة **١٣٨هـ**/ أوائل سنة **٧٥٦م** سار عبدالرحمٰن الداخل في قواته صوب قرطبة.

وفي ذلك يقول تمام بن علقمة: «واجتمعنا إليه فأتيناه في ثلاثمائة فارس من جماعة الأمويين، وممن أقبل إليه من وجوه العرب، ثم كاتبنا أهل قنسرين وفلسطين، فلما جاءت رسلهم بما أردنا نهضنا إليهم، وكنا قد وُطِّنا على الموت، وعزمنا على أن نُقتل دونه، وعقدنا له لواء، وأقمنا معه ستة أشهر نبرم له أموره ونكاتب له الناس»[(١)].

ورحل عبدالرحمٰن بن معاوية من البيرة إلى كورة ريّة، إلى شذونة إلى مورور، إلى كورة إشبيلية، والناس يتلقونه بالبشر والترحاب. ويضيف تمام بن علقمة قائلاً: «فدخلنا ريَّة في ستمائة فارس، وخرجنا منها في ألفَيْ فارس، وخرجنا من إشبيلية إلى قرطبة في ثلاثة آلاف فارس»[(٢)].

ودخل عبدالرحمٰن الداخل أرشدونة يوم عيد الفطر، وأقبل الخطيب، فقام إليه جدار بن عمر القيسي فقال له: «اخلع يوسف بن عبدالرحمٰن،

---

(١) البيان المغرب ٢/٤٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

واخطب لعبدالرحمٰن بن معاوية بن هشام، فهو أميرنا وابن أميرنا»، ثم قال: يا أهل ريَّة، ما تقولون؟ فقالوا: نقول ما تقول.

فخُطِبَ لعبدالرحمٰن الداخل، وبايعوه عند انقضاء الصلاة[1].

وقيل لعبدالرحمٰن بن معاوية: إن قرطبة تعج بموالي الأمويين، فشجعه ذلك للسير إليها. وعمد إلى حيلة تنم عن دهاء، فأوقد ناراً في معسكره، ليوهم يوسف بن حبيب أنه باق في المعسكر، وارتحل مسرعاً إلى قرطبة لعله يصلها قبل يوسف، فلم يسر إلا قليلاً حتى أتى يوسف مَن يخبره بما أراد عبدالرحمٰن من مخالفته ليدخل قرطبة، فأصبحا يتسابقان والنهر بينهما.

فعدل عبدالرحمٰن عن خطته، وعدل يوسف كذلك، وسارا والنهر يحجز بينهما، وكان جند عبدالرحمٰن قد تعبوا ونفدت مؤونتهم، بينما جند يوسف يتمتعون بأشهى أنواع الأقوات، ثم نقص النهر يوم الخميس التاسع من ذي الحجة ـ يوم عرفة ـ فقال عبدالرحمٰن: في أي يوم نحن؟

فقيل له: يوم عرفة، وغداً الأضحى والجمعة، وأموي مع فهري (يقصد يوسف الفهري)، أرجو أنها أخت يوم مرج راهط[2].

وصَمَّمَ عبدالرحمٰن على القتال في اليوم التالي ـ يوم الجمعة ـ وكان يوم الأضحى، متيمناً من ذلك بذكرى موقعة «مرج راهط» الشهيرة، التي انتصر فيها جدّه مروان بن الحكم على قوات عبدالله بن الزبير[3] التي يقودها الضحّاك بن قيس الفهري، وذلك في يوم الأضحى، وقد كان الجمعة أيضاً سنة ٦٤هـ.

وفي اليوم التالي دفع عبدالرحمٰن قواته لاقتحام النهر، وكان أول من اقتحمه منهم جند بني أمية، وكان يوسف يتفوق على عبدالرحمٰن بكثرة فرسانه، ولكن التفرُّق كان يسود جنده، وكانت جموع عبدالرحمٰن تضطرم

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ـ د. عبدالعزيز سالم ص١٨٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر كتابنا الخلافة الأموية ط ـ دار ابن حزم ـ بيروت.

رغم قلتها عزماً وحماساً، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ولكن قصيرة.

يقول ابن عذارى: «فلما أصبح يوم الجمعة، التقى الجمعان، واستمرت الحرب والقتال، فمشى العلاء بن جابر العقيلي إلى الصميل فقال له: «يا أبا حَوْش، اتّقِ الله، فوالله ما أشبه هذا اليوم إلاّ بيوم المرج، وإن عاره لباق علينا إلى اليوم، فإن الأمور يهتدى لها بالأقران والأفعال! أَمويٌّ وفهريٌّ، وقيس واليمن، وهذا يوم عيد، ويوم جمعة، ويوم المرج أيضاً يوم جمعة، والأمر والله علينا، لا شك في ذلك، فاتّقِ الله، واغتنم لنا الأمر، لنكون فيه أعزاء لا أتباعاً»[1].

ولم يأتِ الضحى حتى مُزقت خيل يوسف، وهُزم جيشه هزيمة شديدة، ونُهبت أسلابه، وقتل كثير من وجوه القيسية والفهرية. وأراد يوسف الفهري أن يدخل القصر، فاعترض له عبدالأعلى بن عوسجة، فلم يستطع دخوله، فولّى منهزماً إلى جبل قرطبة صوب طليطلة حيث كان ولده عبدالرحمٰن، وفرّ الصُّميل صوب جيان، ودخل عبدالرحمٰن الأموي وصحبه قرطبة دون معارضة، وحمل جنده ما استطاع من الاعتدال والقناعة والسماحة، وحمى أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من العبث. ثم نزل بالقصر، وبويع في الحال بالإمارة، وذلك في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ/ ١٣ مايو سنة ٧٥٦م[2].

وكان يوم المسارة بالنسبة لعبدالرحمٰن الداخل فاتحة النصر والظفر لا غايته ونهايته، فقد استطاع بعد مشقة ومصاعب جمّة وخطوب شديدة أن يجوز إلى الأندلس، وأن يفتتح عاصمتها، وأن ينتزع إمارتها بنفسه، ولكنه ظفر بعرش لم يتوطد سلطانه بعد، وكانت المسافة بينه وبين ملك الأندلس المستقرة مراحل بعيدة.

وكان ملك الأندلس قد غدا منذ انحلال الخلافة الأُموية، كما رأينا، نَهْباً مشاعاً يتنازعه الزعماء، وكانت الفتن المتوالية قد عصفت بالسلطة

---

(١) البيان المغرب ٤٦/٢.

(٢) انظر نفح الطيب، جـ٢ ص٦٥، ٦٦، والبيان المغرب ٤٨/٢، ٤٩.

العليا، واقتصّت من أطرافها، واستقلّ الزعماء بكثير من النواحي، فأصبحت هذه النواحي ولايات منفصلة هنا وهناك، وقضى يوسف الفهري ولايته في إخماد الفتنة، واستخلاص الرياسة، ولكن لم يوفّق إلى إخماد كل عناصر النزاع والخروج. فلما ظهر الفتى الأموي عبدالرحمٰن الداخل من الميدان، كان صرح الأندلس يهتز فوق دعائمه الواهنة، وكان توطيده يتطلب كثيراً من العزم والعمل القوي.

وإذا كان يوم المسارة يوماً حاسماً من تاريخ الأندلس، وفاتحة عهد جديد في تاريخها، إلا أن المهمة كانت صعبة وشاقة ومتشعبة النواحي، وقد كان يوم المسارة فاتحة الظفر، وفاتحة الكفاح أيضاً، ذلك أن الأندلس كانت مسرحاً للفتن والثورات في كل مكان، وانتشرت فرقاً وشيعاً صغيرة، فلم تبقَ الخصومة قاصرة على المضرية واليمنية فقط، ولكن غدت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ومصالحها الخاصة، وكانت هذه القوى المنتثرة المستقلة برأيها وهواها تتمسك باستقلالها المحلي، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة، وكان عبدالرحمٰن الداخل يسعى إلى إحياء دولة مسلّحة في الأندلس متماسكة قوية موحّدة، كما كانت قبل أن تعصف بها وتمزقها الحرب الأهلية، فكانت المعركة في الواقع معركة الدولة والإمارات المستقلة[1].

وكان البربر عنصراً قوياً وفعّالاً في الفتنة، يحتفظون دائماً ببغضهم القديم للعرب، ويتمسكون بحرص شديد بما انتزعوه من العرب خلال الفتنة من النواحي والضياع والمدن.

وقد كان هناك الكثير ممن هم أشد خطراً على الدولة الإسلامية في الأندلس وهم إسبانيا النصرانية أو نصارى إسبانيا الذين اغتنموا الفرص ليخرجوا من محنة الهزيمة والفوضى بصفوف منتظمة ومملكة جديدة في الشمال، وكان هناك أيضاً مملكة الفرنج القديمة التي استطاعت أثناء الفتنة

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، د. محمد عبدالله عنان ق١ ـ ع١، ص١٥٥.

أن تنتزع الأراضي الإسلامية فيما وراء البرنية، وكان نصارى الشمال والفرنج يتربصون يومئذ بالأندلس، ويرون في تفرُّقها وضعفها فرصة صالحة للعمل، ويتصلون بكثير من الزعماء والخوارج، ويمدونهم بالنصح والمعونة، ويتخذونهم وسائل لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها.

ونظرة فاحصة على هذه الأمواج المضطربة تشعر بالإشفاق على عبدالرحمٰن الداخل، فقد كان غداة نصره المظفر في المسارة، يواجه هذه الخطوب والأخطار كلها، وكان عليه أن يصارعها جميعاً لكي يحقق حلمه الأكبر، وهو الجلوس على سدة الحكم لدولة الأندلس الإسلامية الأموية القوية المتحدة، ولكن ذلك الفتى الأُموي الجريء لم يكن يجاوز السادسة والعشرين من عمره يوم ظفره ونصره الأول في المسارة، كان رجل الموقف الذي صنعته الخطوب والمحن حينما رأى دولة أجداده وآبائه تنهار في المشرق، وسيف العباسيين يعصف بعنق أخيه الغلام الصغير على شاطىء النهر، فيفر بطموحه الكبير إلى فخر أجداده وزهرة فتوحاتهم وهي الأندلس، كانت الخطوب والمحن التي واجهها هي التي صنعت منه صقراً يشهد له في زمانه خصومه بل أشدهم، وهو أبو جعفر المنصور، فيحمد الله أن جعل بينه وبينه بحراً، بل بحاراً بعيدة.

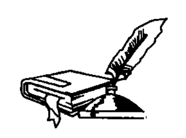
قضى عبدالرحمٰن الداخل صنيعة المحن والخطوب بقية عمره (اثنين وثلاثين عاماً) في كفاح مستمر، ونضال لا يهدأ، ومغامرة مدهشة، لا ينتهي من معركة إلاّ ليخوض أخرى، ولا يقمع ثورة إلاّ تليها ثورة، ولا يسحق خارجاً عليه إلا ويعقبه خارجاً آخر، ولم تبقَ في الأندلس ناحية أو مدينة إلا وثارت عليه، ولا قبيلة إلا نازعته في الرياسة، فقد حاولت كل القوى الخفية والظاهرة سحقه والقضاء عليه.

كانت الأندلس طيلة سنوات حكمه بركاناً مشتعلاً ثائراً يرمي بلهب الحروب والثورات والمؤامرات والفتن، ولكنه صمد صمود الأبطال أمام تلك الخطوب والمحن.

وقد استطاع بوافر ذكائه وعظيم إقدامه وقوة عزيمته وجلده، أن يصارع

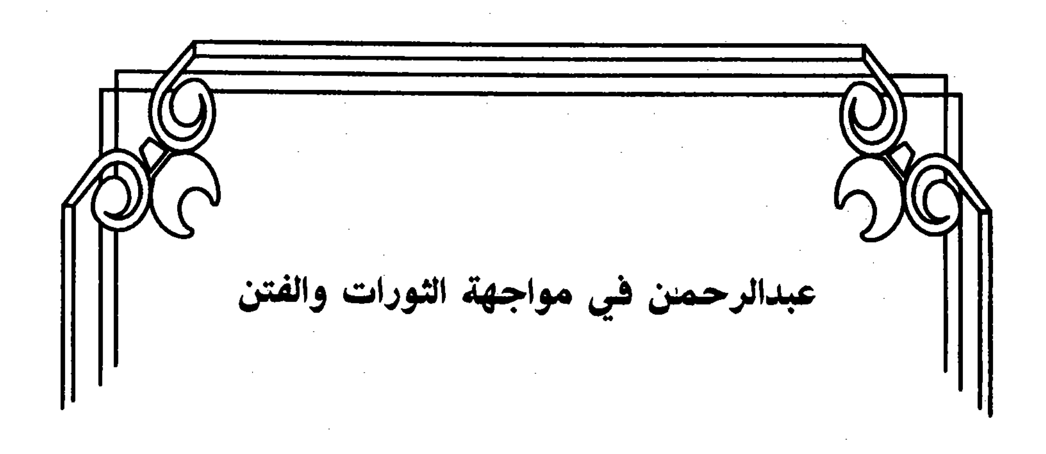
تلك الأخطار والقوى ويغالبها، وأن يمسك ويقبض على مقدرات الأندلس ومصائرها بيد من حديد، وأن يعيد مجد بني أمية المندثر في هذه البلاد الجميلة الرائعة، وإن كانت بعيدة عن أصوله في المشرق الإسلامي، لتستقر الأندلس قرابة قرنين من الزمان[١].

ولقد كان لتفرُّق خصومه أكبر الأثر في تحقيق النصر، فلم تَكُ ثمة زعامة شاملة بعد يوسف الفهري والصُّميل يجتمع الخصوم حولها، وكان خصومه متناثرين في النواحي والمدن، كل منهم يعمل بمفرده حول زعيم أو قائد محلي، وكان فوق ذلك يعارض بعضها البعض، وقد استغل عبدالرحمٰن هذه الحالة استغلالاً كبيراً لصالحه، فعمد إلى لقاء معارضيه في ميادين القتال فرادى، وبذلك استطاع أن يقضي عليهم ويُخمد ثوراتهم، وأن يحطم قواهم واحد تلو الآخر، ومع تحطيم كل قوة كان يزداد قوة ومهابة ومنعة واتباعاً، في حين يتراجع خصومه وتضعف شوكتهم ومقاومتهم حتى استطاع أن يقضي عليهم جميعاً كما سنرى.



---

(١) المصدر السابق.



عبدالرحمن في مواجهة الثورات والفتن

أولاً - تعقُّب يوسف الفهري والصُّميل

فرَّ يوسف الفهري عقب موقعة المسارة صوب طليطلة، وفرَّ الصُّميل إلى جيان معقل قومه، وقام يوسف الفهري يحشد أنصاره في طليطلة، بمعاونة عاملِهِ عليها هشام بن عزرة الفهري، وانضمّ إليه الصميل بمن حشد من المضرية، ثم سارا في قواتهما إلى جيان ثم إلى البيرة (غرناطة)، واجتمع أهل هذه الأنحاء حول يوسف، ونزل يوسف بغرناطة يتأهب لمحاربة عبدالرحمٰن، لكن ما كاد يستقر في البيرة حتى بادر عبدالرحمٰن بالسير إليه، وترك حماية قرطبة لحليفه وقائده أبي عثمان، ولما علم يوسف بمسيره إليه، بعث ابنه عبدالرحمٰن في بعض قواته إلى قرطبة، فاقتحمها وأسر أبا عثمان ونفراً من أهل عبدالرحمٰن وحريمه، ثم غادرها في الحال خشية المفاجأة، لكن عبدالرحمٰن الأموي لم يلوِ في طريقه على شيء، وقصد إلى البيرة تواً وحاصر يوسف والصّميل، فلما شعرا بأن مقاومتهم لا فائدة منها، فاوضاه في الصلح والتسليم بالأمر له، ونبذ كل دعوى في الولاية والسلطة على أن يؤمنهما في النفس والمال والأهل، وأن يؤمن حلفاءهم وأصدقاءهم جميعاً، وأن يسمح لهما بسكنى قرطبة تحت رعايته ورقابته، فأجابهما عبدالرحمٰن إلى الصلح على ذلك، وعلى أن يقدّم يوسف ولديه عبدالرحمٰن ومحمداً أبا الأسود رهينة لديه، يعتقلهما في قصر قرطبة برفق وإكرام، حتى تطمئن النفوس وتستقر الأُمور، وتمّ عقد الصلح بين

الفريقين في صفر سنة **١٣٩هـ**، وأُفرج عن أبي عثمان وباقي الأسرى الذين أسرهم ولد يوسف، وتصافى الفريقان، وقفل يوسف والصميل مع عبدالرحمٰن عائدين إلى قرطبة، وانفضّ جندهما، ونزل يوسف بشرقي قرطبة في قصر الحر الثقفي أحد الولاة السابقين، ونزل الصميل بداره بالربض (الضاحية)، وأبدى عبدالرحمٰن نحوهما عطفاً وليناً، وهو مع ذلك يشدد عليهما الرقابة، ويحرص على تجريدهما من كل سلطة وقوة، وكان في قرطبة فل من عصبة يوسف وأنصاره السابقين الذين نالوا على يديه جاهاً وحظوة، يتطلّعون إلى العهد السابق، ويلومون يوسف على تسليمه واستكانته، ويحرضونه على استعادة مركزه وسلطانه.

وكان يوسف من جهته يشعر بأنه في شبه اعتقال، وأن عبدالرحمٰن يضيّق الخناق عليه، ويؤلّب عليه صنائعه، ينازعونه في أملاكه وأمواله لدى القضاء، والقضاء يميل إلى غبنه وأعناقه، حتى ذهب معظم أملاكهم، وهو يشعر أن عبدالرحمٰن من وراء ذلك الاضطهاد[1].

عندئذ قرّر يوسف الفهري الفرار، وكاتب أنصاره في ماردة وطليطلة، ثم فرّ إلى ماردة وكان بها معظم أهله وأصهاره، سنة **١٤١هـ**، وهناك حشد أنصاره من العرب والبربر حتى اجتمع له زهاء عشرين ألفاً، وتخلف الصُّميل ولم يوافقه، فقبض عليه عبدالرحمٰن وألقاه في غيابة السجن بتهمة التحريض والتآمر.

وفيما كان عبدالرحمٰن يحشد جنوده، سار يوسف بقواته إلى إشبيلية وعليها عبدالملك بن عمر بن مروان المعروف بالمرواني، فحاصره في إشبيلية حتى أتاه ولده عبدالله بالمدَد.

وقد وقعت بينهما معارك عنيفة قتل فيها كثير من الفريقين، وارتدَّ يوسف منهزماً بفلوله، وكان عبدالرحمٰن الأموي يرابط عندئذ بقواته في حصن المدوّر الواقع على مقربة من غربي قرطبة على نهر الوادي الكبير،

(١) نفح الطيب، للمقري جـ٢ ص٦٦.

فوافته الأخبار بهزيمة يوسف وفراره، فتوقف عن مطاردته، وسار يوسف إلى طليطلة، ولبث يتردد في أنحائها عدة أشهر وهو يحاول أن ينظم قواته مرّة أُخرى، ولكن بعض الخونة من أنصاره أو مواليه ائتمروا به واغتالوه ذات يوم على مقربة من طليطلة، وحملوا رأسه إلى عبدالرحمٰن في قرطبة سنة **١٤٢هـ**، والظاهر أن هذه الجريمة لم تكن بعيدة عن وحي عبدالرحمٰن، وانتهت بذلك حياة يوسف الحافلة المضطربة، وأمن عبدالرحمٰن شرّه وخطره، وقتل ابنه عبدالرحمٰن المعتقل لديه، ورفع رأسيهما فوق الرماح أمام القصر ليلقي الرعب في قلوب الخوارج والمخالفين[١].

أما ولد يوسف الآخر وهو محمد بن الأسود، فقد استطاع أن يفرّ من سجنه، وقصد تواً إلى طليطلة معقل عصبة أبيه وتحصَّن بها، فبعث عبدالرحمٰن في أثره جيشاً بقيادة تمام بن علقمة، وعيّنه والياً لطليطلة، فحاصرها حتى سلمت، وأُسر محمد بن يوسف ثانية وجيء به إلى قرطبة، واستولت جنود عبدالرحمٰن على طليطلة في ذي الحجة سنة **١٤٢هـ**، وسُحق بذلك وكر الثورة الفهرية، وزُجَّ بمحمد إلى السجن ثانية، وادّعى العمى حتى استطاع الفرار بعد محنة طويلة، وعاد يرفع علم الثورة فيما بعد، وتمكن أخوه الأصغر القاسم بن يوسف أن يفر من طليطلة متنكراً قبل سقوطها. وأمَّا الصُّميل، فلبث يرسف في سجنه مدى أسابيع أخرى حتى دسّ عليه عبدالرحمٰن مَن قتله داخل السجن خنقاً في أواخر سنة **١٤٢هـ**[٢]. انتهت ثورة يوسف الفهري والصُّميل والتي تُعَدَّ من أخطر مراحل الاضطراب التي واجهها عبدالرحمٰن الداخل، حيث واجه يوسف الفهري صاحب الشخصية القوية والزعيم المتميز الذي استطاع أن يحكم الأندلس زهاء عشرة أعوام في ظروف صعبة شاقة، وأن يسهر على وحدتها وسلامة قوتها، وأن يدرأ عنها خطر نصارى الشمال والفرنج، ولما فقد يوسف رياسة الأندلس

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٥١.

(٢) الحلة السيراء، لابن الآبار ص٥٠، وانظر البيان المغرب جـ٢ ص٥١.

في يوم المسارة، لبث مع ذلك أخطر قوة تهدد طالع عبدالرحمٰن الأموي وسلطانه. وظلت روح الثورة والمعارضة عدة أعوام أخرى.

أما الرجل الثاني الذي تخلص منه عبدالرحمٰن الداخل، فهو الصُّميل، فقد كان الصُّميل زعيماً قويَّ العصبية، ذكيٌّ قويٌّ، نافذ الرأي بين أصحابه توي الكلمة عند إصدارها، وافر الدهاء في مواجهة الأمراء والحكماء، كثير المكر والتآمر، يخشى بأسه حين البأس، ويخشى وحيه وغمزهُ حين التآمر والتخطيط.

هذان الرجلان كانا عقبة وأي عقبة في طريق طموح عبدالرحمٰن الداخل وحلمه في تكوين دولة إسلامية قوية في الأندلس، يعيد من خلالها مجد بني أمية الغابر، فقد كان ذهاب يوسف الفهري والصميل خطوة واسعة على الطريق وخلو الميدان منهما فوزاً ساحقاً لطموح هذا الصقر الأموي الداخل، وخطوة هائلة في طريق استقرار إمارته وتوطدها.

❋ ❋ ❋

ثانياً - أول الخوارج في إشبيلية

كانت أول وثبة من الخوارج بعد مصرع يوسف الفهري والصميل قد جاءت من القاسم بن يوسف وحليفه رزق بن النعمان الغساني، وكان القاسم حينما فرَّ من طليطلة - كما قدّمنا - قد سار إلى الجزيرة الخضراء، والتجأ إلى شيخها رزق بن النعمان صديق أبيه، وحشد حوله جمعاً من الأنصار والمرتزقة، واستولى بمعونة حليفه على شذونة، ثم سارا في قواتهما إلى إشبيلية، ولم تكن بها قوة تدافع عنها، فاستوليا عليها دون مشقة، فبادر عبدالرحمٰن الداخل في قواته إلى إشبيلية، ونشبت بينه وبين هؤلاء الخوارج معركة عنيفة قتل فيها رزق بن النعمان وفرّق جنده، ودخل عبدالرحمٰن إشبيلية ظافراً، وذلك في أواخر سنة ١٤٣هـ. أما القاسم فالتجأ بقواته إلى شذونة، وبعث عبدالرحمٰن في أثره تمّاماً والي طليطلة، فطاردهُ حتى أسره وفرّق جنده وشتّت قواته.

❋ ❋ ❋

ثالثاً ـ ثورة زعيم اليمانية في إشبيلية

ظل عبدالرحمٰن بإشبيلية بضعة أشهر إلى أن ظنّ أنها استقرت، ولكنه ما كاد يغادرُها إلى قرطبة حتى نشبت فيها ثورة جديدة بقيادة زعيم اليمانية عبدالغافر اليماني، فقد استولى عبدالغافر على ما جاور قرطبة من الأنحاء، وكثرت جموعه ولا سيما من البربر، وأصبح يهدد قرطبة، فخرج عبدالرحمٰن لقتاله، والتقيا بوادي قيس على مقربة من قرطبة، فاستمال عبدالرحمٰن حلفاء عبدالغافر من البربر فانفضَّ عنه بعضهم، واقتتل الفريقان، فهُزم عبدالغافر هزيمة شديدة، وفرّ إلى لقنت، وطارد عبدالرحمٰن جنده حتى قتل منهم ألوفاً عديدة سنة ١٤٤هـ.

❋ ❋ ❋

رابعاً ـ ثورة الحضرمي في إشبيلية

هذه المواجهة كانت أشد صعوبة من ثورة اليماني، فقد رفع لواءها من بعد عبدالغافر اليماني، كبير زعماء إشبيلية، وهو: حيوة بن ملامس الحضرمي، فقد تغلّب على إشبيلية وإستجة وكثير من نواحي الغرب، والتفّ حوله أهل هذه الأنحاء، واستفحل أمره، فسار إليه عبدالرحمٰن، ونشبت بينهما معارك عنيفة مدى أيام، ودافع الثوار عن أنفسهم ببسالة شديدة، حتى كادت الدائرة تدور على عبدالرحمٰن، ولكن التفرُّق دبَّ أخيراً إلى صفوف الثوار، ولحقهم الإعياء والملل، فوقعت عليهم الهزيمة، وفرَّ زعيمهم حيوة، وكتب إلى عبدالرحمٰن يلتمس منه العفو والأمان (سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م)[1].

❋ ❋ ❋

خامساً ـ ثورة الفهري في طليطلة

وما إن فرَّ حيوة الحضرمي، حتى نشبت الثورة في طليطلة، وكان عبدالرحمٰن قد اختار لولايتها تمام بن علقمة، ثم عيّنه حاجباً له، فكان أول

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٥٣.

حجّابه، وخلفه في ولاية طليطلة حبيب بن عبدالملك، وكانت المدينة ما تزال تضطرم بعناصر الثورة وفيها كثير من أنصار الفهرية، فلم يلبث أن قام زعيمهم هشام بن عذرة الفهري - ولد عذرة أمير الأندلس السابق - وأعلن الثورة واعتصم بالمدينة، فسار إليه عبدالرحمٰن وحاصره مدى أشهر حتى اضطر إلى طلب الصلح، وقدم ولده رهينة بحسن طاعته، فأجابه عبدالرحمٰن إلى طلبه وآثر أن يهادنه مؤقتاً، ولكنه ما كاد يصل إلى قرطبة حتى عاد هشام إلى الثورة، فارتدّ إليه عبدالرحمٰن ليعاقبه على نكثه، وحاصره ثانية وقتل ابنه وأطلق رأسه بالمنجنيق داخل الأسوار، ولكنه لم يظفر بحمل الثائر على التسليم، فعاد إلى قرطبة لينظم جيشه، ولكنه لم يستطع أن يعود توّاً إلى طليطلة، وكان لذلك سبب بالغ الخطورة يتطلب كل ما يستطيع إعداده من قوة ومن رباط.

❋ ❋ ❋

سادساً - ثورة العلاء اليحصبي في باجة

كان الخطر الداهم الذي منع عبدالرحمٰن من العودة إلى طليطلة هو داعية من خصوم بني أمية وأعدائهم، هو العلاء بن مغيث اليحصبي، وكان من زعماء باجة وله بها رياسة وعصبية، فقد كاتب هذا الرجل أبا جعفر المنصور، واتصل برسله في إفريقية، واستصدر منه تفويضاً (سجلاً) بولايته وحكمه للأندلس، ثم ارتدّ إلى الأندلس، وعاد إلى باجة في قوة كبيرة، ودعا لبني العباس، ورفع العلم الأسود، وأعلن أنه قد عُيِّنَ أميراً للأندلس من قِبَلِ المنصور سنة ١٤٦هـ[١].

وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يحاول بهذه الدعوة أن يحطم مشاريع بني أُمية فيما وراء البحر، وأن يبسط سلطانه الأسمى على الأندلس، وقد رأينا أن عبدالرحمٰن بن حبيب المتغلب على إفريقية، دعا

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٥٤.

لبني العباس حينما انهار سلطان بني أُمية، وكاتب الخليفة العباسي فأقرّه على حكم إفريقية، فكانت إفريقية تابعة لبني العباس من الوجهة النظرية، وهكذا كان شأن العلاء بن مغيث، فقد رأى أن يستظل في ثورته بالدعوة العباسية لكي يُسبغ عليها لوناً من الشرعية، ولم يكن للخليفة العباسي اعتراض على محاولة لا يتحمل تبعتها من الوجهة المادية وإن كان يعضدها من الناحية المعنوية، ولذلك فقد أرسل بالفعل سجلاً إلى العلاء بما طلب، وكان بعض الزعماء الخوارج على يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري قد استظلوا بالدعوة العباسية، كما أن هؤلاء الخوارج على عبدالرحمٰن الداخل سيشهرون هذه الدعوة في حوادث وفتن أخرى[1].

اشتعلت الثورة في باجة وما حولها، وهرعت القبائل والأحزاب المختلفة إلى الانضواء تحت اللواء الأسود (لواء العباسيين)، وكان من هؤلاء الفهرية واليمنية وجند مصر.

استفحل أمر أبي العلاء وكثر جمعه، وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه، وأعلن غياث بن علقمة الثورة في مدينة أخرى هي شذونة مخالفاً للعلاء. خرج عبدالرحمٰن من قرطبة في جمعٍ هائلٍ من قواته. أمّا شذونة فقد بعث إليها مولاه بدر في بعضٍ من قواته، فحاصرها بدر حتى أذعن غياث لطلب الصلح. وسار عبدالرحمٰن إلى قرمونة ما بين قرطبة وإشبيلية نظراً لمتاعبها، واتخذ موقف الدفاع، فسار إليه العلاء في جموعه، وهاجم قرمونة مراراً، وحاصرها مدى أسابيع حتى وهنت قوى جنده، وعندئذ انقلب عبدالرحمٰن من الدفاع إلى الهجوم، ورواءهم العلاء في صفوة جنده، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة مدى أيام، حتى هزم العلاء وفرق جنده، وقتل منهم آلاف عديدة، وكان العلاء نفسه بين القتلى، وأسر ابن قطن. وجمع عبدالرحمٰن رؤوس الزعماء والقادة من خصومه، ورقّمها بأسمائهم، وحملها بعض رسله إلى القيروان، فألقيت في أسواقها سرّاً، وأثارت هناك دهشة وارتياعاً، ووضعت رأس العلاء في سفط، ومعها اللواء الأسود، وسجل

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص١٢٢.

المنصور للعلاء، وحمله بعض التجار الثقاة إلى مكة حيث كان المنصور يؤدي فريضة الحج في العام التالي سنة ١٤٧هـ فألقي أمام سرادق المنصور، وحمل إليه، فارتاع لرؤيته، وقال ما معناه: «ما في هذا الشيطان مطمح، فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر»[١].

كان إخماد هذه الدعوة انتصاراً من نوع آخر، ويُعد انتصاراً مهماً، لأن هذه الدعوة كانت دعوة عامة تدعمها الخلافة العباسية، فأعطتها صبغة شرعية، ولم يكُ أصلح منها لجمع خصوم عبدالرحمٰن جميعاً تحت لواء واحد[٢]. ولما عاد عبدالرحمٰن إلى قرطبة كانت هناك ثورة أخرى.

❊ ❊ ❊

سابعاً ـ ثورة هشام الفهري في قرطبة

عاد عبدالرحمٰن إلى قرطبة، وجد ثورة أخرى يشعل نارها هشام الفهري في طليطلة، وقد استفحلت هذه الثورة واتسع نطاقها بصورة تدعو للقلق، فأرسل عبدالرحمٰن قائدَيْه بدراً وتمام بن علقمة في جيش كبير إلى طليطلة، فطوّقها وشدّد الحصار عليها حتى ضاق أهلها ذرعاً، واضطروا إلى طلب الصلح، على أن يسلموا الزعماء الثائرين، وقبضوا على هشام وعدّة من أصحابه، فأُخذوا إلى قرطبة مضمّدين معذَّبين، ثم صُلبوا بأمر عبدالرحمٰن، وتمَّ بذلك سحق الثورة في طليطلة إلى حين وكان ذلك في سنة **١٤٧هـ/ ٧٦٤م**.

❊ ❊ ❊

ثامناً ـ ثورة سعيد اليحصبي (المطري) ١٤٩هـ/ ٧٦٦هـ

ثار سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بمدينة لَبْلة، مطالباً بثأر اليمانية الذين قتلوا مع العلاء، فانضمت إليه جموع اليمانية حتى قوي جمعه وكثر

(١) نفح الطيب جـ١ ص١٥٦، والبيان المغرب جـ٢ ص٥٤.

(٢) رينهارت دوزي جـ١ ص٢٨٤.

جنده، فسار إلى إشبيلية فاستولى عليها، وارتدّ عنها واليها عبدالملك بن عمر المرواني لقلة جنده، ولبث ينتظر المدَد، وكانت إشبيلية مطمح كل ثائر لقربها من قرطبة، ولأنها كانت وعلى مدى أعوام من أهم مراكز الثورة في الأندلس، وخرج في الوقت نفسه غياث بن علقمة اللخمي بمدينة شذونة ناكثاً لعهده، فسار عبدالرحمٰن أولاً إلى إشبيلية، وانقلب المطري إلى قلعة رعواق القريبة وامتنع بها، فحاصره عبدالرحمٰن وقطع علائقه مع بقية أنصاره، فلما ضاق الثائر بالحصار ذرعاً حاول الخروج ليشق له طريقاً بين الجيش المحاصر، ووقعت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها «المطري» وارتدّت فلوله إلى القلعة، وقدّموا عليهم خليفة بن مروان، فاستمر عبدالرحمٰن في محاصرة الخوارج حتى أذعنوا لطلب الصلح، وسلّموا إليه قائدهم فقتله، واستولى على القلعة وهدمها، ثم سار إلى شذونة فحاصرها حتى أذعن أهلها لطلب الأمان[1].

❋ ❋ ❋

تاسعاً ـ ثورة أبو الصباح بن يحيى اليحصبي سنة ١٥٠هـ

كان أبو الصباح بن يحيى اليحصبي صديقاً لعبدالرحمٰن وحليفاً له، وكان زعيم اليمانية في إشبيلية يوم قدوم عبدالرحمٰن إلى الأندلس، فكان في طليعة من هرعوا يومئذ لتأييده ونصرته، وقاتل معه يوم المسارة، وغدا إلى جانب أبي عثمان وعبدالله بن خالد من خاصة أعوانه وأركان دولته، ولكن عبدالرحمٰن كان يحقد عليه ويتوجّس منه لحديث نقل عنه يوم المسارة بوجوب التخلُّص من عبدالرحمٰن بعد التخلُّص من يوسف الفهري، وردَّ الأمر إلى اليمنية[2].

وكان عبدالرحمٰن قد ولاه إشبيلية، ثم عزله عنها لما ظهر من عجزه

(١) دولة الإسلام في الأندلس ع١، ق١، ص١٦٣، ١٦٤.
(٢) نفح الطيب جـ٢ ص٦٦.

عن قمع الفتنة، فغضب أبو الصباح وأظهر الخلاف، واجتمع إليه أنصار، ورأى عبدالرحمٰن أن يأخذه بالحيلة والملاطفة، فبعث إليه تمام بن علقمة يدعوه إلى قرطبة للتفاهم، ويبذل له ما شاء من الوعود، فسار أبو الصباح إلى قرطبة في أربعمائة من رجاله، واستقبله عبدالرحمٰن بالقصر، وعاتبه على ما كان منه، فأغلظ أبو الصباح في الجواب، ولامه على النكث بوعوده له، فأمر الفتيان بقتله، فقتل طعناً بالخناجر، وانفضّ جمعه سنة ١٥٠هـ.

* * *

عاشراً ـ ثورة البربري شقيا بن عبدالواحد

كانت فتنة هذا الرجل من أخطر الفتن التي واجهت عبدالرحمٰن الداخل، بحيث إنها شغلته أعواماً عديدة، وقد نشبت هذه الثورة في شمال شرقي الأندلس بين البربر وزعيمها ومثير ضرامها بربري خطر يدعى شقنا أو شقيا بن عبدالواحد، وأصله من بربر مكناسة، وكان فقيهاً يعلّم الصبيان، فزعم ذات يوم أنه سليل النبي ﷺ ومن ولد فاطمة والحسين، وتسمّى بعبدالله بن محمد، فذاعت دعوته بين البربر في تلك المنطقة، وكانوا أكثرية بها، والخصُومة بين العرب والبربر قديمة كما عرفنا من قبل، وقد كان البربر على أتم الاستعداد للثورة ضد العرب دائماً[١].

أحسّ هذا الرجل الدعي الفاطمي أن الناس قد التفُّوا حوله، وقوي جمعُه، فسار إلى شنت برية، فاستولى عليها وجعلها مركزه العام، ثم سار في جموعه غرباً فاستولى على ماردة وقورية ومدلين وعلى جميع المنطقة الواقعة حولها بين نهرَيْ التاجة ووادي يانة، فقويت دعوته وعظم أمره واشتد بغيه وعبثه في تلك الأنحاء، وأخذ أعداء عبدالرحمٰن من العرب في التحرك أيضاً، فعهد عبدالرحمٰن إلى والي طليطلة أن يقمع ثورة هذا الرجل، فبعث إلى شنت برية جيشاً بقيادة سليمان بن عثمان، فخرج إليه الفاطمي في

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٥٦.

قواته، فهزمه هزيمة شديدة، وأسر قائده سليمان وقتله، وزاد هذا الظفر في سلطانه وبغيه، فسار إليه عبدالرحمٰن بنفسه في العام التالي سنة **١٥٢هـ**، واقتحم منطقة الثورة، ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة ثبت فيها البربر، وامتنع الثائر بالجبال(١).

ولم يجد عبدالرحمٰن نتيجة أو سبيلاً إلى مطاردته، فارتدَّ إلى قرطبة، وبعث إلى شنت برية مولاه بدراً ليتابع القتال، فاستمر الفاطمي ممتنعاً بصحبه في الجبال، محاذراً لقاء الجيش المهاجم، وعاد عبدالرحمٰن لقتاله بنفسه في العام التالي سنة **١٥٤هـ**(٢).

وشدّد في محاصرته ومطاردته، ولكنه فشل أيضاً في إجباره على مغادرة مواقعه، ثم بعث لقتاله في العام التالي مولاه عبيدالله بن عثمان، فخرج الفاطمي للقائه، واستمال جنده البربر، وبثّ الخلاف إلى صفوفه، فانحلّ عسكره، وأثخن فيه الفاطمي، ففرَّ عبيدالله بن عثمان، واستولى الثائر على معسكره وأسلاب جيشه، وقتل جماعة كبيرة من قادة جنده سنة **١٥٥هـ**(٣).

مما سبق نجد أن حملات عبدالرحمٰن الداخل المتوالية فشلت في إخماد الثورة في تلك المنطقة الوعرة، فعاد عبدالرحمٰن بجيش جديد إلى شنت برية، ولكنه لجأ عندئذ إلى وسيلة جديدة لتمزيق شمل الثوار، فاستقدم إليه كبير البربر في شرق الأندلس واسمه هلال الميديوني، وأقره على ما بيده من الأنحاء، وأصدر له عهداً بولاية الأنحاء التي غلب عليها الفاطمي، وفوّض إليه أمر استخلاصها منه، وكان لتلك الحيلة أثرها في بث الخلاف إلى صفوف البربر، فانفضّ عن الفاطمي كثير من أنصاره، واضطر أن ينسحب من «شنت برية» إلى الشمال ليعتصم بالجبال مرة أُخرى، وبينما عبدالرحمٰن يجِدّ في مطاردته ويقتحم معاقله وضياعه، وينكل بأنصاره حيثما

---

(١) ابن الأثير جـ٥ ص٢٢٤.

(٢) البيان المغرب جـ٢ ص٥٧.

(٣) المصدر السابق، وانظر ابن خلدون جـ٤ ص١٢٣.

وجدوا، إذ بلغه نشوب الثورة في إشبيلية ولبلة وباجة، وقوامها اليمنية من عصبة أبي الصباح وأنصاره، وكان على رأس الثورة في إشبيلية زعيمها القديم حيوة بن ملامس الحضرمي، وفي باجة عبدالغافر اليحصبي، وفي لبلة عمر بن طالوت، وهما من أبناء عمومه أبي الصباح، وانضمّ إليهم كثير من البربر، فحشد الثلاثة جموعهم واعتزموا السير إلى قرطبة في غيبة عبدالرحمٰن، وكان قد استخلف عليها مولاه بدراً، وقيل: كان يستخلف عليها ولده سليمان[1].

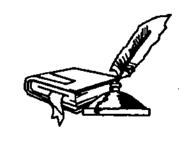
وهلك معظم الزعماء الثائرين، وفرّ عبدالغافر وركب البحر إلى المشرق، وقرن عبدالرحمٰن نصره بعملية دموية كبرى، عندما قبض على ثلاثين من وجهاء إشبيلية ممن كانوا في جيشه وأمر بهم فأُعدموا سنة **١٥٧هـ/ ١٥٨هـ.**

كانت هذه الفتنة سبباً في انشغال عبدالرحمٰن عن الفاطمي، ولكنه عاد في العام التالي إلى مطاردته، فالتجأ الفاطمي الثائر إلى الجبال كعادته، ولم يجد عبدالرحمٰن سبيلاً إلى اللحاق به، فغزا قورية وأثخن في تلك الأنحاء، وكان أمر الفاطمي قد ضعف خلال هذه الأعوام وفلَّ جمعُهُ، ولكنه ما زال يسيطر على شنت برية وماردة، وما زالت دعوته خطراً يهدد سلام الأندلس واستقراره، فوجه عبدالرحمٰن لقتاله في العام التالي حملة قوية أخرى بقيادة تمام بن علقمة وعبيدالله بن عثمان، فلقيهما الفاطمي، ووقعت بينهما معارك شديدة رجحت فيها كفّته، ثم التجأ إلى حصن شبطران بقرب «شنت برية». فحاصره تمام وعبيدالله عدة أشهر، ولكنهما لم يحققا شيئاً يُذكر، ولم يظفرا منه بطائل، فعاد إلى قرطبة، وخرج الفاطمي على أثر عودتهما إلى «شنت برية» ونزل بقرية من أعمالها تسمى قرية العيون، وهنالك ائتمر به اثنان من أصحابه هما أبو معن داود بن هلال وكنانة بن سعيد، وانقضّا عليه ذات يوم وقتلاه، واحتزّا رأسه وحملاها إلى عبدالرحمٰن في قرطبة، وبذلك انفضت جموعه، وتفرّق جنده وأتباعه، وخبت ثورته بعد أن لبثت زهاء عشرة أعوام

(١) ابن الأثير جـ٦ ص٣.

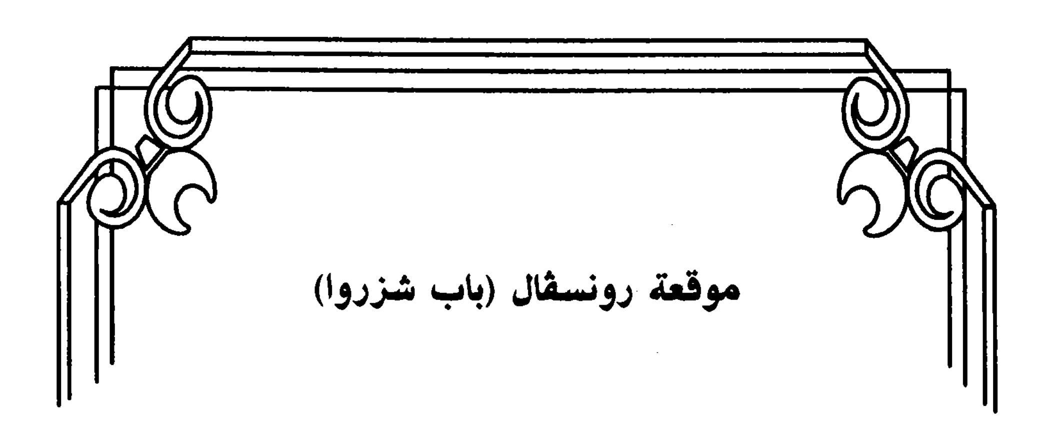
تحمل الدمار والسفك إلى شرقي الأندلس وغربها، وتهدّد سلطان عبدالرحمٰن بشر العواقب، وحققت الخيانة في لحظة واحدة ما لم تحققه الحملات والبعوث المتعاقبة في أعوام طويلة[1].

ولعل هذه الضربة الناجحة لم تكن بمعزل عن فكر عبدالرحمٰن الداخل أو وحيه، وقد كانت الخيانة والجريمة من بعض أسلحته في مقارعة الخصوم، عندما يفشل الميدان العسكري في تحقيق الهدف، وكانت الخيانة والجريمة تحققان له في بعض الأحيان من الظفر ما لا تحققه أي الوسائل، وكان مصرع الفاطمي البربري شقيان بن عبدالواحد، أو عبدالله بن محمد كما أطلق على نفسه، وانتهاء فتنته وثورته التي استمرت لوقت طويل في سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م[2].



(١) دولة الإسلام في الأندلس ع١، ق١، ص١٦٧.

(٢) ابن الأثير جـ٦ ص١٧.



موقعة رونسڤال (باب شزروا)

بينما كان عبدالرحمٰن مشغولاً بقمع الثورات والفتن، كانت هناك ثمة حوادث هامة أخرى تقع في شمال الأندلس، ففي سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٤م، ثار سليمان بن يقظان الكلبي والي برشلونة وجيرونة، والحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة، وهو من ولد سعد بن عبادة، وتحالفا على قتال عبدالرحمٰن وخلعه، وكان استمرار الثورة في الجنوب، وانشغال عبدالرحمٰن الدائم بقمعها، وطبيعة الشمال الجبلية ومنعته، ممّا يذكي عوامل الثورة في الولايات الشمالية، ويشجع مشاريع الزعماء الخوارج، وكان عبدالرحمٰن يشتغل يومئذ بمقاتلة الفاطمي، فأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي، فهزمه سليمان بن يقظان وأسرهُ، وتفرّق جيشه (١٥٨هـ/ ٧٧٥م) واستفحل أمر الثورة في الشمال، لكن سليمان بن يقظان وأعوانه لم يطمئنوا إلى ذلك النصر المؤقت وهم الذين يعرفون عزيمة عبدالرحمٰن الداخل وبأسه وروعة انتقامه، وجاء تفكيرهم بالاستعانة بملك الفرنج، فسار سليمان بن يقظان مع نفر من صحبه الخوارج إلى لقاء شارلمان في ربيع سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٧م وكان يومئذ يقيم بلاطه في مدينة پادربون من أعمال وستڤاليا (شمال غربي ألمانيا)، ويعقد الجمعية الكبرى، حيث كانت جموع السكسونيين المغلوبة تعمّد للنصرانية، بعد أن شتّت شارلمان شملهم وفرَّ زعيمهم ڤيدوكنت، في هذه الأثناء وفد عليه سليمان بن يقظان وصحبه من قبل أمير قرطبة ولا سيما سَرَقُسطة، وأخيراً بأن يسلمه أسيره القائد ثعلبة بن عبيد وكان مع ابن يقظان (أو ابن الأعرابي كما يسميه المؤرخون اللاتينيون) كان

معه ولد ليوسف الفهري حاكم الأندلس السابق جاء ومعه صهره ليسعيا كذلك لخلع عبدالرحمٰن.

وعند ابن الأثير[1] وابن خلدون[2]: إن سليمان بن يقظان (الأعرابي) وحلفاءه استدعى شارلمان ملك الفرنج إلى بلاد المسلمين، ووعده بتسليم برشلونة أو سرقسطة[3]. وأعلنوا خضوعهم لملك الفرنج وانضواءهم تحت حمايته. عندئذ لبَّى ملك الفرنج دعوة الثوّار المسلمين ووافق على عروضهم، وبعث إليه سليمان بأسيره ثعلبة بن عبيد قائد عبدالرحمٰن الداخل، عنواناً للثقة والتحالف، فسُجن في إحدى القلاع الفرنسية، وكان تسليم هذا الأسير لملك الفرنج «شارلمان» ضربة موجعة لعبدالرحمٰن لأنه كان من خاصته وأكابر وزرائه، فأصبح هذا الأسير رهينة قيِّمة يمكن لملك الفرنج استغلالها في الوقت المناسب لمساومة عبدالرحمٰن الداخل.

وكان سليمان بن يقظان زعيم أولئك الخوارج، يعمل مستقلاً لصالحه، فيرى هدفه الأول في تحطيم قرطبة وسيادتها، ويهدف إلى الاستقلال بما في يده تحت حماية ملك الفرنج، ولكن ملك الفرنج كانت له أهداف أخرى، وهي تشجيع الثورات والخلاف بين المسلمين في إسبانيا.

وكان سليمان بن يقظان على اتصال بملك الفرنج منذ سنة ٧٦٠م، منذ استيلائه على أربونة واتصال الحدود الفرنجية بحدود إسبانيا المسلمة، ويسعى بهذا التحالف إلى تأييد استقلاله. وهكذا بدأت العلاقات بين الزعماء المسلمين ممن خرجوا على حكومة قرطبة، وبين الفرنج الساعين للقضاء على دولة المسلمين في الأندلس، فكان الزعماء الخوارج كلما حاولوا الثورة والاستقلال بحكم مدينة أو ولاية، اتجهوا إلى الفرنج يستمدون عونهم ومناصرتهم، وكان الفرنج يسارعون إلى تلبية هذه الدعوات ويتخذونها ذريعة للتدخل في شؤون إسبانيا المسلمة، وإذكاء روح التفريق فيها، وسنرى كيف

---

(١) جـ٦ ص٥، ٢١.
(٢) جـ٤ ص١٢٤.
(٣) أخبار مجموعة ص١١٢، ١١٣.

استطاع ملوك الفرنج تنفيذ هذه السياسة في فرص عديدة متعاقبة.

وكانت الخلافة العباسية في المشرق غير بعيدة عن مسرح الأحداث هناك، فكانت تؤيد سياسةً مناهضةً لعبدالرحمٰن الداخل، ومناداة بني أمية الذين استطاعوا أن ينتزعوا هذا القطر النائي من أقطار الخلافة، ويقيموا فيه دولتهم على دعائم جديدة.

ويروي المؤرخون الإفرنج: إن يبين والد شارلمان بعث في سنة ٧٦٥م سفارة إلى بغداد، وردّ المنصور بإرسال سفراء إلى ملك الفرنج، وقدموا عليه بعد ذلك بثلاثة أعوام، وقضوا حيناً في البلاط الفرنجي في مدينة متز. وسار شارلمان ولد «يبين» على سياسة أبيه، فكان بينه وبين الرشيد فيما بعد تلك المكاتبات والسفارات الشهيرة، وبذلك سنرى أنه في الوقت الذي كان يعقد هذا التحالف بين ثوار الشمال ـ ابن يقظان وغيره ـ وبين ملك الفرنج شارلمان، كانت هناك بعض المحاولات التي تُبذل لنشر دعوة العباسيين في الأندلس، ومن ذلك نزول عبدالرحمٰن بن حبيب الفهري والمعروف بالصقلبي في تدمير، وقيامه بالدعوة الجادّة والنشطة للخلافة العباسية في الأندلس[١].

وكان شارلمان (كارل) حينما استدعاه الخوارج المسلمون لغزو إسبانيا، قد انتهى من الحرب في سكسونية، وهزم القبائل الجرمانية الوثنية، وأخضع زعيمها القومي «ڤيدوكنت» وألجأه إلى الفرار، فجاءت دعوة الخوارج في وقت ملائم بالنسبة له، فانتظر حتى انتهى فصل الشتاء، ثم سار إلى الجنوب، وقضى أعياد الفصح في أكوتين على مقربة من «پوردو»، وفي فاتحة ربيع سنة ٧٧٨م جمع قواته المؤلفة من فرنج توستريا ومن الجرمان واللونبارد، وفرّق بين بريتانيا وأكوتين، واخترق ولاية أكوتين، وقرّر أن يفتتح الغزوة الإسبانية توًّا حتى لا يفاجئه الشقاء، وقسم جيشه الضخم إلى قسمين، عبر أحدهما جبال البرنيه من الناحية الشرقية، وعبرها القسم الثاني بقيادة كارل نفسه من الناحية الغربية، من الطريق الروماني القديم فوق

---

(١) دولة الإسلام ـ د. عنان ع١ ق١ ص١٧١.

مرتفعات «جان دي لابور» الشاهقة التي تشرف على مفاوز رونسڤال الوعرة، على أن يجتمع الجيشان على ضفاف نهر الأيبرو أمام سرقسطة حيث يلتقي شارلمان بحلفائه المسلمين، وكان عبوره الجبال البرنية من «باب الشرزى» في شهر أبريل على الأرجح[١].

واخترق شارلمان بلاد البشكنس أو ناڤار الحديثة، وحاصر عاصمتها بنبلونة، وهي قلعة الناڤاريين، واستولى عليها بعد قليل، وقد كان أولئك الناڤاريون دائماً شعبة خاصة من «البشكنس»، وكانت بنبلونة دائماً مدينة البشكنس منذ أيام سترابون.

وقد كان البشكنس دائماً يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم منذ أيام القوط، وكثيراً ما لجؤوا في سبيل ذلك إلى الخروج والعصيان، والامتناع بهضابهم وجبالهم الشاهقة، وكان هذا شأنهم حينما وفد شارلمان بقواته الضخمة، فقد كانوا يحرصون على هذا الاستقلال، ولا يودون الخضوع لأية جهة، لا إلى الفرنج، ولا إلى مملكة جليقية، ولا إلى إمارة قرطبة الإسلامية، ومن ثم فقد اضطر شارلمان إلى محاصرة بنبلونة وأخذها بالعنف، وهنا تبرز هذه الحقيقة، وهي أن شارلمان يغزو بلاد البشكنس، كان يحارب أمة من النصارى، وهو في ذلك لم تكن تحدوه سوى بواعث السياسة والفتح، ولم تكن النزعة الدينية خاصية بارزة في تلك الغزوة. أما الجيش الفرنجي الذي اخترق شرق البرنيه، فقد كان يسير في منطقة يسيطر عليها الفرنج، مذ تقلّص عنها المسلمون وسلطانهم، منذ أيام «يبين» والد شارلمان، ومن ثم فقد كان يخترق بلاداً صديقة، يرحب أهلها بمقدمه، أملاً في عونه وحمايته. سار شارلمان بعد استيلائه على بنبلونة ومع سليمان إلى سرقسطة[٢] أما القسم الآخر من الجيش فقد اخترق في تلك الآونة منطقة جيرندة (جيرونة) وبرشلونة، واتّجه غرباً إلى سرقسطة حيث انضم إلى القوات التي يقودها شارلمان.

---

(١) المصدر السابق ص١٧٣.

(٢) ابن الأثير جـ٦ ص٥.

وكان شارلمان يعتقد حينما سار إلى سرقسطة أنه سيجد هناك حلفاءَهُ المسلمين على أهبة الاستعداد لمعاونته وتحقيق رغباته في الاستيلاء على المدينة الكبرى، ولكن الحوادث كانت تطورت عندئذ، ودبَّ الخلافُ بين الخوارج المسلمين، وكان الحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة حليف سليمان منذ البداية، وكان عضده في مشروعه لاستدعاء الفرنج، وبالرغم من أنه لم يذهب إلى پادربون، ولا إلى بنبلونة، فقد كان موافقاً على الحلف الذي عقده سليمان بن يقظان مع شارلمان ملك الفرنج، وعلى العهود التي قطعها له، والظاهر أن الحسين نقم على سليمان موقف الصدارة والزعامة الذي اتشح به إزاء الفرنج، فنشبت بينهما الخصومة، أو أنه خشي عاقبة التورط في حلف الفرنج، فعدل موقفه في آخر لحظة حينما شعر بمسير الفرنج إلى مدينته ـ ويبدو أنه لم يكن في سرقسطة حينما أقبل إليها الجيش الفرنجي ـ وقيل: إنه سبق إلى سرقسطة قبل سليمان، وتحصَّن بها، فلما أشرف شارلمان مع حليفه سليمان على سرقسطة، رفض الحسين أن يستقبله، ووجد المدينة محصّنة متأهبة للدفاع والمقاومة، فعبر نهر الأيبرو إلى الضفة الأخرى، وقدّم إليه سليمان رهائن عدّة من الأعيان والأكابر، وفي مقدمتهم ثعلبة بن عبيد قائد عبدالرحمٰن وكان أسيراً لديه حسبما تقدّم، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لإقناع الحسين بفتح أبواب سرقسطة، ولم يستطع شارلمان من جهة أخرى الاستيلاء عليها، وردَّت المدينة المحصورة كل هجماته بشدة، وعجز سليمان أن يحقق شيئاً من وعوده في تسليم المدن والحصون الواقعة في تلك المنطقة، ولم يشأ ملك الفرنج أن يخوض في تلك الوهاد والهضاب الصعبة معارك لم يتأهب لخوضها، وارتاب من جهة أخرى في نية سليمان وموقفه، فقبض عليه[1] وارتدّ بجيشه نحو الشمال الشرقي في طريق العودة، وكان ذلك في شهر يوليه سنة ٧٧٨م/ شوال سنة ١٦١هـ.

ارتدّ سليمان على رأس قواته المجتمعة ومعه سليمان أسيره وعدد من الرهائن وسار شمالاً نحو بلاد البشكنس، وكان الناڤاريون في تلك الأثناء قد

(١) المصدر السابق جـ٦ ص٥.

جمعوا فلولهم، واعتزموا الدفاع عن حاضرتهم بنبلونة وعن حرياتهم التالدة، خصوصاً وقد شجعتهم وقفة سرقسطة وصاحبها الحسين ضد الملك الفرنجي، وانضم إليهم كثير من المسلمين من أبناء الأنحاء المجاورة للتعاون في دفع العدو المشترك، ولكن شارلمان هاجم بنبلونة بعنف، ولم تفعل بسالة النافاريين وحلفائهم المسلمين شيئاً، فتركوا المدينة، وتفرقوا في مختلف الأنحاء، واستولى شارلمان على بنبلونة للمرة الثانية، وهدم حصونها وأسوارها حتى لا تعود إلى المقاومة إذا عاد إلى تلك الأنحاء، ولكي يمهد لجيشه طريق العودة المأمون إلى فرنسا.

وغادر شارلمان بنبلونة متجهاً إلى جبال البرنيه من طريق هضاب رونسفال المؤدية إلى باب الشزرى.

يقول المؤرخون: إن شارلمان لما أُبعد من بلاد المسلمين واطمأن، هجم مطروح وعيشون ابنا سليمان بن يقظان مع أصحابهما، فاستنقذا أباهما ورجعا إلى سرقسطة[1].

ويبدو أن ولدَيْ سليمان، حينما قبض شارلمان على أبيهما، عادا إلى الاتفاق مع الحسين بن يحيى على مقاومة الفرنج، وجمعا في الحال قوات أبيهما وأتباعه، وسارا بجيشهما في أثر ملك الفرنج يحاولان مهاجمته وإنقاذ أبيهما من أسره، وكان شارلمان في ذلك الحين قد غادر بنبلونة بعد تخريبها متجهاً صوب جبال البرنيه، ليعبرها كرَّةً أخرى إلى فرنسا، وكان عبوره من نفس الطريق التي أتى منها، وهي ممر رونسفال الذي يسمى بالعربية «باب شيزروا» أو باب الشزرى، ويقع هذا الممر في طرف البرنيه الغربي - والبرنيه هي جبال تسمى في الجغرافيا العربية بجبال البرت أو البرتات - ويصفه الشريف الإدريسي وصفاً دقيقاً في كتابه نزهة المشتاق وصفاً يبين لنا ممراته والتي سيكون لها دور في هذه المعركة، معركة شيزرى أو بروفنسال. يقول الإدريسي:

«وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة

(١) ابن الأثير جـ٢ ص٥.

أيام، وهو جبل عال جداً صعب الصعود، وفيه أربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس، وهذه الأبواب عراض لها مسافات وهي منحرفة الطرق، وأحد هذه الأبواب: الباب الذي في ناحية برشلونة ويسمى «برت جاقة» (جاكا)؛ والباب الثاني الذي يليه يسمى «برت أشيرة»؛ والباب الثالث يسمى: برت شيزروا وطوله في عرض الجبل خمسة وثلاثون ميلاً - وهو الذي تُسمى به معركتنا هذه -؛ والباب الرابع منها يسمى: «برت بيونة» ويتصل بكلٍ من برت منها مدن في الجهتين، فما يلي برت شيزروا مدينة بنبلونة؛ والباب المسمى جاقة عليه مدينة جاقة»[1].

- وكلمة برت تعني: الباب أو الممر.

وكانت هذه الممرات تستعمل منذ عهد الرومان لاختراق البرنيه من الشمال إلى الجنوب، وهي نفس الممرات التي كان يستعملها العرب للعبور إلى غاليس. وقد لبثت هذه الجبال الوعرة الشاهقة على ممر القرون حاجزاً منيعاً يفصل بين شبه الجزيرة الإسبانية وبين غاليس، ولا يتأتى للغزاة عبوره إلاّ خلال هذه الممرات الشهيرة.

وفي مفاوز رونسڤال الوعرة، وتجاه ممر البرنيه المسمى بهذا الاسم «باب شيزروا» وقعت المفاجأة الهائلة، ذلك أن الجيش الفرنجي ما كاد يبدأ عبور الجبال حتى أشرف المسلمون بقيادة عيشون ومطروح على مؤخرته وهاجموه بشدة رائعة، وفصلوا عنه مؤخرته، وانتزعوا منها الأسلاب والأسرى، وفيهم سليمان بن يقظان، والمسلمون هم الذين دبّروا هذا الهجوم المفاجىء، على مؤخرة الجيش الفرنسي.

وقال بعض روايات الغرب: إن البشكنس النصارى هم الذين قاموا بهذا الهجوم انتقاماً لما أنزله الفرنج ببلادهم وعاصمتهم بنبلونة من العبث والتخريب. وذُكر أن المسلمين والبشكنس شاركوا في الهجوم، وقيل: إن جيش شارلمان كان يتكوّن من خمسة آلاف فارس من ذوي الأسلحة الثقيلة وعدد مماثل من المشاة، وأن المؤخرة كانت تتكون من ألف فارس ومعها

(١) نزهة المشتاق للشريف الإدريسي ص٦٥.

دواب الحمل، وأن الكمين وقع في الأماكن الصاعدة من الطريق المعبّدة، وقد تعاون بشكنس بنبلونة والمسلمون ولا سيما مطروح وعيشون ولدَيْ ابن يقظان (ابن الأعرابي)، وكان هذا التحالف ضرورياً لأن المسلمين كانوا في حاجة للمعرفة الدقيقة بهذه الوهاد، وهو ما يتقنه البشكنس، وكان البشكنس بحاجة إلى مقدرة المسلمين في التنظيم العسكري، وهما معاً قد استطاعا أن يسحقا مؤخرة هذه الصفوف التي ارتجّت لها سائر إسبانيا.

وقع هذا الهجوم الفجائي من المسلمين على مؤخرة الجيش الفرنجي بمعاونة البشكنس، فأسفر عن أروع نتيجة يمكن تصورها، ذلك أن الفرنج لم يُحسنوا الدفاع عن أنفسهم في تلك الشعاب الضيقة المنحدرة، وقد فُصلت مؤخرة الجيش الفرنجي، وانتُزعت منها الأسلاب والأمتعة وفي مقدمتها الخزانة الملكية، وكذلك الرهائن وفي مقدمتهم سليمان بن يقظان، ومزقت المؤخرة نفسها شر ممزق، وهلك خلال المعركة الهائلة عدد عظيم من سادة الجيش الفرنجي وفرسانه، ولم تسمح المفاجأة المذهلة بأي عمل أو محاولة منظمة لإنقاذ الفرق المنكوبة. وكانت نكبة مروعة لبث صداها يتردد مدى عصور في أمم الغرب والنصرانية[١].

وقد هلك في هذه المعركة الكثير من سادة وأمراء الفرنج، منهم: إيجهاد رئيس الخاصة الملكية، وأنسلم محافظ القصر، وهردولاند حاكم القصر البريتاني، وكثير من الرؤساء ورجال الخاصة والحاشية، وهردولاند هو رولان بطل الأنشودة الشهيرة التي نظمت فيما بعد عن هذه الموقعة واستمدت من أناشيد معاصرة لها، وأنشودة رولان هذه تنحرف في كثير من مناحيها إلى الأسطورة، وقد اتخذت الأسطورة من حوادث الموقعة موضوعاً لقصة حربية حماسية، وقد أورد المؤرخون خلاصة هذه الأنشودة الشهيرة، فتقول في نصها: غزا شارلمان إسبانيا، ولبث يحارب فيها سبعة أعوام حتى افتتح ثغورها ومدنها، ما عدا سرقسطة، وهي معقل الملك العربي مارسيل، وكان يعسكر بجيشه بجوار قرطبة حين جاءته رسل مارسيل تعرض عليه

---

(١) دولة الإسلام ـ د. عنان ع١ ق١ ص٨٨٠.

الطاعة بشرط أن يجلو الفرنج عن إسبانيا، فعقد شارلمان مجلساً من البارونات ومنهم رولان ابن أخيه، وكان رولان يرى أن تستمر الحرب ولكن فريقاً آخر من السادة برئاسة جانلون كونت مايانس، كان يرى الصلح والمهادنة، فغلب رأي هذا الفريق لأن الفرنج سئموا الحرب والقتال، وأرسل جانلون إلى الملك مارسيل ليعقد معه شروط الهدنة، فأغراه مارسيل واستماله بالتحف والذخائر، واتفق معه على الغدر برولان وفريقه. ثم عاد إلى شارلمان، وزعم أن مارسيل قبل شروط الفرنج، وبذا قرر شارلمان الانسحاب، وتولى رولان قيادة المؤخرة، وكان معه الأمراء الاثنا عشر، وزهرة الفروسية الفرنجية، ولما وصل الجيش إلى قمة الممرات الجبلية رأى أوليڤر ـ جيشاً من العرب ـ يبلغ أربعمائة ألف مقاتل، فتضرع إلى رولان أن ينفخ في بوقه ليدعو شارلمان إلى نجدته، فأبى رولان، وانقضّ الجيش المهاجم على مؤخرة الفرنج، ونشبت بينهما عدة معارك هائلة، واستمر رولان يأبى طلب النجدة حتى مزق جيشه ولم يبقَ منه سوى ستين رجلاً، وعندئذ نفخ في بوقه يدعو شارلمان، ثم قتل بقية أصحابه، ولم يبقَ سوى رولان وأوليڤر واثنين آخرين، ولما شعر العرب أن شارلمان سيرتد بجيشه لقتالهم، قرروا الانسحاب، وكان زملاء رولان الثلاثة قد قُتلوا، وأثخن رولان نفسه جراحاً حتى أشرف على الموت، ولكنه استطاع أن ينفخ في بوقه مرة أخرى قبل أن يموت، وأن يسمع صرخة شارلمان الحربية، وسمع شارلمان صوت البوق على بعد مراحل عديدة، فعاد مسرعاً وطارد جيش العدو وسحقه، ودفن الفرنج قتلاهم، وعوقب جانلون الخائن أروع عقاب. وتوفيت ألدة، خطيبة رولان حينما علمت بموته[1].

وقد اتخذت أنشودة رولان أو أسطورة رولان الشهيرة مادتها من بعض وقائع هذه المعركة «معركة شيزروا ـ أو معركة ترنسڤال» وقد ظهرت لأول مرة في القرن الحادي عشر، بعد الموقعة بنحو ثلاثة قرون، ودوّنت أولاً في بعض القصص اللاتينية، ثم دوّنت بالنظم في ملحمة طويلة تبلغ أربعة آلاف

---

(١) ابن الأثير جـ٦ ص٥، ٢١، وابن خلدون جـ٤ ص١٢٤.

بيت بعنوان «أنشودة رولان». وظلت تعتبر على مدى العصور من أعظم الآثار الأدبية، ومن روائع الشعر، فتعدُّ حوادثها مستقًى خصباً لكثير من الكتّاب والشعراء، ومستقًى لقصص الفروسية والملاحم الحماسية المفرقة التي تملأ فراغاً كبيراً من الأدب الفرنجي في العصور الوسطى[١].

وقد لفت أنظار المؤرخين[٢] في حوادث الموقعة، أنَّ شارلمان لم يحاول بعد أن أفاق من الصدمة الأولى أن يعجل بالانتقام لنكبة جيشه ومقتل فرسانه، وأن يعود فيطارد تلك العصابات التي تحدّته واجترأت عليه سواء من المسلمين أو البشكنس، وقد علّل المؤرخون ذلك بأن شارلمان شُغل قبل كل شيء بخطورة الأنباء التي وصلته عن تحرك السكسونيين، وهم ألدُّ أعداء الفرنج وأخطرهم، فارتدّ أدراجه مسرعاً ليخوض حرباً جديدة معهم استطالت قرابة سبع سنين، حتى تمّت هزيمة زعيمهم «ڤيدوكنت» نهائياً، وأُرغم على التنصير في سنة ٧٨٥م.

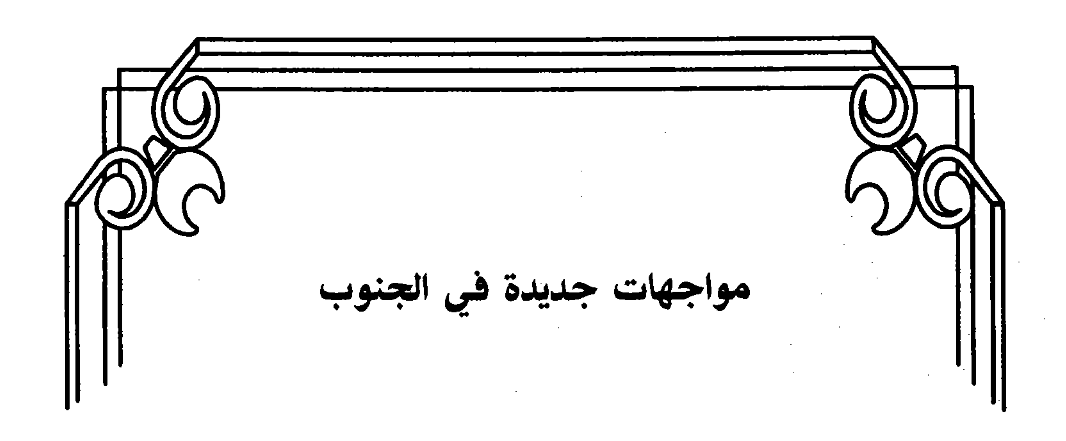
ولم يبقَ بيد شارلمان بعد أن أنقذ المسلمون رهائنهم، سوى ثعلبة بن عبيد قائد عبدالرحمٰن الداخل، وقد ظلّ فترة أخرى معتقَلاً في باريس، حتى تمت المفاوضة بشأنه، وأُطلق سراحه لقاء فدية كبيرة. وقد اختتمت هذه الموقعة محاولات شارلمان غزو إسبانيا المسلمة والتدخل في شؤونها بنكبته والقضاء على أفضل جنده.

وقد أسبلت هذه النكبة لسنوات طويلة ستاراً بل سحابة على أمجاده الحربية، ورغم كل ذلك فلم تكن هذه المحاولة هي آخر محاولة من نوعها لشارلمان ملك الفرنج، وذلك لأن سياسة الفرنج ظلت بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة ترقب الأحداث وسيرها في الأندلس علّها تجد منفذاً أو ثغرة تنفذ منها أو تتخذها وسيلة لتحقيق أهدافها الكبرى وهي القضاء على دولة المسلمين في إسبانيا (الأندلس).



(١) انظر تفاصيلها في ابن خلدون جـ٤ ص٢٢٤.

(٢) دولة الإسلام ـ د. عنان ع١، ق١، ص١٨٣.



مواجهات جديدة في الجنوب

كانت أحداث الشمال تجري بين شارلمان وأعدائه، أما عبدالرحمٰن الأموي فقد ظلّ يكافح الثورة في مختلف الأنحاء، وقد كانت ثورة البربر من أخطر الثورات التي واجهته، واستنفذ معظم قواه لأعوام متتالية، بيد أنه ما كاد يفرغ من سحق ثورة البربر ظهر خطر جديد.

❋ ❋ ❋

ثورة عبدالرحمٰن الفهري في شرق الأندلس

عبدالرحمٰن بن حبيب أحد زعماء الفهرية، والمعروف بالصقلبي نظراً لهيئته وشكله، فقد كان طويلاً أشقر ذا عينين زرقاوين، وهذا الفهري غير عبدالرحمٰن بن حبيب صاحب إفريقية المتقلب الذي ذكر من قبل، فقد قتل هذا المتغلب على إفريقية في سنة ١٤٠هـ بعد أن خرج عن طاعة بني العباس(١).

لنعود إلى صاحبنا عبدالرحمٰن بن حبيب الفهري، فقد عبر البحر من إفريقية إلى الأندلس في قوة كبيرة، ونزل بساحل تدمير (مرسية) في شرق الأندلس، ودعا للخليفة العباسي سنة ١٦١هـ.

وكانت حركة هذا الصقلبي في تدمير كحركة العلاء بن مغيث من قبل

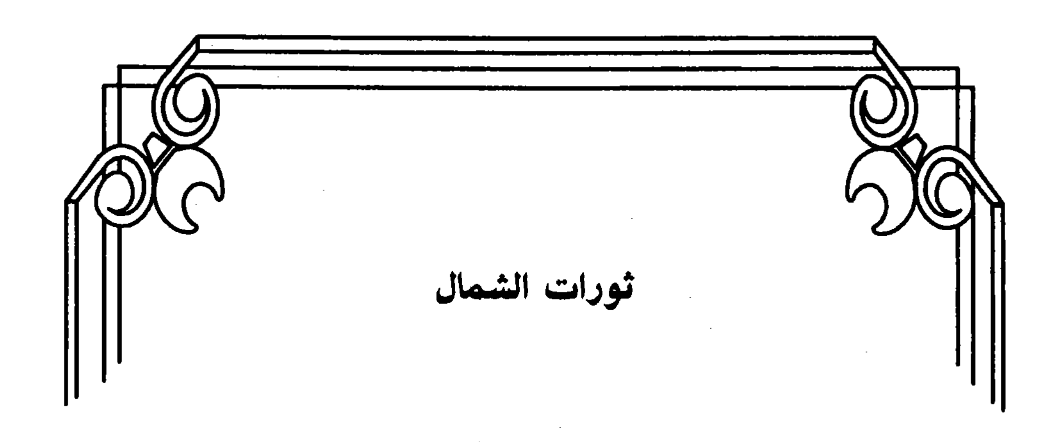
---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٦ ص١٩١.

في باجة والتي تحدّثنا عنها من قبل في الفتن والثورات، ولكن هذه الحركة، حركة عبدالرحمٰن بن حبيب الصقلبي، كانت أشد خطراً، لأن الصقلبي سعى إلى التفاهم مع زعيم الثورة في الشمال سليمان بن يقظان وتحالف معه، وكان ذلك التحالف بعد عبور الفرنج إسبانيا بقيادة شارلمان، وموقعة (باب شيزروا ـ أو ترنسڤال) التي تحدّثنا عنها. ولكن ابن يقظان لم يفِ بوعده في إمداده لقتال عبدالرحمٰن الأموي، فغضب منه، وسار لقتاله، فهزمه ابن يقظان في ظاهر برشلونة، فعاد إلى تدمير ولبث مدى أشهر ينظّم قواته وأهبته، لكن عبدالرحمٰن الداخل لم ينتظر حتى يهاجمه.

بادر عبدالرحمٰن بالمسير إليه بنفسه، وهاجمه بشدة، وأحرق سفنه الراسية بالساحل حتى لا يجد سبيلاً إلى الفرار، فارتدّ الصقلبي بفلوله إلى جبال بلنسية واستعصم بها، وهنا لجأ عبدالرحمٰن إلى سلاح الاغتيال مرة أُخرى، فدسَّ على الصقلبي بعض أصدقائه فاغتاله وحمل رأسه إليه، وانهارت بذلك دعوته وثورته (سنة ١٦٢ ـ ١٦٣هـ/ ٧٧٨ ـ ٧٧٩م).





ثورات الشمال

قبل أن يسير عبدالرحمٰن إلى الشمال، وقعت عدة ثورات محلية استطاع القضاء عليها وقمعها، فقد ثار دحية الغساني ببعض حصون البيرة (غرناطة)، وكان دحية من أصدقاء عبدالرحمٰن وقادته، ولكنه نكث بعهده ولحق بالفاطمي، فلما هلك الفاطمي فرَّ إلى البيرة وأعلن بها الثورة، فأرسل عبدالرحمٰن إليه جيشاً ضيَّق عليه الحصار حتى أُخذ وقُتل.

وفي الجنوب ثار أيضاً إبراهيم بن شجرة بحصن موررور، فبعث إليه عبدالرحمٰن مولاه بدراً، فهاجمه وقتله، وثار في طليطلة القائد السلمي، وكان من خاصة عبدالرحمٰن، ثم فرَّ من قرطبة خشية بطشه به لأمور نقمها منه، والتفَّت حوله العناصر الخارجة في تلك الأنحاء، فسيّر إليه عبدالرحمٰن جيشاً قوياً بقيادة حبيب بن عبدالملك، فحاصره حيناً ثم قتل، وثار في الجزيرة الخضراء واليها الرماحس، وعبر البحر إلى المشرق سنة **١٦٣ ـ ١٦٤هـ**[1].

وفي العام التالي تأهّب عبدالرحمٰن لقمع الثورة في الشمال، وكان الخلاف قد وقع بين زعيمَيْ الثورة بعد تفاهمهما على أثر نكبة الجيش الفرنجي في موقعة ترنسڤال (باب الشزرى) وتربّص الحسين بن يحيى الأنصاري بزميله سليمان بن يقظان، ودَسَّ عليه ذات يومٍ مَنْ قتله بالمسجد الجامع، وانفرد بالأمر في سرقسطة وما حولها.

فسار عبدالرحمٰن إلى سرقسطة في جيش ضخم، وضيَّق الحصار عليها

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٥٨.

سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م، ووفد عليه عندئذ عيشون بن سليمان، وكان قد فرَّ عقب مقتل أبيه إلى أربونة، وانضمّ إليه بمَن معه في مقاتلة الحسين، فلما اشتد الحصار بالحسين طلب الصلح، وقدّم ابنه سعيداً رهينة، فأجابه عبدالرحمٰن إلى ملتمسه، وأقره والياً على سرقسطة، ثم تحوّل عن سرقسطة إلى الشمال الشرقي، واخترق بلاد البشكنس (ناڤار) ليعاقب أهلها على عيشهم وعداوتهم، وغزا عاصمتها بنبلونة، وأثخن فيها وضرب قلاعها، وغزا قلهرة وبقيرة (ڤكيرا) واجتاح ولاية شرطانية، وأرغم أميرها على تقديم الطاعة وأداء الجزية، ثم عاد إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطد هيبة الحكومة المركزية في الشمال إلى حَدٍّ ما، وألقى على النصارى درساً يذكرهم بأن الإسلام قد استردَّ منعته وسلطانه في إسبانيا، وكان سعيد بن الحسين قد فرَّ من معسكر الأمير أثناء الطريق، ولما حَلَّ عبدالرحمٰن بقرطبة توجّس شراً من عيشون بن سليمان، وكان قد عاد في ركابه، فأمر به فقُتل، ولما رأى الحسين بن يحيى أن عبدالرحمٰن الداخل قد ارتدّ عنه، وعاد إليه ولده سالماً، نكث بعهده وعاد إلى الثورة، وعاث فساداً في سرقسطة وأعمالها، فاعتزم عبدالرحمٰن أن يعود إلى قتاله، وأن ينكل به وبأنصاره في تلك المرة، فبعث إلى الشمال جيشاً كثيفاً بقيادة غالب بن تمام بن علقمة، فخرج الحسين إلى لقائه، ووقعت بينهما معارك شديدة هُزم فيها الحسين، وأُسر ولده يحيى وعدة من صحبه، فأُرسلوا إلى قرطبة حيث أمر عبدالرحمٰن بإعدامهم، وامتنع الحسين بالمدينة، واستمر غالب في حصاره.

وفي العام التالي (سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٣م) سار عبدالرحمٰن بنفسه إلى سرقسطة وحاصرها بشدة، وضربها بالمجانيق ضرباً عنيفاً حتى هدم أسوارها، واقتحمها عنوة، وقبض على الحسين وجماعة من صحبه، وقتلهم جميعاً، وشرَّد كثيراً من أهلها. وفرَّ سعيد ولد الحسين، وعين عبدالرحمٰن قائده ثعلبة بن عبيد والياً لسرقسطة، وكان قد افتداه من أسر الفرنج حسبما تقدّم، وهدأت بذلك ريح الثورة في الشمال إلى حين[1].

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٥٩، ابن الأثير جـ٦ ص٢٢.

أما شارلمان فقد شُغل عن إسبانيا (الأندلس) بقتاله مع خصمه العنيد السكسوني ڤيدوكنت، واستمرت الحرب بينهما قرابة السبع سنوات وانتهت بهزيمة فيدوكنت والسكسونيين، وخضوع فيدوكنت وإرغامه على التنصُّر سنة ٧٨٥م.

ولكن عبدالرحمٰن رأى أن يتفاهم مع ملك الفرنجة، وأن يؤثر صداقته، فبعث إليه يطلب عقد الصداقة معه ويكاشفه برغبته في مصاهرته، فأجابه شارلمان إلى السلم، ولم تتم المصاهرة[١].

وفي بعض الروايات أن شارلمان هو الذي عرض على عبدالرحمٰن أن يزوجه ابنته، فاعتذر عبدالرحمٰن باعتلال صحته، واستمر السلام معقوداً بين الزعيمين حتى وفاة عبدالرحمٰن.

❋ ❋ ❋

مؤامرة ابن أخيه المغيرة، وهذيل ولد الصُّميل بن حاتم

وعندما عاد عبدالرحمٰن إلى قرطبة علم بخبر مؤامرة خطيرة دُبِّرت للقضاء عليه بزعامة ابن أخيه المغيرة بن الوليد بن معاوية، وهذيل ولد الصُّميل بن حاتم، ولم تكن هذه أول مؤامرة من نوعها، فقد دُبِّرت قبل ذلك ببضعة أعوام سنة ١٦٣هـ مؤامرة أُخرى، وعلى رأسها أيضاً اثنان من أقطاب بني أُميَّة، الذين وفدوا على الأندلس حينما تألق طالع عبدالرحمٰن، وعبيدالله بن أبان بن معاوية، وهو ابن أخيه، وذلك بمعاونة أبي عثمان كبير الدولة، وكان عبدالرحمٰن قد تَمَّ له الأمر مع أنه بقي يسعى إلى استقدام فل بني أمية من المنفى، ويدعوهم إليه ليكونوا له عوناً وعصبة، ويُظلهم برعايته، ويغدق عليهم من نعمه، ويختارهم لمختلف المناصب، ولكن روحاً سيئاً من الحقد والحسد كان يحفز أولئك الأقارب لمناوأة ذلك الذي هيأت له الأقدار أن يفوز دونهم بتراث بني أمية في الأندلس، فائتمروا به

(١) نفح الطيب للمقري جـ١ ص١٥٥.

غير مرة، وشجعهم على ذلك بعض الخوارج الناقمين والمنافسين الطامعين، ولكن عبدالرحمٰن كان يكتشف الخطر قبل وقوعه، ويسحقه بكل ما أوتي من شدة وصرامة، فلم يحجم حينما وقف على المؤامرة الأولى عن قتل ابن عمه عبدالسلام اليزيدي وعبيدالله ابن أخيه إبان، وعفا عن أبي عثمان لمكانته وسابق صنيعه. ولم يحجم حينما وقف على المؤامرة الثانية عن قتل المغيرة ابن أخيه الوليد وزميله هذيل بن الصّميل ومَن معهما، ونفي أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب. وقد ذكر مؤرخو الأندلس، بل بعضهم، عن بعض موالي عبدالرحمٰن الداخل أنه دخل عليه أثناء قتله المغيرة بن معاوية ابن أخيه وهو مطرق شديد الغم، فرفع رأسه وقال:

«ما عجبي إلاّ من هؤلاء القوم - (يقصد أهله بني أمية) - سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمان والنعمة، وخاطرنا بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، ويسّر الله تعالى أسبابه، أقبلوا علينا بالسيوف، ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله تعالى به، حتى أمنوا وردت عليهم أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحه الله تعالى، فخذلهم الله بكفرهم النعم، إذ أطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدّى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم، وساء ظنه فينا، وصار يتوقع من تغيُّرنا عليه ما نتوقع نحن منه»[1].

إن هذا الموقف يجعلنا نشفق على هذا الصقر الأموي ممّا حلَّ به من مِحَنٍ وصعاب، فقد امتُحن وصُدم في أهله الذين أعادهم للمجد بمخاطراته وجرأته، وجعل خوف بني أمية أمناً، وجوعهم شبعاً، وعطشهم رياً بفضل الله، وبجهد شاق منه، وها هو يتقطر دماً من بين حروف كلماته، فلعل هذا الموقف الذي اضطره لقتل ابن أخيه المتآمر على دولة بني أمية بعد أن أحياها الله من العدم.

نعود إلى أحداث الفتنة، فقد فرّ في ذلك الوقت أبو الأسود محمد بن يوسف الفهري من سجنه، ورفع لواء الثورة في طليطلة، وكان محمد سجيناً

(١) نفح الطيب للمقري جـ٢ ص٧٢، ٧٣.

في قرطبة منذ مقتل أبيه، ثم فراره وأسره ثانية في حوادث طليطلة سنة ١٤٢هـ كما قدّمنا، وتظاهر محمد عندئذ بالعمى، وأتقن حيلته حتى جازت على جميع الموكلين بسجنه، وأشفق عبدالرحمٰن عليه فأبقاه ولم يقتله كأخيه، وأنفق في أسره أعواماً طويلة حتى أهمل شأنه ولم يعد يكترث أحدٌ به، وعُرف بالأعمى، ثم سنحت له فرصة الفرار على يد بعض مواليه المتصلين به، ففرَّ من سجنه الواقع على النهر الكبير، وجاز النهر سباحة، ولحق بطليطلة سنة ١٦٨هـ، وأعلن الثورة، والتفَّت حوله الجموع الكبيرة من الفهرية والقيسية وأتباعهم من عناصر الخروج للثورة، وسار في قواته صوب جيان.

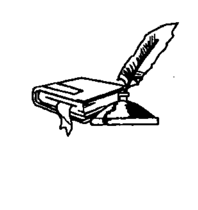
خرج عبدالرحمٰن لقتاله، ووقعت بينهما معارك عديدة كان النصر فيها لعبدالرحمٰن، ولكنَّ أبا الأسود لبث حيناً محتفظاً بمراكزه وقواته، ثم نشبت بينهما على مقربة من قسطلونة في الوادي الأحمر، بمكان يُعرف بمخاضة الفتح، معركة شديدة حاسمة، ولجأ عبدالرحمٰن إلى الخديعة، فاتفق مع بعض قادة أبي الأسود على التقاعد والغدر، فهزم أبو الأسود هزيمة شديدة وقتل من جنده عدّة آلاف، وغرق عدد كبير في النهر، وطارده عبدالرحمٰن حتى قلعة رياح، ومزَّق جيشه كل ممزق (ربيع الأول سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م) ولكن محمداً لم يخضع ولم يهن عزمه، فارتدّ إلى جهة الغرب، ونزل بقورية، وعاد يحشد قواته لاستئناف القتال، وقوي أمره وبسط سلطانه على تلك الأنحاء، فسار عبدالرحمٰن لقتاله ثانية، وهاجم قورية ومزَّق شمل قواته (سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م) ففرّ في نفر من صحبه إلى بعض قرى طليطلة، وهنالك توفي لأشهر قلائل (سنة ١٧٠هـ) فقام مكانه أخوه أبو القاسم بن يوسف، واقترن بزوجته، وعاد ينظم الثورة في طليطلة، فسار عبدالرحمٰن لقتاله قبل أن يستفحل أمره، ولم يرَ أبو القاسم بدًّا من الخضوع والتماس الصلح والعفو، فأجابه الأمير إلى ملتمسه، وصحبه معه إلى قرطبة، وردّ إليه بعض أموالِه وأسرَته[١].

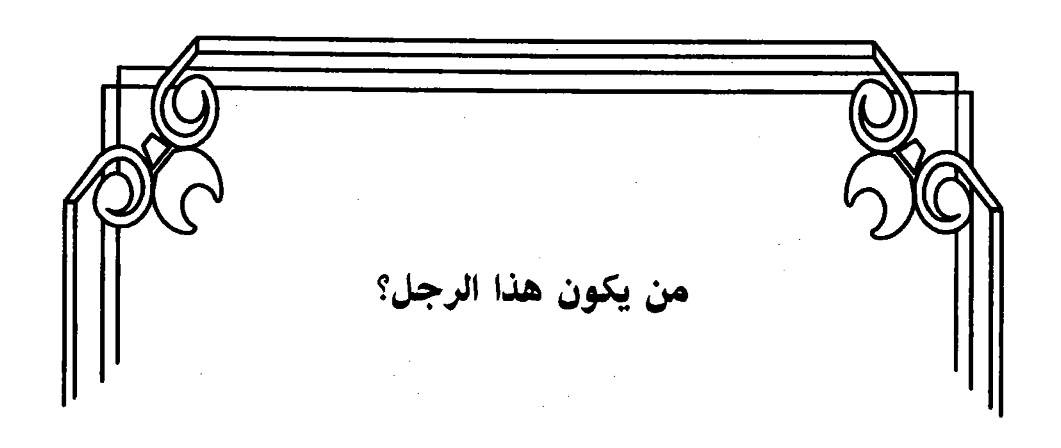
---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٥٢، ٥٩، ٦٠ ـ الحلة السيراء لابن الآبار ص٥٦، ٥٧.

وطويت بذلك آخر مرحلة في ثورة الفهرية، بل كانت آخر ثورة قام بقمعها عبدالرحمٰن، ولم يعش بعدها سوى عدة أشهر.

كانت حياة عبدالرحمٰن التي امتدت ثلاثة وثلاثين عاماً حياة حافلة بالكفاح المستمر، وكانت مغامرة جريئة صنعت هذا المجد، فمن تكون هذه الشخصية الباهرة؟.





من يكون هذا الرجل؟

لم يكن في ذهن أحد مجرد توقع أن الدولة الأموية بعد سقوطها المروع بالمشرق الإسلامي أن تنهض من جديد، وفي أرض جديدة، فقد امتلأ مشهد السقوط بالمآسي المروعة التي تحدثت عنها مصادر التاريخ كثيراً.

ولكن اسم هذه الدولة سطع من جديد في أرض جديدة علا فيها صوت الإسلام والمسلمين من جديد، وكان وراء هذا الإنجاز الباهر والعمل الرائع شخصية فريدة من أعظم شخصيات الحرب والسياسة. فهذا الرجل عبدالرحمٰن الأموي، أو قل: عبدالرحمٰن الداخل، أو سَمِّهِ صقر قريش، فهذه أسماؤه المتداولة.

هذا الرجل تمتع بذكاء حاد، وعبقرية ممتازة، وصفات نادرة، حتى إنَّه ذكر المؤرخون[1] أنه كان قرين جده العظيم معاوية بن أبي سفيان، ينشىء دوله مثلما أنشأ، ولكن في ظروف أسوأ من ظروفه، ويهزم الخطوب والحوادث، ويسحق الخصوم في كل ميدان، فيصل إلى غايته بأي الوسائل، ولربما يستغرب القارىء كلمة بأي الوسائل، ولكن سنعرف بعد قليل كيف يكون له ذلك.

***

(١) دولة الإسلام ـ د. عنان ع١ ق١ ص١٩٣.

لقد كانت المحنة الهائلة والمصيبة المروعة التي نزلت بأسرته، والظروف العصيبة التي يواجهها، والخصومات والأحقاد المستعرة التي نزلت بأسرته كما ذكرنا، تدفعه دفعاً إلى ذروة التطرُّف، وتدفعه دفعاً إلى التذرُّع بأشد الوسائل. فتراه وافر العزم، جريءٌ مغامر، لا يعرف مصطلح الخطر القادم والخطورة المتوقَّعة، بل كان يحتقر الخوف والتردد.

كان عبدالرحمٰن داهية، وافر الدهاء بِنُزُوْع إلى الخيانة والغدر والفتك أحياناً، وكان حازماً يقرن الكثير من الحزم والصرامة باللجوء إلى القمع الذريع، ويذهب إلى الانتقام في حدود مروعة من القسوة.

ومع ذلك فقد كان عبدالرحمٰن وفياً يحفظ العهد والصنيعة لمن أخلص له، وإن لم يتراجع لأقل شك أو ريب أو بادرة عن الفتك بأعز أصدقائه وأقرب الناس إليه.

وقد رأينا ولحظنا هذه الصفات والخلال في شخصية عبدالرحمٰن واضحة بارزة في كثير مما عرضنا من حوادث حياته ونضاله.

فها هو مراراً وتكراراً يلجأ إلى الغدر والاغتيال للتخلص من خصومهِ، وها هو في مواطن كثيرة يُزهق الأرواح دون تردد لكل مَن وقع من خصومه أو من ولدهم وصحبهم الأبرياء!!

ولقد ذهب هذا الرجل في صرامته وقسوته إلى البطش بكثير من أصدقائه الذين آزروه يوم مقدمه، شريداً لا عُصبة له، وقاتلوا معه وقادوه إلى الظفر والنصر والحكم أيضاً، وكان قد أولاهم في البداية ثقته وجعلهم عماد دولته، ومن هؤلاء بدر مولاه الذي جاب معه القفر وخاض الغمار، وكان مثالاً للشجاعة والدهاء وبُعد النظر، فإنه قدَّر في البداية خلاله وكفايته وولاه القيادة واختصّه بأسمى المناصب والمهام، ولكنه تغيّر عليه في أواخر عهده لما أبداه من التذمر وعدم الرضى ولما وجهه إليه من عتاب خشن تجاوز فيه حد اللياقة، فنكبه وجرّده من مناصبه وأمواله، وشرّده عن قرطبة

إلى قاصية الثغر، ولم يستمع إلى تضرعه حتى مات في فقر وضعة[1].

ومن هؤلاء الأصدقاء أبو عثمان كبير أنصاره، وأول من تلقاه وآواه يوم مقدمه، فإنه جعله كبير دولته، فلما توطد أمره جرّده من نفوذه، ولما وقعت المؤامرة التي دبّرها بعض الوافدين من بني أمية واتهم أبو عثمان بالاشتراك في تدبيرها، شكّ به وأخذته الريبة منه، ولم ينقذه من بطشه إلاّ عظم صنيعه لديه.

ولما ثار ابن أخت أبي عثمان في بعض حصون البيرة، لم يتردد عبدالرحمٰن في قتله حين ظفر به.

وكذا تغير عبدالرحمٰن على عبدالله بن خالد صهر أبي عثمان وزميله في مؤازرة عبدالرحمٰن ونصرته، وكان من وزرائه، ثم اعتزل المنصب، وتوارى لما رأى من غدر عبدالرحمٰن بزعيم اليمنية أبي الصباح، وكان أبو الصباح هو الذي جمع كلمة اليمنية كلها في إشبيلية حول عبدالرحمٰن وقاتل معه بصحبة، ثم انحرف عنه لأمور نقمها منه، فاستدرجه عبدالرحمٰن إلى قرطبة وفتك به في نفس مجلسه بالقصر ناكثاً لعهوده كما ذكرنا[2]. وقد ذهب عبدالرحمٰن في ذلك مذهباً بعيداً حتى أسرته الأموية، فقد فتك بذويه وخاصة أسرته حينما علم أنهم يأتمرون به، فقتل ابن أخته عبيدالله بن أبان، والمغيرة بن الوليد، وابن عمه عبدالسلام اليزيدي كما ذكرنا.

❋ ❋ ❋

الغايات والأساليب

مما سبق نخلص إلى أن عبدالرحمٰن كان يلجأ في تحقيق غاياته إلى أساليب ووسائل مختلفة، فكان طاغية مسرفاً في البطش والسفك، ميكافيلياً بكل معاني الكلمة، نسبة إلى ميكافيلّي صاحب المذهب السياسي المشهور،

---

(١) الإحاطة لابن الخطيب جـ١ ص٤٥٣، نفح الطيب جـ٢ ص٦٩، ٧١.

(٢) نفح الطيب جـ٢، ص٦٧، ٧١.

والذي يخلص إلى القول أن للأمير أن يتذرع في تحقيق الغاية بأي الوسائل، ومنها الغدر والخيانة والسفك وكل ما إليها».

ولكن كل هذه الصفات المثيرة التي كان يدفع عبدالرحمٰن لاستخدامها ويحفزها ويزكيها في نفسه هو الخطر الداهم، كان كل ذلك عنوان قوته ووسيلة ظفره، وعن ذلك يقول رينهرت دوزي في كتابه: المسلمون في الأندلس[١]:

«لقد دفع عبدالرحمٰن ثمن ظفره غالياً، ذلك الطاغية الغادر الصارم المنتقم الذي لا تأخذه رأفة، ولم يبقَ زعيم عربي أو بربري يجرؤ على مواجهته صراحة، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية، ولم يكُ ثمة رجل يرغب في خدمته». ثم يقول: «كان هَمُّ عبدالرحمٰن الدائم أن يُذلَّ العرب والبربر إلى الطاعة، وأن يرغمهم على التعوُّد على النظام والسلام، وقد لجأ في تحقيق هذه الغاية إلى جميع الوسائل التي لجأ إليها ملوك القرن الخامس عشر لسحق الإقطاع، بيد أنه كان مصيراً محزناً ذلك الذي دفع القدر إليه إسبانيا، وكانت مهمة محزنة تلك التي كان على خلفاء عبدالرحمٰن أن يضطلعوا بها، ذلك أن الطريق الذي رسمه لهم مؤسس الأسرة كان طريق الطغيان يؤيده السيف، ولكن من الحق أن نقول: إن ملكاً لا يستطيع أن يحكم العرب والبربر بغير هذه الوسيلة، وإذا كان العنف والطغيان ثمة في ناحية، ففي الناحية الأخرى يوجد الاضطراب والفوضى[٢]».

❊ ❊ ❊

الخلال والصفات الباهرة

برغم ما ذكرنا من صورة قاتمة ربما نوعاً ما عن شخصية عبدالرحمٰن، فإننا نتجه إلى جوانب عظيمة ومضيئة في حياته، وقد أجمل المقري معالم إيجابية في شخصيته فقال: «كان عبدالرحمٰن راجح الحلم، فاسح العلم،

(١) المسلمون في الأندلس ـ رينهرت دوزي ترجمة د. حسن حبش، هيئة الكتاب، مصر.

(٢) المصدر السابق ص٢٤٥.

ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغاً، مفوَّهاً، شاعراً، محسناً، سمحاً، سخياً، طلق اللسان»[١].

هكذا صوّر ابن حيان الجوانب العظيمة في شخصية عبدالرحمٰن الداخل، وكان تصويره مجملاً ربما نلحظه ونحن نتابع الأحداث التي مرَّت به في حياته. وقد شبّه ابن حيان عبدالرحمٰن الداخل بأبي جعفر المنصور في قوة الشكيمة، ومضار العزيمة، وفي القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر[٢].

ويقول المؤرخون: «وإذا كانت هذه الصفات والخلال القوية المثيرة معاً لا تحمل على الحب، فإنها تحمل على الإعجاب بلا ريب، بل إن المتأمل ليشعر بعطف خاص نحو هذه الشخصية الفريدة، ويرجع ذلك بلا ريب إلى تلك الحياة المؤثرة التي خاض عبدُالرحمٰن غمارَها، وتلك المحن الأليمة التي نزلت بأسرته، وتلك الجهود الفادحة التي بذلها لاسترداد حقه وحق أُسرته في الحياة والرياسة، وكانت هذه الحياة المؤثرة وما انتهت إليه من النتائج الباهرة، تحمل ألدَّ خصوم عبدالرحمٰن على احترامه والإعجاب به، حتى لقد سمّاه أبو جعفر المنصور «صقر قريش».

فقد ذُكِر أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه: أخبروني مَنْ صقر قريش من الملوك؟

قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راضَ الملوك، وسكن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأعداء (يقصدونه هو).

قال: ما قلتم شيئاً! وما صنعتم شيئاً!.

قالوا: فمعاوية؟

---

(١) نفح الطيب للمقري جـ٢، ص٦٧.

(٢) المصدر السابق جـ١ ص١٥٦.

قال: لا.

قالوا: فعبدالملك بن مروان؟

قال: ما قلتم شيئاً! وما صنعتم شيئاً!

قالوا: يا أمير المؤمنين، فمَن هو؟

قال: صقر قريش عبدالرحمٰن بن معاوية الذي عبر البحار، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجمياً، منفرداً بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام مُلكاً عظيماً بعد انقطاعه، بحُسن تدبيره وشدة شكيمته.

إن معاوية نهض بمركب حَمَله عليه عمر وعثمان، وذلَّلا لَهُ صعبه، وعبدالملك ببيعة أُبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عترته واجتماع شيعته، وعبدالرحمٰن منفرد بنفسه، مستصحب لعزمه، وطَّدَ الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذلّ الجبابرة الثائرين.

فقال الجميع: صدقت والله يا أمير المؤمنين[١].

وكان عبدالرحمٰن يدعو للخليفة المنصور، ثم قطعه، وكان رحمه الله يلقب نفسه بالأمير، وعليه جرى بنوه من بعده، فلم يُدْعَ أحد منهم بأمير المؤمنين[٢] تعظيماً لأمر الخلافة ومكانتها، ويلقب بابن الخلائف، وفي ذلك يقول المقري. تأدباً مع الخلافة بمقر الإسلام، ومنتدى العرب[٣]. وقد وصف المؤرخون شخص عبدالرحمٰن فقالوا: «إنه كان مديد القامة، نحيف القوام، أعور، أخشم، له ضفيرتان، أصهب (احمرار الشعر)، خفيف العارضين، له خال في وجهه»[٤].

***

(١) البيان المغرب لابن عذارى ٢/٦٠.
(٢) تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص١٥٦.
(٣) نفح الطيب (١/٣٣٠).
(٤) جاء هذا الوصف في نفح الطيب جـ١ ص١٥٦، وابن الأثير جـ٦ ص٣٧.

الإمارة والدولة

ازدهرت الأندلس في عهد عبدالرحمٰن الداخل، فقد كانت الفتن تلتهمها وتزري بماضيها ومستقبلها، غير أن عبدالرحمٰن دخلها بعزيمة لا تعرف الكلل، وهمّة عالية لا تعرف الملل، فأعطاها من عزيمته، ومنحها من همّته، فوقف في الفتن والثورات وقفة الأبطال، وصبر للمحن صبر المغاوير، حتى أعلى عرشها عن جداره، وملك سلطانها غير منازع، واستحق بذلك ما وصفه به الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور حين يقول:

«لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونشبه، وتسلّيه عن جميع ذلك ببُعد مرقى همّته، ومضاء عزيمته، حتى قذف نفسه في لجج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيُّهم، وذلَّ لَهُ أبيُّهم، فاستولى فيها على أريكته، مَلِكاً على قطعته، قاهراً لأعدائه، حامياً لذماره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه. إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه»[١].

وقد كان عبدالرحمٰن الداخل والمنصور صنوين، فقد جعل ابن حيان عبدالرحمٰن الداخل وأبا جعفر المنصور يتماثلان في الرجولة والصرامة والاستيلاء والاجتراء على الكبائر والقساوة، وأنَّ أمَّ كلٍّ منهما بربرية، وأن كلاً منهما قتل ابن أخيه، إذ قتل أبو جعفر ابن السفاح، وقتل عبدالرحمٰن ابن أخيه المغيرة.

وكان عبدالرحمٰن رحمه الله يحافظ على إمارته، فيهتم برونقها، ويحفظ أُبهتها في نفسه، وفيمن حوله، لا يسمح لأحد أن يرفع صوته، ولا أن يصخب في المكان الذي يعقد فيه مجلس الإمارة، فقد روي أنه لما

(١) المقري، في نفح الطيب ١/٣٣١.

حقق النصر على الحسين بن يحيى، وأقبل عليه الناس يهنئونه، فهنأه أحد الجند بصوت عال فقال: «والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ عليَّ وهو فوقي، فأوجب علي ذلك أن أُنعم فيه على مَن هو دوني، لأُصْلينَّك ما تعرضت له من سوء النكال. مَن تكون حتى تُقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج ولا متهيِّب لمكان الإمارة، ولا عارف بقيمتها، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟ وإن جهلك يحملك على العَوْد لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من العقوبة.

فقال الرجل: ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيه الله تعالى.

عندئذ تهلَّل وجه الأمير، وقال: ليس هذا باعتذار جاهل. ثم قال: نبهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا مَن ينبهنا عليها. ورفع مرتّبه وزاد في عطائه[1].

وكان عبدالرحمٰن يحاول قدر المستطاع أن يجد نفسه في زيادة منزلته، ورفعة شأنه، ولن يكون ذلك إلا باستكمال عقله واستجماع همّته، حتى أنه قُدِّم إليه الخمر أول دخوله الأندلس فقال:

«إني محتاج إلى ما يزيد عقلي، لا لما ينقصه» وامتنع عن شربها، ثم قُدِّمت له جارية جميلة كهدية، فنظر إليها وقال: «إن هذه من القلب والعين بمكان، وإن أنا اشتغلت عنها بهمّتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همّتي، ولا حاجة لي بها الآن»، وردّها على صاحبها[2].

ولما كثرت مؤامرات العرب كما عرضنا من قبل، واستشرى شرهم، وأصبحوا طامعين فيما ليس لهم حق فيه، وأكثروا خروجهم وتمرُّدهم، استراب بهم، فأخذ يتخلى عنهم، ويستبدلهم بالموالي واصطناع القبائل من غيرهم[3]، واستكثر منهم حتى اجتمع حوله أربعون ألفاً.

---

(١) نفح الطيب ٤١/٣.
(٢) المصدر السابق ٤٢/٣.
(٣) تاريخ ابن خلدون ١٥٨/٤.

فلما أوقع عبدالرحمٰن الداخل اليمانية الذين خرجوا في طلب ثأر رئيسهم أبي الصباح اليحصبي، وأكثر القتل فيهم، استوحش من العرب قاطبة، وعلم أنهم على دَغَل وحقد، فانحرف عنهم إلى اتخاذ المماليك، فوضع يده في الابتياع، فابتاع موالي الناس بكل ناحية، واعتضد أيضاً بالبربر، ووجّه عنهم إلى بر العدوة، فأحسن لمَن وفد إليه إحساناً رغّب مَن خلفه في المتابعة والانضمام إليه من هؤلاء البربر.

وقال ابن حيان: «واستكثر منهم (البربر) ومن العبيد، فاتخذ أربعين ألف رجل صار بهم غالباً على أهل الأندلس من العرب، فاستقامت مملكته وتوطدت»[1].

تلقى عبدالرحمٰن تراث الإمارة كما خلفه يوسف بن عبدالرحمٰن الفهري الذي كانت الأندلس حتى ولاية يوسف ولاية من ولايات الخلافة الأموية، ولم ينشىء رغم كونه سليل بني أُمية لنفسه شيئاً جديداً من رسوم الملك، وتلقبه الرواية الإسلامية أحياناً بالأمير وأحياناً بالإمام[2]، ويلقب أيضاً بصاحب الأندلس[3].

ويُعرف عبدالرحمٰن الداخل لأنه أول مَن دخل من أمراء بني أُمية وحكمها، ويُعرف أيضاً بعبدالرحمٰن الأول لأنه أول أمراء ثلاثةٍ من بني أُمية بهذا الاسم حكموا الأندلس، هم: عبدالرحمٰن الداخل، وحفيده عبدالرحمٰن الأوسط (ابن الحكم)، ثم عبدالرحمٰن الناصر.

وكانت دعوة بني العباس قد وصلت إلى الأندلس حين مقدم عبدالرحمٰن، وذاعت في منابرها، ودُعي في الخطبة لبني العباس في كثير من النواحي، ثم دُعيَ لهم في قرطبة ذاتها، ودعا عبدالرحمٰن الداخل نفسُه لأبي جعفر المنصور عدّة أشهر، وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه عملاً من أعمال السياسة، ولكن جماعة من بني أمية الذين وفدوا على الأندلس،

---

(١) نفح الطيب جـ٣ ص٣٦.
(٢) الروض المعطار ص١٨٦، ابن خلدون جـ٤، ص١٢٢.
(٣) البيان المغرب جـ٢ ص٥٠، وابن الأثير جـ٦ ص٣٧.

وعلى رأسهم عبدالملك المرواني، اعترضوا على هذا التصرف، ونوّهوا بما أثم به بنو العباس في حق بني أمية، وما زالوا بعبدالرحمٰن حتى قرر قطع ذكر بني العباس من الخطبة سنة **١٣٩هـ**، فقطعت من سائر منابر الأندلس[١].

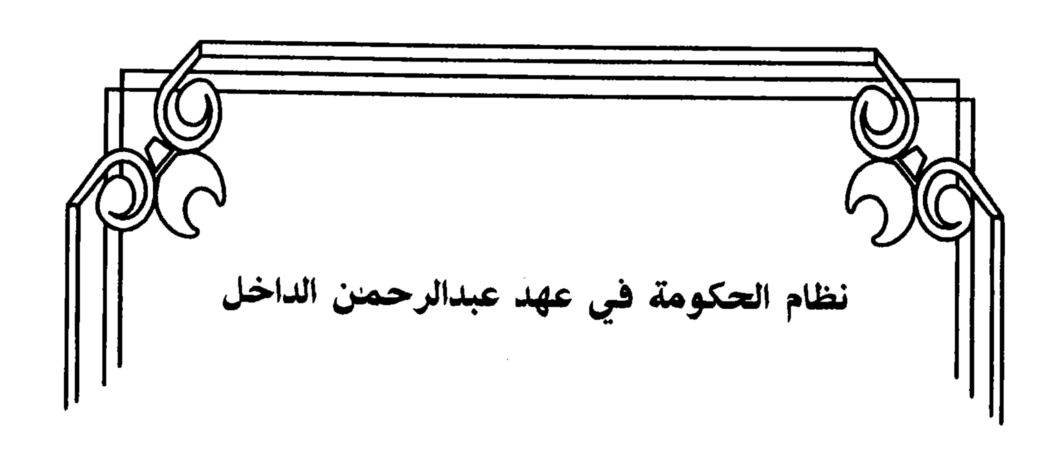
ولم يتخذ عبدالرحمٰن الداخل سمة الخلافة، أو يسمِّي نفسه خليفة رغم كونه سليل رجال الخلافة، ورجع ذلك إلى اعتبارات دينية وسياسية تحدث عنها ابن خلدون فقال: «إن بني أمية بالأندلس تلقّبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك، بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة، والبُعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبية، وأنهم إنما منعوا بإمارة بعيدة أنفسهم عن مهالك بني العباس»[٢].

ويقول في موضع آخر: «إن عبدالرحمٰن لم يتخذ سمة الخلافة تأدباً منه في حق الخلافة في مقر الإسلام ومنتدى العرب».

ويقول المسعودي في مروج الذهب: «إن الخلافة لم يكن يستحقها عند بني أمية إلاّ مَن كان مالكاً للحرمَيْن، ولذلك سُمُّوا بالخلائف حتى بعد أن تسموا بالخلافة ولم يخاطبوا بالخلفاء»[٣].



(١) ابن الآبار في الحلة السيراء ص١٢٣.
(٢) ابن خلدون جـ٤ ص١٢٢.
(٣) مروج الذهب للمسعودي جـ١ ص٧٨.



نظام الحكومة في عهد عبدالرحمن الداخل

وقد اتبع عبدالرحمٰن الداخل سنّة أسلافه بالمشرق في تبسيط الرسوم والإجراءات والنظم، وأنشأ منصب الحجابة، ولكنه لم ينشىء مناصب الوزارة، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه في القيام بمهام الحكم، وليست لهم سمة الوزارة، وإنما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى، واختار أعوانه في البداية من أصدقائه الذين استقبلوه يوم مقدمه، وآزروه وقاتلوا معه، فولّى حجابته تمام بن علقمة، ثم ولاها من بعده ليوسف بن بخت الفارسي مولى عبدالملك بن مروان، ثم عبدالكريم بن مهران الغساني، ثم عبدالرحمٰن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة، وولاها في آخر أيامه لمنصور الخصي، فلم يزل في حجابته حتى توفي، وعيّن لمشورته أبا عثمان بن عثمان كبير أنصاره، وصهره عبدالله بن خالد، فكانا لفترة طويلة دعامة حكومته، وكان من أعوان حكومته أيضاً جدار بن عمرو، وأبو عبده حسان بن مالك زعيم إشبيلية، وسُهيْل بن عيسى بن شهيد، وعبدالسلام بن بسيل الرومي وهما من موالي بني أمية، وثعلبة بن عبيد الجذامي الذي ولاه سرقسطة فيما بعد، وعاصم بن مسلم الثقفي وهو من خاصة أنصاره يوم المسارّة[1].

وولّى قيادة عسكره مولاه بدر، وتمام بن علقمة، وعبدالملك المرواني، وثعلبة بن عبيد، وغيرهم من خاصة عصبته.

---

(١) نفح الطيب جـ١ ص١٥٦.

وقد كان عبدالرحمٰن يتولى بنفسه قيادة الجيش في معظم الوقائع والحروب التي نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا، وولى عبدالرحمٰن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه، وذوي رحمه الوافدين عليه.

خلاصة الأمر: فإن حكومة عبدالرحمٰن الداخل كانت تقوم في البداية على العصبية والموالاة، وكانت عربية في بنائها وروحها، ولكن الخصومة المستعرة التي شهرها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبدالرحمٰن، والثورات المستمرة التي عملوا على إضرامها من حوله، ونكثهم المتكرر بعهودهم، حمله على الشك والريبة بالعرب والحذر منهم، فمال عنهم إلى اصطناع الموالي والبربر ولا سيما بربر العُدوةَ (المغرب)، وحشد حوله من الموالي والبربر والرقيق آلافاً مؤلّفة لتكون له وقت الحاجة عوناً يركن إليه ويثق به، وكان ذلك قاعدة للسياسة التي استمر عليها خلفاء عبدالرحمٰن وساروا على نهجها من بعده، والتي بلغت ذروتها في عهد عبدالرحمٰن الناصر كما سنرى[١].

❋ ❋ ❋

سياسة عبدالرحمٰن نحو نصارى العرب والشمال

كانت سياسة عبدالرحمٰن الداخل نحو نصارى العرب والشمال سياسة اعتدال ومهادنة، ولم يفكر عبدالرحمٰن في غزو أرض النصارى لانشغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية، وكان يرحب بعقد السلم والمهادنة معهم.

وقد أصدر عبدالرحمٰن لجيرانه نصارى قشتالة عقد أمان يؤيد ما قيل عن سياسة المهادنة والأمان والسلم معهم، وجاء في هذا العقد:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبدالرحمٰن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة ومَن تبعهم من سائر البلدان. كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ مما

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٦٧.

أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب، وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح، في كل عام إلى خمس سنين، كتب بمدينة قرطبة ثلاث من صفر عام اثنين وأربعين ومائة (٧٥٩هـ)[١].

❋ ❋ ❋

مواهب عبدالرحمن الداخل الإدارية

كان هذا الرجل يتمتع بمواهب إدارية، فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة، وأن يقمع كثيراً من ضروب الفساد والبغي، وأن يؤيد هيبة القانون والنظام. ولمّا توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعاً ما، استطاعت الأندلس أن تتمتع في ظل حكومته بأمن وطمأنينة ورخاء لم تعرفها منذ بعيد، ولو لم يشغل عبدالرحمن طوال عهده بقمع الثورات والفتن الداخلية لاستطاع كأسلافه الفاتحين الأوائل أن يبعث الأندلس خلقاً جديداً، وأن يجعل منها صديقة يانعة، على أنه ذلّل الصعب، ومهّد الطريق لعقبه، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة التي غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى. ويتحدث المؤرخون ومنهم ابن حيان مؤرخ الأندلس عن مقدرة عبدالرحمن الداخل وكفايته الإدارية، فيقول: «إنه دوَّن الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجنَّد الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدّته»[٢].

❋ ❋ ❋

عناية عبدالرحمن الداخل بالجيش

بطبيعة الحال فإن سند عبدالرحمن وسلاحه القوي يتمثل في جيشه

---

(١) انظر الإحاطة لابن الخطيب.

(٢) نفح الطيب جـ١ ص١٥٥.

الذي استخدمه في توطيد أركان دولته، فقد عنى عبدالرحمٰن بالجيش عناية فائقة ورعاه رعاية خاصة، فجنّد المتطوعة والمرتزقة من كل صوب، وبلغت قواته مائة ألف مقاتل، هذا عدا حرسه الخاص الذي أنشأه من الموالي والبربر والرقيق حسبما قدّمنا، ويبلغ زهاء أربعين ألفاً[1]. كذلك عنى عبدالرحمٰن في أواخر عهده بأمر البحرية (القوات البحرية) فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وإشبيلية وغيرها.

وقد قيل: إن عبدالرحمٰن لما توطد مُلكهُ، وكثرت قوّاته وعدّته، فكر في استرداد مُلك بني أمية في الشام، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس، وأيّده في ذلك خاصة أسرته ومواليه، وكان ذلك في سنة ١٦٣هـ، ولكن اضطرام الثورة في سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم، وتوفي قبل أن تسنح فرصة لتنفيذه[2].

❋ ❋ ❋

عنايته بقرطبة

أصبحت قرطبة حاضرة (عاصمة) الدولة الأموية الجديدة، فكان لا بد من الاعتناء بها، فقام عبدالرحمٰن بتحصينها وتزيينها بالمنشآت الضخمة الفخمة والرياض اليانعة، وكان أول ما أنشأ بها في عهده مُنْيَةُ (مدينة) الرصافة وقصرها الرائع، وكان قصر الإمارة بناءً قديماً ساذجاً يرجع إلى عهد القوط، فرأى عبدالرحمٰن أن ينشىء ضاحية ملوكية جديدة تليق بحاضرة ملكه، وتعيد ذكرى بني أمية بالمشرق، فأنشأ في شمال غربي قرطبة قصراً فخماً تحيط به حدائق زاهرة، وجلب إليها مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وإفريقية، وسمّى تلك الضاحية الجديدة بالرصافة تخليداً لذكرى

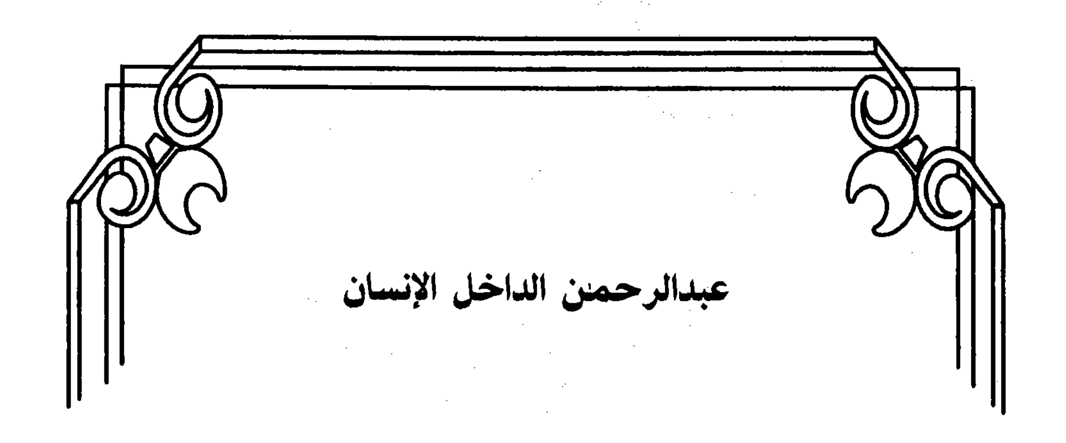
(١) نفح الطيب جـ٢ ص٦٧.
(٢) نفح الطيب جـ١ ص١٥٦، جـ٢ ص٧٦.

الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام، واتخذها مقاماً ومنتزهاً ومركزاً للإمارة، وكانت حدائق الرصافة أُمّاً لحدائق الأندلس، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية[١].

وفي سنة ١٥٠هـ بدأ عبدالرحمٰن بإنشاء سور قرطبة، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد، ولكنه توفي قبل إتمامه، فأتمّه ولده هشام، وزاد فيه من بعده ملوك بني أمية، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس، وبلغ ما أنفقه عليه عبدالرحمٰن الداخل وحده زهاء مائة ألف دينار[٢]، وهذا الإنفاق يدل على مدى سعة المسجد، واتساع مساحته، وفخامة إنشائه، لأن عبدالرحمٰن لم يدَّخر مالاً في سبيل إخراج هذا المسجد كتحفة معمارية. وقد أنشأ عبدالرحمٰن الداخل أيضاً في قرطبة داراً للسكة تُضرب فيها النقود على نحو ما كانت تضرب في دمشق أيام بني أمية وزناً ونقشاً.



(١) نفح الطيب جـ١ ص٢١٧.
(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٦٧.



عبدالرحمن الداخل الإنسان

كان عبدالرحمٰن الداخل جواداً كريماً، جمَّ البساطة والتواضع، يؤثر لبس البياض ويعتم به، يصلي بالناس أيام الجمع والأعياد، ويحضر الجنائز ويصلي عليها، ويعود المرضى، ويزور الناس ويخاطبهم، ولم ينحرف عن هذه الديمقراطية إلاّ في أواخر عهده، حينما نصحه بعض خاصته بالترفع، استبقاءً لهيئة الملك، والحذر من بوادر العامّة وشر المتآمرين[1]. وقد كان في نقش خاتمه «عبدالرحمٰن بقضاء الله راض» و «بالله يثق عبدالرحمٰن وبه يعتصم» مما يدل على ذلك التواضع الجم[2]، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور وما إلى ذلك من ألقاب.

❊ ❊ ❊

عبدالرحمن الشاعر والأديب

أولاً ـ الأديب:

كان عبدالرحمٰن شاعراً جيد النظم، ناثراً، فصيح البيان، قوي الترسُّل، عالماً بالشريعة، وكان يعتبر من أعظم بني مروان مكانة في البلاغة

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٦٧ وانظر البيان المغرب جـ٢ ص٥٠.

(٢) المصدر السابق.

والأدب[1] وقد انتهت إلى المؤرخين بعض رسائلهِ وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته، ومن ذلك رسالة موجزة وجّهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه:

«أما بعد، فدعني من معارض المعاذير، والتعسُّف عن جادة الطريق، لتمُدَّن يداً إلى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة، أو لألقين بناتها على رصف المعصية، نكالاً بما قدّمت يداك، وما الله بظلّام للعبيد»[2].

ومنها رسائله إلى مولاه بدر، يزجره عن تمرده وانحرافه، وقد كتب إليه حين ألحّ في طلب العفو والمِنّة: «لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى ثقلت العين عن طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر»[3].

ومن أقواله لأصحابه يوم المسارّة يشحذ هممهم للقتال:

«هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه، إمّا ذُلُّ الدهر وإمّا عز الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون»[4].

ثانياً ـ الشاعر القوي الرقيق الخيال:

ومن شعره أورد المؤرخون الكثير، فحينما أخذه الحنين إلى ربوع الشام أنشد يقول في تأثر شديد:

أيها الركب الميمم أرضي ... أقر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرضِ
قدر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٥٠.
(٢) نفح الطيب جـ٢ ص٦٨.
(٣) المصدر السابق جـ٢ ص٦٩.
(٤) المصدر السابق ص٧٠.

وحين بلغه أن بعض أصدقائه يمنُّ عليه، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه، قال:

سعدي وحزمي والمهنّد والقنا	ومقادير بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب	نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا	أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله	خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبدالملك في مجلس عبدالله بن علي جلاّد بني أمية، ونعيه عليه إثمه في حقه وسفكه لدمائهم، وفقدِهِ لحياته ثمناً لجرأته، فأنشد عبدالرحمٰن:

شتان من قام ذا امتعاض[1]	فشال ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتاً لعزم[2]	مجرداً للعداة نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً	ولم يكن في الأنام كلا
فبز ملكاً وشاد عِزاً	ومنبراً للخطاب فصلا
وجنّد الجند حين أودى	ومصّر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعاً	حيث انتأوا أن هلم أهلا

وحينما رأى بروض الرصافة - وهي ضاحيته الجديدة أنشأها - عندما رأى نخلة منفردة، أثار المنظر في نفسه ذكريات وشجون فأنشد يقول:

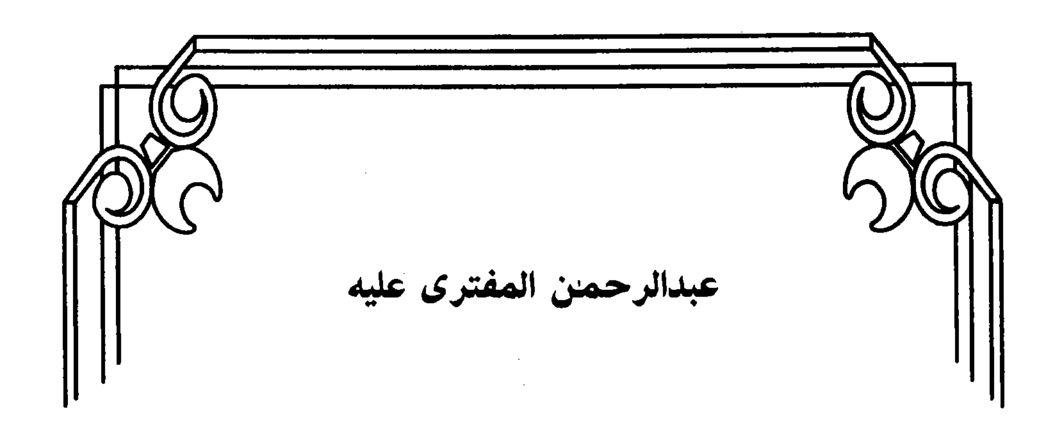
تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى	وطول التنائي عن بنيي وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	فملكك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها	الذي ويستمري السماكين بالويل[3]

---

(١) يريد الضمر بن يزيد.

(٢) يريد نفسه (عبدالرحمٰن الداخل).

(٣) الحلة السيراء ص٣٤.



عبدالرحمن المفترى عليه

هناك حقيقة لا ينكرها المؤرخون، وهي أن عبدالرحمٰن الحزمُ قاعدة لسلوكه، والقسوة ركيزة لسيرته، ولكنه كان معذوراً في ذلك، فقد كان هذا العنف وتلك القسوة، سمة عامة يتميز بها ذوو الجاه والسلطان في تلك الفترة من الزمان، ولكنه لا يعتقد أنه تمثل بالملوك في ذلك وهو الذي كان يصلي بالناس الجُمَع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويُكثر مباشرة الناس، والمشي بينهم[1]. ومن كانت أخلاقه هكذا، فإنه لا يتغير عنها إلا إذا كان مخادعاً، يُري الناس من سيرته ما يخفي عنهم منها حتى يتمكن ثم يعود إلى طبيعته، وعبدالرحمٰن لم يكن كذلك، بل ظلّ على ذلك حتى نصحه خاصته كما ذكرنا آنفاً بألاَّ يخرج للناس، ويبتذل في ذلك، فإن الناس لا تؤمَن بوادرهم على الملوك والرؤساء، وكان ذلك نتيجة أن استوقفه رجل من الرعية يطلب الإنصاف من القاضي، كما رواه صاحب نفح الطيب.

وفي دفاعهم عن شخصية عبدالرحمٰن وما أثير حوله من عنف وقسوة، تحدّث بعض المؤرخين فقالوا: لقد اكتسب عبدالرحمٰن العنف والقسوة من أخلاق العرب أنفسهم الذين عاشوا معه في تلك البلاد، فقد وجدهم إلا من رحم ربي ـ مخادعين ـ يُظهرون السلامة، ويُضمرون العداوة. يأمن الرجل منهم ويوليه، فإذا اطمأن في مجلسه ثار عليه وخرج من طاعته، فكان لا بد

(١) نفح الطيب ٣/٣٧.

أن يغير سياسته في حكم البلاد، كان عليه أن يأخذ بالظنَّة وأن يرتاب في كل من حوله، حتى الرجال المخلصين له ولدولته، كان عليه أن يستعمل العنف ليردع الخونة، ويلتزم القسوة ليزجر المارقين، ولو لم يستعمل عبدالرحمٰن هذه السياسة لانقضت الدولة، وذهبت في كل واد[1].

كان عبدالرحمٰن أمام موقف شديد الحساسية وشديد الخطورة، فهو يؤسس دولة من عدم، ويقيم أمة رآها مبعثرة، ويرأب صدعاً، ويقيم معوجاً، فإذا لم يكن العنف وسيلة في قوم لهم أطماع، ونفوس فيها حقد، لم يستقم الأمر، ولم تقم الدولة. ولم يذكر التاريخ عبدالرحمٰن إلاّ بالضعف وعدم القدرة على إقامة الدولة.

لقد وجد عبدالرحمٰن الفوضى ضاربة أطنابها في أنحاء البلاد المختلفة، كل والٍ يثورُ في ولايته ليستقل بها، ويحيك المؤامرات لينفصل عن باقي الأقاليم، ولا يجد من ينازعه، ووجد التنافس على أشده بين القبائل المختلفة، هذا فهري وهذا يمني، هذا عدناني وذلك قحطاني، كل قبيلة تنافس الأخرى وتتسابق معها في طريقة حكم البلاد، كما وجد الحقد والحسد يملآن النفوس بين زعماء هذه القبائل وحكام هذه المدن وتلك الثغور.

لقد كانت البلاد منقسمة على نفسها، مما جعل البلاد شِيَعَاً وأضراباً، وأتاح ذلك الفرصة لحكام البلاد المسيحية في شمال البلاد أن تتخذ لنفسها مراكز قوية لتأمين حدودها مع المناطق الإسلامية، بل احتلال مناطق حيوية يهددون بها البلاد الإسلامية، وإلى جانب ذلك، كانت المؤامرات لإتاحة الفرصة للتدخل الخارجي من جانب الخلافة العباسية من جهة والفرنج من ناحية أخرى، ولولا سرعة تصدي عبدالرحمٰن وسياسته الحكيمة في مواجهة هذه الفوضى لوقعت البلاد كلها في قبضة الإفرنج الذين كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر، ويتحينون بها الفرص، وكذلك ثورات البربر، تلك هي

---

(١) انظر دولة الإسلام في الأندلس ق١ ع١ ص١٩٣ وما بعدها ـ وانظر الأمويون في الشرق والغرب د. محمد سيد الوكيل ص١٥٤ وما بعدها.

حال البلاد، فوضى وتمزُّق، وحقد وحسد، وتمرُّد وعناد، ولولا ما فُطر عليه عبدالرحمٰن من الشهامة والشجاعة وسرعة النهضة لمقاومة التمرد، لضاعت الأندلس، وضاع عبدالرحمٰن، فقد كان يستعمل العنف والقسوة في حال لا يجدي فيه إلاّ العنف والقسوة، كما أمر بقتل ابن أخيه حين تآمر على الدولة، وأمر بنفي بدر مولاه حينما تكلم بكلام لا يليق بحال الإمارة، وهكذا كان يفعل بمن يستحقون العقوبة[1]. أما مع غير هؤلاء فقد كان لطيفاً مداعباً.

فقد روى المقري أنه لما استتب له الأمر بالأندلس أتاه رجل بربري هو أبو قرة، كان أبو قرة هذا قد أوى عبدالرحمٰن والخلافة العباسية تبحث عنه، فأحسن إليه وحظي عنده وأكرم زوجته ـ نكفات ـ البربرية التي خبأته تحت ثيابها عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبدالرحمٰن مداعباً حين استظلت بظله في الأندلس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا نكفات على ما كان بي من الخوف، وأزعجتني بأنتن من ريح الجيف. فكان جوابها مسرعة: بل كان والله يا سيدي منك خرج، ولم تشعر به من فرط فزعك. فاستظرف جوابها[2].

كانت هذه البلاد في حاجة إلى شخصية فذّة شجاعة عبقرية مثل عبدالرحمٰن الداخل، تحكمها وتدير شؤونها، كان عبدالرحمٰن فذاً في شجاعته، وفي تفوقه الإداري، وفي سلوكه وأسلوب حياته، بل قُلْ في جميع نواحي الحياة.

كان رحمه الله فرداً حين دخل الأندلس، وكان حدَثاً لم يتجاوز العشرين من عمره، وكان يقاوم دولة ترامت أطرافها واتسعت شعابها، ومع ذلك فقد استطاع أن يعبر إلى الأندلس دون أن يعيقه حداثة عمره ولا مقاومة الأعداء، ونجح في إقامة دولة قوية مرهوبة الجانب عزيزة الأركان، وخاض في ذلك معارك عنيفة.

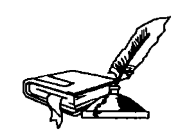
---

(١) المصدر السابق ص١٥٧.

(٢) نفح الطيب ٣/٣٧.

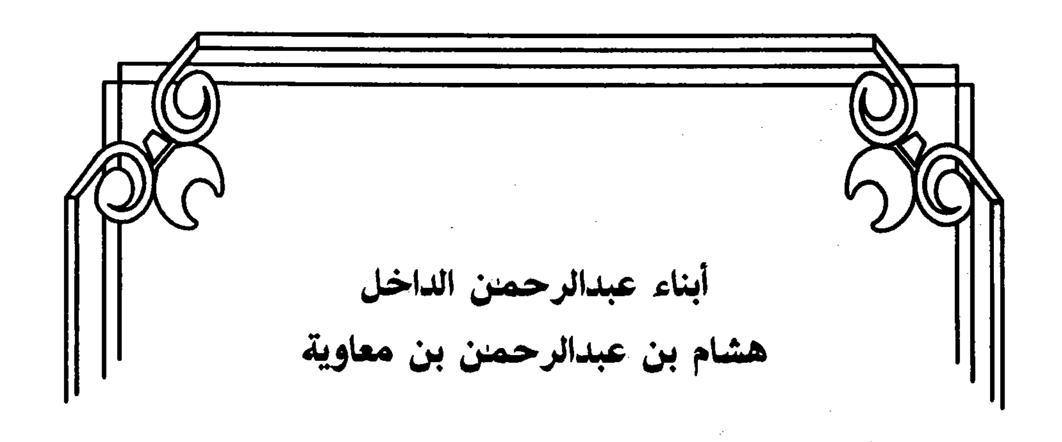
كانت مدة الأمراء بالأندلس قبل عبدالرحمٰن الداخل منذ فتحت إلى يوم هزيمة أميرها يوسف الفهري والصميل، ستاً وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام، فقد كان الفتح لخمسٍ خلون من شوال سنة **٩٢هـ/ ٧١١م**، وكانت هزيمة يوسف لعشر خلون من ذي الحجة سنة **١٣٨هـ/ ٧٥٦م**(١).

وظلّ يوسف الفهري أميراً على الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر، وانتقلت إمارة الأندلس إلى عبدالرحمٰن الداخل بعد هزيمة يوسف الفهري والصُّميل، حيث استفحل أمره بها، ودانت له البلاد ولعقبه من بعده إلى بعد الأربعمائة، هذا هو صقر قريش وأياديه العظيمة في الأندلس.



---

(١) المصدر السابق ٣/٥٣.



أبناء عبدالرحمن الداخل
هشام بن عبدالرحمن بن معاوية

توفي عبدالرحمٰن الداخل في الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ/ ١٢ أكتوبر سنة ٧٨٧م وهو في نحو الثامنة والخمسين من عمره، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً ملؤها الخطوب والفتن، فخلفه ولده هشام بعهد منه لأيام قلائل من وفاته.

❀ ❀ ❀

التعريف بهشام

هو هشام بن عبدالرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان. ولد بقرطبة لأربع خلون من شهر شوال سنة ١٣٩هـ/ ٧٥٧م، ويُعرف بالرضا لعدله وفضله، ويكنى أبا الوليد[(١)].

أمه أم ولد تدعى حُلَل، كانت بارعة في الحسن، رائعة الجمال، فأحبها عبدالرحمٰن، وكانت أحب نسائه إليه، وأقربهنَّ إلى قلبه، وأعلاهنَّ كلمة عنده، فيحكى أن أم عثمان زوجة يوسف الفهري حضرت إليه بصبحة ابنتيها تطلبان الأمان والحماية من الأمير عبدالرحمٰن بعد أن تم له النصر على زوجها، ودخل قرطبة، قالت له: «يا ابن عم كن كريماً معنا كما

(١) الحلة السيراء لابن الأنبار ١/٤٢.

كان الله كريماً معك» فتأثر عبدالرحمٰن من كلامها، ومما أصابها هي وبناتها، وهنَّ جميعاً لهنَّ قرابة وصلة بعائلته بنسبٍ وقرابة، فأكرمهنَّ عبدالرحمٰن ورد إليهن ما كان عسكره قد استولوا عليه منهن من مجوهرات، وأنزلهن منزلة حسنة.

وتعبيراً عن سرورهن بفعل الأمير، قدمت له إحداهن هدية متواضعة هي إحدى جواريها الجميلات، وهي شابة تدعى حُلَل[1].

كان هشام أبيض أشهل، مُشرَباً بحمرة، وبعينيه حوَل، وكان نقش خاتمه (بالله يثق هشام وبه يعتصم) وصاحب شرطته: عبدالغفار بن أبي عبدة، وكاتباه اثنان: فُطيس بن عيسى، وخطاب بن يزيد، وقاضيه: المصعب بن عمران، وحاجبه: عبدالرحمٰن بن مغيث.

* * *

هشام ولي العهد والأمير بعد أبيه

كان الأمير عبدالرحمٰن الداخل قد عهد إلى أحد ولديه: هشام وسليمان، وكان هشام والياً على ماردة حين وفاة أبيه، وأما سليمان فكان والياً على طليطلة. فلما حضرت عبدالرحمٰن الوفاة، كان ابنه عبدالله المعروف بالبَلَنس موجوداً في القصر، فقال له أبوه: من سبق إليك من أخويك فارم له بالخاتم والأمر، فإن كان هشاماً فله فضل دينه وعفافه واجتماع الناس عليه، وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنّه ونجدته وحب الشاميين له[2].

وكان أبوهما عبدالرحمٰن قد استوزرهما تنويهاً بشأنهما، فكانا يركبان إلى القصر متناوبين لا يجتمعان.

فإذا كان يوم هشام تأهب حاضرو المجلس من كبار أهل المملكة لِما

---

(١) الأمويون أمراء الأندلس الأول ـ أحمد إبراهيم الشعراوي ص١٣٩.

(٢) البيان المغرب ٢/٦١.

سيقولون، فيفيضون في الحديث إلى إنشاد شعر، أو ضرب مثل، أو ذكر يوم من أيام العرب، أو ذكر حرب، أو اجتلاب حيلة، أو حكاية تدبير، أو إخماد سيرة.

وإذا كان يوم سليمان خلا المجلس من ذلك كله، وانبسط الحاضرون في غث الأحاديث، وأخذوا في المداعبة[1].

وفي سبيل اطمئنانه عليهما كان الداخل يسأل عنهما كثيراً، فيقول الناس: إن هشاماً إذا حضر مجلساً امتلأ أدباً وتاريخاً، وذكراً لأمور الحرب ومواقف الأبطال، وإذا حضر سليمان امتلأ المجلس سخفاً وهذياناً، فيكبر هشام في عينه، بقدر ما يصغر سليمان.

وكان عبدالرحمٰن الداخل يريد التأكد بنفسه من كل ما يسمعه عن ولدَيْه هشام وسليمان، فقال الداخل يوماً لابنه هشام: لمَن هذا الشعر؟

وتعرف فيه من أبيه شمائلاً ... ومن خاله أو من يزيد ومن حُجُرْ
سماحة ذا وبرَّ ذا ووفاء ذا ... ونائل ذا إذا صحا وإذا سكرْ

فقال هشام لأبيه: يا سيدي، لامرىء القيس ملك كندة، وكأنه قاله في الأمير أعزه الله، فضمّه عبدالرحمٰن إليه استحساناً بما سمع منه، وأمر له بإحسان كثير، وزاد في عينه.

ثم انفرد بسليمان، وقال له: لمَن هذا الشعر؟ وأنشده البيتين، فقال: لعلهما لأحد أجلاف العرف، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب؟ فأطرق عبدالرحمٰن، وقد علم ما بين الاثنين من المزية[2]. لهذا كان هشام أقرب إلى قلب والده عبدالرحمٰن، وكان يتمنى أن تؤول الوزارة إليه، غير أنه لم يحب أن يعين هشاماً حتى لا تقع الضغينة بين الأخوين، وحتى لا

---

(١) الحلة السيراء ٤٢/١.
(٢) نفح الطيب ٣٣٤/١.

تكون فتنة، فترك الأمر لعبدالله، مَن يلحق به أولاً يعطى الخاتم والأمر، وتفوض إليه مقاليد الحكم.

وكانت وفاة عبدالرحمٰن، وهشام والٍ على ماردة، يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر[1]، وقيل: غير ذلك.

ووصل هشام الخبر، فأسرع في السير حتى وصل قرطبة بعد ستة أيام، فبايعه أخوه عبدالله، وسلَّمه خاتم الإمارة، وبايعه العامة والخاصة[2]، وكان ذلك في يوم الأحد غرة جمادى الأولى سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م، وكان عمره حينئذ ثلاثين سنة[3]. وعلم أخوه سليمان بذلك، فحشد الحشود وجنَّد الأجناد، وهو يريد قرطبة مخالفاً لأخيه، فلما وصل ـ جيَّان ـ خرج إليه هشام في أجناده، والتقى الجيشان بجهة بلج، ووقعت بينهما حرباً قاسية سنعود إليها.

❋ ❋ ❋



صور من حياة هشام

مع التنجيم والمنجمين:

كان للمنجمين عند الخلفاء والملوك والأمراء منزلة سامية، بشرط أن يخبروهم بما يريدون، أو يقولون لهم ما يشتهون، عندئذ، ترتفع منزلتهم، وتعلو مكانتهم، والغريب أن الملوك بعامة يثقون فيما يقوله المنجمون ولا يتنازلون عمّا سمعوه منهم، وإن كان بعضهم يؤمن بأن الغيب بيد الله، لا يعلمه أحد سواه، ولكنهم مع ذلك لا يتنازلون عن تقديرهم للمنجمين، ويحبون أن يستمعوا إليهم، ويسمعوا منهم، ومما جاء في نفح الطيب

(١) الحلة السيراء ٤٢/١.
(٢) البيان المغرب ٦١/٢.
(٣) الأمويون أمراء الأندلس ـ الشعراوي ص١٣٩.

للمقري[1] أن من هؤلاء هشام بن عبدالرحمٰن، أمير الأندلس الأموي، فإنه مع مطلع ولايته للأندلس، بعث في طلب «الضبي» المنجم المشهور، أرسل إليه في المدينة التي كان يقيم فيها - وهي الجزيرة الخضراء - وأحضره إلى قرطبة، وكان الضبي حاذقاً في علوم النجوم، فلما حضر الضبي إلى هشام، خلا به، وقال له: يا ضبي، لست أشك أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم يدَّع تجديد النظر فيه، فأنشدك الله إلاَّ ما أنبأتنا بما ظهر لك فيه، فلجلج وقال: اعفني أيُّها الأمير، فإني ألممتُ به، ولم أحقق النظر فيه لجلالته في نفسي.

فقال له: قد أحليك لذلك، فتفرغ للنظر فيما بقي عليك منه.

ثم أحضره بعد أيام، فقال: إن الذي سألتك عنه جدّ مني، مع أني والله ما أثق في حقيقته، إذ كان من غيب الله الذي استأثر به، ولكني أحب أن أسمع ما عندك فيه، فالنفس طُلعة، وألزمه الصِّلة أو العقوبة.

فقال الضبي: اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك، سعيداً جَدَك، قاهراً لمن عاداك، إلاّ أن مدتك فيه، فيما دلَّ عليه النظر، تكون ثمانية أعوام أو نحوها.

فأطرق هشام ساعة ثم رفع رأسه، وقال: يا ضبي ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك، والله لو أن هذه المدة كانت في سجدة لله - تعالى - لقلت طاعة له، ووصله، وخلع عليه، وزهد في الدنيا، والتزم أفعال البر[2].

اعتمد هشام هذه النبوءة، ورأى أن يقضي هذه المدة في الصلاح والتقوى وعمل الخير والجهاد في سبيل الله.

ولذلك فقد كان عاقلاً حازماً، وافر الشجاعة والعزم، كثير العدل والتقوى، جمَّ التواضع والرفق.

وتشيد الرواية الإسلامية بجميل صفاته وخلاله، وتنوه بالأخص بورعه،

---

(١) نفح الطيب ٣٣٤/١.

(٢) نفح الطيب ٣٣٤/١، وانظر ابن القوطية - تاريخ افتتاح الأندلس ص٦٤.

وتواضعه، وحبه للخير. فيقول لنا ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد: «إنه كان أحسن الناس وجهاً، وأشرفهم نفساً، الكامل المروءة، الحاكم بالكتاب والسنة، الذي أخذ الزكاة على حلها، ووضعها في حقها، لم يعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلَّة في أيام صباه»[1].

وقيل: بلغ من تواضعه أنَّه كان يطوف شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية، يسمع المظالم بنفسه، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الممطرة، فيلقي بصرر المال في المساجد لمن وجد فيها بغية تعميرها بالمصلين، ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل[2].

وكان يذهب مذهب عمر بن عبدالعزيز في تحري الحق والعدالة، فكان يبعث إلى الكور بقوم من ثقاته، للتحري عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أسقطه واشتد عقابه[3].

وكما ذكرنا - فقد كان هشام رحمه الله - يسير بسيرة عمر بن عبدالعزيز في الرعية، فكان يبعث إلى البلاد قوماً عدولاً، يسألون الناس عن سير العمال (الولاة) فيهم، ثم ينصرفون إليه بما حملوا من أنباء، فيصرف ما يصرف من أعمالهم على وجهها الصحيح، أو يزيل من العمال من لم تعجبه سيرته. فقد اعترض له يوماً متظلم من أحد عماله، فأحضر الشاكي، وقال له: احلف على كل ما ظلمك فيه، فإن كان ضربك فاضربه، أو هتك لك ستراً فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً فخذ من ماله مثله، إلاّ أن يكون أصاب منك حدّاً من حدود الله. فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلا أقيد (أُخِذَ) منه[4].

وكان هشام كريماً متواضعاً فاضلاً عاقلاً، لم تعرف منه هفوة في

---

(١) العقد الفريد جـ٣ ص٢٠٢.
(٢) المعجب للمراكشي ص١٠.
(٣) البيان المغرب جـ٢ ص٦٧.
(٤) البيان المغرب ٦٦/٢.

حداثة سنه. ومن كرمه أنه كان يصر الأموال، ويخرج بها بين المغرب والعشاء، يتفقد المسجد، فإذا وجد أحداً يُصلي في المسجد أو لا يصلي، وضع بين يديهِ صُرَّةً. يقول ابن عذارى: «حتى كثرت عمارة المساجد»[1].

ويقول المقري[2]: ومن محاسنه أنّه جدّد القنطرة التي يُضرب بها المثل بقرطبة، وكان قد بناها السمح الخولاني عامل عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - فأحكم هشام بناءها إلى الغاية.

وقال يوماً لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟

فقال: يقولون: ما بناها الأمير إلاً ليمضي عليها إلى صيده وقنصه.

فآلى هشام على نفسه ألاّ يسلك عليها، فلم يمر عليها بعدُ، ووفّى بما حلف عليه[3].

أما ابن عذارى فيقول: فحلف حين بلغه ذلك ألاّ يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة[4].

وكان هشام جالساً لراحته في علّيّة على النهر في حياة والده عبدالرحمٰن الداخل، فنظر إلى رجل من أهل جيّان من صنائعه، يقدم عليه الهاجرة، فأنكر ذلك، وتوقع شرًا وقع عليه من قبل أخيه سليمان، فأمر بأن يدخل عليه الرجل، وقال له: مهيم يا كناني، فلأمر ما جئت، وما أحسبك إلا مزعجاً لأمر ما دَهَمَكَ؟

فقال الرجل: نعم، يا سيدي، قَتَل رجل من قومي رجلاً خطأ، فحملت الدية على العاقلة فأخذ بها من كنانة عامة، وحمل علي من بينهم خاصة، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك. فمدَّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها، وقال له:

---

(١) البيان المغرب ٦٦/٢.

(٢) نفح الطيب للمقري ٣٣٨/١.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) البيان المغرب ٦٦/٢.

دونك هذا العقد يا كناني، وشراؤه على ثلاثة آلاف دينار، فلا تخدعنّ عنه، وبعه، وأدِّ عن نفسك وعن قومك، ولا تمكّن الرجل من اهتضامك.

فقال الرجل: يا سيدي، لم آتك مستجدياً، ولا لضيق المال عما حملته، ولكني لما اعْتَمِدتُ بظلم صراح، أَحببت أن يظهر عليَّ عزُّ نصرك، وأثر ذبِّك وامتعاضك، فأتمجد بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك.

فقال هشام: فما وجه ذلك؟

فقال الرجل: أن تكتب إلى أخيك في الإمساك عني، والقيام بذمتك لي.

فقال هشام: أمسك العقد. وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقت أنكره، فانزعج، وقال: ما يأتي بأبي الوليد في هذا الوقت إلاَّ أمرٌ مقلق، ائذنوا له، فلما دخل عليه سلَّم، ومثُل قائماً بين يديه.

فقال له: اجلس يا هشام.

فقال: أصلح الله الأمير، سيدي، وكيف جلوس بهمٍّ وذل مزعج، وحُق لمن قام مقامي لا يجلس إلاَّ مطمئناً، ولن يقعدني إلا طيب نفس بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلاّ رجعت على عقبي.

فقال له: حاشى لك من انقلابك خائباً، فاقعد مجاباً مشفعاً. فجلس.

فقال له أبوه: فما الحدث المقلق؟ فأعلمه به.

فأمر أن يحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال، فسُرَّ هشام، وأطنب في الشكر، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكناني. ولما دخل الكناني لوداع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزت بك حد الأمنية، وبلغت غاية النصر، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدَيْ العناية الكريمة، فنعيده إلى صاحبته، فأبى عن ذلك، وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا[1].

(١) نفح الطيب للمقري ٣٣٥/١.

وكان زياد بن عبدالرحمٰن صاحب الإمام مالك في زيارة للمدينة، فوصف هشاماً له، فقال الإمام مالك: ليت الله تعالى زيّن موسمنا بمثل هذا[1].

وكان لهشام بصمات أو قُلْ حسنات، حيث إنه أكمل سعائف المسجد الجامع بقرطبة، ورفع مناراته القديمة، وبنى الميضأة العجيبة[2].

ومن حسناته أيضاً أنه أخرج المصدِّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنة[3]. ويقول أحد قضاة عصره وهو أبو معاوية: أدركت صدراً من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت الدعة والعافية والهدوء بحيث لم يعلم لها مثل، وكان يحضر الجنائز، ويزاحم فيها، كأنه أحدٌ من الناس تواضعاً.

وكان لبعض رجال هشام خصومة في دار عند القاضي مصعب بن عمران، فسجل عليه القاضي فيها، وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشام، وقال له: إن القاضي سجّل علي في داري التي أسكنها، وأخرجني عنها. فقال له هشام: وماذا تريد مني؟ والله لو سجل علي القاضي في مقعدي هذا لخرجت عنه[4].

وهذا يدل على أن هشاماً ـ رحمه الله ـ كان ملتزماً في حكمه بكتاب الله وسنة رسوله، وأنه لم يكن يُقعده عن هذا قرابةُ قريبٍ، أو صداقةُ صديقٍ، ولهذا هدأتِ البلاد في عهده بما لم تألفه في عهودٍ سابقة، ودرّت فيها الخيرات، فأصبحت سابغة، لم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يتهم في حكمه بظلم، بل كان مثال العدل والحكمة، رحمه الله رحمة واسعة.

❋ ❋ ❋

(١) المصدر السابق ص٣٣٧.
(٢) ابن عذارى في البيان المغرب ٢/٦٨.
(٣) نفح الطيب ١/٣٣٥.
(٤) البيان المغرب ٢/٦٨.

ثورات إخوته ضده

كانت ظروفاً حرجة تلك التي تولى فيها هشام بن عبدالرحمٰن الداخل عرش الأندلس، فلم يكد يجلس على العرش حتى فوجىء بعداء أخويه له: سليمان وعبدالله، فأما سليمان فكان أكبر إخوته، لهذا كان تطلعه للإمارة، وكانت نظرته أن يكون هو ولي العهد على عادة الأمويين في المشرق، وأما عبدالله فقد كانت الإمارة في يده يوم سلّمها له أبوه على أن يعطيها لأول قادم إلى قرطبة، وقد فعل، وتاقت نفسه للإمارة، فانضم إلى أخيه سليمان، ووقفا من أخيهما موقفاً سلبياً، فلم يتركاه ينهض بشؤون الإمارة، بل سارعا في تأليب الناس عليه وإثارة الثورات ضده في كل مكان، وطلب الأمر جهاراً نهاراً دون مواربة. وهذا الموقف يذكرنا بما تعرض له والدهما من ألم نفسي، إذ لم يجد بُداً من قتل ابن أخيه المغيرة بن الوليد، ونفي أخيه الوليد وأسرته إلى المغرب. جلس عبدالرحمٰن مطرق الرأس حزيناً، ثم رفع رأسه وقال: «ما عجبي إلاّ من هؤلاء القوم (يقصد أقاربه وابن أخيه) سعينا فيما يضعهم في مهاد الأمان... حتى إذا بلغنا مطلوبنا... أقبلوا علينا بالسيوف»[1].

وها هم أبناؤه يعيدون الكرَّة، ويرفعون السيوف في وجوه بعضهم البعض. فأمَّا سليمان الذي كان يجاهر بعداوة أخيه هشام، فقد أقام في طليطلة، حيث توفرت له أسباب الأمن، وتهيأت له ظروف الثورة، فانتهز الفرصة وأعلن خروجه عن طاعة أخيه، ورفع السيف في وجهه.

وأما عبدالله فقد خرج من قرطبة على أن يقيم بماردة، ولكنه لا يلبث أن ينضم إلى أخيه سليمان، سواء استدعاه سليمان أم هو ذهب بنفسه، ويتحالفان ضدَّ هشام، ويعلنا الثورة ضده.

وقد بلغ الأمر إلى تحدي سليمان أمر الأمير، ذلك أن سليمان حاول جاهداً أن يستميل وزير طليطلة غالب بن تمام الثقفي ليصبح مستشاره

(١) أوردنا النص من قبل عن نفح الطيب للمقري جـ١ ص١٥٥.

الخاص، ولكن غالباً رفض هذا الأمر، فقد كان يرى أن ولاءه لا يكون إلا لأمير قرطبة، فغضب سليمان لذلك، فقبض عليه وألقاه في السجن.

وعلم الأمير هشام بتصرف أخيه، فكتب إلى سليمان أنه علم بما جرى للوزير غالب، وأنه محافظة على رجال الدولة المخلصين يجب أن يعرف ماذا حصل بالتفصيل، وبدون إبطاء.

ولما وصل رسول هشام حاملاً رسالته إلى سليمان، غضب سليمان غضباً شديداً، وأرسل وهو في غضبه، فأحضر غالباً من السجن وأمر به فصُلب، ثم قال للرسول: «قل لسيدك يتركنا نحكم في مقاطعتنا الصغيرة هذه، فإن هذا لا يعدل الظلم الفادح الذي أنزله بنا». وزاد على ذلك فقال للرسول: «وقُصّ عليه أيضاً ما رأيت من قيمة أوامره لنا»[١]. لما عاد رسول هشام، وبلغه ما صدر من أخيه سليمان، قرر أن يخرج إلى طليطلة بجيش قوي ليؤدب أخوَيْه سليمان وعبدالله.

وكتب هشام إلى كل الولاة باعتبار أخويه خارجان على الدولة، هما وكل من يناصرهما أو يدعو لهما، وكتب بضرورة إغلاق البلاد في وجهيهما، وبعدم إيوائهما، وأعدّ جيشاً قوامه عشرون ألف فارس، واستعد للخروج إلى طليطلة[٢]. وأمّا سليمان، فإنه قد علم بالإجراءات التي اتخذها هشام ضده، فصال وجال، وأخذ البيعة لنفسه في طليطلة وما جاورها، وجمع حوالي خمسة عشر ألف جندي، وخرج بهم مسرعاً يريد انتهاز الفرصة ليصل إلى قرطبة وقد خرج أخوه هشام منها، لعله يدخل العاصمة وهي خالية، فيستقر فيها ويبايعه الناس، وقد ترك طليطلة لابنه وأخيه عبدالله ليدافعوا عنها. وأغذّ سليمان السير وكلُّه أمل أن يدرك قرطبة خالية ليس عليها أمير، ولكنه لم يكد يصل إلى جيَّان، ويقترب من حصن بلج، حتى يجد جيش هشام أمامه، وتقع بينهما معركة فاصلة يهزم فيها سليمان، ويفرُّ عائداً إلى طليطلة.

---

(١) الأمويون أمراء الأندلس الأول ص١٥١، أحمد إبراهيم الشعراوي.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وفي سنة **١٧٣هـ/ ٧٨٩م** جهز هشام جيشه، وخرج إلى أخيه سليمان بطليطلة، فحاصرها حصاراً شديداً مما اضطر سليمان أن يخرج مستخفياً، وخلَّف أخاه عبدالله وابنه داخل المدينة، واحتل بشَقُندة، وعندئذ خرج إليه أهل قرطبة يدفعونه عنها، وبلغ هشام خبره فاطمأن لدفاع أهل قرطبة عنها، وبعث ابنه عبدالملك يتتبعه، فلما اقترب منه فرَّ سليمان هارباً وخرج إلى جهة ماردة، فتصدّى له عاملها حدير المعروف بالمذبوح، وهزمه، وظل هشام يحاصر طليطلة شهرين وأياماً، ثم قفل عنها راجعاً[١].

وفي سنة **١٧٤هـ/ ٧٩٠م** حضر عبدالله البَلَنسيّ إلى أخيه هشام من غير عهد ولا وعد، فأمنه هشام، وأنزله عند ابنه الحكم[٢].

وقد وعد هشام أن يعامل سليمان معاملة عبدالله إنْ هو عاد وأقلع عن الفتنة التي أثارها، وقد أمّن هشام أهل طليطلة، ومنحهم العفو حين دخلوا في طاعته.

وفي السنة نفسها، وبعد استقرار الأوضاع في طليطلة، وجّه الأمير هشام جيشاً كثيفاً إلى تدمير بقيادة ابنه الحكم، ويساعده القائدان العظيمان: شُهيد بن عيسى، وتمام بن علقمة، وكان سليمان مقيماً بتدمير، فحاربوه وأجبروه على الفرار إلى إحدى قبائل البربر في مرتفعات بلنسية. يقول ابن خلدون: وهرب سليمان إلى جبال بلنسية فاعتصم بها[٣].

ثم طلب سليمان من أخيه هشام العبور إلى عدوة البربر بأهله وولده، فأجازه هشام، وأعطاه ستين ألف دينار على تركة أبيه[٤].

ويقول نفس المصدر التاريخي[٥]: «وكان سليمان قد حصل عليه في بعض ثغور تدمير، فطلب سليمان الأمان، فاشترط عليه الأمير هشام الخروج

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البيان المغرب ٦٦/٢.

(٣) ابن خلدون ١٥٩/٤.

(٤) ابن عذارى في البيان المغرب ٦٢/٢.

(٥) ابن عذارى المصدر السابق.

عن الأندلس، ويعطيه ستين ألف دينار. فركب سليمان البحر بأهله وولده، واحتل بلاد البربر، فكفاه الله أمر إخوته»[1].

واستأذن عبدالله من الأمير هشام لكي يغادر الأندلس، ويذهب إلى إفريقيا، ويعيش مع أخيه سليمان، وهكذا تأتي سنة **١٧٥هـ/ ٧٩١م** وقد ارتاح الأمير هشام من المشكلة التي شكلت خطراً على دولته[2]. وانتهت ثورة أخويه سليمان وعبدالله بأقل خسارة تُذكر، فلم يلجأ إلى إيذاء أحد منهما بل إنه أعطاهما الأمان عندما ملك زمام كل منهما.

❋ ❋ ❋

هشام والثورات الداخلية

أولاً ـ ثورة سعيد بن الحسين الأنصاري بطرطوشة:

كان سعيد قد التجأ إلى طرطوشة منذ مصرع أبيه الحسين بن يحيى الأنصارى، والتفّ حوله اليمنية، وقام بثورة عارمة في سنة **١٧٢هـ/ ٧٨٨م** بطرطوشة، فدعا اليمنيين إلى الثورة، فانضم إليه خلق كثير، وقد اعتقد الثوار في الشمال أنه بموت عبدالرحمٰن الداخل قد أتيحت لهم الفرصة لكي يشعلوها ثورة من جديد، فخرج بطرطوشة الوالي سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري. وثورة سعيد هذه بدأت منذ عُيِّن الأمير هشام والياً جديداً على مدينة طرطوشة، ورفض سعيد أن يسلم المدينة لواليها الجديد يوسف العبسي، وقام بالثورة ضدَّ الأمير هشام، واستطاع موسى بن فُرتون بمساعدة المضرية أن يهزم الثوار والاستيلاء على سرقسطة[3].

وحينئذ خرج عليه مولًى للحسين بن يحيى الأنصاري في جمع كثير، فاقتتلا قتالاً شديداً، حتى قيل: إن موسى بن فرتون قتل في هذه المعركة.

---

(١) البيان المغرب ٦٢/٢.
(٢) الأمويون أمراء الأندلس الأول ص١٥١.
(٣) المصدر السابق ص١٥٦.

وقد انتهت هذه المعركة بمقتل سعيد بن الحسين في سنة **١٧٤هـ/ ٧٩٠م** على يد والي بلنسية أبو عثمان، فقد تظاهر سعيد بن الحسين بالانسحاب، وتتبعته قوات بلنسية، وكان قد نصب لها كميناً، فقتل منها عدداً كبيراً، وكان موسى بن فرتون في عداد القتلى، وحينما علم الأمير هشام بذلك، أصدر أوامره إلى والي غرناطة ووالي مرسية أن يرسلا قواتهما إلى بلنسية ليكونا تحت قيادة أبي عثمان والي بلنسية الجديد الذي قاد الحملة ضد الثوار، فقتل سعيد بن الحسين، وقضى على الثورة نهائياً.

ثانياً ـ ثورة مطروح بن سليمان بن يقظان:

كان سليمان بن يقظان حليفاً لملك الفرنج شارلمان، ضد عبدالرحمٰن الداخل، ولما استتب الأمر له زحف ليحتل سرقسطة، وكانت قوات الأمير هشام قد خلّصتها من يد الثوار، كذلك احتل وَشْقة والثغر كله.

في عام **١٧٥هـ/ ٧٩١م** جهز الأمير هشام جيشاً بقيادة أبي عثمان عبيدالله بن عثمان، وأمره أن يزحف على سرقسطة حيث يوجد بها مطروح بن سليمان، فحاصرها عبيدالله، ثم احتل مدينةَ طَرشونة، وألحَّ على سرقسطة بالحصار، وضيّق عليها الخناق حتى ضاق ذرع أهل سرقسطة وضجُّوا من تمادي الحصار، وفكروا قبل أن يسلموا المدينة، ولكن مطروحاً كان يعارض تسليم المدينة، واستبدّ برأيه، وصبر عليه أصحابه، ثم أضمروا له عداءً شديداً بسبب استبداده برأيه وإكراههم على غير ما يرغبون. وفي يوم من الأيام خرج مطروح ليتصيّد، وخرج معه صاحباه: عمرو بن يوسف وابن صلتان، فلما أرسل بازيه على طائر ونزل على الصيد، تعاوراه بسيفيهما حتى قتلاه، واحتزَّا رأسه، وتقدما به إلى أبي عثمان وهو بطرشونة، فتحرك إلى سرقسطة، فلم يمتنع عليه أحد من أهلها، ودخل المدينة، ونزلها، وبعث برأس مطروح إلى الأمير هشام(١).

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٦٣.

ثالثاً ـ ثورة أبو الحجاج بهلول:

انتهز أبو الحجاج فرصة خلاف أبناء عبدالرحمٰن الداخل هشام وسليمان وعبدالله، وقام هو داعياً للثورة لنفسه، فاستولى على سرقسطة، وسرعان ما دانت له، وانضم إليه الحكام في برشلونة ووشقة. ووصل الخبر إلى أبي عثمان، حاكم بلنسية، فأعدّ جيشاً كثيفاً من الفرسان والمشاة، وخرج إلى الثوار، واشتبك معهم في معارك عدة خلّص بها المدن التي احتلوها.

بعد ذلك شعر أبو عثمان أن الناس في هذه المنطقة قد ملُّوا الثورات، وكرهوا الفتن والاضطرابات، فانقلبوا على الثوار وحاربوهم، وأعلنوا الولاء للحاكم الشرعي هشام، فكتب أبو عثمان بذلك إلى الأمير هشام، ففرح هشام بذلك، وأمر أبا عثمان أن يبقى في منطقة الحدود ليؤمنها، وينتظر المدد الذي سيأتيه من قبل الأمير هشام، حتى يستطيع استعادة البلاد التي فقدها المسلمون في تلك الناحية.

رابعاً ـ ثورة تاكُرُنَّا:

اضطرب تاكُرُنَّا في عام ١٧٨هـ/ ٧٩٤م بالثورة، وخرج البربر في فتنة عمياء، وغاروا على الناس، فقتلوا من المسلمين وسبوا كثيراً، وبعث الأمير هشام فحذّرهم وأنذرهم عاقبة ثورتهم، ولكنهم لم يرتدعوا، فبعث إليهم جيشه، فقتل أكثرهم، وفرَّ عدد كبير منهم إلى طلبيرة وبَرْجيلة، وراحوا يعيثون في الأرض، وخلعوا الطاعة، وقطعوا الطريق، فبعث الأمير إليهم جيشاً.

وظلت تاكُرُنَّا سبع سنوات بلاداً خالية قفراً، بعد أن أعمل فيهم قائدَهُ عبدالقادر بن أبان القتل حتى أبادهم قتلاً وسبياً.

* * *

الحرب ضد الفرنج (نصارى الشمال)

كان نصارى الشمال، منذ اشتد ساعدهم، يكثرون الإغارة على البلاد الإسلامية والعبث فيها، ويشتد هذا العبث والعدوان كلما اضطرمت الأندلس

بالفتن الداخلية، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية. وفي المقابل أشاع الناس في أوائل حكم الأمير هشام بن عبدالرحمٰن أن الأمير لا يقاتل إلا أهل دينه، وذلك لكثرة الفتن التي حدثت في عهده، سواء من إخوانه أو من الخارجين عليه، وقد استغرق ذلك فترة طويلة من أوائل سني حكمه، أي من عام **١٧٢هـ/ ٧٨٨م** إلى عام **١٧٥هـ/ ٧٩١م**، فقال الناس: لا خير في أمير لا يحارب إلاّ بني دينه من المسلمين[١].

وكان الفرنج جرياً على سياستهم المأثورة، يشجعون النصارى من البشكنس والجلالقة على التحرُّش بالمملكة الإسلامية.

أما هشام، فبالإضافة إلى ما قيل عنه، فإنه كان كأبيه يقدّر خطورة هذه الدسائس الفرنجية، وتحدوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو، فما كاد ينتهي من القضاء على الثورة الداخلية، حتى سيَّر إلى الشمال جيشاً قوياً من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيدالله بن عثمان، فاخترق ألية والقلاع (قشتالة القديمة) واجتاح جليقية، وهزم الجلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أو برمند) وحلفاءهم البشكنس، وفرّق جموعهم (سنة **١٧٥هـ/ ٧٩١م**).

ونلاحظ من هذه الغزوات أن الأمير هشام، استطاع أن يُرغم المسيحيين على الوقوف عند حدودهم، فقد كانوا برغم ضراوتهم في القتال، واستبسالهم وشجاعتهم، عاجزين عن وقف الأمير هشام عند حد، وعاجزين أيضاً عن ردّه عن تنفيذ خطته التي رسمها لوقف هذه المؤامرات، وتأمين حدود مملكته.

ففي خلال السنوات الخمس، استطاع أن يشن على مسيحيي أوروبا غزوات متتالية، استولى فيها على أراضيهم، ولم تنجُ العاصمة (أوڤيدو) من الاحتلال برغم التحالف الكبير الذي استطاع ألفونسو الثاني أن يتمتع به، والذي لم يمنع من احتلال المسلمين لتلك العاصمة وتخريبها، وإلقاء الرعب والفزع بين سكانها، حتى استكانوا وخضعوا للمسلمين راضين أم مكرهين.

❋ ❋ ❋

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٢١٦.

هشام الإنسان ورجل الإنجازات

ذخرت بلاد الأندلس في عهد هشام بإصلاحات كثيرة، وإنشاءات فخمة، ومن هذه الإنشاءات: المسجد الجامع بقرطبة، الذي أنشأه أبوه عبدالرحمٰن وتوفي قبل أن يُتمه، فقام هشام بإتمامه، والمسجد واقع في مساحة ضخمة طولها ٦٠٠ قدم وعرضها ٢٥٠ قدماً، وهو يضم ٣٨ قوساً عرضاً و ١٩ قوساً طولاً، وهذه الأقواس ترتكز على أعمدة رخامية فخمة يبلغ عددها ١٠٩٣ عموداً، وتعتبر قبابه بالنقوش الجميلة الرائعة آية في حسن الذوق والفن الجميل، ويضاء المسجد بأربعة آلاف وسبعمائة مصباح، يُستخدم في إيقادها أربعة وعشرون ألف رطل من الزيت في العام الواحد.

كذلك كان يستهلك مائة وعشرون رطلاً من العنبر والطيب، حتى تشيع في أرجاء المسجد الرائحة الزكية. ومشكاة المحراب تعتبر أكبر مصابيحه، وكانت مصنوعة من الذهب الخالص، تزينها النقوش والزخارف الجميلة. وأما أبواب المسجد فهي تسعة عشر باباً، تغطيها طبقة من البرونز المنقوش، ويقع الباب الرئيسي في الوسط، وهو محلّى بقطع من الذهب التي تغمر وجهه، وعلى جانبيه تقع الأبواب الأخرى: تسعة عن يمينه وتسعة عن شماله، ولا تزال آثار المسجد باقية إلى الآن تشهد بعظمة الفن الإسلامي.

وقد أضاف هشام إلى جانب ذلك كله، أشياء لا يستغني عنها المسجد، حيث بنى سقيفة خاصة ليصلي فيها النساء، وبنى الميضأة في شرقي المسجد، وأقام المئذنة.

ولم يكن هذا المسجد محل اهتمام الأمير هشام وحده، بل إنه أمر بعد إتمامه وإكماله ببناء مساجد عدة في أنحاء الأندلس، وهذا يدل على تديُّنه وورعه، بحيث كانت الإصلاحات الدينية تغلب على تصرفاته، ومن ذلك المسجد الذي بناه أمام باب الجنان والذي بناه بالحجارة والتراب الذي سقط من سور أربونة، وأمر أهل البلاد تصغيراً لهم واحتقاراً أن ينقلوا

أحمالاً منه إلى باب قصره بقرطبة[١]. ولم يقتصر اهتمام هشام بالعمارة الدينية فقط، بل كان يعنى بالعمارة المدنية كعمارة قنطرة قرطبة، على نهر الوادي الكبير، وكان والي قرطبة في عهد عمر بن عبدالعزيز - رضي الله عنه - السمح بن مالك، قد بناها بأمر من الخليفة، وكانت قبل ذلك قنطرة رومانية قد تهدّمت فأقامها السمح، وبناها من الطوب المحروق (الأحمر) سنة ١٠١هـ/ ٧٢٠م ولكنها لم تلبث أن هُدمت مرة أُخرى سنة **١٦٢هـ/ ٧٧٩م** وظلت هكذا حتى عهد الأمير هشام الذي بذل عناية كبيرة في إعادة بنائها تحت إشرافه، وقد وصفها المؤرخون ومنهم المقري وصفاً رائعاً يدل على روعتها فقال:

«والقنطرة التي عند هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس، وأعجبها، وأقواسها سبعة عشر قوساً».

ويقول نقلاً عن ابن حيان: «إن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا، وطولها ثمانمائة ذراع، وعرضها عشرون ذراعاً، ويحدد حناياها ثمان عشرة حنية، وعدد أبراجها تسعة عشر برجاً»[٢].

وقد أمر هشام ببناء نافورة في العاصمة قرطبة لتزيينها وتحسينها، واختار لذلك أحد الميادين العامة، وكانت النافورة قطعة فنية نادرة، وتعرف هذه النافورة (بعين فرقد) نسبة إلى بانيها فرقد العدواني القرطبي، وبلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه مدينة.

ويذكر ابن فياض في أخبار قرطبة قوله: كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصحف بالخط الكوفي في ناحية من نواحي قرطبة.

وفي «المعجب في أخبار المغرب» يقول صاحبُه: وسمعت ببلاد

---

(١) نفح الطيب للمقري، وانظر الأمويون أمراء الأندلس ص١٧٧.
(٢) المصدر السابق ص١٧٧.

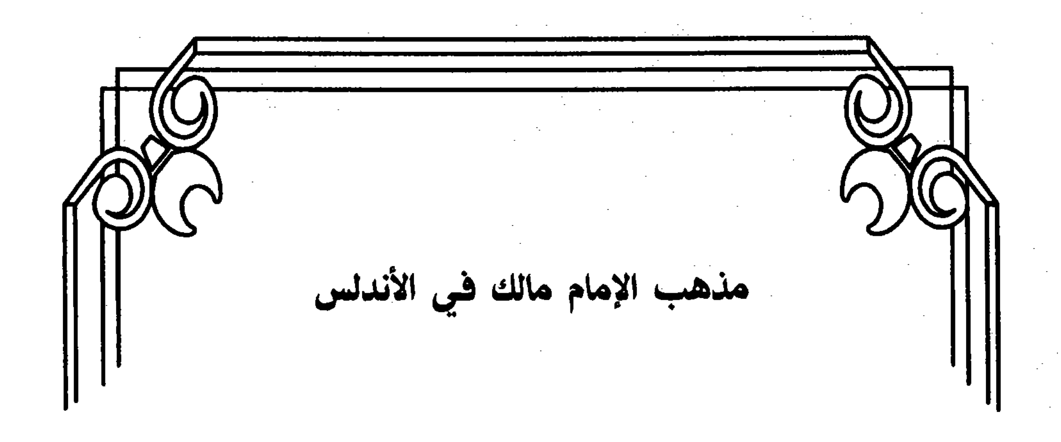
الأندلس من غير واحد من مشايخها: أن الماشي كان يستضيء بسروج قرطبة ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء[1].

وقرر هشام جعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود، وقد هدف من ذلك التقريب بين المسلمين والنصارى خلق روح المحبة والود والتفاهم بين أصحاب الأديان المختلفة، وتعريفهم بسماحة الإسلام وشرائعه.

وكان هشام شديد الورع والتقوى، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين من أخص مظاهر تقواه، وكان ينفق الأموال الطائلة في افتداء أسرى المسلمين، حتى لم يبقَ في عهده أحد منهم في قبضة العدو، ويرتب في ديوانه أرزاقاً لأهل الجند المتوفين في الجهاد[2].



(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ص٤٥٦.
(٢) أخبار مجموعة ص١٢٠.



مذهب الإمام مالك في الأندلس

كان هشام يؤثر مجالس العالم والأدب ولا سيما الحديث والفقه على غيرها. وفي عصره ذاع مذهب الإمام مالك.

وكان هناك إعجاباً متبادلاً بين الإمام مالك ابن أنس إمام دار أهل الهجرة والأمير هشام بن عبدالرحمٰن الداخل، فلما وصل زياد بن عبدالرحمٰن ووصف هشاماً للإمام مالك أُعجب به، وتمنى أن يزين الله موسم الحج بهشام فقال: ليت أن الله تعالى زينّ موسمنا بمثل هذا[1].

وأما هشام فقد بلغه ثناء الإمام عليه، وتمنّيه ما تمنى، أحبّ الإمام، وقرّب الذين ينتسبون إلى مذهبه، وعيّنهم في الوظائف العامة، وجعلهم خاصته، والمقربين إليه.

هذا الإعجاب المتبادل، سهَّل للمذهب الدخول إلى الأندلس والاستقرار فيها، ولم يكن دخول المذهب إلى الأندلس في عهد هشام، ولكنه سبق ذلك بكثير، نعم، إنه دخل إلى الأندلس في عهد الإمام مالك نفسه، كان أصحاب المذهب مبثوثين في نواحي الدولة المختلفة، فكان أبو حنيفة في العراق، والأوزاعي في الشام، وكان أرباب كل مذهب يحاولون بثه ونشره في كل مكان ينزلون فيه.

ولكن المذهب الحنفي كان بغيضاً ومكروهاً عند الأمويين، لأنه مذهب

(١) نفح الطيب ٣٣٧/١.

خصومهم العباسيين، لهذا كان عبدالرحمٰن الداخل يقرِّب مذهب الأوزاعي الشامي، وكان يتعامل معه على أنه المذهب المعترف به رسمياً، فقد كانت الشام قصر الخلافة الأموية، وليكن ما يأتي منها حبيب إلى كل أموي، وظلت الولاية في عهد عبدالرحمٰن للمذهب الأوزاعي.

وظهر مذهب الإمام مالك في المدينة المنورة، وأقبل عليه كثير من أهل الأندلس يدرسونه على يدَيْ الإمام، ويتفقهون في الدين على مذهبه، ولما بلغ الأمير هشام إعجابه به، بذل كل جهده لنشر المذهب المالكي، وكان يمنح كل التسهيلات لمن يريد دراسة هذا المذهب، فيسهل له السفر إلى المدينة المنورة، ويعينهم في نفقات السفر، وحالة الإعاشة، ومن عاد منهم يتخير الأمير منهم القضاة ومن يعينهم في الوظائف العامة. وفي ظل ظهور مذهب الإمام مالك لم يستطع صعصعة بن سلام الشامي الذي كان يشغل منصب الإفتاء وصاحب الصلاة في قرطبة أن يصمد أمام المذهب الجديد الزاحف على الأندلس، فقد كانت تساند المذهب الجديد قوتان[1]:

الأولى: هي وجود أحفاد الأنصار الذين كانوا يتمتعون بعادة التمسك بالتقاليد، ويغلِّبونها على أي شيء سواها، فهؤلاء اتخذوا مذهب مالك مذهباً لهم، وعكفوا على الموطأ يدرِّسونه ويتعاملون به كإرث من ميراث مدينتهم، وظاهرة حضارية من المظاهر التي كانوا يعتنقوها بالعادة.

الثانية: أما القوة الثانية التي كانت تساند مذهب الإمام مالك فهي هؤلاء الدارسون الذين ذهبوا إلى المدينة وتحمّلوا مشاق السفر، وظلُّوا في الغربة يعانون من فراق الأهل والوطن، حتى حملوا هذا العلم ورجعوا به، ويؤيد هؤلاء الأمير هشام حاكم الأندلس.

وفي السنوات التي تلت وفاة الإمام مالك، بقي أناس من الأندلسيين يتابعون دراسة مذهبه، منهم زياد بن عبدالرحمٰن (شبطون)، وعيسى بن دينار، والفقيه القرطبي المعروف بيحيى بن يحيى، ويحيى بن مضر. هؤلاء

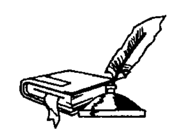
---

(١) الأمويون في الشرق والغرب د. الوكيل جـ٢ ص١٨٣.

هم الذين عرّفوا الإمام مالك بحاكم الأندلس حينئذ وذكروا له صفاته وأخلاقه حتى أُعجب به الإمام مالك، وهؤلاء عادوا جميعاً إلى الأندلس، وكانوا خير دعاة لهذا المذهب الذي حملوه من المدينة المنورة.

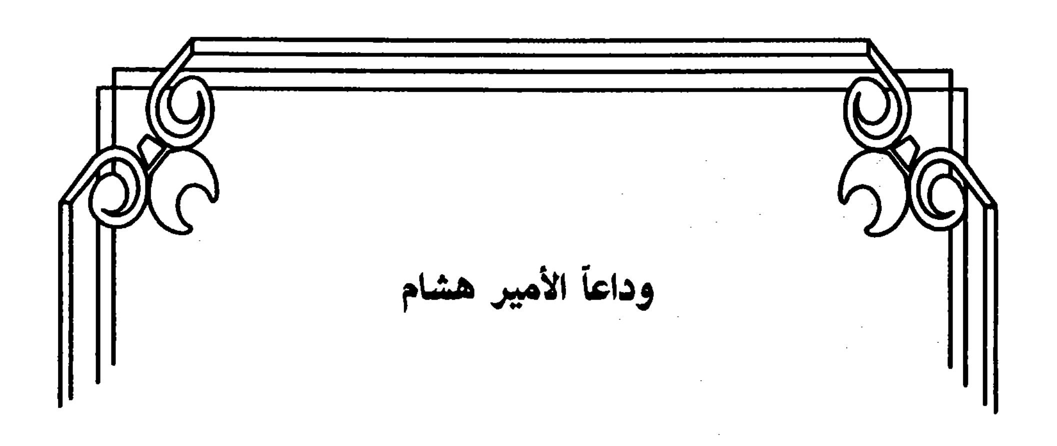
وأول من أدخل مذهب مالك بن أنس إلى الأندلس، هو أبو عبدالله زياد بن عبدالرحمٰن المعروف بشبطون، وكان قد رحل إلى المشرق بعد عام واحد من إمارة هشام، وذهب إلى المدينة، وأخذ العلم عن الإمام نفسه. وشبطون هذا هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس كاملاً[1]. وأخذ عنه الفقيه يحيى بن يحيى، وأشار إليه زياد أن يذهب إلى مالك ما دام حيّاً، ففعل، وذهب إلى مالك وسمع منه الموطأ، كما سمع بمصر من الليث بن سعد، وعبدالرحمٰن بن القاسم، وسمع بمكة من سفيان بن عيينة.

وعندما عاد يحيى بن يحيى الليثي إلى الأندلس، بذل جهده في نشر مذهب الإمام مالك، وتولّى الرئاسة في الفقه والقضاء، ونال مكانة سامية لدى الأمير، وأصبح إمام عصره[2].



(١) الديباج المذهب لابن فرحون المالكي ١/٣٧٠.

(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٢١٩.



وداعاً الأمير هشام

ظل هشام مجاهداً، ولم تمنعه العقيدة الخالصة لله من أن يختار خليفته من بعده، فأرسل الكتب إلى الولاة والوزراء، وحكام الولايات، وكتّابها، والحاجب، والقضاة، ورئيسهم، فاجتمعوا عنده، وأخذ البيعة لابنه الحكم، وكان ذلك في عام ١٧٩هـ/ ٧٩٥م، أي تمّ ذلك بعد وفاته بعام واحد، وكان عمر الحكم آنذاك اثنتين وعشرين عاماً.

وظلّ هشام يدرب ابنه الحَكم وولي عهده على أعمال الحرب والغزوات، فيوليه قيادة الجيوش ويدربه كذلك على الحُكم، فيوليه ولاية طليطلة، ولا يتوقف عن النصح له طيلة السنة التي عاشها بعد أخذ البيعة لابنه وولي عهده، ويزجي إليه من علمه وحكمته لكي يسوس البلاد، فكان يقول له:

«يا بُني، يجب ألاً تنسَ أن المُلك لله يعطيه لمن يشاء، ويأخذه ممن يشاء، وقد منحنا الله السلطة، ووضع في أيدينا صولجان المُلك برحمته الواسعة، فعلينا أن نقدّم له الحمد والشكر على نعمائه، وأن ننفذ إرادته بالمعاملة الطيبة لكل الناس، خاصة أولئك الذين يلجؤون إلينا طالبين حمايتنا. كن عادلاً سوياً مع الفقراء والأغنياء، ولا تترك للظلم سبيلاً إلى دولتك، فالظلم طريق الضياع، وكن في ذات الوقت رحيماً عطوفاً على من يعتمد عليك، فكلهم خلق الله».

ثم يوصيه ألاً يدع عقاب الوزراء والحكام الذين يميلون مع الهوى،

ولا يعدلون في شعبه، ويوصيه بأن يكون معهم حازماً قوياً، ويوصيه بكسب حب الشعب لأن في تعاطفهم أمان للدولة، وفي خوفهم يكمن الخطر، وفي كرههم يكمن الانهيار المحقَّق[1].

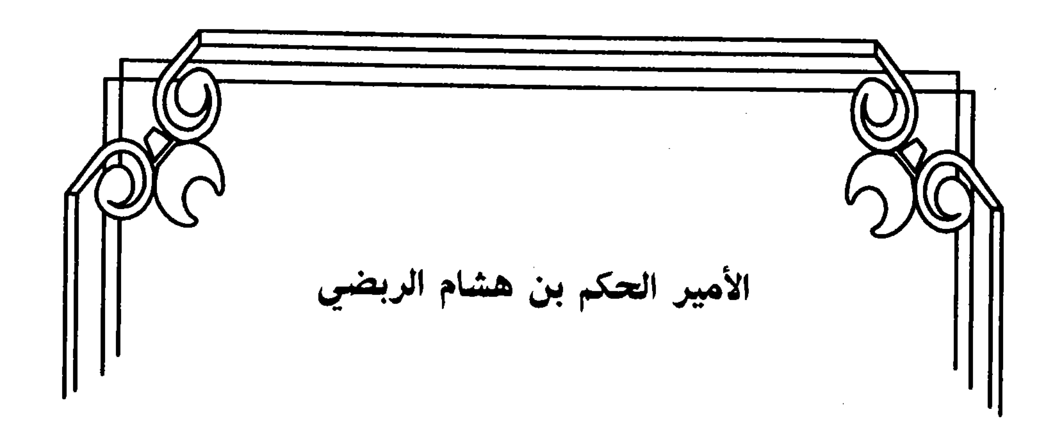
ويوصيه بالفلاّحين، لأنهم الذين يعملون ليوفروا قوت الشعب الضروري. وأخيراً يختم هشام نصائحه بقوله:

«وعلى الجملة، فاحكم بطريقة تجعل ألسنة شعبك تلهج بشكرك، وهم يعيشون سعداء في ظل حمايتك وعطفك، يجنون مباهج الحياة في ثقة وهدوء، ففي كل هذا يكون الحكم الصالح، فإذا استطعت تحقيق ذلك، كنت سعيداً، وجنيت الشهرة كأعظم أمير في العالم»[2].

وقد توفي الأمير هشام الداخل في عام ١٨٠هـ في شهر صفر، لسبع سنين وقيل لثمان من إمارته، رحم الله الأمير هشام، فقد مات وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر[3].



(١) الأمويون أمراء الأندلس ص٢٠٤.
(٢) المصدر السابق ص٢٠٥.
(٣) نفح الطيب ٣٣٨/١.



الأمير الحكم بن هشام الربضي

خلف هشاماً ولدهُ «الحكم» بعهدٍ منه، وبويع عقب وفاة أبيه بأيام قلائل في الثامن من صفر سنة ١٨٠هـ/ أبريل ٧٩٦م، وهو في السادسة والعشرين من عمره، وكان مولده بقرطبة سنة ١٠٤هـ/ ٧٧١م.

وهو الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية، كنيته أبو العاصي، وأمه أم ولد تُدعى زخرف[(١)].

صفته: كان آدمَ شديدَ الأدمة، طويل، أشم، نحيف، لم يخضب[(٢)]، وكان شجاعاً باسلاً أديباً مفتنّاً، خطيباً مفوهاً، وشاعراً مجوّداً، تُحذر صولاته، وتُستندر أبياته[(٣)]، وكان طاغيةً مسرفاً، وله آثار سوء قبيحة[(٤)].

وفي موضع آخر يقول المؤرخون: إنه كان طاغية، حازماً، شجاعاً، شديد الوطأة على خصومه والخارجين عليه، وكانت تحدوه مع ذلك نزعة إلى الإنصاف والعدالة[(٥)].

وهو أول من أظهر فخامة الملك بالأندلس، وأسرف في تأييد هيبته، وجدّد عهد أجداده بالمشرق ببذخه وروعته، واستكثر من المماليك والبطانة،

(١) البيان المغرب ٦٨/٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الحلة السيراء ٤٣/١.

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٤٤.

(٥) أخبار مجموعة ص١٢٥.

وكان ميّالاً إلى اللهو، مولعاً بالصيد، يؤثر مجالس الندماء والشعراء على مجالس الفقهاء والعلماء. وآنس الفقهاء تصدع مركزهم الذي سما وعلا في عهد أبيه هشام، وكانت سياسة الحكم ترمي إلى الحد من نفوذهم وإبعادهم عن التدخل في شؤون الدولة، وكانوا بالعكس يرمون إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش بواسطة جمهورية دينية، فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على أمانيهم، وثارت نفوسهم سخطاً على الأمير الفتى، وأخذوا يلوحون بسبِّه والتعريض به من فوق المنابر، ويوغرون عليه صدور العامة بالدس والوقيعة، ويسبغون على دعايتهم ثوب الوعظ والإرشاد، والحض على التمسك بأحكام الدين، وكان الحكم بإسرافه في مجالس اللهو والبذخ يسبغ على أقوالهم قوة، وكانت دعايتهم قوية بالأخص بين البربر والمولدين (مسلمي إسبانيا) إذ كان هؤلاء يبغضون العرب لكبريائهم واستئثارهم بالمناصب والنفوذ، وكانوا دائماً على أهبة الخروج والعصيان كلما سنحت الفرصة، وكان لتحريض الفقهاء وسعايتهم كما سنرى آثاراً بعيدة المدى[1].



معاركه مع أخوَيْه

كان للحكم شرطة منظمة وقوية وجيش قوي، وله عيون يخبرونه بأحوال الناس وأوضاعهم، وقد بدأ عهده بمحاربة بعض أقاربه الطامعين في الإمارة. فقد كان عمّاه سليمان وعبدالله منفيَّيْن في حياة أبيه. أما سليمان فقد كان يقيم بطنجة، في الوقت الذي كان فيه عبدالله يتجوّل في المغرب، وبينما هو يزور الإمام عبدالوهاب بن رستم في تاهرت، علم بموت أخيه هشام، وتولية ابن أخيه الحكم، فأسرع بالدخول إلى الأندلس لعله يسبق أخاه سليمان. ونزل بسرقسطة عند أحد الثائرين: بهلول بن مرزوق، ولكنه

(١) المعجب ص١١.

لم يجد هناك من يؤيده، ففكر في أن يذهب إلى شارلمان في (إكس لاشابل) وقابله هناك، وحثه على دخول الأندلس.

وفي سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م ثار أبو الحجاج بهلول بن مرزوق، فدخل سرقسطة، ومَلَكها، ودخلها عبدالله بن عبدالرحمٰن، ولكنه كان لا يريد الاتجاه إلى شارلمان[١].

هذه بداية الثورات ضد الحكم بن هشام الربضي.

وفي نفس السنة (١٨١هـ) ثار عبيدة بن حُميد في طليطلة، فوجّه إليه الحكم عمروس بن يوسف على رأس جيشٍ لمحاربته، واستعمل عمروس قائد جيش الحكم الحيلة والدهاء، فكاتب ناساً من أهل طليطلة، وأغراهم حتى مالوا إليه، وطلب منهم القيام على عبيدة، وطلب منهم قتله، ووعدهم جائزة جليلة من الأمير، فقاموا عليه، وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى عمروس بن يوسف.

وعلم بعض بربر طَلَبيرة، فدخلوا عليهم الدار وقتلوهم بدماء كانت بينهم، فبعث عمروس برأس عبيدة وتلك الرؤوس إلى الأمير الحكم، وبذل عمروس جهده حتى اطمأن إلى طليطلة، فلما دخل المدينة وتمكن منها بنى قصراً على باب الجسر، وأحكمه وأتقن أمره، ثم سعى في قتل رجال طليطلة توطيداً للمملكة.

فدعا عمروس أشراف رجال طليطلة إلى طعام أعدّه لهم، وأمر أن يدخل الناس من باب ويخرجوا من باب آخر، وجهّز رجالاً يقتلون كل من دخل من الباب، حتى قتل من أشرافهم سبعمائة[٢]، وأذعنت له.

ووجّه الأمير الحكم عبدالكريم بن عبدالواحد إلى دار الحرب، في جيش ضخم العدد والعُدَد، فاحتلّ عبدالكريم بالثغر، وأقبلت عليه الجيوش، ونزل شاطىء البحر، وقسم هذا الجيش الكثيف إلى ثلاثة أقسام، وجعل

(١) البيان المغرب ٢/٦٩.
(٢) البيان المغرب ٢/٦٩.

على كل قسم رئيساً، وأمر كلَّ رئيس قسم أن يغير على الجهة التي وُجِّهَ إليها، فتقدّموا، وأغاروا، واستباحوا، وانصرفوا غانمين.

ثـم عـادوا ثانيـة إلى الإغارة، وجاوزوا خلجاناً كانت تموج بالمد والجزر، وكان أهلها قد تحرّزوا بها، ونقلوا إليها المواشي والأموال والعيال، فأغاروا عليها، وأخذوا كل ما احتوت عليه وانصرفوا سالمين[1].

في سنة **١٨٢هـ/ ٧٩٨م**، أصاب قرطبة سيل جارف ذهب بربط قرطبة، وهدم ديارها.

في هذه السنة دخل سليمان بن عبدالرحمٰن الداخل إلى الأندلس، ومعه جيشه يريد أن يقاتل الحكم، وكان ذلك في شهر شوال، فانهزم سليمان بعد معارك عنيفة وحروب مريرة، وفيها عاد ومعه جيش، يريد الحكم، والتقى معه بـ (نجيطة) فانهزم سليمان.

ولكن سليمان عاود المحاولة ولم ييأس، واستطاع أن يحشد جيشاً كثيفاً من البربر، وانضم إليه أخوه عبدالله، واتفقا على أن يذهب عبدالله إلى شارلمان في عاصمته (إكس لاشابل) وهي مدينة آخن الألمانية، وحثه على مهاجمة الأندلس، فأكرمه شارلمان، واستجاب لدعوته. وعاد عبدالله من عند شارلمان ليستولي على حصن وشقة، ولكنه فوجىء بمرزوق بن بهلول يُخرجه من سرقسطة، فاتجه إلى ڤالنسيا. وفي هذه الأثناء كان سليمان قد أعدَّ جيشاً ضخماً واتجه به إلى قرطبة، فالتقى مع جند الحكم مرتين متواليتين، وانهزم فيهما سليمان بعد قتال مرير، واضطر سليمان إلى الفرار، ولكن الحكم لم يمهله هذه المرة، فأرسل وراءه أصبغ بن عبدالله، فأدركه في جهة ماردة، وأخذه أسيراً وأتى به إلى الحكم، فأمر بقتله، وبعث برأسه إلى قرطبة، فطيف بها على رأس رمح، وأخيراً أمر الحكم بدفنه في المقابر الملكية بقرطبة، وذلك سنة **١٨٤هـ/ ٨٠٠م**[2].

---

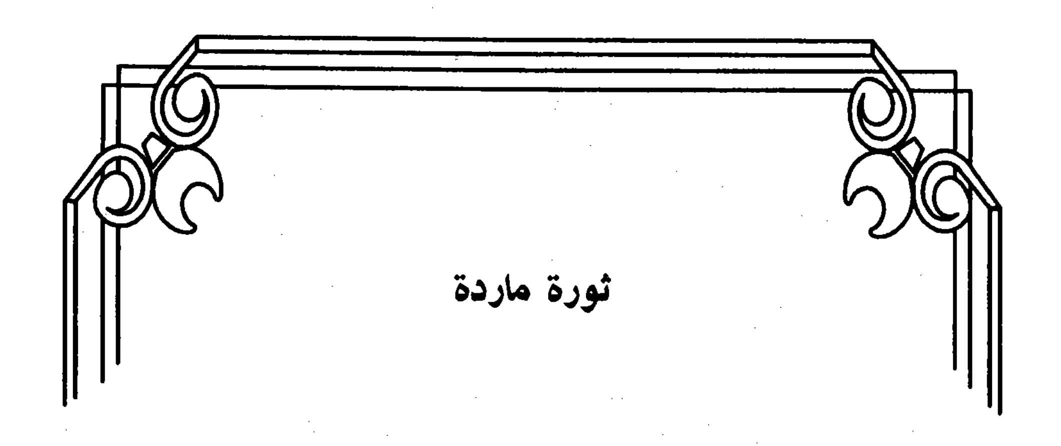
(١) الأمويون أمراء الأندلس ـ إبراهيم الشعراوي ص٢٣٠/ ت ابن خلدون جـ٤ ص١٦١.
(٢) البيان المغرب ٧١/٢.

أما عمه عبدالله فقد لجأ إلى بلنسية، وأقام بها مستقلاً عن قرطبة. وفي سنة **١٨٦هـ/ ٨٠٢م** أرسل له ابن أخيه الحكم أماناً، وكانت هذه أول مكاتبة بين الحكم وعمه بعد أن نزل بلنسية في سنة **١٨٧هـ/ ٨٠٣م** صالح الحكم عمَّه على أن يجري عليه رزقاً هو ألف دينار كل شهر، وإجراء المعارف وذلك ألف دينار كل عام.

وخرج إليه بهذا الصلح الفقيه يحيى بن يحيى الليثي، وابن أبي عامر، فعقدا معه الصلح على ذلك، على أن يظل ببلنسية، حتى سمي عبدالله البلنسي. وقدم يحيى وابن أبي عامر بولد عبدالله على الحكم فزوّجه أخت شقيقته[١]. ويقال: إن الصلح الذي وقع بين الحكم وعمه عبدالله، كان برداً وسلاماً على بلنسية، فازداد عمرانها، وكثر سكانها، وبنيت العديد من السدود والقنوات، وجرى توزيع المياه على الأرض، فعمَّ الخير والرخاء[٢].



(١) الأمويون أمراء الأندلس ص٢٣٠.
(٢) البيان المغرب ٢/٧٢.



ثورة ماردة

«أصبغ بن عبدالله بن واسوس»، كان زعيماً من زعماء البربر، وكان في طاعة الأمير الحكم بن هشام، وهو الذي أرسله إلى عمه سليمان فأتى به.

وقد دخل بين الحكم وأصبغ شيطان من شياطين الإنس، وشى به عند الحكم، ثم مشى إلى أصبغ وأبلغه أن الحكم يريد بك شرّاً، فتوقع أصبغ العقوبة والغدر به، فثار من أجل هذا ولزم ماردة التي كانت مركز تجمع للبربر، وظل الحكم يتردد على المدينة مهاجماً وهي صامدة لسبع سنين متوالية، إلى أن أُخمدت الثورة في العام السابع، حيث طلب أصبغ الأمان فأُمِّن[1]. وقد انصرف عنه أنصاره. وكان جند الحكم قد أشرفوا على دخول المدينة، ورأى الحكم جنده قد تعلقوا بشرفات السور، وضعف أهل ماردة في الدفاع عنها، وسمع الحكم صراخ الأطفال وعويل النساء، فأمر بالتوقف عنهم، ودعا وزراءه وقادة جيشه وقال لهم:

«قد علمتم ما كان من تغلُّب جيشنا ورجالنا من هؤلاء الظلمة لأنفسهم، ولم يكن رفعنا لِما رفعناه عنهم إلاّ رغبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيهم، وتخوفاً من قتل ولدانهم وأطفالهم ومَن لا ذنب لهم ممن استكره على نفسه منهم، ونحن نرى استجلاب النصر من حيث عوّدنا الله، وعرفنا من العفو

(١) الأمراء الأمويون ص٢٣٢.

والصفح، وقد عزمت على الانتقال عنهم. فإن أبصروا قدر يدنا في الإبقاء عليهم، ومراقبة الله فيهم، وإلاّ كان الله من ورائهم محيطاً، وعلى الانتقام قديراً، فهو الذي أيّدنا وقهرهم، ونصرنا وكبتهم»[1].

فلم يلبث أن جاءته رسلهم بطاعته والإلقاء بأيديهم، ثم أمن الحكم أصبغ الذي فارق ماردة، وحضر عنده، وأقام في قرطبة.

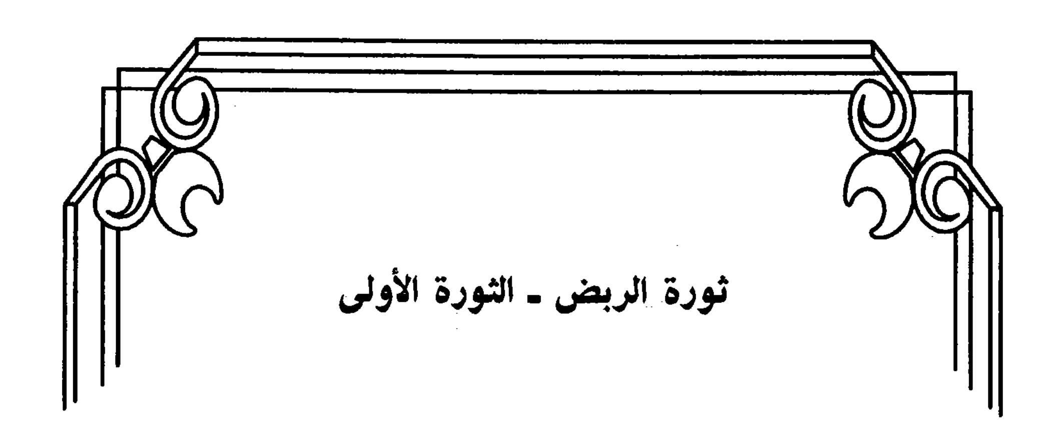
وثارت المدينة مرة أخرى بقيادة مروان بن يوسف الجليقي، ولكنها كانت ثورة ضيقة حيث أُخمدت على الفور.

وفي سنة **٢٠٠هـ/٨١٥م** ثار أحد البربر بناحية مورور، ولما وصل الخبر إلى الحكم تصرّف بهدوء ودهاء، فأخفى الخبر ولم يبح به لأحد، واستدعى أحد قادته المخضرمين، وأمره بأن يذهب إلى هذا الثائر البربري فيأتيه برأسه وقال له: «وأتني برأسه وإلاّ رأسك عوضك، وأنا قاعد في مكاني هذا إلى أن تعود» فانطلق القائد إلى مورور، وأخذ يسأل عن الثائر في حذر شديد، فلما عرف مكانه استعمل الحيلة والدهاء حتى دخل على الثائر وقتله، وأتى برأسه وأحضره إلى الحكم، فقرّبه الحكم وأعلى منزلته[2].



(١) المصدر السابق ص٢٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.



ثورة الربض ـ الثورة الأولى

أظهر الحكم فخامة الملك، وأسرف في تأييد هيبته، وجدّد عهد أجداده بالمشرق ببذخه وروعته، واستكثر من المماليك والبطانة، وكان ميّالاً إلى اللهو، مولعاً بالصيد، يؤثر مجالس الندماء والشعراء على مجالس الفقهاء والعلماء. وقد ثار أهل الربض مرتين، المرة الأولى كانت في سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م، وذلك لأن الحكم انغمس في لهوه وملذاته، فاجتمع جماعة العلماء والفقهاء وأهل الصلاح والتقوى، وأرادوا الخروج عليه، واختاروا علي محمد بن القاسم رئيساً عليهم، وأطلعوه على أمرهم، وطلبوا منه القيام معهم، ولكن محمد بن القاسم أفشى سرهم، وتقرّب إلى الحكم بدمائهم، فتثبّت الأمير الحكم بن هشام من أمرهم وسأل محمد بن القاسم: هل صحيح ما سمع؟ فقال له محمد: هات أُمناءك.

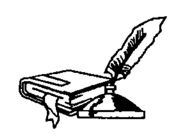
وأخفاهم عنده، ثم قال لمن كلّموه في الموضوع: هذا الذي تدعونني إليه لا أثق بمن سميتم دون أن أسمع منهم كما سمعت منكم، فتطيب نفسي، وأدخل الأمر على قوة وبصيرة.

فأتوه، وسمع منهم ـ والأُمناء بحيث يرون ويسمعون ـ فلما صحّ عند الحكم أمرهم بشهادة الأمناء عليهم، أخذهم وصلبهم جميعاً، ثم رمّم وأصلح سور قرطبة وحفر خندقها.

وكان ممن صُلب أبو كعب بن عبدالبر، ويحيى بن مضر، ومسرور

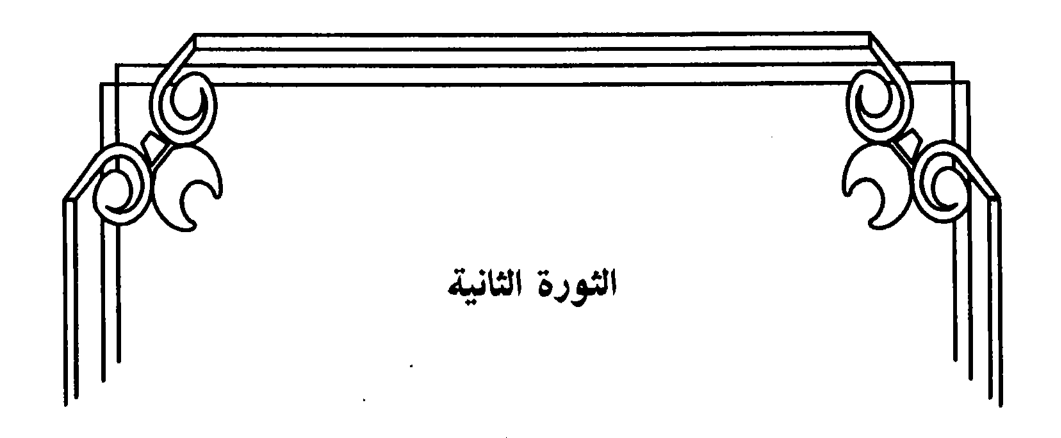
الخادم، وكان مجموع من صُلب منهم اثنين وسبعين رجلاً، ومنهم موسى بن سالم الخولاني وولده وغيرهم[1].

كان لهذا ردُّ فعل سلبي من أهل الربض بقرطبة ضدَّ الحكم، فتبّرموا من أعماله، وضجُّوا من أفعاله، وبلغ من تبرُّمهم منه ومن أفعاله أنهم كانوا ينادونه ليلاً من أعالي الصوامع (الصلاة الصلاة يا مخمور) وقد امتلأ الجو بالسخط والغضب وخاصة بعد مقتل الثوار[2].



(١) د. عبدالعزيز سالم ـ من تاريخ المسلمين وآثارهم ص٢٢١.

(٢) المصدر السابق ص٢٢٣.



الثورة الثانية

كانت الثورة الثانية والتي كانت في ١٣ رمضان ٢٠٢هـ/ ٢٥ مارس ٨١٨م وسببها كما يقول المراكشي في المعجب: «كان ذلك أشراً وبطراً، وملالاً للعَافية، وطبعاً جافياً، وسعياً في هلاك أنفسهم»[١].

ويذكر المراكشي سبباً آخر فيقول مقالة تدل على أن السبب بسيط لا يستدعي قيام مثل هذه الفتنة، يقول المراكشي ما يفيد: قتل أحد مماليك الأمير غلاماً، فغلت مراجل غضبهم، وانفجرت براكين حقدهم على الأمير، وتجمعوا على مملوكه فقتلوه، وخرجوا يهتفون بخلع الأمير الحكم بن هشام، وأول من شهر السلاح ضده، أهل الربض القبلي بعدوة النهر، ثم ثار أهل المدينة والأرباض وتحصّن الأمويون في القصر.

واختار الحكم قائدين لهما خبرة في القتال وهما: عبيدالله ابن عمه عبدالله البلنسي، وأسند إليه اختراق صفوف العدو بالحيل، وإشعال النار في بيوتهم، أما الثاني فهو إسحاق بن المنذر القرشي، وأسند إليه مهمة مساعدة عبيدالله، واستدعى الحكم عبدالكريم بن مغيث، وفطيس بن سليمان، ووكل إليهما مهمة الدفاع عن القصر، وتجلّد الحكم بن هشام وأبدى شجاعة عظيمة، إذ دعا خادمه (يزنت) وطلب منه أن يذهب إلى إحدى كرائمه ويطلب منها قارورة الغالية، فأبطأ الغلام وتلكأ، فأعاد ذلك عليه، فقال: يا مولاي، هذا وقت الغالية؟

---

(١) المعجب في تلخيص أهل المغرب للمراكشي ص٤٥.

فقال الحكم: ويلك يا ابن الفاعلة، بمَ يُعرف رأسي إذا قُطع من رؤوس العامة، إن لم يكن مضمخاً بالغالية[1]؟!.

واستعدّ للحرب، وأمر بتفريق السلاح والخيل على أجناده، وأنهضهم لقتال من جاش به بعد أن كتّب كتائب قوّد عليها كباراً من قواده وأهل بيته، فانهزمت العامة بعد قتال شديد، ولم تكن لأحد منهم كرَّة، وكانوا كالدبا كثرة[2]. وخرج عبيدالله المعروف بصاحب الصوائف، وإسحاق بن المنذر القرشي، ومعهما بعض الفرسان، والتقوا مع العامة، وقاتلوهم حتى أدخلوهم الجسر، وفتح باب المدينة عند الجسر، ثم اقتحموا الزقاق الكبير، وخرجوا على الرملة إلى مخاضة هناك، واجتازوا النهر، واجتمع عليهم الجنود من كل ناحية، وأقبل بعضهم من وراء الربض وأخذوا يطرحون النار في البيوت، ودسوا من أخبر العامة بذلك.

فوقع الوهن في نفوسهم، ماذا حدث لأموالهم ونسائهم وذراريهم، فانخلعت قلوبهم، وانصرفوا راجعين إلى بيوتهم، فأخذتهم السيوف من أمامهم ومن خلفهم، فقتلوا قتلاً ذريعاً[3].

وتبعهم الجنود في الأزقة، وفروا دون أن يلووا على أهل ولا ولد، وأخذ الحكم منهم ثلاثين رجلاً فصلبوا على الوادي صفاً واحداً من المرج إلى المصارة[4]، وفي اليوم التالي لصلبهم أمر الحكم بهدم الربض القبلي ودكه حتى صار مزرعة، وأتى على دور الثوار داراً داراً فهدمها وأحرقها، وهدم المساجد، وبعد ثلاثة أيام رفع الحكم عنهم القتل، وأمر بالأمان على ألاَّ يبقى معه في قرطبة أو ما جاورها أحد منهم.

فذهب بعضهم إلى المغرب، وكان إدريس بن إدريس بن عبدالله بن

---

(١) الحلة السيراء ص٤٦.
(٢) المرجع السابق.
(٣) البيان المغرب ٢/٧٧.
(٤) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٢٢٣.

الحسن قد أسّس مدينة فاس، وهو يبحث لها عن سكان، فأنزلهم فيها، وسمّى الحي الذي نزلوا فيه بحي الأندلسيين.

وركب بعضهم البحر متجهين إلى الإسكندرية، فنزلوا فيها واحتلوها، فلما كان عهد المأمون بن الرشيد، ولّى قائده عبدالله بن طاهر ولاية مصر، فذهب إلى الإسكندرية وحاصرها مدة عشرة أيام، فاضطر الربض إلى مصالحته، وغادروا المدينة، ونزلوا جزيرة كريت حيث أقاموا دولة دامت نحو **١٣٥** سنة، ونشروا فيها الإسلام وأسسوا المدن، وأنشؤوا قاعدة لحكمهم، هي مدينة الخندق التي سميت فيما بعد باسم «قندية»[١].

ويقول الدكتور عنان عن هؤلاء: «كانت سياسة الحكم بن هشام ترمي إلى الحدّ من نفوذهم، وإبعادهم عن التدخل في شؤون الدولة، وكانوا بالعكس يرمون إلى انتزاع السلطة السياسية ليحكموا الأمة من وراء العرش بواسطة جمهورية دينية، فجاءت سياسة الحكم ضربة قاضية على أمانيهم، وثارت نفوسهم سخطاً على الأمير الفتى»[٢].

وكان الحكم قد عزم على تتبعهم في بلاد الأندلس، وقتلهم حيث كانوا، فذكّره بعض إخوانه بصنع الله له فيهم، فكفّ الحكم عما ينوي، وخرج الثوار من الأندلس بأهليهم وأموالهم وأولادهم، ولم يتعرض الحكم ولا أحد أتباعه لهم، وعفّ الحكم عن الأموال والمحرمات، وتفرّق أهل الربض في جميع أنحاء الأندلس...

وقد ذكر أنه لم يخرج منهم طائفة بناحية من النواحي إلاّ غلبوا عليها، واستوطنوها على قهر أهلها، وأكثر من هرب من أهل العلم والخير ممن اتهم أو خاف على نفسه إلى ناحية طليطلة، ثم أمنهم الحكم بن هشام، وكتب لهم أماناً على الأنفس والأموال، وأباح لهم التفسُّح في البلدان حيثما أحبوا من أقطار مملكته، حاشا قرطبة أو ما قرب منها[٣].

---

(١) المصدر السابق ص٢٢٤.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس ع١ ق١ ص٢٣٠.

(٣) البيان المغرب ص٧٧.

هكذا كانت ثورة «الربض» التي كادت أن تحمل الحكم والعرش، وكانت ثورة شعبية بمعنى الكلمة، ولكنها كانت دون تنظيم ودون زعامة، وقد أدرك الحكم خطورتها، ولم تأخذه في إخمادها هوادة ولا رأفة، وأصدر عقب إخمادها كتاباً إلى الكور يشرح فيه الواقعة وظروفها، وقد جاء في هذه الوثيقة ما يلي: «بسم الله الرحمٰن الرحيم؛ أما بعد فإن الله ذو الفضل والمنن، والطول والعدل، إذا أراد إتمام أمر وتهمية، لمن جعل أهله وكفية، سدده وأعزه، وأنفذ قضاءه بفلجه، ولم يجعل لأحد من خلفه قوة على عناده ودفاعه، حتى يمضي فيه حكمه له وعليه كما تشاء، وختم في أُم الكتاب لا مبدل لكلماته عزَّ وجلَّ، وإنه لما كان يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان، تداعى فسقة أهل قرطبة وسفلتهم وأذبتهم من الشرطانيين، ألد الفئة، المعلوجي شراً وبطراً، عن غير مكروه وسيرة، ولا قبيح أثر، ولا نكر حادثة، كان منافيهم، فأظهروا السلاح، وتليّنوا للكفاح، وهتفوا بالخلعان، وتأنقوا بالخلاف، ومدوا عنقاً ما لم يجعله الله له أهلاً من التأمير على خلقه، والتسور في حكمه، فلما رأيت ذلك مِن غدرهم وعدوانهم، أمرت بشد جدار المدينة، فشد بالرجال والأسلحة، ثم أنهضت الأجناد خيلاً ورجالاً إلى من تداعى من الفسقة في أرباضها، فأقحموا الخيل في شوارعهم وأزقتهم، وأخذوا بفوهاتها عليهم، ثم صدقوا الحملات، وكورهم بالسدَّات المتواليات، فما صبر العبدان أن كشفوا السوءات، ومنحوا أكتافهم المتواليات، وأمكن الله منهم ذوي البصائر المؤيدات، فأسلمهم الله بجريرتهم، وصدعهم ببغيهم، وأخذهم بنكبتهم، فقتلوا تقتيلاً، وعروا تشويهاً وتمثيلاً، جزاءً عاجلاً على الذي نكثوه من بيعتنا، ودفعوه من طاعتنا، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد تنكيلاً، فلما قتلهم الله بجرمهم فيها، وأحسن العون عليهم لنا، أمسكتُ عن نهب الأموال، وسبي الذرية والعيال، وعن قتل مَن لا ذنب له من أهل البراءة والاعتزال، ازدلافاً إلى رِضى الله ناصري عليهم ذي العزة والجلال، تهنأت صلحه وفلحه، واستودعت حمده وشكره، فاحمدوا الله ذا الآلاء والقمع، معشر الأولياء

والرعية، الذي أتاح لنا ولجميع المسلمين قتلهم وإذلالهم، وقمعهم وإهلاكهم، مما أعظم به علينا المنّة، وخصّنا فيه بالكفاية، وتمّم علينا وعليكم به النعمة، فقد كانوا أهل جرأة مقدم، وذعرة ضلالة، واستخفاف بالأئمة، وظهير إلى المشركين، وحطوط إليهم، وتحنُّن لدولتهم، فللّه الحمد المكرور، والاعتراف المذخور، على قطع دابرهم، وحسم شرهم، أحببت إعلامك بالذي كان من صنع الله عليهم لولائك بنا، ومكانك منّا، لمشاركتنا في نصرته، وتحمد الله ومن قبلك من شيعتنا ومعتقدي طاعتنا على جميل صنعه فيه، وتشيعوا شكره عليه إن شاء الله»[١].

وقد نظم الحكم شعراً في واقعة الربض فقال:

رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعاً	وقدماً لأمْتُ الشعب مذ كنت يافعاً
فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة	أبادرها مستنضي السيف وارعاً
تنبيك أني لم أكن في قراعهم	بوان وقد ما كنت بالسيف قارعاً
وهل زدت أن ونيتهم صاع قرضهم	فوافوا منايا قدرت ومصارعاً
فهذي بلادي إنني قد تركتها	مهاداً ولم أترك عليها منازعاً
وإني إذ أجاور أجراعاً عن الردى	فما كنت ذا جيد عن الموت جارعاً

وبرغم أن الحكم استطاع سحق ثورة الربض وخرج منتصراً، إلاّ أن أهل قرطبة ظلوا على تحديهم له، يتغامزون عليه ويقدحون في سيرته، فقال أحد معاصريه: «فأكثروا الخوض، وأطالوا الهمهمة، وفزع رؤوسهم إلى السمر في مساجدهم بالليل، مستخفين من السلطان، مدبرين عليه، وقد كان خائفاً من ثورتهم، متهمماً لدخلتهم، حذراً منهم، مستعداً لهم، مرتقباً لوثنيتهم، مرتبطاً الخيل على باب قصره، نوباً بين غلمانه..».

ثم استكثر من العبيد والسلاح، وعزّزهم بالأحرار، يرابطون دائماً حول القصر، واستشعر الناس من ذلك الهيبة والخوف، وركنوا إلى

(١) دولة الإسلام، د. عنان ق١ ع١ ص٢٤٦.

السكينة، وفرض الحكم بن هشام العشور على جميع الناس بقرطبة وبالكور، فزاد في نفورهم منه وبغضهم له[1].

وكان لحوادث الربض آثار عظيمة، فقد سكن الشعب، من هول ما كان من أحداث والشعور بالملل من الفتن، فأنشد أحد الشعراء الناقمين على طغيان الحكم قصيدة طويلة جاء فيها:

يا أهل قرطبة الذين تواكلوا ... جد الدفاع من التواكل أفضل
جد الدفاع لو أنكم واقعتم ... يوم الهياج لكم أعز وأجمل
إن التواكل وهنة ومذلة ... والجد فيه الصنع المتمهل
صرتم أحاديث العباد وكنتم ... عوناً لهم في كل هم ينزل
أمسى عبيدكم الذين ملكتم ... ملكوا عليكم والأمور تحول

وبرغم الصفات والخلال الباهرة التي كان يتمتع بها الحكم، لم تكن صفات وخلال قاتمة مما يتمثل به الطغاة الأقوياء من بطش وسفك للدماء.

وهذا ما ذكره ابن حزم الأندلسي من أنَّ الحكم بن هشام كان من المجاهرين بالمعاصي السفاكين للدماء.

ويضيف ابن حزم الأندلسي على ذلك أن الحكم كان يخصي كل من اشتهر بالجمال من أبناء رعيته قبل أن يدخلهم قصره ويصيرهم في خدمة هذا القصر.

ومن هؤلاء الذين خُصُوا: طرفة بن لقيط، وطرفة هذا من أسرة نابهة ذكية تصرف أبناؤها في الولايات الرفيعة، والمناصب الكبرى.

ومن هؤلاء: نصر صاحب منية نصر، وهو الذي غدا في عهد ولده عبدالرحمٰن بن الحكم بن هشام أحد رجالات الدولة مكانة ونفوذاً وقوة تأثير على من حوله[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) نفح الطيب جـ١ ص١٦٠.

وقد سمي الحكم بالحكم الربضي، نسبة إلى ما حدث في وقائع وحوادث الربض المثيرة.

ويقول الدكتور حسين مؤنس عن نتائج ثورَتْي الربض الأولى والثانية:

«ويعجب مؤرخونا بما أبدى الحكم من ثبات في ذلك اليوم، ولكننا نرى أن ذلك كان جمود قلب وبلادة إحساس فيه، فهؤلاء الثائرون لم يكونوا طامعين في مُلكه، بل كانوا يطلبون العدالة، وقد تصرف معهم الحكم تصرفاً خسيساً إذ أطلق جنده على بيوتهم فأشعلوا فيها النيران، وعرَّضوا أولادهم وحريمهم للموت، فارتدَّ الناس لإنقاذ أبنائهم، فحصدهم الجند حصداً، وانتهى اليوم بانتصار الحكم. ولكن عواقب ذلك الانتصار كانت وخيمة جداً على مصير الأندلس، فإن الحكم أصدر أمره بطرد أهل الربض الجنوبي من الأندلس، وكانوا ألوفاً من أفضل الناس وأكثرهم شهامة، وقد قاموا بأعمال تشهد بقوتهم في كل ناحية وصلوا فيها بعد طردهم، وقد هاجر كثير منهم إلى الشمال واستقروا في أقاليم طُليطلة وشمال غرب الأندلس، وكانوا بعد ذلك من خيرة عناصره السكانية، وذهب بعضهم الآخر إلى المغرب وأنشؤوا عدوة الأندلسيين في فاس»[1].

ومن جانب آخر يورد المؤرخون والذين انتقدوا الحكم قصة رواها المراكشي في المعجب[2] بقصد الدفاع عن الحكم وإيجاد تبرير لسلوكه، تقول القصة: إن طالوت بن عبدالجبار المعافري، الذي كان جليل القدر بين العلماء والفقهاء، لأنه رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس، وتفقه على أصحابه، وكان قوياً في دينه، فلما أوقع الحكم بأهل الربض، أمر بتغريب من بقي منهم، وكان ممن أمر بتغريبه طالوت هذا، فشقّ عليه الاغتراب، وثقل عليه مفارقة الوطن، ورأى أن يختفي حتى تتغير الأحوال، فاستخفى في دار

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس ص٣٢٠، ٣٢١ ط مكتبة الأسرة مصر ٢٠٠٤.

(٢) المعجب ص٤٥.

رجل يهودي سنة كاملة، واليهودي يكرمه، ويبالغ في إكرامه.

طال على طالوت الاختفاء، فشكر اليهودي على إحسانه إليه، وطلب منه أن يخرجه إلى دار فلان الكاتب، وأخبره أنه قرأ عليه، وله عليه حق التعليم، قال: وقد بلغني أنه يستطيع أن يشفع لي عنده، فيؤمنني، ويتركني في بلدي.

فقال له اليهودي: يا مولاي لا تفعل، فما آمنهم عليك. قال: ولو أقمت عندي بقية عمرك ما مللتُ ذلك. فأبى إلاَّ الخروج، فخلّى بينه وبين ذلك. فخرج حتى أتى الكاتب، فلما دخل عليه رحّب به وأدنى مجلسه، وسأله: أين كنت في هذه المدة؟

فقصّ عليه قصته مع اليهودي، ثم قال له: اشفع لي عند هذا الرجل، حتى يؤمنني في نفسي، ويمن عليَّ بتركي في بلدي. فوعده بذلك.

فركب من فوره، ودخل على الحكم، فقال له كل ما سمع من طالوت، ووشى به إليه، فأحضره الحكم إليه، فعنّفه ووبّخه، فقال له طالوت: كيف يحل لي أن أخرج عليك، وقد سمعت مالكاً بن أنس يقول: (سلطان جائر مدة خير من فتنة ساعة؟).

قال الحكم: آلله ـ تعالى ـ لقد سمعت هذا من مالك؟

قال طالوت: اللهم إني قد سمعته.

قال الحكم: فانصرف إلى منزلك، وأنت آمن.

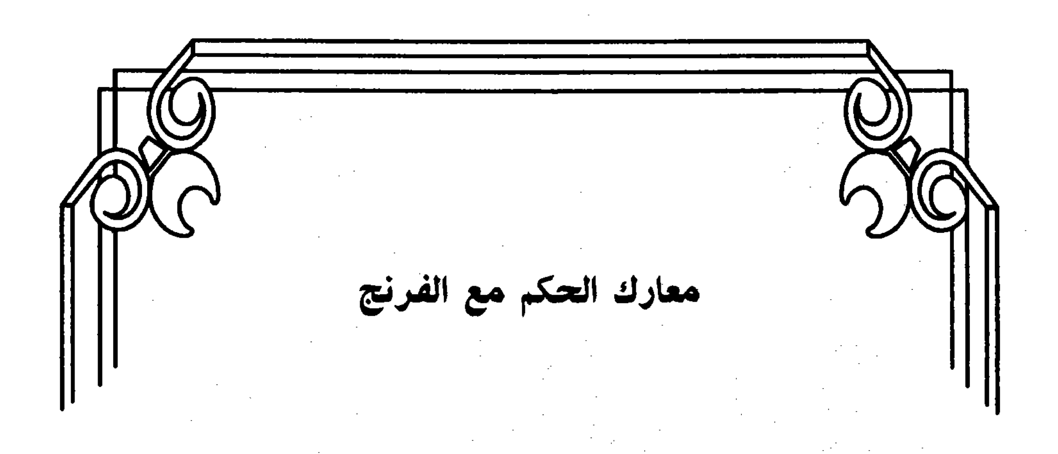
ثم سأله: أين استتر؟

فقال: عند يهودي من مدة عام، ثم قصدت هذا الوزير فغدر بي، فغضب الحكم على الوزير ابن البسام، وعزله عن الوزارة، وكتب عهداً ألاّ يخدمه أبداً.

فرؤي أبو البسام بعد ذلك في فاقة وذل، فقيل: استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت ـ رحمه الله ـ[1].

---

(١) المعجم ص٤٥.



معارك الحكم مع الفرنج

كانت الإمارة الإسلامية في الأندلس مصدر قلق للفرنج، فقد كانوا يخشون أن توطد نفوذها، وتنمو قوتها، ويسير التيار الإسلامي في اتجاه غاليسيا، وقد حاول شارلمان أن ينقض على الدولة الإسلامية من أول عهدها، في زمن عبدالرحمٰن الداخل، ولكنه لم يجد من يناصره أو يأويه، فباء بالفشل، ونكب في ممرات الرونسڤال ـ في معركة شيزروا ـ وهو يحاول أن يعبر جبال البرانس كما قدّمنا.

ولكن المسلمين عبروا تلك المنطقة في عهد الأمير هشام الرضا، وتوغلوا فيها، وغزا منطقة سبتمانيا، فتجدّدت مخاوف الفرنج، وأسرعوا إلى وضع الخطط لتأمين الحدود الجنوبية.

وكانت هناك اتصالات سياسية بين الفرنج والدولة العباسية مُنْذُ عهد الملك شارلمان، ولكن بُعد الإمارة الأموية عن مقر الخلافة العباسية في بغداد بآلاف الأميال، جعلها لا تخشى منها شيئاً، ولا يخطر لها على بال أن تتعرض للخلافة بأي مشكلة تتوقعها في حيرة من أمرها، وهي التي تجنّب حكامها أن يطلقوا على أنفسهم لقب الخلافة حتى لا تتعدد الخلافة، ويتشتت المسلمون، لمن يدينون بالولاء؟ قيل: إنه كانت هناك سفارات غير رسمية زعم أنه أرسلها هارون الرشيد إلى شارلمان، ويذكر أن في هذه السفارات هدايا أرسلها الرشيد لشارلمان منها خيل، ومنها الساعة الدقّاقة، ولكن لم يصل الأمر إلى حد تحالف الرشيد مع شارلمان، لِما هو معروف

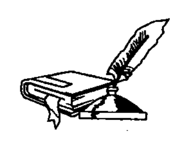
عن خلق الرشيد، وشهامته[1].

قامت حكومة شارلمان بالتدخل في أمور الأندلس بعد تولي الحكم بن هشام، حين ثار عمَّاهُ سليمان وعبدالله كما ذكرنا، ولكن شارلمان لم يَجْنِ من وراء ذلك ثمرة تذكر، أو نتيجة يعتد بها، كان هدفه تأمين جنوب فرنسا من غزو المسلمين، وذلك بإنشاء ولاية فرنجية في إسبانيا الشمالية الشرقية، مما يلي جبال البرانس، حتى تكون سدّاً منيعاً بين الغزاة وبين مملكة الفرنج.

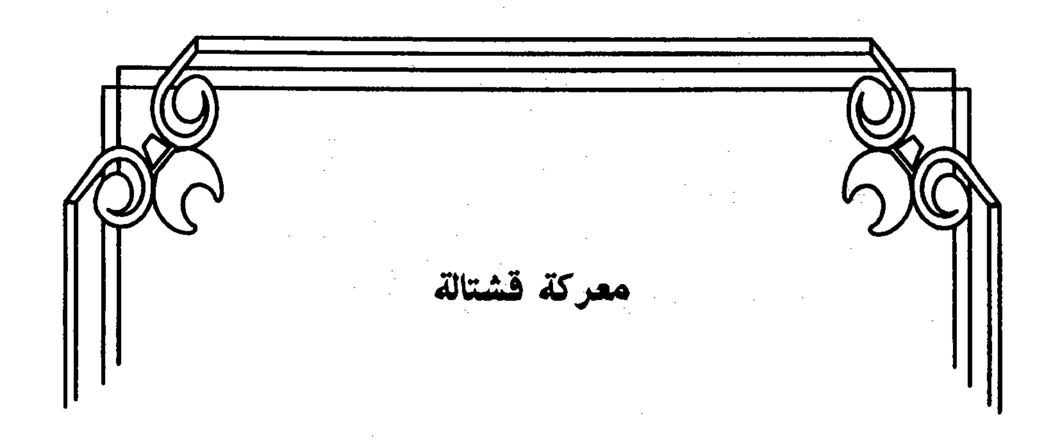
فأقام مدينة جيرونة وأوزونة مما اقتطع الفرنج من الأراضي الإسبانية المسلمة، وعاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى، وشغلت حكومة قرطبة بالثورات الداخلية، ودفع الفرنج غزواتهم نحو الجنوب.

وكانت من أطماع شارلمان أن يفتح ثغر برشلونة ليكون خط دفاع عن أملاكه الجنوبية، وعقد شارلمان محالفة بينه وبين الملك ألفونسو الثاني أمير غاليسيا عام **١٨٢هـ/ ٧٩٨م**. وتتوالى الأحداث، ويجتمع شارلمان في احتلال مدينة برشلونة. واستطاع أن يقي بلاده من شر الغزو الإسلامي المتلاحق.

لكن المسلمين كانوا لا يتركون حدودهم مع الفرنج هادئة أبداً، وجاء الحكم بن هشام إلي بهذا التوجه.



(١) انظر معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس ٢٧٤.



معركة قشتالة

ما إن اعتلى الحَكَم عرش الحُكْم، حتى وجّه الصائفة الأُولى إلى مملكة قشتالة في ألبة والقلاع عام ١٨٠هـ/ ٧٩٦م وكان يريد بذلك أن تستمر السياسة التي وضعها آباؤه ضدّ الممالك المسيحية حتى يكتب له أجر الجهاد في سبيل الله، فجهز قائده ورئيس وزرائه عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث لغزو تلك الناحية. فاتجه إلى ألبة والقلاع، واحتل عبدالكريم إحدى القلاع الواقعة على نهر إبرو، وتوافدت إليه الجيوش من كل مكان، فاحتل شاطىء البحر، وقسم جيشه ثلاثة أقسام، وجعل على كل قسم قائداً كفؤاً، وأمر كل قائد أن يغير على الناحية التي قصدها، فهجموا على تلك المناطق، واستباحوها، وعادوا ظافرين، ثم عادوا ثانية إلى الإغارة، وجاوزوا الخلجان التي كانت بين مد وجزر، وقد تحصن فيها أهلها، ونقلوا إليها المواشي والأموال والعيال، فأغاروا عليها، وأخذوا كل ما كان فيها، وعادوا محمَّلين بالغنائم والسبي(١).

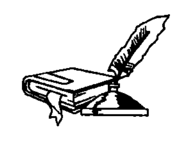
ولكن الأحداث كانت تترى سريعة، فلم يكد الحكم بن هشام يقعد على عرش أبيه، حتى ثارت الفتن واضطربت الأُمور، واضطر الحكم إلى أن يوقف الجهاد فترة ليتفرغ لتلك الثورات الداخلية، وكان الثغر الأعلى هو المركز الذي تركزت فيه تلك الفتن.

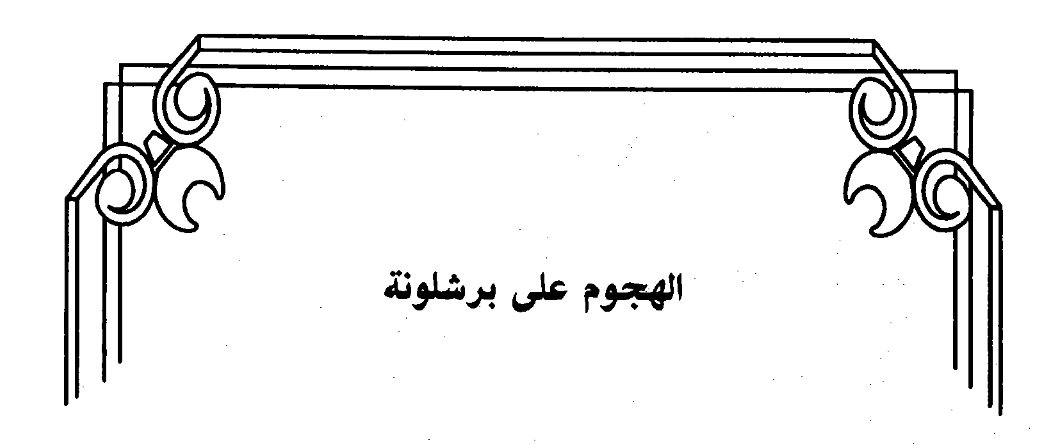
---

(١) البيان المغرب ٦٩/٢.

وكان شارلمان متربصاً بالإمارة الأموية، فلما ذهب إليه عبدالله بن عبدالرحمٰن عم الحكم بن هشام، سيَّرَ على الفور جيشاً بقيادة ابنه لويس أمير إكتانيا، فعبر لويس جبال البرانس، واستولى على مدينة جيرونة، وتوغل في ولاية الثغر.

عندئذ بادر الحكم بالسير شمالاً ليرد هذا الخطر، وقد حاصر المسيحيون مدينة وشقة حيناً من الزمن، ولكنهم تشككوا في إخلاص المسلمين، وتذكروا حادث ممر الرنسڤال (معركة سيزردا)، فتركوا وشقة ورجعوا إلى الشمال، واضطر زعماء الخوارج على الأمير الحكم أن ينهوا المقاومة ويعودوا إلى الطاعة، وبذلك استعاد الحكم سلطته على كل من سرقسطة ولاردة.



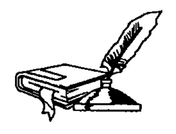


الهجوم على برشلونة

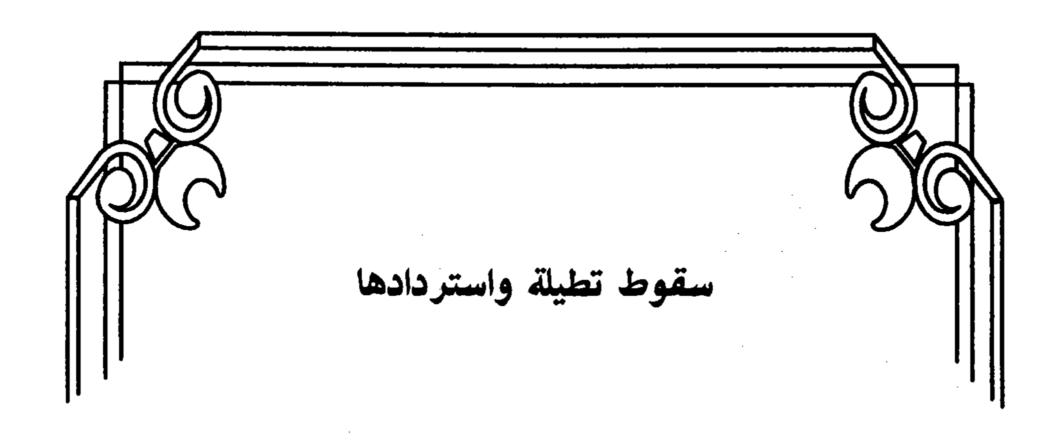
وفي عام ١٨٥هـ/ ٨٠١م بعث شارلمان إلى إسبانيا جيشاً ضخماً لافتتاح برشلونة، وكان يقود هذا الجيش حاكم جيرونة الذي حاصر المدينة بمجرد وصوله إليها، وقطع عنها المدد، وظل حاكم برشلونة سعدون الرعيني يتطلع إلى المدد يأتيه من قرطبة، ولكن الحكم كان مشغولاً بالثورات الداخلية، فلم يصل المدد، وصمدت برشلونة في وجه الجوع والحرمان، وأصرَّ الوالي على المقاومة، وتفاقم الأمر، وجاء جيش ثان من الفرنجة بقيادة لويس بن شارلمان فشدّد الحصار على برشلونة.

ورأى سعدون الرعيني أن يذهب إلى قرطبة ليحصل على إمدادات، فخرج في جنح الليل، وحاول اختراق صفوف العدو، ولكنه ضُبط وأُسر، ولم تستطع برشلونة الثبات، وقد هلك كثير من أهلها، واضطربت وتفككت، فاستسلمت بعد حصار مميت دام سبعة أشهر عصيبة.

واتخذ شارلمان من برشلونة قاعدة للثغر القوطي، وأصبحت في النهاية إمارة مسيحية هي إمارة «قطالونيا» التي اتحدت مع مملكة أراجون، وخسر المسلمون في الأندلس أمنع الحصون، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى بعد أن كانت تجاوز جبال البرانس(١).



(١) الأمويون وأمراء الأندلس ص٢٥٩.



سقوط تطيلة واستردادها

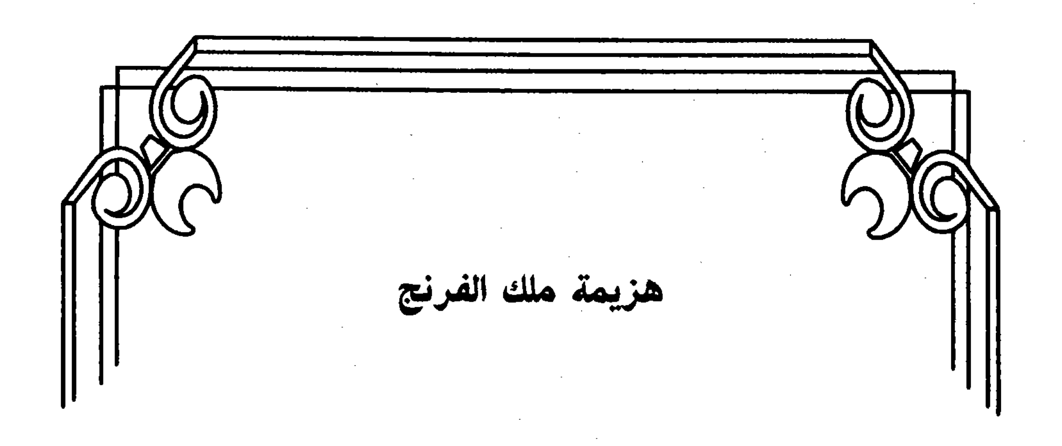
في سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٣م استولى الفرنج على مدينة تطيلة، وكان الحكم قد ولّى على ثغور الأندلس قائداً بربرياً قديراً هو عمروس بن يوسف، واستعمل عمروس ولده يوسف على تطيلة، وتقدم الخوارج برفقة الفرنج إلى تطيلة وحاصروها وأخذوها من المسلمين، وأسروا يوسف بن عمروس، وأودعوه السجن في مكان يُعرف بـ: (صخرة قيس).

وأقام عمروس بمدينة سرقسطة، وقد بادر بعد هذه الأحداث، فجمع الجيوش وسيّرها مع ابن عم له، وسار حتى لقي الخوارج والفرنجة، وقاتلهم قتالاً شديداً، حتى اضطروا إلى الفرار بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة، وواصل الجيش سيره حتى وصل إلى صخرة قيس، حيث يوجد يوسف بن عمروس، فحاصرها حتى سلمت، فاستولى عليها، وخلص يوسف بن عمروس، وأرسل به إلى أبيه.

وفي ذلك يقول ابن خلدون: «ولحق الفرنج سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٥م بعض أهل الحرابة وأطمعوا الفرنج في تطيلة فزحفوا إليها، وملكوها، وأسروا أميرها يوسف بن عمروس، وحبسوه بصخرة قيس، وسار عمروس من فوره إلى سرقسطة ليحميها من العدو، وبعث العساكر مع ابن عمه، فلقي العدو وهزمهم، وسار إلى صخرة قيس، وقد وهن العدو من الهزيمة فافتتحها، وبعث عمروس نائبه، وخلّص يوسف وعظّم حديثه»[1].

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص١٦١.



هزيمة ملك الفرنج

في سنة ١٩١هـ/ ٨٠٧م جهّز لويس (رذريق) ملك الفرنج جيشاً، وتوجه به نحو طرطوشة ليحتلها، وبلغ الحكم ذلك، فجهز جيشاً بقيادة ابنه عبدالرحمٰن، فخرج عبدالرحمٰن فلقي لويس ولم يدخل بعد إلى بلاد المسلمين، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً، وبرغم ضراوة القتال وشدته ومقاومة الفرنج الشديدة، إلاّ أن النصر في النهاية كان للمسلمين، فهزموا جيش الفرنج بقيادة لويس، وكثر فيهم القتل، وعاد عبدالرحمٰن بن الحكم بجيشه ظافراً منتصراً.

وفي عام ١١٣هـ/ ٨٠٩م أي بعد عامين من هزيمة لويس، عاد لويس نفسه بجيش ضخم من الفرنجة، وزحف به لحصار طرطوشة لعله ينجح هذه المرة، ولكن الحكم بن هشام كان مستعداً لذلك، فوجّه إليه ابنه عبدالرحمٰن في جيشٍ كثيف، وكتب إلى أمراء الولايات الإسلامية فكتب إلى عمروس بن يوسف وعبدون عامل الثغر، كتب إليهم أن يشاركوا ولده عبدالرحمٰن في تلك الحرب، وانضمّ إلى الأمير قوات من المتطوعين وأهل الثغور.

والتقت هذه القوات بجيش لويس، ودارت بينهم معركة طاحنة، انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً.

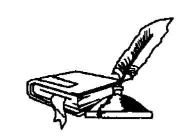
وقد جاء في البيان المغرب[1] حول هذه المعركة: فألفوا الطاغية

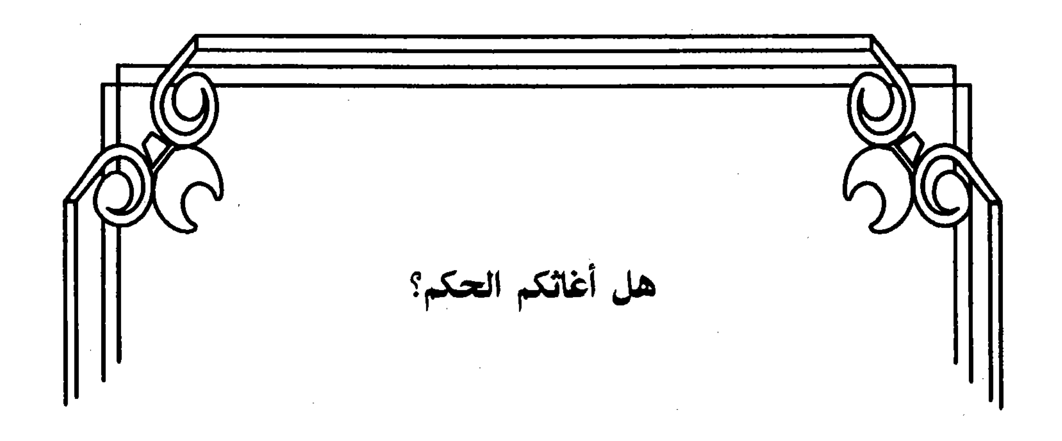
---

(١) البيان المغرب ٢/٧٢.

خارجاً إلى البلاد، ودارت بينهم حروب شديدة ثبتت فيها أقدام المسلمين، فانهزم المشركون، وكانت فيهم مقتلة عظيمة.

وتراجع لويس ملك الفرنج عن التفكير في العودة لمهاجمة طرطوشة مرة أخرى بعدما لقيه من هزيمة مُنكرة، وحاول الاستيلاء على وشقة، إلاّ أنه فشل أيضاً. وفي نفس العام **١٩٣هـ/ ٨٠٩م** جهّز الحكم حاجبه عبدالكريم بن عبدالرحمٰن في جيش ضخم إلى أشتوريش، حيث كان سكان هذه المنطقة قد انضموا إلى ألفونسو الثاني، المعروف بالعنيف، وكانت مدينة بمبلونة قد خرجت عن طاعة الأمير الحكم، وتمردوا على حاكم الإقليم وقتلوه، وأقاموا رجلاً منهم مكانه يُدعى فلاسكو. سار جيش المسلمين بقيادة عبدالكريم بن عبدالرحمٰن صاحب الحكم بن هشام، حيث التقى بجيش ألفونسو الثاني على نهر أُورون، واشتبكا معاً في معركة فاصلة، وأدّبهم عبدالكريم حتى لا يعودوا إلى مثلها مرّة أخرى. وقُتِلَ من جيش ألفونسو الثاني عدداً كبيراً، ودخلت المنطقة في طاعة الأمير الحكم وأخذت درساً لن تنساه طول حياتها، ولم تعد تفكر في الخروج على الطاعة.





هل أغاثكم الحكم؟

قدم الشاعر الأندلسي عباس بن ناصح على الحكم بن هشام في قصره، فلمّا وقف أمامه أنشد يقول:

تململت في داري الحجارة مُسهراً	أراعي نجوماً ما يردن ثغورا
إليك أبا العاصي نضيت مطيتي	تسير بهمٌ سارياً ومهجّرا
تدارك نساء العالمين بنصرة	فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا

ترى لماذا أنشد الشاعر هذه الأبيات؟ ومَن الذي طلب الغوث والنجدة؟

كان الشاعر عباس بن ناصح في مدينة وادي الحجارة القريبة من مدينة مدريد (مدينة الفرج) فسمع امرأة تستغيث الحكم بن هشام، وتقول: واغوثاه يا حكم، قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنا، حتى استأسد العدو علينا[1]. فلما قدم عباس بن ناصح على الحكم، أنشد قصيدته المشهورة التي ذكرنا منها أبياتاً سابقة، ووصف له العباس خوف الثغر، واستصراخ المرأة باسمه، فأنف، ونادى في الجيش بالجهاد، فخرج بعد ثلاث إلى وادي الحجارة، وسأل عن الخيل التي أغارت من أي أرض العدو كانت، فأُعلم بذلك.

خرج الحكم سنة ١٩٤هـ/ ٨١٠م، وغزا تلك الناحية، وأثخن فيها،

---

(١) البيان المغرب ٢/٧٣.

وفتح الحصون، وخرب الديار، وقتل عدداً كبيراً من المسيحيين، وجاء إلى وادي الحجارة (مدينة الفرج) فأمر بإحضار المرأة المستغيثة وجميع من أسر له أحدٌ في تلك البلاد، فأحضروا إليه، وأمر بقتل جميع الأسرى بحضرتهم، وقال للعباس: سلها، هل أغاثها الحكم؟

فقالت المرأة: والله، لقد شفى الصدر، وأنكى العدوَّ، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله، وأعزَّ نصره. فارتاح لقولها، وبدا السرور في وجهه، وقال:

ألم ترَ يا عباس أني أجبتها	على البُعد أقتاد الخميس المظفرا
فأدركت أوطاراً وبرَّدت غلّة	ونفّست مكروباً وأغنيت معسرا

فقال له العباس: نعم، وجزاك الله خيراً عن المسلمين، وقبَّل يده[1].

يقول ابن عذارى: فرثى الحكم للمسلمين، وحمي لنصر الدين، وأمر بالاستعداد للجهاد، وخرج غازياً لأرض الشرك، فأوغل في بلادهم، وافتتح الحصون، وهدم المنازل، وقتل كثيراً، وأسر كذلك، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمر لتلك الناحية بمالٍ من الغنائم، يصلحون به أحوالهم، ويفدون سباياهم، وخصَّ المرأة وآثرها، وأعطاهم عدداً من الأسرى عوناً، وأمر بضرب رقاب باقيهم.

وقال لأهل تلك الناحية وللمرأة: هل أغاثكم الحكم؟

قالوا: شفى والله الصدور، ونكى في العدو، وما غفل عنا إذ بلغه أمرنا، فأغاثه الله وأعزّ نصره[2].

وفي سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م أصابت الأندلس مجاعة عظيمة هلك فيها معظم الخلق جوعاً، وقيل: إنها كانت قبل ذلك بعامين[3]. وقد أكثر فيها

---

(١) نفح الطيب ٣٤٣/٤.
(٢) البيان المغرب ٧٣/٢.
(٣) انظر نفح الطيب.

الحكم بن هشام مواساة أهل الحاجات، وأكثر لهم المساعدات.

ولكن هذه المجاعة لم تمنع الحكم عن استمراره في الجهاد، وفتح البلاد، ودعوة العباد للدخول في دين الله ونصرته والانضمام إلى لواء الفتح والجهاد. فجهز جيشاً عظيماً، وجعل عمّه عبدالله أميراً على الجيش، وأمره بغزو برشلونة، وكان الفرنج قد استولوا عليها.

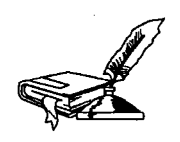
وسار عبدالله بالجيش، ووصل برشلونة يوم الخميس، وأراد من معه من الجند أن ينشبوا القتال، ولكنه سيطر على الموقف، ومنعهم من القتال حتى أصبحوا في يوم الجمعة، وفي وقت الزوال أمر بتعبئة الكتائب، وقام فصلى ركعتين، ثم نادى في الناس.

وركب هو ومن معه من قادة الجيش، واستعدّ للقتال، وكان فعل عبدالله هذا بتأخير القتال إلى يوم الجمعة، وتحرّى ساعة الزوال، وكان فقهاً منه وعلماً وتأسياً بحديث الرسول ﷺ، فإنه ﷺ قد أمر بالجهاد في تلك الساعة، حيث تهب الأرواح، وتفتح أبواب الجنة.

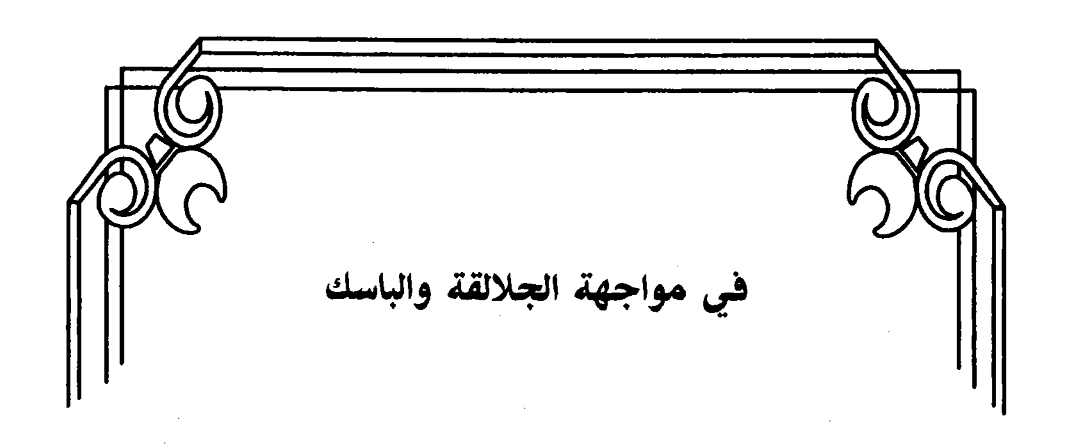
ولقد حقق المسلمون نصراً مظفراً، وتمزقت وحدة الفرنج والمسيحيين، وقتل منهم عدد كبير، ولكن برشلونة بقيت في يد العدو، واتخذ منها قاعدة للثغر القوطي.

وبعد أن انتهت المعركة، نصب قناة طويلة، فأُثبتت في الأرض، وأمر بالرؤوس فطُرحت حولها حتى غابت القناة[١].

وهذا يدل على كثرة القتلى من العدو، وفي الوقت نفسه يدل على اطمئنان القائد، وأنه أنكى في العدو، فهو آمن على نفسه، لا يزعجه شيء، ولا يروعه شيء، وهو برغم أنه لم يستخلص برشلونة من أيدي العدو، غير أنه قد ردعهم بحيث يخافون الخروج إليه.



(١) البيان المغرب ٧٤/٢.



في مواجهة الجلالقة والباسك

أغار الجلالقة وحلفاؤهم من الباسك في عام ٢٠٠هـ/ ٨١٥م على المسلمين وأراضيهم عدة مرات، وعاثوا فساداً، مما جعل الحكم بن هشام يقرر أن يؤدبهم، ويكبح جماح استهانتهم بالمسلمين، فجهز جيشاً ضخماً بقيادة وزيره عبدالكريم بن مغيث، وأرسله إلى بلادهم، فدخلها، وتوسطها، وأهلك مرافقها، وحطم زروعها، وهدم منازلها وحصونها، واستولى بعد ذلك على قرى وادي «أرون» وهناك حشدت عليه الجيوش من كل جانب، وانجلبت النصرانية من كل مكان، ونزلت جموعهم في عدوة نهر أرون، وصار النهر حاجزاً بينهم وبين المسلمين.

وأصبح القائد عبدالكريم ومن معه متأهبين للقتال، فقصدوا المخائض، ونهض أعداء الله إليهم، فقاتلوا على كل مخاضة، وقابلهم المسلمون مجالدين مجالدة الصابرين المحتسبين.

واقتحم الأعداء النهر إليهم، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً، ثم حمل المسلمون على العدو حملة صادقة، فأجبروهم على اللجوء إلى المخائض، فسلكوا على غير طريق.

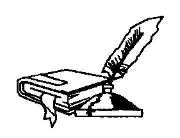
فأخذتهم السيوف وأصابهم الطعن بالرماح، وكان كل من يسْلَم منهم من ذلك يلقي نفسه في البحر فيموت غرقاً، حتى قتل منهم عدد عظيم لا يحصى كثرة. ومات أكثرهم بالتزوّي، وداس بعضهم بعضاً، وأصبحوا بعد المطاعنة والمجالدة بالسيوف والرماح إلى القذف بالحجارة.

وضاقت الحال بالمسلمين، فقفل عبدالكريم ظافراً لسبع خلون من ذي القعدة ٢٠٠هـ /الموافق ٨١٦م[1].

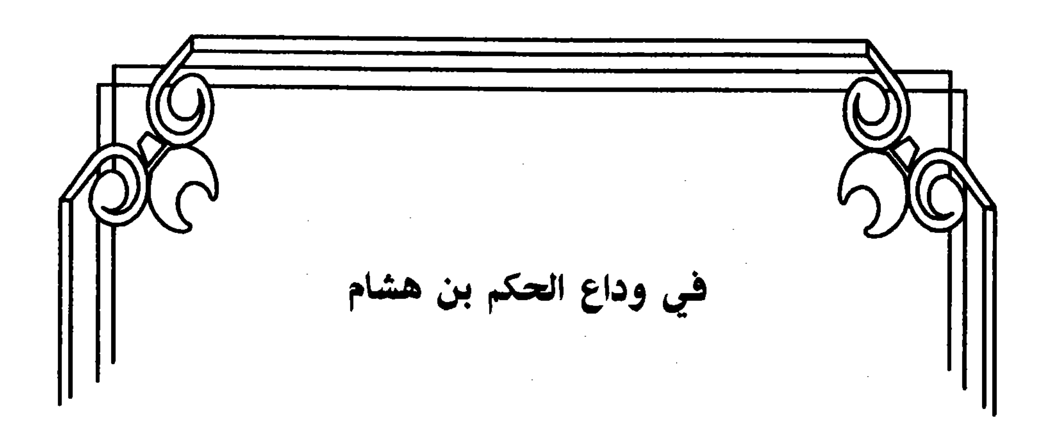
ويتحدث المقري في نفح الطيب عن هذه الأحداث فيقول:

«وفي سنة مائتين بعث العساكر مع ابن مغيث إلى بلاد الفرنج، فخرب وهدم عدّة حصون، وأقبل عليه أليط ملك الجلالقة في جموع عظيمة، ودارت معركة على نهرٍ، واقتتلوا قتالاً عنيفاً لعدة أيام، ونال المسلمون منهم أعظم النيل، وأقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة، ثم كثرت الأمطار، ومدًّ النهر، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين»[2].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن هذه الغزوة كانت غزوة شهيرة وعظيمة، فقد قتل فيها عدد كبير من المسلمين، كما قتل في نهايتها القائد عبدالكريم بن مغيث[3].



(١) البيان المغرب ٧٥/٢.
(٢) نفح الطيب ٣٤٠/٤.
(٣) الأمويون أمراء الأندلس ص٢٦٤.



في وداع الحكم بن هشام

كان الحكم بن هشام أول أمير من أمراء بني أمية بالأندلس أخذ البيعة في حياته لولي عهده، وذلك خشية الخلاف بعد موته، ثم توفي الحكم في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٢٠٦هـ/ ٢٢ مايو سنة ٨٢٢م، وقد بلغ الثانية والخمسين من عمره، ودفن مع آبائه في مقبرة خاصة، وهي مقبرة القصر المعروفة بالروضة، وترك من الولد تسعة عشر من الذكور واثنين وثلاثين من الإناث. وقيل: إن الحكم أبدى حين مرض موته أسفه وندمه لما أوقعه بأهل الربض من بالغ النكال والشدّة، وصرّح بأنه كان خيراً لو لم يفعل ما فعله(١).

ولما شعر الحكم بدنو أجله استدعى ولده عبدالرحمٰن، وألقى إليه وصيته، وفيها يقول: «يا بنيّ، إني وطدت لك الدنيا، وذللت لك الأعداء، وأقمت أود الخلافة، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة، فاجرِ على ما نهجت لك من الطريقة، واعلم أن أولى الأمور بك وأوجبها عليك، حفظ أهلك، ثم عشيرتك، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك، فهم أنصارك وأهل دعوتك ومشاركوك في حُلوِك ومرِّك، فيهم أنزل ثقتك، وإياهم واسِ من نعمتك، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى مراتبهم من عوام رعيتك، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم، مستثقلين لأعبائهم، فاحسم عللهم ببسط العدل لكافتهم، واحسام أولي الفضل والسداد لأحكامهم

(١) ابن القوطية ص٥٥.

وعمالاتهم دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة، وإن رأيت فيمن يرتقي من صنائعك رجلاً لم تنهض به سابقة، ويشف بخصلة، وتطمح نفسه وهمته، فأعنه واختبره، وقدمه واصطنعه، ولا يريبنك خمول أوله، فإن أول كل شرف خارجيته، ولا تدعَن عن مجازاة المحسن بإحسانه، ومعاقبة المسيء بإساءته، فإن عند التزامك لهذين ووضعك لهما مواضعهما، يرغب فيك، ويرهب منك، وملاك أمرك كله بالمال وحفظه بأخذه من حله، وصرفه في حقه، فإنه روح الملك المدبر بجثمانه، فلا تجعل بينك وبينه أحداً في الإشراف على اجتنائه وادخاره، والتثقيف لإنفاقه وعطائه. وختام وصيتي إياك بإحكامك في أحكامك، فاتقِ الله ما استطعت، وإلى الله أكلك، وإياه أستحفظك، فقد هان عليّ الموت إذ خلفني مثلك»[1].

* * *

الحكم بن هشام صورة ومنهج

الصورة: كان الحكم بن هشام أميراً قوي النفس، وافر العزم، فطناً، حسن التدبير، واسع الحيلة، نافذ الرأي والعزم، صارماً يؤثر وسائل الطغيان المطلق، شديد الاستئثار بسلطانه، حريصاً على حمايته من كل تدخل أو نفوذ، وكان مثل جده عبدالرحمٰن الداخل يلتمس الغاية بأي الوسائل، ويذهب في صرامته وطغيانه إلى حد القسوة والقمع الذريع، ولم يكن يحجم مثله عن الالتجاء إلى وسائل لا تقرها المبادىء الأخلاقية القويمة.

وفي صورة هذا الرجل أنه كان شغوفاً بأبهة الملك، وفي منهجه أنه كان مسرفاً في مظاهر البذخ الطائل، كثير الترفُّع عن العامة، ولم يكن كأبيه محبّباً إلى الشعب، بل كان بالعكس مكروهاً من الكافة[2].

وانعكست هذه الصورة انعكاساً سلبياً، فقد كان الفقهاء يبثون هذا

---

(١) الأمويون أمراء الأندلس الأول للشعراوي ص٢٦٧.

(٢) دولة الإسلام ـ د.عنان ع١ ق١ ص٢٤٩.

البغض في نفوسهم بوسائلهم الخاصة، لما عمد إليه الحكم من سحق سلطانهم ونفوذهم، ومع ذلك فقد كان الحكم بالرغم من عسفه وطغيانه، أميراً مستنيراً، يؤثر العدل ويحرص على إقامته، ويختار لقضائه أفضل الناس وأكثرهم نزاهة وورعاً، وكان يسلط قضاته على نفسه وعلى ولده وخاصته، وكان قاضيه محمد بن بشير من أعظم القضاة نزاهة واستقلالاً في الرأي والحكم[١].

ومما يذكر من عدل قاضيه هذا، وميل الحكم بن هشام لإنفاذ العدل في دولته، أن رجلاً من أهل كورة «جيَّان» رفع إليه أن عاملاً للحكم بن هشام اغتصبه جاريته، وصيرها إلى الحكم، وأتاه ببينة تشهد على معرفة ما تظلم منه، وبملكة الجارية، فأوجب السنة أن تحضر الجارية.

فاستأذن القاضي على الحكم، فأذن له، فلما دخل عليه قال له: «أيها الأمير، إنه لا يتم عدل في العامة دون إقامته في الخاصة» وحكى له أمر الجارية، وخيَّره بين إبرازها للبينة ليشهد على عينها أو عزله.

فقال الحكم: أوَ لا أدعوك إلى خيرٍ من ذلك؟ تبتاع الجارية من صاحبها بأبلغ ما يطلب فيها.

فقال القاضي: إن الشهود قد شهدوا من كورة جيَّان، وأتى الرجل يطلب الحق من مظانه، فلما صار إلى بابك تصرفه دون إنفاذ الحق له، ولعل قائلاً يقول: باع ما لا يملك بيع مقسور، فلما رأى الحكم عزم القاضي على ذلك أمر بإخراج الجارية من قصره.

فشهد الشهود عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها، وكان هذا القاضي هو محمد بن بشر[٢].

❋ ❋ ❋

(١) المعجب في أخبار المغرب ص١١، والبيان المغرب جـ٢ ص٨٠.

(٢) المصدر السابق.

منهج الحكم في العمارة والموالي والحرس وغيره

أظهر الحكم فخامة مُلكه بالأندلس من خلال بلاطه الملوكي الرائع الذي رتب نظمه ورسومه، وأقام له بطانة ملوكية فخمة، فاستكثر من الموالي والحشم، وأنشأ الحرس الخاص، وفي عهده ظهر الصقالبة لأول مرة في البلاد بكثرة، وكان جده عبدالرحمٰن الداخل أول من وضع سياسة اصطفاء الموالي لاسترابته بالعرب كما ذكرنا سابقاً، وتوسع حفيده الحكم بن هشام في تطبيق هذه السياسة، فاستكثر من الموالي والصقالبة، وعهد إليهم بمعظم شؤون القصر والخاص، وكان هؤلاء الصقالبة على الأغلب من الرقيق والخصيان الذين يؤتى بهم بالأخص من بلاد الفرنج وحوض الدانوب وبلاد اللونبارد ومختلف ثغور البحر الأبيض النصرانية، وكان يؤتى بهم أطفالاً من الجنسين، ويربُّون تربية إسلامية، ثم يُدرَّبون على أعمال البطانة وشؤون القصر، وقد سما شأنهم فيما بعد، وتولَّوا مناصب الرياسة والقيادة، وبلغ عددهم في عهد الحكم زهاء خمسة آلاف[1].

وكان للحكم فرقة من الحرس الخاص معظمهم من فيء أربونة ورثهم عن والده هشام، وقد أبلوا في الدفاع عنه يوم الربض أحسن البلاء، فأعتقهم جميعاً، وأغدق عليهم صلاته[2].

وكان الحكم فارساً مجيداً، يعشق الفروسية والصيد، وكانت له ألفا فرس من الجياد الصافنات مرتبطة على شاطىء النهر تجاه القصر يشرف عليها جماعة من العرفاء البارعين[3]، وكان للحكم شرطة قوية مدربة منظمة، وله عيون يطالعونه بأحوال الناس، وكان أميراً عظيم السلطان والهيبة، يسطع بلاطه كما تسطع صفاته وخلاله، ويثير من حوله بهاء الملك وروعته، وقد شبهه بعضهم بأبي جعفر المنصور في قوة الملك، وتوطيد الدولة، وقمع الأعداء، على حد قول ابن خلدون[4].

(١) نفح الطيب جـ١ ص١٥٩، ١٦٠. وابن الأثير جـ٦ ص١٢٨.
(٢) دولة الإسلام مصدر سابق ـ عن ابن حيان.
(٣) البيان المغرب جـ٢ ص٨١.
(٤) تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص١٢٧.

الحكم شاعراً وناثراً وخطيباً مفوهاً

كان الحكم خطيباً مفوهاً، وشاعراً مجيداً، نظم الشعر في مختلف المناسبات، من أحداث الحرب والسياسة والفخر والغزل وغيرها، ومن قوله في الفخر:

غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن ... من اللحن في الأوتار واللهو والردن

إذا اختلفت زرق الأسنّة والقنا ... أرتك نجوماً يطلعن من الطعن

بها يهتدي السّاري وينكشف الدجى ... وتستشعر الدنيا لباساً من الأمن

وإن تجد الأبطال حصناً ومعقلاً ... فما لي غير السيف في الأرض من حصن

قذفت بهم في فضا الأرض فانزوت ... له الأرض واستوى على السهل والحزن

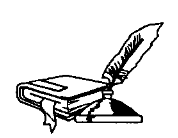
وقال في الغزل:

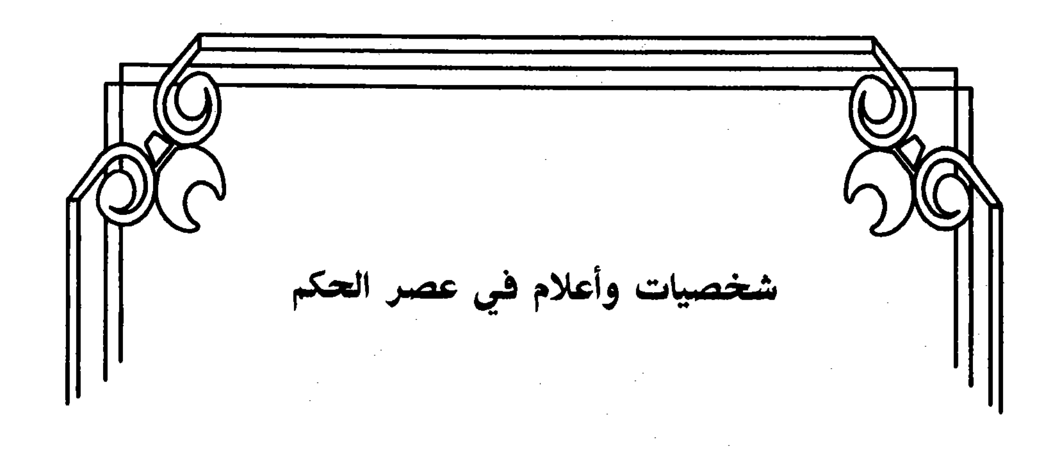
قضيب من البان ماست فوق كثبان ... ولّيْن عني وقد أزمعن هجراني

ناشدتهن بحقي فاعتزمن على العصيان ... لما خلا منهن عصياني

ملكنني ملكاً ذلّت عزائمه ... للحب ذلّ أثير موثق عاني

مَن لي بمغتصبات الروح من بدني ... يغصبنني في الهوى عزّي وسلطاني





١ ـ عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث وآخرون

كان ابن مغيث من الشخصيات البارزة في تاريخ الأندلس، فقد كان ابن مغيث قائد أبيه من قبله، وكان جندياً عظيماً، وقائداً جريئاً، قاد عِدَّة غزوات مظفرة إلى بلاد النصارى، وكان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً[١]. وخلفه في الحجابة عبدالعزيز أبي عبيدة، وكان قائداً كبيراً وسياسياً ورعاً، وكان بين قواده ووزرائه إسحاق بن المنذر، والعباس بن عبدالله، وفي عهد الحكم بن هشام أُنشىء بالدولة منصب خاص لإدارة شؤون أهل الذمة (النصارى واليهود) ينعت صاحبه بالقومس. وعين فيه ربيع بن تدلف القومس، قائد الغلمان الخاصة ومتولي قهرمة الأمير الحكم وشؤونه الخاصة، وكان طاغية ظلوماً يبغضه الجميع، وقد أمر الحكم بقتله قبيل وفاته، فنفذ فيه الحكم ولي العهد عبدالرحمٰن بن هشام. وتمّ إعدامه وسط الاغتباط العام. وذكر البعض أن هذا المنصب أُنشىء في عهد عبدالرحمٰن الداخل[٢]، ولكن الظاهر أنه لم يرتَّب بصورة ثابتة وتُحدَّد اختصاصاته إلاّ في عهد الحكم.

❋ ❋ ❋

(١) الحلة السيراء لابن الآبار ص٧٢.

(٢) ابن القوطية ص٣٨.

٢ ـ أبو القاسم عباس بن فرناس

كان عباس بن فرناس من أعلام هذا العصر، وهو فيلسوف وعلاّمة رياضي من النوع الفذ، وقد وُلد في مقاطعة تاكرتا من أصل بربري، وبرع منذ فتوته في الفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية، وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وبرع أيضاً في الموسيقى، وصنع آلة فلكية تعرف «بالميقاتة» لتعريف الوقت، وله مخترعات كثيرة أخرى، وروى بعضهم أنه حاول أن يخترع أداة للطيران فصنع لنفسه جناحين بهيئة مخصوصة، وحاول الطيران من ناحية الرصافة، فحلّق في الهواء، ثم وقع في مكان طيرانه على مسافة بعيدة، واشتهر أمره بذلك حتى قال فيه مؤمن بن سعيد الشاعر:

يطم على العنقاء في طيرانها إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم

وذكر عبدالحميد بن بسيل الوزير، قال: «أبدع عباس بن فرناس طول أمده إبداعات لطيفة واختراعات عجيبة، وضرب بالعود، وصاغ الألحان الحسنة، وكان مع ذلك مجيداً للشعر، حسن التصرف في طريقته، كثير المحاسن، جم الفوائد».

وأثار ابن فرناس باختراعاته المدهشة ريب الجهلاء، فكثر الطعن في عقيدته واتُّهم بالزندقة، ولكن القضاء لم يجد سبيلاً إلى إدانته، وعاش طويلاً، وعاصر من بعد الحكم، ولده عبدالرحمٰن بن الحكم وتوفي في عهد حفيده محمد بن عبدالرحمٰن، ونظم كثيراً من مختار الشعر في العهود الثلاثة.

* * *

٣ ـ يحيى الفزان الجياني

وهو أبو زكريا يحيى بن الحكم البكري، نسبة إلى بكر بن وائل، وأصله من مدينة جيَّان ولقب بالغزال لجماله وظرفه وتأنقه، وكان شاعراً

جزلاً مطبوعاً، وبرع بالأخص في الغزل، وله في النسائيات كثير من رقيق النظم.

وكان فوق ذلك عالماً بالفلك والفلسفة، وله أرجوزة طويلة في أبواب العلوم لم تصل إلينا، وكان كثيرَ التعريض بالفقهاء والحملة عليهم، حتى سخطوا عليه ورموه بالزندقة لصراحته وَحُرِّ تفكيره، وهو القائل فيهم:

لست تلقى الفقيه إلاّ غنياً ... ليت شعري من أين يستغنونا
تقطع البر والبحار طلاب الـ ... ـرزق والقوم هاهنا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنّا ... لم يصب قصد وجهه الراكبونا

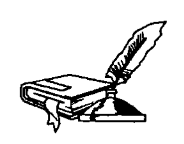
وله في ذكر النفس والروح قصيدة أثارت حول عقيدته شبهاً وريبة، يقول فيها:

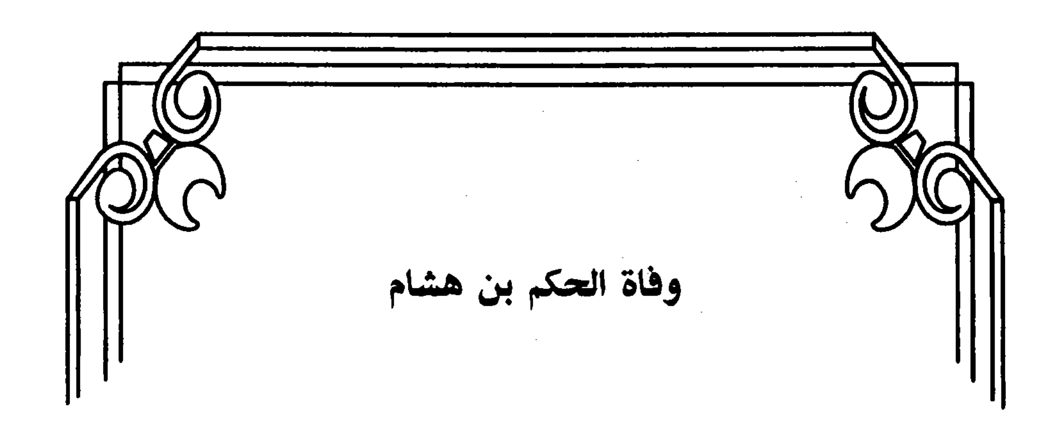
يا ليت شعري أي شيء يحصل ... يرى شخص من قد مات وهو دفين
أهو هو أم خلق شبيه بما رأ ... ى فقل للقلوب النائمات عيون
وكيف يرى العين قد مات نورها ... وواقعة شبه الوقار سكون
لئن كانت الأرواح من بعد بيِّها ... بهت إلى ما خلفهن حنين

وقال يمدح الحكم في قصيدة مطلعها:

كأن الملوك الغُلب عندك خضعاً ... خواضع طير يتقي الصقر لُبّد
تقلب فيهم مغلة حكمه ... فتخفض أقواماً وقوماً تُسوِّد

واشتهر الغزال فوق ذلك بأصالة الرأي، وحسن التدبير، واللباقة، والدهاء، وقد رشحته هذه الصفات فيما بعد في عصر عبدالرحمٰن بن الحكم، للقيام ببعض المهام الدبلوماسية الخطيرة.





وفاة الحكم بن هشام

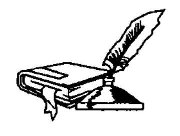
وتوفي الحكم بن هشام في نهاية شهر ذي الحجة ٢٠٦هـ/ ٨٢٢م وكان عمره قد بلغ الثانية والخمسين، وصلّى عليه ابنه عبدالرحمٰن.

وكان رحمه الله شديد الحزم ماضي العزم، وكان مع قسوته وعنفه يخضع للحق.

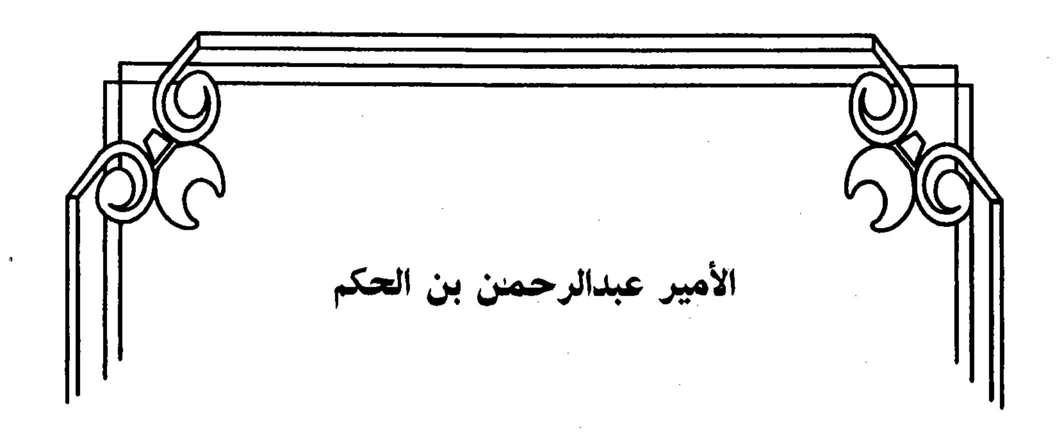
وكان رحمه الله يسلط قضاته وحكامه على نفسه، فضلاً عن ولده وخاصته.

رحم الله الحكم بن هشام، فقد كان له قولة مشهورة في العدل رددها كثيراً وحُسبت له نصيحة تلقى الاحترام عند أولي الأمر والملوك ممن يقرؤون سيرته، فقد قال قولته المشهورة: «ما تحلّى الخلفاء بمثل العدل»[1].

وهل هناك أحلى وأعذب من العدل، فالعادل ينام ملء عينيه والظالم يظل عمره ساهراً قلقاً.



(١) البيان المغرب ٢/٧٩.



الأمير عبدالرحمن بن الحكم

(عبدالرحمن الأوسط)

نسبه ومولده: هو عبدالرحمن بن الحكم بن هشام الرضا بن عبدالرحمن الداخل، وهو رابع الخلفاء من بني أمية بالأندلس[(١)]، كنيته أبو المطرف، وهو أكبر أولاد الحكم بن هشام، ولد بطليطلة **١٧٦هـ/ ٧٩٢م**، وأمه أم ولد تدعى (حلاوة)، وكان عبدالرحمن أحب أبناء الحكم إليه، وقد عني أبوه بتربيته وتعليمه العلوم الحديثة والقديمة، وكان يدربه على أعمال الحكم، فكان ينوب عن أبيه إذا غاب أو مرض[(٢)].

كان عبدالرحمن الأوسط طويلاً أسمر، أقنى أعيَن، أكحل عظيم اللحية، يخضب بالحناء.

ولايته: لما توفي الحكم خلفه عبدالرحمن أكبر أولاده بعهدٍ منه، وكان ينوب عنه في الحكم أثناء مرضه حسبما قدّمنا، وبويع في اليوم التالي لوفاة أبيه، في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة **٢٠٦هـ/** مايو **٨٢٢م**، وأخذ له البيعة بالقصر الحاجب عبدالكريم بن مغيث، وكان حينما ولي العرش في الحادية والثلاثين من عمره، إذ كان مولده بطليطلة في سنة **١٧٦هـ/ ٧٩٢م**، وأمه أم ولد تدعى «حلاوة».

---

(١) الحلة السيراء (١/١١٣).

(٢) الأمويون أمراء الأندلس (ص٢٧٧).

وكما ذكرنا فقد كان أحب أبناء الحكم بن هشام إليه، وقد عني بتربيته وتثقيفه عناية خاصة. وشغف عبدالرحمٰن منذ فتوته بالأدب والحكمة، ودرس الحديث والفقه، فكان ذهناً مستنيراً[1].

وكان عبدالرحمٰن فوق ذلك أميراً رفيع الخلال، بالغ الكفاية، وافر الخبرة بشؤون الحرب والإدارة، يحسن اختيار الرجال للمناصب، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة، وبهذا ارتقى بشأن الوظائف العامة، وقد أوصل البلاط الأموي إلى درجة لم يسبق إليها من الحضارة والتقدم.

ويتحدّث المؤرخون عن حُسن اختياره لوزرائه فيقولون:

«وانتقى الرجال للأعمال، واستوزر الأكفاء من أهل الاكتفاء، وقدوة الأبطال ذوي الغناء، فظهر في أيامه جلّة الوزراء وكبار الفقهاء».

وكان من وزرائه عدة من أعظم وألمع رجالات العصر، مثل: الحاجب عبدالكريم، والقائد عيسى بن شُهيد، ويوسف بن بخت، وهاشم بن عبدالعزيز، وعبدالرحمٰن بن رستم، وحسن بن عبدالغافر بن أبي عبدة، ومحمد بن السليم، ومحمد بن عبدالسلام بن بسيل، وعبدالواحد بن يزيد الإسكندراني، وغيرهم، وكان الوزراء يختلفون إلى القصر بطريقة منظمة للبحث والمداولة وإبرام الشؤون في جناح خاص سمي «بيت الوزراء»، وانتهت أرزاق الوزراء يومئذ إلى ثلاثمائة وخمسين ديناراً في الشهر[2].

❋ ❋ ❋

وزراؤه وقادته

تتحدث الرواية التاريخية عن مناقب جمهرة وزراء وقادة عبدالرحمٰن الأوسط الذين اجتمعوا في بلاطه، وتصفهم بأنهم «عصابة من سراة الوزراء،

(١) أخبار مجموعة ص٦٣٥.

(٢) ابن القوطية ص٦١، ٦٢.

أولي الحلوم والنُّهى، لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم، ويتقدم هذا الحشد الحافل رجلان كان لهما في تنظيم حكومة عبدالرحمٰن وسياسته أعظم الأثر، أولهما الحاجب عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث حاجب أبيه الحكم من قبل، وهو الذي قيل عنه: «أكمل من حمل هذا الاسم وأجمعهم لكل جملة حسنة»، وكان عبدالكريم، فضلاً عن براعته الإدارية مثل جده المغيث فاتح قرطبة، من أعظم قادة هذا العصر، وقد قاد حسبما تقدم في مواضعه عدة من الحملات الغازية المظفرة، ولما توفي سنة **٢٠٩هـ/ ٨٢٤م** خلفه في الحجابة سفيان بن عبد ربه، وهو من البربر، ولم تكن له نباهة سابقة، ثم عيسى بن شهيد، وهو ثاني الرجلين، وكان عيسى من أعيان موالي بني أمية، وكان أيضاً من وزراء الحكم، أوصى به ولده عبدالرحمٰن، فلما ولي الأمر قدّمه على خاصته، ثم ولاه خطة الخيل، ثم خلع عليه رتبة الوزارة، وعهد إليه بالنظر في المظالم، واشتهر عيسى بالحلم والوقار وحصافة الرأي، والمعرفة والجزالة، وقاد كثيراً من الصوائف المظفرة، بيد أنه استهدف لخصومه الفتى نصر الخصي المسيطر على شؤون القصر، والأثير لدى الأمير بمظاهرته لحظيته وجاريته وأم ولده طروب، فلبث يدس له ويعمل على إقصائه عن الحجابة، حتى تم له ذلك حينما مرض عبدالرحمٰن وطال احتجابه، وعين مكانه للحجابة عبدالرحمٰن بن رستم، فلما أَبَلَّ الأمير من مرضه أنكر ما وقع، وأنحى باللائمة على نصر، وأعاد عيسى بن شهيد إلى الحجابة، فلم يزل على حجابته حتى توفي عبدالرحمٰن.

وقد قال ابن القوطية[1]: «لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس في أنه ما خدم ملوك بني أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية، ولا أكرم اصطناعاً، ولا أدعى لذمته، ولقد كان الحاجب عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث بهذه الصفة قبله، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى، إلا باب كرم الصنيعة واستتمامها، فلم يكُ تفصله درجة».

❋ ❋ ❋

---

(١) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص٦١، ٦٢.

وتولّى الكتابة للأمير عبدالرحمٰن عددٌ من الكُتَّاب المبرزين، وفي مقدمتهم الحاجب عبدالكريم، وقد كان أيضاً كاتباً بليغاً وشاعراً جذلاً، وعبدالله بن محمد بن أمية بن أبي حوثرة، ومحمد بن أبي سليمان الزجالي وهو من برابرة نفزة وكان كاتباً بارعاً، واشتهر بقوته في الحفظ، حتى أنه سُمّي بـ «الأصمعي» واشتهر أبناؤه من بعده في ميدان الكتابة. وكان ممن كتبوا للأمير عبدالرحمٰن أيضاً الأسقف (قومس) بن أنطونيان عاهل أهل الذمة، وكان أديباً بارعاً، وكاتباً مقتدراً، وكان عبدالرحمٰن يعهد إليه بالمهام الخطيرة، وخدم من بعده ولده الأمير محمد[1].

واجتمعت في عهد الأمير عبدالرحمٰن أيضاً جمهرة من جلّة الفقهاء والقضاة، رحل معظمهم إلى المشرق في طلب العلم وانتقاء الرواية، ومن هؤلاء: محمد بن يوسف بن مطروح، ومحمد بن حارث، وعبدالأعلى بن وهب، وبقي بن مخلد، ومحمد بن وضاح، ويحيى بن إبراهيم بن مدين، وعيسى بن دينار، ويحيى بن يحيى، وقد اشتهر بعض هؤلاء من قبل في عهد أبيه الحكم، وكان يتقدم هذه الجمهرة من الفقهاء في المكانة والنفوذ عبدالأعلى بن وهب، ويحيى بن يحيى، وعبدالملك بن حبيب، وكان يحيى بن يحيى عميد الفقهاء وشيخ قرطبة الأول، وأصله من برابرة مصمودة، ودرس في المشرق على مالك والليث بن سعد وابن وهب وغيرهم، وتولى الفتيا بعد عيسى بن دينار، ولبث حتى وفاته في سنة **٢٣٤هـ** يتبوأ أسمى مكانة، وكان ممن اتهموا بالتحريض على ثورة الربض، وفرّ عقب إخماد الثورة إلى طليطلة، ثم استأمن الحكم فأمنه وعاد إلى قرطبة.

وخلفه في علمه ومكانته عبدالملك بن حبيب، وغدا أثير الأمير، لا يقدم عليه أحداً، ولا يعدل بمشورته أحد، وكان عبدالملك فوق براعته في الفقه والحديث، متقدماً في علوم اللغة والعلوم القديمة، بارعاً في الأدب، وكتب كتباً في إعراب القرآن وشرح الحديث والأنساب وغيرها.

---

(١) قضاة قرطبة للخشني ص١١١ ـ ط القاهرة سنة ١٩٥٤. نشر عزت العطار الحسيني.

اصطفاؤه الموالي والصقالبة

حذا عبدالرحمٰن الأوسط حذو أبيه الحكم بن هشام في اصطفائه الموالي والصقالبة وأتباع أنصبة إخوته من مماليك أبيه العجم، وكانوا خمسة آلاف مملوك، ثلاثة آلاف فارس يرابطون إزاء باب القصر فوق الرصيف، وألفا رجل على أبواب القصر وكانوا يسمون «الخرص» لعجمتهم، وسما نفوذ الفتيان يومئذ في البلاط.

❋ ❋ ❋

الفتى نصر قائد الجيوش وصاحب النفوذ

كان نصر هذا زعيم الفتيان في قصر عبدالرحمٰن، متصرفاً في شؤون القصر، وكان يتمتع بأعظم نفوذ في القصر والدولة، بمؤازرة ومساعدة طروب جارية عبدالرحمٰن.

وكان نصر هذا ويكنى أبو الفتوح، من الفتيان المختارين الذين اشتهروا بالجمال والظرف، وأمر الحكم بن هشام بخصيهم، وأصله من أبناء الأحرار الذين حشدوا للخدمة داخل القصر، وكان أبوه من أسالمة أهل الذمة المولدين من أهل قرمونة(١).

❋ ❋ ❋

مؤامرة الفتى نصر وطروب على عبدالرحمٰن الأوسط

ولما ولي عبدالرحمٰن، قدّمه على سائر خاصته، وغدا مدبّر أمر داره، ومشاركاً لأكابر وزرائه في تصريف الشؤون، وتضاعف نفوذه ومكانته بمخالفته لجارية عبدالرحمٰن الأثيرة طروب، صاحبة النفوذ القوي، وقد انفردت طروب هذه بحب الأمير عبدالرحمٰن الذي كان له شغف خاص

---

(١) ابن حزم ـ رسالة نفط العروس ص٧٣ عن دولة الإسلام ع١ ق١ ص٢٧٧.

بالنساء اللاتي يختارهن من البيوت الكريمة مثل «مدَّثرة» وقد أعتقها وتزوجها، وشقاء أم ولده المطرف، وطروب صاحبته هذه أم ولده عبدالله، وقد حاولت أن تجعل لولدها ولي العهد، ولكنها فشلت في ذلك فتآمرت مع نصر هذا وكان قائد الحرس والمتصرف في شؤون البلاد وقتئذ، واتفقت معه على التخلص من الأمير عبدالرحمٰن وولده محمد، حتى يصفو الجوُ لها ولابنها ليكون حاكم البلاد بعد التخلص من الأمير وابنه.

وجاء في الوقت الذي تفكر فيه طروب في التخلص من الأمير عبدالرحمٰن وابنه طبيب عراقي يُعرف بالحراني، وكانت فرصته مواتية، فذهب نصر إلى الطبيب وطلب منه سمًا زعافاً، وعلم الطبيب بمراد الفتى نصر، فأعطاه السم، ولكنه أراد أن يتخذ يداً عند الأمير، وأراد ألاً يبدأ حياته في الأندلس بقتل أميرها، فأخبر إحدى نساء القصر، واسمها «فخر» فسارعت بدورها، وأخبرت الأمير عبدالرحمٰن بالمؤامرة.

وجاء نصر بالشراب المسموم، وقدّمه للأمير عبدالرحمٰن الأوسط، فقال له الأمير:

ـ أشربت أنت؟ فسقط في يده، ولم يجد بداً من الشراب، فشربه، وأسرع إلى الطبيب ليعالجه من تَوِّهِ.

هذا هو المشهد الأخير في حياة الفتى نصر، لكننا قفزنا به على إنجازاته طوال حياته مع عبدالرحمٰن الأوسط، فقد كان من أشهر أعماله قيادته لجيوش الأندلس التي حشدت لمقاتلة النورمانديين في أراضي إشبيلية، وانتصاره عليهم، وسيأتي الحديث عن تلك المعارك.

واستمر نجم نصر في الصعود، ونفوذه في التمكن، حتى غدا أعظم رجال الدولة وأمضاهم أمراً، وكان نصر مرهوب الجانب، يخشاه الأكابر والخاصة، وتحدث عنه المؤرخون فقالوا: «أرقى ما كان في غلوائه، وأطمع ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه، أرهب ما كان الناس له، وأخوفهم لعدوانه، إذ نال من أثره مولاه الأمير عبدالرحمٰن واصطفائه فوق ما ناله خادم خاص مع أمير رشيد» فتنفس الناس الصعداء، وسرُّوا لوفاته والتخلص

من طغيانه، وقد توفي نصر كما ذكرنا فجأة بالسّم سنة ٢٣٣هـ/ ٨٤٨م.

❋ ❋ ❋

اقتناء عبدالرحمن للجواري الحسان

استكثر عبدالرحمن أيضاً من الجواري الحسان، وكان شديد الشغف بهنّ، وكان يعنى باختيارهن من أطيب العناصر والأصول، واجتمعت لديه منهن نخبة بارعة في الحسن والجلال، مثل: طروب أم ولده عبدالله، ومؤثرة أم ولده المنذر، وشفاء أم ولده المطرف، وفخر ومتعة وغيرهن، وأنجب عبدالرحمن من الولد عدداً ضخماً بلغ بتقدير ابن حزم «مائة» خمسين من الذكور، ومثلهم من الإناث[1]، وذكر بعض المؤرخين أن عدد أولاده من الذكور أربعون، وسماهم واحداً واحداً، وأن عدد بناته ثلاثة وأربعون.

وبلغ الجواري كالفتيان من النفوذ مبلغاً عظيماً، واشتهرت منهن طروب حظية عبدالرحمن الأثيرة لديه، وقد اشتد نفوذها في أواخر أيامه، وظاهرت نصراً الفتى، فكانت لهما الكلمة النافذة في معظم الشؤون، وكان عبدالرحمن يشغف بها أعظم شغف، وهو القائل:

إذا ما بدت لي شمس النهار طالعة ذكرتني طروبا

❋ ❋ ❋

العمارة في عصر عبدالرحمن الأوسط

كانت قرطبة شاهداً على عناية عبدالرحمن الأوسط بالعمارة والإنشاءات، وأول ما اهتم به هو عمارة المساجد، فزاد في مسجد قرطبة الجامع بهوين جديدين من جانب القبلة، وقام على عمارته الفتى نصر،

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص٩٠.

وما زال هذا الجامع الشهير قائماً إلى اليوم بسائر عقوده الإسلامية، وأروقته ومحاريبه، ولكنه حُوِّل منذ القرن السادس عشر إلى كنيسة قرطبة العظمى (كاتدرائية)، وبالرغم من أن الهياكل قد أقيمت في سائر عقوده الجانبية، وأقيم في وسطه مصلّى عظيم على شكل صليب، فإنه ما زال يحمل بالإسبانية اسمه الإسلامي القديم «المسجد الجامع» وقد أزيلت معظم قبابه وزخارفه الإسلامية، لتحل مكانها الزخارف النصرانية، ولكن محاريبه الضخمة ما زالت تحتفظ بنقوشها الإسلامية وآياتها القرآنية[١].

وفي طرف مدينة قرطبة الجنوبي يقع جامع قرطبة وسط شبكة من الدروب الأندلسية القديمة، على مقربة من القنطرة الرومانية العربية القائمة على نهر الوادي الكبير، ويبلغ طوله **١٨٥** متراً وعرضه **١٣٥** متراً، وله عدة أبواب كبيرة فخمة ما زالت تحتفظ بكثير من نقوشها الإسلامية، ويعرف بابه الرئيسي المقابل لصحنه بـ «باب النخيل» ويقع صحنه في ناحيته الشمالية ويعرف بفناء النارنج، وهو صحن مستطيل شاسع يزدان بعدة من أشجار البرتقال (أو النارنج) وهو الآن صحن الكنيسة، وقد هدمت منارة الجامع، وهي التي أقامها عبدالرحمٰن الناصر بجوار الصحن، وأقيم مكانها برج الأجراس الحالي[٢].

وأنشأ عبدالرحمٰن الأوسط مسجد إشبيلية، كما بنى سورها الكبير عقب النورمانيين، ووضع نظاماً جديداً للسكة وجعلها أندلسية مستقلة، بقيم وأوزان جديدة، وكان أهل الأندلس يتعاملون من قبل بما يحمل إليهم المشرق، أو بنقود تسك، ومشارف جديدة للقصر، وجلب إليه الماء العذب من فوق الجبال، وأنشأ على النهر الأعظم مما يلي سور القصر والمدينة رصيفاً عظيماً.

كما أنشأ بقرطبة عدّة من الحدائق الغنَّاء، وحذت جواريه حَذوهُ، فأنشأن في قرطبة عدة مساجد سميت بأسمائهن.

---

(١) الآثار الأندلسية الباقية ـ د. عبدالله عنان ص٢٠، ٢٤.

(٢) المصدر السابق.

لقد كان عبدالرحمٰن يعشق البذخ الطائل، وفي عهده حفلت قرطبة بطائفة من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة، وقد أسبغ عبدالرحمٰن على مملكته لوناً خارقاً من العظمة، ورفع ذكرها، وأفاض عليها حلل المسجد، وأغدق عليها الثروات، وملأها بجميع مظاهر المتعة الدنيوية إلى حدود لا تصدَّق.

❋ ❋ ❋

الثورات والفتن الداخلية في عهد الأوسط

١ ـ **ثورة البلنسي**: لم يهدأ عبدالله البلنسي منذ مات أبوه عبدالرحمٰن الداخل، فقد كان يثور كلما تولّى أمير من أمراء بني أمية، وكان قد تمّ الاتفاق بينه وبين أخيه هشام الرضا أن يقيم ببلنسية طول حياته، فأقام بها هو وأهله وولده.

وعقب تولي الأمير عبدالرحمٰن **٢٠٦هـ/ ٨٢٢م** قام على رأس قوة من أنصاره واحتل منطقة تدمير، وطلب من الأمير إقطاعها له، وهدد بالزحف على العاصمة، وكان عبدالله البلنسي قد كبر واعتلّت صحته، وفي أثناء ذلك أصابه مرض أقعده عن الحركة، واضطره إلى العودة إلى حيث كان في بلنسية، وتوفي في عام **٢٠٨هـ/ ٨٢٤م** فعادت بلنسية إلى وضعها الطبيعي، وتولى أمرها رجل من قبل الأمير عبدالرحمٰن، وباءت محاولة الثورة بالفشل.

٢ ـ **ثورة تدمير**: في سنة **٢٠٧هـ/ ٨٢٣م** اشتعلت ثورة تدمير، واضطربت المدينة، وكان من أسباب الثورة الفتنةُ بين المضرية واليمنية، وذلك من جراء موت مضرمي قتله يماني، واستفحل الشر بينهما، وقتل كثير من الفريقين، فبعث عبدالرحمٰن إليهم حملة بقيادة يحيى بن عبدالله وعيّنه والياً على تدمير، ولكنه لم يفلح في إخضاع الولاية المتأثرة، واستمرت الفتنة على أشدها، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم اليمنية، الذي قام يدعو إلى الثأر، ولبث بضعة أعوام يتحدّى السلطة، سلطة قرطبة، والبعوث تتردد إليه في كل عام دون أن تنال منه منالاً، ولم تهدأ الفتنة إلاّ في سنة **٢١٣هـ**، حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء وطلبوا الأمان، وعادوا إلى الطاعة.

٣ ـ **فتنة قرطبة**: وحدثت في قرطبة عقب جلوس عبدالرحمٰن بأيام قلائل فتنة من نوع ما حدث أيام الربض، ذلك أن وفوداً من أهل الذمة وغيرهم قدمت من البيرة تطالب برفع المغارم التي فرضها عليهم ربيع الأسقف، وانضم إليهم كثير من أهل قرطبة النصارى، وساروا إلى القصر في ضجَّة كبيرة، فأرسل إليهم عبدالرحمٰن قوة من الفتيان لتهدئتهم، فاعتدوا عليها، فبعث عندئذ الجند إليهم، ففتكوا بهم، وقُتل منهم خلق كثير، وفرَّ الباقون في مختلف الأنحاء، وكان ذلك في المحرم سنة ٢٠٧هـ[١].

❋❋❋

برنامج عبدالرحمٰن الأوسط في الغزو والجهاد

في عام ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م استهلّ عبدالرحمٰن الأوسط برنامجه في الغزو والجهاد مبكراً، فبعث في صيف هذه السنة (٢٠٨هـ) حملة إلى ألبة والقلاع بقيادة عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث. وكان ألفونسو الثاني ملك جليقية (أو ليون) قد أغار على مدينة سالم من أعمال الثغر الأعلى، وحذت حذوه بعض القبائل الجبلية من أهل بسكونية، فأغارت على أطراف الثغر وعاثت فيها، فاخترق الحاجب بسائط ألبة والقلاع، وهزم النصارى في عدة مواقع، وعاث في ألبة وخرب مدينة ليون وأحرق حصونها، واشترط على النصارى أن يدفعوا جزية كبيرة، وأن يطلقوا أسرى المسلمين، وأن يسلموا بعض زعمائهم كفالة بسكينتهم، وعاد الحاجب إلى قرطبة مثقلاً بالغنائم والسبي، وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا الوزير النابه المظفر، الذي قاد معظم الغزوات الكبرى إلى أرض العدو، منذ عهد هشام بن عبدالرحمٰن، إذ توفي عقب عودته إلى قرطبة في المحرم سنة ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م[٢].

وفي هذا العام ٨٢٤م أصيب الفرنج بهزيمة ساحقة في أحواز بنبلونة، في سفح جبال البرنية، عند باب شزروا، حيث نكب جيش شارلمان من

---

(١) ابن الأثير جـ٦ ص١٣٠.

(٢) البيان المغرب جـ٢ ص٨٤.

قبل، وكان للمسلمين دور كبير في إيقاع هذه الهزيمة، ذلك أن لويس ملك الفرنج أرسل قواته بقيادة الكونتين أزنار وإبلو لمهاجمة البشكنس وإخضاعهم، فاستغاث البشكنس بجيرانهم المسلمين، والذي لبَّى نداء البشكنس هم بنو موسى أو بنو قسيّ أصحاب تطيلة، وأن هذه المعاونة كانت بموافقة حكومة قرطبة، وعلى أي حال فقد أحرز المسلمون والبشكنس على الفرنج نصراً ساحقاً، وأسر القائدان أزنار وإبلو، ثم أطلق سراح الأول وأرسل الثاني إلى قرطبة حيث اعتقل بعض الوقت، وقد أثار هذا الحادث ذكريات موقعة باب شزروا الكبرى والتي تحدثنا عنها من قبل، وقد هزم الفرنج هزيمة ساحقة أيام الأمير عبدالرحمٰن الداخل، قبل ذلك بستة وأربعين عاماً.

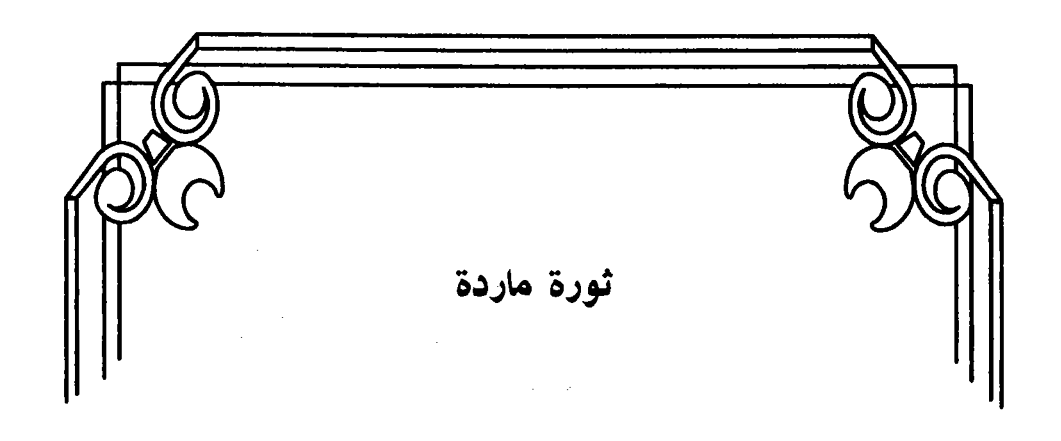
❋ ❋ ❋

الثغر القوطي

تولّى قيادة الصائفة بعد الحاجب عبدالكريم، أمية بن معاوية بن هشام، وفي هذه الأيام كانت معظم الحملات والغزوات الإسلامية الكبرى تنظم في الصيف باعتباره خير الفصول للقيام بمثل هذه الغزوات، ولهذا كانت تسمى بالصائفة أو الصوائف.

ونعود إلى أمية بن معاوية بن هشام الذي سار إلى شنت برية ثم إلى تدمير، ليعمل على تهدئة الثورة، إلاّ أن حوادث الشمال فرضت نفسها على قرطبة، فقد كان الفرنج في الثغر القوطي قد تحركوا وأغاروا على أطراف الثغر الأعلى بقيادة أميرهم برنهارت صاحب برشلونة، وهو ولد جيوم دوق تولوز، فسيّر عبدالرحمٰن إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيدالله بن عبدالله البلنسي، فاخترق الثغر الأعلى إلى أراضي الفرنج سنة **٢١٢**هـ/ **٨٢٧**م واجتاح ولاية قطلونية، وهزم الفرنج في مواقع عديدة، وسار حتى جيرونة، ولكنه لم يحاول أن يحرز فتوحات ثابتة، فارتدَّ إلى الجنوب بعد أن مزق شمل النصارى في تلك الأنحاء[١].

(١) البيان المغرب جـ٢ ص٨٥.



ثورة ماردة

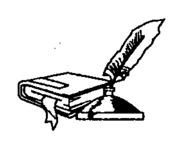
وجد عبدالرحمٰن فتنة تضطرم في ماردة وهي إحدى مواطن الثورة القديمة، فقد كانت عناصر الخروج والثورة تحتشد وتعمل بعيدة عن العاصمة، ممتنعة بالوهاد والوعر، قريبة من النصارى، تتلقى منهم الوحي والعون أحياناً كثيرة، ففي ماردة ثار البربر بقيادة زعيمين من زعمائهم هما: محمود عبدالجبار بن راحلة، وهو من بني طريف من مصمودة، وسليمان بن مرتين، وانضم إليهم النصارى المعاهدون، وألقى لويس ملك الفرنج فرصة جديدة للدس والتحريض على حكومة قرطبة، فبعث إلى الثوار يشجعهم ويعدهم بالمدد والعون.

وكان محمود زعيماً قوياً ومغامراً جريئاً، فوثب على عامل ماردة وقتله، وعاث في تلك الأنحاء قتلاً ونهباً وتخريباً، وتوالت إليه بعوث عبدالرحمٰن، فكان في كل مرّة يعتصم بالمدينة، فإذا غادره الجند عاد إلى عبثه وسفكه.

وفي سنة ٢١٨هـ/ ٨٢٣م سار إليه عبدالرحمٰن بنفسه، فغادر ماردة في صحبته ومعه زميله سليمان، وخرجت مع محمود أخته جميلة العذراء، وهي فارسة بارعة الحسن، اشتهرت يومئذ في جميع أنحاء الأندلس برائع جمالها، كما اشتهرت بالشجاعة والنجدة والفروسية، ولقاء الفرسان ومبارزتهم[(١)]. ونزل الثوار بحصن فرنكش على ضفة نهر يالة، ثم غادر سليمان زميله،

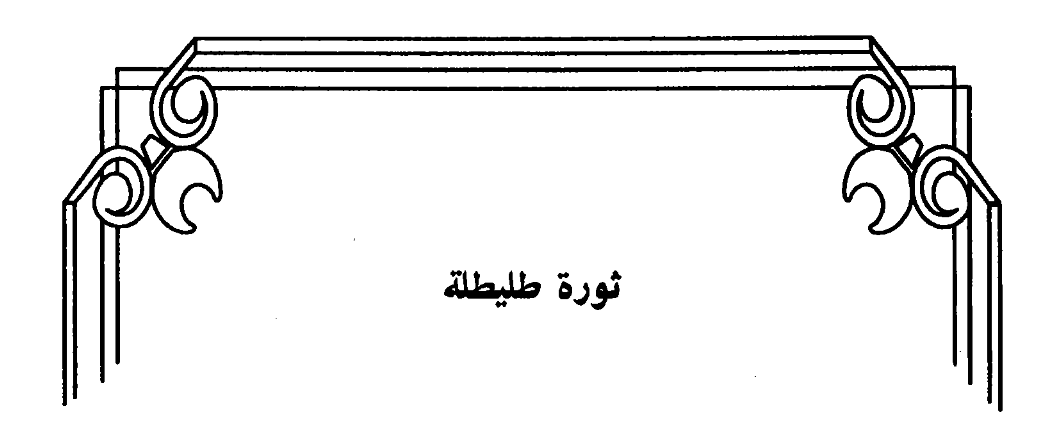
(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٦٦.

واستقلّ محمود بالعمل، وزحف في جموعه على بطليموس ثم على أكشونية، ثم سار إلى باجة، فقاتله أهلها، ولكنه تغلّب عليهم بمعاونة أخته جميلة، وبسط محمود سلطانه على باجة وهو يقاتل خصومه من حوله، وبعوث الأمير تتردد إليه، حتى لحقه الإعياء واليأس، ففرَّ مع أخته وصحبه إلى جليقية واستجار بملكها ألفونسو الثاني، فرحَّب به وأكرم وفادته، وأنزله بأطراف مملكته، وبعد حين رأى الثائر أن يعود إلى الطاعة فكاتب عبدالرحمٰن، ووقف ألفونسو على هذه المحاولة، وعلم بها، فخشي إن أفلت الثائر منه أن ينقلب حرباً عليه، فسار إليه، وأحاطت به الجند من كل ناحية، ودافع عن نفسه دفاع الأبطال، ولكنه قتل أخيراً، وأُسر أهله وصحبه، وكانت أخته الحسناء جميلة بين الأسرى (**٢٢٥هـ/ ٨٤٠م**) ووقعت جميلة في نصيب كبير من كبراء النصارى، فحملها على اعتناق النصرانية، وتزوج منها، وكان من ولدها فيما بعد أسقف شنت ياقب[١].



---

(١) ابن القوطية ص٦٧.



ثورة طليطلة

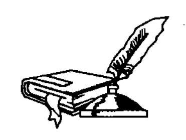
اشتعلت طليطلة بالثورة، في نفس وقت اشتعال ثورة ماردة تقريباً، ففي سنة **٢١٤هـ/ ٨٢٩م** ثار بطليطلة زعيم يُدعى هاشم الضراب، وكان هاشم في طليطلة أيام واقعة الحفرة، ثم أُخذ بين الرهائن إلى قرطبة، فاشتغل بها حدّاداً مدى حين، وعُرف بالضراب، ثم غادرها إلى طليطلة، وهناك اجتمع إليه عدد كبير من الأوغاد والسفلة، فأخذ يغير بهم على الأنحاء المجاورة، حتى اشتد بأسه وطار صيته، وهرع إلى لوائه أهل الشر والبغي من كل صوب، وسار إلى البربر في شنت برية، فأغار عليهم وأوقع بهم، فبعث عبدالرحمٰن الجند لقتاله بقيادة محمد بن رستم، عامل الثغر الأدنى، فنشبت بينه وبين الثوار عدة وقائع غير حاسمة.

وفي العام التالي بعث عبدالرحمٰن إلى عامله بالمدد، فزحف على الثوار والتقى بهم على مقربة من حصن سمطا بمجاورة رورية، ونشبت بين الفريقين موقعة عنيفة هزم فيها الثوار، وقتل هاشم الضراب وكثير من أصحابه، وذلك في سنة **٢١٦هـ/ ٨٣١م**.

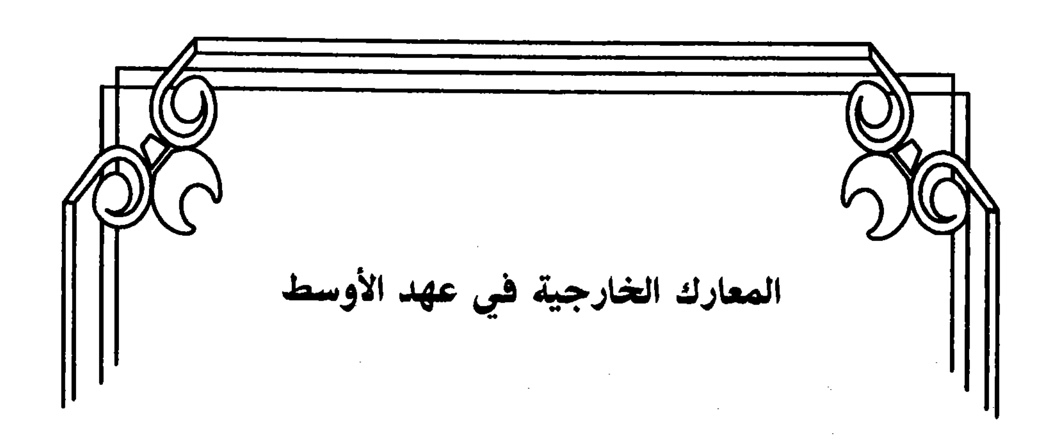
ولكن طليطلة رغم كل ذلك لم تهدأ بعد، وظلت على اضطرامها، وكان عبدالرحمٰن أمام خيار لا بديل عنه وهو خوض معارك أخرى لإخضاعها. فبدأ في عام **٢١٩هـ/ ٨٣٤م** وأرسل إليها جيشاً بقيادة أخيه أمية بن الحكم، فحاصرها وانتسف ما حولها من الزروع، ولكن المدينة الثائرة لم تهن ولم تخضع، فرحل عنها، وأبقى بعض قواته بقيادة ميسرة الفتى في قلعة رباح الواقعة في جنوبها استعداداً لمحاصرتها، فخرج عندئذ

أهل طليطلة لقتال ميسرة، فظهر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، فارتدوا إلى داخل المدينة وعادوا إلى الاعتصام بأسوارها المنيعة، وفي العام التالي (سنة ٢٢٠هـ) سار إليهم عبدالرحمٰن بنفسه، فثبتت في وجهه المدينة الثائرة، فترك الجند في قلعة رباح، وسار إلى الغرب في أحواز ماردة ليطارد سليمان بن مرتين زعيم البربر، وكان بعد أن تخلّف عن زميله محمود بن عبدالجبار يتزعم الثورة في تلك الأنحاء، فحاصره عبدالرحمٰن، وحدث أن قتل الثائر في سقطة مميتة عن جواده، فانفضّت جموعه وخبت ثورته، وسيّر عبدالرحمٰن في العام التالي حملة أخرى إلى طليطلة بقيادة أخيه الوليد بن الحكم، فضرب حولها الحصار الصارم، واستمر على حصارها حتى جهد أهلها، وضاقوا بالحصار ذرعاً.

ثم هاجمها بعد ذلك واقتحم أسوارها، وخضعت المدينة الثائرة بعد أعوام عديدة متوالية من الفتن والثورات المشتعلة المستمرة، وقد كان يغذي هذه الثورات خلال اشتعالها روح التمرد المتأصل والثابت في شعبها (شعب طليطلة) ـ هذا غير دسائس البربر والنصارى من أهلها وسكانها، وتحريض الفرنج والجلالقة المستمر، ولكنها خضعت في النهاية، وكان ذلك في رجب ٢٢٢هـ/ ٨٣٧م[1].



(١) البيان المغرب جـ٢ ص٨٥، ٨٧، وابن الأثير جـ٦ من ص١٤١ وما بعدها.



المعارك الخارجية في عهد الأوسط

بعد إخماد الثورة في طليطلة وماردة ومختلف النواحي، رغب عبدالرحمٰن الأوسط في استئناف أعمال الجهاد والغزو، فعكف في الأعوام التالية على تسيير الصوائف أو حملات الغزو الصيفية متعاقبة في كل عام إلى الشمال، تارة إلى أطراف الثغر الأعلى حيث تشتبك مع الفرنج وتثخن في أراضيهم، وتارة إلى ألبة والقلاع حيث تغير على أراضي البشكنس أو أطراف مملكة ليون (جليقية)، وتولى عبدالرحمٰن قيادة الصائفة بنفسه إلى جليقية في سنة **٢٢٥**هـ/ **٨٤٠**م، وفي سنة **٢٢٧**هـ/ **٨٤٢**م سار عبدالرحمٰن إلى الشمال، وكان موسى بن موسى بن قسي والي تطيلة من أعمال الثغر الأعلى (أراجون) قد خرج على طاعته وتحالف مع «غرسية» أمير نافار، وأوقع الاثنان بجند الأمير في الثغر، وعاثا في أنحائه، وكان سبب نقض موسى الطاعة، أن عبدالرحمٰن كان قد ولّى عبدالله بن كليب على سرقسطة، وعامر بن كليب على تطيلة، فأغار عبدالله على أموال «ينقة بن ونقة» أخي موسى لأمه، واعتدى عامر بن كليب على أملاك موسى وخيله، وانتهب أمواله، وخرب حدائقه، فعندئذ أعلن الخروج والعصيان، وكان ذلك في سنة **٢٢٦**هـ، فسار عبدالرحمٰن إلى بلاد البشكنس «نافار» وتوغل فيها حتى بنبلونة، وعاث فيها فساداً وتخريباً، وسبى من أهلها جموعاً كثيرة[١].

والزعيم موسى بن موسى - هو - موسى بن موسى بن فرتون ابن قسي (أو القسوي) وكان جده الأعلى الكونت قسي Kasi من أشراف القوط،

---

(١) دولة الإسلام ق١ ع١ ص٢٦٠.

وكان وقت الفتح قومس الثغر الأعلى، فلما غزا المسلمون أراضيه سار إلى الشام، واعتنق الإسلام على يدَيْ الخليفة الوليد بن عبدالملك، وذلك لكي يحتفظ في ظل الغزاة الجدد بأملاكه وسلطانه الإقطاعي، واعتبر بإسلامه على يدَيْ الخليفة من مواليه، وانحاز بطريق هذا الولاء إلى جانب «المضرية» وعدا أولاده وأحفاده من بعده زعماء المولدين في الثغر الأعلى، وكانوا من أنجاد الزعماء والفرسان، يمتازون بالجرأة والإقدام والشجاعة، ويعتزُّون دائماً بأصلهم القوطي النصراني، وكانت لهم دائماً علائق مصاهرة مع جيرانهم من الأمراء النصارى، من البشكنس وغيرهم، وكان إسلامهم في الواقع مظهراً سطحياً لاغتنام السلطان والنفوذ، وكانوا لا يشعرون بالولاء نحو حكومة قرطبة، يصانعونها متى وجبت المصانعة، احتفاظاً بمركزهم وسلطانهم في الثغر، ولكنهم لا يحجمون عن انتهاز أية فرصة للثورة عليها، ومحالفة أعدائها من النصارى، وسنرى فيما بعد أي دور خطير قامت به هذه الأسرة المتمردة الخطرة في ثورة المولدين الكبرى على قرطبة[1].

ونعود إلى عبدالرحمٰن الأوسط، فقد سار في العام الثاني إلى الشمال مرة أُخرى، ومعه ولداه: المطرِّف ومحمد، واستخلف ولده المنذر على قرطبة، وبدأ عبدالرحمٰن بمحاصرة تطيلة حتى أخضعها، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى في جموع كبيرة، فَهَزَمَ البشكنس وحلفاءهم هزيمة شديدة، وقتل منهم عدداً جماً، وفرَّ موسى وحليفه غرسية جريحين، وسار عبدالرحمٰن إلى بنبلونة فأثخن فيها وخرّبها، واضطر البشكنس إلى طلب الأمان والصلح، وعاد عبدالرحمٰن إلى قرطبة ظافراً بعد أن وطّدَ هيبة الإسلام وحكومته في تلك الأنحاء (٢٢٨هـ/ ٨٤٢م)[2].

وكان الهدف من هذه الغزوات إيقاع الرعب في قلوب النصارى في الشمال، وإنهاكهم حتى يلزموا الهدوء.

***

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٤٦٧.

(٢) البيان المغرب جـ٣ ص٨٨.

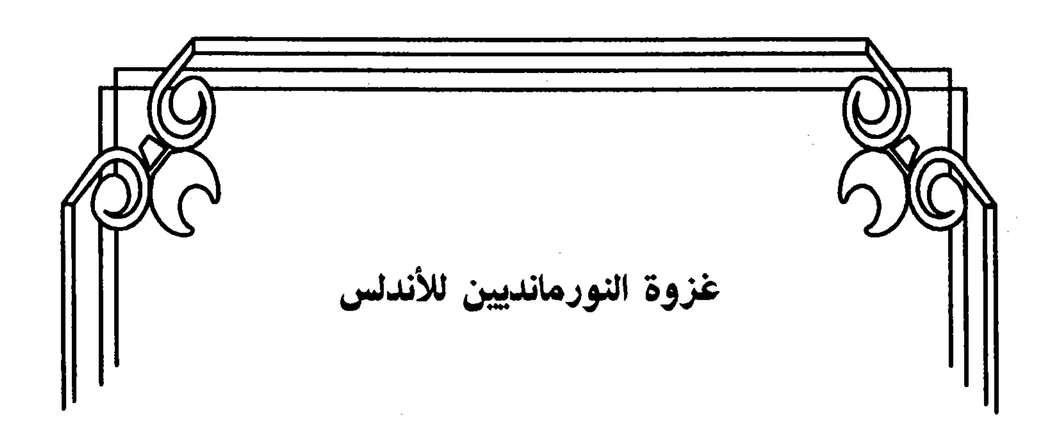
النورمانديون في الأندلس

النورمانديون أو (النورمانيون) أمة بحرية عريقة، تمرّست منذ غابر العصور في ركوب البحر ومقارعة الأهوال، ووطنهم الأصلي هو إسكندناوة وربما الدانيمرك، وشواطىء ألمانيا الشمالية، ولذا عرفوا بالنورمانيين أي أهل الشمال، واشتهر النورمانيون بجرأتهم في جوب البحار الشمالية، وبراعتهم في مغالبة قسوة الجليد وأهوال اللجة والطبيعة، ولم يأتِ القرن الثامن الميلادي حتى كانت حملاتهم البحرية الناهبة، وقرصنتهم، تثخن في شواطىء الجزر البريطانية.

وكانت حياة الجدب، وشظف العيش، وروح المخاطرة، أسباباً تدفع بهم دائماً إلى عرض البحار، وتجعلهم خطراً دائماً على الشواطىء والثغور المجاورة، وفي أوائل القرن التاسع وصلت حملاتهم الناهبة إلى شواطىء بلاد الفرنج (فرنسا)، ثم نفذت جموع منهم إلى شمال فرنسا، وغزوا مصب اللوار ومصب الجارون، وأنشؤوا لهم عدة مراكز وقواعد في تلك الأنحاء. وقد بدؤوا بعد ذلك في التطلع إلى الأندلس، لما اشتهرت به من الخصب والغنى الذي أثار جشعهم، وفي الوقت نفسه لم تكن الأندلس تعرفهم أو تحسب حساباً لهم. وقد أطلق عليهم العرب فيما بعد اسم المجوس.

وكان أول ظهور لهم في المياه الإسبانية في سنة **٨٤٣م**، ففي تلك السنة خرج أسطول نورماني من نهر الجارون، واستولى على شواطىء مملكة جليقية، فبعث ملكها راميرد (رذمير) إليهم جيشاً ردّهم وأحرق كثيراً من سفنهم، فانقلب النورمانديون عندئذ إلى مياه إسبانيا الغربية والجنوبية، يجوبها في طلب الغنائم والسبي، واقتحموا شواطىء الأندلس.





غزوة النورمانديين للأندلس

كانت هذه الغزوة الأولى في أواخر سنة **٢٢٩هـ**/ يوليو أو أغسطس سنة **٨٤٣م**، فقد رسا في هذا التاريخ أسطولاً مجوسياً (نورمانياً) قوامه زهاء ثمانين مركباً في ميناء لشبونة (وهي عاصمة البرتغال الحديثة)، فكتب عاملها وهب الله بن حزم إلى عبدالرحمٰن بن الحكم ينبئه بالخطر، فكتب عبدالرحمٰن إلى عمّال الثغور بالتحوُّط والأهبة، ولبث النورمانيون في مياه أشبونة ثلاثة عشر يوماً التحموا خلالها مع المسلمين في عدة مواقع، ثم ساروا بأسطولهم جنوباً إلى قادس، ثم شذونة، ثم اخترقوا النهر الكبير (الوادي الكبير) حتى إشبيلية، وكان ظهور هذه السفن الغازية، وأولئك الغزاة الشقر في قلب الأندلس، مفاجأة مروعة، ولم يكن للأندلس يومئذ أسطول قوي تدفع به شرَّ الغزوات البحرية، ولم تتخذ في الثغور أهبات خاصة، ونزل النورمانديون في ظاهر إشبيلية في أوائل المحرم سنة **٢٣٠هـ**/ سبتمبر سنة **٨٤٣م** وكانت يومئذ دون أسوار تحميها من العدوان المفاجىء، وكانت مفاجأة مروعة لأهلها الذين لم يتخذوا أية أهبة خاصة للدفاع عن أنفسهم، وعبثاً حاول المسلمون ردَّ الغزاة، واقتحم النورمانيون إشبيلية وأمعنوا في أهلها سفكاً ونهباً وسبياً، وعاثوا فيها مدى سبعة أيام أشنع عبث، ثم غادروها وعسكروا في ظاهرها في قرية طليطلة الواقعة غربي إشبيلية، وفي تلك الأثناء بعث الأمير عبدالرحمٰن قواتٍ من الخيل على عجلٍ لإنجاد إشبيلية بقيادة عبدالله بن كليب ومحمد بن رستم، وجعل على قوات قرطبة حاجبه عيسى بن شهير، وهرع المسلمون من كل صوب للجهاد وردِّ الغزاة.

وقاد القوات المتحدة نصر الخَصيّ، وتلقى النورمانيون المدد في سفن جديدة قدمت إليهم، ونشبت بين الفريقين في البداية معارك محلية عديدة، تفوّق فيها النورمانيون، وفي الخامس والعشرين من صفر سنة ٢٣٠هـ، نشبت بينهما معركة حاسمة تجاه قرية طليطلة، وكان على رأس قوات المسلمين محمد بن رستم، فهزم النورمانيون بعد قتال عنيف، وقتل منهم نحو ألف، وأسر ما يزيد على أربعمائة، وأحرق من سفنهم ثلاثون، وكان قائدهم بين القتلى، وارتدّ النورمانيون إلى سفنهم وتحصّنوا بها، وقتل المسلمون أسراهم أمام أعينهم، وصلبوا على جذوع النخل، ثم أقلعت سفن الغزاة مرتدة إلى الجنوب والمسلمون من ورائهم يطاردونهم ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع، وانتقم النورمانيون لأنفسهم أثناء ارتدادهم بالإغارة على لبلة وباجة، ثم انتهوا ثانية إلى ثغر إشبونة حيث غادروا مياه الأندلس مع باقي سفنهم، بعد أن لبثوا بضعة أسابيع يبثون فيها الرعب والروع(١).

وقد طالت غزوة النورمانيون، منذ نزولهم بأرض إشبيلية، إلى أن تمّت هزيمتهم وإقلاعهم، اثنين وأربعين يوماً، عانى فيها المسلمون محناً وشدائد كثيرة ارتجت لها ربوع الأندلس كلها، فلما انقشعت الغمّة، بادر الأمير عبدالرحمٰن الأوسط فبعث بالكتب إلى سائر الآفاق معلنة هذا النصر على العدو المغير، وبعث بها بالأخص إلى أمراء العدوة، ومعها طائفة من رؤوس أكابر النورمانيين القتلى. وأغدق الأمير ثناءه وصلاته على نصر الحضي الفتى القريب إلى قلبه والأثير لديه، وكان قوامَهُ العام في تلك المعركة الكبرى(٢).

وكان لهذه المفاجأة المروعة أثرها في حكومة الأندلس، فاهتمت بأمر الأسطول والتحصينات البحرية، فابتنى عبدالرحمٰن حول إشبيلية سوراً ضخماً وأنشأ بها داراً عظيمة للصناعة، واهتم بصنع السفن الحربية الكبيرة، وحشد

---

(١) ابن الأثير جـ٧ ص٧.

(٢) البيان المغرب جـ٢ ص٨٩، ٩٠.

لها المقاتلة من شواطىء الأندلس، فكانت نواة الأسطول الأندلسي الكبير الذي بلغ في عهد عبدالرحمٰن الناصر زهاء مائتي سفينة. وعلى أي حال فقد أدرك النورمانيون أن الأندلس لم تكن فريسة هينة. وعقب هزيمة النورمانيين في هذه الغزوة الأولى سعوا إلى الصلح مع أمير الأندلس، وبعثوا رسلهم في طلب السلم والمهادنة، وأن الأمير الأندلسي عبدالرحمٰن الأوسط بعث كاتبه يحيى الغزال إلى ملكهم ليرد السفارة.

ولم يمضِ قليل على رد الغزاة النورمانيين، حتى بادر عبدالرحمٰن إلى استئناف الغزو، فسيَّر بالصائفة إلى الشمال جيشاً بقيادة ولده هشام، ومعه الوزير عيسى بن شهير، فاخترق قشتالة القديمة، وسار صوب ناڤار، وغزا بنبلونة، ووافاه هناك موسى بن موسى والي تطيلة، فقدّم طاعته، ومنح الأمان، وأمر على ولايته.

وفي العام التالي سيَّر عبدالرحمٰن بالصائفة قواته مرة أُخرى إلى الشمال، بقيادة ولده محمد، فاخترق بسائط جليقية، وحاصر عاصمتها ليون. ولجأ النصارى إلى الجبال، ثم ارتدّ عنها بعد أن عاث فيها قتلاً وتخريباً (سنة **٢٣١هـ/ ٨٤٥م**) وعصف بالأندلس في العام التالي قحط شديد، وهلكت الزروع والماشية، وقاست البلاد من ويلاته مدى أشهر.

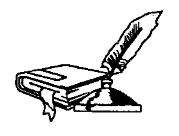
في سنة **٢٣٣هـ/ ٨٤٧م** ظهر بالثغر الفرنجي، في شمال شرق إسبانيا، زعيم يدعى «جبين دي تولوز» وهو فيما يرجح من تسمية الرواية العربية «غليالم ابن برباط بن غليالم»(١).

وكان غليالم قد أعلن الخروج والثورة على ملك الفرنج «شارل الأصلع» ووفد في العام السابق على بلاط قرطبة، يلتمس التأييد والعون، فاستقبله عبدالرحمٰن بترحاب، وأمدّه بعونه، فعاد إلى الثغر وعاث فيه بقواته، وحاصر برشلونة وخرّب حصونها، وهاجم جرندة، وكتب عبدالرحمٰن إلى عامله على طرطوشة عبدالله بن يحيى، وعامله على سرقسطة

---

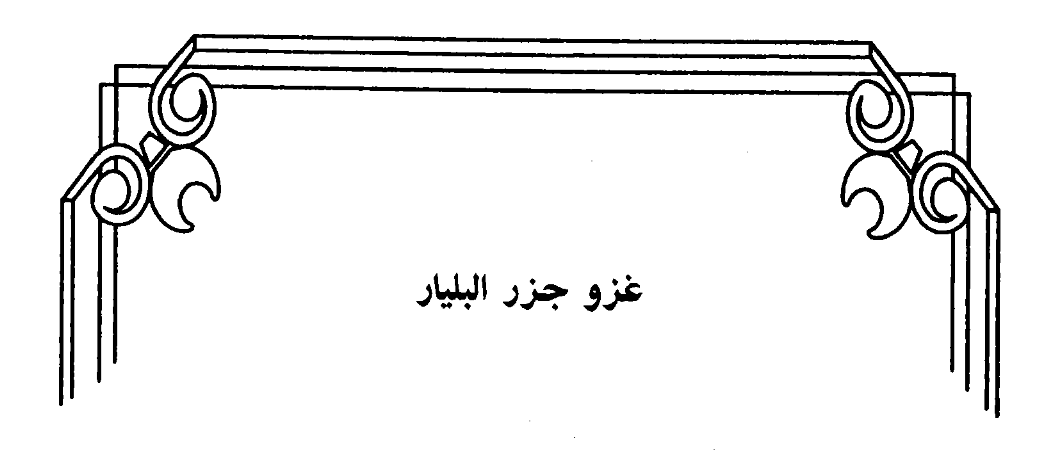
(١) د. عنان في دولة الإسلام في الأندلس ع١ ق١ ص٢٦٥.

عبدالله بن كليب في إمداده وتأييده في ثورته ضد ملك الفرنج[1]. وقد وقعت على أثر ذلك مفاوضات بين عبدالرحمٰن وشارل الأصلع بعقد الهدنة والسلم بينهما. وفي نفس العام نقض موسى بن موسى بن قسي (القسوي) العهد، وعاد إلى الثورة، وعاث في أحواز تطيلة وطرسونة وبرجة من أعمال الثغر الأعلى، وظاهره أخوه لأمه فرتون إنيجز (ابن ونقة) أمير بنبلونة، فبعث إليه عبدالرحمٰن جند الصائفة بقيادة عباس بن الوليد المعروف بالطبلي، فطارده حتى أُرهق وأعلن عَوْده إلى الطاعة، وقدّم ولده إسماعيل رهينة كفالة بولائه، فقبل عبدالرحمٰن طاعته، وأقره على ولايته تطيلة، ودخل معه في هذا الصلح أخوه فرتون إنيجز[2].



(١) المصدر السابق ٢٦٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.



غزو جزر البليار

جزيرتَيْ ميورقة ومنورقة هما أكبر الجزائر الشرقية (جزر البليار)، وفي سنة **٢٣٤هـ/ ٨٤٨م** أراد عبدالرحمٰن الأوسط معاقبة أهلها لتعرضهم لسفن المسلمين المجاهدين والإضرار بهم، فبعث بقوة بحرية كبيرة، واستطاعت قوة المسلمين إخضاعها والإثخان فيها، وأصابوا كثيراً من السبي، وبعث أهلها إلى الأمير يطلبون الأمان ودفع الجزية، ويتعهدون بالولاء والطاعة، فأجابهم إلى ما طلبوا، وكانت مياهُ إسبانيا الشرقية قد غدت منذ عهد هشام مركزاً للحملات البحرية المتجهة نحو الشمال والشرق، وكان قوام هذه الحملات في الغالب جماعات من البحّارة والمجاهدين الذين يجوبون هذه المياه طلباً للغنيمة والسبي، ويثخنون في الثغور والجزر النصرانية القريبة. ففي سنة **١٩١هـ/ ٨٠٦م** في عهد الحكم، غزت إحدى هذه الجماعات البحرية الأندلسية المغامرة جزيرة كورسيكا (قورسقة) فبعث ييين ابن شارلمان ملك إيطاليا أسطولاً لقتالهم، فهزموه واستولوا على كثير من الغنائم والسبي. ولم يمضِ عامان على ذلك، حتى عاد البحّارة المسلمون إلى غزو شواطىء كورسيكا وسردانية، ثم توالت غزواتهم بعد ذلك.

وفي سنة **٢٢١هـ/ ٨٣٦م** خرج أسطول أندلسي من ثغر طركونة والجزائر الشرقية وسار إلى مياه فرنسا الجنوبية، وهاجم المسلمون ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضي وأثخنوا فيها، وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس ابن شارلمان، وكان ملكاً ضعيفاً عاجزاً، فلما توفي سنة **٨٤٠م** اضطربت أحوال المملكة، وضعُفَت حماية الثغور، فانتهز البحّارة المجاهدون

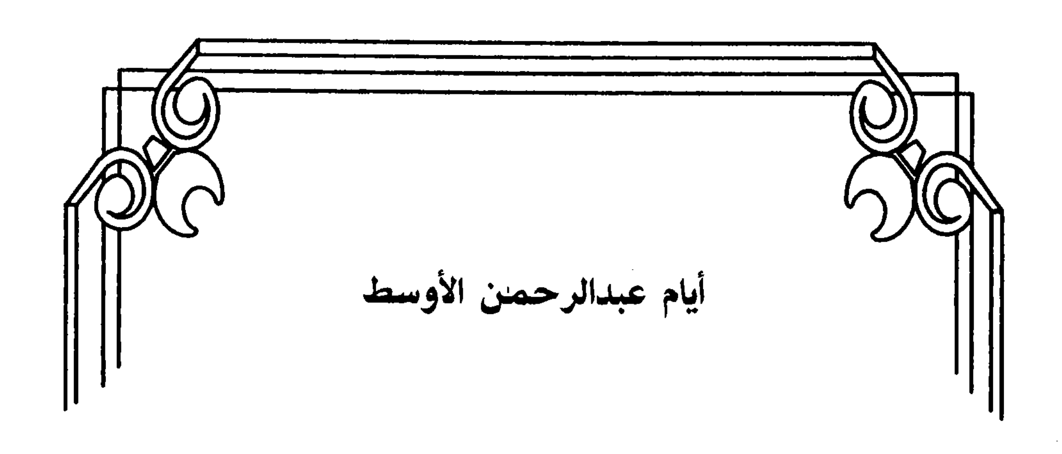
هذه الفرصة، وغزوا ولاية بروڤانس عند مصب نهر الرون، وهاجموا مدينة آرل وخربوها، ثم توالت غزواتهم في تلك المياه بعد ذلك، وكان من أثرها أن قامت مستعمرات عربية كثيرة في بروڤانس وفي أنحاء أخرى في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا.

❋ ❋ ❋

موقعة البيضاء

البيضاء محلة صغيرة في الشمال مجاورة لبقيرة، وتجري أحداث هذه الموقعة في الشمال وفي سنة **٢٣٧هـ/ ٨٥١م** وفيها اضطرمت الحرب في الشمال بين المسلمين والبشكنس، وكان هؤلاء قد أغاروا على الأراضي الإسلامية المجاورة في أقصى الثغر الأعلى، فتصدّى لردِّهم موسى بن موسى والي تطيلة، وكان يومئذ على ولائه لحكومة قرطبة، ووقعت الحرب بين المسلمين والبشكنس في جنوبي بنبلونة على مقربة من بقيرة، فهُزم المسلمون أولاً، وأُثخن قائدهم موسى بن موسى جراحاً، ولكنه استأنف المعركة في اليوم التالي، وكرَّ على العدو بشدة، فهُزِمَ البشكنس شرَّ هزيمة، وقتل منهم عدد كبير، وتسمى هذه الموقعة بموقعة البيضاء.





أيام عبدالرحمن الأوسط

كانت أيام عبدالرحمن أيام سكينة وأمن ورخاء، وفي تلك الأيام ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة، وورد على الأندلس كثير من الأمتعة والسلع الفاخرة، وزخرت الأسواق بالبضائع، وزاد الدخل زيادة عظيمة، وبلغت الجباية وحدها زهاء ألف ألف دينار في السنة، واستطاع الأمير أن ينفق بسخاء على تسيير الحملات الغازية وإقامة المنشآت المختلفة(١). وأصبحت إمارة الأندلس تعج بالخير والنماء والحركة، خير الماء ونماء الاستثمار وحركة العمران.

❋ ❋ ❋

عبدالرحمن والأدب والثقافة

كان عبدالرحمن بن الحكم أديباً مثقفاً حسن التثقيف، وكاتباً بليغاً مشرق البيان، عالماً بالشريعة والحكمة (الفلسفة)، مجيداً للنظم، يهتم كثيراً بالعلوم والآداب، يحتشد حوله جمهرة من أكابر العلماء والأدباء والشعراء، مثل العلامة الرياضي والفلكي عباس بن فرناس، ويحيى الغزال، وشاعره الخاص عبدالله بن الشمر بن نمير وكان صديقه مذ كان ولياً للعهد، وكان بارعاً في الأدب والشعر والمنطق والتنجيم، وكان يكشف لعبدالرحمن نجمه

(١) الحلة السيراء لابن الآبار ص٦١، والبيان المغرب جـ٢ ص٩٣ وما بعدها.

وطالعه، وعباس بن ناصح الجزيري شاعر أبيه الحكم، وعبيدالله بن قرلمان بن بدر مولى الداخل، وكان من جلسائه وخاصته وكان أديباً بارعاً، وشاعراً مجيداً، وغيرهم، ومن نظمه قوله:

ولقد تعارض أوجه لأوامر ... فيقودها التوفيق نحو صوابها
والشيخ أن يحو النهى بتجارب ... فشباب رأى القوم عند شبابها

وقوله وقد خرج غازياً إلى جليقية:

فكم قد تخطيت من سبسب ... ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقي بوجهي سموم الهجـ ... ـير إذ كاد فيه الحصى أن يذوبا
تدارك بي الله دين الهدى ... فأحييته وأمتُّ الصليبا
وسرت إلى الشرك في جحفل ... ملأت الحزون بها والسهوبا

ومن قوله في الغزل:

قتلتني بهواكا ... وما أحب سواكا
من لي بسحر جفون ... تديره عيناكا
وحمرة في بياض ... تكسى به وجنتاكا
اعطف عليَّ قليلاً ... وأحيني برضاكا
فقد قنعت وحسبي ... أن أرى من رآكا

وقد عُرِفَ عبدالرحمٰن بشدة حبه لأقاربه وذوي رحمه وحنوّه عليهم بدرجة لم يجاره فيها أحد من أهل بيته، فكان يوليهم وافر عطفه وحسن معاملته، ويجري عليهم الصلات السخية، فيعطيهم بسخاء شديد، وفي أيامه وفد من المشرق عدد من قرابته المروانية (بني أمية) فاستقبلهم جميعاً أحسن استقبال، وأنزلهم أكرم منزل، وأجرى عليهم الأرزاق والإقطاعات الواسعة.

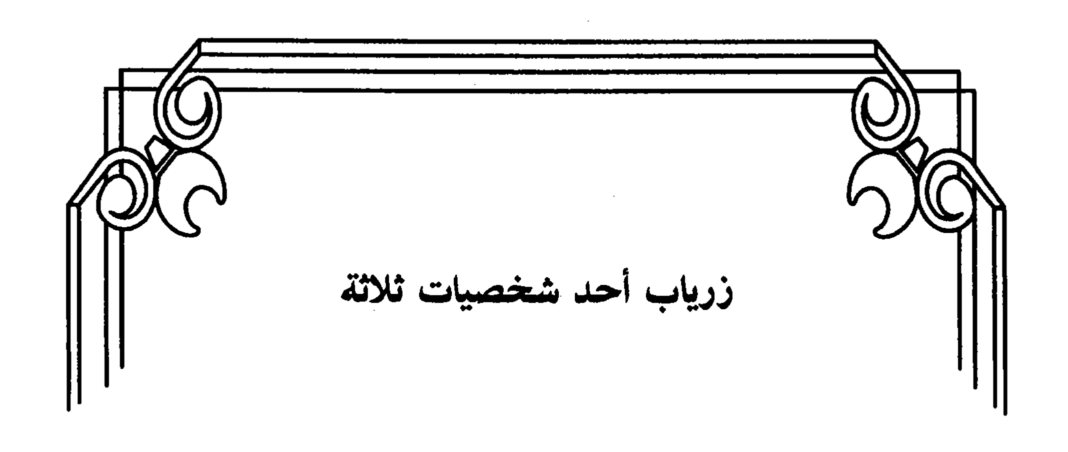
وكان عبدالرحمٰن يعشق الفلك والتنجيم ويشغف بدراسته، وكان العلامة الرياضي ابن فرناس، وعبيدالله بن الشمر، وعبدالواحد بن إسحاق

الضبي من أساتذته في ذلك الفن، وكان يقربهم ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، وله معهم قصص ونوادر كثيرة، وكان أيضاً يعشق الغناء والموسيقى، ويجمع حوله عدداً من أكابر الفنانين يجري عليهم الأرزاق الواسعة، وفد عليه من المشرق أبو الحسن علي بن نافع الملقب بـ (زرياب) نابغة الغناء والموسيقى، وكان زرياب من تلاميذ الفنان الشهير إسحاق الموصلي مغني الرشيد، فلما ظهر نبوغه، وشعر أبو إسحاق الموصلي بخطورة منافسه زرياب، تحيَّل في صرفه وإبعاده، فغادر بغداد إلى المغرب، وكتب إلى الحكم أمير الأندلس يستأذنه في الوفود عليه، فأذن له واستدعاه، ولكن زرياب ما كاد يصل إلى المغرب حتى علم بوفاة الحكم، وكاد ينثني عن عزمه في العبور إلى الأندلس لولا أن جاءه كتاب عبدالرحمٰن بدعوته والترحيب به، فسار إلى قرطبة، واستقبله عبدالرحمٰن بمنتهى الإكرام والحفاوة، وأجرى عليه الأرزاق الواسعة، وجعله من خاصة بطانته، وبهر زرياب أهل الأندلس ببراعته في الغناء والموسيقى، وأخذ عنه أهل الأندلس فنونه وإبداعه، وتشبّهوا به في مظاهر زيه وأناقته وطرائق معيشته، وتوفي في ربيع الأول سنة **٢٣٨هـ** /أغسطس **٨٥٢م** قبيل وفاة عبدالرحمٰن بأسابيع، وكان لزرياب وفنه أعظم الأثر في تكوين الفن الأندلسي في ظل الدولة الأموية، ثم في ظل دول الطوائف(١).



---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٢٥٧، نفح الطيب جـ٢ ص١٠٨ وما بعدها.



زرياب أحد شخصيات ثلاثة

يذكر المؤرخون أن فترة حكم عبدالرحمٰن الأوسط تميزت بشخصيات ثلاث:

الأول: الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثي.

والثاني: زرياب (أبو الحسن علي بن نافع).

والثالثة: الجارية طروب، أم ولده عبدالرحمٰن.

❋ ❋ ❋

١ ـ الفقيه المحدّث يحيى بن يحيى الليثي

الفقيه المحدّث يحيى الليثي، أصله من بربر مصمودة، وكان تلميذاً للإمام مالك بن أنس، رحمه الله، وقد سماه الإمام مالك عاقل الأندلس، وقد قيل: يحيى عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيهها، وعبدالملك بن حبيب عالمها[١].

وقد نال يحيى منزلة رفيعة عند الأمير عبدالرحمٰن الأوسط، فكان يعيِّن القضاة ويعزلهم، ويقول ابن حزم: «فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان، مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلاَّ بمشورته واختياره، ولا يشير إلاّ بأصحابه ومن كان معه على

(١) الوفيات ٦/١٤٥، وفيات الأعيان لابن خلكان.

مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به»[1].

ويحيى بن يحيى هذا كان ممن اتُّهم بإثارة الفتنة المعروفة بفتنة الربض، ففرّ إلى طليطلة، ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أماناً، عاد بعده إلى قرطبة، وعمل يحيى حتى استعاد نفوذه أيام الأمير عبدالرحمٰن، وكان الأمير يجلُّه ويحترمه ويأخذ بفتواه.

ومن ذلك، أن الأمير عبدالرحمٰن قد نظر في شهر رمضان إلى جارية له كان يحبها حبّاً شديداً، فعبث بها ولم يملك نفسه أن وقع عليها، ثم ندم ندماً شديداً. فسأل الفقهاء عن التوبة من ذلك وكفارته، فقال يحيى بن يحيى: يكفر ذلك بصوم شهرين متتابعين.

فلما أفتى يحيى بهذه الفتوى، سكت الفقهاء حتى خرجوا من عند الأمير، فقال بعضهم لبعض وقالوا ليحيى: ما لك لم تفته بمذهب مالك، فعنده أنه مخير بين العتق والطعام والصيام؟

فقال يحيى رحمه الله: لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود[2].

هكذا كانت أمانة الفقيه يحيى بن يحيى وحرصه على مصالح أمير المؤمنين وحاكم رعيتهم، فهو يصعِّب الكفارة عليه، ويفتي بأصعبها عليه حتى لا يعود إلى ذلك مرة أخرى، ومن هنا يجيء دور الفقيه في بناء دولة المسلمين.

❋ ❋ ❋

 ٢ - زرياب

لما نجح زرياب في المشرق وذاع صيته، وهو تلميذ إسحاق الموصلي، خشي الموصلي على مكانته لتفوق زرياب عليه، وبراعته فيما لم

(١) المصدر السابق جـ٦ ص١٤٤.

(٢) المرجع السابق ١٤٥/٦.

يصله الموصلي، فهدّده الموصلي بالموت أو الفرار من هذا البلد، ففضّل أن يخرج بنفسه وأهله وولده، ووصل الأندلس في عهد الأمير عبدالرحمٰن بن الحكم.

وكان لوصول زرياب إلى الأندلس وتلقي الأمير له وإنزاله في دار من أفخم دور الأندلس أثر كبير في حياة الأمير، فقد تحول بعض ميله إن لم يكن كله إلى الغناء والموسيقى، حتى إنه أعطى جزءاً من وقته لزرياب، ولم يهمل الفقهاء، واستطاع أن ينظم وقته بين هذا وذاك، وأحبّ غناء زرياب وموسيقاه.

ومن شدة حبه لفن زرياب أمر له بثلاثين ألفاً، فلم يرضَ خازن المال أن يصرف لمغنٍّ هذا المبلغ الكبير، فدفعه الأمير من جيبه الخاص، وفتح له باباً خاصاً في قصره يستدعيه متى يشاء(١).

ومما لا شك فيه فإن الانشغال بزرياب وفنه، قد أخذ من وقت الأمير ما هو حق لدولة الإسلام في الأندلس، فهذا الوقت كان المسلمون في حاجة له، وخاصة أن أعداءهم كانوا يترصدون لهم ويقفون لهم على الأبواب لإخراجهم من الأندلس والقضاء على دولتهم.

❋ ❋ ❋

٣ ـ طروب

طروب كما ذكرنا هي جارية جميلة، فاتنة الجمال، هام بها عبدالرحمٰن حبّاً، فملكت عليه شغاف قلبه، فأصبح يرى الحياة بدونها لا حياة، كما ذكر هو في أبيات من شعره، تلك الجارية الجميلة التي كانت تذل سلطانه بجمالها الفتان، كلما نظر إليها أخذته بل انتزعته من عالمه إلى عالمها الفتان، وكانت تغلق دونه أبواب مجلسها فلا تفتحها في وجهه، وهو يبذل قصارى جهده برغم ما تفعله في سبيل إرضائها.

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٢٣٤.

ومما يذكره المؤرخون أنه كان يسد الباب ببدر الدراهم، ويقف يستعطفها لتفتح له، وترضى بوصاله، وهي لا تفتح حتى يخبرها بأن لها البدر التي سد باب مجلسها، تلك الجارية هي طروب أم ولده عبدالله، وهي جارية من جواري الشمال اللاتي أحبهن، إذ كان كثير الميل للنساء[1].

كانت طروب تشعر بحب الأمير لها، وهيامه بها، فحاولت أن تولي ابنها عبدالله ولاية العهد، وبذلت في ذلك الكثير، حتى بلغ بها أن تتآمر على الأمير عبدالرحمٰن كما ذكرنا، وعلى من كانت تعتقد أنه سيكون ولي عهده، وقد ذهب ضحية المؤامرة فتى القصر «نصر» الذي كان متولياً شؤون تصريف الدولة، وانكشفت المؤامرة في سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م وقتل فيها الفتى نصر.

هذه الشخصيات الثلاث أخذت الكثير من جهود الأمير عبدالرحمٰن الأوسط، فالفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثي، كان يقضي معه وقتاً ليستفتيه في أمر ألمَّ به أو يسمع منه في قاضٍ من قضاة الأندلس الذين كان يهتم الفقيه بتعيينهم أو إعفائهم، وكفى بذلك، وهذا وقت قصير جداً، ولولا أن يحيى كان يكفي الأمير تعيين القضاة وعزلهم، لما أعطاه هذا الوقت. أما زرياب المغني فكان يستأثر بوقت الأمير، فكان الأمير عبدالرحمٰن يطلب زرياب ليطربه متى شاء، وما أكثر أوقات الطرب عنده في سفره وحضره. وقد أكرمه الأمير إكراماً زائداً، وبالغ في إعطاء المال له ولأسرته، وقد فتح الأمير لزرياب باباً خاصاً في قصره حتى يستدعيه متى شاء، فأصبح لزرياب خصوصية لدى الأمير لم ينالها محظي غيره.

وكانت طروب تنافس زرياب في وقت الأمير، غير أن زرياب كان لا يستطيع أن يصدَّ الأمير ويهجره، وهي كانت تصده وتهجره حتى يقف ببابها مستجدياً وصلها ويرجوها ألاَّ تصده وتهجره. وبرغم افتتان عبدالرحمٰن بزرياب، وحبه وشغفه بطروب، فإنه أعطى للفقيه يحيى الليثي حقه، ولم

---

(١) تراجم إسلامية د. محمد عبدالله عنان.

يمكّن زرياب من نفسه حتى يضيع عليه وقته، واستطاع أن يرغم حبه لطروب حتى سلب منها ولاية العهد التي كانت تتمناه لابنها.

ويقول الدكتور العبادي: «انتقل زرياب إلى الأندلس ونقل معه الحياة العراقية بمظاهرها الفنية والاجتماعية، ولقيت مدرسته الموسيقية الممثلة في شخصه وفي أبنائه وبناته وجواريه نجاحاً كبيراً طغى على مدرسة الحجاز القديم التي أخذت في الضعف والزوال وإن كان تأثيرها ظلّ باقياً في حدود ضيقة إلى ما بعد القرن الرابع الهجري (١٠م)»[١].

وقد تحدّث المؤرخون عن زرياب ومدى تأثيره في الحياة الأندلسية حتى ليخيل إلينا أن زرياب قد حمل معه بغداد ووضعها في قرطبة، فهو الذي علّم الأندلسيين طرقاً موسيقية جديدة في كيفية ابتداء الغناء وكيفية إنهائه، وجعل مضراب العود من قوادم النسر (أي ريش النسر) بدلاً من الخشب، مما يساعد على نقاء الصوت وسلامة الوتر، ثم إنه أضاف وتراً خامساً للعود جعله في الوسط وهو يقابل النفس من الجسد، بينما الأوتار الأربعة الأُخرى تقابل الطبائع البشرية الأخرى وهي الدم والصفراء والسوداء والبلغم، وما زالت موسيقى زرياب ممثلة في الموسيقى الأندلسية المعروفة حتى اليوم في المغرب والجزائر وتونس.

كذلك علّم زرياب الأندلسيين طريقة الطهي العراقي، وضرورة الترتيب في تقديم الأطعمة بدلاً من وضعها دفعة واحدة، فيبدأ الإنسان بالحساء أو المقبلات ثم بالخضراوات واللحوم ثم بالحلوى أو الفاكهة، وأشار عليهم بأكل الإسفراج (الهليون) واستعمال الأواني الزجاجية بدلاً من الأواني الفضية والذهبية[٢]. كذلك علّم زرياب أهل قرطبة تصفيف شعورهم ورفعه خلف الآذان بدلاً من تركه مسدولاً على جباههم وأعينهم، كما أشار عليهم بلبس الملابس في أوقاتها المناسبة من حيث اللون أو الخفة والثقل، فالشتاء يحتاج إلى المعاطف الصوفية أو الجلدية والملابس الفاتحة اللون بينما تستعمل

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ـ د. أحمد مختار العبادي ص١٠٣.

(٢) المصدر السابق ص١٠٣.

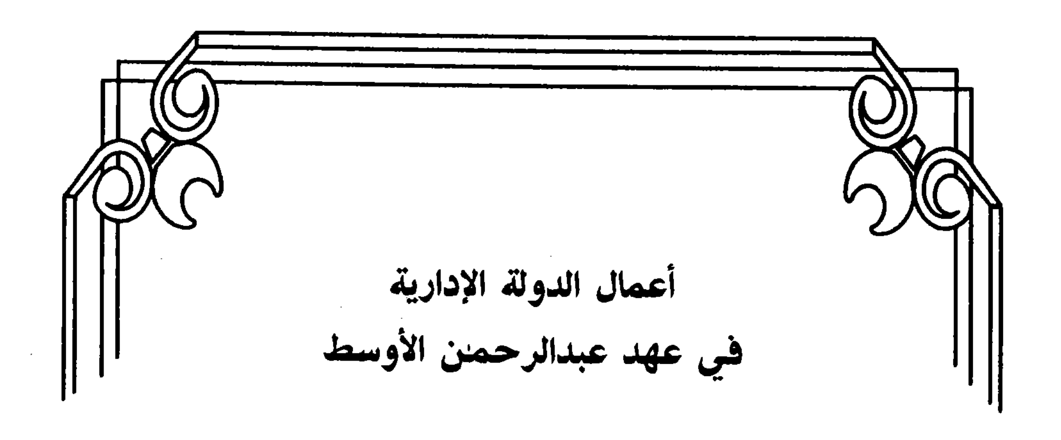
الملابس الخفيفة الزاهية الألوان في الصيف والربيع.. وقد عُرفت هذه الإصلاحات كلها باسم مراسم زرياب[1].

وتُعد مراسم زرياب هذه رمزاً لتلك الحضارة الشرقية العراقية التي غمرت الأندلس أيام عبدالرحمٰن الأوسط والتي تمثل نزعة التجديد والأناقة، وهي المودة في ذلك العصر.

وقد لوحظ أن الأندلسيين لم يتقبلوا هذه الحضارة العراقية بسهولة، إذ قام بعض علمائهم ووزرائهم بمعارضة زرياب وحضارته، أمثال: تمام بن علقمة والشاعر يحيى الغزال، مما اضطر الأمير عبدالرحمٰن إلى التدخل لحماية زرياب من زياد بن علقمة، ونفى يحيى الغزال، وصالح بين زرياب وبين الوزراء، وهذا يدل على أن الأندلسيين كانوا يتجهون اتجاهاً داعياً نحو الحضارة التي يأخذون منها.



(١) انظر نفح الطيب جـ٤ ص١٢٠، ١٢٤.



أعمال الدولة الإدارية
في عهد عبدالرحمن الأوسط

كان عصر عبدالرحمٰن الأوسط عصراً حافلاً بالأعمال الجليلة في الجوانب الإدارية، حتى قيل إن البلاد في عهده خرجت من طور البداوة إلى عهد الحضارة. فمن الناحية الإدارية نجد أن هذا الأمير هو الذي أعاد ترتيب الجهاز الحكومي في الأندلس، وأجرى تعديلات في الوظائف العامة، ومن أهمها خطة الوزارة التي خصّها بعنايته، وقسمها إلى عدة وزارات مختلفة، وعن ذلك تحدّث المؤرخون، فقال ابن حيان[1]: «والأمير عبدالرحمٰن أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم، والتكلم معهم في الرأي، والمشورة لهم في النوازل، وأفرز لهم بيتاً رفيعاً داخل قصره، مخصوصاً بهم، يقصدون إليه، ويجلسون فيه فوق أرائك قد نُضِّدت لهم، فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعةً وأشتاتاً، ويخوض معهم فيما يطالع من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأي فيما يُبرمه من أحكامه. وإذا قعدوا في بيتهم (أي بيت الوزارة) أخرج رقاعهُ ورسائله إليهم بأمره ونهيه، فينظرون فيما يصدر إليهم من عزائمه.. وجرى على ذلك من تلاهم».

ويقول ابن عذارى: إن وزراء الأمير عبدالرحمٰن الأوسط كانوا تسعة، وأن رزق كل واحد منهم كان ثلاثمائة دينار[2].

---

(١) المقتبس في أخبار بلد الأندلس ص١٩٦.

(٢) البيان المغرب، جـ٢ ص١٢١.

ولم يحدّد ابن عذارى المدة المستحقة لهذا الراتب، وإن كان يبدو أنه كل شهر في الغالب، وهذا يعتبر قليلاً إذا قورن براتب الوزير في بغداد أو القاهرة، أو في قرطبة فيما بعد[١].

ويقول ابن خلدون: «وأما دولة بني أمية في الأندلس، فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أقساماً وأصنافاً، وأفردوا لكل صنف وزير، فجعلوا لحسبان المال وزيراً، وللترسيل وزيراً، وللنظر في حوائج المظلومين وزيراً، وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً، وجعل لهم بيتاً يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحداً منهم، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم الحاجب، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم»[٢].

وقد أشار ابن سعيد المغربي إلى أن مناصب الوزارة في الأندلس كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم في البيوت والعائلات المعلومة، مثل بني جدير، وبني أبي عبدة، وبني شهيد، وبني فطيس، وكلهم من موالي الأمويين المشرقيين أو الأندلسيين[٣].

منذ ذلك نعرف أنه كان يوجد بالأندلس منذ عهد الأمير عبدالرحمٰن الأوسط وزارة متعددة المناصب لها رئيس وزراء، وهو الحاجب الذي يتصل بالخليفة. وهذا التعدد في مناصب الوزراء لا نجده في نظام الوزارة بالشرق العربي، حيث كانت السلطة مركزة في يد وزير واحد وقلما وجد وزيران، أما في الأندلس، فكل ناحية من نواحي الإدارة العامة لها وزير مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة وهي الحجابة، وهناك بيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء في قصر الخليفة، فالوزارة في الأندلس كانت قريبة الشبه بنظم الوزارات الحديثة، وهي في هذا تختلف عن نظام الوزارة المعروف في

(١) في تاريخ المغرب والأندلس ـ د. العبادي ص١١٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٢٣٩، ٢٤٠.

(٣) نفح الطيب للمقري جـ١ ص١٩٩، ٢٠٠.

المشرق بل أوروبا في المشرق بل أوروبا في العصر الوسيط، ومن ثم فهو إنجاز حضاري كبير[1].

وقد ذُكِرَ أن من بين وزراء عبدالرحمٰن الأوسط وزيراً إسكندرياً ذهب إلى الأندلس في صباه، وظلّ يترقى إلى أن صار وزيراً. ويقول ابن حيان في المقتبس: ومن وزرائه عبدالواحد بن يزيد الإسكندراني الذي حضر إلى الأندلس وهو فتى، وكان يشدو شيئاً من الغناء على مذهب الفتيان، فأمره الحاجب عيسى بن شهيد بقوله: أمسك عن الغناء البتة فإنه يريبك لدنيا، وتحقق لأربك، وتنبه لحظك، فلك خصال تجذب بصنعك. ففعل عبدالواحد ذلك، ولزم عيسى بن شهيد، فظلّ يترقى في منال الخدمة حتى رقي إلى الوزارة والقيادة»[2].

وقد اهتمّ عبدالرحمٰن الأوسط كذلك بمشاكل الأمن الداخلي في العاصمة، فبعد أن كانت كلها مركزة في يد شخص واحد يدعى بصاحب السوق، جعلها مقسمة على عدة أشخاص وهم:

أولاً: صاحب السوق، وقد اقتصر عمله على مراقبة الأسواق والنظر في مشاكلها التموينية، وهي وظيفة المحتسب فيما بعد.

ثانياً: صاحب الشرطة العليا، وينظر في قضايا علية القوم.

ثالثاً: صاحب الشرطة السفلى، وينظر في قضايا عامة الناس.

رابعاً: صاحب المدينة، ويشرف على المرافق العامة في المدينة التي تقوم مقام المجلس البلدي اليوم.

وهذه الوظائف كانت تتغير في اختصاصاتها أحياناً ولكنها تتفق جميعاً في الإشراف على الأمن الداخلي أو ما يسمى بالقضاء المدني. كذلك وضع عبدالرحمٰن الأوسط نظاماً جديداً للسكة (العملة)، فأنشأ في قرطبة داراً

---

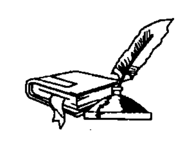
(١) د. العبادي ـ مصدر سابق ص١١٦.

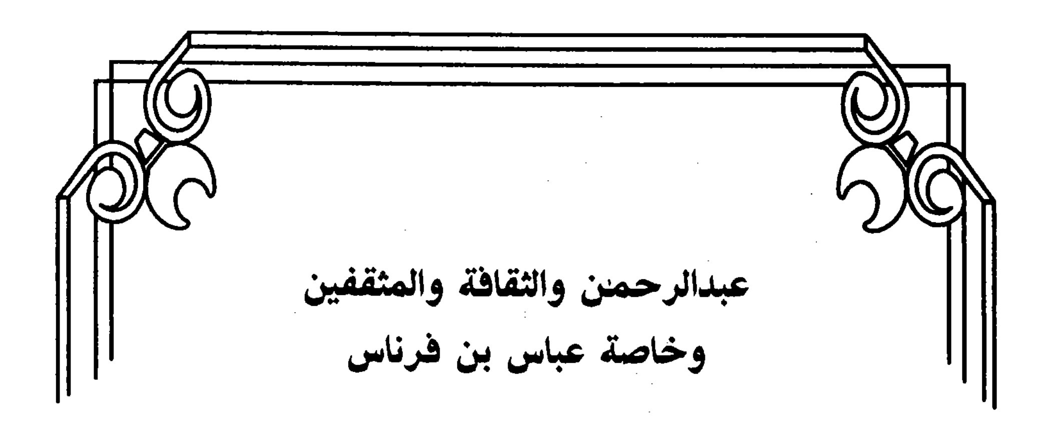
(٢) ابن حيان في المقتبس.

جديدة للسكة، وقبل ذلك الوقت كانت النقود التي تُضرب في الأندلس قليلة ونادرة وكلها دراهم برونزية وفضية بسيطة، أما الدّنانير الذهبية فكانت قليلة التداول وكلها مضروبة في المشرق أو في شمال إفريقية، وكان البيع والشراء في معظم الحالات يقوم على أساس المقايضة أو التبادل بالسلع والبضائع، فعبدالرحمٰن الثاني هو أول من ضرب نقوداً أندلسية مستقلة ثابتة.

ومن أعمال عبدالرحمٰن: بناء مدينة «مرسية» سنة **٢١٦هـ/ ٨٣١م** على يد جابر بن مالك بن لبيد عامل تدمير، وكانت مرسية قبل ذلك قرية خاملة في كورة تدمير على الساحل الشرقي الأندلسي، ثم لم تلبث أن صارت قاعدة للكورة، ثم سميت الكورة كلها باسمها.

كذلك أحاط إشبيلية بسور حجري كبير بعد غارة النورمانديين عليها. وبنى عبدالرحمٰن الأوسط لنفسه قصراً جديداً بجوار قصر الإمارة القديم وجلب إليه الماء العذب من قمم الجبال المحيطة بقرطبة، كما أقام فيه أبراجاً مغطاة بالزجاج الشفاف لتكشف المناظر الطبيعية التي أمامه مثل الوادي الكبير وما فيه من سقف وصحراء الربض وما وراءها من مزارع، وهي المعروفة باسم القتبانية، وكثيراً ما كان عبدالرحمٰن الأوسط يصعد إلى هذه الأبراج ليسرح ببصره إلى المناظر الخلابة.





عبدالرحمٰن والثقافة والمثقفين وخاصة عباس بن فرناس

امتاز عبدالرحمٰن الأوسط بثقافة واسعة وعلم غزير، وشغف بالفنون والآداب، ويُجمع المؤرخون على أنه كان أكثر أمراء بني أمية علماً وثقافة باستثناء الحكم المستنصر الذي حكم بعده بأكثر من قرن، ولهذا كان بلاط عبدالرحمٰن الأوسط حافلاً بالعلماء والشعراء والمغنِّين، أمثال: المغني زرياب الذي تحدثنا عنه، ويحيى، والغزال، والعالم عباس بن فرناس، وعباس بن فرناس شخصية عجيبة، ولا يُعرف أصله بالضبط، فالبعض يجعله إسباني مولَّد من إقليم رندة، والبعض الآخر يرى أنّه مغربي الأصل، وكيفما كان الأمر، فإن هذا الرجل كان عالماً بعلوم الرياضة والفلك والطبيعة والكيمياء، ويرى المؤرخون أنه حاول الطيران فكسا نفسه بقوادم النسر (ريش النسر) وصنع لنفسه جناحين على هيئة أجنحة الطيور وربطها في جسمه بشرائط دقيقة من الحرير المتين، ثم قام بمحاولته من ناحية الرصافة ـ رصافة قرطبة ـ وقيل: من رصافة بلنسية(١).

وحلّق في الهواء مدة واستطاع أن يطير إلى مسافات بسيطة ولكنه أخفق في تقدير وزن الجسم فسقط على الأرض وأصيب ببعض الكدمات. ويقال: إن إخفاقه يرجع إلى عدم اتخاذه ذَنَباً أو ذيلاً يعينه على السقوط، وتُعد محاولة عباس بن فرناس هذه هي أول محاولة للطيران في التاريخ.

---

(١) المقري في نفح الطيب جـ٤ ص٣٤٥.

ويروي المؤرخون كذلك أن عباس بن فرناس صنع في بيته قبة على شكل السماء بما فيها من نجوم وأفلاك، وأنه استطاع أن يحدث فيها ظواهر الرعد والبرق بطرق آلية، فهي دراسة تطبيقية تجريبية لعمليات الظواهر الطبيعية.

ويُنسب إلى عباس بن فرناس أنه اشتغل بعلم الكيمياء وأحرق النار في بيته، وأنه كانت تخرج من داره قناة يجري فيها ماء أحمر كالدم، وأنه عرف نوعاً من الزجاج الشفاف الطبيعي وقلده بالزجاج الصناعي لأنه عرف تكوينه، عن طريق الصناعة كذلك.

وإلى جانب هذه النواحي العلمية، كان عباس بن فرناس عالماً باللغة العربية وآدابها، ويروون في ذلك أن تاجراً عراقياً حمل إلى عبدالرحمٰن كتاب العروض للخليل بن أحمد فاستعصى على الأمير فهمه، وظل الكتاب مهملاً في القصر لا يفهمه أحد إلى أن سمع به العباس فطلب من الأمير أن يأذن له بالاطلاع عليه، فلما قرأه لاحظ بذكائه أن الكتاب ناقص من أوله، فأرسل الأمير إلى المشرق من أحضر هذا الجزء الناقص، واستطاع عباس بن فرناس بذلك أن يفهمه ويشرحه للناس، فكان أول ما أخذه عنه علم العروض بالأندلس، وقد منحه الأمير عبدالرحمٰن ثلاثمائة دينار وكساه[1].
وقد كانت عقلية الناس في العصور الوسطى تنفر من المشتغلين بالكيمياء والفلك وترميهم بتعاطي السحر، وكان السحر في العصور الوسطى من الصناعات المكروهة، ولهذا كان عباس بن فرناس هدفاً لحملات العامة وبعض الخاصة الذين لهم مثل هذا التفكير، فاتهموه بالزندقة وتعاطي السحر، ورفعوا عليه دعوة للقضاء، وسمع القاضي شهادة الناس، وهي أنه كان يشتغل بالليل في بيته بإحراق النار وأن المياه الملونة بالأحمر تجري في قناة داره، وأنه في روحاته وغداواته كان يهذي ويقول: فعول فعيل (إشارة إلى بحور الشعر)!!. ولكن القاضي كان واسع التفكير فلم يجد ما يؤخذ على الرجل، وبرَّأه من هذه التهمة.

❋ ❋ ❋

---

(١) د. العبادي ـ مصدر سابق ص١١٩.

الغزال سفير عبدالرحمٰن الداهية

بقيت شخصية هامّة في عهد عبدالرحمٰن الأوسط، ففي عهده سما شأن حكومة قرطبة الإسلامية، وأخذت تتبوأ مكانها من الهيبة والنفوذ بين مختلف القصور والحكومات النصرانية، وتغدو مركز التوجيه للدبلوماسية الإسلامية في الغرب. والظاهر أن الدولة البيزنطية، خصيمة الدولة العباسية في المشرق، كانت تعتقد أنها تستطيع أن تصل بتفاهمها مع حكومة قرطبة الإسلامية، إلى بعض النتائج العملية في مقاومة خصيمتها المشتركة. ففي سنة **٢٢٥هـ/ ٨٤٠م** وفد على قرطبة سفير من قبل قيصر قسطنطينية الإمبراطور تيوفيلوس، يدعى قرطيوس، ومعه كتاب وهدية فخمة، فاستقبله عبدالرحمٰن بحفاوة، وكان القيصر يتوجه في كتابه إلى أمير الأندلس، باسم الصداقة القديمة التي كانت قائمة بين الأوائل من خلفاء بني أمية وقياصرة بيزنطة، ويشكو مُرَّ الشكوى من فعال الخليفة المأمون وأخيه المعتصم وعبثهما في أراضيه، ويحقرهما في رسالته ويزدريهما بقوله عن المأمون: «ابن مراجل» ومراجل أم المأمون، وعن المعتصم بـ «ابن ماردة» وهي أم المعتصم ـ وكلتاهما جارية وأم ولد ـ بقصد الاستهانة بهما وتحقيرهما وازدرائهما. كما يشكو إليه من استيلاء أبي حفص البلوطي وعصبته الأندلسية على جزيرة كريت، وهي من أملاكه، ويطلب إليه عقد أواصر المودة والصداقة بينهما، ويرغبه في ملك أجداده بالمشرق ويستنهض همّته لاسترداده، ويتنبأ له بقرب انهيار الدولة العباسية وزوال سلطانها، ويعده بنصرته في ذلك المشروع.

❋ ❋ ❋

السفير يحيى الغزال

كان لا بد أن يرد عبدالرحمٰن الأوسط على سفارة تيوفيلوس بمثلها، وكذلك يرد على كتابه الذي حمله سفيره قرطيوس، فأوفد إليه صديقه وكاتبه الشاعر يحيى الغزال إلى قسطنطينية ومعه يحيى بن حبيب المعروف بالمنيقلة

بكتاب وهدية للإمبراطور. وكان الغزال شخصية ممتازة بارعة الخلال والصفات، فيه من الظرف ما يجذب الناس إليه.

وكان الغزال قد جاوز الستين يومئذ ولكنه كان ما يزال يحتفظ بكثير من أناقته ورواته، وسار الغزال وصاحبه يحيى ومعهما السفير البيزنطي إلى المشرق عن طريق تدمير (مرسية)، فوصلوا إلى قسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة، لاقوا فيها الكثير من الأهوال كاضطراب البحر ورهبة الموج.

ولما وصل «قسطنطينية» استقبله الإمبراطور بحفاوة شديدة، وقدّم إليه الغزال كتاب عبدالرحمٰن وهديته، ويرد عبدالرحمٰن في كتابه على كل ما جاء في كتاب الإمبراطور، ويشير مثله إلى المأمون والمعتصم بابن مراجل وابن ماردة، فقال عبدالرحمٰن في كتابه: «وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قبله، وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله، وزوال سلطانهم، في ذلك عادة الله عندنا، ونستنجز موعوده إيانا، ونمتري حسن بلائه لدينا، بما جمع لنا من طاعة من قبلنا، من أهل شأننا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا، وما لم نزل نسمع ونعترف أن النقمة تنزل بهم، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا، فيقطع الله دابرهم، ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى»[1].

أنهى الغزال سفارته على أحسن حال وخير أداء، وعمل على إحكام الصلة والمودة بين الإمبراطور وبين مليكه، وسحر البلاط البيزنطي بكياسته وظرفه وبديع صفاته، وقدّمه الإمبراطور إلى زوجه الإمبراطورة تيودورا وإلى ولده الأمير ميخائيل الذي تولى العرش فيما بعد، وكان يومئذٍ فتى يانعاً، فأنست به الإمبراطورة وسحرته برائع جمالها، وسحره الأمير الفتى (ميخائيل) بظرفه وبارع خلاله، وقال فيه قصيدته التي مطلعها:

وأغيد لين الأطراف رخص	كحيل الطرف ذو عنق طويل
ترى ماء الشباب بوجنتيه	يلوح كرونق السيف الصقيل

---

(١) نفح الطيب جـ١ ص١٦٢.

مـن أبـنـاء الـغـطـارف قـيـصـري   الـعـمـومـة حيـن يـنـسـب والـخـؤول

وعاد الغزال إلى قرطبة بعد رحلة دامت عدة أشهر، وقد بهرته مظاهر الحضارة البيزنطية وروعة البلاط البيزنطي.

وقد أوفد عبدالرحمٰن الأوسط سفيره الغزال بعد ذلك بقليل في سفارة أخرى أغرب وأعجب، وذلك على أثر غزو النورمانيين (المجوس) لولايات الأندلس الجنوبية الغربية واقتحامهم إشبيلية، وردهم عنها، ثم هزيمتهم ومطاردتهم، بعث ملكهم رسله إلى عبدالرحمٰن بن الحكم في طلب المهادنة والصلح، فأجابه عبدالرحمٰن إلى طلبه، وبعث الغزال مع الرسل إلى ملكهم ليرد السفارة، ويعلنه بقبول الصلح. وقد أوفد معه في هذه السفارة يحيى بن حبيب، وأنهما خرجا معاً إلى البحر المحيط عن طريق بلدة أندلسية تسمى شلب تقع في جنوب غربي البرتغال على مقربة من المحيط الأطلنطي، في مركب خاص أُعدَّ لهما. ويقول المؤرخون: وسارت مع مركب الرسل النورمانيين، ولقيا من أهوال البحر الكثير، وجازا الشدائد والصعاب إلى أن وصلا إلى بلاد «المجوس» سالمين، وبلاد المجوس هي جزيرة عظيمة في البحر المحيط، وعلى مقربة منها جزائر كثيرة منها صغار وكبار، أهلها كلهم من المجوس، وما يَلِيهِم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام، وهم مجوس، ولكنهم اليوم على دين النصرانية. ولقي السفير المسلم (الغزال) من ملك النورمان كل ترحاب وعطف، وأفرد لإقامته وزملائه منزلاً حسناً، وقدّم إليه الغزال كتاب الأمير عبدالرحمٰن وهديته من الثياب والآنية، فوقعت لديه أحسن موقع، ولقي الغزال في البلاط النورماني كله كثيراً من الإعجاب والعطف، واستقبلته «نود» ملكة النورمان، فراعه حسنها، وشملته بعطفها، ورآها بعد ذلك مراراً، ونظم في حسنها شعراً رقيقاً، وفيه يخاطبها بقوله[1]:

يـا نـود يـا رود الـشـبـاب الـتـي   تـطـلـع مـن أزرارهـا الـكـوكـبـا

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب، ص١٣٨ وما بعدها.

وعاد الغزال إلى الأندلس بعد رحلة دامت شهرين، ووصل إلى قرطبة سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م. وعاش الغزال بعد ذلك زهاء عشرين عاماً أخرى، وأدرك خمسة أمراء من بني أمية أولهم عبدالرحمٰن الداخل، وآخرهم محمد بن عبدالرحمٰن، وكانت له مكانة رفيعة في بلاط قرطبة على مدى نصف قرن.

❊ ❊ ❊

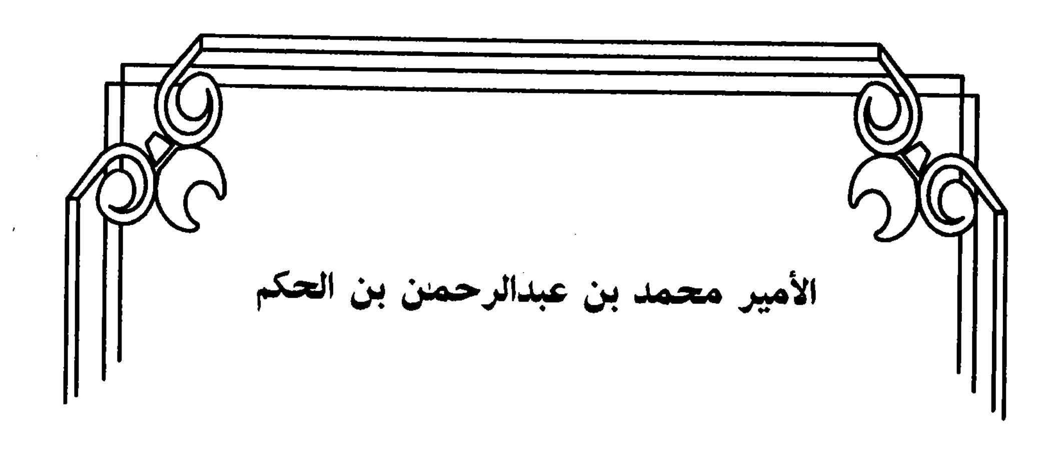
وفاة عبدالرحمٰن الأوسط

وتوفي عبدالرحمٰن في ليلة الخميس الثالث من ربيع الآخر سنة ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م، وكانت خلافته إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام[١] وكان عمره اثنان وستون سنة، وكان حاجبه (رئيس وزرائه) عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث، ووزرائه تسع[٢].



(١) انظر البيان المغرب جـ٢ ص٩٠، والحلة السيراء ١١٣/١.

(٢) البيان المغرب ٨١/٢.



الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم

الأمير وولي العهد

- الأمير عبدالرحمن الأوسط قدّم لابنه هدية عندما ترك له مملكة زاهرة موطدة الأركان، تنعم بالهدوء والاستقرار والأمن، وكان هذا الاستقرار ظاهراً، غير ما خفي من تيارات تهدد هذا الاستقرار في مملكة المسلمين في الأندلس.

- أما ولي العهد، فقد وُلد (محمد بن عبدالرحمن الأوسط) في شهر ذي القعدة سنة ٢٠٧هـ/ أبريل سنة ٨٢٣م. وهو محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام، كنيته أبو عبدالله[١] أمه أم ولد اسمها بُهَير[٢].

- صفة ولي العهد: كان محمد بن عبدالرحمن بن الحكم، أبيض مشرباً بحمرة، ربعة، أوقص (قصير العنق)، وافر اللحية، يخضب بالحناء والكتم[٣].

❋ ❋ ❋

كيف مهّد الأمير عبدالرحمن لولاية محمد

كانت ظروف ولاية الأمير محمد بن عبدالرحمن ممهدة، من خلال أمور ومواقف وظروف كثيرة نعدد منها:

---

(١) البيان المغرب ٢/٩٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق نفسه ص٩٣.

- استخلفه والده بقصر الإمارة، حينما اعتزم أن ينيبه عنه سنة ٢٢٦هـ وهو يومئذ فتًى في العشرين من عمره.

- ثم ولاه ثغر سرقسطة، فضبطه وأحسن إدارته.

- صحب والده إلى بنبلونة في غزوته المظفرة سنة ٢٢٨هـ، وقائد ميمنة الجيش، وأثنى عليه والده في كتاب الفتح، فاشتهر اسمه بين الناس.

- ثم ندبه أبوه لمقابلة رسل ملك الفرنج (كارل بن يپين) القادمين إليه.

- وكلفه أبوه عبدالرحمٰن بالركوب في البلاط بصفة منتظمة، ليرفع إليه الكتب الواردة بعد تلخيصها بمعرفته.

وهذا التكليف الأخير كان بتوصية الحاجب عيسى بن شهيد ونصحه، وذلك لتمكين أمر محمد ومكانته، وتوهين وإضعاف ما كان يحاوله الفتى نصر الخصي، القريب من الأمير عبدالرحمٰن، وحليف جاريته وأم ولده طروب المتغلبة عليه، من ترشيح ولدها عبدالله لولاية العهد، وتمكين أمره.

والحق يقال: إن عبدالرحمٰن الأب كشف عن مذاهب أولاده، ولداً ولداً، وعرف أخلاقهم اختباراً، فوجد محمد راجحاً ومتغلباً عليهم بخلاله وصفاته، فاختاره ليخلفه من بعده، وأوعز إلى وزرائه وأكابر دولته بأنه صاحب ولاية العهد والمفوض إليه الأمر من بعده، وكلفهم جميعاً، ومعهم القاضي وأهل الشورى، بالركوب إليه وغشيان مجلسه أيام الجمع في المسجد الجامع، وأبدى على الجملة بما لا يدع مجالاً لأي شك، بإيثاره على جميع ولده، وتفرده دونهم بخلافته في مُلكه.

وفضلاً عن ذلك كله، فقد كان لمحمد عيون من الصقالبة بالقصر يطالعونه بالأخبار في وقتها، فلما توفي والده، وافاه في مساء نفس اليوم رسول من قبل حبيب الخصي يستدعيه إلى القصر بسرعة، فبادر إلى القصر متنكراً، وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه خوفاً من دسائس أخيه ومنافسه عبدالله، لتمكن نفوذ أُمه داخل القصر، وكان الصقالبة قد كتموا موت الأمير، وأغلقوا أبواب القصر، وثارت بينهم مناقشات عنيفة حول ولاية

العرش، وانتهى الأمر بتفضيل محمد وتقرير استدعائه، وخرج محمد من غرفة أبيه المسجى إلى مجلس البيعة، واستدعى إخوته التسعة والأربعين، وعمومته، وأهل بيته، وعظماء المملكة، وأخذت له البيعة دون خلاف (يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ٢٣٨هـ) ثم أخذت له بيعة الكافة في المسجد الجامع أياماً متوالية.

❋ ❋ ❋

محمد بن عبدالرحمٰن أميراً على الأندلس

تولى محمد الإمارة خلفاً لأبيه والدولة في أبهة وبحبوحة، تحتفظ بلمعانها وقوتها، وملوك إسبانيا النصرانية يحسبون حسابه، ويشعرون بأنه خلف كفء لأبيه عبدالرحمٰن، وملوك الدول القريبة من الأندلس يخطبون ودّه، وملك الفرنج يسعى إلى عقد السلم معه.

وقد أقرّ الأمير محمد بن عبدالرحمٰن حاجب أبيه عيسى بن شهيد، ومعظم الوزراء الذين كانوا يتولون خدمة أبيه على خططهم ومراتبهم، وصنع نظاماً جديداً للوزارة، تتميز فيه الخطط الرفيعة على غيرها، ويمتاز فيه الوزراء بنوع من التعظيم والتجلة، وقدم الوزراء من أهل الشام على غيرهم من الأندلسيين والبربر، وأعلاهم في الجلوس على أرائكهم ببيت الوزارة، وكان بنفسه يشرف على أعمال الوزارة والكتاب، ويدقق في أعمالهم وتصرفاتهم وحساباتهم، ولما توفي عيسى بن شُهيد، خلفه في الرئاسة عيسى بن الحسن بن أبي عبدة، وكان بالرغم من رثاثة هيئته وزيراً قوياً، وافر الفطنة والذكاء، صاحب الرأي والتقدير، وكان هاشم بن عبدالعزيز من بين وزراء الأمير محمد، أشدهم خصومة ومنافسة للحاجب ابن أبي عبدة، وكان في نفس الوقت أَحب وزراء الأمير إليه، وأكثرهم حظوة لديه، فلم يلبث أن غلب نفوذه على سائر الوزراء.

وهذه الحظوة التي استأثر بها الوزير هاشم لدى الأمير محمد، كان لها أثراً سيئاً في تصرفات الأمير، وأنه ـ أي هاشم ـ قد أفسد عليه أمره،

فشرَّهه، وصلفه، وحمله على المنهج من محمود طرقه، وعدل عن اختيار ثقات العمال، من الشيوخ والكهول أولي النهى والأصول، إلى الأحداث من أولي الشر والخيانة ودناءة الأصول، فلم يلبث الأمير أن فسد بذلك إلى أبعد حال، فنجحت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر في الأرض الفساد في المملكة.

***

صورة من قريب:
الخزان والصك ـ بقي بن مخلد ـ هاشم مرة أخرى

لعل الصورة المجملة التي أوردناها عن الأمير محمد بن عبدالرحمٰن قد تحتاج إلى مشاهد مفصلة تدل عليها وعلى ما أوجز بعض المؤرخين من حياة هذا الأمير.

١ ـ الخزّان:

فقد كان محباً للعلم، مؤثراً لأهل الحديث، حسن السيرة، فصيحاً بليغاً، عظيم الأناة، متنزهاً عن القبيح، يؤثر الحق وأهله، ولا يسمع من باغ، ولا يلتفت إلى قول زائغ، وكان أعلم الناس بالحساب وطرق الخدمة، ولقد استدرك على بعض خُزّانه من صك يشتمل على مائة ألف دينار خُمس درهم، فردّ الصك وأمر بتصحيحه.

فاجتمع الخدم والخزّان على الصك، فلم يقفوا على موضع الخطأ فيه لدقته وخفائه، فردُّوا الصك إليه معترفين بالتقصير، فعلَّم لهم على موضع الخطأ، فإذا هو خمس دراهم(١).

ومما يُحفظ عنه أنه قال لوزيره هاشم، وهاشم هذا هو الذي قلنا إنه قد سلمه مقاليد المملكة وفرَّ به منه، وكان سريع التصرف لا يثبت في أمره، مغروراً بنفسه، حقوداً لجوجاً، أفسد الدولة، قال له الأمير يوماً: يا

(١) البيان المغرب ١٠٧/٢.

هاشم، مَن آثر السرعة أمضت به إلى الهفوة، ولو أنا أصغينا إلى محو زلاتك، وأصخنا إلى هفواتك، لكنا شركاءك في الزلة، وقسماءك في العجلة، فمهلاً عليك، ورويداً بك، فإنك إن تعجل يعجل لك.

وكان الأمير محمد محبوباً في جميع البلدان، وكان صاحب تاهرت محمد بن أفلح لا يفعل شيئاً إلا عن إرادته وحسن تفكيره، وكان صاحب إفرنجة (قرولش) يعجبه عقل الأمير محمد، فكان يهاديه ويتحفه بالتحف النادرة، وكان قرولش هذا غنياً غنى فاحشاً، حتى أنه صنع صورة للمسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ من ثلاثمائة رطل من الذهب الخالص، رصعها بالياقوت والزبرجد، فلما أكمل ذلك، سجدَ له، وأسجَدَ له جميع أهل إفرنجة في ذلك التاريخ، ثم دفعه إلى صاحب كنيسة الذهب في رومة[١].

٢ ـ بقي بن مخلد:

وننتقل إلى صورة أخرى مع بقي بن مخلد أحد فقهاء هذا العصر، فقد كان بقيّ يقول عنه: «ما كلمت أحداً من ملوك الدنيا أكمل عقلاً ولا أبلغَ فضلاً من الأمير محمد»[٢].

وفي بداية حكم الأمير محمد بن عبدالرحمٰن، سعى الوشاة عنده ببقي بن مخلد، وذلك أنه لما قدم بقي من المشرق بعد رحلة طويلة، جمع فيها علوماً واسعة، وروايات عالية، واختلافات فقهية، أغاظ ذلك علماء قرطبة وأصحاب الرأي فيها، فحسدوه، وسعوا إلى الأمير يقذفونه بأقبح الأقوال حتى رموه بالزندقة، وشهدوا عليه أغلظ الشهادات، داعين إلى سفك دمه، وخاطبوا الأمير محمد في ذلك، وطلبوا منه التعجيل بسفك دمه.

عندئذ اشتد خوف بقيّ بن مخلد، وحاول الفرار من الأندلس حفاظاً على دمه، ولجأ إلى هاشم بن عبدالعزيز، فكتب هاشم إلى الأمير محمد

---

(١) البيان المغرب ١٠٨/٢.

(٢) المصدر السابق.

يسأله التثبُّت في أمره، والجمع بينه وبين خصومه، وسماع حجته، ووصل الكتاب إلى الأمير، فعطلت عليه، واتهم الساعين به إليه.

فأمرهُ بتأمين بقيّ بن مخلد، وأحضره مع المدّعين عليه، فتناظروا بين يديه، فأدلى بقيّ بن مخلد بحجته، وظهر على خصومه، وظهر للأمير حسدهم إياه، فدفعهم عنه، وأمر بإيصاله إليه في زمرة الفقهاء، والرفع من منزلته[1].

ويقول أحد المؤرخين[2]: ولما دخل الأندلس أبو عبدالرحمٰن بقيُّ بن مخلد بكتاب (مصنف أبي بكر بن أبي شيبة) وقرىء عليه، أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من الخلاف، واستشنعوه، وبسطوا العامة عليه، ومنعوه من قراءته، إلى أن اتصل ذلك بالأمير محمد، فاستحضروه واستحضر الكتاب كله. وجعل يتصفحه جزءاً جزءاً، إلى أن أتى على آخره، وقد ظنوا أنه يوافقهم في الإنكار عليه، ثم قال لخازن الكتب: «هذا كتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا».

ثم قال لبقيّ بن مخلد: «انشر علمك، وارو ما عندك من الحديث، واجلس للناس حتى ينتفعوا بك؛ ونهاهم أن يتعرضوا له»[3].

٣ ـ هاشم مرة أخرى:

وصورة ثالثة عندما خرج الأمير إلى الرصافة متنزهاً، ومعه هاشم بن عبدالعزيز، وظلّ بها صدر نهاره على لذته، فلما أمسى، واختلط الظلام، انصرف إلى القصر، وبه اختلاط، وهاشم يقول له: (يا ابن الخلاف! ما أطيب الدنيا لولا الموت) فقال له الأمير: «يا ابن اللخناء لحنت في كلامك! وهل ملكنا هذا الملك الذي نحن فيه إلا بالموت؟ فلولا الموت ما ملكناه أبداً».

---

(١) البيان المغرب ١٠٩/٢.

(٢) عبدالواحد المراكشي في كتابه (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) ص٤٩.

(٣) المصدر السابق.

وقد كان الأمير محمد قد فوّض أمور الدولة إلى هاشم بن عبدالعزيز، أعظم وزرائه، وكان هذا أحمق يتعجل الأمور، ويسيء إلى من يلقاه، وكان الأمير محمد يقدمه على الجيش، فخرج مع الجيش مرّة إلى غرب الأندلس ليقمع ما كان هناك من الثورات، فأساء السيرة مع ابن مروان. فقد قال له من بين الوزراء: (الكلب خير منك) وأمر بصفع قفاه، وبالغ في خزيه، فهرب ابن مروان مع أصحابه[1].

وبطبيعة الحال فإنّ تلك الخصال تؤدي بصاحبها إلى التهلكة، وبالفعل فقد أُسر هاشم، وكان قد أُبعد عن العسكر، فأخذته الجنود من كل جانب، وقاتلوه، فأخذته الجراح، وقتل من أصحابه جماعة كثيرة، وأسر هاشم، ولما اتصل خبره بالأمير محمد قال: «هذا أمر جناه على نفسه بطيشه وعجلته».

وسار هاشم أسيراً في يد ابن مروان الذي صفعه في أسره، فأكرمه ابن مروان وأحسن إليه..![2].

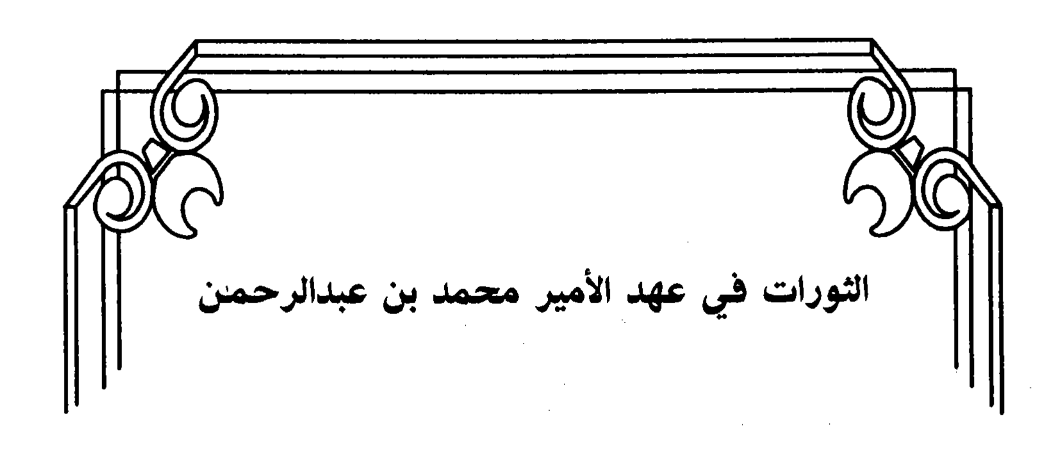
وقد تسببت حماقة هاشم بن عبدالعزيز وتعجُّله في تصرفه في نجاح الثائرين واستقلالهم في البلاد التي ثاروا فيها، فما جنى إلاّ الندم والخزي.



---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص١٠٢.

(٢) المصدر السابق ص١٠٣.



الثورات في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمٰن

أولاً - ثورة طليطلة

في منتصف ربيع الثاني سنة ٢٣٨هـ، وبعد أيام قلائل من وفاة عبدالرحمٰن وولاية محمد، تحركت الثورة في طليطلة، وكانت طليطلة مدينة كثيرة السكان وأكثرهم من المولدين (وهم من المسلمين الذين ولدوا لآباء مسلمين وأمهات نصارى في الأندلس).

وكان موقع طليطلة الجغرافي يدعو لأن تكون أكثر البلاد ثورة ضد الحكام، فقد ثارت ضد هشام بن عبدالرحمٰن فأخمد الثورة، والتزمت الطاعة، وثارت ضد الحكم بن هشام، واستطاع إخمادها، وكذلك ثارت ضد عبدالرحمٰن بن الحكم، وأرسل إليها العساكر فهزموا الثوار، وأخمدوا الثورة.

وفي ولاية الأمير محمد تحرك أهل طليطلة بالثورة، وكان بها عندئذ سعيد بن الأمير محمد بن عبدالرحمٰن، والعامل عليها حارث بن بزيع، وكان جماعة من المارقين وأهل الشر، قد اجتمعوا في الهضبة القريبة من المدينة المسماة «جبل الأخوين» بزعامة سوقة بن المطرف، وهو أحد الزعماء الخوارج الذين فرُّوا من قرطبة، فلما وقفوا على وفاة الأمير عبدالرحمٰن، كاتبوا أهل طليطلة وحرَّضوهم على الوثوب بسعيد ومن معه، فاضطرمت الثورة داخل المدينة، وساعدهم ابن مطرف بحشوده من الخارج، وانتهى الأمر بهزيمة جند الأمير، واستطاع سعيد أن يغادر المدينة، ولكن

الثوار أسروا عاملها حارثاً، ورفضوا إطلاق سراحه حتى أطلقت حكومة قرطبة رهائنهم المعتقلة هناك.

وفي صيف العام التالي (سنة **٢٣٩هـ/ ٨٥٣م**) بعث الأمير محمد أخاه الحكم في جند الصائفة إلى قلعة رباح، وكانت قد أقفرت وخربت وغادرها معظم أهلها عقب مهاجمة أهل طليطلة الخوارج لها وقتلهم كثيراً من أهلها، فاحتلها جند الأمير، وقامت بإصلاح أسوارها، واستدعى أهلها الفارين وأمنوا، وفعل الحكم مثل ذلك بحصن شنذلة، الواقع على نهر صغير يسمى باسم شنذلة أيضاً، وهو من أفرع الوادي الكبير، وجالت جند الأمير في تلك المنطقة تطهيراً من الثوار، وخرجت منها حملة سارت جنوباً، فلقيتها عصابات الخوارج من أهل طليطلة في فحص أندجر، ووقعت بين الفريقين معركة عنيفة هزم جند الأمير، وردوا بخسارة فادحة في شوال سنة **٢٣٩هـ**، وعلى أثر ذلك خشي أهل مدينة جيّان القريبة على أنفسهم من عبث الخوارج، فغادرها كثير منهم إلى الجبال، وابتنى الأمير محمد لهذا السبب حصن «أندة» على مقربة من جيان، وضمّ إليه العرب المقيمين على الطاعة، وسمى المكان لذلك «أندة العرب».

شعر الأمير محمد بأن الخطر يقترب من العاصمة، وأراد أن يلقن هؤلاء الثوار ـ ثوار طليطلة ـ درساً عميق الأثر، فسار إلى طليطلة في المحرم سنة **٢٤٠هـ/** يونيه **٨٥٤م** على رأس جيش كبير، وكانت أول حملة يقودها بنفسه بعد ثبوته بالمُلك، وكان عماد الثورة في طليطلة جمع كبير من المولدين والنصارى الذين تحركهم العصبية وروايات العصبية عن الاضطهاد الذي يلقاه إخوانهم في قرطبة، وكانوا يتطلعون دائماً إلى عون ملك النصارى، فلما استشعروا عزم الأمير محمد على قتالهم، بادروا بالاستغاثة بأردونيو (أردن) ملك ليون، وكذلك بملك نافار، وأمدهم أردونيو بقوة على رأسها الكونت غانون[١]، وهو أخ للملك ليون[٢].

---

(١) ابن خلدون جـ٤ ص١٣٠.

(٢) البيان المغرب جـ٢ ص٩٧.

وكان تدخُّل النصارى على هذا النحو لتأييد الثورة ضد حكومة قرطبة، عاملاً في إذكاء حماسة المسلمين، فهرعت جموع كبيرة إلى جيش الأمير، ومنهم كثير من الفرسان الأشراف وذوي الحسب، وسار محمد صوب طليطلة في بعض قواته، وترك بقية جيشه الكثيف مستتراً بالتلال التي تظلل وادي سليط، وهو الوادي الذي يخترقه النهر المسمى بهذا الاسم (سليط)، وهو أحد أفرع التاجة الجنوبية، فلما رأى أهل طليطلة الجيش المحاصر خرجوا لقتاله ومعهم حلفاؤهم النصارى وهم على ثقة من الظفر، فارتدّ محمود بجنوده نحو وادي سليط متظاهراً بالهزيمة، وعندئذ برزت قوات الأندلس في مكامنها، وأطبقت على الثوار وحلفائهم النصارى، وكانت معركة هائلة مزقت فيها جيوش الطليطليين والإسبان في ساعات قلائل من الصباح إلى الضحى، لم تصل إلى الظهيرة، وقتل منهم مقتلة عظيمة يقدرها مؤرخو الإسلام بأحد عشر ألفاً، وقيل: بل عشرين ألفاً، وأسر منهم كذلك عدد كبير بينهم كثير من القساوسة وقد أُعدموا على الفور، ورُصَّت رؤوس القتلى، وأُذِّن فوقها لصلاة الظهر، وكان نصراً عظيماً، وفي هذه الموقعة يقول شاعر العصر عباس بن فرناس:

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف	لهوم الفلا عبل القبائل ملتف
إذا أومضت فيه الصوارم خلتها	بروقاً تراءى في الغمام وتستخفى
كأن ذرى الأعلام في ميلانها	قراقير في يم عجزن عن القذف
بكى جبلا وادي سليط فأعولا	على النفر العبدان والعصبة الغلف
يقول ابن بوليس لموسى وقد ونى	أرى الموت قدّامي وتحتي ومن خلفي
قتلنا لهم ألفاً وألفاً ومثلها	وألفاً وألفاً بعد ألفٍ إلى ألف
سوى من طواه النهر في مستلجّه	فأغرق فيه أو تهدهد من جرف
لقد نعمت فيه غزاة نسورنا	وسمعت الدقات قصفاً على قصف[1]

ورغم ذلك كله لم تهدأ الفتنة في طليطلة، وذلك لاستمرار تحريض

(١) المصدر السابق جـ٢ ص٩٧ وما بعدها.

النصارى المتعصبين مثل أولوخيو وصحبه، يبثون دعايتهم المضطرمة في طليطلة وما جاورها من الأنحاء، ويصورون مصير النصارى في ظل الحكم الإسلامي بأشنع الصور، ويدعون إلى التحرر من الاضطهاد الديني والاجتماعي، وكان صدى هذه الدعوة يتردد قوياً في العاصمة الأندلسية، ويبث القساوسة تحريضهم ودعايتهم المسمومة مثلما كانوا يفعلون أيام عبدالرحمٰن بن الحكم[١].

وكان الأمير محمد يرقب هذه الفتنة حذراً من عواقبها وعواقب تمرد المدينة الثائرة، ومن ثم فقد لبث متأهباً لمقارعتها، وشحن قلعة رباح وطلبيرة على مقربة منها بالجند والعُدد.

وسيّر الأمير محمد كذلك الصوائف والحملات الغازية إلى الثغر الأعلى، ففي سنة **٢٣٩هـ/ ٨٥٣م** سيّر جيشاً بقيادة موسى بن موسى بن قسيّ والي تطيلة إلى ألبة والقلاع، وكان موسى أيام الأمير عبدالرحمٰن من زعماء الثورة في الشمال، وتحالف مع النصارى كما ذكرنا من قبل، وقاتله عبدالرحمٰن حتى تمكن من إخضاعه، ولكنه عاد في أواخر عهده إلى سابق مكانته من زعامة الثغر الأعلى، واستطاع أن يوطد استقلاله في تطيلة وما جاورها، مع التظاهر في نفس الوقت بالولاء لحكومة قرطبة اتقاءً لخصومتها، فسار إلى ألبة والقلاع وعاث فيها، وهزم النصارى في عدة مواقع، وافتتح بعض الحصون، ثم عاد بعد ذلك فاتَّجه صوب ثغر برشلونة، وانتزع بعض حصونه من أيدي النصارى، وقد وقعت هذه الغزوة سنة **٢٤١هـ**.

وفي صيف سنة **٢٤١هـ/ ٨٥٥م** سار الأمير محمد بنفسه إلى ألبة والقلاع، وقد كتب إلى موسى بن موسى، واحتل الثغور بالاحتشاد والسير في حملته، فعاث في بلاد ألبة والقلاع، وافتتح كثيراً من حصون النصارى، وفي العام التالي بعث موسى بن موسى إلى أحواز برشلونة، فغزاها وخرب برشلونة وافتتح بعض حصونها، وأسر بعض أمرائها[٢].

---

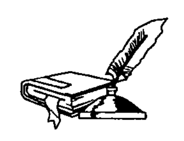
(١) رينهرت دوزي ـ المسلمون في الأندلس ـ ترجمة د. حسن حبش ـ ط الهيئة المصرية للكتاب.

(٢) البيان المغرب جـ٢ ص٩٨.

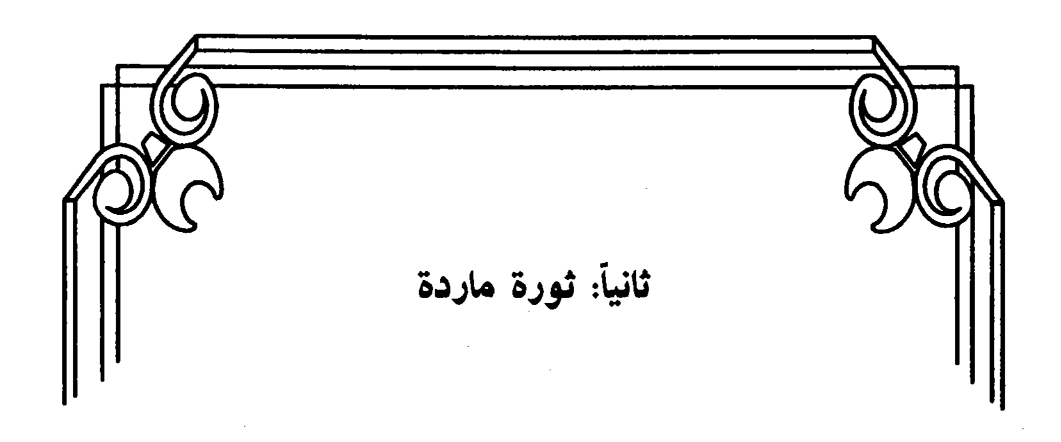
وظلّ الأمير محمد على اهتمامه بطليطلة، فبعث بولده المنذر إلى المدينة الثائرة في قوة كبيرة فحاصرتها وعاثت في أحوازها سنة **٢٤٢هـ**، ولم يستطع الثوار في هذه المرة أن يغادروا مدينتهم، ولكنهم خرجوا في العام التالي إلى طلبيرة لمقاتلة الحامية الأندلسية بها، فخرج إليها قائدها مسعود بن عبدالله، وأوقع بهم وقتل منهم عدة مئات أُرسلت رؤوسهم إلى قرطبة، وسارت جند الصائفة في الوقت نفسه إلى طليطلة، فنازلتها وعاثت في أحوازها، وانتسفت زروعها وأقواتها.

وفي سنة **٢٤٤هـ/ ٨٥٨م** رأى الأمير محمد الاستمرار في معاقبة أهل طليطلة، فخرج إليهم بنفسه في صيف هذه السنة، وحاصر المدينة الثائرة، وتأهب أهلها لقتاله بالرغم مما أصابهم من نقص في القوى، وشحٍّ في الأقوات، واعتمدوا على حَصَانة مدينتهم، ولجأ محمد إلى الحيلة فهدم مهندسوه قواعد القنطرة الكبيرة مع تركها قائمة، ثم انسحب بجنوده، وهنا خرج أهل طليطلة لقتاله، فلما احتشدوا على القنطرة سقطت بهم في نهر التاجة وغرق منهم عدد كبير، ولم يترك محمد هذه المرة وسيلة رائعة إلاّ استعملها لسحق المدينة الثائرة، فخرب حصونها ومعالمها، وأوقع بأهلها قتلاً وتشريداً حتى اضطروا لطلب الأمان والصلح، وأذعنوا للخضوع والطاعة، وهم يعتزمون النكث في قرارة أنفسهم حتى سنحت الفرصة سنة **٢٤٥هـ/ ٨٥٩م**(١).

ومن ذلك نرى أن طليطلة كانت مركزاً للثورات ضد حكومة قرطبة، فقد كانت طليطلة بموقعها الطبيعي الممتاز ومناعة تحصيناتها مؤهلة لذلك، بالإضافة إلى أنها كانت معقل التيارات النصرانية الخطرة التي تجيء إليها من الشمال، ومن النصارى المعاهدين بقرطبة، ومن أهل طليطلة نفسها، وقد كانت طليطلة بوعورة موقعها على المنحدر الصخري الممتد نحو نهر تاجة، وإحاطة النهر بهذا المنحدر الوعر، ثم حصونها القوية، وأسوارها العالية الضخمة، من أمنع وأحصن المدن في العصور الوسطى.



(١) دولة الإسلام د. عنان ع١ ق١ ص٢٩٥.



ثانياً: ثورة ماردة

لم تكد طليطلة تثور على الأمير محمد حتى ثارت مدينة ماردة، ونقضت العهود وما كان بينها وبين الأمير، ففي سنة **٢٥٤هـ/ ٨٦٨م** ثارت ماردة، وكان الثائر فيها عبدالرحمٰن بن مروان المعروف بالجليقي وجماعة من المولدين، منهم: ابن شاكر ومكحول، ولم يقعد الأمير بل سارع وخرج إليهم، وأظهر أنه يقصد طليطلة، فخرج من قرطبة وتقدّم إلى طريق طليطلة، ولكنه مال إلى ماردة، فاحتلّها وهم غافلون، فتحصّن أهلها في المدينة أياماً ثم خرجوا إلى القنطرة، ودارت معركة شديدة قاسية حتى غلب على القنطرة أهل ماردة، فأمر الأمير بتخريب رِجْل منها، فلما علم بذلك أهل ماردة أذعنوا وأطاعوا على أن يخرج فرسانهم من ماردة، وهم يومئذ: عبدالرحمٰن بن مروان، وابن شاكر، ومكحول، وغيرهم، وكانوا أهل بأس ونجدة(١).

فخرجوا إلى قرطبة، وصحبوا ذراريهم وأهليهم، وولّى الأمير عليها سعيد بن عباس القرشي، وأمر بهدم سورها، ولم يبقَ فيها إلاّ قصبتها باعتبارها مركز الحكومة(٢).

ظلّ ابن مروان بقرطبة حتى واتته الفرصة سنة **٢٦١هـ/ ٨٧٥م**، ثم هرب هو وأصحابه، واستقروا بقلعة حنش، على بُعد عشرين كيلومتراً من

---

(١) البيان المغرب ٢/١٠٠.

(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٢٤٦.

جنوب شرقي ماردة، فهرع إليه الأمير وحاصره مدة ثلاثة أشهر ألجأه فيها إلى أكل الدواب، وقطع عنه الماء، ورماه بالمجانيق، حتى أذعن وطلب الأمان، فأمنه الأمير، وطلب ابن الجليقي أن ينزل ببطليوس، وكانت قرية، فوافقه الأمير، فابتنى ابن مروان بطليوس، وجعل منها حصناً يتحصن فيه ضد الأمير إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ولم يمضِ عام على ابن مروان، وهو متحصن ببطليوس، حتى عاود الكرَّة وأعلن الثورة على الأمير، واستولى على بعض المدن الواقعة في إقليم إشبيلية، مثل مدينة طلياطة وأكتوبة، واحتلّ جبلاً يقال له: منت شاقر[1].

وفي سنة **٢٦٢هـ/ ٨٧٦م** خرج المنذر بن الأمير محمد إلى ابن مروان، وكان معه القائد هاشم بن عبدالعزيز، وكان ابن مروان قد ابتنى بطليوس حصناً، وأدخل أهل ماردة وغيرهم ممن كانوا يعاونونه على الشر، ولما انتهى هاشم إلى ابن مروان، وتحرك العسكر إليه، انتقل ابن مروان إلى حصن كَوْكَرْ.

وكان ابن مروان قد اتفق مع زميله في العصيان سعدون السرنباقي في منت شلُوط أن يكتبوا إلى ألفونسو الثالث بن أردون الأول ملك أشتوريش، ثم يتظاهر بأنه في قلّة من الجند.

وانتهز هاشم الفرصة، وهاجم مروان على غير أهبة، إذ انخدع بقلّة عدد قواته، فانهزم هزيمة شنعاء، وأُسر، وقتل من رجاله خمسون، وأرسله ابن مروان الجليقي إلى ملك أشتوريش ألفونسو، ليظهر له عرفانه بفضل ألفونسو، فأقام بأبيط عامين، ثم افتداه الأمير محمد سنة **٢٦٤هـ/ ٨٧٨م** من ألفونسو بمائة وخمسين ألف دينار[2].

وفي سنة **٢٦٣هـ/ ٨٧٧م** خرج المنذر ابن الأمير محمد، وجعل طريقه على ماردة، ولما بلغ ذلك ابن مروان، خرج من بطليموس، واحتلها قائد

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس د. عبدالعزيز سالم ص٢٤٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

المنذر، الوليد بن غانم، فخرب ديارها، وانتقل ابن مروان إلى بلاد العدو(١).

وفي سنة **٢٦٤هـ/ ٨٧٨م** توجه المنذر إلى سرقسطة، ودمَّر كل ما وجده، وأفسد ما وجد من زروعها، ثم تقدّم إلى تطيلة والمواضع التي فرَّ إليها جند موسى، فنسفها، وأجال العسكر في نواحيها.

وفي نفس السنة دخل البراء بن مالك من باب قلنبرية إلى جليقية بحشود من الغرب، وتردد في نواحيها حتى أذهب نعيمهم(٢).

واضطر ابن مروان لأن يلتحق بألفونسو الثالث حيث أقام في كنفه سنوات ثمان، ثم عاد إلى ماردة وبطليوس سنة **٢٧١هـ/ ٨٨٤م**، فحاربه الأمير، وأرغمه إلى الهروب في المرتفعات، ثم تحصّن في جبل أشبرغوزّة، وحاصره المنذر، ولكن حصاره لم يأتِ بنتيجة، ثم وافق الأمير على أن يستقل ابن مروان ببطليوس(٣).

وقد استمرت ثورة ماردة سبعة عشر عاماً، من **٢٥٤هـ/ ٢٧١هـ**، كان الأمير يقاتل أهلها مرة ويرسل ابنه مرة أخرى، وفي النهاية تنازل الأمير محمد، وأعطى الحق لابن مروان أن يستقل ببطليوس.

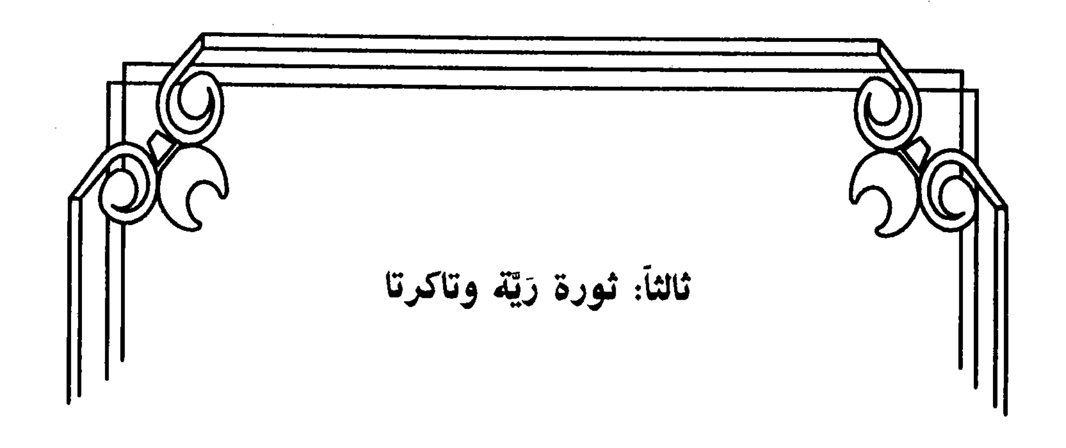


---

(١) البيان المغرب ١٠٣/٢.

(٢) المصدر السابق.

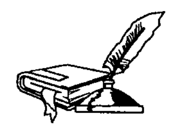
(٣) د. عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم ص٢٤٨.

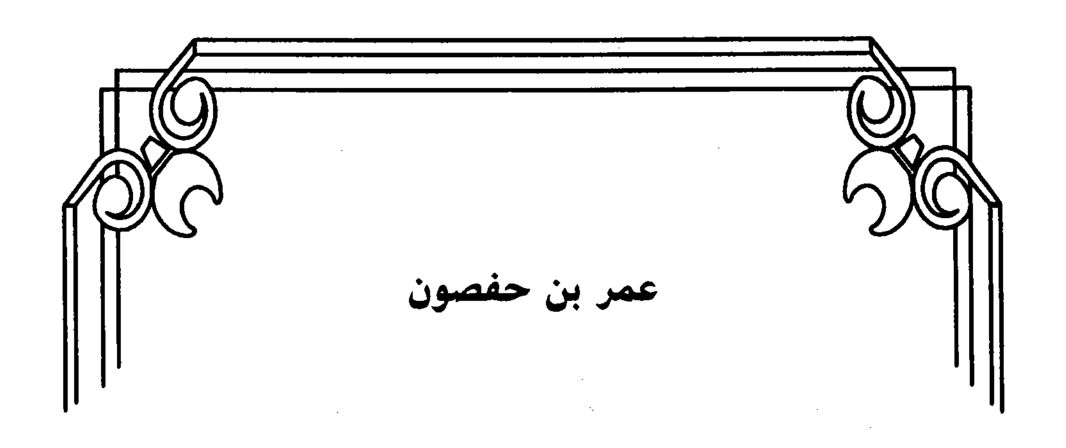


ثالثاً: ثورة رَيّة وتاكرتا

انتهت ثورة طليطلة وكذلك ثورة ماردة، ولكن الثورة اشتعلت في أماكن أخرى، في ريَّة وتاكرتا، وظهرت فيهما الثورة بقيادة يحيى المعروف بالجزيري، وكان ذلك في سنة **٢٦٥هـ/ ٨٧٩م**، فتجهز له هاشم بن عبدالعزيز، فأذعن له، وقدم به إلى قرطبة، وفي سنة **٢٦٦هـ/ ٨٨٠م** خرج الأمير عبدالله بن الأمير محمد إلى كورة ريَّة ونواحي الجزيرة، وابتنى حصوناً في تلك النواحي.

وقد بلغ الأمير أن جليقية لا سور لها من ناحية البحر المحيط، وأن أهلها لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم إذا دهمهم جيش من هذه الجهة، فأمر الأمير بعمل مراكب في قرطبة ليتوجه بها إلى البحر المحيط، ولما كملت المراكب، قدم لقيادتها عبدالحميد بن مغيث، فلما دخل بها البحر تمزّقت المراكب شذراً، وتفرقت هنا وهناك، ونجا ابن مغيث.





عمر بن حفصون

كان والد عمر بن حفصون من مسلمة أهل الذمة، وكان يقيم في إقليم رندة بقرية تربيثيا، وكان سبب ثورة عمر بن حفصون أن عامل ريَّة، وهو دوثكير من بني خالد، أخذ عليه مآخذ فضربه بالسياط، فاضطر عمر إلى العبور إلى العدوة، ولاذ بتاهرت عاصمة الرستميين، وأخذه خياط أصله من ريَّة مساعداً له.

وبينما هو جالس في الدكان، إذ أتاه شيخ معه ثوب يقطعه (يفصله) فقام إليه الخياط ووضع له كرسياً؛ فقعد عليه، فسمع الشيخ كلام ابن حفصون فأنكره عند الخياط.

فقال للخياط: مَن هذا؟

فقال: غلام من جيراني أتى ليخيط عندي.

فالتفت الشيخ إليه، فقال له: متى عهدك بريّة؟

قال له: منذ أربعين يوماً.

قال: تعرف جبل ببشتر؟

قال: أنا ساكن عند أصله.

قال له الشيخ: فيه حركة؟

قال: لا قد آن له ذلك.

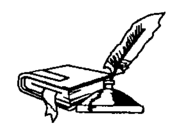
ثم قال له: هل تعرف فيما يجاوره رجلاً يقال له: عمر بن حفصون؟

فذعر من قوله، وأحدَّ الشيخ النظر إليه، وكان ابن حفصون أفضم الثنية، فقال له: يا منحوس تحارب الفقر بالإبرة، ارجع إلى بلدك، فأنت صاحب بني أمية، وسيلقون منك غيّاً وستملك ملكاً عظيماً.

فقام ابن حفصون من فوره خشية أن ينتشر أمره، وأن يقبض عليه بنو أبي يقظان، وكانوا حكام تاهرت، وكان ولاؤهم لبني أمية، فأخذ خبزتين من الخباز وألقاهما في كمه، وخرج فأتى الأندلس، واتصل سرّاً بعمه، وأعلمه بقصة الشيخ، فأمدّه بأربعين رجلاً، تمكن بفضلهم من إشعال نار الثورة في رِيَّة[1].

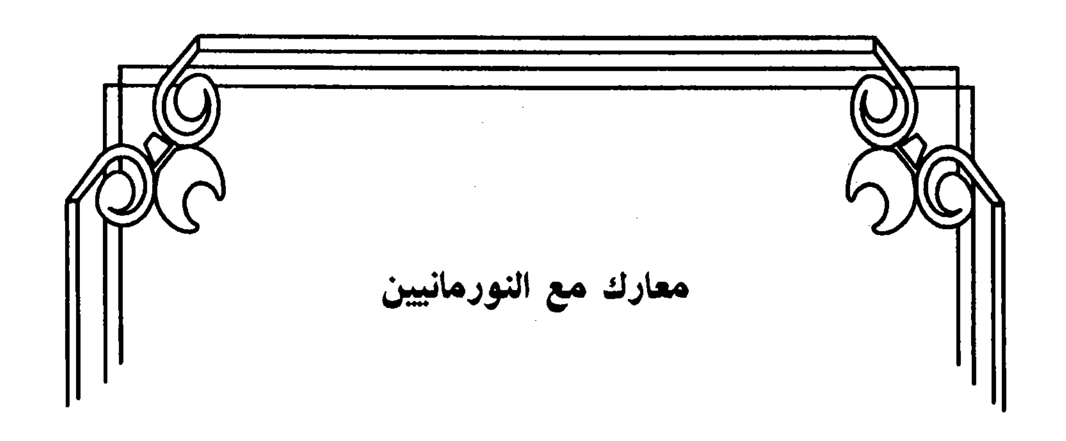
أصبح ابن حفصون قوياً، فقد قويت شوكته، وانضم إليه كثير من قطّاع الطرق الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فاضطر الأمير إلى إرسال هاشم بن عبدالعزيز لقتال ابن حفصون سنة **٢٧٠هـ/ ٨٨٣م**، وتمكن هاشم من القضاء على الثوار، وأنزل جميعهم من ببشتر وتاكُرتا والجزيرة، وتقدم بهم إلى قرطبة، وألحقهم بخدم الأمير، ولكن ابن حفصون تمكن من الهرب، وفرَّ إلى الثغر[2]. وفي سنة **٢٧٢هـ/ ٨٨٥م** جهز الأمير محمد بن عبدالرحمٰن جيشاً، وولّى عبدالله ابنه إمارة الجيش، والقائد هاشم بن عبدالعزيز، وسار الجيش إلى الغرب، يقصد ابن مروان، وكان بجبل أشبرغزّة، فحاربه.

وفي سنة **٢٧٣هـ/ ٨٨٦م** خرج المنذر ابن الأمير محمد إلى كورة ريَّة والقائد محمد بن جهور، فقصد مدينة الحامَّة، وكان فيها حارث بن حمدون من بني رفاعة، وكان مظاهراً لعمر بن حفصون، فنازلهم وناهضهم، وأحاط بهم من كل ناحية، وحاصرهم شهرين، فلمّا ضيّق عليهم، خرجوا إلى باب المدينة مستقبلين الحرب، وخرج معهم الحارث بن حمدون، فجُرح وشُلّت يمينه، ثم انهزم هو وأصحابه.



(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٢٤٨.

(٢) المصدر السابق.



معارك مع النورمانيين

ظهر النورمانيون مرة أخرى سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م في ساحل البحر بالغرب في اثنين وستين مركباً، وفوجىء النورمان بأن البحر محروس بالأساطيل الإسلامية، فلم يستطيعوا هذه المرّة أن يصيبوا من المسلمين ما كانوا يصيبونه، فلم يجرؤوا على اقتحام الأشبونة (إشبيلية) فزحفوا على بلد صغير هو (باجة) في البرتغال الحالية[١].

وتقدم مركبان من مراكب النورمان، فالتقت بهما المراكب المستعدة في بعض كور باجة، فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضة والسبي والعُدَّة، ومرت مراكب النورمان في الريف حتى وصلت مصب نهر إشبيلية.

فأخرج الأمير الجيوش، ونفر الناس من كل صوب، وكان القائد عيسى بن الحسن وهو من أمهر قواد الأمير، وتقدمت المراكب من مصب نهر إشبيلية حتى نزلت بالجزيرة الخضراء، فتغلبوا عليها، وأحرقوا المسجد الجامع بها.

ثم انتقلوا إلى العُدْوة، فاستباحوا أريافها، ثم عادوا إلى ريف الأندلس، وتوافوا بساحل تدمير، ثم وصلوا حصن أوربولة، وتغلبوا هناك على مدينة سكفوها ـ هي ولاية (نورمانديا) تنسب إليهم إلى اليوم وهي ولاية فرنسية ـ ثم انصرفوا إلى ريف بحر الأندلس، وقد غرق من مراكبهم

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس، الشعراوي ص٣٧.

أكثر من أربعين مركباً، ولقيتهم مراكب الأمير محمد، فأصابوا منها مركبين بريف شَذُونة فيها الأموال العظيمة[1].

وفي عام **٢٤٦هـ/ ٨٦٠م** أغزى الأمير محمد أحد قواده مدينة بنبلونة، فخرج في هذه الغزوة خروجاً لم يخرجه أحد من قبله، جمع كثير، وكمال عدّة، وظهور هيبة، وكان صاحبها (بنبلونة) غرسِيَة متعاوناً مع أردون صاحب جليقية، وأقام هذا القائد بأرض بنبلونة اثنين وثلاثين يوماً يخرب المنازل، وينسف الثمار، ويفتح القرى والحصون، وبالجملة افتتح حصن قشتيل، ووجد فيه فرقون ابن غرسية المعروف بالأنقر، فأخذه أسيراً، وقدم به قرطبة، وظلّ فيها محبوساً نحواً من عشرين سنة، ثم ردّه الأمير إلى بلده، وعمره مائة وست وعشرون سنة[2].

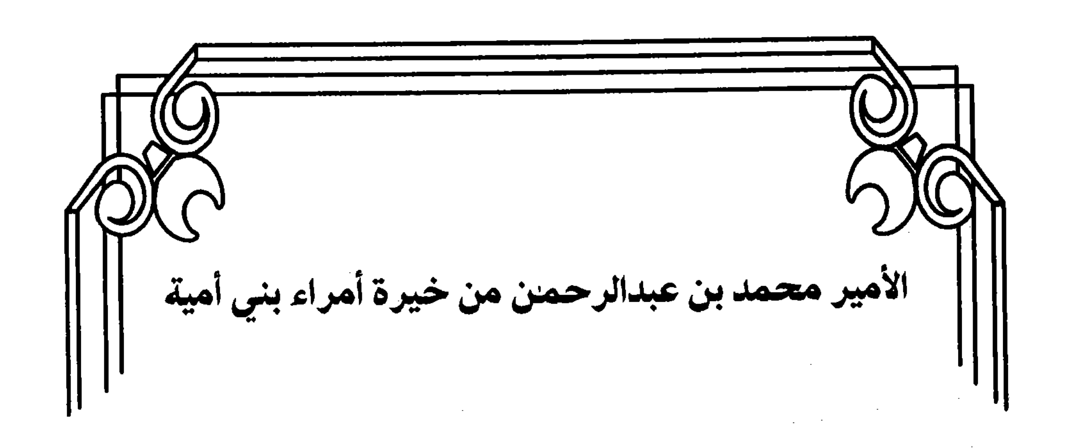
وفي سنة **٢٤٩هـ/ ٨٦٣م** أخذ عبدالرحمٰن بن الأمير محمد الجيوش إلى حصون ألبة والقلاع، وكان القائد في هذه المعركة عبدالملك بن العباس، فافتتحها، وقتل الرجال، وهدم المنازل، وتنقّل في نواحيها من موضع إلى موضع، يحطم الزروع، ويقطع الثمار.

فذهل أردون بن أذفونش، فأخرج أخاه في جيش إلى مضيق الفج ليقطع بالمسلمين ويقف في وجههم، ولكن القائد عبدالملك لم يعبأ به، فتقدم وقاتلهم على المضيق حتى قتلهم، ثم أقبلت العساكر تترى من كل فجّ، وأظلتهم الخيل من كل الجهات، فصبر أعداء الله صبراً عظيماً، ثم انهزموا، ومنح الله المسلمين أكتافهم، فقتلوا قتلاً ذريعاً، وقتل لهم تسعة عشر قومساً (خادم البطريرك) من كبار قوادهم.



(١) نفح الطيب جـ١ ص٣٥١.

(٢) البيان المغرب ٩٧/٢.



الأمير محمد بن عبدالرحمن من خيرة أمراء بني أمية

قال المؤرخون[1]: «إن عبدالرحمن بن الحكم من خيرة أمراء بني أمية وأوفرهم ذكاءً وفطنة».

وقالوا أيضاً: «ولمحمد في سلطانه الآثار الجميلة، والآيات الجزيلة، والفتوح العظيمة، والعناية بمصالح المسلمين، والتهمم بثغورهم، والضبط لأطرافهم، والتوجيه لمصالحهم».

وقد أراد الأمير محمد أن يحذو حذو أبيه في الإصلاح والإنشاء، ولكنه اضطر أن يقضي معظم أيام حكمه في غزوات متعاقبة، فقد كان عليه أن يصون عرش بني أمية، وأن يحمي سلطان الدولة الإسلامية من الانهيار، ورغم أنها كانت مهمة شاقة، إلاّ أنه أبدى جَلَداً وبراعة في سبيل تحقيق ذلك، فكانت صوائفه لغزو أراضي النصارى، وحملاته التأديبية لقمع الثوار والقضاء عليهم، وكان كل هذا يتم بالتوالي دون كلل أو ملل مهما كانت النتائج، ووراء ذلك النجاح عشق الأمير محمد للجهاد وحبه للكفاح، فكان يقود الجيش بنفسه كلما سنحت الفرص، وكان ولده المنذر ساعده الأيمن في تلك المهام الخطيرة.

❋ ❋ ❋

اهتمامه بالجيش والثغور

اهتمّ الأمير محمد بالجيش اهتماماً عظيماً، وكذلك الأسطول، وكان

(١) منهم ابن الأثير جـ٧ ص١٤١.

يقوم بتقوية الجيش نظراً للظروف العصيبة التي كانت تجوزها المملكة يومئذ، وإذا نظرنا إلى عدد الفرسان التي كانت تُحشد نعرف حجم الجهد في السعي لتقوية الجيش، فنجد الكور أو المناطق قد حدد لها ما تحشده من فرسان، فمثلاً: البيرة (غرناطة): ألفان وتسعمائة، وجيّان: ألفان ومائتا فارس، وقبرة: ألف وثمانمائة، وباغة: تسعمائة، وتاكرتا: مائتان وتسع وتسعون، وإستجة: ألف ومائتان، وشذونة: ستة آلاف وسبعمائة وسبعون.. إلى آخر الكور مثل ريّه، وشربش، ومحض البلوط، ومورور، وتدمير.

أما قرطبة العاصمة، فكانت تترك لاجتهادها وهمتها، ويحشد أبناؤها بطريق التطوع خلافاً لأهل النواحي الأخرى، وكانت هذه الفرق تسمى بفرق الفرسان المستنفرين، ويجري «استنفارهم» أوقات الصوائف، أو كلما ظهر خطر من العدو. هذا كله بالإضافة إلى حشود المشاة المستنفرة والمتطوعة، جعل من الجيش الأندلسي في عهد الأمير محمد قوة هائلة[1].

أمّا الأسطول، فقد اجتهد الأمير محمد في إنشائه لحماية الشواطىء الغربية ولغزو مملكة جليقية من ناحية البحر، وفي سنة **٢٥٢هـ/ ٨٦٦م** سارت السفن الأندلسية بالفعل إلى شواطىء جليقية بقيادة أمير البحر عبدالحميد بن مغيث، ووصلت إلى مصب نهر منهو، ولكنه لم يوفَّق إلى تحقيق بغيته، إذ عصفت الرياح بالسفن فتفرقت وغرق معظمها في المياه الغربية[2].

وعني كذلك الأمير محمد بتحصين أطراف الثغور، فابتنى حصن شنت إشتيت لحماية مدينة سالم، وابتنى حصن طلمنكة وحصن مجريط بمنطقة وادي الحجارة للدفاع عن طليطلة، وكان شديد الاستخبار عن الثغور والبحث في مصالحها.

❋ ❋ ❋

(١) البيان المغرب جـ٢ ص١١١.

(٢) المصدر السابق ص١٠٦.

الضرائب والنفقات

وبالرغم مما كان يقتضيه الجهاد المتواصل من النفقات الضخمة، فقد كان الأمير محمد يبذل وسعه لتخفيف الضرائب عن كاهل شعبه، وقد رفع عن أهل قرطبة ضريبة «الحشود» واكتفى بدعوتهم إلى التطوع والجهاد في سبيل الله، فأقبلوا على تعضيده وتأييده، وأمَّا عن العشور فقد أبدى محمد تشدداً في اقتضائها، وقد نصح له وزيره عبدالرحمٰن بن غانم صاحب المدينة بأن يسقط العشور متى عدمت الغلات، لأن العشور إنما تفرض على الغلات إذا وهبها الله، فإذا لم يزرع بذر ولم يستغل زرع وجب إسقاطها، فلم يستمع إليه محمد في البداية وعزله وعيّن مكانه حمدون بن بسيل، وكان فظاً ظلوماً، فاشتط في تحصيل العشور حتى ضجَّ الناس بالدعاء عليه، ووصل صريخهم إلى الأمير، وتوالت في نفس الوقت أعوام الجدب والقحط، فاضطر الأمير أن يسقط عن الناس حجلاً من العشور، حتى يتنفس مخنقهم ويستطيعوا مواجهة أعباء الحياة ومواصلة نشاطهم العمراني، وأعلن الناس عندئذ بشكره، وبالطبع فقد مدحه الشعراء.

وكان الأمير محمد بارعاً في الشؤون المالية والخزانة العامة[1]. وفي عهده أصيبت الأندلس بالقحط مرتين، الأولى بين سنَتَي **٢٥١**، **٢٥٥هـ** والثانية سنة **٢٦٠هـ**. وكان قحطاً شديداً استمر بضعة أعوام، وكثر بسببه الغلاء والموت، ولكن الأندلس استطاعت أن تصمد للمحنة، وأن تتغلب عليها.

❋ ❋ ❋

النظام الإداري في عهد الأمير محمد

سار بلاط قرطبة في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمٰن على طريق معتدل، مبتعداً عن البذخ والتبذير الذي ساد في عهد أبيه عبدالرحمٰن، ومن ثم فقد ضعف نفوذ الجواري والصقالبة في القصر، ومع ذلك فقد استمر

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص١١٠.

النظام الإداري الذي كان قائماً في عهد عبدالرحمٰن بتفاصيله تحت إشراف الأمير، وتولّى زمام الأمور رجال الدولة الذين تولوها من قبل، إلى أن اجتمعت السلطات في أيدي أُسرَتَي بني شُهيد وبني أبي عَبْدة، أعظم الأُسَرِ القرطبية يومئذ، وتولى الحجابة لمحمد في البداية عيسى بن شُهيد حاجب أبيه من قبل، وهو وزير نابه، ثم خلفه في الحجابة عيسى بن الحسن بن أبي عبدة، فكان من أرجح الوزراء عقلاً وإصابة، وكان طوال خدمته هدفاً لمنافسه هاشم بن عبدالعزيز ودسائسه، رقد هاشم بالفعل في الحجابة، ولبث يضطلع بها أعواماً طويلة حتى وفاة الأمير محمد، وكان هاشم بن عبدالعزيز ينتمي إلى أُسرة من المولدين، وكان من أعظم رجالات الحرب والسياسة في عصره، وقد تولى القيادة الفعلية لكثير من الغزوات والحملات، كما ذكرنا من قبل، وكان من قبل من وزراء الأمير عبدالرحمٰن ـ وقد تحدثنا عنه من قبل ـ.

وكان من وزراء الأمير محمد: أمية بن عيسى بن شهيد، وكان من أَجَلّ وزرائه وأقربهم إلى نفسه وأخصهم بخدمته، والوليد بن غانم المتقدم الذكر، وكانا يتعاقبان في منصب ولاية المدينة، وهو من أهم مناصب الدولة يومئذ، لما يتطلبه من حزم وقوة الشكيمة والنزاهة في نفس الوقت، ومنهم: تمام بن عامر الثقفي الشاعر الأديب، وكان مؤرخاً راوية كتب أُرجوزة في فتح الأندلس، وقد اشتهر ببراعته في لعبة الشطرنج وكانت من أسباب حظوته لدى الأمير وتمكُّن منزلته لديه، وقد ذاعت في أيامه ذيوعاً عظيماً.

ومن رجال الأمير محمد أيضاً سليمان بن وانسوس، وهو من أشرف البيوتات البرية، وكان جده رئيساً مطاعاً بماردة، وقد ثار فيها أيام الحكم بن هشام، وكان أديباً وافر الوجاهة، وقد تولى خطة السوق وهو اسم ولاية الحسبة يومئذ، وكان من الوزراء والكتّاب عبدالملك بن عبدالله بن أُمية، وكان كاتباً بليغاً[1].

❋ ❋ ❋

(١) د. عنان ـ دولة الإسلام ـ ص٣١٣ ق١ ع١.

حبه للأدب والشعر

كان الأمير محمد فوق رجاحة عقله، أديباً، يشغف بالبيان، بليغاً في كتبه، محسناً في توقيعه، بيد أنه لم يكن شاعراً مثل أبيه وجده، وكان مكرماً لأعلام الناس وذوي العلم منهم، يرفع مجالسهم، ويكثر من رعايتهم، ويستشعر مع ذلك الحذر من منافستهم وتحاسدهم، ويأبى الإصغاء لسعاياتهم. وكان يجمع حوله صفوة الشعراء والعلماء مثل: عباس بن فرناس، ومؤمن بن سعيد، وابن عبد ربه، وهم من أقطاب الشعر في عصره. ومن العلماء في عصره: بقي بن مخلد، وقد تحدثنا عنه من قبل.

وكان للفقهاء في عصر الأمير محمد نفوذاً كبيراً في بلاط قرطبة.



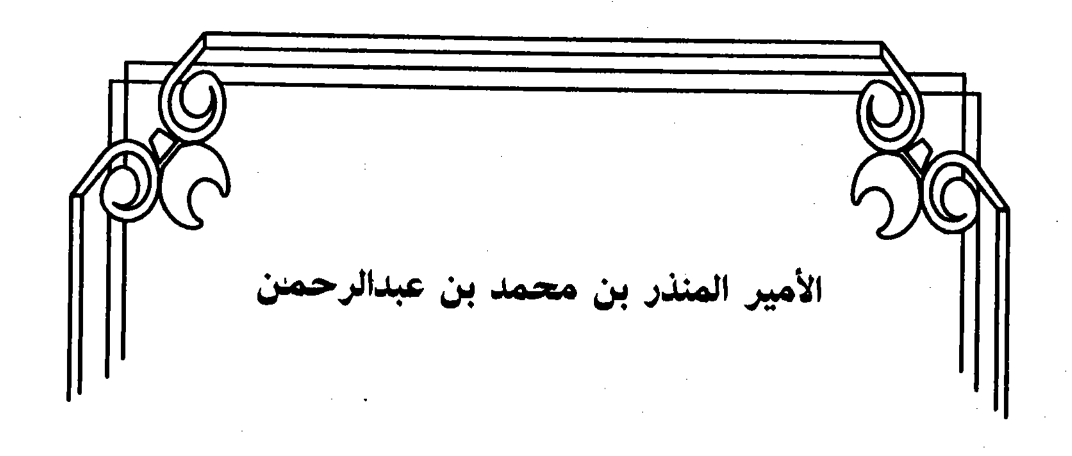
وفاته

وتوفي الأمير محمد في يوم الخميس لليلة بقيت من شهر صفر سنة ٢٨٢هـ/ ٨٨٥م وكان عمره خمساً وستين سنة وأربعة أشهر، وكانت خلافته أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وعشرين يوماً[١].

وقد وصلت أخبار وفاته لابنه المنذر، وهو محاصر لمدينة الحامة، فرجع إلى قرطبة، وأدرك أباه قبل دفنه، فصلّى عليه، ودفن الأمير محمد رحمه الله في القصر في مقبرة آبائه وأجداده.



(١) البيان المغرب ٩٤/٢.



الأمير المنذر بن محمد بن عبدالرحمٰن

الأمير المنذر ـ بطاقة تعريف

ولد الأمير المنذر سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م، وأمه أم ولد تسمى أَثْل[١]، ولدته أمه لسبعة أشهر[٢]، وقد ولد في قرطبة.

وهو الأمير المنذر بن محمد بن عبدالرحمٰن بن الحكم، ويكنى أبا الحكم.

كان رحمه الله أسمر، جعد الشعر، بوجهه أثر جدري، يخضب بالحناء.

❋ ❋ ❋

بيعته

وصل المنذر بن محمد بجيشه إلى قرطبة لأيام قلائل من وفاة أبيه، عائداً من مقاتلة ابن حفصون، وفي الحال أعلنت بيعته في الثامن من ربيع الأول سنة ٢٧٣هـ/ أغسطس سنة ٨٨٦م، وكان في الرابعة والأربعين من عمره.

وكان المنذر منذ فتوته أثيراً عند أبيه بين أبنائه الثلاثة والثلاثين،

(١) المعجب ص٥٢.

(٢) البيان المغرب ١١٣/٢.

مستأثراً بثقته وولاية عهده، يختاره لجلائل الأمور، ويندبه لقيادة الجيش كلما جدَّ الخطب، وقد أبلى المنذر بلاءً حسناً في مقاتلة الثوار والخوارج، وحينما تولى العرش، كانت الفتنة قد تفاقمت، وعمّت الثورة (ثورة المولدين) معظم الأنحاء، فتأهب لمواجهة هذه الثورة وسحقها، وفرض الأمن والنظام، حماية للعرش والدولة من عدوان الخوارج والطامعين.

وقد استهلّ المنذر ولايته بالتقرُّب والتحبُّب إلى أهل قرطبة والرعايا بأن أسقط عنهم عشر العام وما يلزمهم من جميع المغرم.

وقد بدأ إمارته بالنظر إلى الخصوم، وحتى عند مجيء خبر وفاة أبيه كان على رأس جند عند حصن الحامة، محاصراً الحارث بن حمدون من بني رفاعة، وكان مظاهراً لعمر بن حفصون.

كان المنذر أميراً قوياً، وافر العزم والحزم، ذا شخصية حازمة، فيه شجاعة وبأس.

وقد ظهرت شجاعته خلال الفتنة التي ثار ضرامها في أيام أبيه الأمير محمد بن عبدالرحمٰن، وكان معقد آمال الحكومة والجيش، ذلك أن زعماء الفتنة يهابونه بشدة ويخشون جانبه خشية لافتة لما عُرِف عن شخصيته من حدة وصرامة تصل إلى حد القسوة الشديدة، وسوف نرى في قصة وفاته المثيرة تحت أسوار ببشتر كيف أنها كانت ضربة مؤلمة بل شديدة الألم لحكومة قرطبة، حتى إن المؤرخين ذكروا أنه لو امتد به الأجل قليلاً لاستطاع أن يقضي على ألد أعدائه وهو ابن حفصون وأصحابه ممن تزعموا الفتنة وأشعلوا نارها، ولاستطاعت الأندلس أن تأمن شرَّ تفاقم الفتنة واستمرار اشتعالها سنوات طويلة متوالية.

وقد كان المنذر شاعراً يعشق الشعر، أديباً يهوى الأدب هواية عظيمة، تتصل مجالسه العامرة بالشعراء وفحولهم من بلاد الأندلس، فقد كانوا ينشدون شعرهم في مجالسه، ويبذلون له قصائدهم مقابل عطاء

جزيلٍ منه، وكان من أشهر شعراء دولته الأندلسية الشاعر والأديب والمؤرخ الاجتماعي ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، والعكي، وغيرهما[1] من شعراء وكتّاب لهم باع طويل في الحركة الأدبية والشعرية في الأندلس.

❋ ❋ ❋

قضاؤه على الحاجب هاشم بن عبدالعزيز

كما نعلم فإن المنذر عهد بحجابته وهي رئاسة الوزراء إلى القائد هاشم بن عبدالعزيز حاجب أبيه وقائده، وكان هذا الوزير القوي، في أواخر عهد الأمير محمد، قد استأثر بالسلطة، وأصبح أقوى رجل في الدولة. وكان المنذر يخشاه ويتوجس من نفوذه وسلطانه، وكان خصوم هاشم يكثرون من السعاية في حقه وإحفاظ المنذر عليه، وتحذيره من أطماعه، فلما توفي الأمير محمد، رأى المنذر أن يستمر هاشم في حجابته براً منه بذكرى أبيه، وأَملاً في تحسين الأمور، ولكن الظاهر أن الحاجب استمر في طغيانه، ولم يكترث للقوى المتألبة عليه، وأذكت مساعي خصومه من نفس المنذر توجسه القديم منه، وسخطه عليه، فلم يمضِ سوى قليل حتى اعتزم المنذر أمره، وأمر بالقبض على هاشم وأولاده وصحبه، ثم دسَّ عليه في سجنه من قتله، وهدم داره، واستصفى أمواله، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة **٢٧٣هـ**، أعني لشهرين فقط من ولايته، وكانت ضربة جريئة تنبىء عن قسوته وصرامته. واستمر أولاد الحاجب القتيل في السجن حتى أطلقوا بعد وفاة المنذر أيام أخيه الأمير عبدالله، وردت إليهم أموالهم[2]، وفي تلك المحنة يقول هاشم بن عبدالعزيز شعراً نظمه في سجنه وقد فجع بهذه الفاجعة:

---

(١) ابن الآبار في الحلة السيراء ص٩٠ وانظر ابن الأثير جـ٣ ص١٤٥.

(٢) البيان المغرب جـ٢ ص١١٨، ١١٩.

سأرضى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء الله للمرء مهربا
فمن يكُ أمسى شامتاً بي فإنه سينهل في كاس وشيكاً ويشرب

ويذكر ابن عذارى سبباً مباشراً في إقدام المنذر على قتل هاشم بن عبدالعزيز أن هاشماً كان يُحسد لمكانته من الأمير محمد والد المنذر، فكان الناس يسعون فيه إلى الأمير المنذر، فلما مات الأمير محمد أراد المنذر أن يبقيه في مكانته كما كان يفعل أبوه، فولاه الحجابة، ولكن الناس اجتمعوا عليه يسعون للإيقاع به، وتأولوا عليه أقبح تأويل، وكان مما تأولوا عليه قوله:

أعزّي يا محمد عنك نفسي أمين الله ذا المنن الجسام
فهلا مات قوم لم يموتوا ودوفع عنك لي كأس الحمام

فتأول الواشون بقوله: «لم يموتوا» في البيت الثاني، وقالوا: إنه يقصد المنذر، فقتله ونفذ فيه قضاء الله[1].

ويذكر ابن عذارى أيضاً أن الأمير المنذر بعث ليلاً فأحضر هاشم، فقتله وسجن أولاده وحاشيته، وانتهب ماله، وهدم داره، وألقى أولاده في السجن وألزمهم غرامة مائتي ألف دينار، وظل أولاده في السجن حتى مات المنذر وتولى أخوه عبدالله، فأطلقهم، وصرف عليهم ضياعهم، وولّى أحدهم الوزارة والقيادة[2].

وبعد أن فرغ المنذر من هاشم بن عثمان، سيّر حملة إلى طليطلة، منبع الثورات ومركز الفتن منذ أيام والده وجده، فقد عادت إليها الثورة مرة أخرى، واشتعلت فيها نار الفتنة، واجتمع أهلها على كثير من البربر المنفيين من مدينة ترجيلة أو ترجالة، وهذه المدينة تقع في الجنوب الغربي لطلبيرة، ودار هناك قتال عنيف بين قوات المنذر الكثيرة العدد والثوار، وقتل من

---

(١) ابن عذارى في البيان المغرب ١٦/٢.
(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

الثوار الألوف، مما يدل على سخونة هذه المعركة وشراستها. وفي نفس هذا العام سنة **٢٧٣هـ/ ٨٨٦م** أيضاً غزا محمد بن لب زعيم الثغر الأعلى السابق، ألبة والقلاع، وقاتل النصارى وهزمهم، وكان قد نزل على سرقسطة من قبل وعاد إلى سابق ولائه للأمير[١].

❋ ❋ ❋

معاركه مع ابن حفصون

كان ابن حفصون من أشد وأخطر أعداء المنذر، ولذلك فإن أول ما كان يشغله هو القضاء على هذا الرجل وثورته، وقد كان ابن حفصون نفسه عماد هذه الثورة ومثير ضرامها في الجنوب.

وكان ابن حفصون قد بلغته وفاة الأمير محمد ورحيل المنذر عنه المنذر، قد اشتد بأسه وقويت نفسه، وأخذ يعمل لإخضاع القواعد والحصون الجنوبية كلها، فبسط سلطانه على منطقة ريّة بأسرها، وامتد سلطانه إلى أرشدونة ومالقة وجيّان وإستجة وغيرها، واجتمع إليه المغامرون والخوارج من سائر أقطار الأندلس، وأخذ يطمح إلى الاستيلاء على الأندلس كلها، وأظهر الدعوة لبني العباس، وكاتب ابن الأغلب أمير إفريقية (قولس) في ذلك، ولكن ابن الأغلب لم يستجب إلى دعوته، وكان ابن حفصون صاحب دعوة سياسية يدعو الكافة إلى اعتناقها، قبل أن يكون ثائراً عادياً، وقد تحدثنا في سيرة الأمير عبدالرحمٰن بن الحكم عن ابن حفصون وسيرته، فقد كان مولداً، يمثل في ثورته كل ما يجيش به المولدون نحو العرب الفاتحين ونحو حكومة قرطبة من الحفيظة والبغض، والمولدون هم الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح، وقد ألّفوا عنصراً من أهم عناصر الأندلس من حيث الكثرة والمستوى الاجتماعي، وقد كانوا بالرغم من اندماجهم في المجتمع الإسلامي يحتفظون دائماً بنزعة استقلالية واضحة، ويبغضون العرب

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص١١٨.

والبربر معاً، وقد ظهرت هذه النزعة الاستقلالية بالأخص في الثغر الأعلى، حيث لبث بنو موسى، وبنو عمروس، وبنو الطويل، وهم جميعاً من الأسر المولدة القوية، عصراً يتحدُّون السلطة المركزية ويقاومونها، وكانت ثورة ابن حفصون زعيم المولدين في الجنوب هي المرحلة الثانية لتلك النزعة الثورية التي رفع المولَّدون لواءها ضد حكومة قرطبة، وهكذا كان ابن حفصون يدعو المولَّدين ومن إليهم من محبي الخروج والفوضى إلى تأييد قضية الاستقلال والحرية، ويذكرهم بما ينالهم من ظلم وعسف السلطان، وانتزاعه لأموالهم، وتكليفهم بأمور تفوق طاقتهم، وكيف أذلتهم العرب واستعبدتهم وقضت على حرياتهم واستقلالهم، وأنه إنما ينهض ليأخذ بثأرهم ويرفع عنهم نير الطغيان والعبودية، وقد كانت هذه الدعوة تبث في نفوس سكان هذه المناطق الجبلية الحماسة والدعوة إلى الحرية، ولن يتأتَّى ذلك إلاّ بالتفاني في مناهضة بل ومقاتلة حكومة قرطبة.

وهكذا كانت الجموع الغفيرة تحتشد حول ابن حفصون ودعوته، ويشتد نفوذه ويمتد سلطانه سريعاً.

وبالرغم من أن حكومته كانت تقوم على الخروج والثورة، وكان معظم أصحاب ابن حفصون من أهل البغي والشر، فقد كان الأمن مستتباً في المناطق التي يسيطر عليها.

وكان ابن حفصون صارماً في أحكامه وعقوباته، شديداً على كل مخالف ومستهتر، وكان فوق ذلك كله متودداً لأصحابه، متواضعاً، يكرم الشجعان ويثيبهم، فكانت هذه العوامل كلها مما يقوي نفوذه ويوطد سلطانه[1]. وبلغ ابن حفصون في زحفه إلى المنطقة الوسطى أحواز جيان وما يليها من الغرب، واستولى على باغة (بريجو) وأسر حاكمها، واستولى على قبرة الواقعتين في جنوبي غرب جيّان، وعلى حصن أشرس الواقع في شمال منطقة رية.

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص١١٨.

وأطلق المنذر قواته إلى تلك الأنحاء، فاستردت حصن أشرس وبعض القرى المجاورة لقبرة.

وفي ربيع العام التالي (٢٧٤هـ/ ٨٨٧م) خرج المنذر بنفسه في قواته عازماً على سحق ابن حفصون، وأن يقضي على الثورة في الجنوب، وزحف على منطقة رية، وحاصر أرشدونة الواقعة في جنوب غربي لوشة حتى سلّمت، وقبض على عيشون حاكمها من قبل الثائر وعلى صحبه، وافتتح حصون جبل باغة (بريجو) وأسر بها بني مطروح حلفاء ابن حفصون، وهم: حرب، وعوت، وطالوت، وبعث بهم جميعاً إلى قرطبة حيث قتلوا صلباً، وصلب مع عيشون خنزير وكلب، إمعاناً في التمثيل به!.

وكان ابن حفصون أثناء ذلك متحصناً وممتنعاً بقلاعه في ببشتر، فطوّقه المنذر بقواته، وشدّد في حصاره، وقطع كل علائقه مع الخارج، فلما ضاق ابن حفصون ذرعاً بالحصار وشعر بنفاذ أقواته، لجأ إلى الخديعة، وعرض التسليم والخضوع للمنذر، وطلب الصلح والأمان على أن يسير بأهله وولده إلى قرطبة، فأجابه الأمير إلى طلبه، وعقد له الأمان، وأمدّه بالثياب والدواب والمؤن، وطلب الثائر من الأمير مائة بغل لتحمل أهله ومتاعه، فزوّدوه بها، وبعث بها ابن حفصون إلى قلاعه، ورفع المنذر الحصار عن ببشتر، وقفل راجعاً إلى قرطبة.

لكن ابن حفصون فرَّ من الجيش تحت جنح الظلام، وعاد إلى ببشتر وامتنع بها بعد أن قويت نفسه بما حصل من الإمداد، فاستشاط المنذر حنقاً لتلك الخيانة المثيرة، وارتدَّ راجعاً بجنده إلى ببشتر، وضرب حولها الحصار مرة أخرى معتزلاً ألاّ يبرحها حتى يقبض على ابن حفصون حيّاً أو ميتاً، واستمر الحصار ثلاثة وأربعين يوماً، ومرض المنذر أثناء ذلك، واستقدم أخاه عبدالله من قرطبة لينوب عنه في متابعة الحصار، ولم يأتِ منتصف صفر سنة ٢٧٥هـ/ يونية ٨٨٨م حتى قضى المنذر نحبه تحت أسوار ببشتر، بعد حكم لم يستمر سوى عامين[١].

---

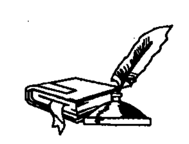
(١) دولة الإسلام ـ د. عنان ق١ ع١ ص٣٢٠.

وفي بعض الروايات أن المنذر توفي قتيلاً بتدبير من أخيه عبدالله! وأن عبدالله رغبة منه في التخلص من أخيه واعتلاء العرش مكانه حرّض طبيبه (حجامة) على قتله، فقصده الطبيب بمبضع مسموم أثناء حصاره لببشتر، فتوفي من أثر السم. ويؤيد المؤرخون هذه الرواية لما عرف عن أخيه عبدالله من دمويته وعنفه، فقد قتل فيما بعد اثنين من أبنائه وهما: محمد والد الناصر والمطرف، ثم قتل أخوين له وهما: هشام والقاسم. فليس غريباً أن يكون هو مدبر جريمة يرتفع بها إلى العرش(١).

ولما توفي المنذر، رفع الحصار عن ببشتر للمرة الثانية، في حالة وفاة، وقفل الجيش راجعاً إلى قرطبة.

وكانت وفاة المنذر إنقاذاً لابن حفصون من خطر داهم كاد أن يقضي عليه تماماً، فعاد ينظم شؤونه، ويقوي جيشه، ويوطد سلطانه ومركزه في الأنحاء الجنوبية.

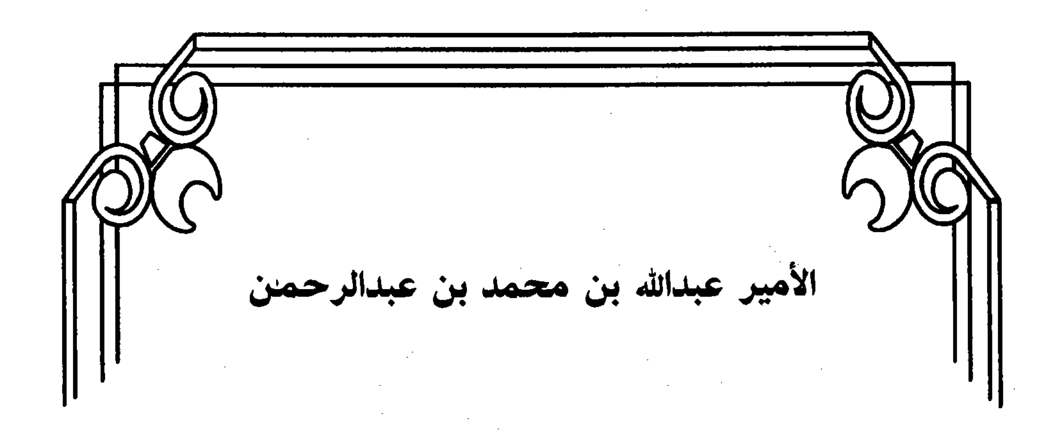
وكانت وفاته في شهر صفر **٢٧٥هـ/ ٨٨٨م** عن عمر يناهز ستة وأربعين سنة، ودفن بقصر قرطبة، وصلّى عليه أخوه عبدالله، جد الناصر، وكانت خلافته سنتان إلا سبعة عشر يوماً(٢).



---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص١٦١.

(٢) البيان المغرب ٢/١١٨.



الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن

كان الأمير عبدالله حافظاً للقرآن، كثير التلاوة له، وكانت له صدقات كثيرة ونوافل عظيمة، كثير الصلاة، دائم الخشوع والذكر.

وُلد في النصف من شهر ربيع الآخر سنة ٢٢٩هـ/ ٨٤٤م، وأمه أم ولد اسمها بهار. هذا ما جاء به ابن عذارى عن الأمير عبدالله[١].

أما صاحب المعجب فيقول: ولد سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م، وأمه أم ولد اسمها عشار[٢].

كان الأمير عبدالله كثير التواضع، وكان مقتصداً في كل أحواله، في ملبسه وشكله. وصفه ابن عذارى فقال: أبيض مشرب بحمرة، أصهب، أزرق، أقنى الأنف، ربعة، يخضب بالسواد، عظيم الكراديس[٣].

كان عادلاً يحب العدل، عظيم الأخذ للظالمين، وقد فتح في القصر باباً سماه باب العدل، وكان يقعد فيه يوماً في الأسبوع، معلوماً للناس، ولا يجعل بينه وبين المظلوم ستراً.

كنّاه الناس بأبي محمد، وقد كان يجلس بين وزرائه ووجوه رجاله يتدارسون أحوال الناس والأُمة بأسرها، فإذا انتهى من ذلك، خاض معهم

(١) ابن عذارى في البيان المغرب جـ٢ ص١٠٢.

(٢) عبدالواحد المراكشي في «المعجب» ص٥٣.

(٣) البيان المغرب جـ٢ ص١٢١.

في العلوم والمعارف. لم يشتغل بلذة، ولا شرب مسكراً في أيام إمارته ولا قبلها، ابتنى الساباط (وهي سقيفة بين القصر والمسجد) ليحافظ على صلاة الجمعة. وبقية الصلوات، وكان يقعد فيه قبل الجمعة وبعدها، يرى مصالح الناس، ويسرُّ بجمعهم، ويسمع قول المتظلم منهم.

وفي عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمٰن بن الحكم، كثرت أعمال الخير، وكانت اللذات مهجورة في هذا العهد، وبَعُدَ الناس عن اقتراف اللهو.

كان رحمه الله كثير الاستغفار لله ـ عزَّ وجلَّ ـ اعتذر إليه بعض مواليه يوماً فقال له: «إن مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك، وتنبىء عن باطل تنصلك، ولو أقررت بذنبك. واستغفرت لجرمك، لكان أجمل بك، وأسدل لستر العفو عليك»، فقال: «قد استمل الذنب عليَّ، وحاق الخطأ بي، وإنما أنا بشر، وما يقوم لي عذر»، فقال: «مهلاً عليك، ورويداً بك! تقدمت لك الخدمة، وتأخرت لك توبة، وما للذنب بينهما مدخل، وقد وسعك الغفران»[1].

❋ ❋ ❋

عبدالله بن محمد أميراً على الأندلس

بويع عبدالله بالإمارة في نفس اليوم الذي مات فيه أخوه المنذر، وهو محاصر ببشتر، وذلك يوم السبت في منتصف شهر صفر سنة **٢٧٥هـ/ ٨٨٨م**، ورجع بأخيه المنذر ميتاً، فتمت له البيعة في قرطبة، ودفن أخاه بعدها.

أمسك عبدالله بالخلافة، وقد أحاطت بالبلاد كوارث وصعاب جمة، فقد مزقها الشقاق، وأصبحت القلوب متناثرة، وقد شقّ معظم الولاة عصا الطاعة، وتألب على أهل الإيمان أهل الشرك ومن سار مسارهم من أهل الفتنة الذين جرّدوا سيوفهم على أهل الإسلام، فصاروا بين قتيل ومحصور، فكافح الأمير وصمد، وجرّد جيوشه على أعداء الله.

---

(١) المصدر السابق ص١٥٤.

وانقطع خروج الجيوش إلى دار الحرب، وصار ثغر الأندلس هو الثغر الذي يخاف أن يقيم فيه الناس، فشمّر عبدالله عن ساعد الجد، وأرسل إبراهيم بن خمير لأخذ البيعة عن ابن حفصون، فخرج إليه إبراهيم وطلب منه الطاعة والتزام الجماعة، فأظهر حسن الطاعة، فأخذ بيعته، ورجع.

وقد كان معه عند العودة حفص بن عمر وجماعة من أصحابه، فأخذت منه البيعة وردوا مكرمين.

وسار عمر بن حفصون سامعاً مطيعاً، واقفاً عند ما أمر به، ثم لم يلبث أن تعدى حدّه، واستطال إلى ما ليس له حق، فاستولى على أموال أهل الكور، وعاث في الأرض فساداً.

وفي سنة **٢٧٦هـ/ ٨٨٩م** خرج الأمير بنفسه، وقصد حصن ببشتر وحصن ريَّة، فانتسف معاشها ورجع عنها، وترك بحاضرة ريّة محمد بن زنين من أهل قرطبة، فخرج ابن حفصون في أثره، واجتمع حوله المفسدون، فذهبوا إلى إستجة فاحتلوها، ثم إلى حصن إِسْتَبَة فأخذوه، فأخرج إليهم الأمير جيشاً، فنزل ابن حفصون وأقرّ بجريمته، فعقد له الأمير أماناً.

وفيها نقض ابن حفصون، وقصد «بيَّانة»، فحارب أهلها ثم أعطاهم العهد، فلما نزلوا إليه غدرهم وقتلهم، وأخذ أموالهم، وسبى ذراريهم، وفيها انتفض أهل جيّان، وأخرجوا عاملها عباس بن لقيط وملكها ابن شاكر. وفي سنة **٢٧٧هـ/ ٨٩٠م** خرج القائد ابن أبي عبيدة إلى جيَّان بجيش كثيف، وكان في جيَّان ابن شاكر الثائر، فحاصره ابن أبي عبدة، وقتل جماعة من أصحابه، وأحرق كثيراً من دور جيَّان.

وفي هذه السنة خرج حفص بن المرّة إلى سوَّار، ونصب له الكمائن، وأغار عليه، فلما خرج سوّار في طلبه، خرجت عليه الكمائن فقتل[1].

ولبثت الثورة على اضطرامها في الجنوب، وخرج خير بن شاكر في جيَّان وطرد منها عامل الأمير واستولى عليها، فسارت إليه جند الأندلس

---

(١) البيان المغرب جـ٢ ص١٢٣.

بقيادة أحمد بن عبدة كما ذكرنا، ولكنها عادت دون إخضاعه، وهنا بعث ابن حفصون جماعة من أصحابه إلى «جيّان» بحجة معاونة ابن شاكر، ولكنهم فتكوا به وحملوا رأسه إلى ابن حفصون، فبعث بها إلى الأمير عبدالله بن المنذر سعياً إلى مصانعته ومطاولته[1] والتقرب إليه، ولكن الأمير لم يُخدع بسعيه. وسار ابن حفصون إلى جيّان فعاث فيها وانتهب أموالاً، وأذل أهلها. وساد الذعر والفوضى في تلك الأنحاء.

ولكن ماذا عن الأمير عبدالله في ظل هذه المؤامرات التي يصنعها ابن حفصون؟

يقول الدكتور حسين مؤنس: «وكان الأمير عبدالله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد، فقد كان بارعاً في حَبْكِ المؤامرات، ولم يكن واسع الذكاء، ولا بعيد التصور، ولكن فضيلته الكبرى كانت في الثبات، فإن هذا الرجل لم يكن ليفقد صوابه أو هدوءه أبداً رغماً عن تواتر الثورات عليه»[2].

❋ ❋ ❋

موقعة بلاي وإستجة

اتجهت غارات ابن حفصون إلى الشمال حتى أحواز قرطبة، وبلغ من جرأته أن حاول إحراق مخيم الأمير في ضاحية شقندة على مقربة من العاصمة، فعندئذ عوّل الأمير عبدالله على أن يخرج لقتاله مرّة أخرى، فحشد ما استطاع من قواته، واتجه نحو الجنوب إلى ناحية قبرة حيث حشد ابن حفصون قواته في معقل بلاي أو بلى، وكان حصن بلاي من أمنع حصون «قبرة» الواقعة على مقربة من جنوب شرقي قرطبة، وقد افتنّ ابن حفصون في تقويته وتحصينه، وجعله مركزاً للسيطرة على كورة قبرة كلها، والإغارة على المدن والحصون القريبة من قرطبة، وتهديد أطراف العاصمة

(١) المقتبس لابن حيّان ص٩٢، ٩٣.

(٢) الدكتور حسين مؤنس ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس ص٣٠٤.

ذاتها. وكانت قوات الثورة تبلغ زهاء ثلاثين ألفاً، ولا تعدو قوات الأندلس ثمانية عشر ألفاً، بل أربعة عشر ألفاً[1].

ويقول ابن عبد ربه، وهو معاصر للمعركة، وربما شهدها بنفسه مع الأمير، أن قوات الأندلس كانت ثمانية عشر ألفاً منهم أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة وأربعة آلاف من حشم الأمير ومواليه[2].

ووقع اللقاء بين الفريقين على ضفاف نهر الفوشكة أحد فروع نهر الوادي الكبير على قيد مسافة قصيرة من بلاي، وكان ذلك في الثاني من صفر سنة **٢٧٨هـ/ ١٦** مايو سنة **٨٩١م**، وقد جند الأندلس القائد عبيدالله بن محمد بن أبي عبدة، وتولى ابن حفصون قيادة جنده بنفسه، ونجح فرسان الأندلس في هزيمة الجناح الأيمن للثوار وتمزيقه، فدبَّ الذعر إلى باقي القوات الثائرة وركنت إلى الفرار، وهرعت الخيل في آثارهم فقتلت كثيراً منهم، وفرَّ ابن حفصون في بعض قواته إلى حصن بلاي معولاً على الامتناع به، ولكن هجره معظم جنده مؤثرين الفرار على حصار غير مأمون العاقبة، فلما رأى ابن حفصون عبث المقاومة، ارتدّ في نفر من صحبه إلى شعب الجبال الجنوبية بعد أن فقد معظم قواته، وقتل من الثوار أثناء الموقعة وخلال المطاردة ألوف عدة. واحتل عبدالله بلاي، وقتل من جنده زهاء ألف جندي. واستولت جند الأمير على محتوياته، وكانت موقعة بلاي موقعة فاصلة، وفيها أصيب ابن حفصون بضربة أليمة لم يُصَب بمثلها من قبل، ولم يرَ الأمير مطاردة الثائر جنوباً، ولكنه آثر أن يزحف غرباً إلى إستجة التي كانت تدين بطاعته، فحاصرها أياماً فسلّمت، والتمس أهلها العفو والأمان[3].

طارد الأمير عبدالله بن حفصون، ومضى في أثره إلى ببشتر حيث توجد معاقله الرئيسية، وكان ابن حفصون قد التجأ عقب هزيمته المُنكرة إلى ببشتر، واجتمع إليه كثير من أنصاره من أهل الجزيرة. وانتشرت قوات

---

(١) المقتبس لابن حيان ص١٠٤.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ٤ ص٤٩٨ ـ ط صادر.

(٣) المقتبس من ص٩٤ وما بعدها، وابن خلدون جـ٤ ص١٣٥.

الأمير عبدالله في تلك المنطقة، ولم يخرج ابن حفصون للقائه، ولكنه حينما ارتد جيش الأندلس أدراجه حاول مطاردته، واشتبك مع مؤخرته في معركة هزم فيها ورد على أعقابه (ربيع الأول سنة ٢٧٨هـ) وعلى أثر هذه الموقعة الناجحة اختار الأمير عبدالله قائده البطل عبيدالله بن محمد بن أبي عبدة للوزارة، تكريماً له، وعرفاناً لما أسداه إلى العرش والدولة ببراعته وبطولته[١].

وقد أثنى الشعراء على الأداء في موقعة بلاي وإستجة، وما أحرزه الأمير فيها من النصر الباهر، فمن ذلك قصيدة طويلة لابن عبد ربه يقول فيها:

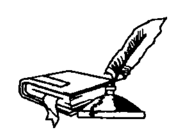
نجا مستكناً تحت جنح من الدجى ... وليس يودي شكرنا أنعم الجنح
يودون أن الصبح ليل عليهم ... ونحن نود الليل لو أنه صبح

وفي قصيدة أخرى يهنىء فيها الأمير بفتح بلاي، هذا مطلعها:

الحق أبلج واضح المنهاج ... والبدر يشرق في الظلام الدّاج
والسيف يعدل ميل كل مخالف ... عميت بصيرته عن المنهاج[٢]

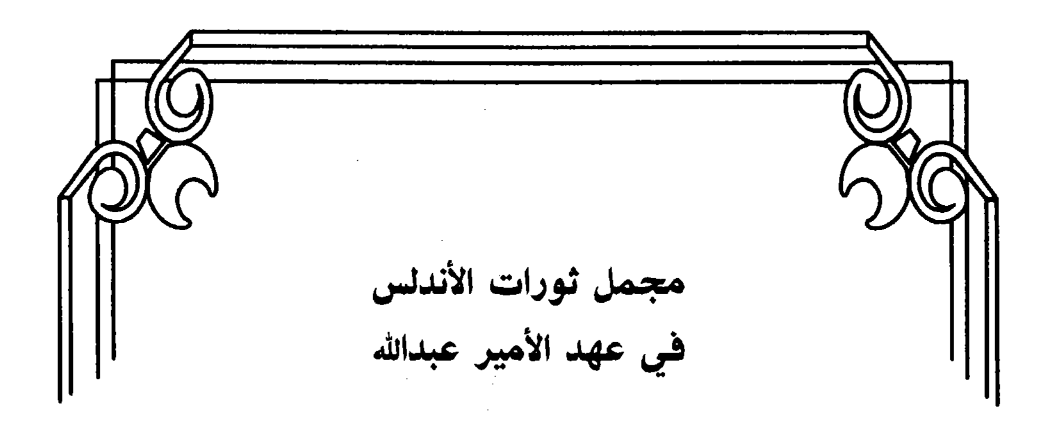
وقال ابن عبد ربه أيضاً:

لما حفلن إلى «بلاي» عشية ... أقوت معاهدها من الأعلاج
فكأنما جاشت خلا ديارهم ... أُسد العرين خلت بسرب نعاج
ونحى ابن حفصون ومن يكن الردى ... خيلت لديه ليلة المعراج
هذي الفتوحات التي أذكت لنا ... في ظلمة الآفاق نور سراج



(١) المصدران السابقان.

(٢) انظر المقتبس ص٩٧، ٩٩.



مجمل ثورات الأندلس
في عهد الأمير عبدالله

قسّم المؤرخون الثورات التي تأثرت بها بلاد الأندلس كلها في عهد الأمير عبدالله بن محمد إلى أربعة أقسام هي:

١ ـ ثورة العرب (القبائل العربية).

٢ ـ ثورة المولدون.

٣ ـ ثورة البربر.

٤ ـ والفتنة بين المولدين والعرب ومعهم النصارى.

❋ ❋ ❋

أولاً ـ ثورة العرب (أو القبائل العربية)

كان من أسباب ثورات العرب أو القبائل العرب الرئيسية هي سياسة اصطفاء واختيار الموالي التي اتبعها بنو أمية في الأندلس منذ بداية أمرهم، وكانت هذه السياسة قد أخذت تُحدث أثرها في نفوس القبائل العربية، وأضحت القبائل ترى في سياسة الحكومة ـ حكومة قرطبة ـ نوعاً من الطغيان والمهانة، ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين في الثغر الأعلى، وفي الجنوب، رأت القبائل العربية أن الفرصة سانحة للقيام بدروها، والانتصاف لعصبيتها وكرامتها. ونوجز ثورات العرب فيما يلي:

١ ـ ثورة العرب في إشبيلية: فقد ثاروا وقبضوا على عاملها، وقتلوا كثيراً من أعوانه، فاجتمعت العساكر من قرمونة وسائر البلاد، وأحاطت بإشبيلية، وتغلب إبراهيم بن الحجاج على إشبيلية وارتبط مع ابن حفصون، وتغلبا على الحصون والقلاع، إلى أنْ صالَحَ ابن الحجاج الأمير عبدالله فأقرهُ في إشبيلية.

٢ ـ سعيد بن سليمان بن جودي: لما مات سوّار بن حمدون، ولّى غرب غرناطة عليهم سعيد بن سليمان، وبعثوا إلى الأمير يطلبون ولايته ففعل، وقد قام سعيد بمحاربة أعدائهم من المولدين، وكان على رأس مَن حاربهم: عمر بن حفصون، فهزمه سعيد بن سليمان، وكان عمر بن حفصون يهابه ويعمل حسابه، حتى دبَّر له كبيران منهم مؤامرة فقتلاه بها سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م.

٣ ـ محمد بن أضحى الهمداني: كان من أعيان العرب بكورة البيرة، استدعاه أهل حصن نوالش «شمال غرناطة» وأقام في مكانه متمسكاً بطاعة الأمير، فولاّه الأمير على هذا الحصن، وظلّ على ولائه للأمير حتى توفي الأمير، فأبقاه عبدالرحمٰن مكانه ثم عزله سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م.

٤ ـ منذر بن إبراهيم بن محمد السليم: ثار بالمدينة التي تسمى باسمهم «السليم» من كورة شذونة (بالقرب من قادس) وظلّ مستقلاً بهذه المدينة حتى قتله مملوك له اسمه (غَلَنْدة) وكان على الطاعة حتى قتل، وتولى من بعده وليد بن الوليد، وصار إلى الطاعة[1].

كان لهؤلاء العرب دور كبير في إثارة الرعب والفزع، ولكن الأمير عبدالله صمد أمامهم وظلّ يطاردهم.

***

(١) البيان المغرب جـ٢/١٣٥.

ثانياً ـ المولدون

١ ـ عمر بن حفصون: وهو زعيم الثوار وقدوتهم في بلاد الأندلس، وكان عنيداً زائغاً، ارتدّ عن الإسلام، وأعلن ولاءه لأذفونش، وظلّ يحتمي بالنصارى حتى عاقه أذفونش وقاتله، وظلّ يقود الثورة أكثر من خمسة وعشرين عاماً حتى غلبه أمير المؤمنين عبدالرحمٰن بن محمد الناصر، وقد بنى من حصن ببشتر الذي اتخذه ابن حفصون حصناً له، الكنيسة التي بناها بعد أن ارتدّ إلى النصرانية بين عامَيْ **٢٨٥ ـ ٣٠٥هـ/ ٨٩٨ ـ ٩١٧م**.

٢ ـ عبدالرحمٰن بن مروان المعروف بالجليقي: وكانت ثورته قائمة على أساس عنصري، فقد تعصب للمولدين ضد العرب، وكان يتخذ ماردة عاصمة له. وثار فيها **٢٥٥هـ/ ٨٦٩م**، وخرج إليه القائد هاشم بن عبدالعزيز، فهزمه ابن مروان وأسره، وغلب على بلده أليون من بلاد الجلالقة وضمها إلى بطليوس، وكان معه سعدون السرنباقي من الأبطال الشجعان.

واستعان ابن مروان بالنصارى، ثم تغير عليه أذفونش وقاتله حتى قتله في بعض حروبه.

٣ ـ ديسم بن إسحاق: قام بالثورة، وتغلب على مدينَتَي لَوْرقة ومرسية، وما يليهما من الكور، وكان محبوباً من الناس، وكان له جيش يحارب به من خالفه، وكان محبّاً للشعراء والأدباء، وقد مدحه الشاعر عبيد يس بن محمود(١).

٤ ـ عبدالملك بن أبي الجواد: كان بمدينة باجة، مستقلاً بها، متحصناً بحصن مزملّة، وكان قائماً بدعوة المولدين، متحالفاً مع ابن مروان الجليقي وابن أبي بكر صاحب أكشونية، فكانوا إلباً على من خالفهم، ويداً على من خرج عنهم(٢).

٥ ـ سعدون بن فتح بن محمد بن لب بن موسى: بسرقسطة **٢٥٨هـ/ ٨٧١م** فأرسل الأمير محمد إليه الجيش فاستقام، وأولاه الأمير على سرقسطة وتطيلة وطرسونة، فأحسن حمايتها، وجاءه ملك أذفونش، بطرسونة، فنزل

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٢٥٣.
(٢) المصدر السابق ص٢٥٣.

إليه وردّه على عقبيه، وقتل نحواً من ثلاثة آلاف من قومه، ثم انتفض على الأمير عبدالله، وحاصر تطيلة[1].

٦ ـ وثار بنو هايل وعددهم أربعة: المنذر وهو أكبرهم، وأبو كرامة، وعامر، وعمر بن مرثي بن هايل، ثاروا ببعض الحصون، وخالفوا وقطعوا علاقتهم بالأمير عبدالله ثم استُنزلوا فنزلوا وحسنت طاعتهم.

٧ ـ وثار خير بن شاكر بحصن شوذر من كورة جيّان، وأظهر ميله إلى ابن حفصون، فقتل خير وأرسل رأسه إلى الأمير عبدالله، وقد هاجم عدداً كبيراً من حصون العرب بكورة البيرة، وقتل خلقاً كثيراً منهم.

٨ ـ ومن الثائرين سعيد بن هذيل، وكانت ثورته بحصن المُنتلون من كورة جيّان، فبنى عاصمتها، وأحكم تحصينها، ثم أعلن الخلاف، وظل مخالفاً حتى استنزله الناصر، فلحق بقرطبة.

٩ ـ ثم ثار بكر بن يحيى بن بكر، واستقل بمدينة شنت مريّة من كورة أكشونية، وهو الذي حصَّن هذه المدينة وجعل لها أبواباً من الحديد، وكان له ترتيب وأهبة، وكان له رجال شجعان، وكان يتشبه بإبراهيم بن حجاج الثائر في إشبيلية، وكان له مجلس للاستشارة، وكتاب للعمل، وكان يأخذ العهد والعقد على جميع مَن في طاعته بإضافة أبناء السبيل وقِرى النزيل، فكان السالك من ناحيته كالسالك بين أهله وأقاربه.

❋ ❋ ❋

ثالثاً: البربر

١ ـ ثار ابنا مهلب من وجوه البربر وسادتهم، بمنطقة البيرة، واسمهما خليل وسعيد، فاستولى خليل على حصن فرذيرة، وسعيد استولى بدوره على حصن إشبرغزة، ولكنهما كانا يدينان بالطاعة له، فأجابهما وولاهما على ما تحت أيديهما، وكان لهما الفضل في محاربة عمر بن حفصون،

(١) تاريخ ابن خلدون ١٧٢/٤.

ولما مات خليل قام أخوه سعيد برئاسة الحصنين، ولما كانت أيام الأمير عبدالرحمٰن بن محمد مع ما أنزل من الثوار[1].

٢ ـ ومن الثائرين عمر بن مُضمّ الهترولي المعروف بالملاحي، وكان جندياً مسجلاً عند العامل، فوثب عليه، فقدره، وضبط العاصمة[2].

٣ ـ بنو موسى بن ذي النون، وأول من ثار منهم الفتح ومطرِّف، ثارا بكورة شنت بريَّة، وجعلاها عاصمة لهما، وأقاما فيها الحصون والمعاقل، فعمرت وكثرت فيها المرافق، وقد استأثر يحيى بن موسى بحصن دلمه أكبر حصونهم، وبنى الفتح حصن أمليش ومصَّره وعمَّره، واستقل مطرِّف بحصن دلمة، وقد توفي الفتح مقتولاً، ودخل أخوه يحيى في خدمة الناصر، وغزا معه سرقسطة **٣٢٥هـ/ ٩٣٦م** فتوفي هناك.

أما مطرِّف فقد خدم الناصر، واشترك معه في غزواته، فولاه على مدينة الفرج من الثغر الأوسط[3].

❋ ❋ ❋

رابعاً: الفتن بين المولدين والعرب ومعهم النصارى

أولاً ـ الفتنة في إشبيلية:

تعد إشبيلية ثانية أكبر مدن الأندلس في ذلك العصر، بل هي العاصمة الثانية للأندلس، وكانت إشبيلية مدينة عامرة بالسكان وبالأسواق والمتاجر، والمرافق العامة، وتقع إشبيلية على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير الذي يمر بقرطبة، في خليج عميق يجعلها تصلح لأن تكون ميناء بحرياً من جنوب إسبانيا.

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص٢٥٦.
(٢) البيان المغرب (١٣٦/٢).
(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ٢٥٦.

كان سكان المدينة ينتمون إلى الأجناس الثلاثة الذين يعيشون في الأندلس، وهم النصارى والمولدون والمسلمون، وكان المسلمون معظمهم من العرب من بني موسى من بيت غافق، وبني الحجاج، وبني خلدون، وبني الجد، وهذه القبائل تكون العصبية العربية في إشبيلية، وقد قوبلت المعاملة الحسنة التي لقيها النصارى من العرب المسلمين، بارتياح شديد من النصارى وساهمت في توطيد العلاقات بينهما، حتى كثر الزواج بين المسلمين والمسيحيين الإسبان، وبالتالي نشأ من ذلك جيل المولدين الإسبان، فقد تكاثروا حتى أصبحوا أغلبية السكان في إشبيلية. وكان زعماء العرب في هذه المنطقة عبدالله وإبراهيم ابني الحجاج، وكريب وخالد ابني عثمان بن خلدون، وزعماء المولدين بنو انجلين، وبنو شبرقة وكان بين هؤلاء وأولئك نفر محايدون من العرب والبربر الذين آثروا البقاء على ولائهم لحكام البلاد[1].

لم يستطع كريب بن خلدون أن يحقق رغبته في إشبيلية أمام التكتل الذي أقامه المولدون والمحايدون، فخرج من إشبيلية، وأقام بقرية البلاط بشرق إشبيلية، وأخذ يحرض البربر على مهاجمة إشبيلية لكثرة خيراتها، وما فيها من النعم، فهاجم البربر قرية طلياطة فقتلوا كل من وجدوه فيها، وأخذوا كل ما وجدوا.

فخرج موسى بن أبي العاص عامل المدينة من قبل الأمير، وجمع جموعه، وخرج يتبعهم ولكنه هُزم، وانطلق البربر يشنون الغارات على الكورة من كل جهاتها، وبلغ الأمير ذلك فعزل موسى بن أبي العاص، وولى مكانه حسين بن محمد الموري، وفي أيام محمد هذا ظهر قاطع طريق اسمه الطماشكة - بربري الأصل - فأقام محمد بن غالب من المولدين من أهل استجه، أقام حصناً بشنت طرّش، وأقام فيه هو ومن تبعه من البربر البتر، يحرسون الطريق، إلى أن علا شأنه، وحسده على ذلك بنو خلدون

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب، د .محمد السيد الوكيل، دار القلم دمشق ص٣٠١، ق٢.

وبنو الحجاج زعماء العرب في إشبيلية وبلغ ابن غالب شأنهم، وما ينوون، فاستعد للقائهم، فلما التقيا هزمهم ابن غالب وقتل رجلاً منهم من بني الحجاج، فحملوه إلى حسين بن محمد وإلى إشبيلية، زاعمين أنه اغتيل في الطريق، وأعدوا له الشهادات المزورة، فأرسلهم إلى الأمير بقرطبة.

وذهب وفد من المولدين بإشبيلية، برئاسة محمد بن خطاب بن إنجلين لتأييد غالب، وامتدحوه عند الأمير، وكذبوا دعوى بني الحجاج، وتضاربت الأقوال، والتبس الحكم على الأمير، ورأى إرجاءه إلى أن تقوى الأدلة، واستدعى الأمير عبدالله ولدَه محمد، وأمره أن يجمع بين الطرفين ويسمع أقوال كل فريق، وأدلته، ثم يعرضها على أهل العلم، ويعمل بما يقول به أهل العلم، وعزل الأمير حسين بن محمد عن إشبيلية، وعين مكانه محمد بن خالد الخالدي ثم عزله واستبدل به أمية بن عبدالغافر الخالدي، فأقام مع محمد بن الأمير في القصر.

وجمع محمد الفريقين المتخاصمين، فوجد تناقضاً في أقوال الشهود، فاضطر إلى إرجاء الحكم وأعاد محمد بن غالب إلى حصنه، وهنا غضب العرب، إذ كيف يعيد الأمير محمد بن غالب حصنه؟ فخرجوا من إشبيلية، فخرج بنو حجاج إلى البادية المنسوبة إليهم بالسند، على بعد اثنين وعشرين كيلومتر من العاصمة في طريق بيلة، وخرج كريب بن خلدون إلى قريته بالشرف، وتبعه من كان مناصراً من العرب الحضارمة، وشجعهم على ذلك جماعة من العرب وهم سليمان بن محمد الشذوني وجنيد القرموني، وأجمعوا على شق عصا الطاعة على الأمير، ودبروا الفتك بعامل قرمونة، والاستيلاء على المدينة.

وأرسل كريب بن خلدون إلى سليمان بن محمد الشذوني في حصنه الشهير بنبريشة، فأرسل إليه جماعة من المخربين، تمكن بهم من الإغارة على جزيرة المنذر بن عبدالرحمٰن المعروفة الأسلية، وكان فيها مئة رمكة (فرش تتخذ للنسل) ومئتا بقرة، فقتلوا الوكيل في الجزيرة، واستولوا على ما كان فيها، واستولوا على حصن قوريّة، على بعد خمسة عشر كيلومتراً من إشبيلية.

وفي الوقت الذي كان كريب فيه مشغولاً بالهجوم على قورية، كان عبدالله بن حجاج يهاجم قرمونة ويستولي عليها، جاءت هذه الأخبار إلى الأمير، فاستشار وزراءه، فأشاروا عليه بقتل محمد بن غالب، وهو من المولدين، إرضاءً، حتى ينصرفوا إلى الطاعة.

وأرسل الأمير إلى ولده محمد بذلك، وأرسل الأمير محمد إلى جعد بن عبدالغافر، وأمره بالذهاب إلى محمد بن غالب، ويقتله إرضاءً للعرب، ففعل جعد ذلك، وسرّ عبدالله بن حجاج لذلك، وخرج على قرمونة، وسلمها إلى جعد، فولى عليها أحد أتباعه.

وذهب محمد إلى حصن غالب الشهير باسم «شنق طرّش» فهدمه، وتركه خراباً، وغضب المولدون، واجتمعوا مع الموالين لهم، وذهبوا إلى الأمير محمد، وشكوا إليه ما انتابهم من الشك، وطلبوا منه مفاتيح أبواب المدينة، حتى يشعروا بالأمان والاطمئنان، وأجابهم الأمير محمد طلبهم، إذ لم يكن عنده من الرجال ما يمكن من مدافعته لهم.

ولما أخذ المولدون مفاتيح المدينة، بدأت ثورتهم على عاملهم أُمية بن عبدالغافر الذي جرَّ أخوه جعدُ بن عبدالغافر محمد بن غالب إلى حتفه، واستنجد المولدون بأحد الثوارة من كورة «موردر» وكانوا متحالفين معه فعاقدوه على حرب الأمير، فأرسل إليهم جيشاً من فرسان العرب ومن البربر، فلمّا وصل هذا الجيش إلى إشبيلية، رأى فيه سكان المدينة قوة لهم، فثاروا على العامل، وأحاطوا بقصره في يوم ١١ من جمادى الآخرة سنة ٢٧٦هـ ـ ٨٩٠م.

وأرسل محمد بن الأمير عبدالله يستدعي محمد بن خطاب بن أنجلين زعيم المولدين في إشبيلية ليتفاهم معه، حتى تنطفىء نار تلك الثورة، فدخل ابن أنجلين إليه في جماعة من رؤسائهم منهم ابن شبرمة وابن الجريج، واتفق مع المحاصرين للقصر على أنه إذا أذن الظهر ولم يخرجوا، فعليهم مهاجمة القصر.

ودخل ابن أنجلين ورفاقه للقاء محمد بن عبدالله، فأخذ يتلاطف معهم

ويكلمهم بكلام لين، لعلهم يرجعون عمّا عزموا عليه، ومضى الوقت المحدد، فاقتحم الثوار القصر، ودخلوا دار دواب الأمير محمد، فنهبوا ما فيها، وهنا تدخل أمير بن عبدالغافر وقبض على ابن خطاب ومن كان معه، ثم ضبط باب الفصيل الذي يؤدي إلى مجلس الأمير، وأمر الغلمان بأن يصعدوا إلى شقق الفصيل، ووقف وهو يصد المهاجمين للأمير.

واستمر الحصار إلى اليوم التالي، فأرسل الأمويون محمد بن زيد بن عبدالله إلى جعد بن عبدالغافر، ليستقدمه من قرمونة، فركب جعد على عجل، ودخل إشبيلية من جهتها الجنوبية من مكان المصلى، وأخذ يشق لنفسه طريقاً، والثوار متكالبون على المكان، لا يريدون الفكاك عنه، وراح جعد يقتل من يقف في طريقه، حتى وصل القصر فدخله. وتحمس الحرّاس، فنهضوا نحو الثوار، وكسروهم، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وأمر محمد بنهب دور الثوار، وضرب أعناق ابن أنجلين ورفاقه، وصادر أموالهم، ثم أمر برفع النهب، وكتب إلى الأمير عبدالله بكل ما حصل، فأمره بالعودة إلى قرطبة، وحكم أُمية بن عبدالغافر إشبيلية، واستقدم أمية سادات العرب، وقوب منازلهم، وأكرم مثواهم.

وبقي كريب بن خلدون، وإبراهيم بن حجاج في إشبيلية فترة وجيزة، ثم خرج عبدالله بن حجاج إلى قرمونة فاستولى عليها، واستولى كريب على حصن «قورية».

وقد وقع جعد بن عبدالغافر في كمين نصبه له الطمكشة، فقتل هو وأخواه، وحزن أمية لذلك حزناً شديداً، وثارت عصبيته، فأغار على المولدين في إشبيلية وما جاورها، وحصدهم حصداً، ثم لجأ أُمية إلى الوقيعة بين عبدالله بن حجاج وبين ابن وهب القرموني، فثار ابن وهب على عبدالله فقتله واستولى على ما كان له، وأرسل إلى أمية بن عبدالغافر. وخلف إبراهيم بن حجاج أخاه عبدالله، وتظاهر أمية أنه بريء من دم عبدالله، فنافقه بنو حجاج وقبلوا منه العذر، وهم يسرون قتله، ثم اتجه أُمية إلى الوقيعة بين إبراهيم بن حجاج وبين كريب بن خلدون، وهنا كشف إبراهيم اتجاهه، وعزم على أن يعامله به.

وأقام أمية بن عبدالغافر قصبة في قصره، فاحتج بنو خلدون، وبنو حجاج على ذلك، وهجموا على قصره، فوجدوه متأهباً للقتال، فلاذوا بالطاعة، فوافق نظير أن يأخذ منهم رهائن فأعطوه الرهائن، وطابت نفسه، وواصل عمله في تحصين القصر، وانتهز بنو خلدون وبنو حجاج فرصة وجوده وحده في القصر، فهجموا عليه، واحتمى أمية بالرهائن، وهددهم بقتلهم، فتوسلوا إليه أن يبقي عليهم، وأخبروه بأنهم عزموا على الاستقلال بإشبيلية، وأقسموا له أنهم سيتركونه يذهب آمناً، فأجابهم إلى ذلك، وأطلق إليهم الرهائن، فنكثوا أيمانهم، وغدروا به، وقتلوه. عندئذ بعث بنو خلدون وبنو حجاج إلى الأمير عبدالله يبررون قتل أمية بسوء سيرته، واستدعوا عاملاً من قبل الأمير، فأرسل إليهم أحد أقاربه، اتخذوه ألعوبة، واعتقلاه في القصر بعد أن قتلا ولده المطرف، واضطر عبدالله إلى إرسال ولده المطرِّف لإخضاع أهل إشبيلية، فانهزم بنو خلدون وبنو حجاج، واعتقل إبراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون، وابن عبدالملك الشذوني، وأوثقهم بالحديد، ورمى بهم في السجن، وكان ينتظر جباية إشبيلية، فلما وصلت الجباية، أطلق سراحهم، بعد أن أخذ من ابن حجاج ولده رهينة تقيم معه في قرطبة وعاد كريب بن خلدون، وإبراهيم بن حجاج فاقتسما المدينة (إشبيلية) بينهما، وأخذ الأمير عبدالله يوقع بينهما بالمكاتبات، وفي يوم وقع كتاب ابن خلدون في يد إبراهيم بن حجاج، فاحتال إبراهيم في أن يستقدم كريب بن خلدون، وأخاه خالداً في قصره، فقدما، فلما وصلا القصر، أخرج لهما كتابهما إلى الأمير، وبالغ في عتابهما، واستقل بملك إشبيلية سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م.

ثانياً: الفتنة في البيرة:

شكل المولدون والنصارى رابطة في كورة البيرة، وفي مواجهة ذلك كون العرب رابطة لمواجهة المولدون والنصارى، وكان أول من تزعم رابطة العرب يحيى بن صقالة من عرب البراجلة، وكان شديد التعصب للعرب ضد المولدين والنصارى، فصب عليهم كثيراً من ضروب التعسف والظلم، ثم وادع يحيى أهل قسطلة حاضرة البيرة، وأخذ يتردد عليهم، وهم يتحينون به

الفرصة، فثاروا به بغتة، وقتلوه واستولوا على حصنه في منت شافر.

وقد خلف يحيى في رئاسة العصبية العربية سوار بن حمدون القيسي، وكان فارساً شجاعاً، كثر أتباع سوار، واعتز به العرب، وكان هدفه إدراك ثأر العرب من المولدين، واسترجاع حصن منت شاقر الذي احتله المولدون بعد مقتل يحيى بن صقالة، والذي تجمع فيه المولدون والنصارى حوالي ستة آلاف شخص، فهاجمهم سوار في منت شاقر، واستطاع أن يسترد الحصن، وأن يقتل من كان فيه من الأعداء، ثم أخذ يفتح الحصون حصناً حصناً، ويقتل من يجده في هذه الحصون، وفكر أهل هذه الحصون فيمن يلجأون إليه ليخلصهم من سوار، فوجدوه في شخص جعد بن عبدالغافر، وكان عاملاً من قبل الأمير عبدالله.

فذهبوا إليه وأغروه بسوار، وطلبوا منه أن يقاتله، ويكف أذاه، فأجابهم جعد، وخرج هو على رأس جيش ضخم، ومن انضم إليه من المولدين والنصارى، والتقى هو وسوار، واشتبكا معه في معركة فاصلة، فهزمه سوار، وأعمل السيف في المولدين، فقتل منهم عدداً كبيراً يقدر بسبعة آلاف شخص، وأسر سوار جعداً، وعامله معاملة سيئة، ثم أفرج عنه[(١)].

أصبح سوار بعد هذا النصر قوياً متمكناً، فقد اشتد ساعده، وكاتبه العرب من كل مكان، من حصن غرناطة إلى قلعة رباح، وازدادت قوة سوار بهؤلاء الذين كاتبوه، فرأى المولدون أن يلجأوا إلى الأمير عبدالله ليكفه عنهم، ورجوه أن يعمل على كسر شوكته، فاستجاب الأمير وراسله بلطف حتى يستميله إليه، واستجاب سوار وعقد أماناً مع أهل قسطلة، وهدأت البيرة فترة من الزمان، ويبدو أن سوار كان قد أخذ على الأمير عبدالله شرطاً أن يعزل جعداً عن ولاية البيرة فعزل الأمير جعداً، وولى مكانه شريكاً لسوار في كفاح أهل البغي، هو عمرو بن عبدالله بن خالد، وفي هذا الوقت عبر سوار عن إخلاصه للأمير، فأسهم في قتال عمر بن حفصون زعيم المولدين، فخرج سوار إلى حصون ابن حفصون، وهاجمهما سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م.

---

(١) البيان المغرب (١٣٣/٢).

وغضب أهل قسطلة، وأجمعوا أن يحاربوا سواراً وخرجوا إليه في حصن غرناطة، وعددهم يتجاوز عشرين ألفاً، فلقيهم سوار في عدد قليل من العرب، فهزمهم هزيمة شنعاء، وقتل منهم أكثر من أحد عشر ألفاً.

وجد المولدون أن سواراً أذلهم، فلم يجدوا إلا عمر بن حفصون يفرون إليه، ويخلعون طاعة الأمير عبدالله، فقَدِم إليهم ابن حفصون في جيش كثيف، ودخل قسطلة، ثم خرج بمن معه من الرجال ومن انضم إليه من أهل قسطلة، واشتبك مع سوار في معركة حامية، فانهزم ابن حفصون، وأثخن بالجراح، فاضطر إلى العودة إلى حصن ببشتر، وترك قائده حفص بن المرة على كورة البيرة.

واجتهد حفص في الكيد بسوار، فنصب له الكمائن، واستدرجه للقتال في عدد قليل من الرجال **٢٧٧هـ ـ ٨٩٠م** فخرجت الكمائن على سوار، فقتله، وجيء بجثته إلى قسطلة حاضرة البيرة.

اختار العرب بعد سوار سعيد بن جودى، وبذل سعيد جهداً كبيراً في جمع كلمة العرب، ولكنه لم يتمكن، وظل رئيساً للعصبية العربية في البيرة حوالى سبع سنوات، ثم تمكن أعداؤه منه فقتلوه غدراً في ذي القعدة سنة **٢٨٤هـ/ ٨٩٧م**، وقام بأمر العرب بعد سعيد بن جودى بن محمد بن أضحى الهمداني، ولكنه لم يكن قائداً ماهراً فهزم في معركة مع ابن حفصون، وأسره ابن حفصون، ففداه العرب بمال كثير[1].

ثالثاً: الفتنة في لبلة:

تقع لَبلة غرب الأندلس، وقد جرت فيها أحداث تشابه أحداث البيرة، إذ اجتمع جماعة من العرب يتزعمهم عثمان بن عمرون، وألفوا رابطة ضد المولدين، ولم يمض وقت طويل حتى ثاروا على عمر بن سعيد القرشي والي لبلة، فاستولوا على دار الإمارة، وأخرجوه من المدينة.

انضم إلى ابن عمرون جماعة من العرب، فهاجم بهم قرى إشبيلية،

---

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، د. عبدالعزيز سالم ص٢٦٨.

فبعث إليه الأمير عبدالله عثمان بن عبدالغافر ليستميله إليه، ونجح عثمان في مهمته، ورجع ابن عمرون، وأظهر الطاعة للأمير، ففرق ابن عمرون أتباعه، ولم تلبث الثورة أن اندلعت من جديد، واشتدت الفتنة بين العرب والمولدين، فذهب ابن عمرون إلى حصن قرقبة، فدخله وتحصن فيه، وانظم إليه عثمان بن عبدالغافر ورجاله، وخرج العرب بقيادة ابن عبدالغافر لمحاربة المولدين، فاشتبك معهم، وهزمهم، وقتل منهم عدداً كبيراً، وامتدت الفتنة إلى منت ميور.

❋ ❋ ❋

مقتل محمد ثم مطرِّف ابني الأمير

عهد عبدالله لولده محمد بولاية العهد بعده، فغاظ ذلك ولده مطرفاً، وأخذ يمشي بالسعاية بين أبيه وأخيه، واشتد الأمر بينهما، فصارا يتقابلان بالصد والهجر، ووجد مطرف يوماً فارساً من فرسان أخيه محمد، فقتله غيلة، ثم خاف مطرِّف من أبيه، أن يأخذه بجريمته، فذهب إلى السجن، وأخرج من كان فيه ممن كان أبوه قد سجنه، ثم لحق ببشتر القاعدة المعروفة لابن حفصون.

ثم إن الأمير عبدالله خاطب ولده مطرفاً وأمنه، فقبل مطرف من أبيه، ولم يزل مطرف يغري أباه بمحمد، حتى قال فيه أنه يخاطب ابن حفصون، ويحرضه على القيام على والده، واقتنع الأمير عبدالله بذلك، فسجن ابنه محمداً في دار تعرف بدار البنيقة، وأخذ يسأل عن ولده محمد، فلم يسمع إلاّ خيراً، فأسرع في فكه من السجن.

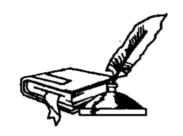
وحينئذ دخل مطرف إليه، وقتله، ولما علم الأمير عبدالله بذلك، اغتمّ وحزن حزناً شديداً واعتراه همٌّ رهيب بقتل ولده مطرف وتدخل من تدخل، حتى سكت الأمير عن مطرف، وكان ذلك ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م.

وهكذا قتل مطرف أخاه للغيرة، وبقي هو على ذلك، ظاناً أن أباه

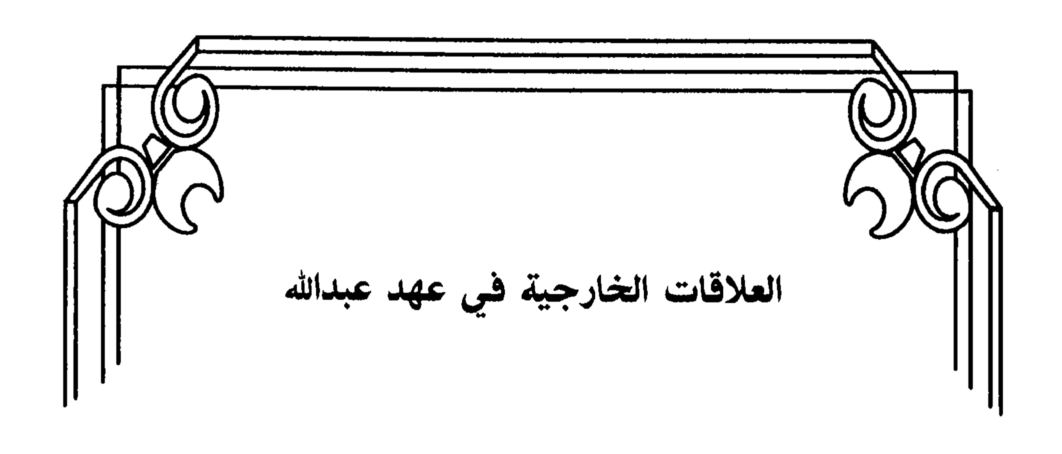
سيسلمه ولاية العهد بعد وفاة أخيه، ولكنه خاب ظنه، ولم ينل ولاية العهد الذي قتل أخاه من أجله.

ولكن ابن خلدون يرى أن مطرّفاً أكثر السعاية في أخيه محمد عند أبيه، وبالغ في السعاية حتى حبسه أبوه في بعض حجر القصر، فقتل المطرّف أخاه محمداً في محبسه مفتاتاً بذلك على أبيه.

ولما رجع الأمير عبدالله من الغزوة التي خرج إليها، وعلم بمقتل محمد، حزن عليه، وضم ابنه عبدالرحمٰن إلى قصره، وهو ابن يوم، فربي مع ولده..[1].



(١) ابن خلدون ١٧٦/٤.



العلاقات الخارجية في عهد عبدالله

أولاً: العلاقة مع مملكة أشتوريس

كان الوضع في الثغور الشمالية يتسم بالغموض، وذلك عندما تولى عبدالله السلطة في قرطبة، ولذلك فقد اتبع الأمير عبدالله طوال مدة حكمه، سياسة متعرجة تجاه البلاد الواقعة على حدود أراضيه، من حيث تطور الأحداث والتدخل في إذكائها في بعض الأحيان، والمهادنة في الوقت المناسب، والسماح أحياناً أخرى لزعماء التمرد باغتصاب بعض ممتلكاته، والإسراع بالإعتراف بحكمهم على أنهم من التابعين له.

وهكذا بدأت رقعة الدويلات شبه المستقلة، التي تلف قرطبة شمالاً وغرباً، تأخذ شكل الاتحاد، نظراً للطاعة الوهمية لها، وقد مثّل هذا التنوع نوعاً من الحماية الشكلية للإمارة، في الوقت الذي كان فيه عبدالله يعمل على منع هذه الإقطاعات المتعددة التي تضم العرب والبربر والمولّدين من أن تتحد وتتخذ موقفاً موحداً ضده مما سيكون له عواقب وخيمة بالنسبة لها.

ومن جهة أخرى لم يكن كل شيء سهلاً أمام عبدالله نظراً لخصوصية أصل هؤلاء الزعماء الذين يتعاملون معه على قدم المساواة وطبيعتهم النازعة إلى الاستقلال، وبغضّ النظر عن هذا، تحمل هؤلاء عبء الدفاع عن

المناطق الحدودية، فضلاً عن أنهم كانوا يشنون حرباً مقدسة ضد النصارى في شمالي الأندلس في ظل إحجام الإمارة الأموية عن الجهاد، بل إن بعض حكام المناطق الثغرية كانوا يهتمون بتعزيز أمور تلك الثغور مع أن مناطقهم لم تكن تواجه مباشرة القوى النصرانية.

وقد انحصرت العلاقة بين المسلمين في الأندلس والنصارى في مملكة اشتوريس، عقب الهدنة التي انعقدت بين الجانبين في عام ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م، انحصرت في اشتباكات حدودية، فضلاً عن اتصالات سياسية محدودة بين النصارى وبعض المتمردين على الإمارة الأموية.

وفي مقابل الوضع السياسي والعسكري والاقتصادي المتردي في الإمارة الأموية، والذي استمر قرابة الربع قرن، قام ألفونسو الثالث باستغلال أوضاع الأمويين، فعمل على تحسين وضع بلاده السياسي والديني والاقتصادي، فعقد المجامع الدينية، وعزز مكانة الكنيسة ورجال الدين بما لهم من سلطان روحي على الرعية مما يمكنه من تحقيق انتعاش اقتصادي يزيد من درجة كفاءة دولته، فبنى الكنائس في مختلف المناطق التي يسيطر عليها، وعمَّر الأماكن الخالية، ولم ينس، في غمرة تلك الجهود، الاهتمام بتقوية وسائل الدفاع عن دولته وتوفير الحماية اللآزمة لها لاسيما ضد الغزوات الإسلامية، فأقام قلاعاً على سواحل مملكته، وفي نقاط داخلية مفصلية، حتى أضحت حدود بلاده من الغرب إلى الشرق محمية بمواقع عسكرية هامة مثل قلمرية واشتورقة وليون وأماية وسمورة، وكانت منطقة غربي الثغر الأعلى، المتاخمة لأراضي مملكة أشتوريس من الشرق، تحت حكم أسرة بني قسى بقيادة محمد بن لب، الذي تحالف يوماً مع ألفونسو الثالث بفعل خلافه مع حكومة قرطبة، إلا أنه فضَّ تحالفه مع الملك النصراني في عام (٢٧١هـ/ ٨٨٤م) بعد أن تفاهم مع قرطبة، وعاداه، وكما اجتهد في تعزيز مناطقه الحدودية مع مملكة اشتوريس وإمارة نبَّرة، فبنى بعض الحصون المشرفة على أراضيهما، لعل أهمها حصن ناجرة، واتخذ قاعدة حماية وانطلاق من حال الحرب مع مملكة اشتوريس، ثم راح يستنفر المسلمين في الأندلس

للجهاد، فتوافد عليه الكثير من المتطوعين من كل ناحية «فيحمل آثاره في جهاد الطاغية»[١].

ابتدأت العمليات العسكرية في عام (٢٧٣هـ/ ٨٨٦م)، عندما قاد محمد بن لب جموع المسلمين التي انضوت تحت جناحه، إلى أراضي اشتوريس، فغزا ألبه والقلاع، وفتح «الله للمسلمين، وقتلوا المشركين قتلاً ذريعاً، وكرَّر غزوه في عام (٢٧٨هـ/ ٨٩١م) في أوائل عهد عبدالله»[٢].

كان ألفونسو الثالث يراقب، عن كثب، أوضاع الثغر الأعلى، ونشاط محمد بن لب، وفور سماعه بنبأ اغتياله أمام سرقسطة في عام (٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) وغياب ابنه لب في مهمة داخل الأندلس، حشد جيشاً وزحف به إلى تطيلة، وعزم على اقتحام مدينة طرسونة، غير أن لب بن محمد أسرع إلى سرقسطة، وواصل حصاره لها، كما تصدى لها أمام طرسونة وأجبره على الارتداد، وكبَّده نحو ستة آلاف قتيل، كما استباح سرادقة[٣].

كانت الخسارة التي تعرض لها الملك الأشتوريسي كافية لردعه عن التهام الأجزاء الغربية من الثغر الأعلى، بحيث أننا لم نشهد له في الأعوام اللاحقة أية تحركات عسكرية ضد هذا الثغر، وشجّعت لب ابن محمد على مواصلة الكفاح، فغزا في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م) منطقة ألبة، وهاجم حصن بايش وفتحه، الأمر الذي أقلق ألفونسو الثالث، وانتابه الذعر، فتجنب الالتحام معه في حرب مكشوفة[٤]..

وشرع ألفونسو الثالث في توطيد الحدود الجنوبية لدولته الملاصقة لأراضي الأندلس، مستغلاً تضعضع الأحوال الداخلية في الإمارة الأموية. فبالإضافة إلى غاراته التي كان يشنها على المناطق الغربية للأندلس، ومساعدته للثائرين فيها، فإنه عمد إلى تقوية دفاعات المدن والقلاع الواقعة

---

(١) ابن عذاري: جـ٢، ص١١٥.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) ابن خلدون: جـ٤، ص١٣٤.
(٤) ابن عذاري: جـ٢، ص١٤١.

على نهر دوپره في قطاعه الغربي، فضلاً عن تلك الواقعة على امتداد الحوض الشمالي للنهر وشحنها بالمرابطة، وتمادى في إعمار الأراضي الشرقية لاحتواء أكبر مساحة ممكنة والتمدد باتجاه منابع النهر، ولعل أشهر القلاع التي بناها في هذه المنطقة هي قلعة سمورة على الضفة الشمالية لنهر دوپره في قطاعه الغربي، فضلاً عن تلك الواقعة على امتداد الحوض الشمالي للنهر وشحنها بالمرابطة، وتمادى في إعمار الأراضي الشرقية لاحتواء أكبر مساحة ممكنة والتمدد باتجاه منابع النهر، ولعل أشهر القلاع التي بناها في هذه المنطقة هي قلعة سموره على الضفة الشمالية لنهر الدوپرة، وذلك في عام (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) كما بنى في عام (٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) قلعة شنت منكش إلى الشرق من سمورة، وأنشأ قلعة بورو جنباً إلى جنب مع قلعة سمورة بهدف تأمين حوض نهر دوپرة[1] فغدت كل أودية المنطقة مسوّمة بالقلاع الجديدة، ثم حث النصارى على التوطن في المدن المنشأة، فانساب الكثير من مواطني دولته للسكن فيها، كما قصدها من المستغربين للهدف نفسه، فاتسعت بذلك دولته للسكن فيها، كما قصدها العديد من المتعربين للهدف نفسه، فاتسعت بذلك دولته اتساعاً كبيراً لم تصل إليه من قبل، وغدت مدينة سمورة من أشد المراكز النصرانية خطراً على المسلمين، تنطلق السرايا للتعدّي عليهم، الأمر الذي شكل بشكل إيجابي في تدعيم قوة اشتوريس السياسية والاقتصادية والعسكرية بحيث تجاوزت بها مرحلة الخطر على نفسها من مسلمي الأندلس ولم تعد بحاجة إلى القيام بحملات بعيدة المدى في قلب الأندلس.

أثارت هذه التطورات مشاعر المسلمين في الثغرين الأدنى والأوسط الذين شعروا بالخطر يداهمهم نتيجة التمدد النصراني الذي اقترب من حدودهم، لدرجة أن عدداً من سكان تلك الثغور هجروا مساكنهم هناك تحت الضغط السكاني النصراني، وهاجروا جنوباً[2] وطلبوا مساعدة من

---

(١) ابن عذاري: ج٢، ص١٢٤.

(٢) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص٥٠١.

قرطبة، لكن عبدالله كان في موقف ضعيف فاعتذر بانشغاله في محاربة المنشقين والمخالفين عليه في داخل الأندلس.

اعتمد سكان الثغرين على قوتهم الذاتية وإمكاناتهم المحدودة للتصدي لأشتوريس، وذلك بعد إحجام السلطة المركزية عن مساعدتهم، فأغاروا على أراضيها بهدف إعاقتها عن إتمام تحصيناتها وقلاعها الجديدة على شاطىء نهر دوپرة، لكنهم كانوا يواجهون، في كل مرّة، عدوّاً شديد المراس، يحميها ويمنع أطرافها[١].

جرّد ألفونسوا الثالث عدة حملات عسكرية، تخريبية وانتقامية لمعاقبة سكان الثغرين الأدنى والأوسط على جرأتهم في الإغارة، من دون أن يتحرك عبدالله لإنقاذهم، وإذ أضحوا على استعداد لمحالفة أي داعٍ للجهاد فقد وجدوا في دعوة أحمد بن معاوية، وهو أحد أشراف بني أُمية، والمعروف بابن القط، خير منقذ لهم مما هم فيه.

والواقع أن أعمال ألفونسو الثالث أثارت أيضاً العلماء والزهاد والمتصوفة في الأندلس، فتوافدوا على تلك الأقاليم التي تعج بالبربر وفي محاولة لنشر معتقداتهم بين تلك الجماعات الإسلامية التي سرعان ما تُذعن، في الوقت الذي أضحت الأرجاء المختلفة للعالم الإسلامي تشهد تفجراً للنزعة الروحية، والمعروف أن البربر كانوا من أكثر الجماعات الإسلامية استعداداً لتلقي الوعظ والإرشاد، كما اشتهروا باحترامهم الشديد لعلماء الدين وبخاصة المتصوفة والأولياء منهم، وانضم إليهم صنف آخر لا يحظى بأي قدر من الثقافة، لكن دفعه حب الظهور في ثياب المصلحين الملهمين، فراح ينتقد العادات ويذمُّها، لكن سرعان ما تحول إلى عدو للنظام، فقد تورط أحد هؤلاء الأشخاص في حادثة غريبة جرت أحداثها على الحدود مع الممالك النصرانية، يدعى أبو علي السراج، وأدى نجاحه في الدعوة إلى الجهاد إلى فتح الطريق أمامه للتوغل في أعماق نفوس الأندلسيين بعامة والبربر بخاصة فادّعى المهدية، والتف حوله نحو ستين ألفاً، ثم اتصل بابن

---

(١) المقتبس من أنباء أهل الأندلس، لابن حيان، ج٣، ص١٣٤.

القط وأقنعه بقيادة تلك الجموع لجهاد النصارى، فزحف شمالاً حتى وصل إلى الضفة الجنوبية لنهر دوپرة، وعسكر هناك.

وكتب إلى ألفونسوا الثالث بخاصة والنصارى في بلاده بعامة يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وينذرهم عاقبة رفضهم، وأمر مبعوثه إليهم أن يستعجل منهم الجواب[1].

تسلم ألفونسو الثالث الكتاب، وكان في سمورة، فلما قُرىء عليه بحضور أركان حربه، وترجم لهم، غضبوا، ونهضوا من فورهم إليه وهم يتحرقون من الغيظ من جُرْأته التي لم يكن يتوقعونها، في الوقت الذي بلغت فيه دولتهم قدراً من القوة قد لا تضارعها قوة دولة المسلمين في الأندلس آنذاك، كما أن ألفونسو الثالث غدا في ذلك الحين من أشهر ملوك النصارى تعصباً لعقيدته النصرانية، الأمر الذي يفسر ثورة الغضب التي انتابته.

وعسكر ألفونسو على الضفة الشمالية لنهر دوپرة تجاه معسكر المسلمين، وعبأ كل طرف قواته استعداداً للمعركة المرتقبة التي اندلعت عقب ذلك.

كانت الانتصارات الأولى في صالح المسلمين، فحشروا القوات النصرانية في وادٍ وعرٍ ضيق المسلك بالقرب من سمورة، وعرَّضوهم للقتل والأسر، واضطر هؤلاء تحت ضغط القتال، إلى التراجع باتجاه الشمال مسافة عشرة أميال، وحاصرت القوات الإسلامية سمورة[2]، وهكذا أثبت ابن القط أن جذوة الجهاد ما زالت تتأجج في قلوب مسلمي الأندلس على الرغم مما يشوب بلادهم من تشرذم بفعل تصرفاته السيئة معهم وتواطأوا فيما بينهم على الغدر به خشية من أن ينافسهم على زعامة البربر إذا ما تمَّ له النصر النهائي، فقرَّروا الانسحاب من ميدان المعركة، وأشاعوا، لتغطية انسحابهم، أن الهزيمة حلَّت بالمسلمين، وأن العدو يطاردهم، فانفضّ عن ابن القط من

---

(١) الحلة السيراء جـ٢، ص٣٦٩.

(٢) الحلة السيراء جـ٢، ص٣٦٩.

كان معه باستثناء نفر يسير من خاصته، فتحرَّج موقفه[1].

كان ألفونسو الثالث يراقب تطور الأحداث، ولما وقف على أوضاع ابن القط السلبية، اغتنم الفرصة، وكرَّ على القوات الإسلامية وهزمها. وبقي في المنطقة عدة أيام يطارد فلولها حتى أفناهم، وقتل ابن القط في غمرة الاشتباكات، واختزَّ رأسه، وجيء به إلى ألفونسو الثالث، فنصبه على باب سمورة، وذلك في (٢٠ رجب ٢٨٨هـ/ ١٠ تموز ٩٠١م)[2].

وتحطمت حركة ابن القط أمام أبواب سمورة، وأُبيد من تبعه من المسلمين وسقط هو نتيجة مؤامرة ماكرة خبيثة دبرها له عدد من الزعماء الحاقدين، فحرصوا على حماية مصالحهم الخاصة، ولما كان هذا المتصوف قد اتخذ من الحماس الديني، والارتجال طريقاً للوصول إلى غايته فإن مدة وجوده بين أتباعه، لم تتح لهم فرصة استيعاب أفكاره، ولذا فإن حركته، خمدت بعد استشهاده، ولم يفكر مسلمو الأندلس في تجديد غزواتهم ضد مملكة اشتوريس، وتوقف نشاطهم العسكري، وبخاصة أن أوضاع الأندلس الداخلية ظلت على اضطرابها حتى وفاة عبدالله، في حين انتقل زمام السيطرة من جديد، في ثغور الأندلس الشمالية ـ الغربية ـ إلى أيدي النصارى، وعاد تسلطهم يثقل كواهل المسلمين هناك بشكل أشد وأصعب، لكن ألفونسو الثالث قنع بما حقَّقه من انتصار على المسلمين، فالتفت إلى تنظيم شؤونه الداخلية فيما بقي من عهده بحيث كانت معركة سمورة آخر ما وقع من اشتباك بين المسلمين في الأندلس ومملكة اشتوريس، وكانت الأيام الأخيرة لألفونسو الثالث حالكة، فقد ثار عليه أبناؤه الثلاثة غرسية وأردونيو وفرويلة، فخلعوه عن العرش، وفرضوا عليه الإقامة الجبرية، وتنازل عن الملك لابنه الأكبر غرسية، ولم يلبث العاهل الأشتوريسي أن توفي في (٥ جمادى الأولى ٢٩٧هـ/ ٢٠ كانون الثاني ٩١٠م) فاقتسم أولاده الثلاثة أملاكه، فكان إقليم ليون من نصيب ابنه الأكبر غرسية، وحكم أردونيو إقليم جليقية،

---

(١) المصدر نفسه: ص٣٦٩، ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق.

وكانت مملكة اشتورس من نصيب فرويلة، واستقل هؤلاء بما تحت أيديهم، وتلقبوا بألقاب الملوك، فتفككت بذلك مملكة اشتوريس كقوة إسبانية نصرانية موحَّدة، وصلت محلها عدة ممالك بأسماء جديدة تضارعت فيما بينها مدة من الزمن، فأضعفت نفسها أمام مسلمي الأندلس.

***

ثانياً: العلاقة مع إمارة «نبَّرة»

نشأت إمارة نبَّرة أو نافار، في بلاد البشكنس الواقعة في جنوب غربي البلاد البرينية وعاصمتها مدينة بنبلونة، وتوضَّح ظهورها كقوة سياسية ذات كيان مستقل، وكانت قبل ذلك تسير في فلك ملوك جليقية أو أباطرة الفرنجة، واتسمت علاقتها بالإمارة الأموية قبل عهد عبدالله، بالعداء، وبخاصة أنه كانت ترتبط إما بالمصاهرة أو بالحلف مع الزعماء المسلمين في الثغر الأعلى الذين كانوا في معظم الأوقات ثائرين على السلطة الأموية، كما سعت للتعاون مع جارتها في مملكة اشتوريس ضد الدولة الأموية، لذلك جرّرت عليها هذه الدولة حملات عسكرية لحربها.

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين المسلمين في الأندلس وإمارة نبَّرة، خلال الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، فإننا نلاحظ بأن عبدالله كان مرتبطاً برباط المصاهرة مع الحاكم النافاري فرتون بن غرسية فقد تزوج ابنته ونقة التي تنعتها المصادر الإسلامية باسم «در»[1] وإذا كانت للمصاهرات من أثر في سير العلاقات بين الدول، فإن علاقة عبدالله بفرتون، الذي استمر في الحكم حتى عام (٢٩٣هـ/ ٩٠٥م) كانت جيدة، بدليل أن المصادر لا تورد أي أخبار بشأن إرسال حملات عسكرية ضده، ولكن ذلك لا يدل من جهة أخرى على أن الجبهة الإسلامية المواجهة لإمارة نبَّرة كانت مستقرة، إذ لم يكن محمد بن لب حاكم الثغر الأعلى على وفاق مع هذه الإمارة التي

---

(١) ابن عذارى جـ٢، ص٥١.

تجاور أملاكه من الشمال، والتي حاولت التمدد على حسابه في وادي الإبرو، لذلك، رحَّب الناڤاريون بدعوة ألفونسو الثالث لتقويض سلطان بني قسي، لكن لب بن محمد الذي خلف أباه هزمه أمام طرسونة كما ذكرنا.

وتبدلت الأوضاع في نبرة في عام (٢٩٣هـ/ ٩٠٦م) حين عُزل فرتون بن غرسية، وتولى شانجه غرسية الأول شؤون الحكم، فقام هذا الملك بمحاربة بني قسي منذ الأيام الأولى لاعتلائه العرش، واشتبك مع لب بن محمد أكثر من مرة، الأمر الذي دفع هذا الأخير، وقد شعر بالخطر، إلى تحصين مناطقه الحدودية، وغزوه هذه الإمارة، غير أنه تعرض للهزيمة في عام (٢٩٤هـ/ ٩٠٧م) وجُرح في المعركة وتوفي بعد ذلك من أثر الجرح[١].

ولجأ أخوه عبدالله بن محمد، الذي خلفه في السلطة، إلى التعاون مع جاره ومنافسه في الثغر الأعلى، المولدي محمد بن عبدالملك الطويل، للاقتصاص من نصارى نبَّرة، واتفق الطرفان في عام (٢٩٨هـ/ ٩١١م) على خطة عسكرية تقضي بأن يدخل محمد بن عبدالملك أراضي نبرة من الشرق في حين يدخل عبدالله بن محمد من الجنوب، على أن يلتقيا في العاصمة بنبلونة، غير أن الحملة فشلت في تحقيق أهدافها بسبب تخاذل الأول، وعودته إلى بلاده، ويبدو أنه جبن عن لقاء الملك الناڤاري، واضطر عبدالله بن محمد الفسوي للعودة هو الآخر، وصرف نظره عن مهاجمة أراضي الإمارة الناڤارية[٢].

وأضحت هذه الإمارة في نهاية القرن الثالث الهجري خطراً يهدد بني قسي الذين أضحوا عاجزين وحدهم على التصدي لها، على الرغم من أن عبدالله بن محمد القسوي هزم شانجة غرسية الأول في صيف (٢٩٨هـ/ ٩١١م).

❋ ❋ ❋

---

(١) المصدر السابق جـ٢، ص١٤٣.

(٢) ابن عذارى جـ٢، ص١٤٨.

ثالثاً: العلاقة مع الثغر القرطبي

أصبح الثغر القرطبي، منذ عام (٢٥١هـ/ ٨٦٥م)، إدارة خاصة، ويرتبط بالإمبراطورية الكارولبخية برباط هش، ولعل ذلك هو الذي شجَّع حكامه على الاستقلال عنها حين ضعف أباطرتها، ففي عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م) استقلَّ ويفريدو بما تحت يده من مدن مثل جيرندة وسردانية، وبليارتس وغيرها ثم ما لبث أن أضحى حاكماً على برشلونة قاعدة الثغر في عام (٢٦١هـ/ ٨٧٥م) بعد أن حرَّرها من الوصاية الكارولبخية. لكن الاستقلال التام لجميع مقاطعات الثغر القوطي عن الإمبراطورية الكارولبخية إنما حدث في عام (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م) وقد خضعت لويفريدو باستثناء منطقة امبوريش الواقعة على شاطىء البحر إلى الشمال من برشلونة حكمها سينير الثاني.
اتسمت العلاقة بين الإمارة الأموية في قرطبة وبين الثغر القوطي بالعداء بشكل عام، وهي انعكاس للعلاقة العدائية بين الأمويين والفرنجة وتحمَّل بنو قسي، حكام الثغر الأعلى، المجاورين، عبء المواجهة، وتبادل الطرفان الكر والفر على مدى أعوام كانت سجالاً قبل أن يركنا إلى الهدوء لأن الهدف آنذاك لم يكن انتزاع الأراضي فربما كان ذلك غير ممكن.

❋ ❋ ❋

رابعاً: فتح الجزائر الشرقية

على الرغم من أن الجزائر الشرقية كانت مستقلة ذاتياً وكانت تابعة لأبرشية جيرندة القطلونية من الناحية الكنسية، إلا أنها ظلت تخضع سياسياً للإمارة الأموية ـ وقد قامت علاقات سكانها مع المسلمين في الأندلس في عهد عبدالله على التعامل الحسن بموجب العهد الموقع بين الجانبين، واستقرت جماعات إسلامية فيها منذ وقت بعيد، كما كان البحارة الأندلسيون يأوون إليها خلال تنقلاتهم البحرية، ويمكثون فيها الأيام الطوال.

لكن حدث أن نقض سكان الجزر العهد، وظهرت بينهم بوادر الثورة على الحكم الأموي، بتشجيع من حكام قطلونية، ولذا قدم أحد

البحارة الأندلسيين ويدعى عصام الخولاني، إلى قرطبة، وأخبر عبدالله بما رأى من بوادر عصيان سكان ميورقة، كبرى جزر البليار، وأقنعه بجدوى القيام بفتحها، وعندئذ بعث معه القطائع في البحر، ونفَّر الناس معه إلى الجهاد فحاصرها أياماً وفتحها حصناً حصناً إلى أن اكتمل فتحها في عام (٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) وحكمها باسم الأمير عبدالله، وأنشأ فيها نظاماً إسلامياً، وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات، وعندما توفى، بعد عشرة أعوام، حكمها ابنه عبدالله[١]. واستقر الحكم الإسلامي في جزر البلياو عدّة قرون تالية.

❋ ❋ ❋

خامساً: المسلمون في بروڤانس

كشف المجاهدون الأندلسيون غاراتهم عبر البحر ضد أراضي الأمبراطورية الكارولبخية ـ كان ذلك في أواخر القرن الثاني الهجري، وتطورت هذه الغارات في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري نحو الاستقرار في جهات فرنسا الجنوبية، ففي عام (٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) رست سفينة إسلامية في خليج سان تروبية على شاطىء بروڤانس، فالتجأ بحارتها إلى غابة كثيفة حول هذا الخليج، وانطلقوا منها للإغارة على القرى المجاورة، وأرسلوا إلى الأندلس وإلى شمالي إفريقيا يستحثون المسلمين على إمدادهم بالمساعدة، فتوافد عليهم الكثيرون، وبنو حصن فراكسنتم على جبل المور، أو جبل المسلمين، في مكان على الطريق الذي يصل إلى الخليج، واستقروا فيه، وبهذا كان البحر مفتوحاً أمامهم لاستقبال الإمدادات، كما كان البر منفذاً لهم للقيام بغارات، والتوسع في عمق الأراضي الفرنسية. ولعل ما شجَّع المسلمين على غزو إقليم بروڤانس والاستقرار في جنوبي فرنسا: أن البحرية الأندلسية قد ارتقت إلى مستوى متقدم خلال عهد عبدالله، ونشط

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٤، ص٢١٠، ٢١١.

البحارة المسلمون في جنوبي البحر الأبيض المتوسط، وأسسوا مراسي لهم في سواحله الأندلسية.

- نزعة الجهاد لدى المسلمين بعامة.

- الأوضاع السياسية المضطربة التي كانت تمر بها فرنسا بعامة على أثر انتقال السلطة من الأسرة الكارولبخية إلى أسرة كابييه في عام (٢٧٤هـ/ ٨٨٧م)، وإقليم بروڤانس بخاصة.

وتخطى المسلمون إقليم بروڤانس في أواخر القرن الثالث الهجري وتقدموا شمالاً في عمق الأراضي الفرنسية، فاخترقوا في عام (٢٩٤هـ/ ٩٠٧م) منطقة ذومنية، ثم عبروا ممر مون سنى، أهم ممرات الألب الفرنسية، فسيطروا على دير نوڤاليس الواقع في الأراضي السويسرية، وأغاروا على القرى والضياع المجاورة، ووصلوا في تقدمهم إلى منطقة مونتفرات في غربي إيطاليا، وغزوا مدينة أكي، وتمددوا حتى حدود منطقة ليجوريا على شاطىء جنوة، وهاجموا في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) سواحل لانجروك سبتمانية، الواقعة إلى الغرب من بروڤانس، واجتاحوا ضواحي إيغمورت وأضحى نفوذ المسلمين، بنهاية القرن الثالث الهجري، يمتد من لانجروك غرباً، إلى مشارف الأراضي السويسرية شمالاً، ثم إلى الأطراف الغربية من إيطاليا شرقاً، فتحكموا بذلك في معظم ممرات جبال الألب وسيطروا على طرق المواصلات بين فرنسا وإيطاليا.

❋ ❋ ❋

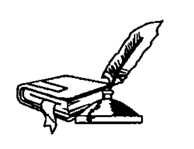
وفاة الأمير عبدالله

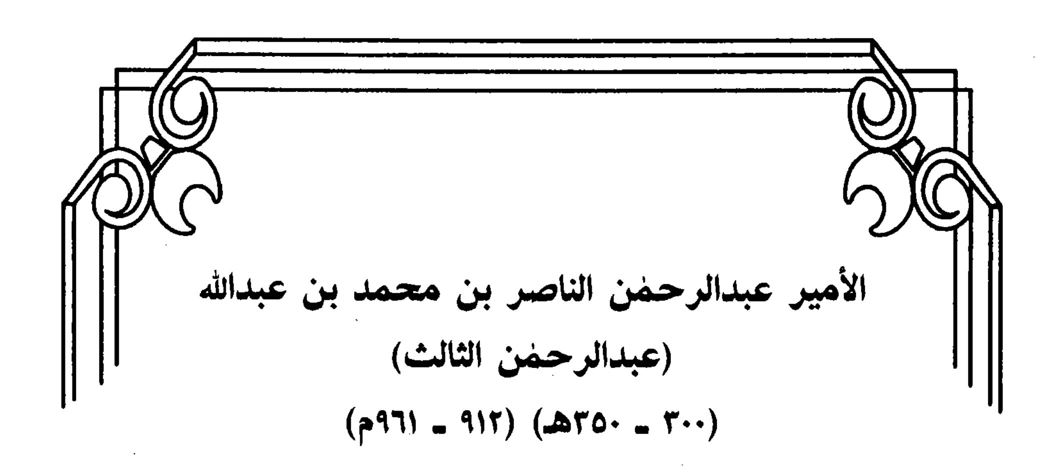
توفي الأمير عبدالله بن محمد في ليلة الخميس مستهل شهر ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، وهو ابن اثنين وسبعين عاماً، وكانت خلافته خمساً وعشرين يوماً، ودفن في القصر مع أجداده خلفاء الأندلس وصلى عليه حفيده عبدالرحمن الناصر أمير المؤمنين[١].

(١) البيان المغرّب جـ٢، ص١٥٤.

رحم الله الأمير عبدالله بن محمد، فقد كان حافظاً للقرآن، كثير التلاوة له، دائم الخشوع والذكر، كثير التواضع، عظيم الأخذ للظالمين، عادلاً يحب العدل بين المسلمين، وقد كانت له صدقات كثيرة، ونوافل عظيمة، كثير الصلاة كانت أعمال الخير والبر هي سمة عهده، وكانت اللذات مهجورة في عهده، واللهو غير مقترن، كثير الاستغفار لله تعالى.

رحم الله الأمير عبدالله بن محمد.





الأمير عبدالرحمٰن الناصر بن محمد بن عبدالله
(عبدالرحمٰن الثالث)
(٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) (٩١٢ ـ ٩٦١م)

توفي الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمٰن أمير الأندلس في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢م) بعد حكم طويل عاصف، فرقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها.

وقد خلفه في نفس اليوم على العرش حفيده عبدالرحمٰن بن محمد حفيد وابن ابنه محمد، وقد كان وقتها لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه، وكان الأمير عبدالله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده، فوجَدَ عليه أخوه المطرِّف وقتله حسبما تقدم، وولد عبدالرحمٰن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠م) وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية.

❋ ❋ ❋

نشأته

نشأ الطفل عبدالرحمٰن يتيماً في كفالة جده محاطاً بعين العطف والرعاية، وأسكنه جدّه معه بالقصر دون ولده، وما كاد يبلغ أشده حتى

ظهرت نجابته، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقاً في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنّه، ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة وبرع في النحو والشعر والتاريخ ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية وأقبل عليه جدّه يخصه بحبه وثقته، ويرشحه لمختلف المهام، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم الجند عليه، وهكذا تعلقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً، بل يقال أن جدّه قد رشحه بالفعل لولاية عهده وذلك بأن برىء بخاتمه إليه، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه.

***

بيعته بالخلافة

ما إن توفي الأمير عبدالله حتى بويع حفيده عبدالرحمٰن بالملك، وجلس عبدالرحمٰن للبيعة، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول في قاعة «المجلس الكامل» بقصر قرطبة، فكان أول من بايعه أعمامه، وأعمام أبيه، وتلاهم أخوه جدّه، وقد قتلوا أمامه وعليهم الأردية والطهائر البيض عنوان الحزن على الأمير الراحل، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبدالله فقال: «والله لقد اختارك الله على علم للخاص منّا والعام، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا، فأسأل الله إيذاع الشكر، وتمام النعمة، وإلهام الحمد»[(١)].

وتتابع بعد ذلك للبيعة وجوه الدولة والموالي، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان ورؤساء البيوتات، واستمرت بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر، وعندئذ نهض الأمير الجديد فصلى على جثمان جده، ثم واراه في مدفنه بالروضة، ومعه الوزراء ورجال الدولة، وجلس لتلقي البيعة في

---

(١) تاريخ إسبانيا الإسلامية تعريب علي عبدالرؤوف البجي ص٣١، المجلس الأعلى للثقافة بمصر ٢٠٠٠.

المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن حُدير، والقاضي أحمد بن زياد اللخمي، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد الكلبي، وصاحب الشرطة الصغرى، أحمد بن محمد بن حدير، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد بن أبي زيد، فاستمرت بضعة أيام، وكذلك أنفذت الكتب بأخذ البيعة إلى العمال في سائر الكور (البلاد) أو (المناطق) وأخرج الأمناء إلى البلاد لأخذها، وتتابعت الردود من جميع النواحي[1] وساد البشر والفرح يوم البيعة في القصر والمدينة، وتوسم الجميع في الأمير الفتى آيات العظمة واليمن، وعلقوا على ولايته أكبر الآمال، وفي ذلك يقول معلمه شاعر العصر ابن عبد ربه، يوم تولى عبدالرحمٰن الخلافة في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ:

بـــدا الـــهـــلال جـــديـــداً	والـــمـــلـــك غـــض جـــديـــد
يـــا نـــعـــمـــة الله زيـــدي	مـــا كـــان فـــيـــك مـــزيـــد
إن كـــان لـــلـــصـــوم فـــطـــر	فـــأنـــت لـــلـــدهـــر عـــيـــد
إمـــام عـــدل عـــلـــيـــه	تـــاجـــان: بـــأس وجـــود
يـــوم الـــخـــمـــيـــس تـــبـــدى	لـــنـــا الـــهـــلال الـــســـعـــيـــد
فـــكـــل يـــوم خـــمـــيـــس	يـــكـــون لـــلـــنـــاس عـــيـــد

رأى عبدالرحمٰن بعد ذلك أن الأندلس بحاجة شديدة إلى استقرار أوضاعها بعد أن تجاذبتها الأعاصير من كل صوب، وهزتها الثورة - وفي سبيل ذلك كان الأمير الفتى يرى أن خطة التردد والرفق التي اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطرة، ولم تكن ناجحة، وأنه لا بد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة من سحق الثورة وزعمائها بأي الوسائل[2]. لذلك وضع برنامجاً قرّر تنفيذه وأعلنه من خلال منشور عام، وجهه إلى الثائرين والخارجين على السلطة، ويستند على مبدئين هما:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) دولة الإسلام د .عنان، ع١ ق٢ ص٣٧٤.

أولاً: إسقاط كافة الجرائم التي بحق الدولة، وإعادة كافة الحقوق المشروعة في حال إعلان الولاء للسلطة المركزية، وبذلك قدّم للناس مبدءاً عظيماً وهو روح التسامح في الإسلام عملاً بقوله ﷺ: «**إن الإسلام قد جبَّ ما قبله**».

ثانياً: الوعيد والإنذار بالقضاء على الثوار ومعاقلهم والعابثين بأمن البلاد والعباد، والمتحالفين مع أعداء المسلمين.

ولم يكتف بهذا المحتوى الذي ضمنه للمنشور بل أرسل ممثلين عنه إلى الأقاليم الثائرة للتحاور مع الزعماء المتمردين وإعادتهم إلى دائرة السلطة المركزية.

استجاب البعض، وتوالت الاعترافات بحكم عبدالرحمٰن الناصر، وكانت هذه الاعترافات بمثابة تقليل للضغط وتقليل المجابهة. غير أن البعض وهو الذي شكل خطورة، امتنع عن التجاوب مع الأمير، وظل يتجاهل هذا النداء المسالم المتسامح، ولكن الأمير رأى أن السكوت على هؤلاء قد يفسر بصورة تؤثر على سياسته التي أعلنها في المنشور فكان لا بد أن يضرب بعصاه الأُولى ظهر هؤلاء.

***

مناوشات في البداية

لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبدالعزيز القرشي، فقصدت إلى منطقة قلعة رباح وكان قد سار بها الفتح بن موسى بن ذي النون من زعماء البربر، ومعه حليفه الرياحي المعروف بأرذبلش، فوقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة هزم فيها الفتح بن موسى، وارتد مغلولاً إلى معاقله، وقتل أرذبلش، وبعثت رأسه إلى قرطبة فرفعت فوق باب السدَّة، وظهرت قلعة رباح وأحوازها من الثورة، وذلك في شهر ربيع الآخر، وسارت حملة

أُخرى نحو الغرب، واستردت مدينة استجه من أيدي العصاة أتباع ابن حفصون في جمادى الأولى من نفس العام، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل، حتى تعزل وتغدو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج.

❋ ❋ ❋

صراع مع ابن حفصون

أولاً: من هو ابن حفصون؟

ذاع اسم عمر بن حفصون في التاريخ الأندلسي، وقد ظهر ابن حفصون في عهد محمد الأول بن عبدالرحمٰن الثاني (**٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ/ ٨٠٢ ـ ٨٨٦م**) ويعد عمر بن حفصون من أخطر المولدين الذين ثاروا على الحكم الأموي وأثارت شخصيته جدلاً واسعاً بين المؤرخين، والواقع أن تاريخ حياته يبدأ أشبه شيء بالرواية، لقد ولد في ترجيلة بكورة رية[١] القريبة من حصن أوطة من أسرة تعود بأصلها إلى العنصر القوطي[٢]. وكان والده حفص يتمتع بشخصية توحي بأنه من أصحاب النفوذ، وحتى يتم تكريمه أضيف إلى اسمه نهاية التكبير في اللغة الإسبانية، أي الواو والنون، وبهذا تحول اسمه من حفص إلى حفصون.

وقد نشأ عمر بن حفصون وشب على التطرف، فقد كان طموحاً ميالاً إلى المغامرة، محبّاً للعنف، رافضاً الخضوع للنظام العام في الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه، وقد شعر أن العرب يستأثرون بحكم الأندلس، من دون العناصر الأُخرى التي دخلت في الإسلام مثل المولدين والبربر، لذلك قرّر السعي لإسقاط الدولة العربية الأموية في الأندلس، فانطلق أولاً يبحث عن المغامرة بأسلوب التعدي، فتشاجر ذات يوم مع جار له وقتله،

---

(١) انظر ابن حيان ص٣٨٠، ٣٨١.

(٢) ابن القوطية ص١٢٤، ١٢٥، وابن خلدون جـ٤، ص١٣١.

فكرهه والده وتبرَّأ منه، ولكنه، خوفاً على حياته، أرسله ليختبىء في منطقة جبلية وعرة في المضيق الضيق لنهر وادي العرس على مسافة أربعين كيلومتراً شمالي رندة، وسرعان ما لجأ إلى تنفيذ غارات للسرقة في القرى المجاورة يرافقه فيها مجموعة من قطاع الطرق، فانتهى به المطاف إلى الأسر من جانب حاكم ريَّة، فعاقبه بالضرب بالسياط وهو يجهل تلك الجريمة التي ارتكبها من قبل[١].

وبدأ الجو العام في الأندلس قائماً بالنسبة لعمر بن حفصون، فقرَّر أن يتوجه إلى شمالي إفريقيا، واستقر في تاهرت عاصمة الرستميين، وعمل خيّاطاً عند أحد معارفه، فرآه ذات يوم شيخ مرَّ بذلك الخياط وتنبأ له بالملك[٢] فقام من فوره وعاد إلى الأندلس في عام (٢٦٧هـ/ ٨٨١م) خشية أن يفتضح أمره لدى الإمام الرستمي فيقوم بتسليمه إلى العاهل الأموي محمد الأول، ولما كان على خلاف مع والده لجأ إلى عمه ليعيش في كنفه، ثم استقر في جبل ببشتر مع زمرة من اللصوص الذين استقطبهم، واتخذه قاعدة لشن غارات على المناطق المجاورة[٣].

كانت أجواء الأندلس آنذاك مشحونة، وبخاصة في إقليمي ريَّة وتاكرتا. وشعر الولاة بأنهم غير قادرين على فرض النظام أو وضع حد لأعمال السلب والنهب التي يقوم بها قطاع الطرق، فاستغل عمر بن حفصون هذا الوضع القائم، فنمّى قوته بمن انضم إليه من الرجال وبخاصة الهاربين من الجندية من أصحاب الخبرة في القتال، كانت فاتحة أعماله شن غارات جريئة على القرى القريبة الواقعة في المناطق السهلية بين كامبيوس وقرطبة، مما شكل إزعاجاً شديداً للحكم المركزي، وخشي محمد الأول من استفحال أمره، وبخاصة أنّه تغلب على عامر بن عمر عامل ريَّة عندما تصدّى له[٤].

---

(١) بروفنسال ص٢٤٤.
(٢) تاريخ افتتاح الأندلس، لابن القوطية، ط المعارف بيروت ص١٢٥، ١٢٦.
(٣) المصدر السابق ص١٢٦.
(٤) البيان المغرب ـ جـ٢، ص١٠٤.

وكان لهذا الانتصار الكبير أثراً كبيراً في تقوية نفوذه، وازدياد حجم قواته، وذلك بمن انضم إليه من أنصار جُبلوا على أعمال الشر والفساد.

لم يكن محمد الأول بالحاكم الذي يتجاهل هذا التحدي الذي رأى فيه تهديداً خطيراً لسيادته، فأقدم على عزل والي ريّة وعين مكانه عبدالعزيز بن عباس، وأمده بقوات كثيفة وأمره بقمع حركة عمر بن حفصون، الأمر الذي دفع ابن حفصون إلى التراجع واعتصم بقلعته مفضلاً عدم الاشتباك مع الوالي الجديد، بفعل فارق القوة بينهما[1].

حاصر القائد الأموي، عمر بن حفصون في قلعته، وشدّد عليه حتى أجبره على عقد هدنة بينهما، لكن محمد الأول رفض الموافقة على هذه الهدنة، فعزل عبدالعزيز بن عباس، وأرسل وزيره هاشم بن عبدالعزيز لمتابعة المهمة والقضاء على ثورة عمر بن حفصون، فخرج من قرطبة في عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م) قاصداً قلعة ببشتر، ولما وصل إليها ضرب عليها حصاراً شديداً، ونجح حيث أخفق سلفه، فأرغم عمر بن حفصون على الاستسلام مع أتباعه، وحملهم جميعاً إلى قرطبة[2].

قوبل عمر بن حفصون بترحيب في العاصمة، إذ وقعت شخصيته الذكية موقعاً حسناً لدى محمد الأول الذي عفا عنه، وبلغ به التسامح أن عيَّنه في منصب مهم في الجيش ليشارك في الصائفة التي قادها هاشم بن عبدالعزيز في عام (٢٧١هـ/ ٨٨٤م) ضد ألبه، كما اشترك معه في حصار بنبلونة[3].

لم يمكث ابن حفصون طويلاً في قرطبة بسبب مآخذه على العرب من واقع استعلائهم عليه بوصفه مولداً (أبوه عربي مسلم، وأمه نصرانية) فهرب من قرطبة وعاد إلى بيشتر ليستأنف سيرته الأولى، فطرد عامل المنطقة

---

(١) ابن عذارى جـ٢، ص١٠٤.

(٢) ابن القوطية ص١٢٦. ابن عذارى جـ٢، ص١٠٥.

(٣) ابن الأثير جـ٦، ص٤٣٤، وابن القوطية ص١٢٦.

وانضم إليه أنصاره القدماء تغمرهم حالة من السرور، بعد أن رأوا زعيمهم قد عقد العزم على أن يتخلص من حكم عرب قرطبة، وتمادى حين قرّر أن يؤسس إمارة مستقلة له مثل تلك التي أسسها عبدالرحمٰن بن مروان الجليقي في الغرب، فاستولى على حصن أوطه المجاور له ومحياش وقمارش وأرشذونة، وأضحى حاكماً على كامل كورة ريَّة، وامتد نفوذه عبر الأقاليم المجاورة مثل الجزيرة الخضراء والبيرة، وساعد الحارث بن حمدون، متمرد بني رفاعة، في الحامة الواقعة إلى الشمال الشرقي من مالقة.

نهض محمد الأول على الفور للرد على ابن حفصون، فانتدب ابنه المنذر لقتاله يرافقه القائد محمد بن جهور، فتوجه إلى الحامة التي كان قد اجتمع فيها عمر وحليفه الحارث بن حمدون، وذلك في أوائل عام ٢٧٣هـ/ صيف ٨٨٦م ـ وضرب عليها حصاراً شديداً استمر مدة شهرين تخلله بعض المناوشات أصيب عمر خلالها وفقد يده[(١)].

وكان يمكن لهذا الحصار أن ينجح لولا أن تُوفي محمد الأول في ذلك الوقت (٢٨ صفر ٢٧٣هـ /٤ آب ٨٨٦م) فرأى المنذر أن يرفع الحصار عن الحامة ويعود إلى قرطبة لأن مسؤوليات السلطة ستقع على عاتقه بعد وفاة والده تاركاً القضاء على تمرد ابن حفصون لظروف أخرى[(٢)].

ثانياً: معاركه مع ابن حفصون وأتباعه

بعد أن تابعنا أصول ونشأة ابن حفصون، ننتقل إلى فترة خلافة عبدالرحمٰن الناصر وصراعه مع ابن حفصون حتى قضى عليه وعلى أتباعه بعد صراع مرير.

ففي شعبان سنة ٣٠٠هـ (مارس سنة ٩١٣م) خرج عبدالرحمٰن للغزو وتولى القيادة بنفسه، فأثار ظهور الأمير الفتى في الصفوف حماسة الجند

---

(١) جمهرة أنساب العرب، لابن حزم ص٥٠٢.

(٢) ابن عذارى ج٢، ص١٠٦.

وأكبروا شجاعته وإقدامه، وسار عبدالرحمٰن أولاً إلى الجنوب الشرقي، ومعه جند كورة البيرة وزعماؤها، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعاقلهم، فالتجأوا إلى الأمير، وألقوا بطاعتهم إليه، واتجه صوب كورة جيان في وسط الأندلس، حيث كانت الثورة على أشدها، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية، فاستولى على حصن مَرتش الواقع في طريق جيان، وسير في نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجادها، وكان يهددها الزعيم الثائر، فاحتلها وأمنها، وقصد عبدالرحمٰن بعد استيلائه على مرتش، إلى حصن مونت ليون (حصن المنتلون) القريب منها، وكان يمتنع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل، فضربه بشدة، وهاجمه حتى اقتحمه، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان (رمضان سنة **٣٠٠هـ**) وتعتبر هذه الغزوة أول غزوات عبدالرحمٰن، وتسمى عادة بغزوة المنتلون، اتجه عبدالرحمٰن بعد ذلك إلى حصن شمنتان، الواقع على مقربة من بياسة، وبه عبدالله بن الشاليه، فاستسلم الثائر دون مقاومة، وطلب الأمان، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله، واستولى عبدالرحمٰن بعد ذلك على حصن منتيشة من يد صاحبه ابن عطاف، وافتتح سائر الحصون التي كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان، وطهرها من آثار الخروج والعصيان. وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج طاعتهم، فتقبلها وعفا عنهم.

وسار عبدالرحمٰن إلى كورة ريّة جنوباً، فاحتل منها سائر الحصون التي تدين بالطاعة لابن حفصون، واقتحم أمنع هذه الحصون، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف، وقتل من كان به من أصحاب الثائر، وفرَّ أمامه جعفر بن حفصون ليلاً ولحق بأبيه، ثم استولى عبدالرحمٰن على حصن اشتيين على مقربة من البيرة، واتجه بعد ذلك إلى وادي آش فاحتل حصونها، ثم توغل في شعب جبل الثلج وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون، وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة، فخرج إليه أهل إلبيرة ومعهم مدد من جيش عبدالرحمٰن فردوه على عقبه، وما زال عبدالرحمٰن يجول في تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها، حتى

قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها، وبلغ ما استولى عليه في تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً من أمهات المعاقل الثائرة، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها في يوم عيد الأضحى بعد أن قضى في غزوته زهاء ثلاثة أشهر[1].

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلاّ بداية الصراع المرير، الذي كان على عبدالرحمٰن أن يضطلع به، ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع، وتتحفز، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته، وكانت إشبيلية في مقدمة القواعد التي رفعت لواء الثورة، وقام بها أيام الأمير عبدالله، بنو حجاج حسبما تقدم، وأنشأوا بها إمارة مستقلة، وقد كانوا بالرغم من انحدارهم من أصل عربي ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم، ويشاطرونهم شعور الحفيظة ضد حكومة قرطبة، وكان عبدالرحمٰن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين ومن يمالئهم وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التي لم تدخر وسعاً في الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل، وكان زعيم إشبيلية إبراهيم بن حجاج قد توفي، وخلفه في حكمها ولده عبدالرحمٰن، وخلفه في حكم قرمونة ولده محمد، ولما توفي عبدالرحمٰن في المحرم سنة **٣٠١هـ**، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوي آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بني حجاج وقدموه لحكمها، وسبق محمداً إلى الاستيلاء عليها، فسار محمداً إلى قرطبة، وقدم طاعته إلى عبدالرحمٰن، فتقبلها وأوفد معه الجند بقيادة الحاجب بدر، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها في جمادى الأولى سنة **٣٠١هـ** وهدم أسوارها، وندب عبد لها عبدالرحمٰن والياً من قبله، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين في إشبيلية.

❊ ❊ ❊

---

(١) تاريخ إسبانيا الإسلامية، ليفي بروفنسال ص٣٨.

غزوة عبدالرحمٰن الثانية إلى ريَّة والجزيرة

في شوال سنة ٣٠١هـ (مايو ١٩١٤م) خرج عبدالرحمٰن الناصر في غزوته الثانية.

كانت غزوة عبدالرحمٰن الثانية تقصد ريَّة والجزيرة، وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء، وعادت الثورة تشتعل فيها، وبدأ عبدالرحمٰن بحصار قلعة «طُرّش» في شرق مالقة، ثم سار إلى حصون رية ومعاقلها يفتتحها تباعاً، وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتقى بعبدالرحمٰن أمام قلعة طرُّش، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه النصارى، وارتد الثائر بفلوله صوب الغرب، واستطاع أسطول عبدالرحمٰن أن يضبط عدّة سفن محمَّلة بالمؤن كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون وأن يحرقها، وزحف عبدالرحمٰن على منطقة الجزيرة الخضراء، واقتحم حصن لورة الواقع بجوار الجزيرة، ثم دخل الجزيرة الخضراء في أوائل شهر ذي القعدة سنة (٣٠١هـ - يونية ١٩١٤م) وسار عبدالرحمٰن بعد ذلك إلى شذونة ثم إلى قرمونة، وكان حاكمها حبيب بن سوادة قد سار بها، فحاصرها حتى سلم الثائر واستأمن، فمنح الأمان، وانتقل بأهله إلى قرطبة، بيد أنه نكث بعهده فيما بعد، ودخلت في طاعته سائر المعاقل والحصون التي مرَّ بها، ثم عاد إلى قرطبة في شهر ذي الحجة بعد أن أصاب جبهة الثورة في تلك المرّة بضربة شديدة وإن لم تكن قاضية، ومع أن عبدالرحمٰن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم وطاعتهم، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح[1].

❋ ❋ ❋

(١) المقتبس في تاريخ رجال الأندلس لابن حيان جـ٣.

ميلاد الحكم بن عبدالرحمٰن الناصر

رزق عبدالرحمٰن الناصر في سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٥م - بخليفته وولي عهده الحكم بن عبدالرحمٰن الناصر، وقد كان ميلاده يمثل حدثاً سعيداً في قصر قرطبة، وأمه مرجان الرومية، وقد كانت قريبة إلى قلب عبدالرحمٰن، فهي أم الولد الأثيرة، وقد سر عبدالرحمٰن بولادته أيما سرور، ونوه بها، وأوسع الإنعام، وتقدمت طبقات الناس بالتهنئة، وأنشد الشعراء تهانيهم، فمن ذلك قول الفقيه أحمد بن محمد عبد ربه:

هلال نماه البدر واختاره الفجر ... تلقت به شمس وأنجمه زهر

على وجهه سيما المكارم والعلى ... فضاءت به الآمال وابتهج الشعر

سلالة وبيت خلايف ... أكفهم بحر ونايلهم غمر

بدا لصلاة الظهر نجم مكارم ... تحف به العليا ويكنفه الفخر

ثماه إلى العلياء خير خليفة ... تتيه به الدنيا ويزهى به العصر[1]

واستقبل الوليد الجديد استقبالاً رائعاً في قصر قرطبة.

❋ ❋ ❋

محنة عابرة

حلَّ بالأندلس قحط شديد في أواخر سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٥م، فعزَّت الأقوات وارتفعت الأسعار، وأمر عبدالرحمٰن الناصر وزيره أحمد بن محمد بن زياد بالبروز للناس للاستسقاء، فبرز بهم يوم الاثنين ١٣ شوال (أول مايو) فنزل فيه رذاذ مملح وندى مبلل لم يكن له كبير أثر، وعمت المحنة سائر القواعد والثغور، واستمرت خلال العام التالي (سنة ٣٠٣هـ) وبلغت الشدّة بالناس مبلغاً عظيماً وانتشر الوباء مع القحط، وكثر الموت،

(١) المصدر السابق.

وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء، وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة، ولم يدخر عبدالرحمٰن خلال تلك الآونة العصيبة، وسعاً في بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة، وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة، فكان لمجهودهم أثر كبير في التلطيف من آثار المحنة، وكان لهذا الظرف أثره في تهدئة الثورة، وألفت في عضد الثوار، ولكن عبدالرحمٰن لبث مع ذلك متيقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة[١].

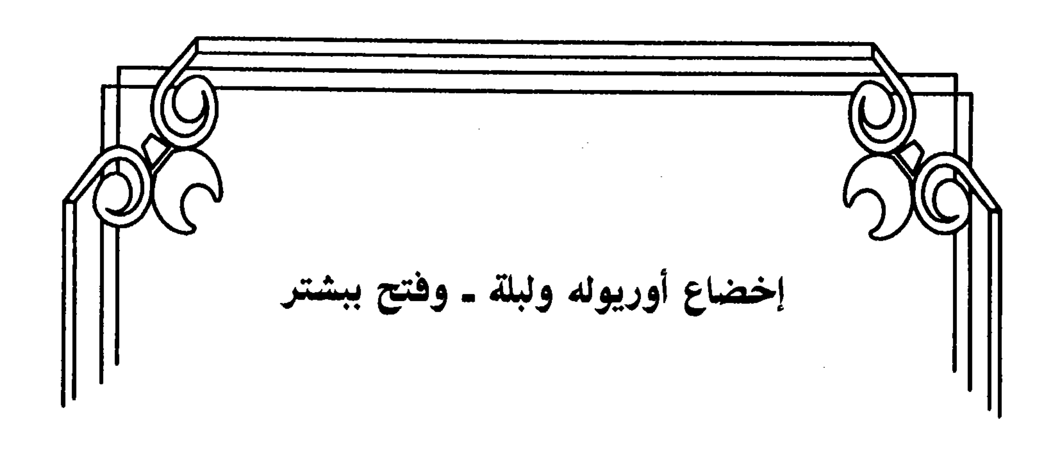
وعن هذه المحنة يتحدث ابن حيان في حوادث سنة **٣٠٣هـ** فيقول: «فيما كانت المجاعة بالأندلس التي شبهت بمجاعة سنة ستين، فاشتدَّ الغلاء، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها، وبلغ قفيز القمح بكل سوق قرطبة ثلاثة دنانير، ووقع الوباء في الناس، فكثر الموتان في أهل الفاقة والحاجة، حتى عجز عن دفنهم، وكثرت صدقات الناصر لدين في هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة، وعلى المتعففين عن المسألة، وصدقات أهل الحسبة من رجال الموتسين فيه، فنفع الله بهم كثيراً من خلقه. وكان حاجبه بدر بن أحمد، مدبر دولته، إفشاهم صدقة وأعظمهم مواساة، فنعش الله به أمة، وعدا أصر هذه المجاعة وضيق الأحوال، السلطان عن تجريد صايفة وإعداد جيش، لما بالناس من جهد، فأخذ الناصر لدين الله في شأنه بالوثيقة، وعوَّل على ضبط أطراف وتحصين بيضته، والإرصاد لأهل الخلاف والخلفان خلال معاقلهم، ومجال مساربهم، إذ كانوا مع استيلاء المجاعة عليهم لا يفترون عن العدوان، على من مرَّ بهم من رفاق المسلمين، وطالبي المعيشة، وجالبي الميرة، فلم يجدوا منفذاً إلى ما طمعوا فيه من إشاعة، ونفع الله بذلك، وعاث الموتان في هذه الأزمة، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمائهم وخيارهم[٢]».

ثم انقشعت هذه الغمة، وانطوت هذه المحنة، مما جعل عبدالرحمٰن يرجع إلى مشروعه الكبير وهو استئناف الغزو، لتحقيق الاستقرار في دولته.

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان ع١ ق٢ ص٣٧٨، ٣٧٩.

(٢) المقتبس لابن حيان.



إخضاع أوريوله ولبلة ـ وفتح ببشتر

أ ـ إخضاع أريوله ولبلة

عاد عبدالرحمٰن إلى استئناف الغزو، فسيّر قائده أحمد بن محمد بن ابن عبدة غازياً إلى أرض النصارى، ثم سير وزيره إسحٰق بن محمد القرشي إلى كورتي تدمير وبلنسية، فطارد فيهما أهل الخلاف وافتتح حصن أريولة المنيع، قاعدة تدمير التالد من يد الثوار ثم أخضع الثوار في مدينة الحامة، وغزا الحاجب بدر مدينة لبلة، وكان صاحبها الثائر عثمان بن نصر ممتنعاً بها، فبعث إليه الحاجب يلاطفه ويبذل الأمان له ولأصحابه، ويعده بكل ما يحب ولكن الثائر رفض كل عرض، وأصر على العصيان، فطوق بدر المدينة، وبرز له كثير من أهل الطاعة فأمنهم، وأبقاهم لدية، وجد في مهاجمة عثمان وأصحابه إلى أن اقتحم عليه المدينة يوم ٢٠ رمضان سنة ٣٠٣هـ/ فبراير ٩١٦م وقبض على عثمان وصحبه وأرسلهم في الأصفاد إلى قرطبة، وأمن أهل المدينة، ونظر في مصالحهم، وقد نظم ابن عبد ربه في فتح مدينة لبلة وفي مديح الناصر والحاجب بدر قصيدة يقول فيها:

خليفة الله وابن عم رسول الله والمصطفى على رسله.

منتك نعمى نمت سوابغها	كما استتم الهلال في كماله
وجه ربيع أتاك باكره	يرفل في حليّه وفي حلله
وأقبل العيد لاهياً جذلاً	يختال في لهوه وفي جذله

نصر من الله تضمنه ينهض في ريشه وفي عجله
يجري يشأو الإمام منصلتاً يسبق حضر الجياد في مهلة
قد وقف النكث والخلاف بها وقوف صب يبكي على طله[1]

***

ابن حفصون يطلب الصلح

فجَّر عمر بن حفصون مفاجأة وذلك في عام ٣٠٣هـ، عندما جنح للصلح، خاصة وهو من أكبر ثوار الأندلس إلى الصلح والطاعة، فبعث إلى الناصر يخطب ودّه، ويلتمس الصلح، مستشفعاً بما كان منه في إيواء الأمير محمد والد عبدالرحمٰن وحمايته، حينما فرَّ من أبيه الأمير عبدالله، وقام بالوساطة في ذلك يحيى بن إسحٰق طبيب عبدالرحمٰن، وكان صديقاً لعمر بن حفصون، فبذل في سبيل ذلك جهده، وعاونه الحاجب بدر لدى الناصر، فاستجاب الناصر لعقد الصلح مع عمر، مع الحذر من غدره ومكره، واتصل يحيى في ذلك مع «جعفر بن مقسم» أسقف ببشتر، وعبدالله بن أصبغ بن نبيل، وودنا بن عطاف، وهم من أكابر رجال ابن حفصون وخاصته، وكانوا يميلون إلى عقد الصلح والدخول في كنف الطاعة، وسار يحيى نفسه لمقابلة ابن حفصون، ووضع معه شروط الصلح، وعاد إلى قرطبة، وأقر الناصر تلك الشروط وعقد لعمر بن حفصون على ذلك كتاباً شهيراً من كتب عبدالرحمٰن الناصر، والذي خط أسفله بيده في الأسطر الآتية:

«يا الله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب، وجميع إيمان البيعة لازمتي من العهود المشددة، والأيمان المؤكدة، والمواثيق المغلظة، لا نقضت شيئاً مما جمعه هذا الكتاب تبديله، ولا نقصان شيء منه، ولا رضيت ذلك في سر ولا جهر، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمتي، والله شهيد علينا، وخططنا هذه الأحرف بيدنا، وأشهدنا الله عز وجل على

(١) المقتبس لابن حيان.

أنفسنا، وكفانا بالله شهيداً، ما وفى عمر بن حفصون بما في هذا العهد وصحح فيه إن شاء الله، والله المستعان».

وذُكِرَ أن الحصون التي دخلت في أمان عمر بن حفصون بمقتضى هذا الصلح، وسميت في كتاب العهد، مائة واثنين وستين حصناً، واغتبط عمر بن حفصون بعقد هذا العهد مع الناصر أيما غبطة، وبذل جهده في المحافظة على شروطه وأوضاعه، وسر الناصر من جانبه بما أبداه ابن حفصون في ذلك من دقة وإخلاص، وقدم ابن حفصون بهذه المناسبة إلى الناصر هدية فخمة، فتقبلها الناصر، وحسن موقعها لديه، وكافأ ابن حفصون عنها بأضعافها، وعظم سرور ابن حفصون بها، واستحكمت طاعته طول حياته، وكان هذا من أعظم العوامل في تهدئة اضطرام الثورة، وجنوحها إلى التبدد والانهيار[١]. وكان حبيب بن سوادة الثائر بقرمونة قد نكث بعهده، وعاد إلى قرمونة، وأظهر الامتناع بها، فسير إليه عبدالرحمٰن الحاجب بدراً في حملة قوية، فحاصر بدر قرمونة وضربها بالمجانيق بشدة، ثم دخلها عنوة، وقبض على حبيب وولده وأرسلهما في الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥هـ)[٢].



وفاة ابن حفصون

توفي ابن حفصون في شهر ربيع الأول من عام ٣٠٦هـ (سبتمر ٩١٨م)، وكان لوفاته أثراً كبيراً في تفكك عرى الثورة وانحلالها، لأن ابن حفصون كان زعيماً للثورة الكبرى، ومشعلها الأساسي في غربي الأندلس.

وقد توفى ابن حفصون بعد مرض طويل، وقد بلغ الثانية والسبعين من عمره، ومن المعروف أن ابن حفصون كان أخطر ثائر على الإطلاق عرفته الأندلس منذ الفتح، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التي لا تدين بالولاء

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

لحكومة قرطبة، وفي مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمي إليهم، وهم سلالة القوط والنصارى والإسبان الذين أسلموا منذ الفتح، وغدوا جزءاً من الأُمة الأندلسية، وكان أولئك المولدون بالرغم ممّا تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح، يضمرون لها الخصومة والكيد، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها، وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الإسلامية، وقد رأينا فيما سبق كيف دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته في المناطق الجنوبية الغربية، فيما بين رنده ومالقة، وقد كانت فضلاً عن وعورتها ومناعتها الطبيعية، تضم كثرة من المولدين والنصارى، وكان من هؤلاء معظم أنصاره وجنده، ولم يرَ ابن حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصراني، بأساً من أن ينبذ الإسلام ويرتد إلى النصرانية لكي يذكي حماسة أنصاره، وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء، بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً.

قال الرازي: «وكان أول قيامه بالفتنة، وصدعه عصي الجماعة، وامتناعه بقلعة ببشر منبر المعصية، من ثلاثين سنة، ركب فيها من العبث في الخلق، والفساد في الأرض بغير الحق، ما لم يركبه مارق بالأندلس، منذ دانت للمسلمين، فعد مهلكه فاتحة الإقبال، وطالعة السعد، واجتثاث الفتنة»[1].

❋ ❋ ❋

 أبناء ابن حفصون

ترك ابن حفصون أربعة بنين، هم سليمان وعبدالرحمٰن وجعفر وحفص، وابنه هي «أرخنتا» وكان له ولد آخر هو أيوب اتهمه أبوه عندما اعتل (مرض) ذات مرة، بمحاولة الفتك به وقتله[2]. فقام سليمان في

(١) المقتبس لابن حيان.

(٢) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص٣٢.

أيدة، وقام جعفر مكان أبيه في ببشتر بعهد منه، وكان أبوه قد قلده عهده في حياته، وأخذ له البيعة في أواخر أيامه، فأظهر يوم موت أبيه لجميع نصارى ببشتر أن يعتقد دينهم، ويدين بالنصرانية معهم، وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره، وجمع إلى نفسه ثقاته منهم، مع القسيسين والرهبان دون سائر الناس، فتولوا تجهيز والده معه، ودفنه على سنة النصارى، بعد أن أمر بسد باب القصبة، وحجاب باقي الناس من نصارى وغيرهم، ولاطف جعفر إخوته، ووعدهم بالجميل حتى سلموا له، قال الرازي: «وكان جعفر في ذاته متهوراً سخيفاً، جباناً ضعيف السيما، ذميماً، جسوراً حقوداً، منافساً لمن يعمل عنده، كنوداً لمن استرسل إليه، موالفاً للسفال، مستصحباً للأرذال، لم تسم همته إلى مروءة، ولا انطوت نيته على جميل، ولا عرف قدر ما مهده له والده مع السلطان من فراش الصلح، وبُسط من ظلال الأمن، بالتسجيل له على أعماله، وإمضاء ذلك بعده لقصبة بل غمط النعمة عليه، ورفض الساعين فيه لأبيه، وعقد شهادات جماعة من السفلة والطغام، على ابن مقسم الأسقف وابن بنيل وابن عطاف حاجبيه، فإنهم سعوا في الغدر بوالده عند السلطان، وأرادوا إزاحة سلطانه عن ولده بعده»[1].

وبعد أشهر قلائل سيّر عبدالرحمٰن الناصر قواته إلى «أيدة» فاقتحمها وأسر سليمان، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبدالرحمٰن وضمه إلى جيشه، وكذا استسلم عبدالرحمٰن بن حفصون، وكان محتمياً وممتنعاً بحصن طرّش، وكان أخوه جعفر صاحب ببشتر، قد ضايقه، وحاول أن ينتزع منه طرّش، فالتجأ عندئذ إلى الأمير، وأذعن للطاعة، على أن يسلم حصته ويمنح الأمان لنفسه وأهله، فأجابه الأمير إلى ما طلب، وتسلم منه الحصن، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى عليه الصلات، وكان أديباً شاعراً، واستبد جعفر بحكم ببشتر وما حولها، وآثر عبدالرحمٰن أن يهادنه مدى حين، وأن يقره على أعماله، وفي سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠م) قتل جعفر في ببشتر ضحية مؤامرة

---

(١) المقتبس.

قيل أنها من تدبير أخيه سليمان، وقيل من جهة أخرى أنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والجند المسلمين، فاغتاله نفر من جنده النصارى[1].

فقام أخوه سليمان مكانه في ببشتر، وأقره عبدالرحمٰن على ولايته، ولكنه نكث عهد الطاعة، فسار عبدالرحمٰن لقتاله، وحاصره مدى حين وكان أصحاب سليمان بحصن طرَّش، قد نبذوا الطاعة مثله، فسار عبدالرحمٰن إلى طُرَّش، ونازلهم، ثم ترك قوة استمرت في حصارهم، حتى أذعنوا إلى الطاعة وسلموا الحصن بالأمان، وأمر عبدالرحمٰن بتخريبه وتسويته بالأرض، ثم سار عبدالرحمٰن لحصار سليمان مرة أخرى في سنة **٣١١هـ/ ٩٢٣م** وخرَّب سائر المناطق التي يسيطر عليها الثائر، وأخضع معظم حصونها، واعتصم سليمان بجبل ببشتر، فنازله عبدالرحمٰن، واشتد في محاصرته، حتى ضاق الثائر وصحبه بالحصار ذرعاً، وخرج عليه معظم أنصاره، ونكل بالكثير منهم، ونازل عبدالرحمٰن بالأخص حصن الشط، وكان من أمنع الحصون الثائرة، حتى تغلب عليه وعلى ما حوله من الحصون، وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة، وأن يسلم بعض حصونه، فاستجاب عبدالرحمٰن إلى رغبته، وتسلم حصن الشط وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كفالة لحسن الطاعة، وانصرف عائداً إلى قرطبة، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الثائر بصورة نهائية.

وفي سنة **٣١٣هـ**، صُلب على الرصيف بباب قرطبة، رجل من أصحاب ابن حفصون هو الرامي النصراني المعروف بأبي نصر، وكان من أحذق الرماة في عصره وطار صيته أيام عمر بالحذق في الرماية وإصابة الأغراض البعيدة، قلّما تخطىء رميته، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين من الجند وغيرهم، وساد الذعر منه، وانتهى الأمر بأسره، وإحضاره إلى الحضرة، فجيء به إلى باب السُدَّة وأمر عبدالرحمٰن بصلبه وشكه بالسهام، فرفع فوق جذع في مشهد حافل من الناس، وتعاورته الرماة بالسهام حتى

---

(١) انظر البيان المغرب لابن عذارى جـ٢، ص١٨٩، وتاريخ ابن خلدون جـ٤، ص١٣٥.

مزق بدنه، وترك دامياً فوق جذعه، ثم أخذت جثته بعد أيام وأحرقت[1].

وفي أواخر سنة ٣١٤هـ، سيَّر عبدالرحمٰن وزيره عبدالحميد بن بسيل إلى ببشتر، وخرج سليمان في قواته إلى لقائه فهزم وقتل، واحتز رأسه وقطِّعت أشلاؤه، وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدّة (يونيه سنة ٩٢٧م)[2] وقام أخوه حفص مكانه ببشتر، واستمر على المقاومة حيناً، وفي ربيع الأول سنة ٣١٥هـ، سار عبدالرحمٰن بنفسه إلى ببشتر ومعه ولي عهده الحكم، وكان يومئذ صبياً في الثانية عشرة من عمره، ونزل على مدينة ببشتر ذاتها، وبها حفص، وشدَّد عليها الحصار، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها، وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون الثائرة، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار، واستمر الحصار بضعة أشهر، حتى اضطر حفص أن يذعن أخيراً إلى التسليم، فسلم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر، وذلك في أواخر شهر ذي القعدة سنة ٣١٥هـ (يناير سنة ٩٢٨م) وأخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه، أسرى إلى قرطبة، فعفا عبدالرحمٰن عنهم، وأحسن مثواهم، وضم حفصاً إلى جيشه[3].

* * *

فتح ببشتر

سار عبدالرحمٰن في العام التالي سنة ٣١٦هـ إلى ببشتر لتنظيم شؤونها فخرج من قرطبة في منتصف شهر المحرم منها (مارس سنة ٩٢٨م) ورافقه ولده الحكم، ووزيره أحمد بن محمد بن حدير، واستخلف على المدينة أحمد بن عيسى ابن أبي عبده، وقصد إلى ببشتر بطريق أشونة، فوصلها في العشرين من المحرم ودخلها وجال في أرجائها، وألفاها منقطعة النظير من

(١) المقتبس لابن حيان.

(٢) دولة الإسلام ـ د .عنان ع١ ق٢ ص٣٨٥.

(٣) المصدر السابق.

حيث الحصانة والمنعة، فعين لها والياً من قبله، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون فصلى في مسجدها الجامع، وأمر أن تقام الصلاة به، وكان ابن حفصون في أواخر أيامه، قد أثار حول موقفه من تذبذبه حول إظهار الإسلام، وجنوحه إلى النصرانية، ريباً حول حقيقة الدين الذي كان يعتنقه، فأمر الناصر بنبش قبره، وإخراج جثته وفحصها، فتبين من هيئتها، وكونه ملقى على الظهر، مشبوك الذراعين على الصدر، ومستقبلاً المشرق، أنه دفن على دين النصرانية، وعاين ذلك الناس من العسكر وغيرهم، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون. واتفق الجميع على أنه هلك على دين النصرانية، فأمر عبدالرحمٰن بحمل الجثة إلى قرطبة، حيث علقت في أعلى الجذوع على باب السُّدة يكتنفها أشلاء ولديه المصلوبين قبله، وهما حكم وسليمان. واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها عبرة للناظرين حتى سنة **٣٣١هـ** حيث حملها مد النهر الطامي في تلك السنة، ولأحمد بن محمد الرازي في صلب أوصال ابن حفصون قصيدة يقول فيها:

تبدى لمرأى العين مجسماً	وقام من الأجداث خلقاً متمما
فما كان إلاّ مثل من نام نومة	فأنبه عنها حين أغفى وهوّما
ثوى في الثرى حتى إذا صار رمة	أعيد إليه جسمه فتلأما
رقى فوق جذع بالهواء معلق	يحاول منه بالنجوم تحوُّما
تبارك من أبداه للخلق سامغاً	وبوّأ منه للنفس قعر جهنما

وأمر عبدالرحمٰن بتعمير سائر مساجد ببشتر المهجورة، واستولى عبدالرحمٰن على سائر معاقلها وحصونها، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة[(١)].

ثم أمر بعد ذلك بالقبض على «أرخنتا» ابنة عمر بن حفصون وإعدامها، لارتدادها عن الإسلام، وتمسكها باعتناق النصرانية، فأعدمت في سنة **٩٣١م**، أو في سنة **٩٣٧** وفقاً لرواية أخرى.

---

(١) انظر البيان المغرب جـ٢ ص١٩١ ـ ١٩٤، وتاريخ ابن خلدون جـ٤، ص١٣٥.

هذا وقد أصدر الناس عقب فتح ببشتر واستئمان حفص، كتاباً طويلاً ينوه فيه بهدى الإسلام وفضله، وما خصه الله به من خلافته وأمانة عباده، ويشير إلى خروج المارقين، وميل نفوسهم المريضة إلى الشرك، وكيف أنه أصدر أمانة لأهل ببشتر، ثم يقول في خطابه:

وعهدنا إلى الوزير أحمد بن محمد جدير، بالتقدم إليهم لحضور خروجهم، ومباشرة نزولهم، وإكمال الأمان لهم، وقبض الأيدي عنهم، فنهض إلى ذلك وقصد له، فلما صار بمدينة طلجير، المبتناة على مدينة ببشتر، هبت بالطاغين عنها، فتسارعوا خارجين، وتهافتوا ذاهبين، وتعرفوا الذي سبا إلى جوانب شتى، فقصد كل واحد إلى منزعه، وأم مكان طماعيته، ولحق بمداين الطاعة، فصاروا في غمار الرعية، وتمكث خلفهم عميدهم حفص بن عمر طاير الفواد، خافت القلب، لم تطب نفسه على الخروج خواراً، ولا سكن منه الأمان نفاراً، يخشى كل يد أن تضبط عليه، وكل شجرة أن تتعلق به، قد خامره من الرعب ما كاد أن يربى على العطب، فطمأن الوزير أحمد محمد بن حدير من جزعه، وسكّن من جأشه، ووفاه من آمالنا المبسوطة ليناً وثق به واطمأن إليه، فخرج آخر الخارجين، ولحق بالأمنين، فأصبحت مدينته بقعة الضلالة، ومنبر الخلاف، ومعدن الغواية، بما أحاط بها من أسوارها وأبنيتها وقصابها، وداخلها من جناتها ومصانعها، مغوية من قطينها، خاوية على عروشها، كأن لم يغن بها ساكن، ولا استوطنها قافل.

ثم يقول إنه أمر بعد ذلك بتخريب ببشتر، وحط أسوارها، وإنزال جدرانها وهدم كل قايم فيها من قصرها ودورها ومخازنها، وإعادتها جبلاً أجرد على ما كانت عليه لأول خلقها:

«ثم استقدمنا حفصاً اللائذ بالتوبة إلى ما تفضلنا عليه في التأمين والتمكين، وعدنا عليه من العفو والتطمين، وأخذنا فيه بالفضل المبين الذي جعلنا الله أهله، وغلب على مذهبنا إيثاره، وجمعنا له من ذلك ما اغتبط به، وسكن إليه، وقرر نفسه عليه، فأعلم ذلك، ووقف عليه، واستشعر حمد الله، ومرّ بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين قبلك في جامع

موضعك، ليحمدوا الله عز وجهه، على عظيم ما اصطنعه إليهم، ووهبه لهم، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم، والتقرب بنوافل الحمد إليه، ما يستدام له رضاه عز وجهه، ويستجلب به المزيد من نعمه، إن شاء الله وهو المستعان، وكتب يوم الخميس لخمس من ذي الحجة سنة خمس عشرة وثلاث مائة».

ويقول الرازي، أن الناصر لما خرج إلى ببشتر، وأمر بهدمها، أمر بالإبقاء على القصور والقصاب، التي أبقاها لعماله وحشمه الذين ندبهم للقيام بها، فدكت أسوارها، وحطت أعلامها، وإنه ـ أي الناصر ـ أصدر كتاباً بحوادث ببشتر، والأمر بهدمها، وهدم مسجدها الذي أقامه ابن حفصون، لأنه كان ستاراً لفسقة المسلمين، والأمر بإحراق منبره الذي دعا فيه للخنزير الضال، ومن خلفه من نسله الخبيث، وأعلن عليه بدعوة الشيعة[1].



القضاء على ثوار طليطلة

التفت عبدالرحمٰن الناصر إلى أكبر مدن الثغر الأوسط، طليطلة، لاستردادها من بني قسي وإقرار السلطة الأموية فيها نهائياً، فهاجمها في عام (٣٠٨هـ/ ٩٢٠م) في المعروفة بحملة مويش، وأظهر حاكمها لب بن الطربيشة وهو من زعماء المولدين عجزاً عن المقاومة عندما سير عبدالرحمٰن جنده لحصارها، واستمر الحصار زهاء عامين حتى نضبت موارد المدينة، واضطرت في النهاية إلى التسليم والإذعان وسار لب مع الأمير بقواته إلى الغزو في أرض النصارى سنة ٣٠٨هـ، وكانت بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً، معقلاً من معاقل ثورة المولدين، وكان بنو مروان الجليقي ما يزالون يسيطرون على تلك المنطقة، وكانوا من أخطر الخوارج وأشدهم مراساً، يمالئون الأمراء النصارى ويحالفونهم على حكومة قرطبة، ففي سنة

(١) المصدران السابقان.

٣١١هـ/ ٩٢٣م هلك عبدالله بن محمد بن مروان الجليقي صاحب بطليوس قتيلاً بيد بعض المخالفين من أصحابه، فقام مكانه ولده عبدالرحمٰن، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحديه لحكومة قرطبة وفي عام **٣٢٨هـ/ ٩٣٠م** أرسل عبدالرحمٰن جيشاً آخر لطليطلة وضرب الحصار عليها، وسيطر على المرتفعات المحيطة بها مما ضايق المحاصرين، وبدت عليهم بوادر الإرهاق، إلاّ أنهم صمدوا مدّة عامين أبدوا بعدها استعدادهم للإذعان ودخل عبدالرحمٰن الناصر المدينة في (**٢٥** رجب **٣٢٠هـ/ ١** آب **٩٣٢م**)[١].

وبذلك عادت طليطلة مرة أخرى إلى أحضان الدولة الأموية بعد ببشتر وبطليوس، كما عادت مناطق الثغر الأعلى، وانتهى الشريط الدموي الطويل الذي ترجم مأساة الأندلس في تلك المرحلة، وأرّخ انتقالها من الفوضى، ونظرت إلى مستقبل متفائل، فيه أمل جديد لتحقيق الوحدة السياسية في هذه البلاد.

وبعد أن خضعت بطليوس وطليطلة وببشتر، غادر عبدالرحمٰن بطليوس متجهاً إلى مدينة باجه، أقصى قواعد الغرب وفيها الثائر عبدالرحمٰن بن سعيد بن مالك، فنزل عليها، وأنذر صاحبها بالدخول في الطاعة، فلم يقبل النصح، فطوقها وحاصرها بشدَّة، حتى أجهد أهلها الجوع والعطش، وتساقطوا من الإعياء، وعندئذ اضطر صاحبها إلى الإذعان، فمنحهم عبدالرحمٰن الأمان، وأمن صاحبها وآله، وخرجوا إليه تائبين مستسلمين، فبعثهم إلى قرطبة، وكان افتتاح باجه في منتصف جمادى الآخر سنة **٣١٧هـ**، ونظر الناصر في مصالح المدينة، ثم عين لها والياً من قبله، هو عبدالله بن عمرو بن مسلمة، وزوده بحامية كافية وتحول عبدالرحمٰن بعد ذلك إلى مدينة أكشونية على مقربة من ساحل المحيط الجنوبي وبها الثائر خلف بن بكر، فبادر إلى الطاعة معتذراً، وأقره الناصر على ولايته، على أن يلتزم بأداء الجباية وبحسن السيرة. وقضى الناصر في هذا الغزو زهاء ثلاثة

---

(١) دولة الإسلام عن ابن حيان في المقتبس.

أشهر، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الخروج والثورة، ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى القصر في منتصف رجب، وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمير وبلنسية، وذلك في سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م أثناء مسيره إلى غزوة بنبلونة الكبرى، حسبما نفصل بعد، فطارد الخوارج والعصاة في شرق الأندلس، واستولى على معاقلهم وفرق شملهم، وفي سنة ٣١٤هـ/ ٩٢٦م سيّر الناصر وزيره القائد عبدالحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بني ذي النون، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف والعصيان، وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذّمة، فقصد إلى معقلهم شنت بريَّة واقتحمها، وقتل كبيرهم محمد بن محمد بن ذي النون، أخرى من رجالهم، وافتتح مدينة سُرية من مدنهم، وولى عليها عاملاً للسلطان، وخضعت شنت برية وما والاها للطاعة، ودرت جبايتها من ذلك الحين، وفي سنة ٦١٧، افتتحت مدينة شاطبة، واستنزل عنها صاحبها عامر بن أبي جوشن الثائر بها، بعد أن ترددت الحملات عليه، مدى خمسة أعوام، وكان خضوعه على يد صاحب الشرطة العليا درّى بن عبدالرحمٰن، واشترط عند استسلامه أن يمنح الإقامة مدة في حصن «شنت مرية» من حصونه، حتى ينظم شؤونه ويسير في أهله إلى قرطبة، فأجيب إلى طلبه، وبذلك أخمدت الثورة في سائر النواحي، بعد أن لبثت زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها، وتفت في عضدها، وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقي المتربص بها، ونعني إسبانيا النصرانية.

❋ ❋ ❋

إعلان عودة الخلافة

يعد هذا الإعلان من أكبر وأخطر قرار اتخذه عبدالرحمٰن الناصر على مدى حياته السياسية، فقد اتخذ الناصر قراراً في (أواخر سنة ٣١٦هـ/ أوائل ٩٢٩م) وهو تلقيب نفسه بلقبين ساميين، الأول لقب الخليفة، والثاني لقب أمير المؤمنين، وأضاف إلى اسمه اللقب الشرفي الناصر لدين الله، وعهد إلى

القاضي أحمد بن بقي، صاحب الصلاة بقرطبة، بأن تتضمن الخطبة، يوم الجمعة (٢ ذي الحجة /١٦ كانون الثاني) في المسجد الجامع، واستمر هذا اللقب في عهده وعهد خلفائه من بعده حتى انقرضت دولة الأمويين في عام (٤٢٢هـ/ ١٠٣١م).

وأصدر الخليفة منشوراً عاماً إلى عماله من الكور والمدن الأندلسية يقول لهم فيه: وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا، ورودها علينا كذلك، إذ كان مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه منه، وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق لنا أضعناه، واسم ثابت أسقطناه، فمُر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله كذلك أمر الناصر لدين الله بإثبات عبارة «الناصر لدين الله أمير المؤمنين» في أعلامه وطرازه ودنانيره ودراهمه ونفذ الأمر بذلك. هكذا تحولت الأندلس من إمارة إلى خلافة، واستمر لقب خليفة في ذرية عبدالرحمٰن الناصر من بعده حتى سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م)[١].



البواعث الخفية والظاهرة لإقامة الخلافة

كان أمراء بني أمية السابقين الذين حكموا قبل عبدالرحمٰن الناصر، قد قطعوا الدعاء لبني العباس، ولكنهم لم يلقبوا أنفسهم بلقب الخليفة، واكتفوا بتلقيب أنفسهم «بأبناء الخلائف» والسبب في ذلك شعورهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ولا تتعدد وأن الخروج عنها عصيان وأن الخليفة الشرعي هو حامي حمى الحرمين الشريفين أي المسيطر على الحجاز أصل العرب والملّة، وهو الخليفة العباس في ذلك الوقت. كان هذا هو الأصل النظري للخلافة السُّنية في بادىء الأمر، غير أن مصلحة العمل وتغيرات الظروف

(١) البيان المغرب لابن عذارى جـ٢، ص١٧٦ وما بعدها.

السياسية بعد ذلك حتمت الخروج عن ذلك الأصل النظري، ووضعه محل الاجتهاد، ومن ثم أجاز السنيون أنفسهم تعدد الخلافة ما دامت هناك مصلحة تقضي بذلك، واعترفوا بشرعية إمامين يتوليان الحكم في وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة ومساحة شاسعة لمنع الاصطدام والفتنة بين المسلمين[١].

وبالمقارنة مع الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القيروان، فإن نظام الخلافة في الأندلس يتوافق مع الخلافتين المذكورتين من حيث أنه يقوم على أساس الوراثة ويستند إلى السياسة ثم الدين، وهو نظام يختلف عن النظام الراشدي الذي يقوم على الشورى والانتخاب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يختلف عنها من حيث المفهوم الديمقراطي فالخلافة العباسية تقوم على أساس التفويض الإلهي، فقد خطب أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي يوم عرفة فقال: «. . . إنما أنا سلطان الله في أرضه. . »[٢]. وتعود هذه النظرية بأصولها إلى الكسروية الفارسية في الحكم أمام النظرية الفاطمية في الحكم فتستند على عصمة الإمام، أما الخليفة الأموي فهو إنسان عادي قد يخطىء وقد يصيب وهو معرَّض للنقد من قبل العامة[٣].

ويذكر أحد المؤلفين (المؤرخين)[٤]: أن الأندلسيين أنفسهم هم الذين طلبوا من الأمير عبدالرحمٰن الناصر أن يكون خليفة وبايعوه على ذلك، وحملوه على حمل هذين الاسمين: أمير المؤمنين والناصر لدين الله، وصاروا يخاطبونه باسم خليفة قبل إعلانه رسمياً، وكل هذا يدل على أن نظرية الخلافة السنية قد تكيفت تكيفاً جديداً تبعاً للواقع وللضرورة السياسية ومصلحة المسلمين، والنظريات الناجحة هي التي تتبع الواقع وتتأثر به[٥].

---

(١) في تاريخ المغرب والأندلس، د. العبادي ص١٣٠.
(٢) د .العبادي ص١٣٠.
(٣) البداية والنهاية لابن كثير جـ١، ص١٢٢، ١٢٣.
(٤) د .طقوش ص٣١٧.
(٥) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، تونس ١٩١٨م.

ولقد كان عبدالرحمٰن الناصر مدفوعاً في ذلك بمصالح مختلفة في الخارج والداخل أهمها:

أولاً ـ الداخلية:

١ ـ استعادة الأندلس وحدتها السياسية بعد ستة عشر عاماً من الكفاح الصعب الذي انتهى بالقضاء على جميع الثائرين وعلى رأسهم بني حفصون، وأن لقب الأمير لم يعد من الألقاب التي تستوعب طموحات العاهل الأموي، وبخاصة بعد أن زالت حرمة هذا اللقب حين تلقب به معظم الخارجين على السلطة الأموية لينافسوا أمير قرطبة الحكم الفعلي والشرعي للأندلس، بحيث يتعذر على أي ثائر أن ينازعه داخل حدود إمارته من دون أن يعرض نفسه للعقاب.

٢ ـ لجوء الأمراء الأمويون، قبل عبدالرحمٰن الثالث، إلى تلقيب أنفسهم بأبناء الخلفاء بهدف تبرير أحقيتهم بالخلافة.

٣ ـ لقب خليفة يهيىء للعاصمة قرطبة دوراً أكثر مركزية بحيث يمكنها القبض على أطراف الدولة قاطبة، ويتيح لها الوسائل العملية لقمع أي تحرك انفعالي بالسرعة القصوى.

٤ ـ ضعف مكانة الأمير الأموي في قرطبة نتيجة للثورات والفتن الداخلية التي شغلت عهود ثلاثة من الأمراء قبله، بحيث أصبحت الحاجة ماسة إلى رفع مكانته ومنزلته السياسية والدينية، لاسيما أن تلك الثورات الداخلية قد قضى عليها في بداية عهد عبدالرحمٰن الثالث.

٥ ـ الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون خليفة للمسلمين.

ثانياً ـ الخارجية:

١ ـ ضعف الخلافة العباسية وانحدار سمعتها إلى الحضيض، بحيث تحولت إلى مطية لأطماع القادة الأتراك المهيمنين على مصالح الخلفاء، والذين أضحوا أصحاب الكلمة النافذة في الدولة غير عابئين بالخلافة بوصفها

لقباً له حرمته، ولا بالخليفة بوصفه صاحب سلطة دينية وزمنية، وجاء اغتيال الخليفة المقتدر، على يد قائده التركي مؤنس، ليضع الخلافة العباسية أمام منعطف، ويُشجِّع على اتخاذ مواقف أكثر جرأة في مناهضتها والخروج عليها(١).

٢ ـ قيام خلافة شيعية فتية في المغرب وهي الخلافة الفاطمية التي كانت ترنو إلى الأندلس بعين لا تخلو من طمع وغدر، وبقيام هذه الخلافة الفاطمية، بعد أن بويع عبيدالله المهدي الفاطمي بالإمامة وتلقب بأمير المؤمنين في عام (٩٢٧هـ/ ٩١٠م) لينافس عدوه الرئيس خليفة بغداد، ضعفت وحدة الأمة، فكان قرار الناصر تقوية لمسمى الخلافة الواهي(٢).

٣ ـ أدرك عبدالرحمٰن الناصر أن إمارته وصلت إلى مستوى من القوة يستطيع معه أن يعيد إحياء الخلافة الأموية المشرقية، إذ إن الورثة الشرعيين لها يتمثلون في بني مروان الذين نجحوا في نقل سلطانهم من دمشق إلى قرطبة وحافظوا عليه، ولم يكن العباسيون يوماً من هؤلاء الورثة الشرعيين ولا أمراء المؤمنين المنشقين في إفريقيا المتمثلين بالفاطميين(٣).

هذه بصورة عامة هي الأسباب والدوافع التي أدت إلى قيام هذه الخلافة الجديدة وكما ذكرنا فإن نظام هذه الخلافة يقوم على أنه نظام ملك يقوم على أساس التوريث، ويستند إلى السياسة أولاً ثم إلى الدين ثانياً، فهو يختلف تماماً عن نظام خلافة الإسلام الأولى أيام الخلفاء الراشدين الذي كان يقوم على الشورى والانتخاب.

وإذا كانت خلافة العباسيين والفاطميين تتسم بالقداسة، فالعباسيون كما ذكرنا من قبل استشهاداً بمقولة أبو جعفر المنصور: «إنما أنا سلطان الله في أرضه»، وهي مشابهة بنظرية الحق الإلهي في الحكم، والفاطميون يروا أن

---

(١) د. العبادي، مصدر سابق.

(٢) الدولة العربية في الأندلس، إبراهيم بيضون، النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠م.

(٣) تاريخ المغرب والأندلس، د. العبادي ص١٣٠، ١٣١، وانظر تاريخ المسلمين في الأندلس، د. طقوش ص٣١٦، ٣١٧.

خليفتهم إماماً معصوماً من الخطأ ولا يسأل عما يفعل لأنه المعلم الأكبر الذي ورث العلوم اللدنية بما فيها من أسرار الكون وخفايا الغيب عن النبي عن طريق الإمام علي بن أبي طالب ثم أبنائه من بعده.

هذه القداسة لا نجدها في الخلافة الأموية الأندلسية، فالخليفة إنسان عادي قد يخطىء وقد يصيب والناس أحرار في نقده وإن استطاعوا عزله عزلوه[١].

ومن أمثلة هذه الروح الديمقراطية التي امتازت بها خلافة الأندلس، أن عبدالرحمٰن الناصر حينما بنى مدينة الزهراء وصرف عليها جزءاً كبيراً من وقته، ومن مال الدولة، قامت ضده معارضة شديدة تزعمها قاضي قرطبة المنذر بن سعيد البلوطي الذي أخذ يعرّض بالخليفة في مسجد الزهراء أيام الجمعة، وقد أثارت هذه المعارضة غضب الخليفة الناصر وشكا ذلك لولده الحكم بقوله:

«والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف علي وأفرط في تقريعي وتفزيعي، ولم يحسن السياسة في وعظي فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني، ثم أقسم الناصر بألا يصلي خلفه صلاة الجمعة أبداً، فصار يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، وبجانب الصلاة بالزهراء»[٢].

يقول الدكتور العبادي: هذه الحادثة ترينا نوع العقاب الذي أنزله الخليفة بقاضيه المعارض لسياسته المالية في وقت كانت فيه أموال الشعب ملكاً لرئيس الدولة سواء في الشرق أو الغرب، فهو يظهر له احتجاجه دون عزل أو إيذاء[٣].

من هذا نرى أن نشأة الخلافة الأندلسية تخالف نشأة الخلافة في

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) د .العبادي ص١٣١.

(٣) نفح الطيب للمقري جـ٢، ص١٠٦.

الممالك الإسلامية الأخرى من حيث أنها لم تستند على ما يسمى «بالحق الطبيعي الموروث» الذي يأتي عن طريق فاطمة الزهراء بنت الرسول كما يقول الشيعة، أو عن طريق الميراث عن العباس بن عبدالمطلب عم النبي كما يقول العباسيون على أساس أن العم في الميراث مفضل على ابن البنت مثل قول شاعرهم:

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني الشبات وراثة الأعمام؟

أما في الأندلس فلم يحدث شيء من هذا التعقيد، كل ما هنالك أن عبدالرحمٰن الناصر ـ كما هو واضح في المنشور الذي أصدره ـ رأى أن يكون خليفة لأنه أحق من غيره بها ولاسيما الفاطميين، وعرض الأمر على الأمة فقبل الناس ذلك وبايعوه، فهي أشبه بعقد بين الحاكم والمحكوم. ومن الطريف أن هذه النزعة الاستقلالية الروحية عن خلافة بغداد، لم تلبث أن سرت أيضاً بين أهل الذمة، إذ تروي المصادر العبرية أن الجاليات اليهودية الأندلسية، أسرعت بعد إعلان خلافة عبدالرحمٰن الناصر، بإلغاء تبعيتها الروحية للأكاديميات اليهودية ببغداد، ثم تضيف في مكان آخر أن قائد الأسطول الأندلسي في ذلك الوقت محمد بن الرماحس، أسر من عرض البحر أربعة من الأساتذة اليهود الذين أرسلتهم أكاديمية سورا Sora لجلب إعانات اقتصادية من يهود إسبانيا، وغير بعيدة بالمرة أن يكون للحادث الثاني صله بالحادث الأول.

ويقول الدكتور العبادي الذي أورد هذا الخبر: وأن المراجع العربية تطلق اسم سورا على موضع جنب بغداد وقيل بغداد نفسها[1]. ويطلق اسم سورا أيضاً على بلدة بجوار بابل القديمة في جنوب شرق بغداد وكذلك على بلدة في بمباي بالهند.

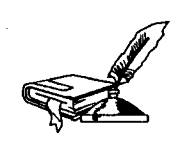
❋ ❋ ❋

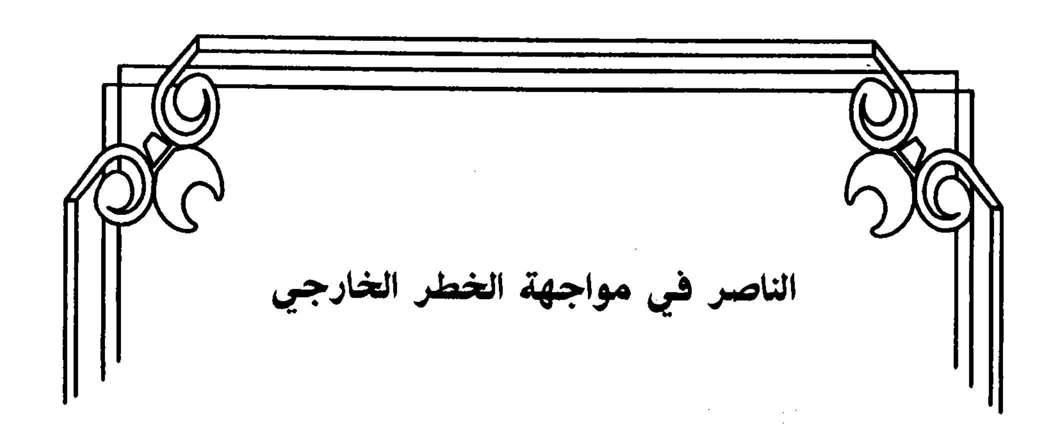
(١) في تاريخ الأندلس، د. العبادي ص١٣٢.

الناصر وحلم توحيد العالم الإسلامي

بعد أن استتب الأمر لعبدالرحمٰن الناصر، وعمَّ الهدوء والاستقرار في ربوع الأندلس، قرّر القيام بتنفيذ مشروع ضخم هام وحيوي هو توحيد العالم الإسلامي بشقيه المشرقي والمغربي، تحت لواء الخلافة الأموية في قرطبة ويفضي المشروع بالقضاء على الدولة الفاطمية في القيروان، والإطاحة بالخلافة العباسية في بغداد، وعقد آماله على الجنود المغاربة في تنفيذ هذا المشروع، فكتب إلى كل من محمد بن خزر الزناتي وموسى بن أبي العافية، من شمالي إفريقيا، وكانت تربطه به علاقة جيدة من واقع العداء المشترك للفاطميين، يحثّه على الاستعداد والتعبئة واستنفار القبائل من أجل هذه الغاية، وانتظار اليوم الذي يحدده للتحرك وأمر عماله في الأندلس بالتأهب وإعداد الرجال والعتاد وتجديد آلات الحرب والأسلحة، وراح يكثر من جمع المراكب.

ولكن هذا المشروع الضخم على أهميته ظل سجين مخيلة الناصر ولم ينفذ على أرض الواقع، بعد أن ثبت له استحالة تنفيذه، نظراً لبعد المسافة وعدم توفر الإمكانات اللازمة لتنفيذه، والراجح أن العاهل الأموي أدرك، منذ بداية التفكير بهذا المشروع، استحالة تنفيذه، إلاّ أنه مضى في الإعداد له لغاية واحدة هي إشغال الأندلسيين به وصرفهم عن التفكير بالخروج على حكمه وإحداث الفتن، والقلاقل في البلاد، وقد حقّق هذه الغاية.





الناصر في مواجهة الخطر الخارجي

أولاً - الدولة الفاطمية في المغرب:

اعتمد التشيع في المشرق الإسلامي على الموالي من الفرس، أما في المغرب فقد اعتمد على الموالي من البربر، وهذا الاتجاه يتضح منه أنه مضاد للعصبية العربية، ولم يكن الاتجاه في المغرب إلى الموالي من البربر يخرج من فراغ فقد كانت بلاد شمال إفريقيا تربة خصبة لبث الدعوة الشيعية، يضاف إلى ذلك بلاد المغرب كانت بعيدة عن السلطة المركزية في بغداد ممّا جعل من الصعب على العباسيين فرض رقابتهم التامة على تلك البلاد وتعقب العلويين فيها[(١)].

ويرجع الفضل الأول في نجاح الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب إلى الداعية أبي عبدالله الشيعي المؤسس الأول للدولة الفاطمية ببلاد المغرب، وكان من بين الذين تولوا الدعوة للمذهب الإسماعيلي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وهو الحسين بن أحمد، أبو عبدالله الداعي، وقد أرسله أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب الكوني، داعي الإسماعيليين في اليمن، إلى بلاد المغرب في عام (٢٨٨هـ/ ٩٠١م) لنشر الدعوة في هذه البلاد بعد وفاة داعيي الإسماعيلية فيها، وهما أبو سفيان الحسن بن القاسم، وعبدالله بن علي بن أحمد، المشهور بالحلواني[(٢)].

---

(١) د. العبادي ص١٣٢، انظر الهامش.

(٢) د. العبادي ص١٣٣.

نجح أبو عبدالله الداعي في استقطاب جماعة من بربر كتامة كانوا يؤدون فريضة الحج وصحبهم إلى بلاد المغرب حيث بث دعوته بين الناس.

وفي رواية أخرى عن المقريزي يذكرها الدكتور العبادي[1] يقول فيها: «على أن هذا الداعية لم يكن أول من دعا للشيعة بالمغرب الإسلامي، فقد سبقه في هذا المضمار دعاة آخرون مهدوا السبيل لنجاح دعوته، فيروي المقريزي أن الإمام جعفر الصادق (ت١٤٨هـ) أوفد إلى المغرب داعيين أحدهما يعرف بالحلواني والآخر يعرف بأبي سفيان وقال لهما: «أن المغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البندر» فذهبا إلى هناك وأخذا يدعوان الناس لطاعة آل البيت حتى استمالا قلوب جمع كثير من قبيلة كتامة وغيرها وظلا هناك إلى أن ماتا».

أما الداعية أبو عبدالله الشيعي فأصله من الكوفة ويعرف بالمعلم لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية، ذهب إلى اليمن وكانت مركزاً هاماً للدعوة الشيعية لقربها من الحجاز مجمع الحجاج، وهناك اتصل بداعي الشيعة فيها واسمه ابن حوشب أو ابن جويشب، فأخذ يحضر مجالسه، ويستفيد من علمه ويتمثل لأمره حتى وثق به ابن حوشب وأرسله إلى المغرب ليكمل رسالة أبي سفيان والحلواني.

اتجه أبو عبدالله أولاً إلى مكة من موسم الحج وهناك التقى برجال من قبيلة كتامة فاختلط بهم ووجد لديهم إلماماً ومعرفة بالمذهب الإسماعيلي، ثم سألوه عن مقصده فادعى أنه يريد مصر ليعلم بها، فدعوه إلى بلادهم للقيام بهذه المهمة، فقبل الدعوة ونزل عندهم، سنة **٢٨٨هـ**، وكانت قبائل كتامة من أعظم قبائل البربر وتنزل منذ الفتح العربي بين جبال أدراس والبحر بنواحي قسنطينة شرقي الجزائر ومكانها اليوم بلاد القبائل Kabilie[2].

---

(١) تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا، د. محمد سهيل طقوش.

(٢) د. العبادي ص١٣٤.

وينقسم تاريخ الدعوة التي قام بها أبو عبدالله الشيعي في المغرب إلى مرحلتين: المرحلة الأولى كانت مجرد دعاية سلمية لجذب الأنصار إليه ثم تلتها المرحلة الثانية وهي مرحلة جهاد طويل انتهى بقيام الدولة الفاطمية.

أما مرحلة الدعاية فقد استغرقت ثلاث سنوات (٢٨٨ ـ ٢٩١هـ) استخدم الداعي فيها التنبؤ والسحر والتبشير كوسيلة من وسائل الدعاية التي تلائم عقلية الناس في هذه المناطق.

يروي ابن الأثير أنه حين نزل بإفريقيا سأل: أين فج الأخيار؟ وهو جبل من جبال كتمامة ولم يكونوا قد ذكروه له، فعجبوا من ذلك ودلوه عليه فقال: ما سمي إلا بكم، ولقد جاء في الآثار أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان تنصره فيها الأخيار، قوم اسمهم مشتق من الكتمان (يعني كتامة).

كذلك استخدم الداعي السحر وصنع من الحيل والطلاسم والرقي والأحجبة ما أذهل العقول، فأتاه البربر من كل مكان فأخذ يبشرهم بظهور المهدي ويهيىء عقولهم لقبول فكرته واعتناق المذهب الإسماعيلي، ولقي أبو عبدالله صعوبات جمة إذ أن دعوته أحدثت اضطراباً شديداً بين البربر وحاول بعضهم ولكنه نجا، كما حاول بعض رجال العلم مناقشته فقبل الداعي ولكن قبيلة كتامة رفضت هذا العرض واعتبرته إهانة لمكانته، وقامت حروب بين كتامة وبعض قبائل البربر اضطر الداعي إلى الاختفاء خلالها. ولكن هذه المحنة انتهت بانتصار الفريق الذي يحميه فكان هذا انتصاراً للدعوة الفاطمية وصار أبو عبدالله ذا جند عظيم وسلاح كثير خلاف الأموال التي كان يأخذها من الناس كرسم لدخول المذهب الشيعي[(١)].

مرحلة الحرب: وهي المرحلة الثانية من مراحل هذه الدعوة وقد امتدت ست سنوات تقريباً، وكان المغرب في ذلك الوقت تسيطر عليه أربع دول وهي:

---

(١) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، للمقريزي ص٧٤ ـ ٧٧.

أولاً: دولة الأغالبة (١٨٤هـ/ ٢٩٦هـ)

مقر حكمها في المغرب الأدنى أو إفريقيا، وأمراؤها بنو الأغلب كانوا يحكمون باسم الخلافة العباسية وعاصمتهم الرسمية مدينة القيروان بينما كانت عاصمتهم الخاصة التي يقيمون فيها مدينة رقادة جنوبي القيروان بأربعة أميال. وكان الأغالبة يمتلكون قوة بحرية هائلة مكنتهم من غزو صقلية ومالطة والسواحل الإيطالية الجنوبية، وعلى الرغم من قوة الأغالبة في حوض البحر المتوسط إلا أن نفوذهم في داخل إفريقيا كان ضعيفاً مما ساعد على نمو حركة أبي عبيدالله الشيعي في الجبال من دولتهم، ويمكنه من الاستيلاء على بلادهم سنة ٢٩٦هـ.

ثانياً: الدولة الرستمية (١٤٤هـ/ ٢٩٦هـ)

وهي دولة أباضية خارجية - نسبة إلى عبدالله بن أباض المري - قامت في المغرب الأوسط (الجزائر) ومؤسسها اسمه عبدالرحمٰن بن رستم الذي يقال أنه من أصل فارسي، وكانت عاصمة هذه الدولة مدينة تاهرت قرب مكان تياريت الحديثة في مقاطعة وهران غربي الجزائر، وقد ازدهرت هذه المدينة على عهد الرستميين حتى صارت مجمعاً للتجار والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي واكتسبت شهرة عالمية لدرجة أنها سميت بالعراق الصغير تشبيهاً لها ببلاد العراق الصاخبة بمختلف الأجناس والملل والنحل، ولجأ عبدالرحمٰن بن رستم لتقوية دولته إلى عقد حلف مع دولة خارجية أُخرى قامت في سلجماسة في جنوب المغرب وهي دولة بني مدرار، وقد نتج عن هذا التحالف تلك المصاهرة التي تمت بزواج أروى بنت عبدالرحمٰن بالمنتصر بن إليسع بن مدرار ملك القبيلة (أي الجنوب) ولقد أنجب المنتصر من أروى ولداً سماه ميموناً حكم بعده[١].

ولما توفي عبدالرحمٰن بن رستم ١٦٨هـ/ ٨٧٤م ترك الأمير شورى في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبدالوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته،

---

(١) د. العبادي ص١٣٥.

وسلمت عليه بالخلافة، بينما اتخذ المخالفون جانباً معارضاً، ولهذا سموا بالنكار أو النكرية.

واستمرت الدولة الرستمية قائمة في المغرب الأوسط وعلى علاقة طيبة مع الأمويين في الأندلس إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة ١٩٦هـ، على أن الخوارج الأباضية في منطقة مزاب شرقي الجزائر حيث لعبوا دوراً هاماً ضد الاستعمار الفرنسي.

ثالثاً: دولة بني واسول (الدولة المدرارية) (١٤٠هـ/ ٣٤٩هـ):

دولة بني سول دولة خارجية صفرية، وعاصمتها مدينة سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى وقد اندرست الآن وتقوم مكانها الآن مدينة الريساني في منطقة تافيلالت [وما تزال هذه المنطقة من أهم مراكز النمور في المملكة المغربية]، ويلاحظ أن الصفرية والأباضية كانوا من أكثر المذاهب الخارجية انتشاراً في المغرب عقب الفتح العربي كما كانوا أكثر الخوارج تسامحاً واعتدالاً مع المخالفين لمذهبهم إذا ما قورنوا بفرق الأزارقة والحروريين في المشرق، فالصفرية والأباضية لا يرون إباحة دماء المسلمين ولا يرون جواز سبي النساء والذرية بل لا يرون قتال أحد سوى جيش السلطان. ومؤسسي الدولة المدرارية كان سودانياً أسود اللون يدعى عيسى بن يزيد المكناسي الذي بنى العاصمة سجلماسة وقسم مياهها وأمر بغرس النخيل فيها[(١)]. ولكن يبدو أن عيسى بن يزيد أخذ يستأثر بالأموال في أواخر أيامه مما أثار معارضة مواطنيه ـ فيروي العكبري أن زعيم المعارضة واسمه أبو الخطاب المصفري، قال لأصحابه في مجلس عيسى بن يزيد:

«السودان كلهم سراق، حتى هذا» وأشار إلى عيسى، فأخذوه وشدوه وثاقاً إلى جذع شجرة في الجبل بعد أن طلوه بالعسل وتركوه حتى قتله البعض والنحل والنمل، وولى بعد عيسى قاتله أبو الخطاب الصفري الذي تقرب إليه حداد من ربض قرطبة اسمه أبو القاسم بن واسول كان قد صنع

---

(١) أعمال الأعلام، لابن الخطيب، القسم الثالث/ ص١٤٦.

سلاحاً جديداً أعجب أبو الخطاب، فقربه إليه حتى صار هو المدبر لشؤون الدولة، فلما توفي أبو الخطاب، ولى مكانه أبو القاسم بن واسول الذي تلقب بالمدرار، ويعتبر أبو القاسم هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة بدليل أنها سميت باسمه فعرفت بالدولة المدرارية أو دولة بني واسول، وقد استمر حكمها في يد أبنائه من بعده إلى أن قضى عليها قائد الفاطميين ـ جوهر الصقلي ـ سنة ٣٤٩هـ.

❋ ❋ ❋

دولة الأدارسة (١٧٢ ـ ٣٦٣هـ)

قامت دولة الأدارسة قبل الحكم الفاطمي، وهي دولة علوية حسنية أسسها في المغرب الأقصى إدريس بن عبدالله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وبنى عاصمتها مدينة فاس التي أتمها ابنه إدريس الثاني، هذه الدولة العلوية ولو أنها لا تدين بالمذهب الإسماعيلي الفاطمي، إلاّ أنها مهدت السبيل من غير شك لداعي الفواطم وهيأت الأذهان لقبول دعوته لآل البيت، ولكن على الرغم من ذلك فإن هذه الدولة تعرضت لعداء الفاطميين وهجومهم مما اضطر الأدارسة إلى الانسحاب شمالاً إلى منطقة جبال الريف حيث تحصنوا هناك في بعض القلاع مثل البصرة وأصيلا وحجز النسر.

❋ ❋ ❋

حركة الداعي الفاطمي أبو عبدالله الشيعي الحربية

بدأ أبو عبدالله الشيعي جهاده الحربي بالنزول من جبال كتامة إلى سهول الأغالبة ومهاجمة حدودهم الغربية، وحاول أمير الأغالبة زيادة الله الثالث مقاومة هذا الهجوم فأرسل ثلاثة جيوش متوالية ولكنها هزمت كلها، وانتهى الأمر بفرار آخر أمراء الأغالبة إلى مصر ودخول عبدالله الشيعي مدينة رقادة ثم القيروان، وبهذا ينتهي حكم الأغالبة بإفريقيا.

وخلال انتصارات أبو عبدالله الشيعي الأخيرة كان قد أرسل وفداً من كتامة إلى الإمام الفاطمي عبيدالله المهدي يدعوه للقدوم إلى المغرب.

وكان الإمام الفاطمي في ذلك الوقت مختفياً ببلدة سُلمية من أعمال حمص عازماً على الرحيل إلى اليمن خوفاً من قرامطة الشام. فلما وصلته دعوة أبي عبيدالله الشيعي حول اتجاهه إلى المغرب.

وبدأ المهدي رحلته مخترقاً الشام وفلسطين ومصر ثم صحراء ليبيا متخفياً في زي التجار حتى لا يقع في أيدي العباسيين الذين كانوا يتعقبونه في كل مكان، وحينما وصل إلى إفريقيا وجد أن الأغالبة ما زالوا أصحاب البلاد وأن الداعي أبا عبدالله الشيعي ما زال في حرب معهم، فاضطر المهدي إلى مواصلة السير غرباً عبر الصحراء، وحينما وصل إلى المدينة سجلماسة بالمغرب الأقصى شك أميرها اليسع بن مدرار في أمره نتيجة لوشاية اليهود المقيمين هناك فقبض عليه وسجنه.

في ذلك الوقت كان أبو عبدالله الشيعي قد استولى على القيروان، فحينما علم بهذا الخبر أسرع بجيوشه إلى سلجماسة لتخليص سيده، وفي طريقه إلى هناك مرَّ ببلاد الدولة الرستمية فأخضعها واستولى على عاصمتها تاهرت سنة **٢٩٦هـ** ثم واصل سيره حتى بلغ مدينة سجلماسة فحاصرها وحاول أميرها اليسع بن مدرار مقاومة الجيوش الفاطمية ولكنه هزم وقتل، ودخل أبو عبدالله المدينة وأخرج الإمام عبيدالله المهدي من السجن وقال للناس وهو يبكي متأثراً: «هذا هو إمامكم» وبعد أن انتقم المهدي من يهود سجلماسة لوشايتهم به اتجه إلى مدينة رقادة العاصمة الخاصة للأغالبة، فاتخذها عاصمة له سنة **٢٩٧هـ** وكان أهلها قد جلوا عنها، ففرق المهدي دورها على رجال كتامة جند الدولة الجديدة، كذلك أقيمت الخطبة يوم الجمعة باسم الخليفة الجديد الذي تلقب بالمهدي أمير المؤمنين وضربت السكة باسمه كما أرسل عماله إلى جميع أنحاء البلاد بما في ذلك جزيرة صقلية، وبذلك ينتهي الدور التأسيسي الأول للدولة الفاطمية، على أن الدولة الفاطمية في ذلك كانت لا تزال مضطربة ناشئة وفي حاجة ماسة إلى استقرار

وتدعيم وكان على الخليفة نفسه أن يقوم بهذه الأعمال.

وأول عمل في سبيل قام به الخليفة المهدي (**٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ**) هو اغتيال الداعي أبي عبدالله الشيعي سنة **٢٩٨هـ** أي بعد عام واحد من نشأة الدولة الفاطمية.

والسبب في ذلك يرجع إلى أن الخليفة الفاطمي كان يريد الاستئثار بالسلطان الذي تأسس باسمه، بينما كان الداعي يحاول الاستمرار في إدارة شؤون الدولة، ويؤيد ذلك قوله للمهدي:

«لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم لأني عارف بعاداتهم، لكان ذلك أهيب لك في أعين الناس».

ولكن المهدي استمر في سياسة جمع السلطات في يده، وقد أثار هذا العمل غضب الداعي وأصحابه، فأخذوا يتآمرون على قتل المهدي ويؤلبون الناس ضدّه[1].

ويروي المقبريري أن أبا العباس شقيق الداعي أخذ يؤنب أخاه بقوله:

«ملكت أمراً فجلت بمن أزالك عنه»، ثم أخذه يساعد الناس لعصيان المهدي ويقول لهم: «إن هذا ليس بالذي كنّا نعتقد طاعته وندع إليه لأن المهدي يختم بالحجة، ويأتي بالآيات الباهرة».

وقد تأثر بعض الناس بقوله حتى أن شيخاً من كتامة دخل على المهدي وقال له: «إن كنت المهدي فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك»، فقتله المهدي في الحال، ثم علم المهدي من جواسيسه أن الداعي وأصحابه يتآمرون على قتله فصمم على التخلص منهم وأخذ في توزيع المتآمرين على الولايات المختلفة وأرسل سرّاً إلى عمال تلك الولايات بقتلهم بمجرد وصولهم، أما الداعي وأخوه أبو العباس فقد وضع لهما من قتلهما وهما في طريقهما إلى القصر الخلافي، ويقال أن الداعي قال للقاتل: «لا تفعل يا بني» فأجابه: «أن الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك».

---

(١) اتعاظ الحنفا، للمقريزي.

وكان لقتل الداعي وقع سيء في نفوس رجال كتامة وأصحاب الداعي فقاموا بثورة ضد المهدي، وزعموا أن أبا عبدالله لم يمت، وأقاموا طفلاً وقالوا هذا هو المهدي، فخرج إليهم الخليفة الفاطمي وحاربهم وقتل الصبي، وخضعت كتامة من جديد(1).

أما العمل الثاني الذي قام به الخليفة المهدي لتدعيم أركان الدولة الفاطمية فهو بناء العاصمة المهدية، والسبب في ذلك يرجع إلى شعور الفاطميين بالحاجة إلى مكان حصين يحتمون فيه إذا ما تغيرت عليهم نفوس رعاياهم خصوصاً وأن مدينة رقادة كانت تقع وسط سهل فسيح لا يفي بالأغراض الدفاعية اللازمة، وبنى المهدي عاصمته الجديدة على شاطىء البحر مباشرة بالقرب من تونس وذلك لأنه رأى أن نفوذ الفاطميين من داخل البلاد لا يزال ضعيفاً وأنه لا بد من أن يعتمد على أسطوله القوي لحماية العاصمة وتموينها من جهة البحر إبان الأزمات(2).

ويصف المؤرخون المهدية: بأنها كانت عبارة عن جزيرة محاطة بالبحر من معظم نواحيها وأن الخليفة المهدي أشرف بنفسه على بنائها وأنه أنشأ على ساحلها داراً كبيرة للصناعة أي لصناعة السفن نفرت في الجبل وتسع مائة سفينة حربية كبيرة، هذا خلاف صهاريج المياه ومخازن الأقوات والمسجد والقصر والدواوين ثم بنى المهدي حولها أسواراً محكمة ذات أبواب ضخمة، ويقال أنّه لما فرغ من بنائها قال: «آمنت اليوم على الفاطميات» وهذا دليل على حصانتها(3).

وكان قيام الدولة الفاطمية معاصراً للخلافة الأموية السنية في الأندلس على عهد عبدالرحمٰن الناصر.

وقد كان قيام خلافتين متجاورتين، وعلى أسس مذهبية مختلفة مدعاة أو سبباً في حدوث صدام بينهما، وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة لخلافتي

---

(١) اتعاظ الحنفا ص٩٣ وما بعدها.

(٢) موسوعة تاريخ العرب ج٣، الفاطميون، عبدالمنعم الهاشمي.

(٣) ابن عذارى ج١، ص٢٣٤.

المغرب والأندلس، ولم يكن الصراع الذي نشأ بين الخلافتين صراعاً بين دولتين وإنما صراعاً بين مذهبين هما السنة والشيعة.

ويلاحظ أن المذاهب الدينية في ذلك الوقت كانت تقوم مقام المذاهب السياسية الآن وهذا هو سبب الاهتمام بها والتعصب لها، إذ كان في استطاعة كل حاكم أن يحقق باسم خلافته الروحية أن يحقق المكاسب المادية والسياسية التي ينشدها. فالفاطميون منذ قيام دولتهم بالمغرب فكروا في غزو الأندلس ومهدوا لذلك بالدعاية الشيعية من جهة، وبالجاسوسية من جهة أخرى، لمعرفة أحوال تلك البلاد ومواطن الضعف والقوة فيها، وكان يقوم بتلك المهمة دعاتهم وجواسيسهم الذين كانوا يخفون أهدافهم الحقيقية بستار من المصالح المشروعة كالتجارة أو العلم أو السياحة الصوفية، وكان هؤلاء الرجال في العادة على قسط كبير من المهارة والخبرة بالطبيعة البشرية وما فيها من ضعف كي يتمكنوا من إحراز النجاح المطلوب.

ومن بين الجواسيس الذين أرسلهم الفاطميون إلى الأندلس، نذكر الرحالة أبا القاسم بن حوقل النصيبي (ت٣٦٧/ ٩٧٧م) الذي يبدو أنه تستر بالتجارة عند دخوله الأندلس، إذ يسميه صاحب معجم البلدان بالتاجر الموصلي[١].

وقد اهتم ابن حوقل في تقريره الذي رفعه إلى الفاطميين بإظهار خيرات الأندلس الزراعية والمعدنية مع الإشارة إلى ضعف أهلها وعجزهم عن الدفاع عنها، ليحمل هؤلاء المعز لدين الله الفاطمي على غزو تلك البلاد، ومثال ذلك قوله: وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها، وإن شجعت أنفسهم، ومرنوا بالقتال، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة، وما رأيت ولا رأى غيري بها إنساناً قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الركابين، ولا يستطيعون ذلك، ولا بلغني عن أحد منهم لخوفهم من السقوط وبقاء الرجل

---

(١) ياقوت، معجم البلدان جـ١، ص٣٤٨.

في الركاب على قولهم، ومن أعجب هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة، ولقاء الرجال، ومراس الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها من نفسها ومقدار جبايتها، ومواقع نعمها ولذاتها.

وقد كان ابن حوقل متحاملاً في كلامه على الأندلسيين، ومبالغاً في اتهامه لهم بالضعف، ولهذا لم يظفر مشروعه من جانب الحكومة الفاطمية[١].

وكان المذهب السني في الأندلس متأصلاً في نفوس أهلها، ولذلك لم يجتذب الدعاة الفاطميون أنصار لهم في الأندلس، ورغم ذلك فقد أفلح الفاطميون في ضم بعض الشخصيات الأندلسية إلى صفهم، ومن أمثلة ذلك الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي ثار بجنوب إسبانيا ضد الحكم الأندلسي أواخر القرن الثالث الهجري، واعترف بزعامة الخليفة عبيدالله المهدي الفاطمي (**٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ**) ودعا له في مساجد بلاده، وقد أمده المهدي بالذخيرة والأسلحة.

كما أرسل له داعيين أقاما عنده، وأخذا يحرضانه على التمسك بطاعة الفاطميين، وإقامة دعوتهم، غير أنه يبدو أن ابن حفصون لم يكن مخلصاً للدعوة الفاطمية، وإنما اتخذها وسيلة ليكايد بها الأمويين في قرطبة بدليل أنه في أواخر أيامه، استغنى عن الداعيين، وأعادهما بهدية إلى الخليفة الفاطمي[٢].

وهناك أيضاً القائد علي بن حمدون الجذامي، المعروف بابن الأندلسي الذي ورد إلى المغرب من الأندلس، واتصل المهدي بابنه محمد القائم (**٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ**) وقد عهد إليه هذا الأخير بناء مدينة المسيلة، وهي التي

---

(١) انظر نفح الطيب للمقري جـ١، ص١٩٧.

(٢) البيان المغرب، لابن عذاري جـ٢، ص٢٤٢.

سميت بعد ذلك بالمحمدية، ثم عقد له على ولاية الزاب في جنوب المغرب الأوسط.

ولما قامت فتنة أبي يزيد الخارجي في جبال أوراس، كتب الخليفة القائم إلى علي بن حمدون يطلب منه المدد بقبائل البربر في الزاب، فكانت لابن حمدون جولات مع أبي يزيد تجلى فيها جَلَده وقوة نفسه إلى أن سقط من بعض الشواهق فمات سنة **٣٣٤هـ**، وعقد الخليفة إسماعيل المنصور **(٣٣٤ ـ ٣٤١هـ)** لجعفر بن علي بن حمدون على المسيلة والزاب فصارت له هناك دولة مزدهرة، وقصده العلماء والشعراء، مثل الشاعر الغرناطي محمد بن هانيء الأندلسي الذي مدحه بقوله:

المدنفان من البرية كلها ... جسمي وطرف بابلي أحور
والمشرقات النيرات ثلاثة ... الشمس والقمر المنير وجعفر[١]

وهذا الشاعر، محمد بن هانيء الأندلسي **(ت٣٦٢هـ/ ٩٧٢م)** يعتبر أيضاً من الشخصيات الأندلسية الهامة التي فرت من الأندلس إلى المغرب حيث التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي **(٣٤١ ـ ٣٦٥هـ)** ويعتبر شعره في مدح هذا الخليفة، وثيقة هامة لنظريات العقيدة الإسماعيلية مثل قوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وقد كانت الدولة الفاطمية تمتلك قوة بحرية منظمة في المغرب وصقلية مما زاد من خطورة هذه الدولة على الخلافة الأموية.

وقد ورثت الدولة الفاطمية هذه القوة البحرية عن الأغالبة، ثم عملت على تقويتها وتنميتها منذ قيام دولتها، وبنى الخليفة المهدي على الساحل التونسي بين سوسة وصفاقس مدينة المهدية التي أشاد المؤرخون بدار صنعتها التي نقرت في الجبل، وبقوة أسوارها وضخامة أبوابها وكثرة مراجلها[٢].

---

(١) وفيات الأعيان جـ١، ص٣١١.
(٢) اتعاظ الحنفا، للمقريزي ص٩٣، وانظر الكامل لابن الأثير جـ١، ص٢٠. ٢٤.

ولقد وصف علي بن محمد الأيادي التونسي، الأسطول الفاطمي على عهد الخليفة القائم فقال:

أعجب بأسطول الإمام محمد	وبحسنه وزمانه المستغرب
لبست به الأمواج أحسن منظر	يبدو لعين الناظر المتعجب
شرعوا جوانبها مجاذف أتعبت	شادي الرياح لها ولما تتعجب
والبحر يجمع بينها فكأنّه	ليل يقرب عقرباً من عقرب
وعل جوانبها أسود خلافة	تختال في عدد السلاح المذهب[1]

ولم يقف عبدالرحمٰن الناصر مكتوف الأيدي أمام طموحات الفاطميين وأطماعهم في المغرب، فقد كان هو الآخر له عيون ووسطاء منبثون في أنحاء المغرب، وكان هؤلاء الجواسيس يوافون حكوماتهم بما يهمها من أخبار هذه البلاد، وساعد هؤلاء في مهمتهم وجود جاليات أندلسية على طول الساحل المغربي في طنجة، ووهران، وتنس، ودونه (وهي مدينة عنابة الحالية في شرقي الجزائر)، وبجاية، وموسى الدجاج، وكانت هذه الجاليات، قوية التمسك بالعقيدة السنية، شديدة الكراهة للمذهب الشيعي[2].

ومن مواجهة هذا كله قرر عبدالرحمٰن الناصر أن يقاوم النفوذ الفاطمي في المغرب والذي يهدد بلاد الأندلس فاتخذ خطوات هامة في سبيل تحقيق ذلك:

١ ـ **إعلان نفسه خليفة:** وقد تحدثنا عن ذلك من قبل، فقد تلقب أمير المؤمنين سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٩م، وكان الدافع الأساسي لهذه العلاقة السنية الجديدة، هو مقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية في المغرب، وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعدياً على حق من حقوق أئمتهم، ولهذا أمروا بقتاله واعتبروه فرضاً واستحلوا دمه ـ وذلك يتبين من نص خطاب وجهه المعز

---

(١) نفح الطيب جـ٥، ص١٩٩.

(٢) ابن عذارى جـ١، ص١٨٤.

الفاطمي إلى الأندلس جاء فيه: وهو يزعم أنّه أمير المؤمنين، كما تسمى دون من سلف من آبائه، وإمام الأئمة بدعواه وانتحاله، من انتحل ذلك دوننا وادعاه، مع ما بين أسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه، من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الإسلام والجاهلية»[١].

٢ ـ الاهتمام بالأسطول والجيش وتحصين الثغور:

اهتم عبدالرحمٰن الناصر منذ بداية حكمه بإعداد أسطول بحري كامل الإعداد والتنسيق وبذل في سبيل ذلك مجهوداً جباراً لدرجة أن عمال دور الصناعة، لم يجدوا وقتاً للراحة، وبذلك استطاع أن يشحن موانيه بالسفن والعتاد الحربي والجنود، ولقد أصدر الناصر أوامره إلى الأسطول بفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق، ومنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر الأندلسي عمر بن حفصون الذي كان قد اعترف بخلافة الفاطميين، وفي ذلك يقول ابن عذارى: وفي سنة **٣٠١هـ**، ألفيت للمشرك عمر بن حفصون مراكب في البحر كانت تميره من العدوة المغربية فأحرق جميعها[٢].

وقد عمل الناصر على تحصين سواحله وثغوره ولاسيما في المنطقة الجنوبية التي كانت عرضة لأي غزو مفاجىء يقوم به الفاطميون من المغرب على بلاده، ويروى أن هذا الخليفة ذهب بنفسه إلى هذه المنطقة **٣٠٢هـ/ ٩١٤م** حيث أشرف على الأعمال الدفاعية في طريف والجزيرة الخضراء ولا يزال القصر الذي بناه في طريف باقية آثاره إلى اليوم.

أما الجزيرة الخضراء فيروي الحميري أن الناصر بنى فيها صناعة للأساطيل، أتقن بناؤها، وعلا أسوارها، لأن مرساها هو أيسر المراسي وأقربها من بر العدوة، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة[٣].

---

(١) المجالس والمسايرات جـ١، ص٢٣٠ ـ ٢٣٤.
(٢) البيان المغرب جـ٢، ص٢٤٧.
(٣) الروض المعطار، للحميري ص٧٣، ٧٤.

ونظراً لأهمية موقع هذا الثغر وخطورته، فقد حرص الأمويون على جعله هو وما حوله من ثغور، في يد أمير من الأسرة الأموية[1].

٢ ـ احتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق:

استولى عبدالرحمٰن الناصر على بعض ثغور الساحل المغربي المواجهة لساحل بلاده ـ ففي سنة **٣١٤هـ/ ٩٢٧م** استولى الناصر على مدينة مليلة، وبنى سورها، وجعلها معقلاً للزعيم المكناس موسى بن أبي العافية حاكم هذه المناطق الشمالية الذي انضم إليه وخلع طاعة الفاطميين، وأرسل بعض أسراهم إلى قرطبة لعرضهم في شوارعها وفي ذلك يقول المؤرخ المعاصر آنذاك وهو أحمد أبو موسى الرازي:

والملك الناصر لدين الله	فيما يحوط الدين غير ساه
بنى لموسى عدة مدينة	صنيعة شاهقة حصينة
ذلت لها تاهرت والأفارقة	ولم يطف بنيانها العمالقة

وفي ربيع الأول سنة **٣١٩هـ/ ٩٣١م**[2] احتل عبدالرحمٰن الناصر مدينة سبتة على يد قائده فرج بن عفير، وعمل على تحصينها لأهمية موقعها، وقد وصف ذلك ابن عذارى بقوله: وشكها بالرجال، وأتقنها بالبنيان وبنى سورها بالكذان، وألزم فيها من رضيه من قواده وأجناده وصارت مفتاحاً للمغرب والعدوة من الأندلس، وباباً إليها كما هي الجزيرة، وطريق مفتاح الأندلس من العدوة المغربية وقامت الخطبة فيها باسم أمير المؤمنين لثلاث خلون لربيع الأول من العام المؤرخ[3].

وقد كان يعيش بسبتة جالية أندلسية كبيرة من أهالي مدينة قلسانة هاجروا إليها واستوطنوها أيام المحل (الجدب) الذي حلّ بالأندلس (**١٣١هـ**

---

(١) نفح الطيب جـ١، ص١٥٧.

(٢) المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، للبكري ص٨٩.

(٣) ابن عذارى ص٢٠٧.

ـ ١٣٦هـ) وأنهم كانوا يؤدون الطاعة إلى قريش العدوة بين الحسنيين (أي الأدارسة) حتى افتتحها عبدالرحمٰن الناصر[(١)].

وكان من الطبيعي بعد احتلال عبدالرحمٰن لسبتة، أن يحتل الناصر ثغر طنجة المجاور لها وقد أشار ابن عذارى في البيان المغرب إلى التحصينات التي أقامها عاهل الأندلس في هذه المدينة[(٢)].

وقد حاول عبدالرحمٰن الناصر في سنة **٣٢٠هـ/ ٩٢٢م** احتلال موقع هام بالقرب من سواحل تلمسان في المغرب الأوسط، وهو جزيرة أرشتول التي تسمى اليوم رشجون أمام مصب نهر تافنا بالجزائر، وهي جزيرة عالية منيعة، تحصن بها أحد أمراء الأدارسة، واسمه الحسن بن عيسى بن أبي العيش، فحاصرها الأسطول الأندلسي مدة طويلة حتى كاد أهلها يهلكون من العطش بعد أن فرغت جبابهم من المياه، ثم تداركهم الله بغيث وابل روى ظماهم عندئذ اضطر الأسطول الأندلسي أن ينصرف إليهم عائداً إلى المرية[(٣)] وعلى الرغم من فضل عبدالرحمٰن الناصر في احتلال هذه القاعدة الجزائرية، إلاّ أنه استطاع عن طريق القواعد الأخرى في المغرب الأقصى مثل سبتة وطنجة ومليلة، أن يسيطر على الملاحة في مضيق جبل طارق، وأن يتدخل في سياسة المغرب لإثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمي.

٣ ـ التقرب إلى ملوك ورؤساء القبائل في المغرب:

اجتهد عبدالرحمٰن الناصر في التقرب إلى رؤساء الدويلات التي كانت قائمة وقتذاك في شمال المغرب الأقصى، مثل دولة الأدارسة التي كان نفوذها بعد الغزو الفاطمي قد انحصر في المناطق الجبلية الشمالية بنواحي البصرة، وأصيلا، وقلعة النسر أو حجر النسر بين قبائل غمارة، مثل إمارة

(١) البكري ص١٠٤.
(٢) ابن عذارى جـ١، ص٢١٦.
(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، للبكري ص٧٧.

نكور أو بني صالح، وهي إمارة عربية سنية مالكية بمنطقة الريف، وكان يحكمها في ذلك الوقت الأمير صالح بن سعيد وتنسب هذه الأسرة إلى قائد عربي يمني من قواد عقبة بن نافع اسمه صالح بن منصور الحميري، كان قد استقر في هذه المنطقة ودفن بها، وصار قبره هناك يعرف بقبر العبد الصالح، ثم خلفه أبناؤه من بعده في حكم هذه المنطقة، وقد لعبت إمارة نكور دوراً كبيراً في نشر الإسلام واللغة العربية بين أهل الريف من بربر غمارة وصنهاجة، كما أنها في الوقت نفسه قاومت تيار الخوارج والشيعة ولقيت من وراء ذلك عناءً كبيراً خفف من حدّته تأييد الأمويين في الأندلس لها[١].

وقد تخطى الناصر محالفة هذه الدويلات إلى ما وراءها من قبائل البربر ولاسيما قبيلة زناتة التي عمل على تحريضها ودفعها إلى قتال صنهاجة حليفة الفاطميين.

ويقول أحد المؤرخين[٢]: وتخطاهم إلى من سكن خلفهم زعماء قبائل البربر، يستألفهم، ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم، ممداً لمن عجز برجاله، مقوياً لمن ضعف بما له، متعهد بوجوه رسله وخواصه، إلى أن تميز أكثر بوادي زناته في ضربه، وارتسموا بطاعته، ولاسيما عند امتياز أضدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بني عبيدالله، وجريت بأسباب ذلك بين الطائفتين من أولياء الدعوتين حروب يطول القول فيها، ووقائع يبعد تقصيها، وهلك باختلافها من ملوك الدعوتين، وزعماء الطائفتين جماعة كبيرة[٣].

٤ ـ عبدالرحمٰن وثورة أبي يزيد الخارجي:

كان الناصر يبحث عن معارضين ومعادين للدولة الفاطمية وقد وجد ضالته في ثورة الخوارج الخطيرة التي قامت في تونس والجزائر بزعامة أبي

---

(١) البكري ص٩٠ وما بعدها.

(٢) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص٤.

(٣) المصدر السابق.

يزيد مخلد بين كيدا والزناتي الخارجي ضد الدولة الفاطمية، وقد شغلت هذه الثورة عهد الخليفة محمد القائم، وجزءاً من عهد ولده إسماعيل المنصور[١] (٣٣٤/ ٣٤١هـ) ولم يتردد خليفة قرطبة في تأييدها وإمدادها بالمساعدات المالية والعسكرية، وفي مقابل ذلك اعترف أبو يزيد الخارجي بالسيادة الأموية ودعا للخليفة الناصر في البلاد التي خضعت له، فيروي ابن عذاري أنه في ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م، أرسل أبو يزيد إلى الناصر وفداً يخبره بتغلبه على القيروان ورقادة وما جاورهما، وهزيمته لجند القائد الشيعي، ويظهر له خضوعه واعترافه بولايته، وفي السنة التالية ٣٣٤هـ) أرسل أبو يزيد إلى الناصر سفارة ثانية من علماء القيروان برئاسة تميم بن المحدث المشهور أبي العرب التميمي، وفي السنة التالية (٣٣٥هـ) أرسل رسالة ثالثة برئاسة ولده أيوب، فأكرمه الناصر، وأنزله في قصر الرصافة وأمده بمبلغ كبير من المال لتعزيز مركز والده، وعلى الرغم من أن هذه الثورة قد شكلت خطراً كبيراً على الدولة الفاطمية إلا أنها انتهت أخيراً بالفشل وبقتل صاحبهما سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٨م[٢] أما المصادر الإسماعيلية فإنها تؤكد وجود اتفاق حربي مشترك بين الأمويين والبيزنطيين على حصار الفاطميين: هؤلاء من الغرب، وأولئك من الشرق، وفي ذلك يقول القاضي النعمان:

«وكتب (الناصر) إلى طاغية الروم يسأله النصرة، وأهدى إليه هدايا وأرسل إليه رسلاً من قبله فأجابه إلى ذلك، وجاءت أساطيل الروم من القسطنطنية، ومراكب بني أمية من الأندلس»[٣].

كذلك حرص الناصر على توطيد علاقاته مع الإخشيديين ملوك مصر، فأرسل إليهم عشرة آلاف دينار لتوزيعها على علماء المذهب المالكي لمحاربة الدعاية الشيعية هناك. وجدير بالذكر أن رئيس المدرسة المالكية في مصر في ذلك الوقت كان عالماً أندلسياً اسمه أبو إسحٰق محمد بن القاسم ويعرف

---

(١) ابن عذارى جـ٢، ص٣١٨ وما بعدها.

(٢) ابن عذارى جـ٢، ص٣١٩.

(٣) المعز لدين الله ص٤٠، حسن إبراهيم وطه شرف.

بابن القرطبي، وكان هذا الفقيه يذم الفاطميين ويسبهم ويدعو على نفسه بالموت قبل مجيء دولتهم وقد توفي فعلاً في سنة **٣٥٥هـ** أي قبل الغزو الفاطمي لمصر بنحو ثلاث سنوات[١]. وقد تطورت هذه الحرب الباردة إلى اشتباك مسلح بينهما وتحدث ابن الأثير عن بداية هذا الاشتباك بقوله:

«وفي سنة **٣٤٤هـ/ ٩٥٥م** أنشأ عبدالرحمٰن الناصر الأموي، صاحب الأندلس مركباً كبيراً لم يعمله مثله، وسير فيه إلى بلاد المشرق فلقي في البحر مركباً فيه رسول من صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمي فقطع عليه أهل المركب الأندلسي، وأخذوا ما فيه، وأخذوا الكتب التي إلى المعز، وبلغ ذلك المعز فعمر أسطولاً واستعمل عليه الحسن بن علي صاحب صقلية، وسيره إلى الأندلس فوصلوا إلى المرية فدخلوا المرسى وأحرقوا جميع ما فيه من المراكب، وأخذوا ذلك المركب، وكان قد عاد من الإسكندرية، وفيه أمتعة لعبدالرحمٰن وجوار ومغنيات وصعد في الأسطول البر فقتلوا أو نهبوا، ورجعوا سالمين إلى المهدية.

وكان السبب الأساس للاشتباك المسلح بين الدولتين، هو تلك الرسائل التي كان قد بعث بها وإلى الفاطميين بصقلية إلى الخليفة المعز بالمهدية.

وقد ذكر أحد المؤرخين: أن تكون هذه الرسائل تتعلق بمشروع هجوم فاطمي على الأندلس، وأن قائد السفينة الأندلسية كان على علم بخطورتها ولهذا لم يتردد في الاستيلاء عليها»[٢].

ولقد ردّ على الناصر على هذا الاعتداء، أن أمر عماله بإطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الأندلس، كما أقر مملوكه غالب بن عبدالرحمٰن الناصري بالإبحار فوراً والإغارة على سواحل الفاطميين في إفريقيا[٣].

---

(١) الديباج المذهب، لابن فرحون ص٢٤٨.

(٢) دوزي، تاريخ المسلمين في الأندلس، ط مصر هدية الكتاب.

(٣) البيان المغرب، لابن عذارى ج٢، ص٣٣٠.

ولكن القائد غالب لم يوفق كثيراً في هذه الغارة، ويقول ابن الأثير في هذا الموضوع: «فنزلوا ونهبوا، ثم قصدتهم عساكر المعز، فعادوا إلى مراكبهم، ورجعوا إلى الأندلس وقد قتلوا وقتل منهم»[1].

وفي السنة التالية (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) فهاجم بأسطوله المكون من سبعين سفينة، مدينة الخرز، وكانت قاعدة بحرية تبنى فيها المراكب الحربية[2] فأضرم النار فيها، كما خرب منطقة سوسة وطبرقة شرقي بنزرت.

وقد ذكر ابن عذارى وصفاً لهذا فقال:

«وفي سنة **٣٤٧هـ**، في أول المحرم، أمر الناصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلى بالخروج غازياً في الأسطول إلى بلد الشيعي معد بن إسماعيل (المعز) صاحب إفريقيا، فبرز ابن يعلى إلى محلة الربض لغزاته هذه، يوم الخميس لثمان خلون منه، وكان بروزه فخماً خرج إليه من النظارة من أهل قرطبة رجالهم ونساؤهم وولدانهم، خلق لا يحصيهم إلاّ خالقهم، فانتشروا بأكناف الربض على عادتهم، فأخذ السفلة منهم والغوغاء، يتقاذفون بالحجارة حاكين صفي القتال، فدخل في عرضهم قوم من الطنجيين من جند السلطان، حشروا الضراب حتى حمى وطيه، وقد تكنف صيفهم من النظارة بالرجال والنساء خلق عظيم فلم يك إلا ساعة، ودارت بينهم جولة ظهر فيها أحد صفيهم، فمالوا على مغلوبهم وانبسطوا عليهم فامتد الطنجيون بغالب شرهم وجهلهم إلى نهب مغلوبهم من الرجال، وتخطوهم إلى من حولهم من النظارة، وانبسطوا على النساء فسلبوهن ثيابهن... وشرح ذلك يطول»[3]. وقد استمرت الغارات والاشتباكات البحرية متبادلة بين الطرفين دون توقف تقريباً فيما تلا ذلك من سنين، كما استمر الأمويون في إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق قواعدهم العسكرية وجالياتهم الأندلسية على الساحل الغربي.

---

(١) المصدر السابق ص٣١٢.

(٢) البكري ص٥٥.

(٣) البيان المغرب جـ٢، ص٢٣١.

وقد اضطر الخليفة المعز الفاطمي في سنة ٢٤٧هـ/ ٩٥٨م أن يبعث قائده جوهر الصقلي أو الصقلبي إلى المغرب الأقصى لإخضاع البربر لسلطان الفاطميين والقضاء على النفوذ الأموي بالمغرب ونجح جوهر في إخضاع البربر[١].

ولكن جوهر الصقلي فشل فشلاً ذريعاً ولم يستطع القضاء على القواعد الأموية السنية الساحلية، وهذه القواعد حرص الأمويون حرصاً شديداً على التمسك بها والمحافظة عليها والدفاع عنها، فظلت شوكة في جنب الدولة الفاطمية.

* * *

الصراع مع إسبانيا النصرانية

كانت بلاد إسبانيا النصرانية أثناء قيام الفتن والثورات والاضطرابات في الأندلس تعد نفسها إعداداً قوياً، ففيما انشغلت حكومة قرطبة الإسلامية بأمر الثورة في النواحي، كان نصارى إسبانيا يسيرون قدماً في سبيل القوة والتوطد فتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس، ومساعدة الثوار، والعبث في أراضي المسلمين.

وكانت هذه البلاد عندئذ تنقسم إلى إمارتين متحالفتين، هما مملكة ليون (أو مملكة جليقية) ومملكة ناڤار (بلاد البشكنس) وكانت ليون وهي الواقعة من الشمال الغربي بين المحيط ونهر دويره أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة، وكانت بذلك تتولى قيادة الإسبانيين النصارى، في الصراع القائم بين النصارى الإسبانيين وإسبانيا المسلمة.

وقد خلت قواعد الأندلس الشمالية التي تتاخم إلى حدود مملكة ليون تبدو شبه خالية من المسلمين منذ أواخر القرن الثامن، وذلك لكثرة اعتداء النصارى، وتوالي القحط في تلك الأماكن. فتركوا استرمة وسمورة وشلمنقة

---

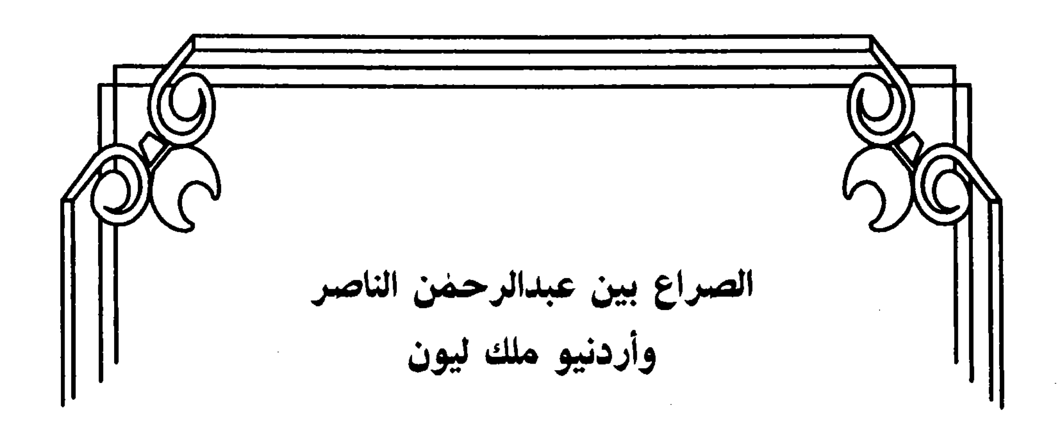
(١) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص٦.

وشقوبية وميراندة وهاجروا إلى الجنوب وجاء ملك ليون «ألفونسو الثالث» أواخر القرن التاسع، فعاث في تلك المنطقة فساداً، وفتك بمن فيها من المسلمين، ثم ارتدَّ إلى جبالة، ولبثت هذه المنطقة قفراً خالية تقريباً، يتبادلها المسلمون والنصارى من وقت إلى آخر، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء، وانتهز ألفونسو الثالث تلك الفرصة فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة، واختط هنالك عدّة قلاع منيعة، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيف، وقتل النساء والأطفال والشيوخ، ونهب الأموال والمتاع، وجرى ولده غرسية على هذه السياسة الدموية الغاشمة، وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ومواردها الضئيلة، وفقرها الشديد، إلى وديان الأندلس النضرة، وإلى نعمائها الوافرة، وحضارتها الزاهرة، بعين المقت والحسد، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة، وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها من هذا العدوان الغاشم الذي أخذ في التعاظم شيئاً فشيء ويوماً بعد يوم ضد وجود المسلمين[1].

وقد شعرت حكومة قرطبة بخطورة الموقف، رغم انشغالها بالثوار وكانت ترى أن العمل في اتجاهين قد يكون أمراً صعباً وخطراً على وجود المسلمين في الأندلس، لكنها استشعرت الخطر الأكبر من جهة النصارى.



(١) دولة الإسلام، د. عنان ع١ ق٢ ص٣٩١، ٣٩٢، ط الخانجي مصر الرابعة ١٩٩٧.



الصراع بين عبدالرحمٰن الناصر وأردنيو ملك ليون

أولاً: مهاجمة أردنيو لكل من يابرة وماروة وبطليوس

كان عبدالرحمٰن الناصر حيثما تولى الخلافة في الأندلس، يفضل إغضاء النظر عن محاربة النصارى، لأنه كما ذكرنا كان يكرس جهوده وقواه في اتجاه واحد وهو قمع الثورة، وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة، وإذكاء نار الفتنة والفوضى في الأندلس ـ فكانت الاعتداءات التالية:

١ ـ العدوان على يابُرة في القرب

ما إن تولى عبدالرحمٰن الملك، حتى بادر أردنيو الثاني ـ ملك ليون ـ بالإغارة على الأراضي الإسلامية، واتجه أولاً نحو منطقة الغرب لنأيها وضعف وسائل الدفاع عنها، وقصد إلى مدينة يابُرة، الواقعة غربي بطليوس.

وقد نزل أردنيو على يابرة في يوم ١٣ من المحرم سنة ٣٠١هـ/ أغسطس ٩١٣م[1] وأنه كان في جيش يقدر بثلاثين ألفاً من الخيل والرجل والرماة، وكان على يابرة يومئذ عاملها مروان بن عبدالملك فبذل جهده لمدافعة الغزاة، وطوق أردنيو المدينة من سائر نواحيها، وهاجمتها قواته من

(١) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٠.

كل صوب، ودافع المسلمون عن مدينتهم من فوق الأسوار، حتى أُرغموا بفعل السهام على النزول عنها وتسلق النصارى الأسوار، ودخلوا المدينة واضطرمت بينهم وبين المسلمين داخلها معارك عنيفة، وفنى المسلمون شيئاً فشيئاً حتى قتلوا جميعاً، ولم تنج منهم سوى مجموعة قليلة، فرت تحت جنح الظلام إلى مدينة باجة. وسبى النصارى سائر النساء والذرية، وقتل مروان بن عبدالملك عامل المدينة مدافعاً عنهم، وبلغ السبي أكثر من أربعة آلاف من النساء والولدان، وترك أردنيو المدينة خراباً، بعد أن اقتحمها أردنيو وأجرى فيها مذبحة مروعة، وعاد إلى من قوامة إلى جليقية حاملاً عدداً من الأسرى بلغ أربعة آلاف كما ذكرنا[1]. والواقع أن سياسة أردنيو الثاني كانت تستهدف آنذاك طرد المسلمين من أراضيهم وتخريبها وتدمير مقومات الحياة فيها، وبخاصة أن النصارى كانوا عاجزين عن تزويد منطقة كهذه بالطاقات البشرية التي تؤمّن استمرار الدفاع عنها في هذا المحيط المعادي، لكن هذه السياسة لم تنجح، فما لبث يابرة أن استعادت عافيتها، وعمِّرت بالسكان بعد ذلك[2].

٢ ـ العدوان على ماردة وبطليوس

تركت عملية اجتياح يابرة وتخريبها أثراً مروعاً ومفزعاً في سائر قواعد الغرب، فأخذ أهلها في إصلاح أسوارهم، وقام أهل بطليوس بالأخص في ذلك بمجهود ضخم، ودعموا أسوارهم، وزادوا في عرضها وارتفاعها، بقيادة عاملهم عبدالله بن محمد الجليقي[3].

وفي سنة **٣٠٣هـ/ ٩١٥م**، سار أردنيو في قواته مرة أخرى إلى منطقة الغرب في جيش تقدره الرواية الإسلامية بستين ألفاً، فعبر نهر التاجه، واشترك في إرشاده اثنان من الأدلاء المسلمين، من بربر مصمودة من

---

(١) تاريخ إسبانيا الإسلامية ـ ليفي بروفنسال ط مصر، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠، ص٣٤١.

(٢) ابن خلدون جـ٤، ص١٤١.

(٣) المقتبس لابن حيان.

البرانس، ولكنهما كانا يضمران عكس ما طلب إليهما، واتجه أردنيو جنوباً صوب حصن مارلين، وقاده الدليلان المسلمان من طريق صعبة وعرة، فلم يخرج منها إلاّ وقد نهك جيشه، فأمر بالدليلين فأعدما، وسار حتى وصل إلى الحصن، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم، ثم سار إلى قلعة الحنش (الآنية) الواقعة جنوبي ماردة، وكان يسكنها يومئذ برانس كتمامة، وكانوا في عدد وافر وعلى أتم استعداد للمقاومة، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد؛ فهاجم النصارى الحصن، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد الدفاع، ولكنهم هزموا في النهاية وقتل معظمهم، وقتل ابن راشد فيمن قتل، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كل من وجدوه وسبوا النساء والذرية، وهدموا الحصن، ثم سار أردنيو في اليوم التالي إلى ماردة، ولكنه وقف أمامها ذاهلاً من حصانتها، واعتزم الكف عن قتالها، وبعث إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولاً يستلطفه، وأهدوا إليه فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه وعدّته، فقبله وأعجب به، وتركهم ورحل عنهم، ولكنه عاث حين قفوله في تلك المنطقة، وقتل وسبى كثيراً من سكانها، واستولى على بعض قلاعها، ثم قصد إلى مدينة بطليوس، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والحلي، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبي دون أن يعترض سبيلهم معترض[1].

وبقيت يابرة خراباً نحو عام، حتى بعث عبدالله بن محمد الجليقي، صاحب بطليوس حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسرنباش، ومن معه من قومه الشاردين عن الجماعة إلى مدينة يابرة، فنزلها مسعود بأهله وولده وصحبه ومن معهم، وكان منهم كثير ممن لجأ من قبل من أهل يابرة إلى باجة واكشونية، وابتنى لهم الجليقي أسوار المدينة، وأمدهم بالأطعمة والدواب والكسي، وعلى أثر ذلك قصد الناس إلى يابرة فاستوطنوها، وعمرت بسكانها مرة أخرى[2].

(١) المقتبس لابن حيان، مصدر سابق.
(٢) المصدر السابق.

ورغم أن هذه المنطقة، منطقة يابرة، كانت من المناطق الثائرة على عبدالرحمٰن الناصر وحكومته في قرطبة، إلاّ أنّه ـ أي عبدالرحمٰن ـ كان بعيد النظر، فلم يتساهل أمام عدوان يقع في صميم خلافته وأراضي المسلمين، وكذلك رأى أن يستميل قلوب هؤلاء الثوار، بإنجادهم والانتقام لهم، وأن يرد عدوان النصارى بمثله، ففي فاتحة سنة **٣٠٤هـ/ ٩١٦م** سير عبدالرحمٰن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبي عبده في جيش قوي، غازياً إلى أراضي مملكة ليون، فالتقى بالنصارى وهزمهم في عدة وقائع محلية، وعاث في أراضيهم وسبى وغنم غنائم كثيرة[(١)].

وفي العام التالي أراد أردنيو الثاني الانتقام لهزائمه من المسلمين فاتجه إلى منطقة طلبيرة وعاث فيها فساداً وتخريباً، فأحرق مدنها وانتسف ضياعها وقراها، وعم البلاء بلاد المسلمين في هذه المنطقة فضج المسلمون، وتضرعوا إلى خليفتهم الناصر أن ينقذهم من هذا العدوان والبلاء.

❋ ❋ ❋

٣ ـ معركة شنت اشتبين

قلق عبدالرحمٰن الناصر قلقاً شديداً من حملة أردنيو الثاني ضد ماردة فأجرى تعديلاً في مخططاته العسكرية حين وجد أنه لم يعد باستطاعته تجاهل النشاط الواسع الذي تقوم به جيوشه في غربي الأندلس، وتجسَّد موقفه بتصميمه على الرد وتوجيه ضربة انتقامية للملك الليوني في عمق أراضيه. وعلى الرغم من أن ماردة كانت من المناطق الثائرة على حكمه، إلاّ أنه كان أبعد نظراً من أن يتساهل مع عدوان يقع في صميم الأراضي الإسلامية، بالإضافة إلى أنّه رأى أن يستقطب الثائرين بمساعدتهم في رد عدوان النصارى، فأرسل حملة عسكرية في محرم **٣٠٤هـ/ ٩١٦م** لمهاجمة أراضي مملكة ليون، بقيادة وزيره عبدالرحمٰن وقائده أحمد بن محمد بن أبي

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص١٧٦.

عبدة، فعاث القائدان الأمويان في أراضيها وتغلبا على الفرق العسكرية الليونية في أكثر من مواجهة[١].

جاء رد فعل مملكة ليون سريعاً، فقد فاجأ أردنيو الثاني سكان الثغور بهجوم خاطف، وهاجم منطقة طلبيرة على تاجه، فأحرق مدنها وخرَّب ضياعها، فاضطر سكانها إلى التماس المساعدة من عبدالرحمٰن الناصر الذي لم يتأخر عن إرسال قائده أحمد بن أبي عبدة ثانية على رأس جيش ضخم، ضم بعض المرتزقة ومتطوعين وفرق مجندة من مناطق الحدود.

اخترق الجيش الأموي أراضي قشتالة وحاصر قلعة شنت اشتبين أو (قاشتر مورش) كما يسميها ابن عذاري[٢] وكانت قلعة منيعة تقع على نهر تاجة، وكادت تسقط من يده لولا أن أنجدها أردنيو الثاني وأجبر القوات الإسلامية على فك الحصار والارتداد عنها، وذلك في **١٤** ربيع الأول **٣٠٥هـ/ ٤** أيلول سنة **٩١٧م**[٣].

وقد تعرض الجيش الأموي في هذا اليوم لكارثة بسبب خيانة المجندين، كما عانى من تفكك القوات واختلال نظامها بفعل عدم إخلاص البربر والمرتزقة في القتال، فقد كانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من حرصهم على مقاتلة العدو، فلما انقض أردنيو بقواته على المسلمين، تسللت منهم وحدات كثيرة، وارتدت أمام المهاجمين، ودبَّ الهرج إلى صفوف المسلمين، ولكن قائدهم الشجاع أحمد بن أبي عبدة فضل الموت على الارتداد، فصمد في مكانه من نفر من أشجع ضباطه وجنده فقتلوا جميعاً، وهلك معهم عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين، وكانت هزيمة مروعة، وكان ذلك في الرابع عشر من ربيع الأول سنة **٣٠٥هـ/ ٤** سبتمبر سنة **٩١٧م**. ويقول ابن عذاري[٤] وابن حيان أنهما وهما يمثلان الرواية

---

(١) ابن عذاري جـ٢، ص١٦٩.
(٢) جـ٢، ص١٧١.
(٣) ابن عذاري جـ٢، ص١٧١.
(٤) ابن عذاري جـ٢، ص١٧٨.

الإسلامية: أن فلول الجيش الإسلامي، استطاعت أن ترتد بعتادها ومتاعها سالمة إلى الأراضي الإسلامية[1].. وذلك غير ما جاء في الرواية الإسبانية. وعاد أردنيو الثاني إلى ليون منتصراً وشجعه الانتصار على تكرار محاولاته غزو الأراضي الإسلامية، وحتى يقوي جبهته تحالف مع شانجة ملك نبرة. فنهضا معاً بعد بضعة أشهر وهاجما ناجرة وتطيلة في الثغر الأعلى، واستولى شانجة على بلتيرة الواقعة في شمالي تطيلة فأحرق مسجدها ونكل بسكانها[2].

لم يستطع عبدالرحمٰن الناصر السكوت على هذه الاعتداءات، فنهض للانتقام لهزيمته في شنت اشتبين، وحشد جيشاً ضخماً عهد بقيادته إلى حاجبه بدر بن أحمد، وأرسله إلى أراضي ليون، ولما علم أردنيو الثاني بخروجه من قرطبة استعد للقائه، لكن هاله ضخامته، وفضل عدم الاصطدام به، وتراجع إلى الجبال ليحتمي بها، ومع ذلك فقد هاجم بدر بن أحمد معاقله قبل أن يعود إلى قرطبة في (ربيع الأول سنة ٣٠٦هـ/ آب ٩١٨م) وتكررت المواجهة بعد بضعة أشهر حين غزا أردنيو الثاني الأراضي الإسلامية، فتصدى له القائد إسحٰق بن محمد القرشي وأجبره على التراجع والفرار[3].

قرر عبدالرحمٰن الناصر الخروج بنفسه لتأديب حاكم ليون، فلم تشف غليله هذه الانتصارات غير الحاسمة، فقرر الخروج بنفسه، فخرج من قرطبة في ١٣ محرم سنة ٣٠٨هـ/ ٤ حزيران ٩٢٠م) على رأس جيش ضخم فعبر نهر دويرة وهاجم وخشمه، أوسمة، وأحرقها، ثم سار إلى شنت اشتبين التي كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة، فاقتحمها ودك دفاعاتها، كما هاجم قلونية الواقعة شمالي نهر دويرة واقتحمها، فانتقم بذلك للكارثة التي وقعت في عام (٣٠٥هـ/ ٩١٧م) بمستوى فاق كل ما فعله أردنيو الثاني[4].

---

(١) ابن حيان في المقتبس.
(٢) ليفي بروفنسال ص٣٤٢.
(٣) ابن عذارى جـ٢، ص١٧٢، ١٧٣.
(٤) المصدر السابق.

صمدت حملة عبدالرحمٰن الناصر والتي تحدثنا عنها ـ صمدت بوجه التغلغل الليوني ـ وذلك بما حققته منه من مكاسب عسكرية وما أحدثت من تغييرات جغرافية وإن كانت محدودة وكان أردنيو ملك ليون وسانشو (سانجة) ملك نافار قد حشد حشودهما، واجتمعت لهما قوات كثيرة، ولكنهما بقيا في الشمال انتظاراً لمقدم المسلمين، وعرج عبدالرحمٰن بعد ذلك على مدينة تطيلة استجابة لصريخ أهلها، حيث أزعجهما النصارى باعتدائهم المتكرر، وبعث بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسي صاحب تطيلة لاحتلال قلعة قلقرة التي كان سانشو يتخذها قاعدة للإغارة عليها، فوجدوها خالية، وزحف عبدالرحمٰن في الوقت نفسه على حصن قلهرة وكان به سانشو في قوابة، ففر عند اقترابه، واحتله المسلمون وغنموا كل ما فيه ثم دمروه، وانتسفوا الأراضي المحيطة به، ولجأ سانشو إلى حصن أرنيط (أورنيدو) وانتسفوا الأراضي المحيطة به، الواقع جنوبي غرب قلهرة، والظاهر أن النصارى اعتزموا ألا يعترضوا سبيل المسلمين في تلك المنطقة كلها، وفقاً لخطة وضعوها لاستدراج المسلمين، فلما عبر عبدالرحمٰن بقواته نهر إيبرو (إبرة) فاجأه سانشو في قواته، وهاجم مقدمة المسلمين، ولكن عبدالرحمٰن كان يقظاً متأهباً، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى، وأثخنوا فيهم، فارتدوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها، ولجأ سانشوا إلى حليفه أردنيو ملك ليون، وجمع الملكان قواتهما من سائر النواحي متربصاً للقاء المسلمين من مواقع منيعة وعلم عبدالرحمٰن باجتماع القوات النصرانية على هذا النحو، فأمر بإحكام التعبئة، ومضاعفة الاستعداد، فلما نفذ الجيش الإسلامي إلى شعب الجبال، انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطراباً وخسائر، فشعر عبدالرحمٰن بخطر المأزق، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى السهل المنبسط، وهنالك عسكر بجيشه في مكان يسمى «خونكيرا» على مقربة من غربي بنبلونة، واستعد للقاء النصارى، وهنا طمع النصارى في محاربة المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا في حمى الجبال، ولكنهم دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة

فادحة، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسراً، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل، وقتل وأسر كثير من أكابر فرسانهم وزعمائهم، ومن بينهم أسقفان هما «دولثديو» أسقف شلمنقة، وأرمخيو» أسقف توى، وقد كانا يحاربان كجنديين، ولجأ نحو ألف من النصارى، أو أزيد من خمسمائة على قول آخر، إلى قلعة موليش القريبة، فاقتحمها المسلمون، واستخرج جميع النصارى الذين بها، ومنهم عدد من القوامس ووجوه الفرسان، فأمر عبدالرحمٰن بإعدامهم جميعاً، ومزق النصارى كل ممزق، وانهارت كل مقاومة، وقضى عبدالرحمٰن أربعة أيام يجمع الأسلاب والنعم، ويهدم الديار ويقطع الأشجار، وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم، وحدثت هذه الوقيعة الساحقة على النصارى، في اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة **٣٠٨هـ** **(٢٦ يوليه ٩٢٠م)** وهدم عبدالرحمٰن حصون العدو، وأصلح حصون المسلمين، وفي مقدمتها حصن بقيرة المشرف على حدود ناڤار وزودها بالعتاد والمؤن.

وفي اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول، قفل عبدالرحمٰن عائداً إلى قرطبة، وتوقف في طريقه يوماً بمدينة انتست على مقربة من مدينة سالم، وفرق الأموال والكسي في أهل الثغر، وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم، ووصل إلى قرطبة في يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة **٣٠٨هـ** أواخر سبتمبر سنة **٩٢٠**م بعد أن قطع في غزوته هذه ثلاثة أشهر، وكانت غزوته الأولى في مقاتلة النصارى، وكان ممن شهدها معه سليمان بن عمر بن حفصون المستأمن إليه، فأبلى فيها بلاءً حسناً، وبها ارتفع شأوه، وتوطدت سمعته[١].

وقد ظن عبدالرحمٰن الناصر أنه لقن النصارى درساً لن ينسوه وأنهم سيعوا الدرس جيداً، ولكن أردنيو خيب هذا الظن ولم يمض عامين إلاّ وقد أغار على «ناجرة» واستولى عليها، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة، وكان يتولى الدفاع عنها عبدالله بن محمد بن لب ومعه نفر من زعماء

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص١٨٧ ـ ١٨٩.

بني لب وبني ذي النون وغيرهم من الوجوه الأكابر، فحاصرها سانشوا واستولى عليها، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى بنبلونة ثم قتلهم، ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى بن ذي النون حيث استطاع الفرار من سجنه، فضجت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لتلك الفعلة البشعة، ووجهت سهام اللوم إلى عبدالرحمٰن لقصوده أو تقصيره، في حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة، ولم يكن ثمة مناص من العمل على تهدئة الخواطر، والانتقام لذلك الاجتراء، وسير عبدالرحمٰن مولاه ووزيره عبدالحميد بن يسيل إلى الثغر الأعلى في جيش قوي، ريثما يتم هو أهبته (ربيع سنة **٣١١هـ/ ٩٢٣م**) فقصد إلى تطيلة وجاز منها إلى أراضي «باقار» وعاث فيها، وقاتل سانشو وهزمه في عدة وقائع، ولم تمض بضعة أشهر أخرى حتى أتم عبدالرحمٰن أهبته، ولم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف، بل غادر قرطبة في السادس عشر من المحرم سنة **٣١٢هـ/ ١٧** أبريل سنة **٩٢٤م** في قوى جرارة، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى، والانتقام الذريع لجناية بقيرة، وترك في القصر ابنه الأكبر وولي عهده الحكم، وهو صبي في نحو العاشرة من عمره، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير، وسلك الناصر إلى الثغر طريق المشرق، مخترقاً كورة تدمير، فكورة بلنسية، ونازل في طريقه مدينة لورقة، وكان يمتنع بها زعيمها الثائر عبدالرحمٰن بن وضاح، فأخضعه بالأمان، وبعثه مع أهله إلى قرطبة. ثم تقدم منها إلى مدينة مرسية، فاستنزل بها يعقوب بن أبي خالد التوزري وزملاءه والعصاة، وأخضع بعض حصون أُخرى في قطاع بلنسية، ثم سار إلى طرطوشة ونظر في شؤونها، وتقدم بعد ذلك صوب سرقسطة، وهنالك انضم إليه التجيبيون وحلفاؤهم، ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغر بقواتهم، وهم في جموع وافرة وتعبية محكمة، ودخل أراضي نافار في أوائل ربيع الآخر (يوليه). فساد الذعر بين النصارى، وترك العدو معظم قلاعه وحصونه دون دفاع، وكان أول ما استولى عليه المسلمون حصن قلهرة وكان سانشو قد أخلاه، فأمر عبدالرحمٰن بهدمه وإحراق ما فيه، ثم

استولى عبدالرحمٰن على حصن قلقرة، ومحلة «بيطرالله» الواقعة شمال شرقي قلهرة وما حولها من الحصون، وقتل وسبى كل من النصارى، ثم سار إلى حصن بالجش منها وأحرقه، وخرب ما حوله من الضياع والزروع، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال في وادي أراجون شرقي بيرالله، وشمال شرقي تطيلة، وهدم سائر القلاع في تلك المنطقة أو أحرقها. ثم نفذ عبدالرحمٰن إلى قلب «نافار» وزحف على عاصمتها بنبلونة، وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه في شعب الجبال، فكان يرد في كل مرة بخسارة فادحة، ودخل عبدالرحمٰن بنبلونة، وقد فر سكانها رعباً، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها، وجد سانشو في جمع قواته ووافته الإمداد من قشتالة، وحاول لقاء المسلمين في مفاوز نافار الوعرة مرتين، الأولى على مقربة من شنت اشتيين، والثانية على مقربة من قلهرة، ولكن عبدالرحمٰن كان على حذر، وكان يعرف تلك المفاجآت الخضرة، وتوقف خلال الطريق بمدينة شنت برية مقر بني ذي النون، وكان زعيمهم يحيى بن موسى بن ذي النون قد خلع الطاعة، والتزم العصيان مستقلاً بسلطانه، فلما أشرف الناصر على معقله، خرج إليه نادماً مستغفراً منضوياً في ظل طاعته، فتقبل الناصر توبته، ودخل الناصر قصر قرطبة في يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأُولى سنة **٣١٢هـ**، وقد أنفق في غزوته أربعة أشهر، وهي تعرف في الرواية الإسلامية «بغزوة بنبلونة»[١].

وقد توفي أردنيو الثاني من عام **٣١٢هـ/ ٩٢٤م** فخلفه أخوه فرويلة الثاني، وقد توفي بعد عام واحد بسبب مرضه من دون أن يبدي أية محاولة للإغارة على الحدود الإسلامية، فتعرضت مملكة ليون لصراع أسرى بين ولدي أردنيو الثاني، وهما ألفونسو الرابع المعروف بالراهب وراميرو الثاني، استمر سبعة أعوام وانتهى لمصلحة الثاني الذي اعتلى الحكم في عام **(٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)** وهو المعروف بنزعته الصليبية، وقد أتاح هذا الصراع

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص١٩٥ ـ ٢٠١.

الأسري لعبدالرحمٰن الناصر أن يتفرغ للقضاء على الثائرين ضد حكمه، وتحجيم نفوذ الفاطميين في المغرب الأقصى[1].

وقد باشر راميرو الثاني عملياته العسكرية في عام (٣٢١هـ/ ٩٣٣م) حين تصدى لهجمات عبدالرحمٰن الناصر المتكررة على وخشمه، فردَّ عليه الخليفة الأُموي بغزو أراضي ألبة والقلاع، ووصل في توغله إلى حصن غرماز القريب من ليون، وخرَّب برغش عاصمة قشتالة وفتح عدداً من الحصون، منها المنار وأنَّه، واضطر العاهل الليوني، تحت الضغط العسكري، إلى التفاهم معه، ووُقِّعت معاهدة الصلح في ربيع الآخر ٣٢٣هـ/ آذار ٩٣٥م[2].

٤ ـ حملة سرقسطة:

استغل راميرو الثاني المعاهدة استغلالاً سيئاً، فجعل هذه المعاهدة فرصة لالتقاط الأنفاس، وبالتالي فقد راح يتحين الفرص لنقض هذه المعاهدة، وكان التجيبيون في سرقسطة على خلاف شبه دائم مع قرطبة، فاستغل العاهل الليوني هذه الثغرة واستقطب محمد بن هاشم التجيبي، وتحالف معه ضد عبدالرحمٰن الناصر، وذلك في عام (٣٢٥هـ/ ٩٣٧م) وانضمت مملكة نبَّرة إلى الحلف الذي أضحى ثلاثياً[3].

لم يكن العاهل الأموي ليسمح بمثل هذه الأمور، فقرَّر الخروج لاسترداد سرقسطة، فسار إلى الثغر الأعلى على رأس جيش كثيف، فاسترد قلعة أيوب من الأخوين مطرف والحكم، ابني المنذر التجيبي، وجال في أراضي البشكنس وأجبر ملكة نبَّرة على طلب الصلح، ثم سار بعد ذلك إلى سرقسطة وحاصرها في (١٢ شوال /٢٣ آب) فسقطت في يده واضطر محمد بن هاشم إلى طلب الأمان، فأقرَّه الناصر على حاله في محاولة

---

(١) ابن خلدون جـ١، ص١٤١، ١٤٢.

(٢) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٢.

(٣) بروفنسال ص٣٥٠.

لاستقطابه، وذلك في شهر (ذي الحجة/ تشرين الأول) ثم دخل المدينة يوم الخميس (١٤ محرم ٣٢٦هـ/ ٢٢ تشرين الثاني ٩٣٧م)[١] وهكذا تمكن عبدالرحمٰن الناصر أن يمزق أوصال التحالف الخطر وأن يخضع الشمال الشرقي من الأندلس لسلطانه، ولم يبق عليه سوى أن يحطم المقاومة الليبونية بشخص خصمه راميرو الثاني، وهو محور الكفاح الحقيقي.

ولكن لم ينته الصراع عند هذا الحد بل كان ينتظر المسلمين مواقف عصيبة.

نعود إلى عهد الأمان الذي أعطاه عبدالرحمٰن الناصر لمحمد بن هاشم.

فقد استمر حصار سرقسطة مدى أشهر، والناصر يشدد الخناق عليها شيئاً فشيئاً، وأخيراً اضطر محمد بن هاشم أن يبعث رسله في طلب الأمان والصلح، على أن يقره الناصر على حاله، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه، وطلب أن يخرج إليه أخوه محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح، فخرج إليه وجوه سرقسطة ومن بينهم أخوة محمد الثلاثة يحيى وعبدالرحمٰن وهذيل، وعدة من ذوي الشوكة، وهنا ثابت للناصر فكرة في انتهاز الفرصة، والقبض على تلك الصفوة المختارة من أهل سرقسطة، ليسدد للمدينة الثائرة ضربة مميتة، فأمر بالقبض عليهم جميعاً واعتقالهم داخل سرادقه، فلما علم محمد بن هاشم بما تم سُقِط في يده، وشعر بوقع هذه الضربة التي حرمته من كبار معاونيه، ولكنه استمر صامداً ممتنعاً، ورسل الناصر تتردد إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى. وأخيراً بعث إليه الناصر بوزيره ومولاه محمد بن عبدالملك بن أبي عبده، فاطمأن الثائر إليه، وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح، وكان ذلك خلال عيد الأضحى سنة ٣٢٥هـ.

فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم، وعقد له الأمان بأوثق

---

(١) المصدر السابق.

عقد وشهد الملأ من أهل العسكر وأهل الثغور، وشهدت نسخته في عامه، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٢٦هـ/ نوفمبر ٩٣٧م وكان مضمونه: «أن يمنح الأمان لمحمد بن هاشم وإخوته وجميع أهله وأصحابه من مدينة سرقسطة، وجميع من يتصل بهم من أهلها، للمدة التي يرضاها الناصر، وأن يملكه سرقسطة تمليكاً يدخل فيها من يشاء، وإلى العدد الذي يرضاه من رجاله، ويكون أهل مدينة سرقسطة ومن يبقيه محمد بن هاشم منهم من أهله وأتباعه آمنين بأمان الله، محفوظين بعهد الله، مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم غير معتقبين في أنفسهم، ولا مأخوذين بذنب سلف، وأن يخرج محمد بن هاشم من سرقسطة بنفسه ومن أحب إخراجه معه من خواص أهله وولده، إلى مدينة تطيلة أو غيرها من مدن الثغر، وحصوله مسجلاً على الموضع الذي يتخيره، ويبقى بسرقسطة من أحب منهم، ويختلف عليهم، وعلى المولى بسرقسطة بعده، إحسان صحبتهم، وعليه أن يباعد منزله عنهم، ولا يقربه شيء من دور محمد بن هاشم، أو ينزل القصر القديم بعد خروج محمد بن هاشم عنه بجميع ما له فيه، وعلى أن يسجل الناصر لدين الله، لأخيه يحيى بن هاشم على ما كان بيده من مدينة لاردة وأحوازها، فإن انقضت المدة التي يضربها الناصر لمحمد، توجه إلى الحضرة، وأقام فيها ثلاثين يوماً أو نحوها، مظهراً لصدق طاعته، ماحياً لكل ما انتثر في أقطار الأرض من معصيته، وهو في توجهه إليه آمن في طريقه، ومدة مقامه ومنصرفه، غير مقطوع ولا معترض دون الانصراف، إذ انقضت المدة التي وضعت له، وله على السلطان إذا وفى بما عقد عليه من الشخوص إلى باب سُدَّته أن يكتب له عهداً على مدينة سرقسطة، ويصرفه إليها عاملاً وقايداً، ويعزل عنها عامله وقايده، بعد أن يناله من كرامته، ويظهر عليه من آثار نعمته، ما يعود معه إلى أحسن الأحوال التي كانت عليه قبل هفوته، وقد اشترط عهد الأمان أيضاً أن يقدم محمد بن هاشم إلى الناصر رهائن من ولده وإخوته وصحبه وكاتبه، وأن يكون جماعتهم لدى الناصر بحال حفظ وتكرمة، وأمان في المسير

والمقام، يديلهم ستة أشهر، بأكفائهم ونظرائهم من إخوتهم خاصة، إلى أن يظهر لأمير المؤمنين براءة محمد بن هاشم من ممالاة المشركين، وتصحيحه طاعة أمير المؤمنين، وعلى أن يقطع محمد بن هاشم من المشركين في ظاهره وباطنه، من حدِّ بلد برشلونة إلى شرطانية إلى بنبلونة إلى ألبة والقلاع وإلى جليقية، ولا يكاتبهم ولا يداخلهم، ولا يصالحهم على طرف من أطراف الثغر إلا عن إذن أمير المؤمنين، وأن يورد جباية بلده لمحلها، بعد أن يسقط عنه جباية عام، وألا يتقبل حراً نازعاً، ولا عبداً آبقاً لأمير المؤمنين، ولا لأحد من رعيته، وأن يوثق من ظفر به من هذه ويصرفه إلى مكانه، وألا يتعقب أحداً ممن سجل له عليه، أو يسجل بعد، ممن حاربه مع أمير المؤمنين وفارقه إليه أيام الطاعة، وأن يجدد البيعة لأمير المؤمنين ويلتزم شروطها، وأن يغزو مع أمير المؤمنين، ويعادي من عاداه ويحارب من حاربه، ويسالم من سالمه من أهل الملوك وغيرهم، ويقطع نصيبه من كل من أخرج يده عن طاعته، وإن كان ابنه أو أخاه، يلتزم كل ما ألزمه أمير المؤمنين من ظاهر القول وباطن الإرادة، لا ينقض تناول البغية أو لا يحرف عن التصحيح بالعلة، فقد التزم أمير المؤمنين في عقده، مثل ما سأله محمد في ذلك وأوجبه على نفسه مع درك لهذه المنن، إن صدق الطاعة، أن يوليه مدينة سرقسطة، وما وقع في سجله معها ولاية مستمرة، ولا يعزل طول أيامه عنها، ثم لا يؤاخذه بذنب، ولا يعدد عليه اقتراف خطأ ولا عمد، ولا تقبل فيه مقالة كاشح ولا طعن حاسد، ويصير ذلك له وصية فيمن بعده، يلزمهم الوقوف عندها على سبيل الخلفاء من خالدات عهودهم إن شاء الله، ووقعت الأيمان في هذا الأمان من الناصر لدين الله مستوفاة مغلظة، أخذ على محمد بن هاشم أشد منها، فحلف في مقطع الحق بمسجد سرقسطة الجامع خمسين يميناً منسوقة بمحضر قاضي الجماعة بقرطبة والفقهاء وأعلام العسكر، والملأ من أهل بيت محمد بن هاشم، ووجوه أهل الثغر على التزام ما عقد على نفسه منه واعتداده إياه ديانته».

ثم أشهد الناصر لدين الله على نفسه فيه جميع أهل عسكره، فكان أول من شهد عليه أولاده الحاضرون، ثم أعمامهم ثم الوزراء وأصحاب الخطط، ثم الفقهاء، ثم وجوه أهل سرقسطة ومن حضر من أهل الثغر[1]. سقطت سرقسطة وسائر الحصون المجاورة لها في يد الناصر، وكذلك سقط في يده حصن روطة أمنع حصونها في الغرب، وبذا انهارت ثورة التجيبيين في الشمال، وكانت من أخطر الثورات التي واجهها الناصر، لأنها كانت مركزاً لتجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة، من الخوارج والأمراء النصارى، أما عفو الناصر عن محمد بن هاشم، ومنحه الأمان له، واستقسامه بالرغم من فداحة جرمه، فيرجع إلى ما كان يتمتع به محمد من مقدرة إدارية فائقة، ولما كان لبني هاشم في الشمال من مركز قوي مؤثل، ولما كان لهم من العصبة والأنصار، وقد رأينا الناصر في غير موطن، يعفو عن الثوار العتاة، ويحسن إليهم، وينظمهم في جيشه. وقد كانت هذه سياسة مستثيرة من الخليفة القادر، للاستفادة من هذه العناصر المنحرفة القوية، متى استقرت توبتها، وحسن ولاؤها.

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقاً للسلم المعقود في يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٣٢٦هـ/ ٢٢ نوفمبر ٩٣٧م)، وشهد متعتها وحصانة أسوارها، فأمر بهدم الأسوار حتى لا تعود منعتها فتشجع الخوارج على الثورة، وشحنها برجاله، ونظر في مصالحها، فساد بها الهدوء والأمن، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة، قوة من جيشه بقيادة نجدة بن حسين الصقلبي لتقوم ببعض الغزوات في أرض العدو، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه في أصحابه امتحاناً لوفائه، فصدع بالأمر، وسار المسلمون بالرغم من اشتداد البرد وانهمار الثلوج صوب ناحية شنت إشتيين، وتفرقوا إلى ثلاث فرق، أخذت كل فرقة منها بشن الغارات في قطاع معين، ثم اجتمعت عند حصن شنت إشتيين، وهنا حاول النصارى اعتراض المسلمين، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى، وتوغل المسلمون بعد ذلك في أراضي

---

(١) ابن حيان في المقتبس.

ألبة، وانتسفوا الزروع، وخربوا الكنائس والديارات، ثم عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة، وكان الناصر قد استتم ذلك النظر في شؤون الثغر، وحفظ أطرافه، وتزويده بالحماة والمقاتلة، وكل ما يضمن سلامته، ثم خرج بجيشه من سرقسطة، وكان الناصر قد استتم خلال ذلك النظر في شؤون الثغر، وحفظ أطرافه، وتزويده بالحماة والمقاتلة، وكل ما يضمن سلامته، فوصل إلى قصر الخلافة في الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٦هـ/ (أواخر يناير ٩٣٧م) وذلك بعد أن قضى في غزوته زهاء ثمانية أشهر[١].

ووفد محمد بن هاشم التجيبي بعد ذلك على قرطبة، فأكرم الناصر وفادته، وأقام في كنفه مدّة في رغد وإيثار، وهو يحضر مجالس الخليفة، ثم غادر قرطبة في رجب بعد أن ولاه الناصر سرقسطة، وعقد له عليها وعلى الجهات التابعة لها، وولاه القيادة في نفس الوقت، وبذا رد إلى سابق مناصبه ومكانته.

❋ ❋ ❋

٥ ـ موقعة الخندق

لما عزم الناصر على غزو أهل جليقية (مملكة ليون) جدَّ في الاستعداد والحشد، وبعث كتبه إلى الثغور، واستكثر من الآلات والسلاح، وخرج في حشوده إلى الغزو في يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٣٢٧هـ الموافق لأول شهر يونيه سنة ٩٢٩م. وكان الناصر قد سيَّر قبل خروجه الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبي عبده في بعض قواته إلى جهة الغرب احتياطاً على أهله، وحماية لهم أثناء قيامه بالغزو.

ووصل الناصر في قواته إلى طليطلة في يوم ٢٣ رمضان، ثم خرج منها إلى أرض العدو (قشتالة) في الخامس من شوال، فعاث فيها أياماً، وألقى النصارى قد أخلوا معظم بلاد هذه المنطقة، وكانت غاصة بالنعم

---

(١) دولة الإسلام، د. عنان ع١ ق٢.

والأقوات، فاستولى المسلمون عليها، ثم تقدموا إلى حصن أشكر، وخربوه وانتسفوا ما حوله ثم ساروا إلى حصن أطلة، فحصن برتيل، وذلك في يوم ١٣ شوال.

وكان محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة قد تقدم في قواته، في الوقت نفسه، فعبر نهر شنت مانكش (سيمانقا) فارتد العدو بقواته وراء النهر، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولاً، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر، وهزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة، وقتل منهم كثيرون وارتدوا في تراجعهم إلى خندق عميق (وهو الذي تنسب إليه الموقعة)، فتردى فيه منهم خلق كثير، فتقدم الناصر مضطراً بقواته، وترك محلته، فملكها العدو في الحال، واحتل الناصر أعلى النهر بقواته، وقد عجز النصارى عن أتباعه، فلبث هناك يومه وقد ساد الخلل في الجيش، وأيقن الناصر بتمحيص الله للمسلمين، ثم رحل قافلاً حتى وصل إلى مدينة وادي الحجارة، ثم سار منها إلى قرطبة[1].

إن هذه الوقيعة التي اشتهر حديثها بالأندلس قد نالت من السلطان (الخليفة) والمسلمين فيها محنة عظيمة، وقتل وأسر فيها خلق كثير. واستولى العدو على محلة السلطان (الخليفة) وسرادقه وآلاته السلطانية، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه، وشملت الهزيمة سائر الكافة، فلم ينج من نجا منها إلاّ على متون الدواب، وأصاب القتل والأسر بالأخص أهل البلاد المطوعة.

وأما الجند فقد نجا معظمهم، وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة.

وكان من بين الضحايا على حد قول المؤرخ ابن حيان ـ أبو سعد مروان بن حيان ـ ومن الحقائق المؤلمة التي ينقلها إلينا ابن حيان: «أنه قد

(١) المقتبس لابن حيان.

بدا في هذا اليوم، من قوم من وجوه الجند «النفاق لأضغان احتملوها على السلطان فقبعوا للصفوف، وسارعوا في الهرب، وجروا على المسلمين الهزيمة وأبقوهم، وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما في نفسه الخاين «ابن فرتون بن محمد الطويل» وقد بعث الناصر خلفه برسول استطاع القبض عليه، فثقف وحمل إلى قرطبة، وهنالك صلب على باب السُّدة يوم وصول الناصر من غزاته، وألحق به نفر من أشكاله ممن عملوا عمله، ولحقهم وزره»[1].

أما طريق عودة الناصر، فقد قصد الناصر أولاً مدينة الفرج (مدينة الحجارة) ثم غادرها يوم الخميس الحادي عشر من ذي القعدة، وسار إلى جربيرة، ومنها إلى شطران، ومنها إلى محارس، ومنها إلى مدينة طليطلة، فلبث بها أربعة أيام ورحل منها يوم الخميس إلى فج سراج، ومنها إلى ملقون، ثم احتل بالبركة، ومنها إلى منزل رند، ثم إلى قنالش على وادي أربيشر، ومنها إلى طير برتيطة، ومنها إلى قليانة، فأرملاط، ومنها إلى منية نصر على باب قرطبة بعدوة النهر بالربض، وهنالك قضى الليل، ثم سار إلى قصر قرطبة في الغد، وقد نفذ أمره بصلب فرتون بن محمد الطويل، على باب السُّدّة الأكبر من أبواب القصر.



كتاب الناصر عن موقعة الخندق

أنشأ هذا الكتاب الوزير الكاتب عيسى بن قطيس، وهو كتاب طويل يحاول فيه كاتبه أن يصف أدوار الموقعة، وروعة القتال الذي نشب بين المسلمين والنصارى، ويستخلص منه أن المعركة بدأت في صالح المسلمين، وأنهم استطاعوا في البداية أن يردوا النصارى، وأن يفضوا جموعهم، حتى سقط محمد بن هاشم التجيبي قائد الطليعة عن فرسه، وأسره النصارى،

---

(١) المصدر السابق.

فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم، وذلك بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أعلام النصارى، وقوامسهم وفرسانهم، ثم استؤنف القتال في اليوم الثالث، وقد تضخمت حشود النصارى بما ورد إليهم من الأمداد، من أقصى بنبلونة وألبة والقلاع وأهل قشتيلة إلى مشركي قلمرية، وكل صنف من أصناف العجم معهم، واضطربت المعركة بين الفريقين، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من أعلامهم، وارتد المسلمون إلى خطوطهم ظافرين، وفي اليوم التالي بادر النصارى بالهجوم، فلقيهم المسلمون بعنف وشدة، واحتدم القتال، وسقط «عظيم من عظماء النصارى» فاستداروا حوله، وقد لحقتهم الهزيمة.

وهنا يقول الكتاب: «وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال المشركين جميعاً، والاحتلال بساحتهم، وانحياز طاغيتهم في أعلى شاهق، يرجو النجاة بنفسه، فأمر بالرحيل، وقد ضاعف النظر، والعدو في ضبط ساقة جيشه، لما توقع خروج الكفرة في أثره، وأصبح منتقلاً، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلاّ من بعد على رأس جبل».

يضيف: وسار الناصر، بعد ذلك صوب نهر دويره، في اتجاه حصن شنت منكش، وهو يهدم الحصون، وينتسف الزروع في طريقه. وكان الناصر، يزمع السير شرقاً بحذاء دويره، حتى حصن شنت اشتيين، ولكنه عدل عن ذلك، وأزمع السير إلى حصن انتيشة، وهنا يحدثنا الكتاب عن المرحلة الحاسمة في الموقعة ذلك أن الناصر، أشرف في سيره على خنادق ومهاو تتقاذفه، وأجراف متقطعة قد عرفها المشركون، وقدموا إليها، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم، فدارت عليهم الحرب، وصرع فيها من جلة فرسانهم، ومتقدمي رجالهم جملة، لو أصيبت بحيث يتراءى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم، ولكنهم وثقوا بالوعد، وانتظروا تقدم الحماة، وترادف الأثقال، فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين، ساعات من النهار، حتى تقدم أكثرهم، وجازت الخندق لقتالهم، إلا من ضعفت دابته، أو ضعفت تعبئته عن استنفارها، فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال، وانحطوا من أعاليها انحطاط الأدعال، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة،

ما لو أصابوا مثله في مجال حرب أو سهل من الأرض، لما أنكر مثله مثله، عند مقارعة الرجال، وتصرف الأحوال، وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق، وخلص من مضايقه، حتى أسهلوا، وأصبح لأمير المؤمنين جيوشه، وانتظمت جموعه، وسلم الله رجاله، فلم يصب منهم أحد، وفي ذلك دليل للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة، ولا ظفر المشركون، أظفروا به فيها عن مساواة أو كثرة، ولكن ضيق المسالك، ووعر الطريق، وسوء فهم الدليل، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التي لا تصرف ومحنة التي لم يزل يمتحن بها أولياءه ليعظهم، ويبتلى عبيده ليرهبهم وأمير المؤمنين شاكر لله تعالى عظيم نعمه، وواثق على تصرف محنته، مستسهل ما اختص به في جُب طاعته، ضارع لله تعالى في التقبل لقوله وفعله[1]. ـ الثامن من ذي القعدة سنة **٣٢٧هـ**.

وقد أرخ هذا الكتاب عقب الموقعة بأربعة أسابيع، وحينما وصل الناصر في ارتداده إلى وادي الحجارة، وذلك ليكون إيضاحاً للناس ومعذرة من الخليفة، عما أصابه من هزيمة.

ويقال أن سبب الهزيمة هو تغير نفوس العرب لتقديم الصقالبة عليهم، إذ أقسموا أن يتركوا الصقالبة وحدهم عند نشوب المعركة، فأدى ذلك إلى الهزيمة، وقتل القائد نجدة الصقلبي وفرار عبدالرحمٰن الناصر بأقل من خمسين فارساً بعد أن نجا بأعجوبة.

ويقول صاحب أخبار مجموعة أن عبدالرحمٰن لم تكن له بعدها غزوة بنفسه[2].

ويجدر بنا الآن أن نقف وقفة قصيرة عند أسباب هزيمة المسلمين والتي حاقت بجيوشهم لأنها تعبر عن ظاهرة اجتماعية جديدة حلت بالمجتمع الأندلسي وبالجيش الأندلسي، ألا وهي طبقة الرقيق الصقالبة.

❊ ❊ ❊

---

(١) ابن حيان في المقتبس.

(٢) أخبار مجموعة، ص١٥٥، ١٥٦، مصدر سابق.

الصقالبة

أطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم على الشعوب السلافية سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأدرياتي غرباً وهي البلاد التي كانت تسمى في العصور الوسطى باسم بلغاريا العظمى. ولقد دأبت بعض القبائل الجرمانية على سبي تلك الشعوب السلافية وبيع رجالها ونسائها إلى عرب إسبانيا، ولذا أطلق العرب عليهم اسم الصقالبة، ثم توسع العرب في استعمال هذا الاسم فأطلقوه على أزقاتهم الذين جلبوهم من أية أمة مسيحية، واستخدموهم في القصر الخليفي، ويذكر الرحالة ابن حوقل الذي زار إسبانيا في القرن الرابع الهجري (١٠م) أن الصقالبة كانوا يجلبون أيضاً من سواحل البحر الأسود ومن لمبارديا وكلايريا في إيطاليا، ومن قطلونية وجليقية في شمال إسبانيا وذلك فيما يبدو نتيجة لغارات القراصنة من المغاربة والأندلسيين على الشواطىء الأوروبية للبحر المتوسط[١].

وجاء أغلب الصقالبة أطفالاً إلى إسبانيا الإسلامية حيث ربوا تربية إسلامية ودربوا على أعمال القصر والحرس والجيش، واستطاع عدد كبير منهم أن يحتل مكانة عالية في المجتمع الوطني القرطبي، فصار منهم الأدباء والشعراء وأصحاب المكتبات الكبيرة والضياع الواسعة، وقد ألف أحدهم ويدعى حبيب الصقلبي كتاباً في فضل الصقالبة بعنوان «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة»، ويحتوي هذا الكتاب على جملة أشعار الصقالبة ونوادرهم وأخبارهم[٢] وإلى جانب هذا الامتياز الأدبي اختص الصقالبة بألوان من الألحان والرقصات التي نسبت إليهم، فقيل اللحن الصقلبي ورقص الصقالبة، وقد أعطى المؤرخ أبو بكر الطرطوش صورة ووصفاً لهذه الرقصات فقال: ثم جعلوا لكل لحن منها اسماً مخترعاً فقالوا اللحن الصقلبي فإذا قرأوا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يرقصون

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص١١٠.

(٢) د. العبادي ص١٥١، ١٥٢.

في هذه الآية الكريمة كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل (أو الجلاجيل) ويصفقون بأيديهم على إيقاع الأرجل، ويزحفون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدي ورقص الأرجل، كل ذلك على نغمات متوازنة»[١] وقد كان استخدام الصقالبة في الأندلس منذ أيام الأمير الحكم الربضي ثم أخذ عددهم يزداد بسرعة حتى بلغ على عهد الخليفة عبدالرحمٰن الثالث حوالي ٣٧٥٠ من الرجال، ٦٢٥٠ من النساء[٢].

وكان الأمويون يهدفون من الاعتماد على الصقالبة في الجيش والحكومة هو الحد من نفوذ الأرستقراطية العربية في الحكم وإضعاف سيطرة من العرب والبربر. ومثال ذلك تقليد عبدالرحمٰن الناصر مملوكه نجدة الصقلبي قيادة تلك الحملة التي منيت بالهزيمة وبمقتل قائدها أمام ملك ليون راميرو الثاني في وقعة الخندق أو شمنقة السالفة الذكر[٣].

ولم تؤثر معركة الخندق وهزيمة الناصر فيها على قوته العسكرية فقد استمر في صراعه مع أهل الشمال حتى انتصر عليهم وجرّوهم من حلفائهم وصار آخر الأمر سيداً على إسبانيا.



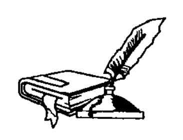
٦ ـ النورمانديون وعبدالرحمٰن الناصر

بدأ خطر النورمانديين على الأندلس في عهد الأمير عبدالرحمٰن الأوسط ولقيت البلاد من ورائه عناءً كبيراً خفف من حداثة الناصر وما بذله من جهود في بناء دفاعات قوية في هذا السبيل، وفي عهد الأمير محمد بن عبدالرحمٰن عاد النورمانديون هجومهم على السواحل الأندلسية مرتين في (٢٤٥ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٥٩ ـ ٨٦١م) ولكن الأسطول الأندلسي استطاع في كل

(١) كتاب الحوادث والبدع، تحقيق محمد الطالبي، تأليف أبو بكر الطرطوش ص٧٨ ط تونس.
(٢) أعمال الأعمال لابن الخطيب ص٤٠، ٤١.
(٣) الدكتور العبادي/ الصقالبة في إسبانيا ص١٢.

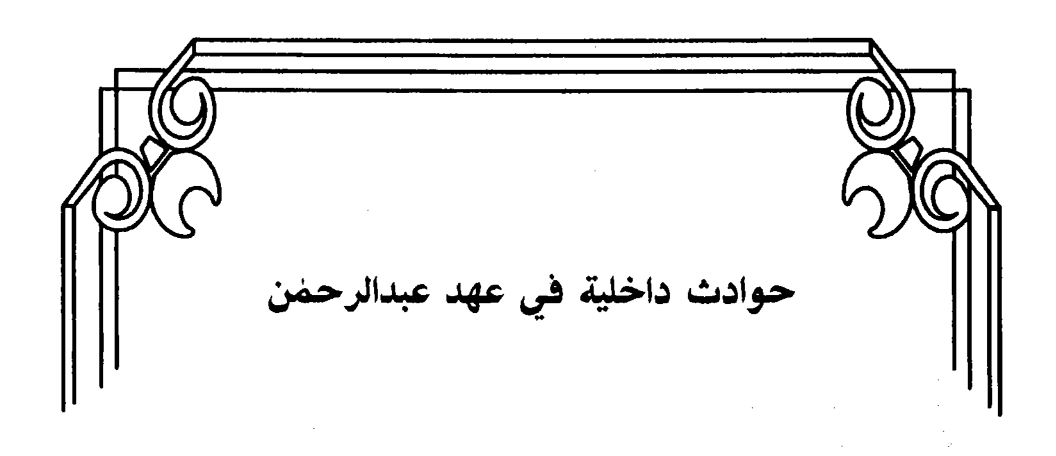
مرة أن يردهم على أعقابهم بعد تكبيدهم خسائر فادحة. وقد أورد كل من العذرى وابن حيان تفصيلاً لهذه العمليات البحرية التي دارت بين الفريقين[1]. ولا شك أن انتصارات المسلمين في هذه المعارك البحرية يرجع أساساً إلى ارتقاء البحرية الأندلسية إلى المستوى الحربي المطلوب للدفاع عن أراضيها. ولكن النورمانديين أنشأوا قاعدة ثابتة لهم بالقرب من ثغور الأندلس الشمالية وسواحلها الغربية، وهي ولاية نورمانديا في غرب فرنسا.

وتاريخ هذه القاعدة النورماندية يرجع إلى سنة **٣٠٠هـ/ ٩٢٠م** أثناء المنازعات التي قامت بها أفراد الأسرة الكارولبخية، فيروى أن ملك فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج أقطع الزعيم النورماندي رولون هذه المقاطعة التي عرفت باسم نورمانديا، ولم يلبث هذا الزعيم النورماندي أن اعتنق المسيحية وتسمى باسم روبرت، وقد شكلت هذه الولاية النورماندية الدانمركية خطراً كبيراً على الأندلس عن طريق الحملات البحرية التي كانت تخرج من موانئها وتغير جنوباً على السواحل الغربية، كذلك عن طريق حملاتها البرية التي كانت تعبر جنوب فرنسا ثم تغير على الثغور الأندلسية الشمالية، والمتواتر في الكتب أن هذه الحملات البرية النورماندية على شمال الأندلس قد بدأت بعد ذلك في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري، حينما استولى النورمانديون على القلعة الإسلامية بريشتر شمالي سرقسطة سنة **٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م**[2].



(١) الدكتور العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص٢٦٥، ٢٦٧.

(٢) د. العبادي، مصدر سابق.



حوادث داخلية في عهد عبدالرحمٰن

وقوع المجاعة في الأندلس

في سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م احتبس الغيث بالأندلس، واضمحلت الزروع، وعزت الأقوات، وغلت الأسعار على نحو ما حدث في سنة ٣٠٣هـ فأمر الناصر خطيب المسجد الجامع بالحضرة، بالاستسقاء، فبدأ بذلك في خطبة الجمعة التالي، ثم برز بالناس إلى مصلى بالربض يوم الاثنين الثامن من شهر صفر (٢٣ مارس)، فلم يسقط الغيث، واستمر القحط، وجهدت الناس وخرجت كتب الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء، وكان الكتاب إلى جميع العمال على النحو التالي:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، أما بعد فإن الله عز وجل، إذا بسط رزقه وأغدق نعمته، وأجزل بركاته، أحب أن يشكر عليها، وإذا واراها وقبضها، أحب أن يستلها، ويضرع إليه فيها، وهو الرازق، ذو القوة المتين، والثواب الرحيم، الذي يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا، وينشر رحمته، وهو الولي الحميد، فأوجبت به الرغبة، والخشوع لعزته، والاستكانة له، والإلحاح في المسألة فيما احتبس به، والتوبة من الأعمال المنكرة التي توجب سخطه فيه، وتبذل نقمته، وتستروحه رضاه، تعالى جده، وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء في المسجد الجامع يوم الجمعة، والجمعة الثانية التي تليه، إن أبطأت السقيا، والبروز يوم الاثنين بعدها لجماعة

المسلمين عندنا إلى مصلاتهم، أو يأتي الله قبل ذلك بغية المعنى عنه، ورحمته المنتظرة منه، المرجوة عنده، فمر الخطيب بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك، ويأخذ به من قبله من المسلمين، وليحملهم بذلك المحمل، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى، ضراعة من قد اعترف بذنبه، ورجا رحمة الله، والله غفور رحيم، وهو المستعان لا شريك له إن شاء الله».

وفي سنة ٣٢٤هـ، وقع بالأندلس قحط جديد لم يعهد فيها بمثله من قبل، فاحتبس المطر، وجفت الزروع، ومع ذلك فلم يترك هذا المحل وراءه كثيراً من الآثار المخربة. إن البركات والميزات استمرت واقعة بين الناس في سائر الجهات، كما يقول ابن حيان[1]، «وبذل الناصر لمعونة الناس وأجير النقص في المحل، وانهمر الغيث في العام التالي، وقد نظم الشاعر عبدالله بن يحيى بن إدريس في ذلك قصيدة في مديح الناصر هذا مطلعها:

نعم الشفيع إلى الرحمٰن في المطر مستنزل الغيث بالأعذار والنذر

وفي سنة ٣٢٩هـ/ ٩٤١م عاد القحط يعصف بالأندلس، وشرع قاضي الجماعة: محمد بن أبي عبدالله بن عيسى في إقامة صلاة الاستسقاء من يوم الجمعة الثاني من ربيع الآخر، ولكل القحط زاد، وبرز الناس إلى مصلى الريض مراراً وتكراراً، وفي الثاني عشر من جمادى الأولى (أول فبراير)، بدأ نور غليظ وسحاب كثيف ونزل الثلج طوال اليوم وغطى الأرض، ثم نزل المطر والثلج، وانقطع دون أن يروي الأرض، فعاد القاضي إلى الاستسقاء حتى استجاب الله لعباده بعد أيام قلائل، وبدأ الناس في الزرع، وتوالى نزول الغيث، واستسقى الناس سقياً وافياً ورويت الأراضي والمزارع، وهبطت الأسعار وعاد الرخاء[2].



---

(١) المقتبس لابن حيان.

(٢) المصدر السابق.

وقوع حريق بقرطبة

وفي أوائل شهر شعبان من سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م، وقع حريق هائل بمدينة قرطبة. فقد شبت النار بسوق قرطبة، فأحرقت جميع مجالس الحصاد، واتصل الحريق بحي الصرافين، وما جاور مسجد أبي هارون، فاخترق وتداعى المسجد، ثم اتصلت النار بسوق العطارين وما جاوره من الأسواق والأحياء، وكان حريقاً مروعاً منتشراً، ولما انتهى الحريق أمر الناصر بإعادة بناء المسجد وما تهدم من الدور والصروح العامة[1].

❋ ❋ ❋

حركة المتصوف ابن مسرة الجبلي

اهتم عبدالرحمٰن الناصر بمقاومة حركة ابن مسرة هذه، وأراد قمعها، وذلك حتى بعد أن توفى زعيمها بأعوام طويلة، وإصدار كتابه الشهير بشأنها[2].

وأبو مسرة هذا هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مسرَّة من أهل قرطبة، ولد بها سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م، ودرس على أبيه وعلى ابن وضاح والخشتي وغيرهم، ولكنه جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة في التأويل والقدر وإنقاذ الوعيد وغيرها، فاتهم بالزندقة فغادر الأندلس إلى المشرق، وأنفق هنالك بضعة أعوام، وتفقه على يد المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل، ثم عاد إلى الأندلس، وهو يخفي آراءه ونحلته الحقيقة تحت ستار من النسك والورع، وكان ذلك في بداية عهد الناصر، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب، وكان يستهويهم بغزير علمه وسحر بيانه، ومنطقه الخلاب، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصحب والأتباع، أضحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة، واختلف الناس في أمر ابن مسرة، فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد والورع،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس، لابن الفرض جـ٢، ص١٢٠٤.

ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع، والانحراف عن مبادىء الدين الصحيحة، وتوفي ابن مسرة بقرطبة في شوال سنة **٣١٩هـ/ ٩٣١م** ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعد زائعة بين تلاميذه وأتباعه وتكونت من حولها فرقة سرية، انتهت بالمروق والإلحاد، تتابع دعايته، وتعمل على بث تعاليمه، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة، لتعمل على قمع هذه الجماعة، والقضاء على تعاليمها.

وكانت خطة ابن مسرة في بث تعاليمه كما صورها المؤرخون[١] كما يلي:

«كان مذهب الظنين، المرتب المرائي بالعبادة، المنطوي على داخل السريرة، محمد بن عبدالله بن مسرة، الرابض للفتنة، دبَّ في الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد، وأبدى من الورع».

وكان يستهوي العقول، ويصور الأفئدة، وكان من شأنه أن يلقى أول من يأتيه، مقتبساً من أهل السلامة، بالمساهلة، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة، فإذا أصغى إلى عذوبة منطقة، وعلق في شرح حجاجه، غره رفقاً بباطله الطاير فرخه، فلا يبعد أن يلفته عن رأيه، ويشكه في اعتقاده.. ويحصله في أتباعه، فاستهوى خلقاً من الناس، صدهم عن سبيل الله، وأوحشتهم الجماعة، واتخذ من رأى غيهم في مذهبه دايمة دخل من عرضهم رجال، من ذوي الفهم، ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق في الكتمان إلاّ من الثقات العقدة، فاكتم بذلك شأنه، إلى أن عاقصته منيته، صدر دولة الناصر لدين الله، أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة، فرفع الله بموته عن الناس فتنة ولم يلبث دعاته مع انتشارهم في البلاد أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون علمه، تكثر القول في شأنه، وشيم أهل الخلاف من تلقايه، فذعر له أهل السنة من أهل قرطبة، وتوقعوا منه البلية، ففزع فقهاؤهم وكبراؤهم بها إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا.

---

(١) ابن حيان في المقتبس.

ومضت أعوام طويلة، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسؤولين، ولم يصدر قرار السلطة العليا في شأنه وشأن تعاليمه، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته، مما يدل على أن دعوته وتعاليمه لبثت حية ذائعة. قال ابن حيان:

«وفي يوم الجمعة لتسع خلون من ذي الحجة سنة أربعين وثلاثماية، قرىء على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين قرطبة والزهراء، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبدالله بن بدر، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون، وشذ فيه الخارجون، من رأي الجماعة المنتمون إلى صحبة محمد بن عبدالله بن مسرة، وانتحلوه في الديانة، فافتتن العوام بما أظهره من التقشف والشظف في المعيشة، واستتروا لبدعهم بسكني الأطراف البعيدة، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة.. وفرقة، فتننت بمذاهبهم، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين، ففحص عليه، وعلم صحته، فتعاظمه، واستوحش من اجتراء تلك الطائفة الخبيثة عليه، فأوعز إلى وزير ومتولي أحكامه ومدينته، تتبع هذه الطائفة، وإخافتها والبسط عليها، والقبض على من عثر عليه منها، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين وقد أصدر الخليفة الناصر كتاباً في الحملة على تلك الطائفة، والتبرؤ منها، وهو من إنشاء كاتبه ووزيره عبدالرحمٰن بن عبدالله الزجالي:

«ويبدأ الكتاب بالتنويه بشأن الإسلام، وأفضليته على سائر الأديان، وبرسالة محمد خاتم النبيين، الذي اصطفاه الله، وأرسله إلى الناس، وكرم به أُمته على سائر الأُمم، وما نبه به الإسلام من إقامة الدين، وعدم افتراق الكلمة، وأنه لما شملت النعمة، وعم الأقطار يعدل أمير المؤمنين السكون والدعة، طلعت فرقة لا تبتغي خيراً، ولا تأتمر رشداً، من طغام السواد وأبدت كتباً لم يعرفوها، ضلت فيها حلومهم، وقصرت عنها عقولهم واستولى عليهم الشيطان بخيله ورجله، فقالوا بخلق القرآن، واستيئسوا، وآيسو من روح الله، وأكثروا الجدل في آيات الله، وحرموا التأويل في حديث رسول الله، فبريت منهم الذمة ووعدهم الله ببالغ نكاله، لما انطوت عليه قلوبهم من الزيغ، ولما كذبوا من التوبة، وأبطلوا من الشفاعة، ونالوا

محكم التنزيل، والقدح في الحديث، والقول بمكروه في السلف الصالح، فشذوا عن مذهب الجماعة، حتى تركوا رد السلام على المسلمين، وهي التحية التي نسخت تحية الجاهلية، وقالوا بالاعتزال عن العامة، ولما فشى غيهم، وشاع جهلهم، واتصل بأمير المؤمنين من قدحهم في الديانة وخروجهم عن الجادة، غلط في الأخذ فوق أيديهم، وأنذرهم إنذاراً فظيعاً، واعتزم أن يوقع بهم أشد العقاب، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة، ليفزع قلب الجاهل، ويضطر الغواة إلى الآثار الصحيحة التي يتقبلها الله منهم، وأن يقرأ هذا الكتاب في سائر الأقطار والكور، وفي البدو والحضر، وأن ينفذ عهده بذلك إلى سائر قواده، وجميع عماله، لكي يقوموا بمطاردة هذه الطغمة الخبيثة التي اجترأت على تبديل السُّنة، والاعتداء على القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الأمين، ويختم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون، وتتبع أولئك المارقين، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم، وأسماء الشهود عليهم، حتى يحملوا إلى باب سدته، وينكلوا بحضرته[1] وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرّية، والإضافة لهم، وتخويف الناس من فتنتهم بقية أيام الناصر لدين الله».

وقد تحولت هذه الحركة أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار.

❋ ❋ ❋

عصر الناصر أعظم عصور الأندلس ـ بناء مدينة الزهراء

يعد عصر عبدالرحمٰن الناصر من أعظم عصور الدولة الإسلامية في الأندلس، فبالرغم من الحروب والثورات، كان الرخاء والمجد سمة هذا العصر، فقد قام الناصر بأعمال إنشائية عظيمة، ومن ذلك إنشاء مدينة الزهراء أعظم مدن الأندلس الملوكية، وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب

---

(١) دولة الإسلام، د. عنان ع١ ق٢ ص٤٣٣.

القصر وهو مقام الملك، قصراً جديداً سماه دار الروضة، جلب إليه الماء من فوق الجبل، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج، وأنشأ في ظاهر قرطبة متنزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة، ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة، وسكانها الخمسمائة ألف، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر، من استكمال الفخامة الملوكية، والقصور الميادين والرياض الشائعة، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عبدالرحمٰن الداخل، حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلاً ومتنزهاً ملوكياً، وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة، فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه وسحق أعدائه في الداخل والخارج، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ، وثاب له رأي في أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة، فأنشأ مدينة الزهراء، ولإنشاء الزهراء قصة، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التي ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة، وتقول هذه الرواية أن الذي أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هي جاريته وحظيته «الزهراء» وأنه ورث من إحدى جواريه مالاً كثيراً، فأمر أن يخصص لافتداء الأسرى المسلمين، ولكنه لم من الأسرى من يفتدي، فأوحت إليه «الزهراء» بأن ينشىء بهذا المال، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكانها[1].

ولكن بعض المؤرخين يرجحون أن يكون مشروع الناصر بسبب بواعث الملك والسياسة، وإلى عرض فخامة الملك، والترفع بمظاهره وخصائصه، عن المظاهر العامة، لعاصمة مكتظة زاخرة.

ولكن شغف الناصر بالعمارة كان له دور أيضاً في تحفيزه لإقامة هذه الضاحية الملوكية، وذلك لقوله:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبألسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا وكم	مُلْك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه	أضحى يدل على عظيم الشأن

(١) نفح الطيب جـ١، ص٢٤٥.

وقد اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة، على قيد خمسة أميال أو ستة منها، من سفح جبل يسمى جبل العروس[(١)].

وكان البدء في بنائها في فاتحة المحرم سنة **٣٢٥هـ/** نوفمبر سنة **٩٣٦م**. وعهد الناصر إلى ولده وولي عهده الحكم، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة، وحشد لها أمر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء[(٢)] ولاسيما من بغداد وقسطنطينة[(٣)].

وجلب إليها الرخام الأبيض والأخضر والوردى من المرية وريُّة ومن قرطاخية إفريقيا وتونس، ومن الشام وقسطنطينية، وجلب إليها من سوارى الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة أربعة وعشرين سارية[(٤)].

وكان يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخمسمائة، ويعدلها من الصخر المنحوت نحو ستة آلاف صخرة في اليوم، وقدرت النفقة على بنائها بثلاثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر، هذا عدا ما أنفق عليها في عهد ولده الحكم[(٥)].

وابتنى الناصر في حاضرته الجديدة قصراً منيفاً، لم يدخر وسعاً في تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال، تحف به رياض وجنان ساحرة، وأنشأ مجلساً ملوكياً جليلاً سمي بقصر الخلافة، صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب، ومن كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة[(٦)].

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل ص٧٨.

(٢) نفح الطيب جـ١، ص٢٦٦.

(٣) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٤.

(٤) البيان المغرب جـ٢، ص٢٤٦.

(٥) المصدر السابق، ونفح الطيب جـ١، ص٢٦٥.

(٦) نفح الطيب جـ١، ص٢٤٦، ٢٤٧.

وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء، وهو الجناح الشرقي المعروف بالمؤنس بأنفس التحف والجواهر، ونصب فيه الحوض الشهير المنقوش بالذهب، الذي أهدى إليه من قيصر قسطنطينية، والذي جلبه من هناك إلى قرطبة، ربيع الأسقف، وجلب إليه الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً، يقوم عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجواهر، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من أفواهها إلى الحوض(١).

وأجمعت الروايات على أنه لم يبن في أمم مثله (القصر) في الروعة والأناقة والبهاء(٢) وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً، تمَّ بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً، وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين، وزوده بعمد وقباب فخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف، فجاء آية في الفخامة والجمال(٣). وأنشئت فيه مجالات للوحوش متباعدة الساح، ومسارح للطير مظللة بالشباك ودار عظيمة لصنع السلاح، وأخرى لصنع الزخارف والحلى(٤) والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة، تجمع بين فخامة الملك الباذخ وصوله السلطان المؤثل، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية.

وتواصل العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر، حتى وفاته سنة **٣٥٠هـ** واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر، واستغرق بذلك زهاء أربعين سنة من عهد الخليفتين(٥) ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد في سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وبذا كانت إلى جانب قرطبة، أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس. ولما سقطت في سنة **٤٠١هـ** تحت وطأة هجوم البربر وانتزعت من الخليفة هشام المؤيد، رثاها ابن زيدون، مشيداً بها، وبذكرياتها فقال:

---

(١) نفح الطيب جـ١، ص٢٦٦.
(٢) المصدر السابق ص٢٧٤.
(٣) نفح الطيب جـ١، ص٢٦٤.
(٤) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٤.
(٥) نفح الطيب جـ١، ص١٦٤.

خليلي لا فطر يسرُّ ولا أضحى ... فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى

لئن شاقني شرف العقاب فلم أزل ... أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا

معاهد لتراث وأوطان صبوة ... أجلت المعلى في الأماني بها قدحاً

ألا هل إلى الزهراء أوية نازح ... تقضت مبانيها مدامعه نزحاً

مقاصير ملك أشرقت جنباتها ... فخلفا العشاء الجون أثناءها صبحا

يمثل قرطيها إلى الوهم جهرة ... فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبة ... إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا

وذكر محي الدين بن عربي رثاءً قرأهُ على بعض جدران الزهراء بعد ضرابها، جاء فيه:

ديار بأكناف الملاعب تلمع ... وما إن بها ساكن وهي بلقع

ينوح عليها الطير من كل جانب ... فيصمت أحياناً وحيناً يرجع

فخاطبت منها طائر متغرداً ... له شجن في القلب وهو مروع

فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ... فقال على دهر مضى ليس يرجع[1]

وجاء رثاء الزهراء في بعض الروايات نقلها الفتح بن خاقان.

جاء في الرثاء: «وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى يُثخن على خرابها، وانقراض أطرابها، والوهي بمشيدها لاعب، وعلى كل جدار غراب ناعب، وقد محت الحوادث ضياءها، وقلصت ظلالها وأفياءها، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت وفاحت من شذاهم وأرجت، أيام نزلوا خلالها، وتفيأوا ظلالها، وعمروا حدائقها وجناتها ونبهوا الآمال من سناتها، وراعوا الليوث في آجامها وأخجلوا الغيوث عند انسجامها، فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتجار، ولم يبق من آثارها الأنثوي وأحجار، وقد هوت قبابها، وهرم شبابها، وقد يلين الحديد، ويبلى على طيه الجديد»[2].

---

(١) انظر ترجمة المعتمد بن عباد في قلائد العقيان ص١٠.

(٢) نزهة المشتاق ص١٩٣.

وذكر أن بين قرطبة وبين مدينة الزهراء خمسة أميال[1].

وقد ذكر ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي معجم البلدان، والذي وضعه في أوائل القرن السابع الهجري ـ ذكر مدينة الزهراء وموقعها ولكن الزهراء انتهت بانتهاء الأندلس، وسقوط قرطبة في أيدي الإسبان سنة **٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م**.

❋ ❋ ❋

اهتمام الناصر بالجيش

عندما تولى الناصر الخلافة أمسك بزمام دولة استنفدت مواردها الثورة، فتداركها بعزمه وقوة نفسه، واستطاع أن يسحق خصومه في الداخل والخارج، وذلك من خلال جيش قوي، فقد أدرك أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك.

ولذلك فقد عكف على إصلاح الجيش الذي أضناه الكفاح ضد الثورة، وحشد له الجند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب، واستكثر من الأسلحة والذخائر، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشدهم بأساً، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف، وكان إقدام الأمير على تولي القيادة بنفسه مجدداً لعهده الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة، وعني عبدالرحمٰن في الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه، فأنشأ له وحدات جديدة، وكانت المرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسي الرئيسي، وبها أكبر دار للصناعة، وبلغ الأسطول في عهد الناصر زهاء مائتي سفينة مختلفة الأنواع والأحجام، وهذا عدا الأسطول المخصص لشؤون المغرب البحرية، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن، وهكذا كان أسطول الأندلس في ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ، وكان بضخامته وأهباته، يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربي من البحر المتوسط[2].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) دولة الإسلام ع١ ق٢ ص٤٤٦.

الحالة الاقتصادية

كان عهد الناصر عهد رخاء ويسر، فقد توطدت فيه مالية الدولة وامتلأت خزائنها بالأموال الوفيرة، وزاد الخراج والدخل زيادة عظيمة باستتاب السكينة والأمن، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة، وكثرة الأخماس والغنائم، وإن فيما احتوته الزهراء من القصور والمنشآت الباذخة، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة، لما يستوقف النظر.

فجباية الأندلس بلغت في عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار، هذا عدا أخماس الغنائم التي لا تحصى، وقيل إن الناصر خلف عند وفاته في بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاث أثلاث: ثلث لنفقة الجيش، وثلث للبناء والمنشآت العامة، وثلث يدخر للطوارىء[١].

ويقدر المؤرخ العربي دوزي أن الناصر ترك عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب[٢].

«وكان الناصر أغنى ملوك عصره، وأنه وبني حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم في ذلك العصر»[٣].

وكان عبدالرحمٰن الناصر يعتني بتنظيم العملة، وتثبيتها، فأمر في سنة ٣١٦هـ باتخاذ دار السَّكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم، فاتخذت هناك على رسمه، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير، وذلك في ١٧ من شهر رمضان من هذه السنة، فقام بالضرب فيها من هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة، وبذل جهده في الاحتراس من

(١) نفح الطيب جـ١، ص١٧٧.

(٢) المسلمون في الأندلس، رينهارت دوزي، ترجمة د. حسن حبش، جـ٢، ص١٧٣.

(٣) المسالك والممالك لابن حوقل ص٧٧.

المدلسين فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً، وقد كان ضرب النقد معطلاً قبل الناصر، وكان لهذا الإجراء أثره في تثبيت العملة واستقرار التعامل[1] وبلغت الأندلس في عهد الناصر ذروة الرخاء والنعماء والأمن والعزة، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة، ورخصت كلفة العيش، ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف، ومنازلها أكثر من مائة ألف، وحماماتها العامة ثلاثمائة، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية وعشرين، هذا عدا المدينة الوسطى، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب، باب القنطرة، وباب اليهود، وباب عامر، وباب العطارين، وباب طليطلة.. وغيرها.

وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة، ودوت شهرتها في الآفاق، ووصلت إلى قاصية الشمال، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوڤيتا التي اشتهرت بنظمها في أواخر القرن العاشر، أشادت في قصائدها اللاّتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها «زينة الدنيا»[2].



علاقاته الدبلوماسية

تبوأت الأندلس في عهد عبدالرحمٰن الناصر مركز مرموقاً بين الدول الإسلامية، في الوقت الذي تراجعت فيه مكانة الدولة العباسية وفي نفس الوقت كان الفاطميون في موقع أقل من أن ينافسوا الخلافة الأندلسية.

خلاصة القول فإن الأندلس في ذلك الوقت كانت تستأثر بزعامة الإسلام والمسلمين، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية في طلب المودة، وعقد العلاقات الدبلوماسية بين أُمم النصرانية حتى القرن الثامن. ثم نافستها

---

(١) المقتبس لابن حيان.

(٢) البيان المغرب جـ٢، ص٢٤٧.

في ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين، فلما اضمحل شأن المملكة الفرنجية، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية في النصرانية، ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية في القرن العاشر، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية على أواسط أوروبا وغربيها، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد في هذه الحقبة بين شرقي أوروبا وغربيها.

هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام في الغرب حتى نهاية القرن العاشر[١].

وقد كان هذا العصر الذي اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية القوية، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية.

فكانت ثمة معاهدات وسفارات ومراسلات وعلائق دبلوماسية، بين قرطبة وبين معظم الأمم النصرانية، وقد بلغت هذه الصلاة ذروتها في عصر الناصر لدين الله، وتوالت وفود الأُمم النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة، تنشد الحلف والصداقة المهادنة، من زعيم الإسلام في الغرب.

وكان بلاط القسطنطينية برغم بعده عن مقر الخلافة الأندلسية، وعدم اشتراكه في الحدود معها، أول من سعى إلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة، ففي سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٨م[٢] أو في عام ٣٣٨هـ بحسب رواية المقرىء[٣]، وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف «ببورفيرو چنتوس» ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة، وقد بعث الناصر رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى الشاطىء لإرشادهم وخدمتهم، ولما وصل الركب إلى مقربة من قرطبة، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم، ثم بعث الفنيين ياسراً وتماماً فصحباهم إلى دار الضيافة،

---

(١) د. عنان، دولة الإسلام ع١ ق٢ ص٤٥٢.

(٢) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٢.

(٣) نفح الطيب جـ١، ص٢٧١.

بقصر ولي العهد الحكم، في ربض قرطبة، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالي والحشم، وفي اليوم الحادي عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم، وجلس في بهو المجلس الزاهر، وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس، فركبت الجند بالسلاح في أكمل شكل، وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وحفل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة والأعمام والقرابة، وجلس على يمين الخليفة ولده وولي عهده الحكم، وجلس باقي أولاده يميناً وشمالاً، ورتب الوزراء في مراتبهم، وغصَّ المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب، ودخل سفراء ملك الروم، فبهرهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان، وقدموا الهدايا التي يحملونها، وذكر ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان) الذي عاش في عصر هشام المؤيد حفيد الناصر، أنه كان في مقدمة هدايا أرمانيوس ملك الروم إلى الناصر سفرات جليلات من كتب الأقدمين، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس عن الحشائش (وديسقوريدس طبيب وكيميائي يوناني، عاش في القرن الأول الميلادي، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية)، والثاني نسخة من تاريخ أورسيوس (وهو جد ومؤرخ إسباني قوطي) مكتوبة باللاتينية وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم، وأقاصيص الملوك السابقين[1].

وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع، وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه: «قسطنطين ورومانين المؤمنات بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم».

وفي سطر آخر صيغة التوجيه: «العظيم الاستحقاق للفخر، الشريف النسب عبدالرحمٰن الخليفة، الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه» وقد كتب ملك الروم إلى الناصر في شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية، وأنه لم يكن في قرطبة يومئذ من

---

(١) انظر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة جـ٢، ص٤٤٧، ترجمة ابن جلجل.

يحسن هذه اللغة، وأن الناصر كتابه في خطابه إلى أرمانيوس فيما بعد، أن يرسل إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية، فبعث إليه براهب يدعى نيقولا، فحظى عند الناصر، وتوفر على تفسير كتاب ديسفوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة، وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان في بلاط قرطبة من يجيدها(1) وكان الناصر قد أمر أن يخطب الأعلام في ذلك الحفل، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه، وإعزاز كلمته وذلة أعدائه، واستعد بعض الخطباء لذلك، ولكن بهرهم هول المجلس فوجموا وارتج عليهم القول، وكان منهم اللغوي الكبير أبو علي القالي وافد العراق وضيف الخليفة، وكان قد وفد على الأندلس في سنة **٣٣٠هـ**، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه، حتى بهت وتلعثم في صمت، فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطي دون استعداد ولا سابق توقع، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره، ثم أعقبه بقصيدة، وقد جاء في الخطاب بعد الديباجة ما يأتي:

«وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لمت شعثكم، وآمنت سربكم ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فنصركم، ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم، في مثل حدقة البعير من ضيق الحال، ونكد العيش والتقتير فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بين سياسته إلى عهد كنف العافية، بعد استيطان البلاء، أناشدكم بالله معشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفكة فحقنها، والسبل مخوفة فأمنها، والأموال منتهية ما حزرها وحصنها، ألم تكن البلاد خراباً فعمّرها، وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها».

ثم قال: «فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلَم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته

---

(1) المصدر السابق، جـ٢، ص٤٤٧.

أبواب الخير والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليكم وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق».

ثم قال: «فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتكم، فإن من نزع يداً من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها والتمسك بعروبتها، حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وقد علمتم ما أحاط بكم، في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين، الساعين في شق عصاكم، وتفريق ملأكم الآخذين في مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم... الخ»[1].

فأثار بذلامته وثبت جنانه، أيما إعجاب، وأكبر الناصر همته وعلمه، وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده، فأغدق عليه الناصر عطفه، وولاه القضاء، وأصبح من رجال الدولة المشهورين.

ومن شعر منذر بن سعيد في وصف ذلك الحفل المشهود قوله:

مقالي كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكيٍّ ترتمي جمراته ... كبارق رعد عند رعش الأنامل
فما دحضت رجلي ولا ذل مقولي ... ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
وقد حدقت حولي عيون أخالها ... كمثل سهام أثبتت في المقاتل
لخير إمام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو في العصور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالماً أقصى حياة مؤملا ... فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

---

(١) نفح الطيب جـ١، ص١٧٤، ١٧٥.

ولما انصرف رسل قسطنطين، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة وقسطنينية، فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير آداء، وعادت معه رسل قسطنطين[1].

❋ ❋ ❋

خواص عبدالرحمٰن وخواص عصره

لم تصل الدولة الإسلامية في الغرب، إلى ما وصلت إليه في عصر الناصر، من القوّة والسؤدد والهيبة والنفوذ، وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع في شخصية واحدة، سياسية وعسكرية وإدارية، وكان يشبه في حزمه وصرامته وبعد نظره، بجده الأكبر عبدالرحمٰن الداخل[2]، ويقول أحد المؤرخين[3] عنه وعن عصره:

«وظهر لأول ولايته من يمن طائره، وسعادة جده، واتساع ملكه، وقوة سلطانه، وإقبال دولته، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة، وانقياد العصاة لطاعته، مما تعجز عن تصوره الأوهام»[4].

وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد، وما لبث أن اصطفاه وأولاه كل ثقته، وفوض إليه الأمر والنهي، وجعله على حد قول المؤرخين شمساً لملكه وبدراً[5].

وولى أبناءه الثلاثة عبدالرحمٰن وعبدالله وإسماعيل مناصب في القصر والخاص، ولما توفي بدر بن أحمد في شهر رجب سنة **٣٠٩هـ**، ولى الناصر مكانه في الحجابة موسى بن محمد بن حُدير، وجَهْور بن عبدالملك، وعبدالله بن محمد الزجالي، وتولى إدارة الشؤون المالية

---

(١) المصدر السابق، وتاريخ ابن خلدون جـ٤، ص١٤٢.
(٢) البيان المغرب جـ٢، ص١٦٣.
(٣) الحلة السيراء لابن الآبار ص١٠٠.
(٤) البيان المغرب جـ٢، ص٢٤٠.
(٥) المصدر السابق.

عبدالملك بن جهور، وأحمد بن عبدالملك بن شهيد، وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته المشهورة، التي أفاض في وصفها مؤرخو الأندلس، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب، ومائتا أوقية من المسك والعنبر، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب ومائة فرس مسرجة، وعشرون بغلاً عالية الركاب، وأربعون وصيفاً، وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن، وأصناف عديدة أُخرى.

قال ابن خلدون: «وهي مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها».

وقد أجمع مؤرخو الأندلس[١] على أنه لم تقدم هدية في قدرها ونفاستها إلى ملك من ملوك الأندلس. قدمها ابن شهيد إلى الناصر في سنة **٣٢٧هـ**، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره، فوقعت لديه أحسن موقع، وزاده حظوة واختصاصاً وأسمى منزلته على سائر الوزراء، وأسبغ عليه لقب ذي الوزارتين فكان أول من حظى بهذا اللقب من وزراء الأندلس، وضاعف له رزق الوزارة، وجعله ثمانين ألف دينار في العام[٢].

وولي قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد ابن أبي عبده، سليل الأُسرة الشهيرة، التي تولى زعماؤها قيادة الجيوش الأندلسية خلال الفتنة الكبرى، وكذلك وليها الحاجب بدر غير مرة، ووليها الفتيان الصقالبة مثل «نجدة» و «ميسور» وغيرهما.

وقد لاحظنا كيف انتهت سياسة عبدالرحمٰن في إيثار الصقالبة بالقيادة إلى هزيمة موقعة الخندق، وقد كانت كارثة ضخمة أوقعت بالجيوش الإسلامية شر هزيمة، وممن ولي القضاء في عهد الناصر أحمد بن محمد بن زياد، وأسلم بن عبدالعزيز بن هشام، ومنذر بن سعيد البلوطي[٣].

* * *

(١) ابن خلدون جـ٤، ص١٣٨.

(٢) نفح الطيب جـ١، ص١٦٦.

(٣) المصدر السابق.

الناصر أديباً وشاعراً

كان عبدالرحمٰن الناصر عالماً أديباً، يهوى الشعر وينظمه، وكان يقرب الأُدباء والشعراء، وكان في مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وشاعر الدولة الأندلسية منذ محمد بن عبدالرحمٰن، ويفيض ابن عبد ربه في مناقب الناصر، ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة **٣٢٢هـ**، في أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين، ومن شعر ابن عبد ربه في وصف عصر الناصر، واعتزاز الإسلام بدولته قوله:

قد أوضح الله للإسلام منهاجاً — والناس قد دخلوا في الدين أفواجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها — كأنها أُلبست وشياً وديباجا
يا ابن الخلائف إن المزن لو علمت — فداك ما كان منها الماء ثجاجا
والحرب لو علمت بأساً تعول به — ما هيجت من حمياك الذي اهتاجا
مات النفاق وأعطى الكفر رمته — وذلت الخيل إلجاما وإسراجا
وأصبح النصر معقوداً بألوية — تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا
أدخلت في قبة الإسلام بارقة — أخرجتها من ديار الشرك إخراجا
بجحفل تشرق الأرض الفضاء به — كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا
يقوده البدر يسرى في كواكبه — عرمرماً كسواد الليل رجراجا
إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت — حتى عقدت لها في راسك التاجا

ومما ينسب للناصر من النظم، قوله:

لا يضر الصغير حدثان من — إنما الشأن في سعود الصغير
كم مقيم فازت يداه بغنم — لم تنله بالركض كف مغير[1]

❋ ❋ ❋

(١) نفح الطيب جـ١، ص١٦٦.

من أخلاق الناصر

كان الناصر - رحمه الله - سمحاً وافر الجود، وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان أبيض، أشهل، حسن الوجه، عظيم الجسم، قصير الساقين[1] ويشهد المؤرخون بمناقبه فيقول رينهرت دوزي[2] عن عصر عبدالرحمٰن الناصر: «لقد كانت هذه نتائج باهرة، ولكنا نجد إذا ما درسنا ذلك العصر الزاهر، أن الصانع يثير الإعجاب والدهشة، بأكثر مما يثيرهما المصنوع: تثيرهما تلك العبقرية الشاملة التي لم يفلت شيء منها، والتي كانت تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغائر، كما تدعو إليه في أسمى الأمور، إن ذلك الرجل الحكيم النابه، الذي استأثر بمقاليد الحكم، وأسس وحدة الأمة، ووحدة السلطة معاً، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي، والذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالاً من غير المسلمين، لأجدر بأن يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى».

وقد استطاع عبدالرحمٰن الناصر أن يجعل من الأندلس دولة شاع فيها السلام والأمن والازدهار، تنعم بثراء لا حدود له، ومن دون أن يلتقط أنفاسه، شن حرباً ناجحة ضد أعدائه، وضمن بقوة جيشه أمن حدوده وتجنب بمهارة التهديد الفاطمي، وجعل من قرطبة عاصمة تنافس القيروان والمدن الكبرى في المشرق، والتي تجاوزت بكثير العواصم الأوروبية الغربية، وحظيت في عالم البحر الأبيض المتوسط بسمعة طيبة ومكانة يقارنان فقط بما كانت تتمتع به القسطنطينية، وعلى الرغم من الحكم المطلق الذي كان سائداً في العالم آنذاك، فإن حكم عبدالرحمٰن كان بعيداً عن الأخطاء التي كان بالإمكان أن يقع فيها أمير لا يتمتع بكفاءته، ولا يعرف واجباته جيداً.

كان عبدالرحمٰن أجرأ وأكرم من أنداده النَّصارى في مجال التسامح

---

(١) ابن الأثير جـ٨، ص١٧٧.

(٢) تاريخ المسلمين في الأندلس، رينهارت دوزي جـ٢، ص١٧٥، ط مصر، ترجمة د. حسن حبشي.

الديني إذ أجاز للنصارى واليهود ممارسة شعائرهم الدينية في الأندلس بحرية تامة، فقرَّب اليهود، وعينهم في المناصب المالية، هذا في الوقت الذي اتصف فيه النصارى بالتعصب الديني ضد كل ما هو غير نصراني، وآوى إلى بلاطه رجالاً من مختلف الأديان، كان يستشيرهم في شؤون الحكم.

***

وفاته

وأخيراً مات الخليفة عبدالرحمٰن الناصر سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، وهو في الثالثة والسبعين من عمره بعد حكم دام نصف قرن، وعلى الرغم من هذا العهد الطويل فقد نسبت إليه عبارة كتبها بنفسها في آخر حياته يقول فيها: أن الحياة السعيدة التي تمتع بها حقًّا في حياته كانت أربعة عشر يوماً[(١)].

وقد رثاه الوزير جعفر بن عثمان المصحفي فقال:

إلا إن أيـامـاً هـفـت بـإمـامـهـا	لـجـائـرة مـشـتـطـة في احـتـكـامـهـا
فـلـم يـؤلـم الـدنـيـا عـظـام خـطـوبـهـا	وأحـداث إلاّ قـلـوب عـظـامـهـا
تـأمـل فـهـل مـن طـالـع غـيـر آفـل	لـهـن وهـل مـن قـاعـد لـقـيـامـهـا
وعـايـن فـهـل مـن عـائـش بـرضـاعـهـا	مـن الـنـاس إلاّ مـيـت بـفـطـامـهـا
كـأن نـفـوس الـنـاس كـانـت بـنـفـسـه	فـلـمـا تـوارى أيـقـنـت بـحـمـامـهـا
فـطـار بـهـا يـأس الأسـى وتـقـاصـرت	يد الصبر عن أعوالها واحتدامها[(٢)]

ومما يدل على عظمة هذا الخليفة ومدى احترام الملوك له أن الملك الإسباني أوردونيو الرابع ملك ليون حينما زار الأندلس في أوائل عهد الخليفة الحكم المستنصر بن عبدالرحمٰن، سأل عن قبر الناصر وذهب إليه وركع أمامه في خشوع مظهراً عظيم احترامه لذكراه[(٣)].

---

(١) البيان المغرب لابن عذاري ج٢، ص٢٢٨.
(٢) دولة الإسلام، عنان ع١ ق٢ ص٤٦٣ ط الخانجي مصر.
(٣) د. العبادي ص١٦٠، مصدر سابق.

وقد ذكر المؤرخون أنه يمكن تقسيم حكم عبدالرحمٰن الناصر، الذي امتد لنصف قرن إلى ثلاثة أقسام أو مراحل زمنية هي:

الأولى: استطاع أن يفرض سلطانه على أتباعه، ويرقى بنفسه إلى أعلى درجات الخلافة والحكم.

الثانية: مرحلة ترتيب البيت الداخلي فقام بتنظيم البلاد، وإظهار نفسه فيما وراء الحدود كعدو مهاب.

الثالثة: جعل كل شيء في يده، وأصبح القصر مركزاً للحياة العامة، فاشتد ساعد الحاشية مما جعله رجلاً قوياً ينفذ بحزم وعزم بقراره من بين كل هؤلاء. رحم الله الناصر، رجل الخلافة الأندلسية العظيم.

❋ ❋ ❋

الخليفة الحكم المستنصر بالله (الحكم الثاني)

اعتلى الحكم العرش وهو كبير السن، وكان عمره وقتذاك قد جاوز الخامسة والأربعين، وهذا راجع إلى طول عهد أبيه.

وقد ولي الخلافة في يوم الخميس لثلاث خلون من شهر رمضان ٣٥٠هـ/ ٩٦١م اليوم التالي لوفاة أبيه عبدالرحمٰن الناصر، وقد استغرقت مدة خلافة أبيه عمره حتى كان يقول له، فيما يحكى عنه: «لقد طولنا عليك يا أبا العاصي»[١].

وبتوليه طويت ألمع صفحة من تاريخ المسلمين في الأندلس، استقرت الخلافة في حقبة حكم أبيه الناصر على أسس ثابتة، وسحقت الثورات الداخلية، ورُدَّت اعتداءات النصارى في الشمال، وتمتعت الأندلس في أواخر أيامه بعهد من السلم والاستقرار والرضاء لم تشهده من قبل.

وكان الحكم أكبر أولاد الناصر، وكان والده قد آثرهُ، منذ حداثته،

---

(١) الحلة السيراء (١/٢٠٠).

عن سائر إخوته وولاّه عهد، وبويع في اليوم التالي لوفاة والده في قصر الزهراء، وجلس على العرش في البهو الأوسط الذهبي، وتلقى البيعة من إخوته، وسائر الوزراء ورجال الدولة، وأكابر الفتيان الصقالبة، ومن دونهم من رجال الخاص، وأهل الخدمة، وأكابر الجند، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم في المجلسين الشرقي والغربي، وفي مختلف الأروقة. وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الجند، فيما وراء باب السُّدة، صفوفاً منتظمة حتى باب المدينة، ولما تمت البيعة، أذن للناس في الانصراف إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة، فإنهم لبثوا بالقصر، حتى احتمل جسد الخليفة الذاهب (الناصر) إلى قصر قرطبة ليدفن هنالك في مقبرة القصر[١].

❋ ❋ ❋

نسبه ومولده

هو الحكم بن عبدالرحمٰن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمٰن كنيته: أبو المطرِّف[٢] ويقول المراكشي: يكنى أبا العاصي[٣]. ولقبه: المستنصر بالله، أُمه أُم ولد اسمها: مهرجان[٤] ويقول المراكشي في المعجب اسمها: مرجان ـ وقد ولد في خلافة عبدالرحمٰن الناصر ٣٠٢هـ/ ٨٩٤م.

❋ ❋ ❋

صفة الحكم (المستنصر بالله)

كان الحكم ـ رحمه الله ـ أبيض مشرباً بحمرة، أعين، أمتى، ارتفع وسط قصبة الأنف، وضاق منخراه، جهير الصوت، قصير الساقين، ضخم

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٤١، والبيان المغرب جـ٢، ص٢٤٤.
(٢) البيان المغرب ٢/٢٣٣.
(٣) المعجب في تاريخ المغرب، عبدالواحد المراكشي ص٥٩.
(٤) البيان المغرب ٢/٢٣٣.

الجسم، غليظ العنق، عظيم السواعد، أفقم[1]. تولى الحكم المستنصر منصب الخلافة ولديه تجربة في فن الحكم اكتسبها في عهد والده، إلاّ أنه لم يكن رجل سياسة محترف، بل كان نموذجاً خاصاً بين الحكام الأمويين في الأندلس، وحرص خلال عهده على عدم تغيير القواعد السياسية التي أرساها والده، واستمر على نهجه في الحكم، لكنه لم يكن على المستوى نفسه من الحزم والقوة التي كان عليها والده[2].

ولعل الفارق بين الرجلين أن الأب كان شديد الحذر لا يطمئن إلى مساعديه إلاّ بمقدار، انطلاقاً من إيمانه بنظرية الحق المطلق، في حين أن الابن ألقى كثيراً من أعباء الحكم على عاتق وزيره جعفر بن عثمان المصحفي[3].

ويبدو أن لذلك علاقة بمدى اهتمام الخليفة بجمع الكتب وقراءتها الذي لا يتفق عادة مع السياسة، والمعروف أن الحكم المستنصر كان عاشقاً للكتب جمّاعاً لها، حافظاً للتاريخ، وفي هذه دلالة على أنه كان مدمناً على القراءة، يقضي معظم ساعات النهار في مكتبته الزاخرة بصنوف المخطوطات، أو في صحبة العلماء والفلاسفة والمؤرخين نذكر منهم ابن حزم، صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب، وأبو علي القالي اللغوي، صاحب كتاب الأمالي، وربيع بن زيد، عالم الفلك والفلسفة، ورجل له تلك الهواية، من الطبيعي أن في السلطة مكاناً غير مناسب إلى حد ما، ومع ذلك فإنه كان يجد متسعاً من الوقت للقيام بأعباء الحكم ومعالجة شؤون الدولة، والواضح أن التجاه إلى اقتناء الكتب وقراءتها مردُّه إلى الاستقرار السياسي الذي شهده عصره[4]. وكذلك نذكر من علماء عصر المؤرخ القرطبي أبا بكر محمد المعروف بابن القوطية ويتضح من اسمه أنه من

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الدولة العربية في الأندلس، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية بيروت ط٨٠، ص٣٢٧.

(٣) ابن خلدون ج٤، ص١٤٤.

(٤) نفح الطيب ج١، ص٣٧٨، وبيضون ص٣٢٨، مصدر سابق.

سلالة امرأة قوطية إسبانية وهي الأميرة سارة حفيدة الملك غيطشه القوطي. وقد تزوجت القائد العربي عيسى بن مزاحم مولى هشام بن عبدالملك ومن سلالتها جاء ابن القوطية ومن أهم أعمال هذا الرجل كتاب في النحو يعرف بكتاب الأفعال. ومن علماء هذا العصر أيضاً، أبو بكر محمد الزبيدي الإشبيلي وهو من تلاميذ القالي جاء من اليمن ودرس مع القالي وصار من علماء النحو ومؤدباً لولي العهد هشام ولد المستنصر وكان كثيراً ما ينشد:

الفقر في أوطاننا غربة ... والمال في الغربة أوطان
والأرض شيء كلها واحد ... والناس إخوان وجيران(1)

ونعود لابن القوطية فقد كان له أيضاً كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» يبدأ بالفتح الإسلامي لإسبانيا وينتهي بوفاة عبدالله الأموي سنة ٩١٢م.

ومن شيوخ هذا العصر أيضاً العالم المغربي محمد بن حارث الخشني الذي انتقل من القيروان إلى قرطبة بدعوة من الخليفة الحكم المستنصر الذي طلب منه كتابة تاريخ القضاء في الأندلس وسمح له بدخول المكتبة الملكية والاستفادة من كنوزها، فكتب الخشني «كتاب القضاء في قرطبة» الذي يتضمن معلومات هامة عن الحياة الاجتماعية في الأندلس في هذه الفترة. وهكذا اجتمع في قرطبة علماء كثيرون، ومكتبة ضخمة وملك عالم، اجتمعوا في وقت واحد، وهذا يدل على مدى الازدهار العلمي الذي تمتعت به الأندلس في القرن الرابع الهجري(2).

وللخليفة المستنصر نواحي أُخرى خيِّرة تتجلى في الأعمال التي قام بها لتيسير العلم على الفقراء والمساكين مجاناً. يقول ابن عذارى في هذا الصدد: «ومن مستحسنات أفعاله اتخاذه المؤدبين (المعلمين) يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع، وبكل ربض من أرباض قرطبة وأجرى عليهم المرتبات وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء

---

(1) نفح الطيب جـ٤، ص٧٤.

(2) د. العبادي ص١٦٢، مصدر سابق.

وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة، وفي ذلك يقول الشاعر محمد بن شخيص:

وساحة المسجد الأعلى مكللة ... مكاتباً لليتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم ... نادتك يا خير تاليها وواعيها[1]

ولم يكن الحكم حين ولايته، حديثاً في شؤون الحكم، أو محدثاً في أمور الملك، بل لقد مارس الحكم في حياة أبيه، وتمرّس في شؤون السياسة والحرب، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشؤون الخطيرة، فكان عند جلوسِهِ أميراً مكتمل النضج والخبرة.

مسجد قرطبة:

وقد بدأ الحكم عهده بالنظر في توسيع المسجد الجامع، وأصدر بذلك مرسومه في اليوم التالي لجلوسه، وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بجموع المصلين، فتقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى صحنه، وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع، فتضاعف بذلك حجمه، وابتنى الحكم مرآبه الثالث، واستغرق بناؤه أربعة أعوام، وعملت له قبة فخمة زخرفت بالفسيفساء البديعة، وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثاني إلى الحكم منها قدراً كبيراً، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء، وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطي، وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد، وتشغل زيادة الحكم في الجامع قسمه الأوسط، الواقع بين الجناح القديم، الذي أنشأه عبدالرحمٰن الداخل وزاد فيه عبدالرحمٰن الأوسط، والجناح الذي أنشأه الحاجب المنصور، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية[2].

❋ ❋ ❋

---

(١) البيان المغرّب لابن عذارى جـ٢، ص٢٤٠، ٢٤١.

(٢) البيان المغرب جـ٢، ص٢٤٩، وأعمال الأعلام ص٤٨.

وقف للمسجد من الأمير المستنصر

لما أتم الأمير الزيادة في المسجد أراد أن يقف له وقفاً حتى يستمر الإنفاق على المسجد، ولا يتعطل بفعل فاعل، أو محاولة جائر، فبعث إلى الفقهاء والعدول والشهداء وأعيان الناس، ووجوههم وقضاتهم وأئمتهم، فحضروا جميعاً، ثم قام فيهم فحمد الله، وأثنى عليه، وجدّد شكره على توفيقه، لإحداث هذه الزيادة في المسجد الجامع.

ثم قال: إنه تلقى هذه النعمة العظيمة بأن حَبَس ريع جميع ما جرته إليه الوراثة عن أبيه أمير المؤمنين في جميع كور الأندلس وأقاليمها على ثغور الأندلس كافة، تفرق عليهم غلات هذه الضياع عاماً بعد عام، على ضعفائهم، إلاّ أن تكون بقرطبة مجاعة، فتفرق فيهم إلى أن يجبرهم الله.

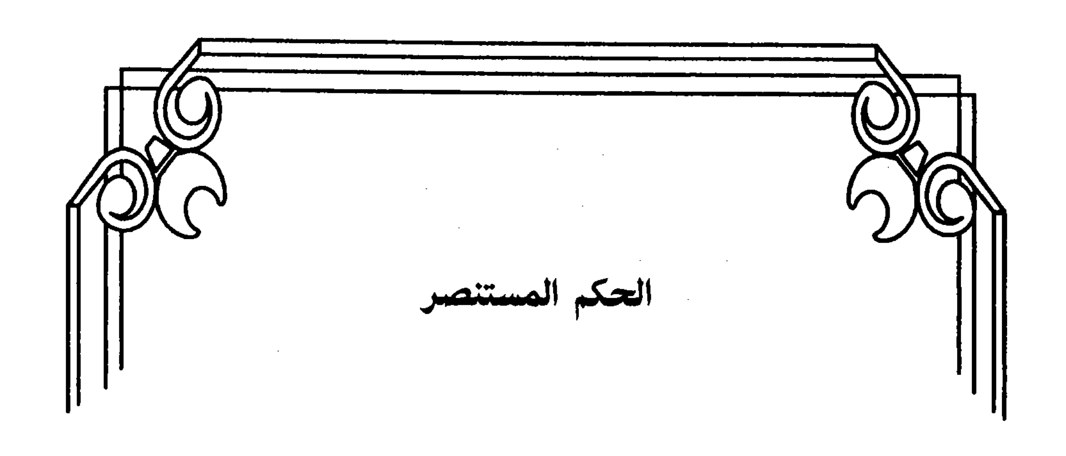
وجعل القبض والنظر من هذا الوقف إلى حاجبه وسيف دولته جعفر، وجعل ذلك إلى وزيره وكاتبه عيسى بن فُطيش، وأشهد الحاضرين على ذلك. وأشهدهم أيضاً بعتق كل مملوك له من الذكران، وخرج غازياً إلى بلاد المشركين(١).

هذه صورة عامة عن الحكم وشخصية أوجزناها لننتقل إلى التفاصيل.



---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٢٣٤.



الحكم المستنصر

سياسته إزاء صراع أمراء النصارى

كان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (شانجه) ملك ليون ابن أردنيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه، وفر ابن عمه ومنافسه أردنيو الرابع مهزوماً إلى برغش سنة ٩٦٠م، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون، أن يهدم النصارى بعض حصون الحدود، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين، فلما توفي الناصر بعد ذلك بقليل، نكث سانشو بالعهد، وأبى تنفيذ ما وعد، ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد في عدوان النصارى، وذلك أن قشتاله ـ وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ـ كانت تنزع إلى الاستقلال، وكان زعيمها الكونت (القومس)[1] فرنان كونثالث رجلاً مقداماً يلتف حوله مواطنوه، فثار على سانشو، وأعلن استقلال قشتاله، ونصب نفسه أميراً عليها، وأخذ يغير على أراضي المسلمين المجاورة، وهي مما يلي غرب الثغر الأعلى، وشمال الثغر الأوسط، وانضم إليه كثير من النصارى المتعصبين، فنما بذلك جيشه واشتدَّ بأسه، وكان الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه، ويعتمد على مناعة قلاعه الواقعة على الحدود وقد أغضى الحكم في البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالسلم، ولكنه لما رأى تمادي النصارى في بغيهم، أخذ

(١) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٤.

في التأهب للحرب، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد في سبيل الله.

وكان أردنيو الرابع الملك المخلوع، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد عرشه، وقد وفد أردنيو على قرطبة في عشرين رجلاً من وجوه أصحابه، ومعهم غالب الناصري مولى الحكم وصاحب مدينة سالم، وذلك في آخر صفر سنة ٣٥١/ ٣٠ مارس ٩٦٢م.

واستقبلهم الوزير هشام المصحفي في قوات كثيفة من الجند، فلما دخلوا قصر قرطبة، ووصل أردنيو إلى ما بين باب السُدَّة وباب الجنان، سأل عن قبر الناصر، فأشير إليه في الروضة، بداخل القصر، فسار إليه وخلع قلنسوته، وانحنى أمامه خاشعاً، وأنزل أردنيو وصحبه من دار الناعورة الفخمة، وبولغ في إكرامهم، وبعد يومين استدعاه الحكم إلى قصر الزهراء، وقد حشدت قوات عظيمة من الجند، وبولغ في الاحتفال بالزينات، وإظهار الأسلحة والعدد، وجلس الحكم فوق سرير الملك في المجلس الشرقي، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر، وجيء بأردنيو وأصحابه، ومعهم جماعة من وجوه النصارى - نصارى الأندلس - فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة وقد بهروا بما رأوا، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة، وأجلسوا برهة الانتظار، ثم استدعوا للمثول بين يدي الخليفة، فسار أردنيو ومن ورائه أصحابه، فلما وصل إلى المجلس الخلافي كشف رأسه وخلع برنسه، ولما دنا من سرير الحكم سجد أمامه ثم قبل يده، ثم ارتد راجعاً إلى كرسي من الديباج المثقل بالذهب، وتولى الترجمة بين أردنيو والخليفة، وليد بن خيزون قاضي الذمة بقرطبة، وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردنيو، ووعده برعايته، وبسط أردنيو قضيته، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو، مع أن الشعب كان قد آثره باختياره، ولكن خصمه لجأ إلى الخليفة الراحل واستجار به، فأغاثه ونصره عليه، ومع ذلك فقد قصَّر في الوفاء بعهوده، وأن يضع نفسه وبلاده وشعبه تحت رعاية الخليفة، وأن يتعهد بمحالفة الإسلام، ومقاطعة صهره فردلند القومس أمير قشتالة،

ويقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه[1]، وهنا وعده الخليفة بعونه ونصرته في تمليكه ما كان له، وانصرف أردنيو بعد الشكر والتحية.

وخرج أردنيو من المجلس بعد أن بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسلطان، وقدم إليه الحاجب جعفر الهدايا التي أمر بها الخليفة له ولأصحابه، وألقى الخطباء والشعراء خطبهم وقصائدهم، منوهين بروعة هذا اليوم العظيم، فمن ذلك قول عبدالملك ابن سعيد المرادي في قصيدة أنشدها:

ملك الخليفة آية الإقبال	وسعوده موصولة بنوال
والمسلمون بعزة وبرفعة	والمشركون بذلة وسفال
ألقت بأيديها الأعاجم نحوه	متوقعين لصولة الرئبال
هذا أميرهم آتاه آخذاً	منه أواصر ذمة وحبال
متواضعاً لجلاله متخشعاً	متبرعاً لما يرع بقتال[2]

علم سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه، فخشى عاقبة هذا السعي، فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأحبار، يعرض عليه أن يقترن بطاعته، وأن يقوم بتنفيذ ما تعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود، وهدم البعض الآخر[3]، لكن أردنيو ما لبث أن توفي، وعاد سانشو إلى نقض العهد ونكثه بعد أن أمن شر منافسه أردنيو لوفاته.

عندئذ شعر الأمراء النصارى بخطورة أهبة المسلمين العسكرية وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً، لكي يستطيعوا مواجهتهم، وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة، وغرسية سانشير ملك نافار، وكونت برشلونة، وتأهب الجميع لمحاربة المسلمين.

---

(١) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٥.
(٢) البيان المغرب جـ٢، ص٢٥١.
(٣) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٥.

وقد أدى اختفاء أردنيو الرابع عن ساحة المنافسة السياسية ضد سانشو، أدى إلى:

١ ـ تحرير الحكم المستنصر من التزاماته الأدبية بدعم معركته ضد شانجة.

٢ ـ تبديد مخاوف شانجة وإراحته من كابوس ثقيل.

٣ ـ أضحى بوسع ملك ليون أن ينكث مرة أُخرى، بما عهد به للحكم المستنصر، وتكوين حلف ضده يجمعه مع ملك قشتاله وإمرار نبَّرة وبرشلونة.

❋ ❋ ❋

غزو الحكم المستنصر لنصارى الشمال

في صيف سنة **٣٥٢هـ/ ٩٦٣م** خرج الحكم للغزو، معلناً الجهاد، واجتمعت إليه الجيوش في طليطلة، فسار مخترقاً جبال وادي الرملة إلى أراضي قشتالة، وأشرف على قلعة شنت اشتيين المنيعة فحاصرها المسلمون، واستولوا عليها، وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثالث، أن يقف في سبيل المسلمين، واجتاح المسلمون أراضيه، ومزقوا قوّاته، حتى أذعن إلى طلب الصلح، ولكنه نكث عهده، فهاجمه المسلمون كرة أخرى، واستولوا على بلدة انتيسي الحصبية[(١)].

وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحيى بن محمد التجيبي حاكم سرقسطة في اتجاه نافار، وكان ملكها غرسية سانشير، قد أغار على الأراضي الإسلامية ناكثاً لعهده، وهرع حليفه سانشو ملك ليون في قواته لإنجاده، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها النصارى وامتنعوا بالجبال، وفي نفس الوقت سار القائد غالب، مولى الحكم في جيش قوي إلى مدينة

(١) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٤.

قلهرة، من قواعد ناڤار الغربية فافتتحها وحصّنها وشحنها بالرجال والعدة، وكان فتحاً عظيماً، وسار حاكم مدينة وشقة في قواته شمالاً نحو أراضي ناڤار مما يلي جبال البرنية، واستولى على حصن يبه، واجتاح تلك المنطقة، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية[1] واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة، الصائفة في سنتي **٣٥٢ و ٣٥٣هـ/ ٩٦٣- ٩٦٤م**.

وفي عام **٣٥٤هـ/ ٩٦٥م** سار غالب إلى بلاد إلبة، ومعه يحيى بن محمد التجيبي، وقاسم بن مطرف بن ذي النون، فاستولى على حصن غرماج، وتقع قاعدة «غرماج» الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت اشتيين، وكان الناصر قد انتزعها من النصارى في عام **٩٤٠م** وقد استولى عليها القشتاليون قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو، فاستردها المسلمون في صائفة سنة **٣٥٣هـ** أو الصائفة التالية، وأقاموا بتحصينها لمدافعة القشتاليين في هذه المنطقة[2].

وقد ذكر المؤرخون أن المسلمين قاموا بغزوات ناجحة عامي **٣٥٥، ٣٥٦هـ**[3].

غنم المسلمون في هذه الغزوات الكثير من السلاح والدواب والأطعمة والسبي[4].

وبرز في هذه الهجمات كل من القادة يحيى بن محمد التجيبي حاكم سرقسطة، وغالب بن عبدالرحمٰن، وسعيد أحد عتقاء الحكم المستنصر.

وقد حققت هذه الانتصارات الإسلامية، الأمان لمناطق الحدود، ومن واقع فرض الهدنة على الممالك النصرانية، ثم حدث أن توفي شانجة، ملك ليون مسموماً في عام **٣٥٥هـ/ ٩٦٦م** وخلفه ابنه الطفل راميروا الثالث الذي لم يتجاوز الثالثة من العمر، فتولت عمته الراهبة ألڤيرا، الوصاية عليه،

---

(١) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البيان المغرب جـ٢، ص٢٥٥.
(٤) رينهارت دوزي جـ٢، ص٦٥.

فرفض أمراء ليون الدخول تحت إمرة طفل ووصاية امرأة، وأخذ كل منهم يعلن استقلاله بما تحت يده من إقطاعات ويتصرف بمعزل عن الآخر، فتفككت بذلك مملكة ليون إلى عدّة كيانات راحت تتسابق في إرسال السفارات إلى قرطبة لطلب المساعدة ضد بعضها البعض. وأرسلت الممالك والإمارات الأخرى سفارات إلى قرطبة، إما بهدف المساعدة أو لتجديد الصداقة والمودة، من ذلك، فقد أرسلت كل من جليقية واشتوريس سفارة إلى العاهل الأموي، تطلب منه المساعدة لصد خطر النورمان الواقع عليها، ثم وفدت إلى قرطبة، سفارة من جانب شانجة غرسية الثاني ملك نبَّرة، الذي خلف والده لطلب الصلح، وفي شعبان سنة **٣٦٠هـ** حزيران **٩٧١م** وفدت إلى العاصمة الأموية سفارة أمير برشلونة بوريل، لتجديد التقارب والمودة مع الحكم المستنصر، وفي (٦ ذي الحجة/ تشرين الأول) وفدت الراهبة ألڤيرا لعقد معاهدة سلام، وكذلك أرسل كل من فرديناند لينيز، كونت سلمنقة، وغرسية فرديناند ملك قشتالة سفارة إلى قرطبة من أجل تحقيق السلام أيضاً[١].

وقد استقبل الحكم تلك السفارات بترحيب وحفاوة، وحقق رغبة مرسليها، مما جعل قرطبة محط هؤلاء الملوك والأمراء. إذ أن قرطبة أصبحت تغدو شيئاً فشيئاً، مركز التوجيه في شبه الجزيرة الإسبانية كلها، وتغدو كعبة لملوك إسبانيا النصرانية، يغدون إليها تباعاً يقدمون إليها عهود الطاعة، ويلتمسون منها الصداقة والعون وقد بدأ تقاطر هذه الوفود التي تحدثنا عنها من سنة **٣٥٥هـ/ ٩٦٦م** واستمر عدة أعوام[٢].

وكان هذا التقارب الذي سعى إليه ملوك وأمراء النصارى في الشمال الإسباني يحقق رغبة آنية لدى هؤلاء لن تلبث أن تتلاشى بتغير الظروف التي فرضتها، إذ أن الخلافات بين الطرفين الإسلامي والنصراني الشمالي كان عميقاً بشكل لا يمكن ردمه، واشتهر هؤلاء بتقلباتهم السريعة وبأنهم

---

(١) رينهارت دوزي، مصدر سابق جـ٢، ص٦٥، ٦٦.

(٢) دولة الإسلام، د. عنان ص٤٨٩ ع١ ق٢.

انتهازيين يستغلوا الفرص، فقد أرسل ملك قشتالة غرسية فرديناند سفارة إلى قرطبة في ذي الحجة **٣٦٣هـ**/ أغسطس **٩٧٤م** لتجديد معاهدة السلام، وقام في الوقت نفسه بمهاجمة الأراضي الإسلامية، فاقتحم حصن ديثا الواقع شمال شرقي مدينة سالم، فأحرق الزرع واستاق الماشية، وصلت أنباء هذا الاعتداء إلى قرطبة في الوقت الذي غادرت فيه السفارة القشتالية، فأرسل الحكم المستنصر من قبض على أعضائها وأودعهم السجن[١].

وقد حاول ملك قشتالة بهذا التصرف الأحمق الاستفادة من غياب غالب بن عبدالرحمٰن قائد قوات حرس الحدود، من مهمة في شمالي إفريقيا، لكن سرعان ما عاد غالب إلى مركز عمله بناءً على أوامر الحكم المستنصر لمعالجة الأمور.

وفي أثناء ذلك استطاع غرسية فرديناند إقناع جيرانه في ليون ونبَّرة بمساندته في حربه، فتم تشكيل جيش مشترك من ليون وقشتاله ونبّرة، يبلغ تعداده نحو ستين ألف مقاتل، وفي شهر شعبان سنة **٣٦٤هـ**/ نيسان **٩٧٥م** هاجم هذا الجيش حصن غرباج كما ذكرنا سابقاً، ونشب قتال عنيف بينه وبين حامية الحصن في **٥** شوال /٢٨ حزيران تكبد فيه الحلفاء الثلاثة خسائر فادحة واضطروا، تحت ضغط القتال، إلى الارتداد عن الحصن، وتعرضوا لعملية مطاردة، وكان غالب بن عبدالرحمٰن يتقدم، في غضون ذلك، نحو الحصن وهو يحمل أوامر واضحة بفك الحصار عنه، فتلقى أنباء انتصار المسلمين في الحصن، وهو في الطريق، فأراد استغلال هذا الظرف إلى أقصى حد ممكن، فقام بمهاجمة أراضي قشتالة، وألحق الهزيمة بغرسية فرديناند في يد لانفا، جنوبي نهر دويرة، ثم استولى على هذه المدينة، كما قام والي سرقسطة المرافق للحملة بمطاردة قوات نبَّرة وهي عائدة إلى بلادها، وهزمها في استركويل، بالقرب من تطيلة، وفتح المسلمون مدينة براهوما الواقعة شمالي مدينة سالم[٢]. وبهذا أعاد القائد

---

(١) تاريخ إسبانيا الإسلامية، ليفي بروفنسال ص٤٣٧.

(٢) المصدر السابق ص٤٣٧، ٤٣٨.

الأموي غالب بن عبدالرحمٰن السيطرة الإسلامية إلى وضعها السابق والذي استمر طويلاً.

❋ ❋ ❋

النورمان يغزون الأندلس

كانت غارات النورمان مستمرة على أوروبا الغربية منذ انطلاقهم من بلادهم في اسكنديناوة وشبه جزيرة الدنمارك في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ومن الدول التي عانت من خطر النورمان إنكلترا وفرنسا، واضطر ملوك فرنسا أن يعقدوا معهم المعاهدات لاتقاء خطرهم، كما بذلوا لهم الأموال مقابل وقف تعدياتهم.

ثم عادوا إلى تهديد فرنسا، وكان بقيادة زعيمهم رولون واضطر الملك الفرنسي شارل البسيط أن يعرض عليهم الاستقرار في هذا الجزء - الممتد من السوم حتى بريتاني - بموجب معاهدة سانت كلير الشهيرة من عام (٢٩٨هـ/ ٩١١م) وهو الذي دُعي باسمهم، وعُرِف منذ ذلك الوقت باسم نورمنديا.

كانت حوادث المغرب الأقصى (التي سنتحدث عنها فيما بعد) وما يتهدد الأندلس من جراء طموحات الفاطميين وحلفائهم في تلك المنطقة، مما يشغل الحكم المستنصر وحكومته في قرطبة، ويحفزها دائماً إلى الحذر واليقظة والاستعداد، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم في شهر رجب سنة **٣٥٣هـ** إلى ثغر المرية (سبتمبر سنة **٩٦٤م**) في جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الجارية فيها، وليتخذ ما يجب لتجديد الأسطول وتعزيزه، وكانت المرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسي، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة[١].

وبعد فترة وجيزة جاء الغزو النورماندي يتهدد الأندلس، ففي أواخر

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب جـ١، ص٤٨٦.

سنة **٣٥٥هـ** أواخر سنة **٩٦٧م** ظهرت سفن النورمان أو المجوس في مياه الشاطىء الغربي قبالة ولاية الغرب.

وكان النورمان قد ظهروا في مياه الأندلس لأول مرة في سنة **٢٢٩هـ/ ٨٤٣م** أيام عبدالرحمٰن بن الحكم، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية في ذلك الحين، وكان أولئك الغزاة النورمان في هذه المرة من أهل دانماركة المجوس، ويقودهم ريتشارد الأول دوق نورماندي، وحفيد زعيمهم الكبير رولو، وكانت عدّة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً نزل بحارتها على شاطىء منطقة قصرابى دانس وهو ثغر برتغالي صغير يقع في جنوب شرقي إشبونة، وعاثوا في تلك المنطقة، ثم زحفوا شمالاً إلى بسائط وسهول اشبونة الغنية اليانعة، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً، واجتمع المسلمون في تلك المنطقة لقتالهم، ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين، وفي تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادي الكبير بقيادة أمير البحر عبدالرحمٰن بن رماحس، وسار على عجل إلى شاطىء البرتغال الجنوبي، وكان الغزاة قد انحدروا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطىء، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شِلْب، فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة، وأنقذوا من كان بها من أسرى المسلمين، وقتل كثير من النورمان، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية[١]. ولم تمض بضعة أعوام على ذلك، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال المياه الغربية، (**٣٦٠هـ/ ٩٧١م**) مرة أخرى، وتهدد شواطىء ولاية الغرب الغنية.

وعن هذه الغزوة الثانية يقول ابن حيان في المقتبس: أن الحكم عهد إلى أمير البحر عبدالرحمٰن بن رماحس بتسيير الأسطول من المرية وإشبيلية، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها لمواجهة الغزاة، كما عهد إلى الوزير القائد غالب بن عبدالرحمٰن بأن يشرف على القوات البرية والبحرية، التي

---

(١) ابن عذاري جـ٢، ص٢٣٨، ٢٣٩.

أعدت لمدافعة أولئك الغزاة، وأمر صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح بإخراج السلاح والعدة، وحشد قوة مختارة من الجند، ولكن النورمان ارتدوا من تلقاء أنفسهم لما رأوا من تفوق المسلمين[1].

***

صراع الحكم المستنصر مع الفاطميين في المغرب

في أواخر عهد عبدالرحمٰن الناصر، انحسرت الدعوة للأمويين في المغربين الأوسط والأقصى، وفقد الناصر فجأة ما بذله من جهد لاستقبال قبائل زناته وضمان ولاء الأدارسة، وقد أدّت حملة الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي، التي اجتاحت المنطقتين المشار إليهما، إلى التقليل من شأنه، وعندما تولى الحكم المستنصر مقاليد الأمور، لم يرث عن أبيه في شمالي إفريقيا سوى منطقتي سبته وطنجة، لكنه لم يسمح بتفاقم الوضع، وواجه الموقف بجدِّية وحزم ملتزماً بشكل مطلق بنهج والده فيما يتعلق بالعداء الشديد للفاطميين، وأتاح له توجُّه هؤلاء نحو مصر وتراجع اندفاعهم باتجاه المغرب الأقصى؛ أن يملأ الفراغ الذي تركه المعز الفاطمي، واتخذ عدّة خطوات لدعم سياسته منها:

١ ـ تحصين قاعدتي سبتة وطنجة البحريتين اللتين لم تتعرضا لهجمات جوهر الصقلي، وأسقط عن سكانها الضرائب لتشجيعهم على الصمود.

٢ ـ تطوير الأسطول البحري، فضاعف عدد سفنه وعدته وعتاده.

٣ ـ اتخذ من مدينة المرية قاعدة بحرية لمواجهة الأسطول الفاطمي في البحر الأبيض المتوسط.

٤ ـ تودد إلى القبائل البربرية في المغرب الأقصى من غير الزناتيين واستطاع استقطابها، وكون منها جيشاً ضد الفاطميين.

---

(١) المقتبس لابن حيان بتحقيق أ. عبدالرحمٰن الحجمي، ص٢٣ ـ ٢٦، ط ١٩٦٥ بيروت.

٥ ـ عزز سلطة أهل السنة في شمالي إفريقيا، وطارد أنصار المذهب الإسماعيلي، وقاوم الدعاية الفاطمية[١].

وبذلك أصبح المغربان الأوسط والأقصى منقسمين ومتحاربين، فتمكن زيرى الصنهاجيون من فرض سيطرتهم، باسم الدولة الفاطمية، على القسم الشرقي من المغرب الأقصى حتى نهاية ملوية، وظل القسم الغربي من ملوية حتى طنجة خاضعاً لسيطرة زناتة وحلفائها الأمويين في الأندلس، وأدى ذلك إلى حدوث نوع من توازن القوى في المنطقة بين الخلافتين الأموية والفاطمية[٢].

وفي ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب، في الضفة الأخرى من البحر، حوادث هامة، شغلت الحكم، وكدرت صفو السلام السائد في مملكته، وقد سبق أن أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله ثغر سبتة، وعبور جيوشه إلى المغرب، لمقاومة جهود الفاطميين في السيطرة عليه، ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء الفاطميين ومطاردتهم، حتى أذعنوا في النهاية إلى طلب الصلح، والاعتراف بطاعة الناصر، (٣٣٢هـ/ ٩٤٣م)، وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ ذلك الحين.

❋ ❋ ❋

١ ـ مع الأدارسة

وكانت دولة الأدارسة، قد تقلصت في ذلك الحين، عن معظم أنحاء المغرب الجنوبية والوسطى، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية، ما بين غربي بحر الزقاق والمحيط. وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم في فاس، في قلعة حجر النسر المنيعة، الواقعة في جنوبي تطوان، ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى الكلمة، إذ كانت تنضوي تحت لواء المتغلب على المغرب، سواء من العبيديين الفاطميين أصحاب إفريقيا، أو الأمويين

(١) ابن عذارى جـ٢، ص٢٣٦.

(٢) المصدر السابق.

أصحاب الأندلس، وكان أمير الأدارسة في أواخر عهد الناصر، الحسن بن كنون (أوقنون)، وهو القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس، الذي قدر أن تنقضي على يده دولة الأدارسة بالمغرب، وكان قد بايع العبيديين، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلي على المغرب ناكثاً بذلك عهده للناصر، فلما انصرف جوهر إلى إفريقيا في أواخر سنة **٣٤٩هـ/ ٩٦٠م** عاد الحسن إلى طاعته لبني أمية. ولما توفي الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم المستنصر، ولم يكن سوى مصانعة أو رياء، إذ كان الأدارسة يبغضون بني أمية ويترقبون فرص الخروج عليهم، ولم تكن طاعتهم لهم إلاّ خوفاً من بطشهم، لوقوع مملكتهم في شمال العدوة على مقربة من الأندلس(١).

واتخذ الأدارسة قلعة حجر النسر الشاهقة، الواقعة جنوبي تطوان قاعدة لهم بعد أن خسروا مدينة فاس(٢) ومع ذلك لم تكن دولتهم مستقلة تماماً، إذ كانت تنضوي تحت راية المتغلب على المغرب الأقصى، سواء الأمويين أو الفاطميين، في محاولة للمحافظة على كيانها(٣).

كان زعيم الأدارسة في أواخر عهد عبدالرحمٰن الناصر، الرجل الطموح الحسن بن كنون الذي نشأ على كراهية الأمويين على الرغم من طاعته للحكم المستنصر، وقرّر أن يعيد للأدارسة أمجادهم السابقة، ويمد نفوذه إلى السهول المغربية والمناطق الجبلية الممتدة شمالي وادي ليكوس، فاستغل الصراع الداخلي في المغربين الأوسط والأقصى بين الزناتيين والصنهاجيين.

❋ ❋ ❋

٢ ـ صراع الزناتيين والصنهاجيين

قبل أن نستكمل حركة الحسن بن كنون، نعرج على أحداث صراع الزناتيين والصنهاجيين ـ ففي أوائل سنة **٣٦١هـ/ ٩٧١م** ـ سار بلكين بن

(١) دولة الإسلام، د. عنان ع١ ق٢ ص٤٩٢.
(٢) ابن خلدون جـ٦، ص٢١٧.
(٣) المصدر السابق ص٢١٨، ٢١٩.

زيرى بن مناد الصنهاجي، قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، من إفريقيا غازياً إلى المغرب، ليعيد هنالك سلطان الشيعة، ولينتقم من قبيلة زناته لمقتل أبيه زيرى بن مناد، وكان زيرى عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب، وكانت زناتة من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة، والمنضوية تحت لواء الأمويين، وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً، جعفر ويحيى ابنا علي بن حمدون المعروف بالأندلس، وكان الأندلسي هذا قد استقر في «المسيلة» في المغرب الأوسط، وبسط جكمه على تلك الناحية، وخلفه ولده جعفر في إقطاعه، ولكنه خشى سطوة الشيعة، وسطوة عاملهم زيرى، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى، ولجأ إلى بني خرز أمراء زناتة الأقوياء، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة، وكان رسل الحكم يروجون الدعوة في زناته وحلفائهم لمحاربة الشيعة، ويمدونهم بالمال لحشد الرجال والعدة، فاجتمعت قوات بني خزر وجعفر ويحيى على قتال زيرى، ودارت الحرب بينهما في وادي ملوية عند مشارف المغرب الأقصى، وانهزم الشيعة، وقتل زيرى ومعظم رجاله بعد معركة طاحنة، واحتوى الزناتيون على معسكره، وأنهى بذلك سلطان الشيعة في المغرب، وكان ذلك في العاشر من رمضان سنة ٣٦٠هـ يوليه ٩٧١م. وأخذ الظافرون رأس زيرى ورؤوس عدة من أكابر صحبه، وحملها، جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس، وقدموها إلى الحكم، فحظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته[١].

وكان لهذه النكبة التي حلت بجيش الشيعة وصنهاجة، وقع عميق في الخلافة الفاطمية، فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيرى بن مناد المسمى بُلكين (بلقين) أن يسير في الجيوش إلى المغرب حسبما تقدم، فسار بلكين وهو ينزل ضرباته المتوالية بأتباع زناته حيثما وجدوا في طريقه، وكانت منهم جموع غفيرة في المغرب الأوسط في بجاية، والمسيلة، وبسكرة، وتاهرت وغيرها، فمزقهم شرَّ ممزق، ووصل بلكين في قواته إلى المغرب الأقصى، من ربيع الثاني سنة ٣٦١هـ واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناته للقائه،

(١) المقتبس لابن حيان.

ووقعت الحرب بين الفريقين، فهزمت زناته شر هزيمة، وانتحر أميرها محمد بن الجند بن خرز وذلك بأن اتكأ على سيفه فذبح نفسه، حتى لا يقع في يد عدوه، وفرق بلكين زناته كل ممزق، وهدم مدينة البصرة، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب، وقطع دعوة الأمويين، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملاً[1].

نعود إلى الحسن بن كنون، فقد استغل هذا الصراع واستولى على طنجة وتطوان.

وفي الوقت نفسه سارع إلى بيعة بلكين، والانضواء تحت لوائه، ولكن بلكين لم يمكث طويلاً بالمغرب، إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز وكان يتخذ يومئذ أهبته للسفر إلى مصر، مقر ملكه الجديد، فارتد عائداً بقواته إلى إفريقيا.

ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب، فأزعجه ذلك وأهمه، وبادر بإعداد جيش ضخم، حسن الأهبة، لغزو المغرب، ومقاتله الحسن بن كنون، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس، كما أمر قائد البحر عبدالرحمٰن بن رماحس بحشد الأسطول، وعبر محمد بن القاسم في قواته من الجزيرة الخضراء إلى سبتة، في شوال سنة **٣٦١هـ/** يوليه **٩٧٢م** وكان الحسن بن كنون عندئذ في طنجة، فخرج في جموع البربر لقتال جيش الحكم، فوقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه، وفرَّ هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم، وأعلنوا طاعتهم للحكم، ودخل محمد طنجة واحتلها، وبعث إلى الحكم بفتحها، ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا، ودخلها.

وفي تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله، وأعاد تنظيم قواته، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرّة أُخرى، فالتقى الجمعان في مكان يعرف بفحص مهران، وهنا حالف الحسن حسن الطالع، فدارت الدائرة على جند

---

(١) المقتبس ص٣٦، ٣٨.

الأندلس، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة، وفي مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم، وبلغ القتلى من الفرسان وفق تقدير الرازي خمسمائة ومن الرجّالة ألفاً، وكان ذلك في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة **٣٦٢هـ**، وفرت فلول الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنجاد والغوث[١].

وأراد الحسن في نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصلح، وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن، وبعث أمير البحر عبدالرحمٰن بن رماحس بذلك إلى الحكم، فكتب الحكم إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار في مجاهدة الملحد، ومجاهدة من معه، حتى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم، وكان مما قاله في كتابه: «إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وإدراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس، والاستكثار منهم، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن - أهلكه الله - حركة، ولا يتوارى له مذهب».

ومما كتبه الحكم إلى عبدالرحمٰن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا، رداً على ما أبداه الحسن من رغبة في الإثابة والصلح:

«وكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو في طغيانه مستمر، وفي دينه مستبصر، ولكم في كل أيامه محارب، هذا هو الضلال، والمحال عين المحال، وسبب الخبال، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره، وغير من أصر إصراره، وتمادى تماديه، إلى أن يحكم الله عليه، ويفتح فيه»[٢].

وجهَّز الحَكم جيشاً جديداً، جعل على قيادته مولاه ووزيره وقائده الجسور غالب بن عبدالرحمٰن «البعيد الصِّيت المعروف بالشهامة»، وأمره أن يشتد في قتال الأدارسة، وأن يستأصل شأفتهم، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوئة لبني أُمية، وقال له: «سر يا غالب مسير من لا إذن له في

---

(١) المقتبس لابن حيان، ت عبدالرحمٰن الجمي ص٩٦.
(٢) المصدر السابق ص٩٧، ٩٨.

الرجوع إلاّ حيًا منصوراً، أو ميتاً مغدوراً، وابسط يدك في الأنفاق، فإن أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال»[1].

فخرج غالب في قواته الجرارة من قرطبة، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة أو القصر الصغير وذلك في الحادي عشر من رمضان سنة ٣٦٢هـ، وعلم الحسن بمقدمه، وعظيم أهبته، فغادر مدينة البصرة، الواقعة في الجنوب حيث كان يقيم، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة حجر النسر، الواقعة شمالها، ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم، ونشب القتال بين الفريقين أياماً، وبث غالب في رؤساء البربر من غماره وغيرهم من جند الحسن، الأموال والهدايا، فانفصلوا عنه، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقي معه في قلعة حجر النسر، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة.

وفي أوائل شوال بعث الحكم ثقته محمد بن أبي عامر إلى العدوة بأحمال من المال والحلي والخلع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن استمالتهم إلى جانب الخلافة.

وأصدر الحكم في نفس الوقت مرسومه بتعيين ابن أبي عامر قاضياً لقضاة العدوة، إلى ما يتقلده من خطتي الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء إشبيلية[2].

ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك إمدادات جديدة بقيادة الوزير يحيى بن محمد التجيبي وإخوته، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل، ومعه جملة من المال (المحرم سنة ٣٦٣هـ) ونزل يحيى وجنده بطنجة، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى غالب، وشدّد غالب الحصار على الحسن، وقطع سائر علائقه وموارده، وبث قواته في سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة، واستئصال شأفتهم، ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة، قتل فيها الكثير منهم، وفي صفر سنة ٣٦٣هـ استولى غالب على مدينة البصرة،

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٦، ص٢١٨.

(٢) المقتبس، مصدر سابق ص١٢٣.

وسلمها إليه أهلها، بعد أن قتلوا نائبها الحسني، وكان ضمن حاشية غالب الشاعر محمد بن حسين، التميمي المعروف بالطنبي، بعثه إليه الحكم تحقيقاً لرغبته لكي يساعده بنظمه على اكتساب ولاء المنشقين على الحسن، وفي تلك الأثناء، كان الحسن قد أجهده الحصار، وأشرف على الهلاك، ومن معه من أهله ورجاله، فاضطر في النهاية إلى طلب الأمان والتسليم وأعلن طاعته للحكم (جمادى الآخرة سنة **٣٦٣هـ**) ودخل غالب قلعة حجر النسر، ودعىٰ في مسجدها للحكم، ووصلت هذه الأنباء السارة إلى الحكم، وأعلنها الحكم في جامع قرطبة، بعد ذلك بأيام قلائل، وتتبع غالب سائر من بقي من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفتهم، وقضى على دولتهم. وسار إلى مدينة فاس ودخلها، وعين لها حاكماً من قبله، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية.

وكان قد وصل من العدوة قبل هزيمة الحسن، عدد كبير من القبائل والبطون البربرية الخارجة عليه، الجانحة إلى طاعة «الحكم المستنصر» وكان من بين هؤلاء عدد من فرسان قبائل كتامة يبلغون زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس، ورئيسهم أبو العيش بن أيوب، وقد عقد له الحكم على قومه، وأصدر له بذلك سجلاً من إنشاء صاحب المواريث جعفر بن عثمان، يبين فيه واجباته وسلطاته ولاسيما في شؤون الجباية، وأصدر الحكم سجلات مماثلة لزعماء القبائل والبطون البربرية الأخرى[1].



عودة غالب منصوراً

عاد غالب إلى الجزيرة الخضراء في أواخر ذي الحجة سنة **٣٦٣هـ**، تاركاً شؤون العدوة للقائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي تحقيقاً لرغبة «الحكم المستنصر» خليفة المسلمين في الأندلس، وكان في ركب القائد الأعلى المظفر، الحسن بن كفون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة

---

(١) المقتبس ص١١٠، ١١٥.

ومعهم الأهل والولد، وصدر قبيل ذلك في قرطبة، عن أمر الخليفة الحكم، كتاب طويل من إنشاء الوزير جعفر بن عثمان قرىء على سائر المنابر في الأندلس، وفيه: «ينوه بما منَّ الله على خليفته من كفالة أمر المسلمين، وقمع عدوان النصارى بالأندلس، ثم مطاردة الشيعة أهل البدع بالعدوة، وما منحه الله من النصر على المخالفين، حتى استوسقت الطاعة في جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده»[1].

وأشرف غالب في ركبه الحافل المهيب على قرطبة في أوائل المحرم سنة **٣٦٤هـ**، وأنزل الأشراف الحسنيون المرافقون له في الدور التي أعدت لهم بقرطبة وأرباضها، وخرج الجند من مدينة الزهراء في صبيحة يوم الخميس الخامس من محرم لتلقي القائد المظفر، والمسير بين يديه، وعلى رأسهم عدّة من الفتيان ورؤساء الخدمة، ودخل غالب قرطبة في عسكره، وفي ركبه الأشراف الأدارسة، ونزل بفحص الناعورة، وكان يحف بركب غالب المظفر الفرسان المدرعين وأهل الخدمة والصقالبة والعبيد والرماة وغيرهم من أصحاب الطبول والقرون والبنود والرايات، ودخل غالب في موكبه الفخم مدينة الزهراء من باب السُّدة، ونفذ إلى القصر، وأنزل الأدارسة الذين معه في المجالس القبلية بدار الجند، وكان الخليفة الحكم قد جلس لاستقباله في المجلس الشرقي المشرف على الرياض، وقد حفّ به الإخوة، وجلس من بعدهم الوزراء والحجاب وأصحاب الشرطة والمدينة والقضاء وسائر أهل الخدمة، كل في مكانه المعهود، واستقبل الخليفة زعماء الأدارسة، وشيخهم حنون بن أحمد بن عيسى، وشكر طاعتهم، وعفا عن الحسن ووعدهم بالإحسان، وأجزل لهم الأرزاق والصلات[2].

وعين من حاشيته في ديوانه سبعمائة من أنجادهم، واستمر الحسن وذوده على ذلك عامين.

ثم وقع نفور بين الحسن والحكم لأسباب منها:

---

(١) المصدر السابق ص١٧٨ ـ ١٨٢.

(٢) المصدر السابق ص١٩٤ ـ ٢٢٠.

١ ـ سوء خلق الحسن ولجاجته، فقد كان الحسن بن قنون هذا جاهلاً متهوراً فظاً، شديد الجرأة، قاسي القلب.

٢ ـ لم ينس الحكم ما كان من قسوته وفظاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما، حيث كان الحسن يلقي بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعته الشامخة فيصلون إلى الأرض إرباً[(١)].

ولذلك فقد ثقل وجوده وأتباعه وذويه في قرطبة.

وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي يتوجس شرّاً من وجود الحسن وصحبه، ويستثقل نفقاتهم، وينصح بإخراجهم من الأندلس، فرأى الحكم أن يقصيهم عن مملكته، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة، وأن يبعث بهم إلى المشرق، وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة، وركبوا البحر من ألمرية إلى تونس سنة **٣٦٥هـ/ ٩٧٥م** ثم ساروا إلى مصر، حيث نزلوا في كنف خليفتها الفاطمي العزيز بالله، فأكرم وفادتهم، ووعدهم بنصرة قضيتهم، واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام، حتى سنة **٣٧٣هـ**، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه، إلى بلكين بن زيرى بن مناد بالقيروان، يطلب إليه إمداده وعونه، على تنفيذ مشاريعه، إلى أن كان من أمره ما سيجيء[(٢)].

❋ ❋ ❋

أحداث داخلية هامة

١ ـ نكبة جعفر ويحيى ابني علي بن حمدون الأندلسي

كان جعفر ويحيى قد استقرا في كنف الحاكم وتحت رعايته في قرطبة، وكان الحكم قد ابتاع منهما عبيدهما الذين استعفوا من خدمتهما، ودفع الثمن إليهما، وتم فصل العبيد عنهما، وضمهم الحكم إلى جنده لما كانوا ينصفون به من الشجاعة والبأس، وكان لذلك فيما يبدو أثر سيء في

---

(١) نبذة تاريخية من أخبار البربر ص١٠ ـ ١٤.

(٢) البيان المغرب جـ٢، ص٢٦١ ـ ٢٦٥.

نَفْسَيهما، فقيل إنهما تكلما في حق الخليفة بما لا يحمد، وجاهرا بامتداح خلفاء الشيعة، سادتهم الأوائل، ونمى ذلك إلى الحكم، فأمر في الحال بالقبض عليهما وزجا مكبولين إلى سجن الزهراء، وكان ذلك في شوال سنة **٣٦٣هـ** ولبثا في المطبق بضعة أشهر، حتى عاد الخليفة فعفا عنهما، وأمر بإطلاق سراحهما، وذلك في رجب من العام التالي، فأقرا بالذنب وطلبا الإنابة والصفح، فأسعفهما الخليفة بما طلبا وغمرهما بصلاته[١].

٢ ـ إسقاط الضرائب

وفي شهر جمادى الآخرة سنة **٣٦٤هـ** أصدر الحكم أوامره بإسقاط سدس المغري (الضرائب) الواجب أداؤه على سائر الرعايا عن هذه السنة وأنفذ بذلك مرسومه إلى سائر القواد والعمال بمختلف الكور، وقرر أن يكون هذا السدس شائعاً في الناس يستوي في معرفته العالم منهم والجاهل، وذلك ترفيهاً لهم وتحقيقاً لمصالحهم.

٣ ـ تحركات النصارى ومواجهتها

وفي شهر رجب من هذه السنة (**٣٦٤هـ**)، بعث الحكم، نظراً لما بدا من تحركات النصارى في مختلف الأنحاء عدداً من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس لحث أهلها على ارتباط الخيل، والاستعداد لمؤازرة جيش الصائفة، وكان ممن بعث رجالاته صاحب الشرطة العليا، يحيى بن عبيدالله بن يحيى، بعثه إلى كور الجوف، وبعث إلى قائد البحر عبدالرحمٰن بن رماحس إلى كور الشرق، وبعث أحمد بن محمد بن سعد الجعفري إلى الغرب، نحو شنترين وما إليها، وبعث آخرين لنفس الغرض[٢].

❋ ❋ ❋

---

(١) المقتبس ص١٧١ ـ ١٧٤.

(٢) المقتبس ص٢١٦.

هجوم النصارى المباغت

وفي أوائل شعبان سنة ٣٦٤هـ/ (أبريل ٩٧٥م) هاجم جيش مشترك من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس، حصن غرماج الواقع على نهر دويره على مقربة من مدينة سالم، ونشب بينه وبين حاميته الإسلامية قتال عنيف، وشجع النصارى على انتهاك السلم المعقود بينهم وبين الخليفة، واعتقادهم بأن قوى الأندلس كلها ما تزال مشغولة بحروب العدوة، وانقلب النصارى إزاء بسالة الحامية الإسلامية إلى محاصرة الحصن، ووافتهم أمداد أخرى جاءت لتشد أزرهم.

وما كاد الحكم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده غالباً بن عبدالرحمٰن في قوة مختارة غادرت قرطبة على عجل، وبعث الحكم في أثرها أحمال المال للإنفاق على الصائفة، واستمر حصار النصارى لغرماج حتى شوال من تلك السنة، وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جنديلون، سيرتها الراهبة ألبيرة الوصية على ملك ليون، ناكثة بذلك عهدها من التهادن والسلم، وفي منتصف شوال، هاجم النصارى الحصن، وهم في أكثر من ستين ألفاً، محاولين اقتحامه، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة النصارى وتبديد شملهم، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وعتادهم، وطاردهم المسلمون، فقتلوا منهم جموعاً أُخرى، وأحرزوا غنائم جمة، وبعث المسلمون إلى الوزير غالب وهو مقترب منهم لنصرتهم، بنبأ هذا الظفر، فأنفذه من فوره إلى الخليفة، وسار إلى الحصن ونزل به، ثم خرج في قواته، فعاث حيناً في أراضي قشتالة، وانتسف الزروع، وخرب القرى، وتقدمت قوة بعث بها غرسية فرنانديز صاحب قشتالة لمدافعة المسلمين، فهزمت وردت على أعقابها[1].

❋ ❋ ❋

(١) المقتبس ص٢٣٤ ـ ٢٣٧.

هشام ولي العهد

تولى الحكم المستنصر الملك حسبما عرفنا من قبل، وهو كهل في الثامنة والأربعين من عمره، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه، إذ كان يتوق أن يكون له وريث في الملك، ومن ثم فقد سُرَّ أيما سرور حينما ولدت له حظيته «جعفر» أو صبح النافارية، ولداً سماه عبدالرحمٰن سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م، وكان مولده حادثاً خطيراً، فوهت به الشعراء والأدباء، ولكن هذا الولد توفى طفلاً، فحزن الحكم لفقده أيما حزن، على أن القدر لم يلبث أن حباه مرة أخرى، إذ ولدت «جعفر» (صبح) ولداً آخر سماه أبوه هشاماً وكنيته أبو الوليد، فكان ولي عهده الملقب بالمؤيد، فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه[١].

وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وقت البشارة بولادته، وأنشد هذه الأبيات:

اطلع البدر في سحابه ... وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا دارث المعالي ... ليثبت الملك من نصابه
بشرنا سيد البرايا ... بنعمة الله في كتابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م وكان مؤدبه قد بلغ الثامنة من عمره الفقهي محمد بن محمد بن يوسف القسطلي، وقد أمر الحكم بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء، وأن تزود بجميع ما يحتاج إليه لذلك، وكان قعود هشام مع مؤدبه في المجلس الشرقي منها في رمضان سنة ٣٦١هـ وندب الحكم وصيفه الفتى ذكاء ناظراً للأمير متكفلاً بشؤونه[٢].

وفي أواخر سنة ٣٦٣هـ ندب الخليفة العلامة النحوي أبا بكر الزبيدي

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٢٥٢، ٢٥٣، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص٤٣.

(٢) ابن حيان في المقتبس ص٧٢، ٧٧.

الإشبيلي ليقوم بتدريس العربية وعلومها لولي العهد، وفي العام التالي ندب الفقيه المحدث يحيى بن عبدالله بن يحيى ليقوم بإسماعه الحديث، وكان يومئذ عمدة المحدثين بقرطبة[1].

وسيكون لأم هشام «جعفر» أو صبح الناڤارية، دور عظيم في حوادث الخلافة الأموية.

***

جهود الحكم المستنصر العلمية والثقافية

اعتبر جهود الحكم المستنصر العلمية ظاهرة امتاز بها عصره، وهي من ألمع الظواهر في تاريخ الدولة الأموية الأندلسية، هذه الظاهرة هي ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة، التي كانت بضخامتها، وتنوع محتوياتها، من أعظم مكتبات العصور الوسطى ويرجع ذلك إلى شخصية «الحكم»، وإلى صفاته العلمية، فقد كان شغوفاً بجمع الكتب، متقدماً في الشرعية، اعتنى عناية فائقة بتحقيق الأنساب وتأليف القبائل ـ قبائل العرب ـ وقد استدعى رواة الحديث من جميع الآفاق، وآثر مجالس العلماء، وشغف بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها.

ويقول ابن الخطيب عن «الحكم» في هذا الصدد:

«وكان، رحمه الله (أي الحكم) عالماً فقيهاً بالمذاهب إماماً في معرفة الأنساب، حافظاً للتاريخ، جماعاً للكتب، مميزاً للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مصر وأوان، تجرد لذلك، وتهمم به، فكان حجة وقدوة، وأصلاً يوقف عنده»[2].

وكان للحكم المستنصر دور عظيم في إنشاء المكتبة الأموية الكبرى،

---

(١) المصدر السابق ص١٢٣.

(٢) انظر أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٤١.

وكانت هذه النزعة الأموية، إلى تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب، وقد بدت منذ عصر عبدالرحمٰن الداخل، وفي عهد الأمير محمد بن عبدالرحمٰن كانت المكتبة الأموية بالقصر، أعظم مكتبات قرطبة، وكان عبدالرحمٰن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق، حتى أن قيصر قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقورس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس، ولما توفي الناصر، عنى ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها لتكون بداية طيبة للمكتبة الأموية العظيمة، التي أنفق بقية عمره في جمعها وتنسيقها.

ويذكر المؤرخون[1]: «أنه لم يسمع في الإسلام بخليفة، بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين، وإيثارها والتهمم بها، أفاد على العلم، ونوه بأهله، ورغب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه إلى فقهاء الأمصار النائية».

وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر، بالصلات الجزيلة، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم، ومن ذلك أنه بعث إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب العين، ليحصل منه على نسخة من كتابه الأغاني، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة، قبل أن يحصل عليه أحد في العراق أو ينسخه أحد منهم، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً، وهو ممن ينتمون إلى المروانية بني أمية كتاباً ألفه في أنساب قومه بني أُمية، يشيد فيه بمجدهم ومآثرهم، فجدد له الحكم الصلة الجزيلة[2].

وفعل «الحكم» مثله ذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبدالحكم، وأسبغ الحكم رعايته على اللغوي الكبير أبي علي القالي، الذي

---

(١) الحلة السيراء ص١٠٢.

(٢) المصدر السابق عن ابن حيان ص١٠٢.

وفد من العراق على أبيه الناصر، وقربه إليه، وألف كتبه تحت كنفه، وأورث أهل الأندلس علمه، وأهدى إليه أبو عبدالله الخشني بعض كتبه ومنها كتاب «القضاة» أو قضاة قرطبة، وأهدى إليه مطرف بن عيسى بن عيسى العنساني، كتابه المسمى بالمعارف في «أخبار كورة إلبيرة» وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد، ولاسيما في بغداد والقاهرة ودمشق، ينقبون له عن الكتب، ويحصلون منها على النفيس والنادر، كما كانت له في بلاط طائفة أخرى من البارعين من نسخ الكتب، وتحقيقها، وتجليدها، وتصنيفها وبذل في هذا السبيل جهداً ومالاً كثيراً، واجتمع لديه من نفائس الكتب في مختلف العلوم، ما لم يجتمع لأحد قبله، ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفي، عن استيعاب العدد العظيم، من الكتب الواردة إليها باستمرار، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة، افتن المهندسون في ترتيبه وتنسيقه، وإنارة أبهائه وقد قال ابن حزم: «ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم، وذكر لنا أن تليداً الفتى، وكان على خزانة العلوم بقصر بني أمية الأندلس أخبره أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلاّ ذكر أسماء الدواوين فقط»[1].

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبدالعزيز، وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها إلى أخيه المنذر، وكان يقضي معظم أوقاته بمدينة الزهراء، في أبهائها المنيفة وظلالها الهادئة، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه وخليله محمد بن يوسف الحجاري، الذي كتب له تاريخ الأندلس والمغرب، وتواريخ أخرى لبعض المدن، وكان من أصفيائه في تلك المجالس أيضاً، الفتى سابور الفارسي، الذي قام بدعوته إلى قرطبة، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له، وكان من أعلم أهل عصره[2].

---

(١) ابن حزم في جمهرة أنساب العرب ص٩٢.

(٢) د. عنان، دولة الإسلام القسم الثاني ص٥٠٦.

وقد عنى بجمع الكتب كبراء هذا العصر وعلماء، وذلك بقيامهم بإنشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب، وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب، وإنشاء المكتبات، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم، وكانت من أبرع نساء عصرها، علماً وأدباً وشعراً وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة، وكانت الكتب في قرطبة، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة، بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية، ويتذوقون ثمرات التفكير العربي من أدب وشعر وفلسفة وغيرها، وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودي «حسداي»، طبيب الحكم الخاص، وفي ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية، وألفوا بها مختلف الكتب، وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد، مكتبة يوسف بن إسماعيل بن تعرالة اليهودي، وزير باديس أمير غرناطة[1].

وقد نهض التعليم في عهد «الحكم المستنصر» نهضة عظيمة، فكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة في أوروبا - باستثناء رجال الدين - لا يعرف القراءة والكتابة، فقد أسس «الخليفة الحكم» عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً، أما جامعة قرطبة، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم، وكان مركزها في المسجد الجامع، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم، وكان يدرس الحديث أبو بكر بن معاوية القرشي، ويملي أبو علي القالي ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم، وكان ابن القوطية يدرس النحو، وكان يدرس باقي العلوم أساتذة من أعلام العصر، وكان الطلبة يعدون بالآلاف.

ولم تقتصر رعاية «الحكم» على علماء المسلمين بل كان الرجل يسبغ رعايته على سائر العلماء مسلمين وغير مسلمين، ويذكر الدكتور عنان شواهد

---

(١) المصدر السابق عن كتاب الصلة لابن بشكوال جـ٢، ص٦٥٤.

لهذه الرعاية فيقول: «ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو الإلبيري، المسمى باسمه العربي، ربيع بن زيد، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته، لتبحره في علم الفلك، والعلوم الفلسفية، وهي من الدراسات التي كان يعنى بها الحكم، وكان هذا الحبر القرطبي عالماً مبرزاً، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه، ويحبوه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته، وكان يشغل مكانة هامة في القصر[1].

ويقول رينهارت دوزي في كتابه تاريخ المسلمين في الأندلس[2]:

«وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حداً، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه، وكان المليك يشجعهم ويوليهم رعايته، حتى الفلاسفة استطاعوا في ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون».

وقد تحدث مؤرخو العرب مثل المؤرخ الإسباني موديستو لافونتي: «كانت دولة الحكم الثاني دولة الآداب والحضارة، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء، وأن الرواية العربية لتحبوا الحكم بكثير من جميل الذكر فهل نعصىٰ نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموي المستنير من الصفات الباهرة، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً؟ إن ذلك يعني أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراجان وأدريان.. لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى، إن السلم الذي وطده أكتافيوس في إسبانيا الرومانية، قد وطده «الحكم» في إسبانيا العربية، وقد قدم الحكم، كما قدم أكتافيوس من قبل، الأدلة على أن الرغبة في السلم، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح، وإكليل الجامعات الحقيقي على إكليل الحروب الدموي. لقد أعيد عصر

---

(١) دولة الإسلام، مصدر سابق.

(٢) دوزي، ترجمة د. حسن حبشي، ج٢، ص١٨٩.

أوغسطوس في إسبانيا بعد ألف عام في صورة جديدة، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة. وأغدق على ثمرات العبقرية فيض الإغداق والكرم الرائع، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة، ومدى الصبر، والمثابرة، والنفقات التي أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة، من أربعمائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط، هي محتويات قصر بني مروان»[١].

ثم يضيف لافونتي: «لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذي يعشق الآداب في عهد سعيد من السلم، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل، فقد تفتحت في ظل رعايته، وازدهر الغرس ازدهاراً عظيماً، حتى أنه بعد الحرث الكثير، والمطر الغزير، بدت شمس وضاءة رائعة مدهشة».

وقد قدر المؤرخون محتويات المكتبة الأموية العظيمة، التي أنشأها الحكم المستنصر تقديرات مختلفة.

فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد، وقدرها البعض الآخر بستمائة ألف[٢].

وكانت توجد في قواعد الأندلس الأخرى، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى، وهذا وحده يكفي للدلالة على مدى التقدم العظيم الذي بلغته الحركة الفكرية في الأندلس، ولبثت المكتبة الأموية قائمة في قرطبة حتى وقعت الفتنة الكبرى سنة ٤٠٠هـ، وحاصر البربر قرطبة، فأخرجت معظم الكتب من خزائنها خلال الحصار، وبيعت بأمر الفتى واضح مولى المنصور بن أبي عامر، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة[٣].



(١) دولة الإسلام، د. عنان ع١ ق٢ ص٥٠٨.
(٢) نفح الطيب جـ١، ص١٨٤.
(٣) ابن خلدون جـ٤، ص١٤٦.

يقول ابن الأنبار في الحلة السيراء عن الحكم: «كان حسن السيرة، فاضلاً عادلاً، مشغوفاً بالعلوم»[1].

أما ابن الخطيب[2] فيقول: «وإليه انتهت الأبهة والجلالة، والعلم والأصالة، والآثار الباقية، والحسنات الراقية».

وكان الحكم من ذوي الورع والتقوى، تشهد بذلك عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع، وتوسعته وإنشاء منبره الجديد، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بديعة، وما بذله في سبيل ذلك من النفقات الطائلة، ويشهد بذلك أيضاً تشدده في محاربة الخمر وإراقتها[3].

وكان محباً للعدل معنياً بإقامته، شديداً في محاسبة الطغاة من العمال والحكام، يؤيد ذلك ما رواه ابن عذارى من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة، يحذرهم من سطوته، وإلى القواد والعمال، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب[4].

وكان الحكم عارفاً بقدر رجاله وإمكاناتهم، مميزاً للنابهين منهم، وقد جمع في حكومته جمهرة من أعاظم رجال العصر وألمعهم، وكان في مقدمة هؤلاء، كبيرهم وزعيمهم والذي كان له دور هام وتاريخي في الدولة الأندلسية المسلمة، فقد شارك في الأحداث الهامة، وسنرى من سيرته وخلال سيرة الحكم مدى أهمية هذا الرجل.



(١) الحلة السيراء ص١٠١.
(٢) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٤٩.
(٣) الحلة السيراء ص١٠٣.
(٤) البيان المغرب جـ٢، ص٢٥٥، ٢٥٦.

الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي

كان جعفر ينتمي إلى بطن من بطون البربر من بلنسية، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة، فلما أسندت إليه ولاية العهد، قدم جعفر في الأعمال واستخدمه في الكتابة، ثم ولاه الناصر بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة، ولما ولي الخلافة استوزره (جعله وزيراً) وأمضاه على كتابة الخاصة، وضم إليه بعد ولاية الشرطة، ثم تولى بعد ذلك ولاية الشرطة، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة، أي رياسة الوزارة، خلفاً للحاجب جعفر بن عبدالرحمٰن الصقلبي، وأصبح أول رجل في الدولة، واجتمعت لديه سائر السلطات، ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر المصحفي كاملاً له، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته، وكان المصحفي من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن، يدل على تمكنه[١].

وكان من أشهر أعمال المصحفي في بداية عهد الحكم أن قدّم إليه هديته الباذخة، التي حاول فيها أن يبتز فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر، واحتوت الهدية على: «مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافية كاملة العدة والسلاح، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس، وثلاثمائة خوذة كذلك، ومائة بيضة هندية، وخمسون خوذة حبشية من حبشيات الإفرنجة، وثلاثمائة حربة إفرنجية، ومائة ترس سلطانية، وعشرة جواشن مذهبة، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الجاموس[٢].

وكانت هدية المصحفي للحكم، من أشهر الحوادث الاجتماعية في هذا العصر.

❋ ❋ ❋

---

(١) الحلة السيراء ص١٤١، ١٤٧.

(٢) ابن خلدون في كتابه العبر جـ٤، ص١٤٤.

كان غالب من أكابر دولة الحكم، وهو صاحب مدينة سالم، وكان مولى لأبيه الناصر، وكان غالب، فضلاً عن كونه من نصحاء الحكم، ومستشاريه المقربين، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها في هذا العصر، وكان الحكم، عرفاناً منه بهذا القائد المظفر وبقدره قد أسند إليه القيادة العليا، وأصدر مرسومه بذلك إليه في سنة **٣٦١هـ** وذلك «لتفانيه وجميل مقامه» ثم عاد على أثر انتصاره في موقعة حصن غرماج في سنة **٣٦٤هـ**، فقلده سيفين مذهبين من ذخائر سيوفه، وسماه «ذا السيفين»[(١)].

وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبي، والقائد سعيد بن الحكم الجعفري، وكان من أعظم الوزراء والقادة، وقد برز كلاهما في غزوات الصوائف، وحوادث المغرب الأقصى.

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس، ومن قضائه منذر بن سعيد البلوطي كبير القضاة في عهد أبيه الناصر، ثم أبو بكر محمد بن السليم.

وكان الحكم، يرقب تحركات أعدائه وتصرفاتهم، وقد رتب لذلك بعض عماله المهرة والمخلصين المعروفين بصدق الخدمة، وفي مقدمتهم ابن أبي عمروس العريف، وصاحبه سعيد، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية، ولقاء قواميسها، والتردد عليهم «للتعرف على أخبارهم، والتجسس لأبنائهم» وحمل الكتب إليهم في كل وقت، وصرفها عنهم، وهو ما يفصح عن بعض الوسائل التي كان يلجأ إليها بلاط قرطبة للإحاطة بأخبار الممالك النصرانية ونياتها[(٢)].

وكان الحكم شاعراً رقيقاً، ومما ينسب إليه قوله:

إلى الله أشكو من شمائل مسرف ... عليّ ظلوم لا يدين بما دنت

(١) المقتبس، مصدر سابق ص٦٩.
(٢) المقتبس ص٧٦.

نـأت عـنـه داري فـاسـتـزاد صـدوده   وإني على وجدي القديم كما كنت
ولـو كـنـت أدري أن شـوقـي بـالـغ   من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

وقوله:

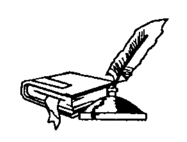
عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت   وكيف انثنت بعد الوداع يدي معي
فيا مقلتي العبرا عليها اسكبي دماً   ويا كبدي الحرا عليها تقطعي

* * *

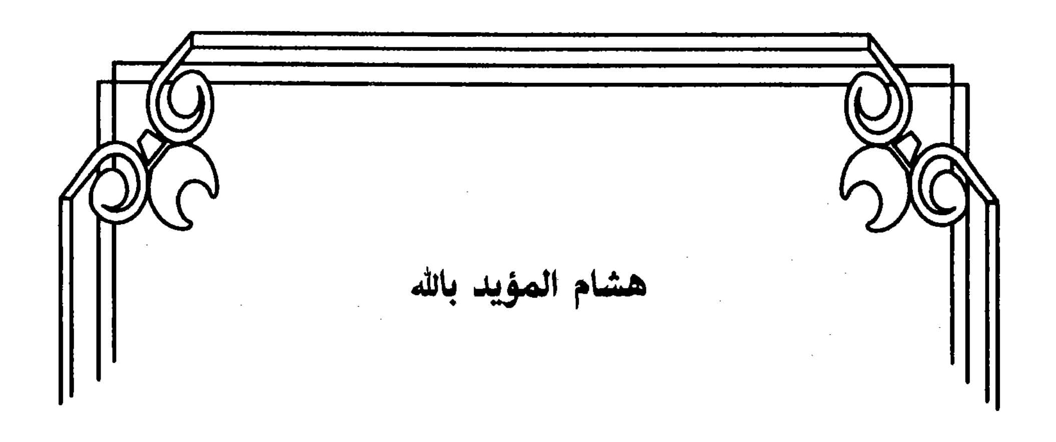
وفاة الحكم

توفي الحكم في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦هـ (٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦م) وقد أصيب الحكم بشلل أقعده عن الخروج والحركة.

ويذكر المؤرخون أن «الحكم المستنصر» كان يعاني من هذه العلة الفالجية «ولا يكاد يستفيق منها»[1]. فلزم فراشه، وتولى تدبير الشؤون خلال مرضه، وزيره جعفر بن عثمان المصحفي، إلى أن توفي بعد مرضه هذا بأشهر قلائل.



(١) المقتبس ص٢١١.



هشام المؤيد بالله

نسبه ونشأته

هو هشام بن الحكم بن عبدالرحمٰن الناصر، كنيته أبو الوليد.

لقبه: المؤيد بالله، أمه أم ولد صبح البشكُنسية، وكان الحكم يسميها «جعفراً» وكانت مغنية محظية عنده، وتوفيت في خلافة ابنها هشام[1].

كانت «صبح» قد حملت قبلُ بعبدالرحمٰن، وكان الخليفة الحكم قد كبر سنه، وتاقت نفسه للولد، ففرح بعبدالرحمٰن فرحاً عظيماً، ومات عبدالرحمٰن وولدت صبح هشاماً، ومات الحكم وهشام لم يبلغ سن الرشد، ولكن الحكم أراد أن تكون الخلافة في عقبه، فبايع لهشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة[2].

* * *

تولية هشام بداية المؤامرة

اعتلى هشام سدة الخلافة، وسط معارض ومؤيد، إذ ما لبث أن احتدم النقاش بين رجال الدولة بعد وفاة الحكم المستنصر، بسبب اختلافهم

(١) البيان المغرب ٢/٢٥٣.

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس، د. حسين يونس ص٣٣٩.

بشأن هذه المسألة تبعاً لاختلاف مصالحهم السياسية وعلاقاتهم الخاصة، وانحصر بين فئتين رئيسيتين.

رفضت الفئة الأولى تنصيب الخليفة الطفل متذرعة بصغر سنه وعجزه عن القيام بأعباء الحكم قبل مضي وقت طويل، ورشحت عمَّة المغيرة بن عبدالرحمٰن الناصر، بما له من تجربة سياسية وإدارية، وتزعم هذه الفئة اثنان من كبار الصقالبة هما: فائق النظامي وجوذر، وأعتقد أن المغيرة لن يبعدهما عن مناصبهما، ونتابع أحداث هذا الصراع فيما يلي: لما توفي الحكم المستنصر بالله، في اليوم الثاني من صفر سنة **٣٦٦هـ**، حرص خادماه الحقيان، الفتيان فائق وجؤذر، على كتمان خبر موته، وقاما بضبط القصر، واتخاذ التدابير اللازمة، لتسيير الأمور وفق الخطة التي وضعاها، وكانت هذه الخطة، تنحصر في تنحية ولي العهد الصبي هشام عن العرش، واختيار عمه «أخي المستنصر»، المغيرة بن عبدالرحمٰن الناصر، لولاية العرش، وكان الفتيان الصقالبة داخل القصر، زهاء ألف، ولهم نفوذ عظيم، وفي يدهم الحرس الخليفي ومعظمه من الصقالبة والمرتزقة، فكانوا بذلك قوة يخشى بأسها.

استدعى فائق وجؤذر، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ونبآه بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعهما، في تولية المغيرة، فتظاهر الحاجب المصحفي بالاستحسان والموافقة، والعمل وفق خطتهما، وتنفيذ ما يشيران به، ثم خرج فبادر إلى ضبط أبواب القصر، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم، وقاسم بن محمد، ومحمد بن أبي عامر، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم، واستدعى في نفس الوقت عصبته وأشياعه من زعماء البربر، مثل بني برزال، كما استدعى سائر القادة الأحرار، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة فنعى لهم الخليفة، وعرض عليهم مشروع الفتيان الصقالبة، في تنحية هشام وتولية المغيرة، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم، وأنه إذا ولي المغيرة، واستبد الصقالبة بالأمر، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ونكل بهم المغيرة والصقالبة، والأمر إذا ولى هشام ولي العهد الشرعي، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم، وتغدو الدولة دولتهم، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم، فاقترح بعض أصحابه

أن يقتل المغيرة، فيؤمن بذلك شره في الحال والاستقبال، وتطوع محمد بن أبي عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية، حفظاً للوئام والوحدة، فبعث جعفر معه سرية من الجند الأحرار الموثوق فيهم، وسار معه بدر القائد مولى الحكم، في سرية من غلمان الخليفة، وأحاط الجند بدار المغيرة، ثم نفذ محمد بن أبي عامر في نفر من أصحابه، ونبأه بموت الخليفة وجلوس ابنه هشام، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه، فذعر المغيرة وأكد لابن أبي عامر، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر، وتضرع إليه أن يحقن دمه، وأن يراجع القوم في أمره، ولكن الرد كان قاطعاً في وجوب التخلص من المغيرة، فدفع إليه ابن أبي عامر عدة من رجاله، فقتلوه خنقاً أمام زوجته، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه، ودفن في نفس مجلسه، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة، ووقع ذلك كله في يوم واحد فقط، ولما وقف الفتيان فائق وجؤذر على ما وقع، تملكهما السخط والردع، وبادرا إلى الحاجب جعفر، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع، واعتذرا له عما يسبق أن اقترحا عليه، وأخذ الفريقان من ذلك الحين، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين، معسكر الصقالبة يتزعمه فائق وجؤذر، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبي عامر[١].

وقع الاتفاق على تولية هشام، وأخذت له البيعة في صبيحة اليوم التالي لوفاة أبيه الحكم، وهو يوم الاثنين الثالث من صفر سنة **٣٦٦هـ** (أول أكتوبر سنة **٩٧٦م**) فأجلس الخليفة الصبي هشام، في كرسي الخلافة، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره، وتولى أخذ البيعة أياماً، وكتب بها إلى الأقطار، فلم يردها أحد، وقد نقل المؤرخون مئات من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر، من مختلف الطبقات، الذين أخذوا البيعة لهشام ومنهم كثيرون، ممن اشتركوا في أخذ البيعة له بولاية العهد، في حياة أبيه[٢].

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٢٧٨ ـ ٢٨٠.

(٢) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٤٨.

ويتحدث المؤرخون عن حالة الخلافة الأندلسية، وأحوال الأندلس، عند ولاية هشام فيقول أحدهم[1]: «بويع ولي عهده (أي الحكم) هشام الملقب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى، وأدركت الجنى، وبلغ طورها، وانتهى دورها، فكانت كمامة ثم زهرة بسَّامة، ثم ثمرة بهية، ثم فاكهة شهية، وكان بكرسي العامرية مجلاها، ثم تلاها ما تلاها، وأرخص الخطوط من أعلاها، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه، والمصر قد عظمت فراياه وفرايته، والملك تعوذ لله أن لا يصيبه عائنه الذي يعانيه، والمباني قد بلغت السماء سمواً وزاحمت الكواكب علواً، والبلاد وقد بلغ فيها أقاصي الاهتمام، وفرغت بناتها من لبنات التمام، والآثار الصالحة قد تخلدت، والمآثر الواضحة قد تعددت، والأذهان في بسطة الإسلام قد تبلدت، ورسم الخلاف قد أمحى، والدولة المروانية قد بركت وسط المرعى، والدعوة قد انتشرت في المغرب الأقصى»[2].

***

الأميرة صبح ومحمد بن أبي عامر شخصيتان مؤثرتان

صبح أم المؤيد خليفة المسلمين أرملة نافارية بلغ تأثيرها كجارية تحترف الغناء أنها أضحت الشخصية القوية في قصر الخلافة، وبخاصة بعد إنجابها هشام، ومن ثم أضحى لها المقام الأول، على الرغم من أن علاقتها بالحكم المستنصر لم تتعدد حدود الجارية المحظية، ولكن الحكم لم يأخذ من هذا الجانب إلاّ القليل، وذلك لأن علاقة إعجاب نمت بينها (صبح) وبين شاب طموح هو محمد بن أبي عامر البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً. إذاً فمن هي السيدة صبح؟ ومن هو محمد بن أبي عامر الذي فتحت صبح أمامه سبل الارتقاء لتحقيق طموحه الكبير، من خلال علاقة بينهما؟

---

(١) ابن الخطيب، المصدر السابق ص٤٣، ٤٤.

(٢) المصدر السابق.

تشير قرائنها إلى الشك في أنه كان عشيقها، وذلك استناداً إلى إشارات المؤرخين على الرغم من أنه استحوذ على اهتمام نسائي عام في القصر[1].

❋ ❋ ❋

الأميرة صبح (توفيت سنة ٣٩٠هـ - ١٠٠٠م)

لبثت تلك المرأة ردحاً طويلاً من الزمن تسيطر بسحرها ونفوذها، على خلافة قرطبة، وتشترك في تدبير شؤونها، في السلام والحرب، مع أعظم رجالات الأندلس.

قال عنها المؤرخون[2]: «حظية خليفة، أُم خليفة، سيدة مُطْلَقَةُ الرأي، تولي وتعزل الوزراء والقادة، وتدير شؤون الحرب والسلام، حسناء يغلب جمالها ملكاً، ويأسر خليفة، ويسيطر قصر وحكومه، صاحبة السلطان المطلق في دولة من أعظم دول الإسلام، نصرانية نافارية مع ذلك: تلك هي صبح أو صبيحة أو «أورور» قرينة الحكم المستنصر بالله الأموي خليفة الأندلس وأم ولده هشام المؤيد بالله».

ظهرت صبح في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر بالله (**٣٥٠ - ٣٦٦هـ/ ٩٦١ - ٩٧٦م**)، ولسنا نعرف كثيراً عن نشأتها وحياتها الأولى.

يقول ابن عذارى: «أن صبحاً كانت جارية بشكنسية أي نفارية - ولا يذكر لنا ابن عذارى إن كانت صبح قد استرقت بالأسر أو في بعض المواقع، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول، ولكن يصفها: بالجارية والحظية»[3].

---

(١) ليفي بروفنسال، مصدر سابق ص٤٤٩.

(٢) د. عنان في كتابه تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ص١٩٩، ط الخانجي مصر ط ٢، ١٩٧٠.

(٣) البيان المغرب جـ٢، ص٢٦٨، ٢٦٩.

وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة «أورورا» Aurora الفرنجية ومعناها الفجر، أو الصباح الباكر، وهو الاسم النصراني الذي كانت تحمله صبح فيما يبدو[1] وكانت صبح فتاة رائعة الحسن والخلال، فشغف بها الحكم وأغدق عليها حبه وعطفه وسماها بجعفر[2].

ولم تلبث صبح أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأي، وكان الحكم حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه عبدالرحمٰن الناصر قد بلغ السابعة والأربعين من عمره ولم يرزق ولداً بعد، وكان يتوق إلى ولد يرث من بعده، فحققت أمنيته على يد صبح، ورزق منها بولد سماه عبدالرحمٰن وذلك في سنة **٣٥٢هـ/ ٩٦٢م**، وفرح بمولده أيما فرح، وسمت لديه مكانة صبح، ثم ولدت له بعد ذلك بثلاثة أعوام ولداً آخر سماه هشاماً في سنة **٣٥٤هـ**.

ولكن الحكم رُزىء وأصيب بعدئذ بقليل بوفاة ولده عبدالرحمٰن، فاشتد حزنه عليه وعقد كل آماله على ولده هشاماً، ولبثت صبح تستأثر في البلاط والحكومة بكل نفوذ وسلطان، بيد أنها كانت وافرة الذكاء والحزم بارعة في تدبير الشؤون الخاصة مخلصة لسيدها، تعاونه في مهام الحكم بذكاء وبصيرة، وتسهر معه على سلامة الدولة والعرش، ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط، بل كانت ملكة حقيقية.

ويقول الدكتور عنان[3]: ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر بعد أن كانت جارية وحظية، ولكن هنالك ما يدل على أن صبحاً كانت تتمتع في البلاط والحكومة بمركز الملكة الشرعية. فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أُم المؤيد[4]. وتصفها التواريخ الإفرنجية بالسلطانة صبح[5]، بيد أن هنالك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من

---

(١) رينهارت دوزي، تاريخ المسلمين في الأندلس جـ٢، ص١٩٠.
(٢) البيان المغرب جـ٢، ص٢٥١ ـ ٢٥٣.
(٣) تراجم إسلامية، د. عنان ص٢٠٠.
(٤) نفح الطيب جـ١، ص١٨٧.
(٥) رينهارت دوزي، مصدر سابق.

الوجهة الشرعية جارية و «أم ولد» فقط، وتصفها الرواية الإسلامية في البيان المغرب لابن عذارى[1] والمعجب للمراكش[2] بعد موت الحكم بأنها أم ولد، وهو في الشريعة وصف الجارية التي حملت من سيدها وأصبحت أُمّاً لولده.

وبرغم كل هذه المسميات فقد كانت صبح أو السيدة صبح تحتل مكان الملكة الشرعية، فقد كانت ملكة بحق، تتمتع في بلاط القصر والحكومة بنفوذ كبير لا حدود له، وكان الحكم يحبها أشد الحب ويثق في إخلاصها وحزمها، حتى أنّه كان يستمع لرأيها في معظم الشؤون، فكانت كلمتها هي العليا في تعيين الوزراء ورجال البطانة والحاشية، واستأثرت صبح أيضاً باحترام وحب رئيس الوزراء صاحب «الحكم» جعفر بن عثمان المصحفي الذي كان يبذل كل جهده من أجل خدمتها، وإرضائها، والاستجابة لكل أوامرها، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير، هكذا كان الحال بالنسبة لصبح، الذي استمر حتى ظهرت شخصية جديدة كان لها تأثر كبير فيما بعد.



محمد بن أبي عامر

دخل محمد بن أبي عامر كشخصية جديدة قُدر لها أن تضطلع بأعظم قسط في توجيه مصائر دولة الإسلام في الأندلس.

نسبه: كان محمد بن أبي عامر ـ أو محمد بن عبدالله بن أبي عامر المعافري، يرجع إلى أصل من أعرق الأصول العربية، فهو من أسرة يمنية عريقة، وكان جده عبدالملك بن عامر المعافري، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق، وظهر في الفتح بشجاعته وحسن بلائه ونزلت أسرة بني عامر بالجزيرة الخضراء، وأقطعت حصن طُرَّش الواقع على نهر وادي

(١) جـ٢، ص٢٦٩.

(٢) ص١٤.

ياره، الذي يصب على مقربة من جبل طارق، وظهرت بالعلم والوجاهة، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاة والإدارة.

مولده: وولد محمد بن أبي عامر بحصن طرَّش وأنفق فيه حداثته، وكان أبوه عبدالله، المكنى بأبي حفص من أهل التقى والعلم، عالماً بالحديث والعلم والشريعة، وكانت أُمه بريهة بنت يحيى تنتمي إلى بني تميم، ونشأ محمد على تقاليد أُسرته، مؤثراً حياة الدرس، ووفد على قرطبة حدثاً، ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً، وبرع في الأدب والشريعة، وكان من أساتذته العلامة اللغوي أبو علي القالي البغدادي، وأبو بكر ابن القوطية، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشي، وكان طموحاً مضطرم النفس والعزم، رفيع المواهب والخلال[1].

وكان محمد بن أبي عامر في نحو السابعة والعشرين من عمره، حينما أراد الخليفة أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبدالرحمٰن، ورشحه الحاجب جعفر فيمن رشح لتولي هذا المنصب، وأعجبت صبح بذكائه وحسن روائه، وظرف شمائله، فاختارته دون غيره، وعين بمرتب قدرهُ خمسة عشر ديناراً في الشهر، وذلك في أوائل سنة **٣٥٦هـ/ ٩٦٧م**[2].

ولما توفي عبدالرحمٰن طفلاً، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام، وتقدم في وظائف الدولة بسرعة، فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة، وعلى أمانة دار السكة، ثم عين للنظر على خطة المواريث **(٣٥٨هـ)** فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة، ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى **(٣٦١هـ)** وفي أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (الخاص)، فكان في أواخر أيام الحكم متقلداً الوظائف الآتية: صاحب الشرطة الوسطى، والمواريث، وقاضي إشبيلية، ووكيل الأمير أبي الوليد هشام، وكان عندئذ يلقب فتى الدولة[3].

---

(١) انظر سيرته في الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب، ص٤٧٤ ط القاهرة ١٩٥٦، الحلة السيراء ص١٤٨، البيان المغرب جـ٢.

(٢) البيان المغرب جـ٢، ص٢٦٧.

(٣) المقتبس ص١٠٦.

وهكذا وصل محمد بن أبي عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر في أعوام قلائل. ويرجع الفضل في تقدمه بتلك السرعة، أولاً إلى مواهبه وكفاياته الباهرة، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبح وحمايتها له، وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية. كانت صبح امرأة حسناء، لا تزال في زهرة العمر، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين، وهدمه الإعياء والمرض؛ أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب، وسيم المحيا، حسن القد والتكوين، ساحر الخلال، وكان من جهة أخرى يفتن في خدمة صبح وإرضائها، ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والتحف، حتى لقد أهداها ذات نموذج قصر من الفضة، بديع الصنع والزخرف، أنفق عليه مالاً عظيماً، ولم يكن مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبي عامر إلى القصر، فكان منظراً يخلب اللب، ولبثوا يتحدثون بشأنه حيناً، فكانت هذه العناية تقع على قلب صبح أحسن موقع[1]، وتزيدها عطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به، وكان الحكم يشهد هذا السحر الذي ينفثه ابن أبي عامر إلى حظيته، وإلى نساء القصر جميعاً ويعجب له، ويروى أنه قال يوماً لبعض ثقاته:

«ما الذي استلطف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن، مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه، ولا يرضين إلاّ ما أتاه، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب، وإني خائف على ما بيده»[2].

ولم تلبث أن زاعت هذه العلاقة بين صبح وابن أبي عامر أن ذاعت، وغدت حديث أهل قرطبة، ولم يك ثمة ريب من أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية، وربما ارتاب الحكم في طبيعة هذه العلائق، وثاب له رأي في نكبة ابن أبي عامر، وسعى لديه بعض خصومه، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة، التي عين للنظر عليها، من شراء التحف والإنفاق على

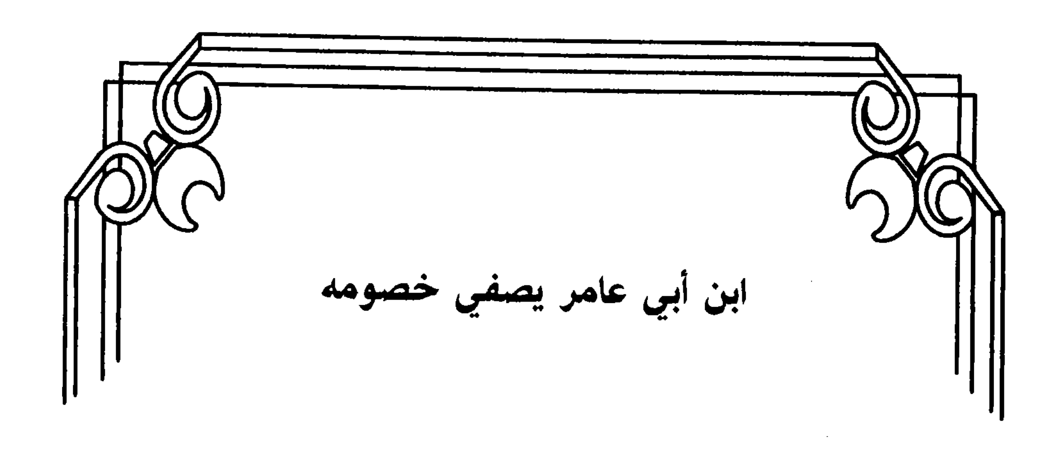
(١) د. عنان ع١ ق٢ ص٥٢٣.
(٢) البيان المغرب جـ٢، ص٢٦٨.

أصدقائه، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة العامة ليتحقق من سلامتها، وقد كان بالخزانة في الواقع عجز كبير، فهرع ابن أبي عامر إلى صديقه الوزير ابن حُدير، وكان وافر الوجاهة والثراء فأغاثه وأعانه بما له على تدارك هذا العجز، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة بريء الذمة، فزالت شكوكه، وتوطدت ثقته فيه.

وقد استمر ابن أبي عامر متمتعاً بقوته وسلطانه ونفوذه، يَنْدبه «الحكم المستنصر» لعظائم المهام والشؤون، وكان آخرها ما عهد عليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام حسبما تقدم، وابن أبي عامر خلال ذلك كله، يحرص على عطف السيدة صبح أم هشام المؤيد، ويستزيده ويصانع الحاجب جعفر المصحفي، ويجتهد في إرضائه وكسب ثقته، وكان بين الرجلين تباين يفيد منه ابن أبي عامر، فقد كان الحاجب جعفر على ما يبديه من التواضع والبشر والترفق بالناس، قليل الجود، مؤثراً لجمع المال، وكان محمد بن أبي عامر على النقيض من ذلك، فكان واسع البذل والجود، حريصاً على اصطناع الرجال واستمالتهم، وكانت داره الفخمة بضاحية الرصافة مقصد الناس من كل صوب، وكانت مائدته معدة دائماً، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب، ويجتذب الصحب والأنصار، بسحر خلاله، ووافر بذله ومروءته، وبارع رسائله وأساليبه[١].



(١) البيان جـ٢، ص٢٧٥.



ابن أبي عامر يصفي خصومه

أولاً: تصفية الصقالبة

وجد المنصور أمامه طريقاً شاقاً طويلاً مليئاً بالخصوم والأعداء في داخل البلاد وخارجها، ولكنه استطاع بعزيمته الجبارة وذهنه المتقد أن يوقع بين خصومه، ويضرب بعضهم ببعض ثم يضرعهم واحد بعد الآخر. فبعد أن تحقق مشروع «الحكم المستنصر» بجلوس ولده هشام، وكذلك تحقق مشروع الثلاثة ذوي السلطان بعده وهم: «السيدة صبح أم ولده هشام المؤيد، ومحمد بن أبي عامر الفتى الطموح، والحاجب جعفر المصحفي». فبالنسبة لصبح فقد حرصت على تولية ابنها لتحكم باسمه، وقد تحقق لها ذلك أما محمد بن أبي عامر فكان من الطبيعي أن يقف إلى جوار صاحبته المحسنة إليه ويؤازرها، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه.

أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث في تولية هشام، إذ كان يخشى من تولية المغيرة، وأوليائه الصقالبة، على نفسه وعلى سلطانه، وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية.

ولم يكن التحالف بين أبي عامر والمصحفي تحالفاً طبيعياً، ولكن علاقة صبح وابن أبي عامر، كانت تزداد كل يوم توثقاً، ولاسيما بعد وفاة الحكم، وكان ابن أبي عامر، يرى في السيدة صبح، التي تجتمع في يدها

السلطة الشرعية، بوصايتها على ولدها الطفل، أداة صالحة هينة، يستطيع أن يخضعها لإرادته، ويسخرها لمعاونته، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى، وكانت صبح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها، على هذا الرجل القوي الذي سحرها بخلاله، وقوة نفسه، وباهر كفايته، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذي يشغله ولدها الفتى، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام، حتى عين حاجب أبيه جعفراً المصحفي حاجباً له، ورقى في نفس الوقت ابن أبي عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة. وجعله معاوناً للمصحفي في تدبير دولته[1].

وبذلك أشرك ابن أبي عامر في تولي السلطة المباشرة مع المصحفي، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار، سوى الحاجب جعفر، فقد كان يرى في هذا التعيين انتقاصاً لسلطته، ونكراناً لجميله، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهراً، وكان يرى في ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى بأسه، وينتاب في نياته وأطماعه، ومن ذلك اليوم نشأ بين الرجلين صراع عنيف صامت ولو إلى حين.

آثر ابن أبي عامر أن يبدأ بالقصر، وخاصة الصقالبة، فاتفق مع المصحفي على انتهاج سياسة جديدة تجاه الصقالبة، تؤدي بالنتيجة إلى القضاء عليهم.

وأيضاً كان لا بد لتحقيق هذه الغاية الكبرى لابن أبي عامر وهي سحق كل سلطة أخرى تعترض سبيله، وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف، لا يزالون قوة يحسب حسابها، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ما يزال بحكم منصبه وتأييد عصبته، مسيطراً على السلطة العليا، وكانت الوحشة ما تزال قائمة بين الحاجب وبين الصقالبة، مذ تسبب في فشل مشروعهم لتولية المغيرة بن عبدالرحمن، وحصد شوكتهم بتوليته هشام، وكان الحاجب يخشى غدرهم ودسائسهم، وبلغه أن فريقاً من زعمائهم، وعلى رأسهم الفتيان جؤذر وفائق، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم، فاتخذ بعض

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٢٧٠.

التحوطات، ووضع الفتيان تحت الرقابة، وأغلق باب الحديد، الذي كان مخصصاً بدخولهم ودخول أصحابهم إلى القصر، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السُّدة، وفصل الغلمان من أصحاب جؤذر وفائق، وتفاهم مع ابن أبي عامر على إلحاقهم بحاشيته، وكانوا زهاء خمسمائة، فقبل ابن أبي عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه، ثم انحاز إليه بنو برزال، وكانوا قبلاً من أصحاب الحاجب جعفر، فقوى بهم أمره، ولم يمض سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتى جؤذر، وشعر الصقالبة بأن نجمهم قد أفل، وسلطانهم قد انهار، فسرى بينهم التذمر، واجتمع المتمردون حول فتى من زعمائهم يدعى درّى. فتفاهم الحاجب وابن أبي عامر على إزالته، فدعى إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته في بياسة، فلما قدم درى ورأى كثرة الجند، شعر بالشر، وأراد العودة فمنعه ابن أبي عامر، فهجم عليه وأراد أن يبطش به، فصاح ابن أبي عامر بالجند، فهرع إليه بنو برزال وانهالوا عليه ضرباً، ثم حمل إلى داره وقتل في نفس المساء، ورأى ابن أبي عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة، فأمر كبيرهم فائقاً وباقي زعمائهم بالتزام دورهم، وفرق بذلك شملهم، ثم جد في مطاردتهم واستصفاء أموالهم، وفشى فيهم القتل والنفي، حتى هلك الكثير منهم، وأبعد الفتى فائق في النهاية إلى ميورقة فمات هناك، وانهار بذلك سلطان الصقالبة، وأمن الحاجب وزميله ابن أبي عامر شرهم، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحرم بدلاً منهم.

وقد كان الصقالبة في البداية زينة للدولة والبلاط، وكان ظهورهم بجموعهم المتألقة وأزيائهم الفخمة، يسبغ على القصر، وعلى مواكب الخلافة، طابعاً من الأبهة والعظمة، ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة، وبسطوا سُلطانهم على القصر والدولة، اشتد طغيانهم، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة، وعلى الشعب قاطبة[1].

❋ ❋ ❋

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٢٨٠، ٢٨١.

ثانياً: تصفية المصحفي

اندرجت ضربة ابن أبي عامر للصقالبة تحت مسمى التأديب وذلك لموقفهم المعارض من معركة تنصيب الخليفة هشام، ولكنه استخدمها في صالحه ولربما لم يدرك الحاجب المصحفي أبعاد هذه الضربة.

ولاحت الفرصة لابن أبي عامر ليتقدم خطوة هامة على طريق التخلص من خصومه، ولن يتأتى ذلك إلاّ بتوطيد ابن أبي عامر لإقدامه في السلطة ويبسط سلطانه على القوة الحقيقية التي ستحسم هذا الصراع وهي الجيش.

ولاحت السلطة، عندما انتهز القشتاليون فرصة مرض الحكم، وانشغال المسلمين عقب وفاته، فدفعوا غاراتهم جنوباً، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة قرطبة ذاتها، ولم يبد الحاجب المصحفي اهتماماً أو انشغالاً بذلك، ولم يؤد ما عليه من واجب الهمة والنجدة، فاهتم ابن أبي عامر، وأشار إلى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد، ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة، فتقدم ابن أبي عامر للاضطلاع بها، وجهز المال والجند، وأشرف بنفسه على اختيار الجند، وخرج من قرطبة في رجب سنة ٣٦٦هـ/ فبراير ٩٧٧م، وسار شمالاً إلى أراضي قشتاله، ثم عطف غرباً حتى أحواز شلمنقية وحاصر حصن الحاقة، ثم استولى على الحصن وحرسه، وقفل راجعاً إلى قرطبة مثقلاً بالأسرى والغنائم، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو[١].

كان لهذا النصر الحربي الأول، الذي حقق على يد ابن أبي عامر، أكبر الأثر في نفوس الجند، ونفوس الشعوب قاطبة، فقد رأى الجند فيه قائدهم المظفر، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه، ورأى فيه الشعب حامي المملكة والمدافع عنها، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة لم يدركها المصحفي أيضاً.

وبعد فترة وجيزة تأهب ابن أبي عامر مرة أخرى إلى غزوته الثانية

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٣٨٢.

وكانت قد وقعت أحداث جديدة زادت في توطيد مركزه، وفي إضعاف مركز الحاجب جعفر المصحفي، وذلك أنه كان بين الحاجب المصحفي، وبين القائد غالب بن عبدالرحمٰن صاحب مدينة سالم، وأعظم فرسان الأندلس، عداء مستحكم، زاده ما تقوَّل به الحاجب على غالب، من تقصيره في الدفاع عن الحدود الشمالية، وعجزه عن رد النصارى، فانتهز ابن أبي عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح، ولدى الخليفة، حتى خرج المرسوم إلى خطة «ذي الوزارتين» وبأن يندب لقيادة جيش الثغر، وأن يندب ابن أبي عامر لقيادة جيش الحضرة، وخرج ابن أبي عامر على أثر ذلك بالجيش إلى غزوته الثانية، وذلك في يوم عيد الفطر سنة **٣٦٦هـ** مايو **٩٧٧م** فالتقى بغالب وجيشه في محلة مجريط على طريق وادي الحجارة (وهي قلعة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبدالرحمٰن فوق سفح جبال وادي الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى، ولبثت تؤدي مهمتها الدفاعية، وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد عاصمة إسبانيا حالياً).

واخترق الجيشان معاً أراضي قشتالة القديمة، واستولى المسلمون على حصن مولة، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبي. وكان لجيش غالب التفوق في الأعمال الحربية في تلك المنطقة، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبي عامر وارتد بجيشه إلى الثغر، بعد أن توثق بينهما التحالف، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك، وقفل ابن أبي عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبي، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء، فزاد صيته، وارتفعت هيبته، وتمكنت منزلته لدى الخليفة، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً[1].

وما إن عاد ابن أبي عامر إلى قرطبة، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن أبي جعفر ولد الحاجب عن حكمها، وتقليده لابن أبي عامر، وبذلك تم لابن أبي عامر السيطرة على المدينة والجيش معاً، وكانت قرطبة

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٢٨٣.

تعاني قبل تولية حكمها من اضطراب الأمور، واختلال الأمن، وذيوع الفساد والفسق، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة، فساد بها الهدوء والأمن، ثم استخلف ابن أبي عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبدالله بن أبي عامر، فسار على طريقته، في انتهاج الحزم والشدّة في ضبط الأمور، ومطاردة أهل البغي والعدوان، كل ذلك والحاجب جعفر، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئاً، وسلطان ابن أبي عامر في تصاعد وتمكن مستمر، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه، ويشعر في قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة.

وخطى الحاجب خطوة مهمة في مواجهة هذا الخطر، فحاول استمالة القائد غالب ومصالحته، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد، فاستجاب غالب إلى طلبه، وكادت تتم المصاهرة، ولكن سرعان ما علم ابن أبي عامر بذلك المشروع، فثارت نفسه، وكتب إلى غالب يناشده الولاء، ويخطب ابنته لنفسه، وعضده في ذلك أهل القصر، فنزل غالب على تلك الرغبة، وعدل إلى مصاهرة ابن أبي عامر، وتم العقد في أوائل المحرم سنة **٣٦٧هـ/ ٩٧٧م** ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثالثة، فسار إلى طليطلة في أوائل صفر، حيث التقى مع صهره غالب، وسار الاثنان في قواتهما شمالاً، وافتتحا في طريقهما بعض الحصون، ثم قصدا إلى مدينة سلمنقة الواقعة جنوب غربي مملكة ليون فاقتحماها، وعاثا في أرباضها، واستوليا على كثير من الغنائم والسبي، وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصارى، فاغتبط الخليفة بصنعه، ورفعه إلى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً في الشهر!! وهو راتب الحجابة في ذلك العصر(١).

وما إن استقر ابن أبي عامر في قرطبة، حتى بدأت الاستعدادات لإتمام زفافه على بنت غالب، فأحضرت أسماء إلى العاصمة في موكب فخم،

---

(١) نفح الطيب جـ١، ص١٨٧.

وكانت من أجمل النساء ـ نساء عصرها ـ وأوفرهن ثقافة وسحراً، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حُدير أيام الحكم، ثم طلقت منه، وزفت أسماء إلى ابن أبي عامر، في حفلات كانت مضرب الأمثال في البذخ والبهاء، ونظم الاحتفال في قصر الخليفة، وبإشراف أمه صبح، وأغدقت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف، وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة[1].

وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره حسبما نفصل بعد. واستقدم الخليفة غالباً من الثغر، وقلده خطة الحجابة إلى جانب جعفر، فكانت ضربة جديدة للحاجب، ولكن جعفراً لم يسعه إلا الإذعان والسكوت، وقد أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم، ولم ينخدع بما كان يبديه نحوه ابن أبي عامر من التلطف والمصانعة، وهو يقبض دونه على كل شيء في القصر والدولة[2].

وفي الثالث عشر من شعبان سنة **٣٦٧هـ**، وقعت النكبة المرتقبة للمصحفي، فقد أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، والقبض عليه وعلى ولده وآله، والتحفظ على أموالهم، وبادر ابن أبي عامر إلى محاسبتهم واستصفاء أموالهم، وشدد في مطاردتهم، حتى مزقهم كل ممزق، وعوجل هشام ابن أخي الحاجب فقتل في مطبقه، وكان من أشد الناس عداوة لأبي عامر، وزج جعفر إلى ظلام السجن، يعتقل فيه حيناً، ثم يعتقل حيناً في داره، واضطر إزاء التشدد في مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرُّصافة، وكانت من أعظم دور قرطبة، وأمعن ابن أبي عامر في نكايته، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء، واستطالت محنة المصحفي أعواماً، عانى خلالها أروع آلام المهانة والمذلة، وهو يستعطف ابن أبي عامر فلا يرحمه، واستمر سجيناً في مطبق الزهراء حتى توفي سنة **٣٧٢هـ**

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) محنة المصحفي في البيان المغرب جـ٢، ص٢٨٥ وما بعدها.

(٩٨٢م) وقيل إنه قتل خنقاً في مطبقه، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته[١].

كان المصحفي حسبما تقدم شاعراً جزلاً، وقد أذكت المحنة شاعريته، وصدر عنه من معتقله كثير من القصائد المؤثرة، ومن ذلك قوله:

صبرت على الأيام لما تولت ... وألزمت نفسي صبرها فاستمرت

فيا عجباً للقلب كيف اصطباره ... وللنفس بعد العز كيف استذلت

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن طمعت تاقت وإلا تسلت

وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأت صبري على الذل ذلت

وقلت لها يا نفس موتي كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

ويوجز ابن خلدون معركة ابن أبي عامر مع خصومه فيقول:

«ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطهم عن مراتبهم، وقتل بعضهم ببعض، كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه، حتى استأصل شأفتهم ومزق جموعهم»[٢].

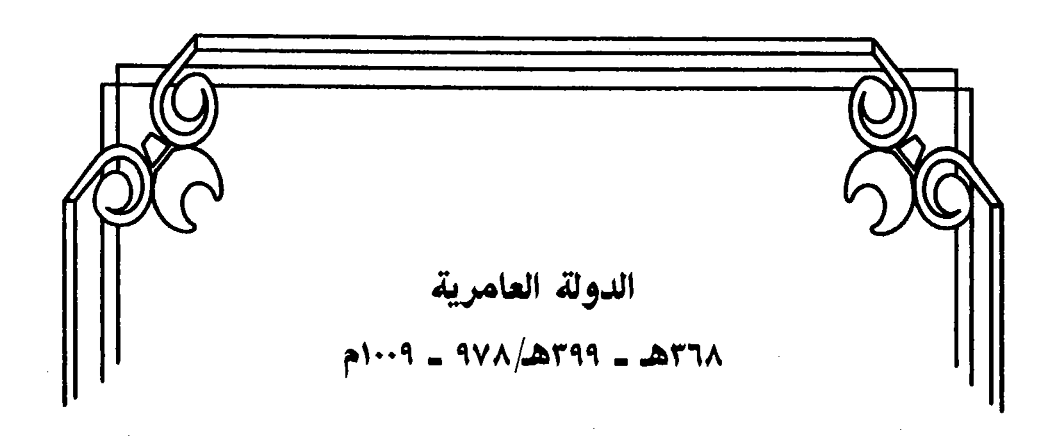
وقد اتجه ابن أبي عامر بعد ذلك إلى الجيش فأولاه الاهتمام، فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زناته وصنهاجة وغيرهما من قبائل البربر، ومن الجند النصارى من ليون وقشتالة ونافار، وبذل لهم الأجور السخية، واجتذب قلوبهم بعدته ورفقه وجوده، وغير أنظمة الجيش القديمة، فقدم رجال البربر، وأخر زعماء العرب، وأقصاهم عن مناصبهم، وفرق جند القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة، وكانوا من قبل ينتظمون في صف واحد. وكان العرب يتمسكون منذ الفتح بوحدة القبيلة، لأن العصبية كانت من قبائلهم حتى أيام الناصر، ما تزال فتية قوية، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل العربية وإضعاف هيبتها، وجاء ابن أبي عامر فألفى الميدان ممهداً لخططه فلم تلق سياسته الجديدة مُعارضة تذكر[٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ٤، ص١٤٧.

(٣) نفح الطيب والبيان المغرب جـ٢، ص٣١٦، وانظر ابن خلدون جـ٤، ص١٤٨.



الدولة العامرية

٣٦٨هـ - ٣٩٩هـ/٩٧٨ - ١٠٠٩م

قضى ابن أبي عامر على أقوى خصومه، وأزاح من طريقه أعتى منافسيه الصقالبة والمصحفي، وأصبح رجل الدولة القوي، وخاصة بعد أن وضع يده على الجيش، وبذلك يكون قد وضع يده على صاحب السلطة دون منازع ولا مدافع.

وبدت صورة الخليفة هشام باهتة، فلم يكن إلاّ أداة لينة في يد ابن أبي عامر الرجل القوي الذي أمسك بزمام الأمور.

❋ ❋ ❋

إنشاء مدينة الزاهرة

جاء قرار ابن أبي عامر ببناء مدينة الزاهرة تحوطاً من أخطار الغدر والتآمر، بعْدَ أن أصبح يخشى على نفسه من الوجود في قصر الزهراء، ومما قد يضمره بعض الحاقدين المتربصين[١].

وكان قرار بناء الزاهرة أيضاً بدافع اتخاذ مركز مستقل للإدارة والحكم، يجمع بين السَّلامة، ومظاهر السلطان والعظمة، فوضع أسس مدينة ملوكية

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٢٩٤، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص٦٢.

جديدة أسماها الزاهرة (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) قيل إنها كانت تحتل بقعة على مقربة من شرقي قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير.

وقد أنشأ المنصور بالزاهرة قصراً ملوكياً فخماً، ومسجداً، ودواوين للإدارة والحكم، ومساكن للبطانة والحرس، وأقام حولها سوراً ضخماً، ونقل إليها خزائن المال والسلاح، وإدارات الحكم، وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين، وأقطع ما حولها للوزراء والقادة، وأكابر رجال الدولة، فابتنوا الدور العظيمة، وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة، وأضحت تنافس المدينة الخليفية في الضخامة والرونق.

وفي أوائل سنة **٣٧٠هـ/ ٩٨٠م**، انتقل محمد بن أبي عامر إلى مدينة الزاهرة، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر، وأحاط قصره الجديد بالحراس والحاشية، يرقبون كل حركة وسكنة في الداخل والخارج، واقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفية، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعي، وأنشأ ابن أبي عامر في نفس الوقت حول القصر الخليفي سوراً وخندقاً، وأحكم غلق أبوابه، ووكل بهما من يمنع دخول أي شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه، وبث عيونه على هشام وحاشيته، وأشاع أنه قد فوّض إليه النظر في سائر شؤون المملكة، لكي يتفرغ لشؤون العبادة. وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتى، وقطعت سائر علائقه مع الخارج، ولبث محجوباً في أعماق قصره، يغمره الخمول والنسيان[1].

❋ ❋ ❋

موقف السيدة صبح من ابن أبي عامر

ضعفت صبح أمام ابن أبي عامر بسبب ما يضطرم بين جوانحها من حب وعشق لهذا العامري، فقد ذهبت في حبها إلى حد الائتمار بولدها

---

(١) انظر البيان المغرب جـ٢، ص٢٩٥ وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون جـ٤، ص١٥٠، ونفح الطيب جـ١، ص٢٧٢ بتصرف.

والتضحية بحقوقه ومصالحه، فقد كانت أكبر معين لابن أبي عامر على تحقيق طموحه، وكان حبها المضطرم لذلك الرجل قد ملك عليها كل مشاعرها وعقلها، وكان ذلك الحب يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقتها به، ويعميها دائماً عن إدراك الأهداف الخطرة التي يسعى إلى تحقيقها.

ويذكر المؤرخون أن علاقتها بابن أبي عامر قد ذاعت، وغدت فضيحة قصر زائعة، تناولها مجتمع قرطبة بالتشهير والتعريض وبالتعليقات اللاذعة والهجاء، وظهرت بهذه المناسبة قصائد وأناشيد شعبية كثيرة. من ذلك ما قيل في هشام وأمه صبح، وقاضيه ابن السليم:

اقترب الوعد وحان الهلاك　　　وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب من مكتب　　　وأمه حبلى وقاض[1]

وهذه الأناشيد التعريضية، تدل على موقف صبح وسمعتها المثيرة، وقد أظهرت الحوادث وتطورها بعد حين، أن موقف صبح يجب أن يتغير من ابن أبي عامر، لأنها أدركت وتيقنت أخيراً ما يرمي إليه هذا الرجل، وأدركت خطورته على مستقبل ولدها هشام، وعلى مستقبل الأسرة والخلافة، فثارت نفسها سخطاً، وكانت قد جاوزت الأربعين يومئذ، وقد تسرب ذلك الحب القديم، الذي شغفها بابن أبي عامر دهراً، وأضحت تبغض هذا الرجل الذي سلب ولدها، وسلبها كل نفوذ السلطة. ولكن ابن أبي عامر كان يقظاً بحيث يصعب على صبح أو أي من خصومه أن يقوم بعمل مناهض له ولذلك فقد لجأت صبح إلى العمل السري ضد ابن أبي عامر، وأخذت تبث الكراهية في نفس ولدها هشام، كراهية ابن أبي عامر والسعي إلى مناوأته واسترداد سلطانه منه، وتولي مقاليد الحكم بنفسه، وشهرت بابن أبي عامر عن طريق أعوانها، واتهمته بأنه يسجن ابنها ويغتصب سلطته، واتجهت إلى صهره غالب لتستميله.

---

(١) انظر البيان المغرب جـ٢، ص٣٠٠، وكذلك نفح الطيب جـ١.

ثالثاً: التخلص من غالب رغم المصاهرة!!

كان غالب يقيم بالثغر بعيداً عن قرطبة، بالرغم من توليه الوزارة، وكان غالب يتمتع في قرطبة وسائر مدن الأندلس بسمعة عالية في ميدان الفروسية والقيادة، وهو ما كان ينقمه ابن أبي عامر على صهره، وكان المعارضون يرون في غالب الرجل الوحيد، الذي يستطيع أن يقارع ابن أبي عامر ويقاومه.

في مواجهة ذلك رأى ابن أبي عامر أن يخطو خطوة حاسمة وهي أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن علي بن حمدون المعروف بالأندلسي، وكان جعفر من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته، وكان مقيماً بالعدوة، فعبر البحر إلى الأندلس، واستقر في الوزارة يرعاه ابن أبي عامر بحبه وثقته، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم، ولاسيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته، وجاء البربر من العدوة جماعات وابن أبي عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان، ويقوي بهم صفوفه وبطانته، وفي المقابل كان غالب مرتاباً من تصرفات صهره ابن أبي عامر، وبعد حين أضحت العلاقات باردة بين ابن أبي عامر وصهره غالب، ولكن غالب عمد إلى مصانعة ابن أبي عامر، فدعاه أثناء غزوة بالصائفة في أراضي قشتاله، إلى وليمة أقامها بمدينة انتيسة ـ وتقع إلى الغرب من مدينة سالم ـ وهي إحدى مدن الثغر التي تحت ولايته، وجاء ابن أبي عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة، في بعض أصحابه، فانفرد به غالب وشرع في عتابه ثم اشتد بينهما النقاش، فشهر غالب سيفه على صهره فجأة، فأصابه في بعض أنامله وصدغه، واستطاع ابن أبي عامر أن يفر ناجياً بنفسه، من مأزق بالغ الخطورة، وامتنع غالب بالقلعة، بينما سار ابن أبي عامر لفوره إلى مدينة سالم، حيث دار غالب وأهله، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه، وفرقها في الجيش، وعاد إلى الحضرة، وهو يضمر لغالب أسوأ النيات[1].

---

(١) البيان المغرب لابن عذاري جـ٢، ص٢٧٨.

كان غالب أعظم قادة الأندلس، وكانت لديه في الثغر قوات يعتز بها فنهض لقتال قوات ابن أبي عامر، والتقى الخصمان أمام قلعة شنت بجنت، في (٣ محرم ٣٧١هـ/ ٩ تموز ٩٨١م)، وجرت بينهما، في اليوم التالي، رحى معركة طاحنة، كادت الدائرة تدور على محمد بن أبي عامر، والذي واجه معركة تُعَدُّ من أصعب ما واجهه في حياته العسكرية، إذ كاد يفقد حياته مرتين لو لم يُنقذه الحذر في الأولى والحظ في الثانية، فقد كبا جواد غالب بن عبدالرحمٰن به ووقع ميتاً، فاختل توازن جيشه وولى أفراده منهزمين بكل اتجاه، وتكبدوا خسائر فادحة في الأرواح، وكان راميرو حاكم نبَّرة من بين القتلى[١].

وقد وصف المؤرخون هيبة غالب خلال هذه الموقعة فقالوا:

«هو شيخ كبير قد قارب الثمانين عاماً وهو على فرسه، وفي رأسه طرطور عال، وقد عصب حاجبيه بعصابه، وكان قد جمع جموعاً عظيمة من المسلمين والنصارى، فبدأ بالهجوم على الميمنة، وفيها جعفر بن علي وأخوه يحيى والبربر، وحمل عليهم حملة، أزاحتهم عن مواقعهم، ومزقت صفوفهم؛ ثم حمل على الميسرة، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء، ففعل بها كما فعل بالأولى، ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب، وهو تحت قيادة ابن أبي عامر نفسه، وهو يقول: «اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني. وإن كان هو الأصلح لهم فانصره»، ثم هز فرسه، وترك جبهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان في جانب عسكره، فظن أصحابه أنه يريد الخلاء، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتاً، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر، وفرسه واقف بجانبه يعلك لجامه، ولا يعلم أحد سبب موته، فلما أدرك أصحابه سقط بأيديهم، وطلبوا خط أنفسهم، فبادر مبادر منهم بالبشرى

(١) أعمال الأعمال لابن الخطيب ج٢، ص٦٥ ـ ٦٧.

إلى ابن أبي عامر، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه، ووافاه آخر بيده، ووافاه آخر برأسه!!»[1] وهكذا انتهى الصراع على النفوذ لصالح محمد بن أبي عامر الذي استبد بشؤون البلاد والعباد.

❋ ❋ ❋

رابعاً: تخلص ابن أبي عامر من جعفر بن علي

وكعادة ابن أبي عامر، فقد خشي من طموح جعفر بن علي بن حمدون بعد أن اكتسب شعبية في الأندلس نتيجة جهاده ضد النصارى في الشمال، وما أظهره من بسالة في شنت بجنت، وكان ابن أبي عامر قد رفع جعفر بن حمدون إلى منصب الوزارة، وأضحى التخلص منه ضرورة ملحة بالنسبة لابن أبي عامر، فدعاه في (**٣ شعبان ٣٧٢هـ/ ٢١** كانون الثاني **٩٨٣م**) إلى حفل في قصره، وأمر السقاة بتقديم الشراب له، فأفرط جعفر فيه وفقد وعيه، وخرج يترنح، ثم دسَّ عليه من قتله وهو في الطريق إلى منزله، ووصل الدهاء به أنه تظاهر بالحزن على ضحيته، وأذاع بنفسه على الملأ، نبأ وفاة واحد من أجل أتباعه، وتعد هذه الجريمة صورة قاتمة في مآثر محمد بن أبي عامر ومن وسائله السياسية، ثم أعدم قاتله حتى لا ينكشف الأمر.

وهكذا تخلص من أخطر الرجال المخلصين الذين قدموا له، خلال صراعه مع صهره غالب بن عبدالرحمٰن، خدمات جليلة، فلما انتهى دوره بموت غالب قضى عليه، لأن بقاءه بالنسبة لابن أبي عامر أصبح لا مبرر له، فهو لم يعد يحتمل في دولته رجالاً من طرازه، كما تخلص بعد ذلك من الأحوص وانفرد بالحكم[2].

❋ ❋ ❋

---

(١) المصدر السابق. وانظر دولة الإسلام، د. عنان ع١ ق٢ ص٥٤١.

(٢) ابن عذارى ج٢، ص٢٨٠.

التلقب بألقاب الخلافة

بعد قضاء ابن أبي عامر على خصومه، والتخلص من منافسيه، أضحى محمد بن أبي عامر الرجل الأَقوىٰ، والحاكم المطلق في دولة الأندلس الأموية التي أخذت منه ذلك الوقت تخلع ثوبها الأموي، باستثناء لقب الخلافة الذي كان يتلى في خطبة الجمعة، وغابت عن مؤسسة الدولة شخصيتها الأموية تماماً، وارتبطت كافة أجهزتها بهذا الشاب العامري الطموح الذي توج نفسه، بعد انتصاره على غالب والنصارى في الشمال، تحت لقب المنصور بالله تيمناً، بالألقاب الملكية، ونقش اسمه على النقود، وأمر بترديده على المنابر عقب الدعاء للخليفة، ولم يرفض درجة الحجابة، فعُرِف بالحاجب المنصور، وأمر أن تخضع اللقاءات والمقابلات إلى قواعد صارمة منها تقبيل يده، ومناداته بمولاي، وأمر العمال في مختلف الأقاليم التابعة للدولة الأموية التقيد بها، وذلك في عام ٣٧١هـ/ ٩٨١م[١].

❋ ❋ ❋

جهاده ضد الممالك المسيحية في شمال إسبانيا

أراد المنصور أن يدعم نفوذه بعمل يكسبه شرعية في الحكم وشعبية بين الناس وهو الجهاد في سبيل الله، لهذا أخذ يغزو بنفسه الممالك المسيحية الشمالية، وكانت له في كل عام غزوتان في الربيع وفي الخريف تحت اسم (الصوائف والشواتي) وقد بلغت غزواته سبعاً وخمسين غزوة باشرها كلها بنفسه رغم مرضه بعلة النقرس[٢].

ولم ينهزم في واحدة منها طوال حكمه الذي بلغ خمساً وعشرين سنة. يروي ابن عذارى أن المنصور اعتنى بجميع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل

(١) المصدر السابق ص٢٩٢.

(٢) البيان المغرب جـ٢، ص٢٨٨.

من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة، عهد بتصييره في حنوطه عند موته، وكان يحمله حيث ما سار مع أكفانه توقعاً لحلول منيته في أي لحظة[1].

«ويروى في هذا الصدد أن سيف الدولة الحمداني (٩١٦ - ٩٦٤م) صاحب حلب والذي اشتهر بشجاعته في حروبه ضد الروم بالمشرق والذي كان معاصراً للمنصور جمع هو الآخر من غزواته غباراً وملأ به قارورة، وعمل منه قالباً بقدر حجم الكف يضع خده عليه عملاً بقول رسول الله ﷺ: **«لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»**[2].

وقد حارب المنصور في جبهات النصارى المتعددة، في قشتاله وليون، ونبرة وقطالونيا، وأنزل بهذه البلاد خسائر فادحة، ووصل فيها إلى ما لم يصل ملك من ملوك المسلمين السابقين، فدانت له جميع إسبانيا شمالاً وجنوباً.

ومن أهم غزواته الحملة التي شنها على برشلونة وقطالونيا في شمال شرق إسبانيا سنة **٣٧٤هـ/ ٩٨٥م** والحملة التي شنها على جليقية أوغليسية في شمال غرب إسبانيا سنة **٣٨٧هـ/ ٩٧٧م**.

أما الحملة الأولى حملة برشلونة وقطالونيا، فقد خرجت من العاصمة قرطبة وسارت في طريق البيرة وبسطة ثم مرسية ومن هناك اتجهت شمالاً في الطريق الساحلي الشرقي المطل على البحر المتوسط حتى بلغت برشلونة بعد شهرين تقريباً. فقلبت أعاليها سافلها، ولم يجرؤ حاكمها بريل الثاني على مواجهة المنصور وإنقاذ المدينة من براثنه.

أما حملة جليقية وهي الغزوة الثامنة والأربعون، فكان غرض المنصور منها غزو مدينة شنت ياقب أي القديس يعقوب أحد الحواريين الاثني عشر ومن أخص الناس بالسيد المسيح حيث اعتبره المسيحيون أخاه للزومه إياه.

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٢٨٨.

(٢) المقري في نفح الطيب جـ٨، ص٢٧٢.

ويزعم المسيحيون أن هذا القديس كان أسقفاً لبيت المقدس وأنه ساح في الأراضي داعياً لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية ومات ودفن فيها، وقد أقاموا فوق ضريحه كنيسة عظيمة يحج إليها المسيحيون من جميع أنحاء العالم ولا تزال مدينة شنت ياقب هي القاعدة الدينية لإسبانيا[١].

والأساطير الإسبانية القديمة تشير إلى أن سنتياجو، كان يخرج للجنود المحاربين الإسبان على شكل ملاك بيده سيف، ويمتطي فرساً أبيض ثم يأخذ في معاونتهم على قتال المسلمين، في المعركة حتى يكتب لهم النصر ولذلك أطلقوا عليه كلمة «متامورس» Matamoros ـ أي قاتل المسلمين وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين الإسبان الحديثين قد أبدوا شكاً كبيراً من أن سنتياجو مدفون في إسبانيا، إلاّ أن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن الإسبان في العصر الوسيط قد آمنوا بهذا القديس ومعجزاته، واتخذوه رمزاً قومياً في حروبهم مع المسلمين.

وعلى هذا الأساس كانت نظره الإسبان إلى سانتياجو تختلف تماماً عن نظرة العالم المسيحي له: فالأوروبيون بصفة عامة ينظرون إليه على أنه القديس الذي يحجون إليه، أما الإسبان فينظرون إليه على أنه سنتياجو المحارب، ومن هنا يدرك تماماً لماذا حرص المنصور في هذه الغزوة على الوصول إلى كنيسة سنتياجو وهدمها، لقد كان غرضه من غير شك هو تحطيم أسطورة سنتياجو الحربية، وطعن الإسبان في صميم زعامتهم القومية والروحية[٢].

وقد اشترك في هذه الحملة الأسطول الأندلسي الذي حمل المشاة والأسلحة والأقوات والأطعمة والعدد، وأقلع من مينا قصر أبي دانس على ساحل غرب الأندلس (البرتغال) واتجه نحو الشمال، بينما سار المنصور براً على رأس فرسانه مخترقاً الأراضي الإسبانية شمالاً حتى بلغ نهر دويرة، وهناك التقى بأسطوله الذي دخل في النهر وعقد منه جسراً لعبور الجنود ثم

---

(١) د. العبادي ص١٧٧، مصدر سابق.

(٢) المصدر السابق.

زحف المنصور بفرسانه ومشاته مخترقاً بلاد العدو بما فيها من جبال ووهاد حتى بلغ مدينة سانتياجو، فوجد سكانها قد فروا منها خوفاً منه، فأمر المنصور بتدميرها وتدمير كنيستها ولكنه حافظ على مقام القديس يعقوب احتراماً للتقاليد الإسلامية، وعاد المنصور محملاً بالأسرى والغنائم التي كان من بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها، فاستخدمت الأبواب في تسقيف الجزء الذي زاده في جامع قرطبة، كما استعمل النواقيس ثريات المسجد.

كان من نتائج هذه الحملات أن اكتسب المنصور شعبية كبيرة بين المسلمين وزادت هيبته وسطوته في داخل البلاد وخارجها، وذاع صيته في كل مكان، ومن مظاهر ذلك قول أحد المؤرخين[١]:

«وملأ المنصور الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم، وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور، وذلك لرخص أثمان بنات الروم، فكان الناس يرغبون في بناتهم بما يجهزونهن به، ولولا ذلك ما تزوج أحد، بلغني أنه نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة، وكانت ذات جمال رائع أكثر من عشرين ديناراً عامرية».

وفي هذا المعنى يروي ابن عذارى أنّه عقب وفاة المنصور خرج الناس صائحين مات الجلاب! مات الجلاب![٢] ويراد بهذه الكلمة مدح المنصور الذي كان يغمرهم دائماً بالعطايا والسبايا والنعم عقب أيامه من غزواته.



المنصور في بلاد المغرب

انتهج المنصور في المغرب سياسة عبدالرحمٰن الناصر والحكم المستنصر وكانت هذه السياسة تقوم على أساس ضرورة الاحتفاظ بالعدوة

---

(١) المراكشي في كتابه المعجب.
(٢) ابن عذارى، البيان المغرب جـ٢، ص٨٣ (وانظر المقري: نفح الطيب جـ١، ص٣٩٠).

المغربية تحت السيطرة الأندلسية لتكون خط دفاعها الأمامي ضد الخطر الشيعي من هذه الجهة الجنوبية. ونجح المنصور في ذلك نجاحاً كبيراً لم يبلغه أحد من قبل ولا من بعد، إذ دخل في الطاعة الأموية كل البلاد المغربية الممتدة من سجلماسة (تافيلالت) جنوباً سنة **٣٧٠هـ**، وإلى ولايتي تلمسان وتاهرت شرقاً سنة **٣٨١هـ**[١].

وجاء في مفاخر البربر عن السياسة العامرية قول:

«واقتصر محمد بن أبي عامر لأول قيامه على ضبط مدينة سبتة وما والاها بجند السلطان الأندلسي، وقلدها كبار رجاله من أصحاب السيوف والأقلام على حسب الحاجة إلى تغيير طبقاتهم وعول في ضبط ما وراء ذلك على ملوك زناته، ومنحتهم الجوائز والخلع، وأكرم وفودهم ببابه، وأثبت من رغب منهم الإثبات في ديوانه، فأحبوا محمداً وجدوا في المحاماة عن الدولة. واتفق لهم أيام تقلده الحجابة، وتفرده بتدبير الدولة، وذلك في شعبان سنة **٣٦٩هـ/ ٩٧٩م** أن زحف خزرون بن فلفول أحد عظماء زناته، المرتسمين بولاية بني مروان بالمغرب إلى مدينة سجلماسة، وكانت قد عادت إلى أيدي الخوارج الأباضية بعد فتح جوهر الصقلي، لها، وأسره لمحمد بن الفتح صاحبها الخارجي، وقام رجل منهم وتسمى المعتز بالله سنة **٣٥٢هـ**، فلم يزل مالكها إلى أن ظهر عليه خرزون بن فلفول وهزم جموعه وقتله واستولى على سلجماسه وضبطها وذلك سنة **٣٧٦هـ**، ووجد المعتز مالاً عظيماً وسلاحاً كثيراً، وأقام الدعوة للخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم، وهي أول دعوة قامت للمروانية بذلك الصقع الجنوبي، وكتب بالفتح إلى هشام وأنفذ راس المعتز فشهد بقرطبة، ونصب بباب السدة وكان أول رأس رفع في الدولة، ونسب الأثر فيه إلى محمد بن أبي عامر، وتيمن لحجابته، وعقد لخزرون على سلجماسة، فلم تزل بيده إلى أن هلك وصارت في يد ابنه وأنودين إلى انقضاء الدولة[٢]. وعلى الرغم من هذا

---

(١) انظر كتاب مفاخر البربر، لمؤلف مجهول، نشر ليفي بروفنسال ص٣٤.

(٢) مفاخر البربر لمؤلف مجهول ص١٦، نشر ليفي بروفنسال.

النجاح الكبير الذي أحرزه المنصور بن أبي عامر في العدوة المغربية، فقد قامت معارضات وثورات عديدة ضد النفوذ الأموي في هذه المنطقة، ولكن المنصور كان لها بالمرصاد لدرجة أنه اتخذ من مدينة الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، قاعدة عسكرية للإشراف فيها على العمليات في العدوة المغربية، كما أمر بأن تبنى له القصور والمنازل في طريقه إلى الجزيرة الخضراء جنوباً على غرار ما فعل في الطرق المؤدية إلى الثغور الأندلسية شمالاً.

وأول هجوم واجهه ابن أبي عامر في العدوة المغربية كان في سنة **٣٦٩هـ/ ٩٧٩م** وبقيادة الأمير بلكين أو بلقين بن زيرى الصنهاجي ملك الدولة الزيرية في المغربين الأدنى والأوسط، ولكن المنصور استطاع أن يعد له بظاهر «سبتة» جيشاً كبيراً من المغاربة والأندلسيين بحيث لما جاء بلقين وأشرف على جيوش المنصور من أعالي الجبال المطلة على سبتة هاله ما رأى وقال لأصحابه: «إنما سبتة حيَّة ولدت ذنيها حذاءنا، وفغرت فاها نحونا، وانصرف راجعاً إلى وطنه»[1].

أما الهجوم الثاني الذي واجهه المنصور بن أبي عامر في المغرب الأقصى، فكان في سنة **٣٧٥هـ/ ٩٨٥م** وبقيادة الأمير الإدريسي الحسن بن جنون الذي كان مقيماً في بلاط الفاطميين بالقاهرة كما أسلفنا القول، وقد أخذ الخليفة العزيز بالله الفاطمي ووزيره يعقوب بن كلس يزينان لهذا الأمير الإدريسي الرجوع إلى وطنه، والتمسك بدعوة آبائه الأدارسة، واسترداد ملكهم الضائع في المغرب، وصادف هذا الكلام هوى في نفسه، فانصرف هو ورجاله إلى المغرب بعد أن تقوى بالمال اللازم. وحاول الحسن بن جنون أن يحيي من جديد دولة الأدارسة بالمغرب، وأيدته في ذلك بعض القبائل الزناتية مثل بني يفران، وعدد كبير من العلويين الذين جاهروا بطاعته. غير أنه لم يستطع الصمود أمام جيوش المنصور وأعوانه من قبيلة

---

(١) المصدر السابق ص١٧.

مفراوة الزناتية، فأعلن استسلامه طالباً الأمان، ولكن المنصور لم يقبل طلبه في هذه المرة وأمر بقتله لكثرة فساده ونكثه بوعوده[1].

ولقد أثار مقتل الشريف الحسن بن جنون استياء العلويين من المنصور، فأخذوا يعرضون به في كلامهم، ويهجونه في أشعارهم، وحسبنا نذكر على سبيل المثال قول الشاعر إبراهيم بن إدريس الحسني في هذا الصدد:

فيما أرى عجب لمن يتعجب ... حلَّت مصيبتنا وضاق المذهب

إني لا أكذب مقلتي فيما أرى ... حتى أقول غلطت فيما أحسب

أيكون حيًّا من أمية واحد ... ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب

تمشي عساكرهم حوالى هودج ... أعواده فيهن فرد أشهب

ابني أمية أين أقمار الدجا ... منكم وما لوجهها لا تتغيب[2]

وبرغم كل هذا فإن الصراع الأكبر والخطير في المغرب كان في موضع آخر من بلاد المغرب العربي، واجه فيها المنصور اختباراً حقيقياً استطاع أن ينتصر فيه.

❋ ❋ ❋

ثورة الزعيم المغربي زيرى بن عطية المغراوي الزناتي سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م

على أن الثورة الخطيرة التي واجهت المنصور في العدوة المغربية، كانت بقيادة الزعيم المغربي زيرى بن عطية المغراوي الزناتي سنة **٣٨٦هـ/ ٩٩٦م** وكان هذا الزعيم وقبيلته مغراوة (إحدى بطون زناته) وقد ساعدوا المنصور في إخماد الثورة العلوية التي قام بها الحسن بن جنون وأعوانه

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٤١٩.

(٢) مفاخر البربر، مصدر سابق ص٢١.

الزناتيون، وقد كافأه المنصور على ذلك بأن ولاه حكم بلاد المغرب فصارت له الرياسة في قبائل زناته.

وينسب لزيرى بن عطية المغراوي بناء مدينة وجدة سنة **٣٨٤هـ/ ٩٩٤م** بالقرب من الحدود الجزائرية وجعلها عاصمة لدولته المغراوية. كذلك تنسب إليه رياض القرطاس التي غرسها بنواحي مدينة فاس حتى صار زيرى يلقب بالقرطاس أيضاً.

وكان زيرى بن عطية المغراوي زعيم المغرب حريصاً على إظهار ولائه للدولة الأموية وإرسال الهدايا النفيسة إلى الحاجب المنصور كالطيور الجميلة ذات الصوت البديع، والوحوش الكاسرة في أقفاصها الحديد كالأسود والنمور، كذلك أرسل له زرافة حيَّة ولكنها نفقت في الطريق فجيء بجلدها محشواً، هذا إلى جانب التمر الجيد الكبير الحجم.. الخ[1]. ولكن هذه العلاقات الطيبة ما لبثت أن تغيرت فجأة عقب آخر زيارة لزيرى بن عطية بالأندلس، فيروي المؤرخون أنه لما جاز المضيق عائداً إلى واضعه واستوت قدمه على أرض مدينة طنجة، تعمم وخاطب بلاده مرحِّباً: «الآن علمت أنك لي!» وهذه العبارة تدل على عزمه على الاستقلال ببلاده».

وفي سنة **٣٨٦هـ/ ٩٩٦م** أعلن زيرى ثورته على المنصور بن أبي عامر، وطرد عماله من جميع البلاد المغربية ما عدا القواعد الأموية المطلة على المضيق مثل سبتة وطنجة ومليلية.

ولقد ذكر في أسباب هذا الخلاف روايات مختلفة منها أن زيرى بن عطية استقل العطاء الذي يجريه عليه المنصور بن أبي عامر في كل سنة، ومنها أن زيرى بن عطية احتقر لقب الوزارة الذي أنعم عليه به المنصور بن أبي عامر لدرجة أنه صاح في وجه أحد رجاله حينما ناداه بالوزير قائلاً: «وزير من يالكع! لا والله إلا أمير من أمير، واعجباً لابن أبي عامر ومخرقته، لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، والله لو كان بالأندلس

---

(١) الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى للسلاوي الناصري جـ١، ص٢١١.

رجل ما تركه على حاله، وأن له منا ليوماً كذلك يقال من أسباب هذا الخلاف أن زيرى أنكر على المنصور استبداده بالخليفة هشام. ومن الطريف أن السيدة صبح التي كانت تكن للمنصور كل حب وإعجاب، قد انقلبت عليه بسبب حجرِهِ الشديد على ابنها هشام، فيروي المؤرخون أنها حاولت أن تأتي بجيش من المغرب على نفقتها للقضاء على المنصور، وأنها أخذت الأموال من بيت المال إلى القصر الخلافي بالزهراء ووضعتها في جرار لإرسالها على شكل هدايا إلى حليفها المغربي زيرى بن عطية، ولكن المنصور بفضل عيونه أن يكتشف المؤامرة ويستولي على هذه الهدايا، ولكي لا تتكرر هذه الحادثة، نقل المنصور بيت المال فوراً من مدينة الزهراء إلى مدينة الزاهرة التي بناها لنفسه[١].

وقد جعل زيرى بن عطية شعاره وصيحات جنوده في هذه الحرب عبارة «هشام يا منصور» بينما كان شعار جنود المنصور بن أبي عامر «يا منصور» وهناك فارق له مغزاه بين الشعارين[٢]. وكان هدف زيرى بن عطية الاستقلال ببلاده.

وبدا المنصور حربه مع زيرى بأن عزله من خطة الوزارة وقطع كل ما يجريه عليه من راتبها، وأعلن براءته منه، ثم جهز إليه حملة بقيادة مملوكه واضح الصقلبي قائد ثغر مدينة سالم.

وعبر واضح المضيق (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) ونزل مدينة طنجة حيث انضم إليه عدد من قواد البربر والموالين للمنصور، ثم خرج واضح من طنجة يريد مدينة فاس ولكنه لم يستطع التقدم أمام هجمات زيرى بن عطية، واضطر إلى الانسحاب منهزماً إلى طنجة.

وأمام هذه الهزيمة اتخذ المنصور خطوات حاسمة في هذا الموضوع، إذ خرج بجميع جيوش الأندلس إلى الجزيرة الخضراء، ثم أجازها جميعاً

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٣٠٢.

(٢) مفاخر البربر ص٢٩.

إلى سبتة وأسند قيادتها إلى ابنه عبدالملك المظفر بدلاً من مملوكه واضح، وبقي المنصور في الجزيرة الخضراء يراقب المعركة عن كثب.

وشعر زيري بخطورة موقفه، فبعث إلى جميع قبائل زناته يستصرخها لنصرته فهرعت إليه من جميع أنحاء المغرب، ونهض بها إلى قتال عبدالملك، ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة بوادي منى بأحوار طنجة كان النصر فيها سجالاً بينهما[(١)].

وعندئذ استخدم المنصور سلاحه السري الذي طالما استخدمه من قبل مع أعدائه ومنافسيه، وهو سلاح الخيانة، فتشير المصادر إلى أن غلاماً أسود اسمه كافور بن سلام كان زيرى قد قتل أخاه من قبل، استطاع أن يصل إلى خيمة زيرى وأن يصيبه بطعنة نافذة في رقبته ثم فرّ هارباً إلى معسكر عبدالملك بن المنصور مبشراً بقتل زيرى.

ولما تأكد عبدالملك من صحة هذا الخبر، حمل على جنود زيرى وهم في حالة دهشة واضطراب، فهزم جموعهم واستولى على ما معهم من مال وسلاح، ثم استولى على فاس وتادلا وسجلماسة وغيرها من المدن الهامة، فدان المغرب الأقصى لطاعة المنصور، وعاد عبدالملك إلى الأندلس، بينما بقي واضح الصقلبي في المغرب كحاكم عليه من قبل الدولة الأموية في الأندلس سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م[(٢)]. أما زيري بن عطية، فقد حمله أصحابه جريحاً إلى الصحراء، فظل بها إلى أن اندملت جراحه، ثم اتجه إلى المغرب الأوسط شرقاً بمن تجمع حوله من قبائل مغراوة وزناته، وجرت بينه وبين الدولة الزيرية وقائع عديدة إلى أن انتقض عليه جرحه من جديد وقضى نحبه سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠١م.

وخلف زيري في زعامة زناتة ابنه المعز الذي فضل عدم اتباع سياسة والده، فترك حرب صنهاجة، وصالح المنصور بن أبي عامر ودخل في

---

(١) روض القرطاس، لابن زرع ط الرباط ١٩٧٣ ص١٦٥ وما بعدها.

(٢) مفاخر البربر ص٢٩، ٣٠.

طاعته، وهكذا سيطرت الخلافة الأموية من جديد، وعلى يد حاجبها المنصور ابن أبي عامر، على معظم بلاد المغرب الأقصى. على أن موضع الأهمية هنا هو أن فكرة الانتقام من الخلافة الفاطمية الشيعية، والقضاء على نفوذها في مصر والشام وإفريقيا، ظلت تراود عقول الأمويين في الأندلس رغم بعد المسافات التي بينها، ويستشهد المؤرخون بقول للمنصور بن أبي عامر:

عن قريب ترىٰ خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشاما[1]

❋ ❋ ❋

المنصور إدارياً ومعمارياً فذًّا

كان المنصور إدارياً ناجحاً، فقد أبدى طوال حياته كفاية إدارية مدهشة، وظهر في سائر المناصب التي أسندت إليه، فقد تولى وكالة هشام ولي العهد، فأمانة دار السكة والخزانة، وخطة المواريث، والقضاء، والشرطة، فالإشراف على الحشم والخاص، ظهر فيها جميعاً ببراعته وحصافته، وحسن تصريفه، ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولي الحجابة، واستأثر بسائر السلطات، واحتمل فوق كاهله سائر المسؤوليات الكبرى، فقد غدا المنصور زعيم الأندلس، وحاكمها الأوحد، والمشرف على مصايرها في الحرب والسلم، وقد أبدى المنصور في اضطلاعه بتلك المهمة العظمى، مقدرة فائقة، لم يبدها أحد من أسلافه، فلم تر الأندلس من قبل كالذي رأته في عهد المنصور، من الأمن والطمأنينة والدعة، وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها أيام فخار وظفر ورخاء ورغد، لم تعان خلالها من غزوات العدو المخربة، ولم يواجَه فيها بأي هزيمة ذات شأن، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة، وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة، وزهت العلوم والآداب، وعم الخصب والرخاء في جنبات الأندلس،

---

(١) المقري: نفح الطيب جـ١، ص٣٨٣.

وفاضت خزائن قرطبة بالأموال، ووصل محصل الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث، وسوى مال السبي والغنائم، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون.

وكانت النفقات السلطانية تبلغ في الشهر نحو مائتي ألف دينار، فإذا دخل شهر يونيه، وحلت الصائفة، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو، ووصلت إلى خمسمائة ألف في الشهر أو أكثر[1].

❋ ❋ ❋

أعماله الإنشائية

أنشأ المنصور مدينة الزاهرة، وقصورها المنيفة، وحدائقها الغناء، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم، ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة، يرتادها للاستجمام والتنزه، وسماها «بالعامرية»، وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة. ومما قيل في العامرية أبيات لعمرو بن أبي الحباب أنشدها، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية، والروض قد تفتحت أزهاره:

لا يوم كاليوم من أيامك الأول ... بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها في جميع الدهر معتدل ... طيباً وإن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالي الذي يحتل ساحتها ... بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل
كأنما غرست في ساعة وبدا السـ ... ـوسان من حينه فيها على عجل[2]

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع، واضطرد هنا الاتساع في أيام المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً، وبلغت أرباض المدينة (أحياؤها) يومئذ إحدى وعشرين ربضاً، «كل ربض فيها يعد أكبر

---

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٨٩.
(٢) البيان المغرب ص٢٩٦، ٢٩٧.

مدينة الأندلس»، وبلغ خندقها المحيط بها ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أي ستة عشر ميلاً[1]. وزاد سكانها في نفس الوقت زيادة كبيرة، ولاسيما منذ مقدم طوائف البربر الكثيرة عليها، في بداية عهد المنصور، وضاقت رحبات المسجد الجامع برواده، ولاسيما في أيام الجمع، فرأى المنصور، أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً جديداً، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية، وشرع في إنشاء هذا الجناح في سنة **٣٨٧هـ/ ٩٨٧م**. فأقيم بحذاء الجامع من شماله إلى جنوبه، على رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية، وروعيت في إنشائه البساطة والمتانة قبل الزخرفة، كما روعي التماثل والمطابقة للصرح القديم، ونزعت من أجل ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن والدور، حرص المنصور على أن ينصف أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو تعويض، وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه الزيادة، وكان يستغل فيه عدد كبير من الأسرى النصارى، الذين أخذوا في مختلف المعارك، وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً في أعمال البناء، وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة، ألف وأربعمائة وسبعة عشرة، وبلغت ثرياته ما بين صغير وكبير مائتان وثمانون، وبلغ عدد المكلفين بالخدمة به في عهد المنصور، ما بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم مائة وخمسون شخصاً، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربضاً مستقلاً يتولاه عريفه وحراسه على حدة[2]، وما زال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى اليوم، قائماً بسائر رحابه، وعقوده وسواريه، وذلك بالرغم من تحويل عقوده الجانبية إلى كنائس وهياكل، ويعرفه الأثريون «بمسجد المنصور»[3] وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادي الكبير، وراء المسجد الجامع، وكانت في الأصل قنطرة رومانية، فجددها السمح بن مالك أمير الأندلس، ثم جاء المنصور فجددها، وأعاد بناءها، وذلك في سنة **٣٧٨هـ/ ٩٨٨م**، وتم بناؤها في سنة

(١) ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص١٠٣.

(٢) ابن الخطيب أعمال الأعلام ص١٠٣.

(٣) نفح الطيب جـ١، ص٢٥٧.

ونصف، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار، وعظم بها نفع القرطبيين، وابتنى المنصور كذلك قنطرة استجه على نهر شنيل، فرع الوادي الكبير، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة، في مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية[١].

❋ ❋ ❋

من صفات المنصور وخلاله

كان المنصور جواداً وافر الجود والبذل، يغدق بعطاياه على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به، وعلى الفقراء وذوي الحاجات، وله في ذلك حكايات كثيرة.

وكان المنصور يفاخر بنشأته المتواضعة، ويقلل من شأن نفسه، ويذكر المؤرخون[٢]: أن المنصور لام كاتبه خلف بن حيان ذات يوم لأمر من الأمور، فبدا عليه الفزع، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه، ثم خلا به بعد أيام وقال له: «رأيت من ذعرك ما استنكرت، ومن وثق بالله برىء من الحول، والقوة لله، وإنما أنا آلة من آلاته أسطو بقدرته، وأعمل عن إذنه، ولا أملك لنفسي إلا ما أملك،... فطمئن جأشك، فإنما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بثمن غزلها، أعذو به إلى السوق، وأنا أفرح الناس بمكانه، ثم جاء من أمر الله ما تراه، ومن أنا عند الله لولا عطفي على المستضعف المظلوم، وسيري لجهاد الطاغية»[٣].

وكان ورعاً شديد التقى والإيمان، يخشى ربه، ويزجر إذا ذكر الله وعقابه، وكانت هذه أعجب الخلال في رجل كالمنصور، لم يعف عن سفك الدماء في سبيل تحقيق أطماعه، ولكنها حقيقة تنوه بها المراجع

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٣٠٩.

(٢) أخبار الدولة.

(٣) دولة الإسلام. د. عنان ع١ ق٢ ص٥٧٧.

الإسلامية وتؤكدها ومن دلائلها أن المنصور، كان يحمل معه في سائر غزواته وأسفاره مصحفاً خطه بيده، يقرأ فيه ويتبرك به في كل مناسبة[1].

وكان المنصور عادلاً، صارماً في إحقاق الحق، والانتصاف لذوي المظالم ومن أمثلة ذلك أن بعض الناس رفعوا إليه الشكوى والمظالم ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته، ممن كانوا يظنون أن مراكزهم تحميهم من إجراء العدالة، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوي الظلامات، وكان يقترن بهذه الصفة، خلة محمودة أخرى، هي تذرعه بالحلم والصبر، وضبط النفس في أمور كثيرة، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرهبة والسلطان[2]. ومن خلال المنصور السيئة التي تحدث عنها ابن عذارى[3] وابن الخطيب[4] هي شغفه بمعاقرة الخمر، وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته، ولم يقلع عنها إلاّ قبل وفاته بعامين، ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل في العمل يومه بليله، وهو عاكف على الشراب، في تلك الفقرة البليغة: «وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي لم يخلعه، إلى أن وصل إلى ربه، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله، لا يفضل لذة على تدبير، وحلاوة نهيه وأمره، فينفذ الأمور، والكأس تدور، والجبال للطرب تمور!!»[5].

❋ ❋ ❋

صفاته العلمية

نشأ المنصور في بيت علم وأدب، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة، وبرع في الشريعة والأدب، وكان حريّاً به أن يتبوأ مكانه بين علماء

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٣٠٩، ٣١٠.
(٢) الحلة السيراء لابن الأنبار ص١٥١.
(٣) البيان المغرب جـ٢، ص٣١٠.
(٤) أعمال الأعلام ص٧٥.
(٥) أعمال الأعلام ص٧٥.

عصره، لولا أن شاءت الأقدار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان، ولبث المنصور طوال حياته شغوفاً بالعلم والأدب، حريصاً على توثيق علاقاته بالعلماء والأدباء والشعراء ويؤثرهم بحبه وعطفه، ويجمعهم حوله في أوقات فراغه وسويعات لهوه وأنسه، ويساجلهم البحث والمناظرة، ويطارحهم قرض الشعر، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً، وله نظم حسن.

وكان من أخص جلسائه الأدباء؛ الكاتب البغدادي، أبو العلا صاعد بن الحسن، وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠هـ، والمنصور في أوج سلطانه، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبي علي القالي، الوافد من قبل على الناصر والحكم، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة، على كتابه المسمى «بالنصوص» على أدباء قرطبة، وهو كتاب في الأخبار والآداب والأشعار ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه، وكذبوه في كثير مما يلقيه، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية[1]. ومع ذلك فقد كان «صاعد» أديباً بارعاً، خفيف الروح، متوقد الذهن، حاضر البديهة، وكان يأتي بكثير من غريب الشعر بداهة، فأعجب به المنصور، وأولاه رعايته، وألحقه بديوان الندماء، وأجرى عليه راتباً حسناً، وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطنبي وغيره، مثل ابن العريف وابن التيافي، وغدا «صاعد» شاعر المنصور ينظم له المدائح والطرف، ويصطحبه المنصور في نزهاته برياض الزاهرة، وينظمه في مجالس أدبه وأنسه، وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية، التي يجتمع فيها المنصور بخلانه وندمائه ومنهم «صاعد».

وقد كان بعض الفتيان الصقالبة من بطانة المنصور، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب، ويغشى مجالس المنصور الأدبية، ويشترك في المطارحات الشعرية، وكان من أشهرهم الفتى فائق، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب. وقد كان للفتيان الصقالبة في الواقع تراث من الشعر

---

(١) الصلة لابن بشكوال ط القاهرة ص٤٠.

والأدب، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة، وأصدر أحدهم في ذلك كتاباً سماه «الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة»، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادر أخبارهم[1].

ولبث صاعد على مكانته حتى وفاة المنصور، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية، ثم أفل نجمه بعد ذلك، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة فغادر الأندلس متخفياً في سنة **٤٠٣هـ**، وجاز البحر إلى صقلية، واتصل بأميرها فأولاه رعايته، وحسنت حاله، وكانت وفاته بها من سنة **٤١٠هـ** وكان للمنصور بالإضافة إلى هذه المجالس الأدبية، مجلس أسبوعي يعقده للبحث والمناظرة، ويشهد كثير من العلماء والأدباء[2].

وكان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقرطبة، وبالغ في الإنفاق عليها، وكان يزور المدارس والمساجد، ويجالس الطلاب أحياناً، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها.

وكان المنصور شغوفاً بجمع الكتب، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم، على نحو ما كان متبعاً أيام «الحكم»، ومن ذلك أن صاعداً البغدادي أهدى إليه كتاب «النصوص» المتقدم ذكره، فأثابه عنه بخمسمائة دينار[3].

وكان المنصور يمقت الفلسفة وما إليها، ويرى أنها مخالفة للدين، ويكره التنجيم والمنجمين، وقد أمر أن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة (مكتبة الحكم المستنصر) سائر كتب الفلاسفة والدهريين، وأن تحرق بمحضر من كبار العلماء وفي مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان، وأبو بكر الزبيدي، والأصيلي وغيرهم وكان هذا العمل غير موفق، وكان خسارة

---

(١) المعجب للمراكشي ص١٦، ١٧.
(٢) المعجب، مصدر سابق ص١٠.
(٣) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠.

علمية كبيرة، واشتد المنصور في مطاردة المنجمين، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبي جمعة، يهجس في تنبؤاته بانقراض دولته، فأمر بقطع لسانه وقتله، فخرست ألسن المنجمين جميعاً[1].

وللمنصور ابن أبي عامر شعر جيد، ومن ذلك قوله في الفخر:

رميت بنفسي هول كل عظيمة وخاطرت والحر الكريم بخاطر
وما صاحبي إلا جنان مشيع وأسمر خطي وأبيض باتر
وإني لزجاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيها أسود خوادر
فسدت بنفسي أهل كل سيادة وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنياناً ولكن زيادة على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا العوالي بالعوالي مثلها وأورثناها في القديم معافر

وقال مهدداً الفاطميين بمصر، وعين نفسه بفتح مصر والشام:

منع العين أن تذوق المناما حباً أن ترى الصفاء والمقامة
لي ديون بالشرق عند أناس قد أخلوا بالمشعرين الحراما
إن قضوها نالوا الأماني وإلا جعلوا دونها رقابا وهاما
عن قريب ترى خيول هشام يبلغ النيل خطوها والشام

***

وصية ابن أبي عامر لولده عبدالملك

يا بني: لست تجد أنصح لك، ولا أشفق عليك مني، فلا تعدَّين وصيتي، فقد جردت لك رأيي ورويتي، على حين اجتماع من ذهني، فاجعلها مثالاً بين عينيك، وقد وطدت لك مهاد الدولة، وعدلت لك طبقات أولائها، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها، واستكثرت لك من

---

(١) البيان المغرب ج٣، ص٣١٥.

أطعمتها وعددها، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك، فلا تطلق يدك للإنفاق، ولا تقيض لغلمة العمال... الخ.

وفي وصية لغلمانه قال: تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم، في طاعة عبدالملك أخيكم ومولاكم ولا تغرنكم بوارق بني أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم، وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم، فليس يرأسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي، وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد، فإنه لا يغل فيكم[1].

❋ ❋ ❋

وفاة المنصور

قاد الحاجب المنصور في عام (٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) آخر الحملات العسكرية ضد الممالك النصرانية في الشمال، وهي قشتاله، وعلى أثر اختتام الغزوة، ارتد المنصور جنوباً وقد لحقه الإعياء واشتد به المرض فترك جواده، وسار محمولاً على محفه نحو أسبوعين، حتى وصل إلى مدينة سالم، وهي معقل الثغر المنيع، فما يكاد يحل بمدينة سالم، حتى شعر بدنو أجله، فاستدعى ولده عبدالملك، وألقى إليه نصائحه الأخيرة، وفي ليلة الاثنين ٢٧ رمضان ٣٩٢، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢م، توفي المنصور محمد بن أبي عامر، ودفن كرغبته في صحن قصر مدينة سالم، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه، وعمره أربعة وستون عاماً إذ كان مولده في سنة ٣٢٨هـ ونقش على شاهد قبره هذان البيتان:

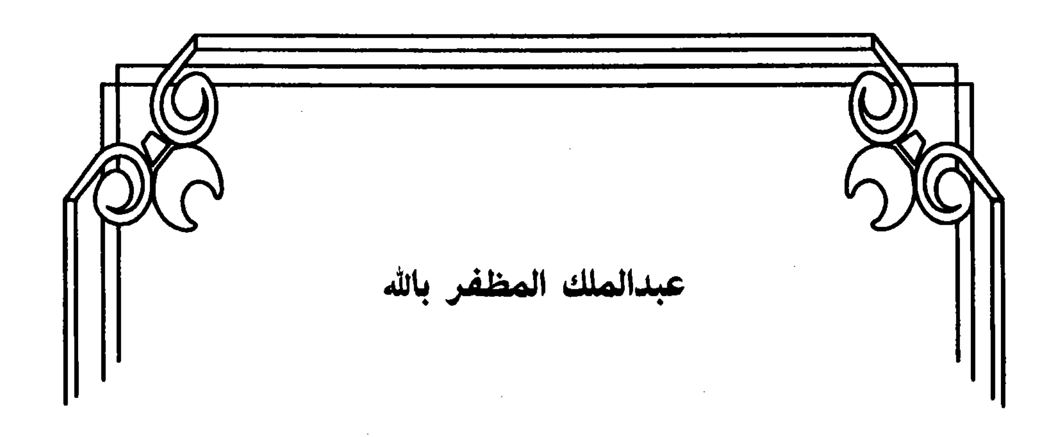
آثاره تنبيك عن أخباره ... حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله ... أبداً ولا يحمي الثغور سواه[2]

رحم الله محمد بن أبي عامر الحاجب المنصور.

---

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٨١ وما بعدها.

(٢) الحلة السيراء ص١٥١.



عبدالملك المظفر بالله

قال المؤرخ التونسي عبدالملك بن الكردبوس:

«لما حضرت المنصور الوفاة بكى، فقال له حاجبه كوثر الفتى: مم تبكي يا مولاي؟ لا بكت عيناك» فقال: «مما جنيت على بلاد المسلمين، فلو قتلوني وحرقوني ما انتصفوا مني». فقال له: وكيف ذلك؟ وأنت أعززت الإسلام، وفتحت البلاد، وأذللت الكفر، وجعلت النصارى ينقلون التراب من أقصى بلاد الروم إلى قرطبة حين بنيت بها جامعها، فقال له: «لما فتحت بلاد الروم ومعاقلهم، عمرتها بالأقوات من كل مكان وسجنتها بها حتى عادت في غاية الإمكان، ووصلتها ببلاد المسلمين، فاتصلت العمارة. وهآنذا هالك وليس في بني من يخلفني وسيشغلون باللهو والطرب والشرب».

هذه كلمة قالها المنصور عند وفاته، ولكن هذه الصفات تنطبق على ابنه عبدالرحمٰن المعروف بشنجول كما سنرى، ولكنها لا تنطبق على ولده عبدالملك المظفر الذي خلفه في منصب الحجابة والذي كانت أعماله وسيرته موضع ثناء المؤرخين كما سنتحدث عنها في الصفحات التالية.

فلما توفي المنصور بن أبي عامر بمدينة سالم، في السابع والعشرين من رمضان سنة **٣٩٢هـ**، بعد أن ألقى إلى ولده عبدالملك، وصيته الأخيرة، بادر عبدالملك بالعودة إلى قرطبة، تاركاً لأخيه الأصغر عبدالرحمٰن، أمر العناية بمواراة أبيه، والعودة بالجيش، وما كاد يصل إلى العاصمة، حتى بادر برؤية الخليفة هشام المؤيد، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة، وجلس

في الحكم مكان أبيه بالزاهرة، وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع، وأنفذت الكتب إلى الجهات، وإلى عدوة المغرب، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبدالملك تدبير المملكة مكانه، وكان لوفاة المنصور وقع عظيم، فحزن الناس لفقده أيما حزن، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس.

واعتقد فريق من المروانيين بالقصر، وبعض الناقمين من العناصر الأخرى، أن الفرصة قد سنحت، للتحرر من نير الحكم القائم، والعود إلى النظام الخلافي، ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة، فقبض في الحال على عدد من المحرضين، وأبعدوا إلى العدوة، واستتب الأمر لعبدالملك، دون ما جهد أو اضطراب، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى.

وكان عبدالملك، حينما خلف أباه المنصور في الحكم، في الثامنة والعشرين من عمره، إذ كان مولده بقرطبة في سنة **٣٦٤هـ**، ويكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله، وأمه حرة تدعى الذلفاء، وقد رأينا كيف تمرس عبدالملك في شؤون الحكم أيام أبيه، وكيف تولى القيادة واشترك معه في كثير من غزواته، ومن ثم فقد قبض عبدالملك على زمام الأمور بحزم وكفاية، واعتزم أن يسير على خطى أبيه، سواء في تدبير الشؤون الداخلية، أو الاستمرار في غزو الممالك النصرانية.

❋ ❋ ❋

عهد عبدالملك

بلغت الأندلس في عهد عبدالملك مبلغاً عظيماً من الرخاء والنعم، وقد تحدث المؤرخون عن ذلك فقالوا[1]:

«انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً، ما عهد مثله في دولة، وسكن الناس منه إلى عفاف، ونزاهة، ونقى سريرة، ووثوق في بعد همته،

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٣.

اطمأنوا بها إلى حينه في السرّ والعلانية، فباحوا بالنعم، واستثاروا الكنوز، وتناهوا في الأحوال، وتناغوا في المكاسب، وتحاسدوا في اقتناء الأصول، وابتناء القصور، وغالوا في الفرش والأمتعة، واستفرهوا المراكب والغلمان، وغالوا في الجواري والقيان، فسمت أثمان ذلك في تلك المدة، وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال، فمهد تلك الدولة في احتشاد النعم عندها، وارتفاع حوادث الغير عنها. . . في كنف ملك مقتبل السعد، ميمون الطائر، غافل عن الأيام، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها، فاجتمع الناس على حبه، ولم يدهنوا في طاعته، ورضى بالعافية منهم، وآتوه إياها فصفى عيشه، وانشرح قلبه، وخلّصه الله من الفتنة»(١).

وكان عبدالملك ورعاً متواضعاً يتصف بالحياء، كان يتورع عما يشين أو يسيء الملك من المجون والاستهتار، وكان براً بوالديه، ثابتاً على عهد والده المنصور بن أبي عامر(٢).

ولكن كان لعبدالملك خلة أو صفة مسيئة قائمة، وهي شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه في لذاته(٣).

***

طريق عبدالملك

افتتح عبدالملك المنصور عهده، بعمل كان له في نفوس الناس وقع طيب وذلك أنه أسقط سدس الجباية عن الناس، في سائر بلاد الأندلس، فكان لذلك أثره في التخفيف عن الناس، والرفق بهم، وبث شعور الرضى والاستبشار بالعهد الجديد.

***

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٨٤، ٨٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) البيان المغرب ج٣، ص٣.

غزوات عبدالملك

أولاً: الغزوة الأولى

خرج عبدالملك بالجيش من مدينة الزاهرة، في شعبان سنة ٣٩٣هـ/ يونيه ١٠٠٣م ويقول المؤرخون عن خروجه: «خرج على الناس شاكي السلاح، في درع جديدة سابغة، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمنة الشكل مذهبة، شديدة الشعاع، وقد اصطف القواعد والموالي والغلمان والخاصة، في أحسن تعبئة، فساروا أمامه، وقد تكنفه الوزراء الغازون معه»(١) وسار عبدالملك أولاً إلى مدينة طليطلة، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم، وهنالك انضم إليه الفتى واضح في قواته، ووفد عليه في نفس الوقت قوة من النصارى، أرسلها الكونت سانشو غرسيه أمير قشتالة، وفقاً لمعاهدته مع المنصور.

وتابع الحاجب عبدالملك سيره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى، واستراح أياماً في سرقسطة، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الاسبارة (إمارة برشلونة) وأشرف على سلسلة من الحصون القوية الواقعة في جبال مونسيش، واستولت قوات الفتى واضح على حصن مدنيش، وحاصر عبدالملك بقواته حصن ممقصرة(٢)، واستولى عليه بعد قتال عنيف، وأباد حاميته وعاث المسلمون بعد ذلك في سهول برشلونة، وخربوا كثيراً من حصون العدو، واستولوا على كثير من الغنائم والسبي.

احتفل عبدالملك بعيد الفطر في برشلونة، ثم قفل عائد بجيشه عن طريق مدينة لاردة، ودخل قرطبة، فاستقبله الخليفة هشام، أحسن استقبال، وفي اليوم التالي جلس بقصره في الزاهرة، واستقبل الوفود والعلماء والأكابر، وكان يوماً مشهوداً(٣).

---

(١) البيان المغرب جـ٣، ص٥.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص٨٧ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق.

وقد نظم ابن دراج القسطلي في التهنئة بهذه الغزوة قصيدة مطلعها:

بداريح السعد واستقبل النجح ... فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح

وقد قدّم النصر العزيز لواءه ... وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح

فقد في سبيل الله جيشاً كأنه ... من الليل قطع طبق الأرض أو جنح

كتائب في أقدامها النجح والهدى ... وألوية في عقدها اليمن والنجح

ولم يمض قليل على ذلك، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل الثالث سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الصلح والمهادنة، فاستُقبل السفراء الفرنج استقبالاً حافلاً، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى، وكانت هذه آخر فرصة أبديت فيها أبهة الخلافة وفخامتها[١].

***

ثانياً: غزوة عبدالملك الثانية

أصبح لعبدالملك هيبة في نفوس النصارى، ولذلك فقد لجأوا إليه في أمورهم ليحتكم بينهم، ومن ذلك أن احتكم إليه أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ومنتديث كونثالث زعيم جليقية والوصي على ملك ليون الطفل، وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس، يومئذ ما يزال حدثاً في العاشرة من عمره، وكانت أمه أُختاً لسانشو غرسية، وكان سانشو يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل، من منتديث كونثالث، فلما احتكم الطرفان إلى عبدالملك، ندب قاضي النصارى أصبغ بن سلمة لبحث النزاع والفصل فيه، فقضى لمنتديث كونثالث بأحقيته للوصاية، واستمر بالفعل وصيًا على ملك ليون حتى قُتل غيلة في سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٨م[٢].

ولكن هذا الحكم الذي قضى به قاضي النصارى أصبغ بن سلمة

---

(١) دولة الإسلام د. عنان ع١ ق٢ ص٦١١.

(٢) ابن خلدون جـ٤، ص١٨١.

والذي انتدبه عبدالملك لم يرض سانشو غرسيه، فبدأ يعتدي على أراضي المسلمين، فخرج عبدالملك بقوته في صيف ٣٩٤هـ/ ١٠٠٤م وقصد إلى أراضي قشتالة وعاث فيها، ولكن سانشو لم يبد أي مقاومة، فقفل عبدالملك عائداً إلى قرطبة، واضطر سانشو إلى طلب الصلح، وقصد بنفسه إلى قرطبة، فاستقبله عبدالملك أحسن استقبال وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين، وتعهد سانشو أن يعاون عبدالملك في غزواته ضد مملكة ليون، وضد خصومه من بني غوس وغيرهم.

❋ ❋ ❋

ثالثاً: غزوة عبدالملك الثالثة

في عام ٣٩٥هـ - ١٠٠٥م خرج عبدالملك في قواته وسار صوب طليطلة، وهنالك لحق به الفتى واضح وسانشو غرسية في بعض قواته، ثم سار شمالاً نحو أراضي ليون، وبعث واضحاً إلى مدينة سمورة، وكانت قد ضربت منذ أيام المنصور، وليس بها سوى قليل من النصارى يقيمون في بعض أبراجها، فقتل الرجال، وسبي النساء وعاث عبدالملك بعد ذلك في أراضي ليون، وإلى جانبه سانشو غرسيه واقتحم أملاك بني غومس، ووصل في زحفه في جليقية، إلى بلدة لونه الحصينة، واستولى في هذه الغزوة على كثير من الغنائم والسبي، ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن[(١)]..

❋ ❋ ❋

رابعاً: غزوة عبدالملك الرابعة (غزوة بنبلونة)

بنبلونة هي عاصمة ناڤار، وسار إليها عبدالملك في أواخر سنة ٣٩٦هـ/ صيف ١٠٠٦م - فاتجه بجيشه إلى سرقسطة ثم إلى وشقة، ثم إلى بربشتر،

---

(١) البيان المغرب ج٣، ص١١، ١٢.

ومنها نفذ إلى أرض العدو، ولكن هذا الاتجاه الذي اتخذه الجيش الإسلامي، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى ناقار أو بلاد البشكنس، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالاً إلى أراضي ولاية «ريباجرسا» الصغيرة الواقعة شمال شرق بربشتر، وهي إحدى ولايات البرنية الفرنجية.

وقد اقتحم المسلمون في هذه الغزوة بسيط ابنيونش وشنت يوانش، وجالوا في أرض العدو قتلاً وسبياً وحرقاً، وقد انقضت على الجيش الإسلامي يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير، تخللها قصف مفزع وبرد قارس، وخشي أن تكون سبباً في نكبته، ولكن تداركه لطف الله، وقفل عبدالملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة، ولكن الشعب لم يبد في استقباله شيئاً من الحماسة، لضآلة النتائج التي ترتبت على هذه الغزوة، ولكونها لم تسفر عن شيء من الغنائم والسبي، التي كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور[1].

وفي طريق العودة عرج في طريق العودة على مدينة سالم، وقضى بها عيد الأضحى، وهنالك وافاه سفير من قبل قيصر قسطنطينية، الإمبراطور بسيل الثاني، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطلب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة، التي كانت بين ملوك بني أمية، وبين القياصرة، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا في أطراف الجزائر التابعة لقيصر، فسر عبدالملك لذلك، وصرف السفير أجمل صرف.

❋ ❋ ❋

الغزوة الخامسة: «غزوة قلونية» سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م

نمى إلى علم عبدالملك أن أمير قشتالة سانشو غرسية يدبر العدوان على المسلمين، فخرج من قرطبة لملاقاته في صيف سنة **٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م**، وسار مخترقاً أراضي قشتالة، ويبدو أن تحالفاً نصرانياً شكل من جيوش

---

(١) البيان المغرب ج٣، ص١٢، ١٣.

سانشو غرسية، وألفونسو الخامس ملك ليون، وسانشو الثالث ملك ناقار، وعدد من الزعماء النصارى في مقدمتهم بنو غومس[1]. ولذلك أطلق المؤرخون على هذه الغزوة مقولة: غزاة النصر التي لقي فيها (أي عبدالملك) شانجة بجميع النصرانية على اختلا وقد هزم عبدالملك النصارى في تلك الغزوة هزيمة عظيمة في ظاهر مدينة قلونية، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت اشتيين، وأحرز عليهم نصراً مبيناً، وافتتح الحصن صلحاً، ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة، وقرىء على الكافة كالعادة، فكان له وقع عظيم، وكان أهل قرطبة يخشون سوء العاقبة من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين، وقفل عبدالملك بالجيش إلى قرطبة، فوصل إليها في أواخر ذي الحجة من تلك السنة، واتخذ على أثر ذلك لقبه «المظفر بالله» تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم[2].

وقد تحدث المؤرخون ومنهم الفقيه أبو المطرف ابن عون الله، وهو من معاصري هذه الحوادث عن قصة هذا اللقب، فذكر أن عبدالملك كان مثل أبيه يسمو إلى الألقاب السلطانية، فتقدم إلى الخليفة هشام، على أثر عوده من غزوة قلونية، والتمس إليه إخراج الأمر له، بأن يتسمى «بالمظفر» وهو اللقب الذي اختاره وآثره، وأن يكنى في سائر ما يذكر عنه «بأبي مروان» وأن ينعم على ابنه الغلام محمد، الذي منح لقب الوزارة، بلقب «ذي الوزارتين» ويعلي بذلك مرتبته على سائر الوزراء، وأن يكنى بأبي عامر، كنية جدّه، وكان الخليفة يقيم يومئذ عند الحاجب بقصر الزاهرة، في الجناح الفخم الذي أنشىء وقتها، ففي منتصف المحرم سنة **٣٩٨هـ**، تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور الزاهرة، واستدعي حاجبه، وفاوضه فيما أراد، ولما انصرف من لدنه، اتبعه في الحال بمرسوم التكريم الذي التمسه، فأذاع عبدالملك نص المرسوم، وبعث بالكتب للعمل به، وجاء نص المرسوم كما يلي:

---

(١) ابن خلدون جـ٤، ص١٨٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

«بسم الله الرحمٰن الرحيم

من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله، أتم الله عليك نعمه، وألبسك عفوه وعافيته، إنا أريناك، من صنع الله الجسيم، وفضله العظيم، لنا عليك ما شفى الصدور، وأقر العيون، فاستخرنا الله سبحانه في أن سميناك المظفر، فنسأل الله تعالى سؤال إلحاف وضراعة وابتهال، أن يعرفنا وإياك بركة هذا الاسم، ويحليك معناه، ويعطينا وإياك، كافة المسلمين، فضل ما حَملت منه، وأن يخير لنا ولهم في جميع أقضيته، ويقرنه بيمنه وسعادته، بمنه وخفي لطفه، وكذلك أبحنا التكنى في مجالسنا ومحافلنا، ومن الكتب الجارية منك وإليك، في أعمال سلطاننا، وسائر ما يجري فيه اسمك معنا ودوننا، إنافة بمحلك لدينا ودلالة على مكانك منا، وكذلك ما شرَّفنا به فتاك أبا عامر، محمد بن المظفر تلادنا، أسعده الله، بالإنهاض إلى خطة الوزارتين، وجمعناه بها في التكنى على المشيخة والترتيب، وآثرك في الدولة، وأنت الحقيق منا بذلك كله، وبجميل المزيد عليه، لأنك تربيتنا، وسيف دولتنا، وولي دعوتنا، ونشيء نعمتنا، وخريج أدبنا، فأظهر ما حددناه لك في الموالي، أحسن الله توفيقك، وأمتعنا طويلاً بمعافاتك، وآنسنا ملياً بدوام سلامتك، إنه ولي قادر عزيز قاهرة».

وكانت الكتب تخرج من قبل عبدالملك على النحو الآتي:

«من الحاجب المظفر سيف الدولة أبي مروان عبدالملك بن المنصور»، فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس[1].

وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً، أطلق عبدالملك على أثره الصلاة والكسي، وكثرت تهاني الشعراء ومدائحهم.

❋ ❋ ❋

---

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص٨٨، ٨٩.

سادساً: الغزوة السادسة

لم يجن عبدالملك من النصر الذي حققه في الغزوة ما كان يتمناه من إرغام أمير قشتالة على التزام السلم والهدوء، وأن سانشو بالعكس استمر في عدوانه. ولم ينتظر عبدالملك كثيراً فخرج من قرطبة في أوائل شهر صفر سنة **٣٩٨هـ**/ أكتوبر **١٠٠٧م**، واخترق قشتالة الوسطى، حتى ضفاف نهر دويرة، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع، الواقع على مقربة من غربي قلونية على الضفة اليمنى من النهر، فحاول النصارى في البداية أن يردوا المسلمين في ظاهر الحصن، ولكن المسلمين صدوهم بعنف، فالتجأوا إلى الحصن، وحاولوا الدفاع من وراء الأسوار، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وضربوا أسواره بالمجانيق والنار، واضطر النصارى إلى التسليم، فأمر عبدالملك بقتل الجند وسبي النساء والذرية، وإصلاح ما تهدم من الحصن وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها في أوائل ربيع الآخر.



سابعاً: غزوة العلة صيف ١٠٠٨م

في شهر شوال من نفس العام (صيف ١٠٠٨م)، خرج عبدالملك بالجيش وكانت غزوته السابعة والأخيرة، وتعرف بغزاة العلة، ذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض، فاستقر بها حيناً يرقب البرء من المرض، وفي أثناء ذلك دب الخلل إلى الجيش، وتفرق عنه أكثر المتطوعة، وأخفق مشروع الغزو، واضطر عبدالملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة، عليلاً ضعيفاً، وذلك في منتصف المحرم سنة **٣٩٩هـ** ومع ذلك فما كاد عبدالملك يشعر بقليل من التحسن، حتى عقد العزم على التأهب لاستئناف الغزو، وخرج بالفعل من قرطبة في منتصف شهر صفر، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة، صحبتها نوبة سعال عنيف، فحمل إلى قصر الزاهرة في محفة، ومن حوله خاصة غلمانه، وتوفي على الأثر، وكان أخوه عبدالرحمٰن حاضراً مع أكابر رجال الدولة، وقيل إنه توفي مسموماً من شربة

دست له بتحريض أخيه عبدالرحمٰن، وكانت وفاته في ١٦ صفر سنة ٣٩٩هـ/ أكتوبر سنة ١٠٠٨م[١]. ولم يكن جاوز الرابعة والثلاثين من عمره.

❋ ❋ ❋

صراع داخل القصور العامرية

كان عبدالملك لانهماكه في الشراب واللهو، قد اعتمد في تدبير شؤون الدولة، على خاصته من أكابر الفتيان العامريين أمثال طرفة، وواضح، وزهير، وخيران، ومجاهد، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بابن القطاع، وزيره ووزير أبيه من قبل، وكان عبدالملك لأول ولايته، قد فوض أمره إليه ومنحه سائر السلطات العليا، ثقة منه بإخلاصه، واعتماداً على كفايته، وزادت ثقته لما أبداه عيسى من البراعة والحزم في تدبير الأمور، وتوطيد النظام والأمن، وكان الفتيان الصقالبة، ولاسيما زعيمهم طرفة، خادم عبدالملك الأكبر، ينقمون على عيسى، حظوته واستئثاره بالسلطة، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته، واضطرمت المنافسة بالأخص بينه وبين طرفة، وبذل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب، واستطاع مع استمرار الوقيعة والدس أن يزعزع ثقة عبدالملك فيه، وأن يصرفه عن الاعتماد عليه، وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير، وحلَّ محلهُ في تدبير الأمور، واجتمعت السلطة في يده شيئاً فشيئاً، حتى غدا كل شيء في القصر والدولة، وسما شأن الفتيان الصقالبة، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب، ومرض الحاجب في أوائل سنة ٣٩٦هـ، واستبد طرفة بالأمر، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبذل والطيش، فلما شفي الحاجب من مرضه، كانت نفسه قد تغيرت على طرفه، ولما خرج إلى الغزو في شهر رمضان من هذا العام، خرج معه الوزير عيسى، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبدالملك

(١) البيان المغرب جـ٣، ص٣٧.

بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه، وكان من المقرر أن يلتقي طرفة بسيده في سرقسطة، فقدم إليها في بعض القوات في نفس اليوم الذي وصل الحاجب مع جيشه، وما كاد يدخل إلى عبدالملك في قصره، حتى قُبِضَ عليه، وصفد بالأغلال، وحمل إلى إحدى جزر الشاطىء، واعتقل حتى انتهى عبدالملك من غزوته، فأمر بقتله، وهو في طريق العودة، وأمر الحاجب في نفس الوقت بقتل عبدالملك بن إدريس الجزيري الكاتب البليغ أمين البلاط، وكان من خاصة طرفة، وكان الوزير عيسى قد حذر عبدالملك من ممالاته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة[1].

وأضحى عيسى بن سعيد، بعد قتل طرفة، رجل الدولة الأول، واسترد كامل حظوته وسلطانه، على أنه لم ينعم طويلاً بظفره، وكان هذا الوزير قد تقلب في مناصب الدولة منذ أيام المنصور، وحظي لديه، وسما شأنه، حسبما رأينا، ثم تضاعف شأنه، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبدالملك، وجمع الأموال الطائلة، وزاد في توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب، حيث تزوج ابنه عبدالملك المكنى أبا عامر، أخت عبدالملك الصغرى، إحدى بنات المنصور، وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة، وكثر بذلك حساده، والوشاة في حقه، وكان عيسى يذكر من حوله عواطف الخصومة والنقمة، بما كان يفعله من صلف وخشونة وكبرياء، والنكول عن قضاء حاجات الناس، والنظر في مظالمهم، والتعالي عليهم، وكان حجابه وعمّاله، على شاكلته من الغلظة والتعسف في معاملة الناس، فكان ذلك كله سبباً في تسمم الجو حول الوزير، وحول تصرفاته، أضف إلى ذلك أن الوزير، لم يكن يشارك الحاجب في مجالس شرابه وأنسه إلاّ في القليل النادر، لأنه كان مقلاً للشراب، فكان تخلفه يمهد لخصومة المقربين من الحاجب، سبل الدس والوقيعة في حقه، وقد كانت «الذلفاء» والدة الحاجب في الوقت نفسه تبغض الوزير، لأنه أيد ولدها عبدالملك في الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها، وكانت تعارضه في ذلك،

---

(١) البيان المغرب جـ٣، ص٢٤ ـ ٢٦.

والخلاصة أن عبدالملك أخذ يفقد ثقته في وزيره بسرعة، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية، سريع التقلب والغدر، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص في خطوته ويتوجس من عواقبه[1].

❋ ❋ ❋

مؤامرة عيسى على بني عامر

أصبح عيسى يشعر أنّه غدا باجتماع سائر السلطات في يده، ومشايعة رؤساء الجند له، أقوى رجل في الدولة، وأنه يستطيع أن يقف في وجه بني عامر، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم، واعتزم عيسى بالفعل أن يعمل في هذا السبيل، واتجه ببصره إلى سليل من المروانية هو هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمٰن الناصر، وكان بينهما مودة وصداقة، وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه، في إزالة بني عامر، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه، وإقامته مكانه في الخلافة، ورد الأمر بذلك إلى بني أمية، فاستجاب هشام إلى دعوته، وجرت بينهما المفاوضة بتكتم شديد، وكانت خطة عيسى أو مؤامرة عيسى تتلخص فيما يلي:

«أن يدعو عبدالملك وأخاه عبدالرحمٰن وصحبه، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التي وهبه عبدالملك إياها بقرب الزاهرة، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبدالملك بن عيسى، وأن يحيط المنية بطوائف من رجاله المسلحين، فإذا حضر عبدالملك وأخوه وصحبه، انقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً وعندئذ يسير عيسى يصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة فيجلسه فيه، ويأخذ له البيعة بالخلافة، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى عبدالملك فقبل الدعوة، وحدّد بالفعل يوم الحفل»[2].

---

(١) دولة الإسلام، د. عنان ع١ ق٢ ص٦١٨.

(٢) المصدر السابق.

وسرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبدالملك، فقد أفشى له بسر هذه المؤامرة رجل من ثقات عيسى، حينما نقل السر إلى نظيف الفتى الصقلبي، فأبلغه فوراً إلى سيده، فاتفق عبدالملك وأخاه عبدالرحمٰن على تدبير قتل عيسى، في مجلس شراب يخصص وينظم لهذا الغرض ونظم المجلس بالفعل في بهو القصر الكبير المشرف على النهر، وذلك في ٢٠ ربيع الأول سنة **٣٩٧هـ**.

فاستدعى الحاجب وزيره عيسى، ومعه بعض خاصته، فاستقبله عبدالملك، ثم أخذ بعد قليل في عتابه ومحاسبته على ما عزى إليه وما نقل إليه من مؤامرة تدبر، ثم أغلظ له القول، وعيسى يعتذر ويحتج ببطلان ما نسب إليه، ويشدد القسم على ذلك، ويناشد حقن دمه، وفجأة جذب عبدالملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى، وطعنه في وجهه، فسقط على الأرض، فانهال عليه الجماعة طعناً بسيوفهم، ثم احتز رأسه ووضع جانباً، وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف بن خليفة، وحسن بن فتح، وألقيت جثث الثلاثة في النهر، بعد أن وضعت في زنابيل مثقلة بالحجارة، وأمر عبدالملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة عبرة للناس، وتركت معلقة في مكانها حتى انقضت الدولة العامرية ونفذ الجند في الحال إلى منازل عيسى وأصحابه وصودر ما فيها، وقبض على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن، وأرغم ولده عبدالملك على طلاق زوجته أُخت الحاجب، وجدّت الشرطة في مطاردة هشام بن الجبار، حتى قبض عليه، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله في سجن أُعِدّ له، وهناك قتل خفية، وليس له خبر بعد ذلك. وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع في قرطبة، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان وظلت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه[1].

❋ ❋ ❋

---

(١) البيان المغرب جـ١، ص٢٧ وما بعدها.

من صفات عبدالملك المظفر

وقد جمع عبدالملك من الصفات المتناقضة كثيراً، فقد كان بعيداً عن العلم والمعرفة والأدب، ولم يكن يجتمع في مجالسه سوى الأعاجم من الجلالقة والبربر ومن إليهم، ولم يكن يؤمها أحدٌ من أهل المعرفة، من الأدباء والعلماء، ولكنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه[1].

وكان عبدالملك المظفر يستمع إلى الشعر، ويصل الشعراء، وقد أبقى بالأخص على شاعر أبيه صاعد البغدادي، وجعله شاعراً ونديماً له، وكان من خواص شعرائه أيضاً أبو عمر بن دراج القسطلي، وقد وصف أحد الشعراء عهد عبدالملك بالأبيات التالية الآتية:

زمـان جـديـد وصـنـع جـديـد ... ودنـيـا تـروق ونـعـمـى تـزيـد
وغـوث يـصـوب وعـيـش يـطـيـب ... وغـريـدوم وعـيـد يـعـود
ودهـر يـنـيـر بـعـبـدالـمـلـيـك ... كشمس الضحى ساعدتها السعود

أما عمر بن دراج القسطلي، فقد نظم أبياتاً يصف الربيع ويمدح عبدالملك فيقول:

إن كـان وجـه الـربـيـع مـبـتـسـماً ... فـالـسـوسـن الـمـجـتـلـى ثـنـايـاه
يـا حـسـنـه بـيـن ضـاحـك عـبـق ... يـطـيـب ريـح الـحـبـيـب ريّـاه
يـا حـاجـبـاً مـذ يـراه خـالـقـه ... تـوجـه بـالـعـلـى وحـلاه
إذا رآه الـزمـان مـبـتـهـجـاً ... فـقـد رأى كـل مـا تـمـنـاه
وإن رآه مـطـلـعـاً ... يـقـول ربـي وربـك الله

❋ ❋ ❋

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٩٠، البيان المغرب ج٣، ص٣٦.

عبدالرحمٰن المنصور ونهاية الدولة العامرية

كانت وفاة عبدالملك المظفر، بداية النهاية للدولة العامرية، فقد مضى على حكمه الطاغي خمسة وثلاثون عاماً، بدءاً من أبيه المنصور بن أبي عامر إلى نهاية عهده.

وجاء عبدالرحمٰن بن المنصور إثر أخيه عبدالملك، وقد كان أضعف منه شخصية، وأسوأ خلالاً، ليتابع حكم الإرهاب والطغيان، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه، في السابع عشر من صفر **٣٩٩هـ/ ٢٢** أكتوبر سنة **١٠٠٨**م. ومثل في نفس اليوم لدى الخليفة هشام، فخلع عليه السلطانية وقلده الحجابة، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بقصر الزاهرة، مهنئين مبايعين، وكان عبدالرحمٰن وكنيته أبو المطرّف، حينما تولى الحكم، فتى في الخامسة والعشرين من عمره، وكان يلقب منذ حداثته، «بشخول» سانشول أو شانجة الصغير وذلك لأنه حسبما تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك ناڤار، وكانت أُمه الأمير النڤاريّة، حينما تزوجت المنصور قد اعتنقت الإسلام، وتسمت باسم عبدة، وكان ولدها عبدالرحمٰن «أشبه الناس بجدّه» وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة، أثرها في انصراف الناس عن محبته والعطف عليه، وكان يزيد في هذه الوحشة بين عبدالرحمٰن وبين الشعب، انحرافه وخلاله السيئة، فقد كان فاجراً كثير الاستهتار والمجون، يقضي معظم وقته في الشراب، واللهو ويخرج من منية إلى منية، ومن متنزه إلى متنزه، مع الخياليين والمغنين والمضحكين، مجاهراً بالفتك، وشرب الخمر[1].

وجرى عبدالرحمٰن على سنة أبيه وأخيه، في الحجر على الخليفة هشام وحجبه، وفي الاستبداد بالرأي والحكم[2] ولكنه نهج في معاملة الخليفة نهجاً جديداً، فأكثر من الاتصال به، والتقرب إليه، وبالغ في إرضائه

---

(١) البيان المغرب جـ٢، ص٣٩.

(٢) ابن خلدون جـ٦، ص١٤٨.

وإرضاء حاشيته، وتحقيق رغباتهم، هذا في حين أن المنصور كان يقتصر في الاتصال بالخليفة على المواقف الضرورية، ويقتصد في رؤيته، ويؤثر الظاهر بتوقيره مع البعد عنه، ويحرص على عدم تدليله، وكبح جماح حاشيته، وجرى ولده المظفر على هذه السياسة، ولكن عبدالرحمٰن بالغ في التودد لهشام ومخالطته، ومن ذلك أنه استأذنه في أن يقوم بالتنزه مع أهله في قصور الملك بقرطبة، ويكون الخليفة هنالك مع خاصته وجواريه. فأذن هشام بذلك، وخرج من الحاجب في موكبه مستخفياً، وقد ارتدى برنساً كالذي يرتديه الجواري، حتى لا يعرفه أحد، واخترق الموكب شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الجند، ونزل بقصر ناصح، وهنالك عرض عليه الحاجب شؤون المملكة، والتمس إليه أن يأذن له في التلقب بالمأمون، وأن يضاف إلى اسمه ناصر الدولة، فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب صُهْور بن محمد، وتسميةً عنوانها: الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف حفظه الله.

وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة، وكان ذلك لعشرة أيام فقط من ولاية عبدالرحمٰن، فعجب الناس لهذه الجرأة، وأنكر الناس على الحاجب هذا التسمي بألقاب الملك والخلافة، واعتبروها افتتاناً وغروراً، فمن لا تؤهله خلاله لمثل هذا التكريم. ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر وأبعد أثراً[1].

ولم تمض على هذه الإجراءات فترة يسيرة، حتى غادر الخليفة هشام قصر ناصح بقرطبة، إلى القصر الخليفي بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته، يتقدم موكبه الحاجب عبدالرحمٰن، ونزل عبدالرحمٰن بمدينة الزاهرة، وأقام الخليفة بالزهراء يومين، وفي اليوم الثالث الموافق **١٤** ربيع الأول سنة **٣٩٩هـ**، غادر القصر الخليفي في أهله، إلى منية جعفر المجاورة، ومعه الحاجب، وكان عبدالرحمٰن بعد أن حصل على ألقاب الملك، يجيش بمشروع ضخم، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج، وأن

---

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص٩٠.

يقضي بذلك نهائياً على تراث بني أُمية، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بني عامر، فتخلف أسرة بني أُمية في ملك الأندلس. وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أباه المنصور، بالرغم من قوة نفسه، وعريض سلطانه، كأن ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة، لأنه كان يدرك بذكائه، وبعد نظره، أنها تنطوي على أخطر العواقب، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول رؤية وأناة، وأنه كان أبداً حريصاً على إبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها، وقد حذا ولده عبدالملك المظفر حذوه في حرصه وتعقله، ولكن عبدالرحمٰن لم يكن إلاّ فتى طائشاً، متعجلاً كثير الغرور، قصير النظر. وقد تحدّث المؤرخون[1] عن فكرة عبدالرحمٰن الطائشة وهي الاستيلاء على الخلافة فقالوا: وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة، عجرفية من غير تأويل ولا عقيدة وكيف استهواه كيد الشيطان، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة، لم يشاور فيها نصيحاً، ولا فكر في عاقبة، بل جبرها بالعجلة[2] وخلا عبدالرحمٰن بالخليفة، وأطال التقرب منه، وعرض عليه مشروعه، ويقال أنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخؤولة، إذ ولد كلاهما من أُم بشكنسية (نافارية)[3].

ويقال أن عبدالرحمٰن دس إلى الخليفة من هدده بالويل، وأنذره بأن عبدالرحمٰن قد اعتزم الفتك به، إذا لم يمنحه ولاية عهده[4].

ويقال أيضاً أن هشاماً استفتى في ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها فأقروه على ما طلب، وكان أشد الساعين لتأييد عبدالرحمٰن، قاضي الجماعة أبو العباس بن ذكوان، وكاتب الإنشاد أبو حفص بن برد[5].

وقد استجاب الخليفة هشام المؤيد إلى طلب عبدالرحمٰن، وخرج

---

(١) البيان المغرب لابن عذاري جـ٣، ص٤٣.

(٢) أعمال الأعلام ص٩١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البيان المغرب جـ٣، ص٣٩.

(٥) الحلة السيراء، لابن الأنبار ص١٥٠.

أصحابه عشية ذلك اليوم، يذيعون الخبر على الملأ، ويقولون أن الخليفة قد اختاره ولياً للعهد، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته، وكذا الإرجاف لذلك.

وفي صباح اليوم التالي، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة **٣٩٩هـ** (نوفمبر ١٠٠٨م) أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الجند، وأخرج عبدالرحمٰن هشاماً، وأجلسه في الساحة الكبرى، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة من أكابر رجال الدولة، فكان يوماً مشهوداً، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن برد، وذيل بشهادة قاضي الجماعة أحمد عبدالله بن ذكوان، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلاً، من أكابر أهل الدولة، والفقهاء وغيرهم. وقد نص المرسوم الشهير على ما يلي:

❋ ❋ ❋

مرسوم هشام بتولية العهد لعبدالرحمٰن العامري

«هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين، وخصه به من إمرة المؤمنين، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء، بما لا يصرف، وخشي أن هجم محتوم ذلك عليه، ونزل مقدور ذلك به، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه، ولم يوردها ملجأ تنعطف عليه، أن يكون يلقى الله مفرطاً فيها، ساهياً عن أداء الحق إليها، ونفض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قريش وغيرهم، مما يستحق أن يسند الأمر إليه، ويعول في القيام به عليه، مما يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه بعد اطراح الهوادة، والتبرىء من الهوى، والتحري للحق، والزلفى إلى الله عز وجل بما يرضيه، وبعد أن قطع الأواصر، وأسخط الأقارب عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح، وموقناً

أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده، ويفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده، لفضل نفسه، وكرم خيمه، وشرف همته، وعلو منصبه، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الحيب، النازح عن كل عيب، ناصر الدولة أبي المطرف عبدالرحمٰن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً في الخيرات، مستولياً على الغايات، جامعاً للمآثرات، وارثاً للمكرمات، يجذب بضبعيه إلى أربع منازل الطاعة، وينمو بعينيه إلى أعلا درج النصيحة، أب منقطع القرين، وصنو معدوم الغريم، ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه، فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه، ويحوي من حلل المجد ما حواه، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، أمل أن يكون ولي عهده القحطاني، الذي حدّث عنه عبدالله بن عمرو بن العاص، وأن يتحقق ما أسنده أبو هريرة إلى النبي ﷺ ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق وأقبل عليه المهنئون من الوزراء ورجال الدولة، يتكلفون البشر، والدعاء له بما أكرمه الله به، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً، وأنفذت الكتب في الحال إلى سائر نواحي الأندلس والعدوة، بوجوب إذاعة المرسوم، والدعاء لولي العهد على المنابر بعد الخليفة.

وفي اليوم التالي جلس عبدالرحمٰن بقصر الزاهرة في هيئة الملك، واصطف من حوله رجال الدولة المبعدين عن الخلافة، وغيرهم من بطون قريش وفي ذلك يقول المؤرخون: «وخرجوا من عنده، وقلوبهم ذؤوبة عليه، موقدة ببغضه».

ساد قرطبة هدوء ظاهر في الشهور الأولى، وكان هذا الهدوء هو الذي يسبق العاصفة، فقد غضب أهل الأندلس من طغيان بنو عامر الذي أحدث أثراً في نفوس الشعب، فلما جاء عبدالرحمٰن، وكشف عن نيته في الاستئثار برسوم الملك، واغتصاب ولاية العهد، ألفت العناصر الناقمة، وفي مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية، في ذلك فرصة جديدة للتنديد بحكم بني

عامر وطغيانهم واجترائهم، وفي تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم، وكانت شخصية عبدالرحمٰن الهزيلة، وأرومته الأجنبية، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون تذكي عاطفة السخط عليه، سواء بين الخاصة أو الكافة، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المشهود.

وكانت خيوط المؤامرة التي اجتمعت حولها العناصر الناقمة، تتوثق شيئاً فشيئاً، وكان أهم مدبريها شخصيتين، الأولى الذلفاء والدة عبدالملك المنصور، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن والدها قد توفي غيلة بالسم، وأن قاتله هو أخوه عبدالرحمٰن، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام، والثانية هي شخصية فتى من بني أُمية هو محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمٰن الناصر، وكان عبدالملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقدم.

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم، كثيرة المال والوجاهة، وكانت بالرغم مما أسبغه عبدالرحمٰن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبدالملك، ومن ضروب الرعاية والإكرام، تسعى دائبة للإيقاع به، فلما شعرت بأن الجو قد تهيأ للسعي، بما ثار حول تصرفات عبدالرحمٰن من ضروب الإنكار والسخط، اتصلت بوجوه بني أُمية، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم، والانتقام من بني عامر، وكانت صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامريين يدعى بشرى وكان من قبل من فتيان المروانية، ثم انتقل إلى العامريين فيمن انتقل من فتيان القصر، ولكنه بقي على ولائه لسادته الأمويين. وتعهدت الدلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير، وسرعان ما استجاب بنو أُمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيماً هو محمد بن هشام بن عبدالجبار، وكان فتى جريئاً مغامراً في الثالثة والثلاثين من عمره إذ كان مولده في سنة ٣٦٦هـ، وأمه أُم ولد تدعى مزنة[١].

وكان مذ قتل أبوه هشام، يتحرز على نفسه، ويختفي في أحواز قرطبة وكهوفها ويجتمع حوله الصحب من المغامرين، فلما أجمع بنو أمية أمرهم

---

(١) جذوة المقتبس ص١٩.

على اختياره، بايعوه سراً بالولاية والخلافة، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من المروانية وغيرهم، يدعون له، واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره، وكان خروج عبدالرحمٰن المنصور أو شيخول إلى الغزو فرصة سانحة للعمل، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره، ويجتمع بهم سراً في كهوف جبل قرطبة، وكثر إرجاف دعائه في المدينة أن دولة بني عامر قد قضي عليها، أن الأمر سيعود إلى المروانية، وكثر تشهيرهم بعبدالرحمٰن وقبيح تصرفاته، وكانت هذه الدعاية تجد لدى جمهور الكافة آذاناً صاغية، لما وقر في نفوسهم من بغض عبدالرحمٰن وازدرائه، وقد وصف ابن الخطيب موقف الشعب القرطبي وحالته النفسية إزاء العامريين، وإزاء عبدالرحمٰن:

«وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها، والقلق بذوي أمرها، والإرجاف بما يتوقع لها، وكان سفاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة، تؤثر عنهم في العامريين نوادر حارة، واستراحات عنهم، كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم، ويأمرهم بأنها وعيده، ويشافههم بإنكاره، ولا يزال حكامه يبلغون في تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور، وقطعاً للألسنة، فلما ذهب عبدالرحمٰن هذا المذهب، وأطاع هذا الخرق، كثر الحمل، وشهدت البغضة[1].

واشترك في هذه النقمة على العامريين والرغبة في القضاء على دولتهم سائر العناصر الناقمة من قريش ومن المضرية واليمنية، وسائر العرب الذي سحقهم المنصور وقضى على مكانتهم في دولة الإسلام، وانتهز الجميع فرصة خروج عبدالرحمٰن للغزو، وخروج معظم قوات الجيش معه، فتحرك محمد بن هشام المغامر الجريء والذي وصفه ابن الخطيب بقوله: «جرار جسور، ثائر مخاطر، خليع، مداخل للصقور والفتاك، لا يدري في أي واد يهلك»[2].

❋ ❋ ❋

---

(١) أعمال الأعلام، مصدر سابق، ص٩٠.

(٢) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص١٠٩.

ثورة محمد بن هشام الأموي

كان التحرك في يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩م) عندما جاءت الأنباء إلى قصر الزاهرة بأن عبدالرحمٰن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى، فاعتزم محمد بن هشام لفوره أن ينزل الضربة المنشودة، وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة، وقد تسلحوا تحت ثيابهم خفية، وفي عصر هذا اليوم، كان محمد يكمن في الضفة الأخرى من النهر (نهر الوادي الكبير) قبالة القصر، وكانت خطة المتآمرين أن يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة، وهو يومئذ المقام الشتوي للخليفة هشام المؤيد، وحوله قلة من الحرس، ولأن ظروف العمل في قرطبة، كانت أدعى إلى النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم، وفي الوقت المحدد عبر محمد النهر، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتى، منهم طرسوس المجوسي، وهو أشدهم جرأة وفتكاً؛ فساروا حذرين حتى باب القصر، ثم شهر طرسوس سيفه، وهجم في الحال على صاحب المدينة عبدالله بن أبي عامر (عسكلاجة) وانتزعه من مجلسه، وكان يحتسي الخمر مع قينتين من جواريه، وجيء به مخموراً إلى محمد بن هشام، فأمر بضرب عنقه، ورفع رأسه على رمح، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً، هرعت إلى محمد بن هشام، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء، فقويت بذلك عصبته، ثم بادر باقتحام سجن العامرية، وأفرج عمن فيه من القتلة واللصوص، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب، واستنهضوا الناس لنصرته، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة.

وبلغت الأخبار الخليفة هشام المؤيد، فأمر بإغلاق أبواب القصر، وصعد إلى السطح، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً، وحاول مخاطبة العامة، فأسكتوه وأغلظوا له القول، فانصرف عنهم إلى داخل القصر، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضي الله أمره، فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر، واقتحام أبوابه، وبذل العامة في ذلك جهوداً فادحة، وأتوا بالسلالم، وصعدوا إلى أعلى الأسوار، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر، وارتد الخدم أمامهم، ووصلوا إلى خزائن السلاح فنهبوها واشتد ساعدهم ولما سمع الخليفة بذلك، خشي البادرة على

نفسه وأهله، فبعث إلى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقصي بني عامر عن الحكم، وأن يشركه في أمره، فرفض محمد ذلك، وطلب إلى فائق محافظ القصر أن يفتح الأبواب، فأذعن ودخل محمد القصر، واحتل مجلسه، ومن حوله خاصة أصحابه، واعتزم أن يقضي ليلة بين الشموع المضيئة، ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه، وكفهم عن انتهاك حرمه، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة في كرسي الشرطة، وابن عمه الآخر عبدالجبار بن المغيرة في خطة الحجابة، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسماه ولي عهده، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إيثار بني عامر ويدعوه إلى خلع نفسه، منذراً مهدداً، فارتاع هشام وبادر بالقبول، واستدعى محمد في الحال بني عمومته، وأكابر بيته، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة في جوف الليل، وأعلن هشام خلع نفسه بمحضر من بعضهم، وقدم إلى محمد بعض حلله الخلافية الفاخرة، فتم الخلع، وذلك بعد أن مكث هشام في الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً وبضعة وآلت الخلافة في تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمٰن الناصر، وتلقب بالمهدي، وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى سنة **٣٩٩هـ** ١٦ فبراير سنة ١٠٠٩م[1].

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام، ملتفة حوله، مؤيدة لبيعته، واعتبروه بطلاً منقذاً، إذ كان أول من استطاع أن يثور في وجه بني عامر.

وفي اليوم التالي ١٨ من جمادى الأولى سنة **٣٩٩هـ**، ندب محمد بن هشام أو الخليفة المهدي، ابن عمه عبدالجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة، وهاجم قصر عبدالملك المظفر، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ونهبوه وتخاطفوا متاعه وذخائره، بالرغم من أن الذلفاء هي التي أمدت محمد بن هشام بعونها ومالها، واستسلمت الزاهرة لعبدالجبار الذي دخل لفوره قصر الزاهرة، وتم نهب القصر، واستصفى المهدي لنفسه الجواري، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة

---

(١) دولة الإسلام في الأندلس، د. عنان ع١ ق٢ ص٦٣٤.

ولدها عبدالملك وولده الصغير محمد، مطلقة السراح إلى دورها بالمدينة، وكانت لحرصها قد نقلت ما في الزاهرة ومعظم خزائن المال والمتاع، ولم يكتف المهدي بنهب وسلب الزاهرة، بل أمر بهدم صروحها وأسوارها، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة، فأصبحت أطلالاً موحشة[1].

علم عبدالرحمٰن المنصور أو (شبخول) بهذه الأخبار وهو في طليطلة، فغلبت عليه الحيرة، واضطرب جنده من حوله، وحاول عرض النزول عن ولاية العهد والعودة كما كان حاجباً، وحاول الخروج من هذا الموقف فسار شبخول في قواته صوب قرطبة، حتى انتهى إلى منزل هاني، وهي أقرب محلاته إلى المدينة، وما كاد الليل يرخي سدوله حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام، وأسفر الصبح مع نهاية جمادى الآخرة سنة **٣٩٩هـ**/ نهاية فبراير سنة **١٠١٩م**، فلم يبق إلى جانب عبدالرحمٰن سوى خاصته وحرمه وحشمه وجمع يسير من غلمانه، وغادر المعسكر تباعاً زعماء البربر، والفتيان الصقالبة، ووجوه الأندلسيين ونصحه أحد أصحابه بأن ينجو بنفسه وصحبه، فأبى النصيحة، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة، سارع الناس إلى نصرته[2].

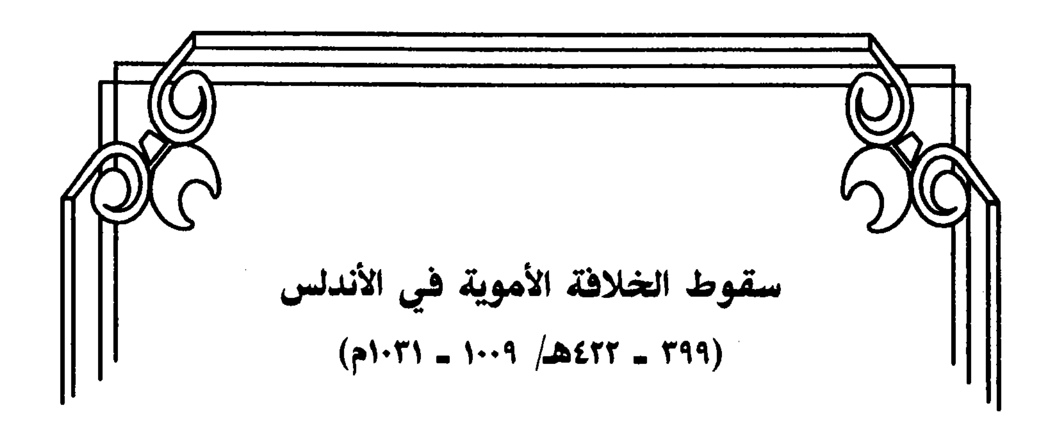
وسار شبخول في قواته صوب قرطبة، حتى انتهى إلى منطقة «منزل هاني» وهي أقرب محلاته إلى المدينة، وما كاد الليل يرخي سدوله حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام، وفي الصباح لم يبق إلى جانب عبدالرحمٰن سوى خاصته وحاشيته وجمع يسير من غلمانه، وأحد النصارى المؤيدين له وهو ابن غومس زعيم مقاطعة كريون في جليقية، ونصحه ابن غوس بأن يرجع وصحبه فأبى ولم يمض وقت طويل حتى قبض على شبخول وابن غومس، وقتل شبخول، وقتل ابن غومس، وكان مقتل عبدالرحمٰن المنصور في اليوم الثالث من رجب سنة **٣٩٩هـ**/ **٣** مارس **١٠٠٩م**.

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مدهشة لم يكن يتوقعها أحد.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر البيان المغرب، لابن عذاري جـ٣، ص٧٠.



سقوط الخلافة الأموية في الأندلس
(٣٩٩ ـ ٤٢٢هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠٣١م)

اعتلى محمد بن هشام بن عبدالجبار سدّة الخلافة في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ /١٦ شباط ١٠٠٩م) وتلقب بالمهدي[١].

وحاول إعادة الأمور إلى نصابها ولكنه فشل في إقامة توازن سياسي بينه وبين الأطراف المتنازعة.

وكان المهدي شخصية ضعيفة، متهورة، تحركها النزعات الخاصة، وليس لها هدف أسمى، فتحول إلى حاكم غير مرغوب فيه، وذلك لأنه أحاط نفسه ببطانة غير مرغوب فيها من السوقة من غير ذوي الخبرة ضارباً عرض الحائط بمصلحة العامة، مما أعطى الفرصة لبعض الفئات المناهبة نحو السلطة، والمشاركة في تفتيت دولة موحدة قوية للحصول على نصيبها منها، ومن هؤلاء الفتيان العامريون وأنصارهم من الصقالبة ومن والاهم من الجند المرتزقة، إلى وارثه هذه الأسرة، وكانوا قوة لا يستهان بها، ورغب البربر في الاستغلال بمناطق نفوذهم، وقد شكلوا عماد الجيش العامري، وتضاعف عددهم في أواخر أيام المنصور وخلفائه من بعده بما توافد منهم إلى الأندلس.

وكذلك شكل الشعب القرطبي الذي ساند محمد المهدي والتف حوله

---

(١) ابن عذارى جـ٣، ص٥٠.

قوة ضغط خطرة وفاعلة من بين هذه القوى ظهر البربر في وجه المهدي لإساقة لهم واشتغلوا وضع عميد الأسرة المروانية آنذاك سليمان بن هشام بن الناصر في السجن، وهو رجل طاعن في السن، سبق للمهدي أن عينه ولياً للعهد، لذلك فقد تزعم أحد أبناء سليمان بن هشام ويدعى هشام مجموعة من الفاخمين والمعارضين، ومجموعات من البربر، بهدف الإطاحة بالمهدي وبالفعل دار قتال عنيف بين الطرفين على مدى يومين أسفر عن انتصار المهدي الذي قام بقتل هشام وعدد من أتباعه، ثم هاجم دور البربر في شوال سنة ٣٩٩هـ/ حزيران ١٠٠٩م وانسحب البربر إلى أرملاط، إحدى ضواحي قرطبة، ثم غادروها إلى الشمال - وسار معهم سليمان بن الحكم وهو من بني أمية وابن أخ هشام بن سليمان، وقد رشحه البربر للخلافة ولقبوه بالمستعين.

وبذلك انقسمت البربر إلى قسمين، قسم يدعو لمحمد المهدي، وقسم يدعو ويؤيد البربر وسليمان المستعين، وتحول الوضع إلى كارثة حين قررت كل فئة من الفئتين المتنافستين الاستعانة بنصارى الشمال لتقوية موقفها، وتسابقت لاستقطاب ملك قشتالة، فلجأ إليه البربر، وفاوضه سليمان المستعين باسمهم. على أن يمدهم بالجند مقابل تسليمه بعض الحصون الواقعة على حدود نهر دويرة، وفي الوقت نفسه استقبل ملك قشتالة وفداً من «واضح» حاكم مدينة سالم، ورسالة من محمد المهدي من أجل هذه الغاية، وبعد أن قارن بين عرض كل منهم وتنازلات اختار البربر وقرر الوقوف إلى جانبهم[١]، وبدأ واضح مناوشة البربر فعرقل وصول المؤن لهم من مدن الثغر، ومنع السكان من تزويدهم بالغذاء. وبذلك يكون قد فرض عليهم حصاراً غذائياً، فتدخل ملك قشتالة لإنقاذهم فأمدهم بقطعان من الماشية وحمولة ألف عربة دقيق، وأردف ذلك بإرسال جيش إليهم[٢]. وفي المقابل أمد محمد المهدي «واضح» بالقوات فأرسل إليه قوة من قرطبة بقيادة

---

(١) ابن عذارى في البيان المغرب ج٣، ص٨٦، ٨٧.

(٢) المصدر السابق.

غلامه بليق، ولكن البربر هاجموا قوات واضح واستولى على معسكره وسلاحه، وفرّت فلوله إلى قرطبة منهزمة في ذي الحجة سنة ٣٩٩هـ[١].

وبعد ذلك زحفت قوات البربر المتحالفة نحو عاصمة الأندلس والتقت القوتين المتحاربتين عند سفح جبل قنتش شرقي قرطبة في يوم السبت (١٣ من ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ/ تشرين الثاني سنة ١٠٠٩م) فانهزمت القوات القرطبية، وارتدت منهزمة إلى وادي النهر، وطاردهم البربر، وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف، وثبت واضح حتى جن الليل، فانسحب تحت جنح الظلام فارّاً إلى الثغر[٢].

وفرّ محمد المهدي متنكراً إلى طليطلة، ودخل الزاوي بن زيري قصر الخلافة يوم الاثنين (١٥ ربيع الأول سنة ٤٠٠/ ٧ تشرين الثاني سنة ١٠٠٩م) وانضم إلى سليمان المستعين، وفي اليوم الثاني نودي به خليفة في المسجد الجامع، ثم منحه لقب المستعين بالله، واستقبله القرطبيون بحماسة شأنه شأن كل متغلب. وكلف المستعين حراسة بالحفاظ على حياة هشام المؤيد، ونزل البربر الزهراء بعيداً عن العامة وجاء شانجة غرشية ملك قشتالة إلى قرطبة فاستقبله الخليفة بالحفاوة ووعده البربر بتسليمه الحصون التي تعهدوا له بتسليمها إليه متى استقر سلطانهم، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك مائة فارس في ربض منية العقاب.

ولكن الأقاليم والولايات المختلفة رفضت الاعتراف بخلافة المستعين باستثناء ولايات الجنوب، كما أن سكان العاصمة قرطبة ازدادوا نقمة على البربر بعد أن أضحوا حكاماً في واقع الأمر.

وقرر سليمان المستعين قرر الخروج إلى قرطبة، وفي ١١ جمادى الآخر سنة ٤٠١/ ٣٠ كانون الثاني ١٠١٠م خرج نحو نهر التاجه، فرفضت

---

(١) المصدر السابق ص٨٧.

(٢) ابن عذارى ص٩٠.

طليطلة استقباله، ولكنه عاد إلى قرطبة لسوء الظروف المناخية[1]. وعلى الجانب الآخر اتصل واضح باثنين من أهم قادة الفرنجة هما رامون بوريل الثالث أمير برشلونة، وأرمنجو، أمير أورقلة، وأجرى معهما مباحثات حصل بنهايتها على دعمهما ولكن بمقابل هو:

١ ـ أن يدفع تعويضات مالية كبيرة، مائة قطعة ذهبية يومياً، بالإضافة إلى دينارين عن كل جندي.

٢ ـ أن يؤمن الغذاء والنبيذ للقوات النصرانية.

٣ ـ يحتفظ جنود النصارى بالغنائم التي يستولون عليها.

٤ ـ أن تكون مدينة سالم من نصيبهم (أي النصارى) وقد استولوا عليها بالفعل وهم في طريقهم إلى طليطلة بعد أن أخلاها المسلمون.

احتشد أربعون ألفاً بقيادة واضح، ربعهم من النصارى، وزحفوا إلى قرطبة، وانضم إليهم محمد المهدي في قواته، أما سليمان المستعين فلم يكن لديه من القوات إلاّ مجموعات من البربر، بعد رفض القرطبيين الانضمام إليه، وجرى الاشتباك عند مكان يعرف بعقبة البقر، في (١٥ شوال سنة ٤٠١هـ/ ٢٢ أيار ١٠١٠م)[2].

وفي البداية حقق البربر النصر، حتى أنهم قتلوا أرمخو، لكن فرقة أفرنجية اخترقت صفوف البربر، فانهار المستعين وظن أنه هزم، فأسرع بالهرب، رغم دعوة البربر له بالصمود، ولكن الجيش تفكك، فارتد البربر فوراً نحو مدينة الزهراء، فأخذوا أهلهم وذويهم وأموالهم، وغادروا مسرعين إلى الجنوب، وفر سليمان المستعين في بقية أتباعه شرقاً صوب قرطبة[3].

ودخل المهدي، وواضح قرطبة منتصرين، وجدد المهدي البيعة لنفسه بالخلافة وعين واضحاً في منصب الحجابة، وابتدأت مدة ولايته الثانية، ثم

---

(١) المصدر السابق جـ٣، ص٩٢، ٩٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن عذاري جـ٣، ص٩٥.

خرج لمطاردة البربر، ولحقهم عند وادي ياور في ٦ ذي القعدة سنة ٤٠١هـ/ ٢١ حزيران سنة ١٠١٠م وانتصر البربر هذه المرة، فقتلوا قرابة ثلاثة آلاف من أعدائهم، وغرق عدد غفير من هؤلاء، واستولى البربر على أسلحتهم وأمتعتهم[١].

وارتد المهدي إلى قرطبة وانغمس في شهواته، فحيكت ضده مؤامرة وقتل في ٨ ذي الحجة سنة ٤٠١/ تموز ١٠١٠م استرد هشام المؤيد الخلافة بعد أحداث دامية كثيرة، وتولى واضح منصب الحجابة وهدأت الفتنة، ولكن واضح تزعم الفتيان الصقالبة فقويت شوكتهم واستولوا على الشؤون العامة، وفي المقابل عادت قوة البربر للظهور، وما إن استعدوا حتى زحفوا نحو قرطبة، ووصلت جموعهم مدينة الزهراء فهاجموها وقضوا على حاميتها ودخلوها في (٢٣ ربيع الأول سنة ٤٠١هـ/ ٤ تشرين الثاني سنة ١٠١٠م) وكانوا قد أخضعوا جيان والبيرة ومالقة والجزيرة الخضراء جنوباً، واعترفت هذه المناطق بخلافة سليمان المستعين، ثم زحفوا نحو أرباض قرطبة، وعاثوا فيها ولما حاول واضح صدهم، تجنبوا الاشتباك مع جنده، في خطوة أدت إلى تذمر سكان، فازدادوا حقداً عليهم، ورغبة في الانتقام منهم[٢] وفي نفس الوقت وصل وفد من ملك قشتالة يطالب بتسليم الحصون التي فتحها المستنصر والمنصور في المناطق الحدودية، فوافق هشام وواضح على طلب ملك قشتالة (شانجة غرسية) لاتقاء عدوانه من جهة، ومنعاً لتحالفه مع البربر من جهة أُخرى.

استمر البربر في حصار قرطبة، وفاض نهر الوادي الكبير، بعد انقضاء فصل الشتاء والربيع، فجرفت المياه ألفي منزل في العاصمة، وساء الوضع، وقضى على عدد كبير من السكان، ولما شعر واضح بصعوبة الوضع حاول الهروب سراً فقبض عليه ابن وداعة أحد قادة الجند بعد أن كشف أمره وقتله في (١٥ ربيع الآخر ٤٠٢/ تشرين الثاني ١٠١١م) وازداد الوضع سوءاً في

---

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ج٢، ص١٠٩.

(٢) بروفنسال، مصدر سابق ص٥٢١.

قرطبة وعجز هشام المؤيد عن إيجاد حلول، فاعتذر لقصوره، وفوض سكان قرطبة لعمل ما يرونه مناسباً ونشبت معارك بين القرطبين والبربر أسفرت عن انتصار البربر فاضطر القرطبيون إلى طلب الأمان، فمنحوا إياه مقابل مبالغ باهظة مع ذلك فقد استعمل البربر الشدة في معاملة السكان، وفتكوا بكثير منهم، وسلبوا الدور، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم، وكانت محنة من أقسى ما شهدته عاصمة الخلافة[١].

وعلى أثر ذلك دخل سليمان المستعين في اليون التالي قصر قرطبة وأعلن نفسه خليفة للمرة الثانية، ثم استدعى سليمان المؤيد وعنفه على موقفه فاعتذر بأنه لا حول له ولا قوة، وأكد له أن اعتلاءه العرش مرة ثانية كان بسبب الضغط الواقع عليه، وأنه تنازل للمرة الثانية، عن الخلافة لصالحه[٢].

واختفى هشام من مسرح الأحداث بعد ذلك حيث قيل أنه قتل في روايات مختلفة. واقتصر نفوذ الحكومة المركزية على قرطبة، في ظل الفوضى التي تعم الأقاليم وطلب البربر من سليمان المستعين في ظل هذا التفكك أن يقطعهم كور الأندلس الجنوبية والوسطى بحجة ضمان مستقبلهم فوافق على ذلك[٣].

وهكذا حصلت صنهاجه على ولاية البيرة بكاملها، ومغراوة على الأحياء الشمالية من العاصمة، وبني برزال وبني يغرن على ولاية جيان والأراضي التابعة لها، توالى بعد ذلك حكم البربر، وتولى علي بن حمود قيادة الجبهة المعارضة للمستعين، فزحف بتأييد البربر، إلى قرطبة، ولما تصد له سليمان المستعين، هزمه هزيمة قاسية وأسره، ودخل علي بن حمود العاصمة في ٢٢ محرم ٤٠٧هـ/ أول تموز سنة ١٠١٦م)[٤] وعندما تأكد من

(١) ابن خلدون جـ٤، ص١٥١، ١٥٢.
(٢) ابن عذاري جـ٣، ص١١٣.
(٣) المعجب للمراكشي ص٣٢.
(٤) ابن عذاري جـ٣، ص١٢٠.

مقتل هشام المؤيد، اتهم سليمان المستعين بمقتله، وقتله من أجل ذلك، ونصب نفسه خليفة في قرطبة، واتخذ اللقب الشرقي الذي كان لعبدالرحمٰن الثالث وهو الناصر لدين الله[١].

نظر القرطبيون إلى علي بن حمود على أنه أجنبي اغتصب السلطة، وجاهروا بتأييدهم لقضية الأموي المرتضى، وهو الرجل الذي رشحه الصقالبة في الأقاليم الساحلية الشرقية، وخشي خيران العامري، الذي دخل قرطبة مع علي بن حمود، من سطوة هذا الأخير، فغادر المدينة وسار إلى الشرق حيث يحتشد معظم الزعماء العامريين من الصقالبة وقد أعادوا الدعوة لبني أمية، ورشحوا عبدالرحمٰن بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحمٰن الناصر ولقبوه بالمرتضى. وانضم إليهم المنذر بن يحيى التجيبي، والي سرقسطة والثغر الأعلى، بالإضافة إلى ولاة شاطبة وبلنسية وطرطوشة وغيرها[٢]. وأعلن المرتضى معارضته لعلي بن حمود الناصر. وفي ظل حكم بوليس لقرطبة تميز بالقسوة جاءت أخبار استدعاء المرتضى وإقصاء الناصر عن كرسي الخلافة، فقرر علي بن حمود الناصر الخروج إلى جيان لمقاتلته وصده قبل أن يصل إلى قرطبة، وفي الوقت الذي كان يستعد لذلك، قام ثلاثة من الخدم الصقالبة في القصر، من موالي بني أمية، بالهجوم عليه، وهو في الحمام، وقتلوه، وذلك في (٢ ذي القعدة ٤٠٨هـ/ ٢٢ آذار سنة ١٠١٨م)[٣] ولكن عبدالرحمٰن المرتضى قتل قبل أن يصل إلى قرطبة، وذلك عندما سار بجموعه أولاً إلى غرناطة لمهاجمة الصنهاجيين بقيادة زاوي بن زيري، وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية انتهت بهزيمته ومقتله وتفرق جيشه[٤]. واضطربت الأوضاع السياسية في البلاد بعد مقتل علي بن حمود حتى واستمرت الفتن والصراعات، التي أفرزت وضعاً عجيباً وهو أن هناك خليفتان متجاوران وهما القاسم بن حمود، أخا علي، وكان خليفة على

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن عذارى جـ٣، ص١٢١، ١٢٢.

(٣) المعجب للمراكشي ص٣٧.

(٤) ابن عذارى جـ٣، ص١٢٥، ١٢٦.

إشبيلية وتلقب بالمستعلى، والثاني ابن أخيه يحيى الذي رفعه البربر إلى العرش وتلقب بالمعتلي بالله، وهو أمر غريب لم يسمع من قبل مما يدل على انهيار الدولة وتراجع أمورها[1].

وبعد قليل عزل البربر أنفسهم يحيى المعتلي بسبب تعاليه وكبريائه الشديد فغادر قرطبة إلى مالقة، وعاد عمه القاسم إلى قرطبة بدعوة من البربر ليتولى السلطة فيها، ولم يدم حكمه طويلاً (بضعة أشهر) لانحيازه للبربر فخلعوه، واصطدموا بالبربر، واضطر الخليفة إلى مغادرة المدينة إلى إشبيلية، لكن صُدّ عنها، فذهب إلى بلدة شرليش، وقام القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد بضبط الأمور في قرطبة. واستولى يحيى المعتلي على شريش وسجن عمه القاسم وبسط سيادته على شرليش وملقة وسبتة وطنجة، وبايعه البربر بالخلافة، واستمر القاسم في السجن إلى أن مات خنقاً في عام ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م[2].

وبدأ الانهيار لدولة الخلافة في الأندلس تباعاً بسبب هذه الصراعات المتشعبة، إلى أن خلع هشام الثالث المعتد، فكانت النهاية إلى الأبد، فانقطع ذكرها على منابر الأندلس والمغرب الأقصى.



أسباب سقوط الخلافة الأندلسية

من أسباب السقوط ما يلي:

١ ـ تعتبر عملية السقوط قد جاءت منذ استيلاء محمد بن أبي عامر على السلطة وإلغاءه الدور المعتاد للخلافة كنظام ديني سياسي.

٢ ـ ارتباط الخلافة بفرد عندما ثبت ذلك في عهد عبدالرحمٰن الناصر، لقيامه بدور الخليفة القوي، إلا أنها غابت بعد وفاته.

(١) المصدر السابق ص١٣٢، ١٣٣.

(٢) المراكشي، مصدر سابق ص٣٩.

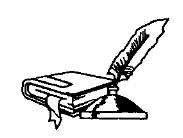
٣ ـ التفكك الواضح في المجتمع الأندلسي، من عرب وبربر وصقالبة ومولدين ومستعربين ويهود.

٤ ـ التفاوت في توزيع الثروات، وتباين أوضاع الأندلس الاجتماعية والاقتصادية.

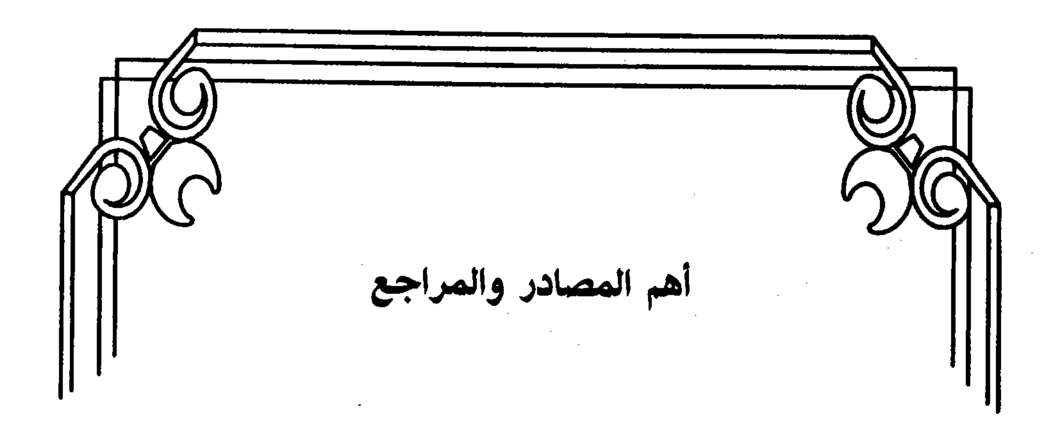
٥ ـ انقسام القوة المسلحة، والاستعانة بالنصارى في الشمال مقابل تنازلات لذلك وغيره من مسالب سقط الخلافة الأندلسية في الأندلس، بعد ردح من الزمان كانت فيه آية في القوة والجمال، والوحدة والكمال، ولكن تبقى مشيئة الله، التي انصرفت كي ينهار هذا الصرح، لأن الفجور والظلم نخر جسده القوي.

عبدالمنعم الهاشمي

القاهرة ٢٠٠٦م







أهم المصادر والمراجع

١ - **الحلة السيراء**: لابن الآبار القضاعي، د. حسين مؤنس، ط٦٧، مصر.
٢ - **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
٣ - **الإحاطة في أخبار غرناطة**: لابن الخطيب، العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.
٤ - **المغرب في جلى المغرب**: ابن سعيد الغرناطي، العلمية، بيروت، ١٩٩٧.
٥ - **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**: للسلاوي، الدار البيضاء، ١٩٩٥.
٦ - **فتوح مصر وأخبارها**: لابن عبدالحكم.
٧ - **البيان المغرب**: لابن عذارى، دار الثقافة، ط٥، ١٩٩٨.
٨ - **تاريخ افتتاح الأندلس**: لابن القوطية، مؤسسة المعارف، بيروت.
٩ - **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**: المراكش، بيروت، العلمية.
١٠ - **نفح الطيب للمقري**: العلمية، بيروت، ١٩٩٥.
١١ - **أخبار مجموعة في فتح الأندلس**: مؤلف مجهول، دار أسامة، دمشق.
١٢ - **تاريخ غزوات العرب**: شكيب أرسلان، العلمية، بيروت.
١٣ - **تاريخ إسبانيا الإسلامية**: ليفي بروفنسال، القاهرة، ط٢٠٠٠.
١٤ - **الدولة العربية في الأندلس**: إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠.
١٥ - **التاريخ الأندلسي**: د. عبدالرحمن الحجي، دار القلم، دمشق.
١٦ - **المسلمون في الأندلس**: رينهات دوزي، مصر ٩٤، هيئة الكتاب.
١٧ - **في التاريخ العباسي والأندلسي**: أحمد مختار الصمادي، النهضة العربية، بيروت.
١٨ - **فجر الأندلس**: حسين مؤنس، دار المناهل، العصر الحديث، بيروت ٢٠٠٢.
١٩ - **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**: خليل إبراهيم السامرائي وآخرين، بيروت.

٢٠ ـ **الحروب الصليبية في الأندلس**: عبدالمحسن طه رمضان، النهضة المصرية، مصر ٢٠٠١م.

٢١ ـ **تاريخ علماء المسلمين**: لابن الفرضي، العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

٢٢ ـ **جمهرة أنساب العرب**، لابن حزم، العلمية، بيروت ط ٢٠٠١.

٢٣ ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، للحميدي، العلمية، بيروت.

٢٤ ـ **تاريخ ابن خلدون (العبر في ديوان المبتدأ والخبر)**، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت ١٩٧٩م.

٢٥ ـ **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، صادر، بيروت ط ١٩٧٧.

٢٦ ـ **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار بيروت، ١٩٧٩م.

٢٧ ـ **صبح الأعشى**، للقلقشندي، العلمية، بيروت ط١، ١٩٨٧م.

٢٨ ـ **البداية والنهاية**، دار المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧.

٢٩ ـ **دولة الإسلام في الأندلس**، د. محمد عبدالله عنان، نشر الخانجي، مصر.

١ ـ العصر الأول، القسم الأول ط٣، ١٩٨٨.

٢ ـ العصر الأول، القسم الثاني ط٣، ١٩٨٨.

٣ ـ العصر الثاني، ط٣، ١٩٨٨.

٤ ـ العصر الثالث، القسم الأول، ط٢، ١٩٩٠.

٥ ـ العصر الرابع، ط٤، ١٩٨٧.

٣٠ ـ **في تاريخ المغرب والأندلس**، د. العبادي، المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

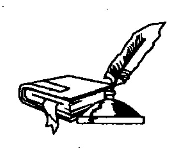
٣١ ـ **نهاية الإرب**، للنويري، مصر، دار الكتب المصرية.

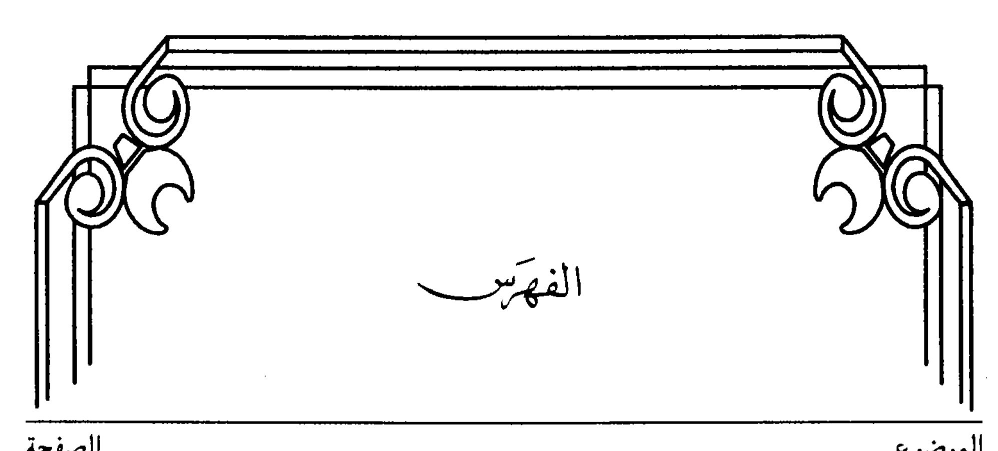
٣٢ ـ **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، مؤلف مجهول، نشر علوش الرباط ١٩٣٦.

٣٣ ـ **مروج الذهب ومعاون الجوهر**، للمسعودي ٤ أجزاء، القاهرة ١٣٤٦هـ.

٣٤ ـ **ديوان ابن دراج القسطلي**، نشر محمود مكي (دمشق ١٩٦١م).

٣٥ ـ **المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب**، للبكري، الجزائر ١٩١١.





الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهـداء	٥
مقدمـة	٧
الفتوحات الإفريقية	٩
فتح برقة	١١
فتح فزّان وطرابلس	١٢
فتح إفريقية	١٤
أحوال إفريقيا وقت الفتح الإسلامي	١٩
استئناف الفتح	٢٢
١ ـ غزوة معاوية بن حُدَيج التجيبي سنة ٤٥هـ (٦٦٥م)	٢٢
٢ ـ عقبة بن نافع وفتوحاته والقيروان	٢٣
٣ ـ بناء القيروان	٢٥
٤ ـ ولاية أبي المهاجر دينار	٢٩
عبدالملك بن مروان واسترداد القيروان	٣٢
حسان بن النعمان في إفريقية	٣٤
موسى بن نصير والطريق إلى الأندلس	٣٧
فتح هوارة وزناتة وكتامة	٤١
فتح صنهاجة	٤٢
الأندلس قبل الفتح الإسلامي	٤٧
القوط وإسبانيا (الأندلس)	٥٢
فتح الأندلس	٥٨

الموضوع	الصفحة

معركة وادي لكة ٦٢
موسى بن نصير في الأندلس ٦٨
موسى وطارق معاً على الطريق ٧١
موسى يعود إلى دمشق ٧٤
أيام موسى بن نصير الأخيرة ٧٦
أيام طارق بن زياد الأخيرة ٧٩
مصير الكونت يوليان ٨٠
الأندلس بعد الفتح الإسلامي ٨٢
تقسيم الأندلس إلى ولايات ٨٤
ولاية عبدالعزيز بن موسى بن نصير (أول ولاة المسلمين للأندلس) ٨٦
ولاية أيوب بن حبيب، والحر بن عبدالرحمٰن الثقفي ٨٨
ولاية السمح بن مالك الخولاني ٩٠
عبور السمح بن مالك إلى فرنسا ٩٢
عبدالرحمٰن الغافقي والياً على الأندلس ٩٤
ولاية عبدالرحمٰن الغافقي الثانية سنة ١١٣هـ ٩٧
معركة بلاط الشهداء ١٠٠
حالة الجيش الإسلامي قبل القتال ١٠٣
بدء المعركة ١٠٤
المسلمون في الأندلس بعد معركة بلاط الشهداء ١٠٧
الخلافة الأموية والأندلس ١١١
النهاية في المشرق والبداية في المغرب ١١٣
عصر الولاة والتمهيد لقيام الدولة ١١٩
النزاعات والخلافات بين العرب وبين أنفسهم ونزاعهم مع البربر ١٢٣
قدوم أبي الخطار من إفريقية ١٢٧
الصُّميل بن حاتم ويوسف الفهري ١٢٨
الزعيم اليمني يحيى بن حريث ١٢٩
عصر الإمارة ـ عبدالرحمٰن الداخل ـ ١٣١

الموضوع	الصفحة

قصة المطاردة الدموية ١٣٢
الفرار الشهير ١٣٣
الاختراق ١٣٥
التمهيد لدخول الأندلس ١٣٨
العبور إلى الأندلس ١٤١
يوم المسارة ١٤٥
عبدالرحمٰن في مواجهة الثورات والفتن ١٥١
أولاً - تعقُّب يوسف الفهري والصُّميل ١٥١
ثانياً - أول الخوارج في إشبيلية ١٥٤
ثالثاً - ثورة زعيم اليمانية في إشبيلية ١٥٥
رابعاً - ثورة الحضرمي في إشبيلية ١٥٥
خامساً - ثورة الفهري في طليطلة ١٥٥
سادساً - ثورة العلاء اليحصبي في باجة ١٥٦
سابعاً - ثورة هشام الفهري في قرطبة ١٥٨
ثامناً - ثورة سعيد اليحصبي (المطري) ١٤٩هـ/ ٧٦٦هـ ١٥٨
تاسعاً - ثورة أبو الصباح بن يحيى اليحصبي سنة ١٥٠هـ ١٥٩
عاشراً - ثورة البربري شقيا بن عبدالواحد ١٦٠
موقعة رونسڤال (باب شزروا) ١٦٤
مواجهات جديدة في الجنوب ١٧٤
ثورة عبدالرحمٰن الفهري في شرق الأندلس ١٧٤
ثورات الشمال ١٧٦
مؤامرة ابن أخيه المغيرة، وهذيل ولد الصُّميل بن حاتم ١٧٨
مَن يكون هذا الرجل؟ ١٨٢
الصرامة والعنف ١٨٣
الغايات والأساليب ١٨٤
الخلال والصفات الباهرة ١٨٥
الإمارة والدولة ١٨٨

الموضوع	الصفحة

نظام الحكومة في عهد عبدالرحمٰن الداخل ١٩٢
سياسة عبدالرحمٰن نحو نصارى العرب والشمال ١٩٣
مواهب عبدالرحمٰن الداخل الإدارية ١٩٤
عناية عبدالرحمٰن الداخل بالجيش ١٩٤
عنايته بقرطبة ١٩٥
عبدالرحمٰن الداخل الإنسان ١٩٧
عبدالرحمٰن الشاعر والأديب ١٩٧
عبدالرحمٰن المفترى عليه ٢٠٠
أبناء عبدالرحمٰن الداخل هشام بن عبدالرحمٰن بن معاوية ٢٠٤
التعريف بهشام ٢٠٤
هشام ولي العهد والأمير بعد أبيه ٢٠٥
صور من حياة هشام ٢٠٧
ثورات إخوته ضده ٢١٣
هشام والثورات الداخلية ٢١٦
الحرب ضد الفرنج (نصارى الشمال) ٢١٨
هشام الإنسان ورجل الإنجازات ٢٢٠
مذهب الإمام مالك في الأندلس ٢٢٣
وداعاً الأمير هشام ٢٢٦
الأمير الحكم بن هشام الربضي ٢٢٨
معاركه مع أخويه ٢٢٩
ثورة ماردة ٢٣٣
ثورة الربض ـ الثورة الأولى ٢٣٥
الثورة الثانية ٢٣٧
معارك الحكم مع الفرنج ٢٤٥
معركة قشتالة ٢٤٧
الهجوم على برشلونة ٢٤٩
سقوط تطيلة واستردادها ٢٥٠

الموضوع	الصفحة

هزيمة ملك الفرنج ٢٥١
هل أغاثكم الحكم؟ ٢٥٣
في مواجهة الجلالقة والباسك ٢٥٦
في وداع الحكم بن هشام ٢٥٨
الحكم بن هشام صورة ومنهج ٢٥٩
منهج الحكم في العمارة والموالي والحرس وغيره ٢٦١
الحكم شاعراً وناثراً وخطيباً مفوهاً ٢٦٢
شخصيات وأعلام في عصر الحكم ٢٦٣
١ ـ عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث وآخرون ٢٦٣
٢ ـ أبو القاسم عباس بن فرناس ٢٦٤
٣ ـ يحيى الفزان الجياني ٢٦٤
وفاة الحكم بن هشام ٢٦٦
الأمير عبدالرحمٰن بن الحكم ٢٦٧
(عبدالرحمٰن الأوسط) ٢٦٧
وزراؤه وقادته ٢٦٨
كتّابه وفقهاؤه وقضاته ٢٧٠
اصطفاؤه الموالي والصقالبة ٢٧١
الفتى نصر قائد الجيوش وصاحب النفوذ ٢٧١
مؤامرة الفتى نصر وطروب على عبدالرحمٰن الأوسط ٢٧١
اقتناء عبدالرحمٰن للجواري الحسان ٢٧٣
العمارة في عصر عبدالرحمٰن الأوسط ٢٧٣
الثورات والفتن الداخلية في عهد الأوسط ٢٧٥
برنامج عبدالرحمٰن الأوسط في الغزو والجهاد ٢٧٦
الثغر القوطي ٢٧٧
ثورة ماردة ٢٧٨
ثورة طليطلة ٢٨٠
المعارك الخارجية في عهد الأوسط ٢٨٢

الموضوع	الصفحة

النورمانديون في الأندلس ٢٨٤

غزوة النورمانديين للأندلس ٢٨٥

غزو جزر البليار ٢٨٩

موقعة البيضاء ٢٩٠

أيام عبدالرحمٰن الأوسط ٢٩١

عبدالرحمٰن والأدب والثقافة ٢٩١

زرياب أحد شخصيات ثلاثة ٢٩٤

١ ـ الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثي ٢٩٤

٢ ـ زرياب ٢٩٥

٣ ـ طروب ٢٩٦

أعمال الدولة الإدارية في عهد عبدالرحمٰن الأوسط ٣٠٠

عبدالرحمٰن والثقافة والمثقفين وخاصة عباس بن فرناس ٣٠٤

الغزال سفير عبدالرحمٰن الداهية ٣٠٦

السفير يحيى الغزال ٣٠٦

وفاة عبدالرحمٰن الأوسط ٣٠٩

الأمير محمد بن عبدالرحمٰن بن الحكم ٣١٠

الأمير وولي العهد ٣١٠

كيف مهّد الأمير عبدالرحمٰن لولاية محمد ٣١٠

محمد بن عبدالرحمٰن أميراً على الأندلس ٣١٢

صورة من قريب: الخزان والصك ـ بقي بن مخلد ـ هاشم مرة أخرى .. ٣١٣

الثورات في عهد الأمير محمد بن عبدالرحمٰن ٣١٧

أولاً ـ ثورة طليطلة ٣١٧

ثانياً: ثورة ماردة ٣٢٢

ثالثاً: ثورة رَيَّة وتاكرتا ٣٢٥

عمر بن حفصون ٣٢٦

معارك مع النورمانيين ٣٢٨

الأمير محمد بن عبدالرحمٰن من خيرة أمراء بني أمية ٣٣٠

الموضوع	الصفحة

اهتمامه بالجيش والثغور ٣٣٠
الضرائب والنفقات ٣٣٢
النظام الإداري في عهد الأمير محمد ٣٣٢
حبه للأدب والشعر ٣٣٤
وفاته ٣٣٤
الأمير المنذر بن محمد بن عبدالرحمٰن ٣٣٥
الأمير المنذر ـ بطاقة تعريف ٣٣٥
بيعته ٣٣٥
قضاؤه على الحاجب هاشم بن عبدالعزيز ٣٣٧
معاركه مع ابن حفصون ٣٣٩
الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمٰن ٣٤٣
عبدالله بن محمد أميراً على الأندلس ٣٤٤
موقعة بلاي وإستجة ٣٤٦
مجمل ثورات الأندلس في عهد الأمير عبدالله ٣٤٩
أولاً ـ ثورة العرب (أو القبائل العربية) ٣٤٩
ثانياً ـ المولدون ٣٥١
ثالثاً: البربر ٣٥٢
رابعاً: الفتنة بين المولدين والعرب ومعهم النصارى ٣٥٣
● **أولاً**: في إشبيلية ٣٥٣
● **ثانياً**: الفتنة في البيرة ٣٥٨
● **ثالثاً**: الفتنة في لبلة ٣٦٠
مقتل محمد ثم مطرِّف ابني الأمير ٣٦١
العلاقات الخارجية في عهد عبدالله ٣٦٣
أولاً: العلاقة مع مملكة أشتوريس ٣٦٣
ثانياً: العلاقة مع إمارة نبَّرة ٣٧٠
ثالثاً: العلاقة مع الثغر القرطبي ٣٧٢
رابعاً: فتح الجزائر الشرقية ٣٧٢

الموضوع	الصفحة

خامساً: المسلمون في بروڤانس ٣٧٣
وفاة الأمير عبدالله ٣٧٤
الأمير عبدالرحمٰن الناصر (عبدالرحمٰن الثالث ٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م) ٣٧٦
نشأته، بيعته بالخلافة .... ٣٧٦ ـ ٢٧٧
مناوشات في البداية ٣٧٩
صراع مع ابن حفصون ٣٨٠
أولاً: من هو ابن حفصون؟ ٣٨٠
ثانياً: معاركه مع ابن حفصون وأتباعه ٣٨٣
غزوة عبدالرحمٰن الثانية إلى ريَّة والجزيرة ٣٨٦
ميلاد الحكم بن عبدالرحمٰن الناصر ٣٨٧
محنة عابرة ٣٨٧
إخضاع أوريولة ولبلبة، وفتح ببشتر ٣٨٩
ابن حفصون يطلب الصلح ٣٩٠
وفاة ابن حفصون ٣٩١
أبناء ابن حفصون ٣٩٢
فتح ببشتر ٣٩٥
القضاء على ثوار طليطلة ٣٩٨
إعلان عودة الخلافة ٤٠٠
البواعث الخفية والظاهرة لإقامة الخلافة ٤٠١
الناصر وحلم توحيد العالم الإسلامي ٤٠٧
الناصر في مواجهة الخطر الخارجي ٤٠٨
دولة الأدارسة (١٧٢ ـ ٣٦٣هـ) ٤١٣
حركة الداعي الفاطمي أبو عبدالله الشيعي الحربية ٤١٣
الصراع مع إسبانيا النصرانية ٤٢٨
الصراع بين عبدالرحمن الناصر وأردنيو ملك ليون ٤٣٠
أولاً: مهاجمة أردنيو لكل من يابرة ومارورة وبطليوس ٤٣٠
١ ـ العدوان على يابرة في القرب ٤٣٠

الموضوع	الصفحة

٢ ـ العدوان على ماردة وبطليوس ٤٣١
٣ ـ معركة شنت اشتبين ٤٣٣
٤ ـ حملة سرقسطة ٤٤٠
٥ ـ موقعة الخندق ٤٤٥
كتاب الناصر عن موقعة الخندق ٤٤٧
الصقالبة ٤٥٠
٦ ـ النورمانديون وعبدالرحمٰن الناصر ٤٥١
حوادث داخلية في عهد عبدالرحمن ٤٥٣
وقوع المجاعة في الأندلس ٤٥٣
وقوع حريق بقرطبة ٤٥٥
حركة المتصوف ابن مسرة الجبلي ٤٥٥
عصر الناصر أعظم عصور الأندلس ـ بناء مدينة الزهراء ٤٥٨
اهتمام الناصر بالجيش ٤٦٣
الحالة الاقتصادية ٤٦٤
علاقاته الدبلوماسية ٤٦٥
خواص عبدالرحمٰن وخواص عصره ٤٧٠
الناصر أديباً وشاعراً ٤٧٢
من أخلاق الناصر ٤٧٣
وفاته ٤٧٤
الخليفة الحكم المستنصر بالله (الحكم الثاني) ٤٧٥
نسبه ومولده ٤٧٦
صفة الحكم ٤٧٦
الحكم المستنصر ٤٨١
سياسته إزاء صراع أمراء النصارى ٤٨١
غزوة الحكم المستنصر لنصارى الشمال ٤٨٤
النورمان يغزون الأندلس ٤٨٨
صراع الحكم المستنصر مع الفاطميين في المغرب ٤٩٠

الموضوع	الصفحة

١ ـ مع الأدارسة ٤٩١
٢ ـ صراع الزناتيين والصنهاجيين ٤٩٢
٣ ـ عودة غالب منصوراً ٤٩٧
أحداث داخلية هامة ٤٩٩
١ ـ نكبة جعفر ويحيى ابني علي بن حمدون الأندلسي ٤٩٩
٢ ـ إسقاط الضرائب ٥٠٠
٣ ـ تحركات النصارى ومواجهتها ٥٠٠
هجوم النصارى المباغت ٥٠١
هشام ولي العهد ٥٠٢
جهود الحكم الثاني المستنصر العلمية والثقافية ٥٠٣
شخصيته ورجاله والحاجب جعفر بن عثمان المصحفي .... ٥٠٩ ـ ٥١٠
غالب بن عبدالرحمٰن ٥١١
وفاة الحكم ٥١٢
هشام المؤيد: نسبه ونشأته ـ تولية هشام بداية المؤامرة ٥١٣
الأميرة صبح ومحمد بن أبي عامر شخصيتان مؤثرتان ٥١٦
الأميرة صبح (توفيت سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م) ٥١٧
محمد بن أبي عامر: نسبه، مولده .... ٥١٩ ـ ٥٢٠
ابن أبي عامر يصفي خصومه ٥٢٣
أولاً: تصفية الصقالبة ٥٢٣
ثانياً: تصفية المصحفي ٥٢٦
الدولة العامرية (٣٦٨ ـ ٣٩٩هـ/ ٩٧٨ ـ ١٠٠٩م) ٥٣١
إنشاء مدينة الزاهرة ٥٣١
موقف السيدة صبح من ابن أبي عامر ٥٣٢
التخلص من غالب بن عبدالرحمٰن رغم المصاهرة ٥٣٤
تخلص ابن أبي عامر من جعفر بن علي ٥٣٦
التلقب بألقاب الخلافة ٥٣٧
جهاده ضد الممالك المسيحية في شمال إسبانيا ٥٣٧

الموضوع	الصفحة

المنصور ابن أبي عامر في بلاد المغرب ٥٤٠
ثورة الزعيم المغربي زيرى بن عطية المغراوي الزناتي سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م ٥٤٣
المنصور إدارياً ومعمارياً فذاً ٥٤٧
أعماله الإنشائية ٥٤٨
من صفات المنصور وخلاله: صفاته العلمية ٥٥٠
وصية ابن أبي عامر لولده عبدالملك ٥٥٤
وفاة المنصور ابن أبي عامر ٥٥٥
عبدالملك المظفر بالله ٥٥٦
عهد عبدالملك ـ طريق عبدالملك ٥٥٧
غزوات عبدالملك ٥٥٩
أولاً: الغزوة الأولى ٥٥٩
ثانياً: غزوة عبدالملك الثانية ٥٦٠
ثالثاً: غزوة عبدالملك الثالثة ٥٦١
رابعاً: غزوة بنبلونة ٥٦١
خامساً: غزوة قلونية (٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م) ٥٦٢
سادساً: الغزوة السادسة ٥٦٥
سابعاً: غزوة العلة صيف ١٠٠٨م ٥٦٥
صراع داخل القصور العامرية ٥٦٦
مؤامرة عيسى على بني عامر ٥٦٨
من صفات عبدالملك المظفر ٥٧٠
عبدالرحمٰن المنصور ونهاية الدولة العامرية ٥٧١
مرسوم هشام بتولية العهد لعبدالرحمٰن العامري ٥٧٤
ثورة محمد بن هشام الأموي ٥٧٨
سقوط الخلافة الأموية في الأندلس (٣٩٩ ـ ٤٢٢هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠٣١م) ٥٨١
أسباب سقوط الخلافة الأندلسية ٥٨٨
● **أهم المصادر والمراجع** ٥٩١
● **الفهرس** ٥٩٣